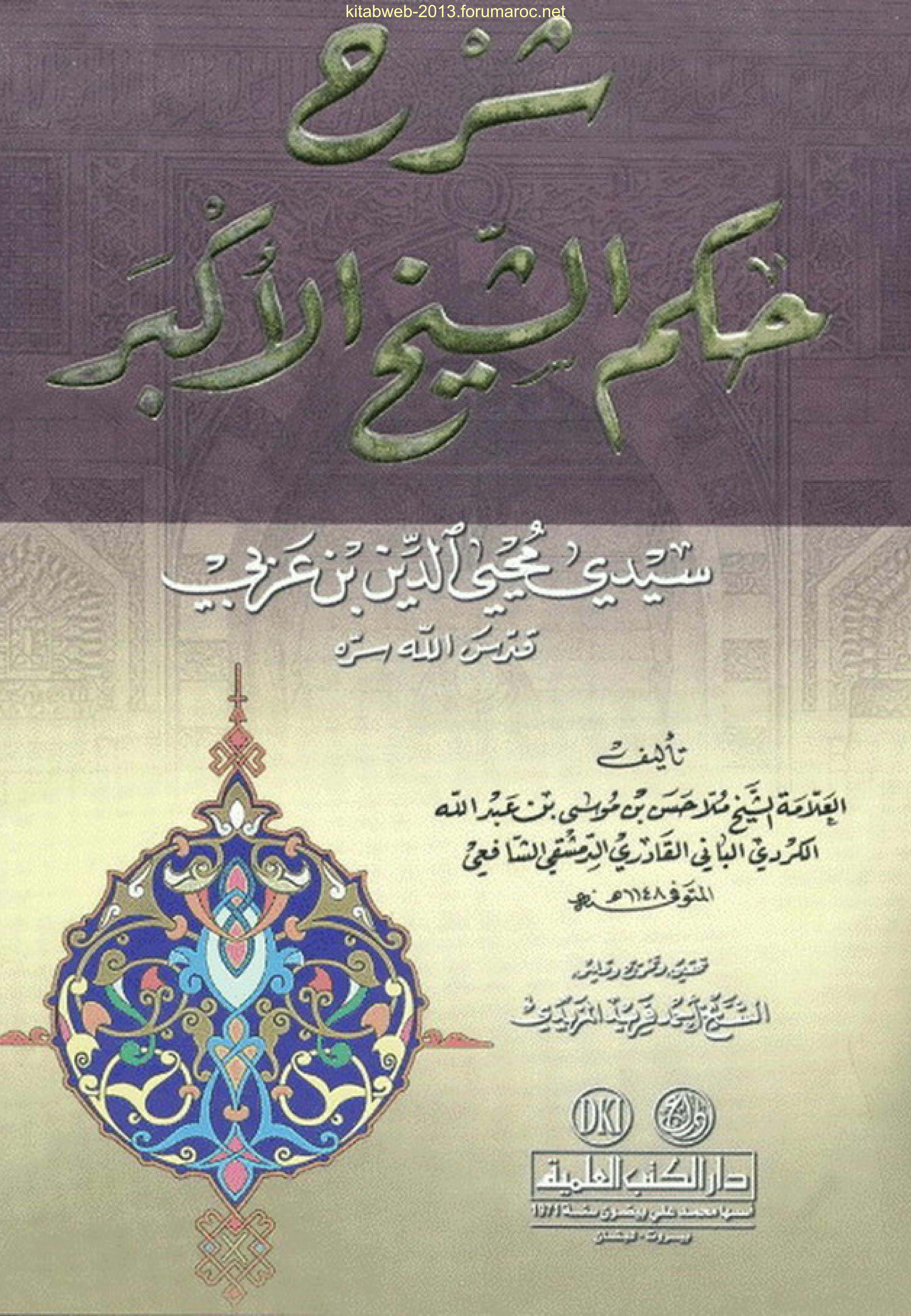


kitabweb-2013.forumaroc.net
شرح
حكم الشيخ الأكبر
سيدي محيي الدين بن عربي
قدس الله سره
تأليف
العلامة الشيخ ملا حسن بن موسى بن عبد الله
الكردي الباني القادري الدمشقي الشافعي
المتوفى ١١٤٨هـ
تحقيق وتخريج وتعليق
الشيخ أحمد فريد المزيدي
DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة ١٩٧١
بيروت - لبنان

شرح

حكم الشيخ الأكبر

سيدي محيي الدين بن عربي

قدس الله سره

تأليف

العلامة الشيخ ملا حسن بن موسى بن عبد الله

الكردي الباني القادري الدمشقي الشافعي

المتوفى ١١٤٨ هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي





الطبعة الأولى
٢٠٠٦ م - ١٤٢٧ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٧٨٥٤٢ ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١ ٠٠ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١ ٠٠ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

Title: Šarḥ ḥikam al-šayḫ al-ʾakbar
(Explanation of Ibn 'Arabi's maxims)
Author: Mulla Ḥasan ben Mūsa al-Bāni
Editor: Aḥmad Farīd al-Miziyadi
Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah
Pages: 488
Year: 2006
Printed in: Lebanon
Edition: 1st

الكتاب: شرح حكم الشيخ الأكبر
المؤلف: الشيخ ملاّ حسن بن موسى الباني القادري
المحقق: الشيخ أحمد فريد المزيدي
الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت
عدد الصفحات: 488
سنة الطباعة: 2006 م
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الأولى





مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد سادات المرسلين، سيدنا ونبيّنا ومولانا النبي العربي الزكي الأمين، محمد أبي القاسم علة المخلوقين، وعلى آله وأصحابه الكرام الطاهرين أجمعين، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد.. فهذا درة نفيسة من نفائس موسوعة الحكم وشروحه التي أخرجنا منها عددًا ليس بالقليل، بل هذا الكتاب من أنفسها وأجلها، حيث الناطق بها الشيخ الأكبر، الكبريت الأحمر ختم الولاية سيدي ابن عربي قُدِّس سره.

وشارحها من كلام الشيخ في الفصوص والفتوحات، وغير ذلك من الأنوار المباركات، سيدي الشيخ حسن بن موسى الباني الكردي القادري، نزيل دمشق.

صاحب شرح مواقع النجوم، وحاشية على شرح العقائد لابن أبي زيد القيرواني، وشرح عوامل الجرجاني، شرح تصريف الغزي، وغيرها.

وهو من تلاميذ سيدي عبد الغني النابلسي قدس الله سرهما العزيز.

والشيخ ابن عربي شهرته تغني عن التعريف به.

وقد قمت بتحقيقها على نسخة دار الكتب المصرية، ونسخها وضبطها، والتعليق عليها حسب فتح الله علينا، والعزو والتخريج.

هذا... ولا يسعني إلا أن أتقدم بخالص الشكر والاعتراف بالجميل إلى سيدي شارح وفاكك رموز كتب سيدي محيي الدين بن عربي.

الإمام الولي الرباني، من علمني ورباني: سيدي مصطفى بن عبد السلام الملواني، قدس الله سره ونور ضريحه.. آمين.

وكذلك بكل حب رُوحِي، وإخلاص قلبي، ويقين نوري، إلى من أحببناه في الله، بالله، لله، من الله، إلى الله، الشيخ العارف بالله سيدي: عاصم الكيالي حفظه الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله.

شرح حكم الشيخ الأكبر

للشيخ العلامة ملا حسن بن موسى ابن عبد الله الكردي الباني الشافعي الدمشقي نفعنا الله به

صورة غلاف المخطوط

صورة الورقة الأولى من المخطوط

صورة الورقة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ الشارح

الحمد لله الذي أفاضَ الحِكَم، والفنون على قلوب من كُنِيَّ بأبي العيون، وعلم الأولياء والعارفين فصار خلقهم أوسع من الكون، فدخلوا في البين فارتفع عنهم الدعاة والنُّــزّاع، وآمنوا بالله بلا دفاع.

وصلى الله وسلم على مَن مغلاق اسمه (دال) الدوام، ومفتاحه (ميم) المُلك والملكوت، وحشوه (حاء) الرحموت أشرف الخلق بأسرهم، ومددهم بأجمعهم خاتم الأنبياء والرُسُل، ومُبين الأحكام بأوضح السُّبل، وعلى آله وأصحابه الكرام ما تعاقب الليالي والأيام.

أمَّا بعد، فيقول العبد الذليل بإذن الرَّب الجليل غبار تراب أقدام الفضلاء، وخادم العلماء والصلحاء المفتقر إلى الله الغني حسن بن موسى الكردي الشافعي القادري المتمسك بذيل ابن العربي: إن هذه عبارات وافيات، وإشارات فائقات يبتهجُ بها الخاطر، ويتحركُ لها السامع والناظر.

علقتها على كتاب (الحِكَم) للشَّيخ الكامل المكمَّل محي الملّة والدِّين أبي عبد الله محمد ابن علي المعروف بابن العربِي الطائي الحاتمي الأندلسي قَدَّسَ الله تعالى سرَّه، وأفاض علينا من رشحات علومه وفتوحه.

وُلد الشيخ بمرسية من بلاد الأندلس في ليلة الإثنين السابع عشر من رمضان سنة ٥٦٠ وتُوفِّي الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه بعد ولادته في سنة ٥٦١ هـ.

وتُوفِّي قُدِّس سرُّه ليلة الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٨ هـ، ودُفن قُدِّس سرُّه في صفح جبل قاسيون، والآن اشتهر بالصالحية بلدة بذيل الجبل المذكور، وهو الخاتم الثاني من الختَّام الثلاثة.

فإن **الخاتم الأول** نبينا محمد ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، **والثاني** الشيخ محي الدين بن العربي قُدِّس سرّه ختم الله به الولاية الخاصة المحمَّديّة، كما أعلّمه تعالى بأنه خاتم الولاية بمدينة فاس سنة ٥٩١هـ.

وعلمه بيّن [شفتيه] فعاينه في الواقعة مع جماعة من الملائكة مُبشرين له بذلك، وأعلم هو بهذا وأظهره في بعض أبياته وهو هذا:

ولـمَّا أتاني الحقُّ ليلاً مُبشرًا بأني ختام الأمرُ في غرةِ الشهرِ
وقالَ لِمَن قَد كَانَ حَاضرًا مِنْ الملأ الأعلَى ومن عَالِم الأمرِ
ألا فانظرُوا فِيه فإن عَلامَتِي عَلى ختمه في موضعِ الضَّربِ في الظهرِ
أنا وارثٌ لا شك عِلم محمَّد وحَالته في السرِّ مِني وفي الجهرِ

والمراد بغرة الشهر: غرة الشَّوال، عيد الفطر، وعلى ما حُكي عنه أنه دخل الخلوة أول مرّة غرة المحرم بإشبيلية من بلاد الأندلس، أو بمدينة فاس كما ذُكر، و لم يفطر في الخلوة إلى تسعة أشهر، وأُمر بالخروج يوم عيد الفطر، وبُشر بأنه خاتم الولاية المحمَّدية، ورأى رسول الله ﷺ في مَبشرةٍ أي: رؤيا صالحة في العشر الأخير سنة٦٢٧ هـ بمحروسة دمشق، وبيده ﷺ كتاب فقال ﷺ له: «**هذا كتاب فصوص الحِكَم خذه، واخرج به في الحسن والشهادة إلى الناس ينتفعون به** [(١)]».

اللهم انفعنا به ببركاته، والله تعالى أعطاه التوقيع ليلة الخميس منتصف شهر ربيع الأول سنة ٦٣٠ هـ بمحروسة دمشق أيضًا في مَبشرة نبوية في ورقة بيضاء، وهو هذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا توقيع إلهي كريم من الرؤوف الرحيم إلى محمد بن عليّ المعروف بابن العربي، وقد أجزلنا له رفده وخيَّبنا قصده، فلينهض إلى ما فُوض إليه، وليُقدم على ما قدم عليه، وليعاملهم بكريم خلقه، وليطلع عليهم بدر تمام بأفقه، ولا تشغله الولاية عن المثول بين أيدينا شهرًا بشهر إلى انقضاء العمر الذي سمح به الدهر، والله يرزقه التحجج في سعيه، والسداد في حُكمه و رأيه، والوقوف عند حدِّ أمره ونهيه والسلام».

وأمَّا **الخاتم الثالث** فهو عيسى بن مريم عليهما السلام خَتَمَ الله تعالى به الولاية العامة كما ورد: إنه ينـزل من السماء، ويكسر الصليب، ويدعو الناس إلى دين نبيِّنا ﷺ، ويكون وليًا تابعًا نفعنا الله بهم، وأفاض علينا من بركاتهم.

---

(١) ذكره إبراهيم الحلبي في نعمة الذريعة (٣١/١)، والبقاعي في التصوف (٣٧/١)، وحديث كشفي.

ولمّا كان الشيخ خاتم الولاية الخاصة سُمِّي بالشيخ الأكبر، وهو الكبريت الأحمر، والدُّر الأفخر له تأليفات عجيبة للعقول مدهشة .

على الخصوص (**الفتوحات المكية**) فإنها أجمع لكلام القوم، وكل مَن نظر إليها اعتمد عليها، واطّلع على أسرار دقيقة، وتعليلات صحيحة لم تكن عنده سواء كان من المجتهدين، أو المفسرين، أو المحدثين، أو اللغويين، أو المقرئين، أو المعبرين، أو النحويين، أو المنطقيين، أو الصوفيين، أو كان عالمًا بالطب، أو بالطبيعة، أو بالهندسة، أو بالوفق والحروف، وغير ذلك من العلوم الغريبة كالعلم بحضرات الأسماء الإلهية، وقد أشار الشيخ عبد الوهاب الشعراني قُدِّس روحه إلى نحو ثلاثة آلاف عِلم منها في كتابه المسمَّى: «بتنبيه الأغبياء على قطرة مِن بحر علوم الأولياء».

وأمَّا (**فصوص الحِكَم**)، فهو كتاب مشتمل على بيان خُلاصة الحِكَمِ الـــمُنـــزلة على قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو من العجائب حيث فاض بجملة ما فيه من الحِكَمِ، والأسرار دفعة واحدة من قلب النبي ﷺ الأنور، وروحه الأطهر على قلبِ الشَّيخ الأكبر ﷺ، وعليه شروح الأفاضل الكُمَّل مثل داود القيصري، ومؤيد الدين الجندي، والأمير السيد علي الهمداني، ومولانا عبد الرزاق الكاشاني، وعبد الرحمن الجامي قَدَّس الله أسرارهم.

وأمَّا (**الحِكَم الإلهية**) فمن أجلِّ الكتب، وأنفعها للمُريد الصادق السالك في طريق أهل الله مشتمل على اللطائف، والزَّرائف، ومنطوي على المسائل التوحيدية، والأحكام العرفانية الوهبية، عباراته لائقة، وإشاراته فائقة، كلّ كلمةٍ منه كالبدور وبها تنشرحُ الصدور، وكلماته وإن كانت متفرقة في الظاهر مرتبطة في الحقيقة من الأول إلى الآخر.

مع أن الشيخ ﷺ قال في «الفتوحات المكية» في الباب الثاني ما حاصله: على أن قلوب العارفين عالقة على باب الحضرة، مراقبة لما يبرز منها فمهما برز لها أمر بادرت لامتثاله، وألفتهُ على حسب ما حُدَّ لها فقد تلقى الشيء إلى ما ليس من جِنسه امتثالاً لأمره تعالى.

وقال في الباب السابع والأربعين منها: «اعلم أن علومنا وعلوم أصحابنا ليست من طريق الفكر، وإنما هي من الفيض الإلهي».

وقال في الباب السادس والستين وثلاثمائة: «واعلم أن جميع ما أكتب في تواليفي ليس هو عن رَوية وفكر، وإنما هو عن نفث في روعي على يد ملك الإلهام».

فلو ترى في تأليفاته كلامًا بين اثنين لا تَعلُق له بما قبله ولا بما بعده، فهو شبيه بقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى﴾ [البقرة :٢٣٨] بين آيات طلاق، ونكاح، وعِدَّة وفاة على أن الكل داخل في الكلِّ، ولو بالجزء والكل؛ لأن الرابطة موجودة، وحجة عدمها مفقودة، والإنكار من الجهل، والعناد من البخل، فعلينا بالأدب معهم فيما يقولون إمَّا بالتَّصديقِ الحقّ، أو بالتَّسليم المطلق وإلا فليس لنا إلا الحرمان يا إخوان، فهذا أوان الشروع في المقصود بعناية الملك الودود أسأل الله التوفيق، ونعوذ به من الانحراف عن سواء الطريق، والخروج عن كلِّ رفيق.

وكما سلكَ الشيخ قُدِّس سرُّه مسلك العوام والخواص على ما هو مقتضى العبودية التامة، والمعرفة الكاملة؛ لأن الربوبية لها حقوق على المربوب يجب عليه أداؤها، أتى بما هو الواجب استحسانًا فقال تعبداً، و تيمُّنا، وتسهيلاً لما هو المقصود:

إذ الأسباب لا تُنكر بخلاف الوقوف عندها والاعتماد عليها؛ ولأن الكُمَّل واقفون بساحل الأساس الذي هو موقف النجاة؛ ولأن الخائض في البحر مُلقِي النفس إلى المهلكة، والواقف بالساحل قائم مع النُجاة يمكن له استخراج طعامه، ونفائسه مما لا يمكن للخائض.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، مع أن الإنسان لا يخرج عن حدِّه وأصله، وهو افتقاره وعجزه، لكن كل هذا لا بنفسه لنفسه، بل بربِّه لربِّه، فإنه أجرى على لسانه.

* * *

شرح مقدمة الحكم

قال الحق بلسانه كما هو المقرر في أزله: (**بِسْم الله**) أي: جميع الصفات الكمالية الدَّالة عليها هذه الحروف يعني ب س م لله إن كانت الإضافة لامية، أو هو الله إن كانت بيانيَّة.

وحقًا يكون الوجود واحدًا، والتعدد بالتقيّد والتعين، وتكون العينية من حيثُ الظهور والوجود، ولا من حيثُ الذات، والله ذات متصفة بأسرار حروفه الخمسة أي: ال ل ا ه بناء على أن اللفظ حاكم على الخط.

وبيان هذا أن (الباء) حرف شريف في المرتبة الثانية من الوجود.

مِن شرفه أفتتح الحق تعالى كتابه العزيز به فقال: (بسم الله) في أول كلّ سورة حتى في السورة التي لا بسملة فيها ابتدأ فيها بالباء فقال: بداية من الله وهو الحقيقة المعقولة المسمَّاة بالعقل الأول، والقلم، والعدل، والحقّ الذي قامت به السماوات، والأرض قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقّ﴾ [الحجر:٨٥]، وهو أول موجود خلقه الله؛ لأنه تعالى واحد ولا يصدر عنه إلا واحد، وهو الصحيح.

كما قاله الشيخ في كتاب (الباء والأشياء): «ظهرت بالباء، فالألف في الحقيقة وحداني الذات في المرتبة الأولى، وظهرت في الثانية من الوجود فسُمِّيت باء حتى تمتاز عنه ويبقى اسم الألف له والواحد ليس بعدد، والباء عدد؛ لأنه اثنان من جهة المرتبة، والأشياء عدد، فصدر العدد من العدد، وبقي الأحد الصمد مُنــزهًا عن الضدّ والـندّ والولد، وهو مجهورة من العالم المجهور فإنها أصل الظهور وما تعلّقت معرفة العارفين إلا به، وما شهدت أبصار الشاهدين إلا إيّاه، ولا تحقق المتحقّقون إلا به؛ لأن الأحدية باقية على التنــزيه؛ إذ الأحد عزيز منيع الحمى لم يزل في الحمى لا يصح به تجلي أبداً إلاالتجلي الأول»، فافهم.

وكذا قال الشيخ قُدِّس سرّه: لا تطمعوا إخواننا في رفع هذا الحجاب أصلاً فإنكم تجهلون وتتعبون، لكن قوّوا الطمع في نيل الوحدانية فإنكم فيها نشأتم، فالباء كلّ شيء، والظاهرة في كلّ شيء، والسارية في كلّ شيء، وبها كان كل مجهور فصارت حرفاً

مجهوراً، ولها مشاركة مع الميم، وإن كانت من عالم المهموس؛ لأنها ظهرت في العين عنها، وفي الحقيقة عن غيبها فلأجلِ هذا كانت الميم من العالم المهموس وهو الخفي وإن كانت حرف جهر في اللسان، والسين مهموس، فالباء لها شركة معها أيضًا، فاجتمع الكلُّ في كونهم حروف الاتّصال، والوصلة واصلة الباء بالهاء على ما قاله الشيخ في الكتاب المذكور.

قلبت الهاء همزة؛ لأنها أخت الهاء، والباء*هو النكاح، وكذا الباء، والهاء في آخر الباء إشارة إلى أن الباء هو الهاء، والهاء هو الباء ولابد في كل نتيجة من أصلين، وهما المقدمتين:

تنكح أحدهما الأُخرى فالوجود المحدث نتيجة، فلما توجه الحق على الباء وهو الموجود الثاني امتدَّ من الباء ظِلُّ الكون عند مقابلته كامتداد الظلّ من الجسم عند مقابلة الشمس، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان:٤٥].

فالظّل يخرج على صورة الممتد منه، كذلك الكون خرج على صورة الباء.

فصح أنه خلق العالم أو الآدم على صورته(١).

---

(١) قال سيدي الشعراني: وفي روايةٍ صححها ابن النجار وأيّدها الكشف: «**على صورةِ الرحمن**».

فإنه لا يصحُّ أن يكون المراد بذلك صورة الذات؛ لأن الذات المقدَّسة لا صورة لها إلا من حيث التجلي بالمثال، كما يشهد لذلك خبر مسلم في التجلي يوم القيامة.

وكما تجلى جبريل لرسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي.

ومعلومٌ أن تَمثُّل جبريل في دحية ليس معناه أن ذات جبريل انقلبت صورة دحية، وإنما ظهرت تلك الصورة لرسول الله ﷺ مثالاً مؤدِّيًا عن جبريل ما أوحى به إليه.

ونظير ذلك قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠]، فإذا لم يستحيل ذلك في حق الملك وأن جبريل كان باقٍ على حقيقته وصفته في حال ظهوره في صورة دحية فلا يستحيل ذلك في حق الله تعالى في يقظة ولا منامٍ؛ لاتفاق جميع المحققين أن المرئي مثال الذات لا عين الذات، كما تقدَّم وكما سيأتي.

ومن فهم الفرق بين المثل والمثال لم يقف في مثل ذلك، وقد أشار رسول الله ﷺ بأن الله تعالى مثالاً يقع التجلي فيه حتى يُعرف بقوله: «**إنَّ الله خَلَقَ آدمَ على صورتِه**».

=

=

وذلك أنه تعالى لما كان موصوفًا بالوجود قائمًا بنفسه حيًّا عالمًا مريدًا قادرًا سميعًا بصيرًا متكلمًا كذلك ولو لم يكن الإنسان موصوفًا بهذه الصفات ما صحَّ له معرفة هذه الصفات في جانب الحق تبارك وتعالى، ولا تعقُّلها.

ولهذا ورد في بعض الكتب الإلهية: «**مَنْ عَرَفَ نفسَهُ فَقَدْ عَرَفَ ربَّهُ**».

ذلك لأن كل ما لم يجد الإنسان له مثالاً في نفسه يعسر عليه التصديق والإقرار به، ومن شكَّ فيما قررناه فليتعقَّل لنا شيئًا لم يخلقه الله تعالى؛ فإنه لا يقدر قطُّ على ذلك، وهذا يصلح دليلاً لمن منع رؤية ذات الله تعالى لولا ما ورد.

ثم اعلم أن الفرق بين الحق تعالى والإنسان أن الحق تعالى يتقلَّب في الأحوال، والإنسان تتقلَّب عليه الأحوال؛ إذ يستحيل أن يكون للحال على الحق تعالى حكمٌ.

قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

فوقعت المشاركة في الأحوال كما وقعت في الأسماء، فافهم هذا الفرق؛ فإنه من أوضح الفروق وأجلاها، فَعُلِمَ أنه ليس المراد بالصورة المخلوق عليها آدم أنها ذات سبع فقط؛ لأن الحيوان كذلك له ذاتٌ، وهو حيٌّ عالمٌ مريدٌ قادرٌ متكلمٌ سميعٌ بصيرٌ، ولو كان المراد ذلك لكان يبطل وجه الخصوصية للإنسان، فإن هذه الصفة إنما جاءت له على جهة التشريف له.

فإن قيل: فما هذا التغيير الواقع للإنسان في نفسه وصورة الحق تعالى لا تقبل التغيير؟

قلنا: الله تعالى يقول: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١].

ورسول الله ﷺ يقول: «**فَرِغَ ربُّك مِنْ ثلاثٍ**».

وفي حديث التجلي الأخروي يتجلى لهم الرب في أدنى صورةٍ، ثم يتحوَّل عند إنكارهم إلى الصورة التي عرفوه فيها بالعلامة.

فهو تعالى هو الذي أضاف إلى نفسه هذا المقام، وهو عريٌّ عن مقام التغيير بذاته والتبديل، ولكن التجلي في المظاهر الإلهية على قدر العقائد التي تحدث للمخلوقات مع الأنات، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا وكذلك هو ارتفع الاعتراض الوهميُّ، تعالى الله عن ذلك.

وقد قررنا غير ما مرة أنه ينبغي للإنسان أن يعلم ميزانه من الحضرة الإلهية، فإن الجود الإلهي قد أدخله في الميزان، فيوازن العبد بصورته حضرة موجده ذاتًا وصفةً وفعلاً، ثم لا يلزم من الوزن الاشتراك في حقيقة الموزونين.

فإن الذي يوزن به الذهب أو المسك هو صبخة حديدٍ، فليس يشبه في ذاته ولا صفته ولا عدده،

=

والنقطة التي تحتها لكي لا تلتبس صورتها بصورة ظلّها فبها تمتاز عن الياء والثاء وغيرهما، فهي مبدأ كلّ شيء، والباء مبدأ أول فالأول للأول، وجُعلت في التحت إشارة إلى أن ظهور الكون من الباء في السفل، وهو المرتبة الثانية من الوجود، فالباء ثوب الحقيقة، والكون غيبة فيها، وهي غيب في الحقيقة فالكون ينسلخ منها، وهي لا تنسلخ من الحقيقة، وفي الباء معنى البقاء فتدل على أن الحقّ هو الباقي، وأن بقاء الخلق به، وبه قيام كل شيء.

فحكى الشيخ الأكبر عن شيخه أبي مدين[1] رضي الله تعالى عنهما أنه قال:

=

فلا يوزن بالصورة الإنسانية إلا ما تطلبه الصورة الإنسانية بجميع ما تحتوي عليه بالأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاده، وأظهرت آثارها فيه.

وكما لم تكن صَبغة الحديد تُوازن الذهب في حدٍّ ولا في حقيقة ولا صورة ولا عين كذلك العبد وإن خلقه الله تعالى على صورته فلا يجتمع معه في حدٍّ ولا حقيقة؛ إذ لا حدَّ لذاته تعالى، والإنسان محدودٌ بحدٍّ ذاتيٍّ، لا رسميٍّ، ولا لفظيٍّ.

فالإنسان أكمل المخلوقات وأجمعها من حيث نشأته ومرتبته.

فإذا وقفت يا أخي على هذا الميزان زال عنك ما تتوهمه في الصورة من المشاركة للحق في الحقيقة؛ فإن الله تعالى هو الخالق، وأنت العبد المخلوق، وكيف للصنعة أن تعلم صانعها! إنما تطلب الصنعة من الصانع صورة علمه بها لا صورة ذاته، وأنت صنعة خالقك، فصورتك مطابقةٌ لصورة علمه بك، هكذا كل مخلوق ولو لم يكن الأمر كذلك وكان يجمعكما حدٌّ واحدٌ وحقيقةٌ واحدةٌ كما يجمع زيدًا وعَمْرًا لكنت أنت إلهًا، والأمر كذلك على خلاف ذلك. وانظر: الميزان الذرية (ص٢٠) بتحقيقنا.

(١) هو الغوث الأكبر، المتصرف في تعيين الأقطاب، وتنصيبهم، بإذن من الحضرة المحمدية، من أعيان مشايخ المغرب وصدور المقرَّبين، وشهرته تغني عن تعريفه.

مات بتلمسان ودُفن بها، وقد ناهز الثمانين وقبره ثم ظاهر يُزار، وكان سبب دخوله تلمسان أنّ السُّلطان لما أبلغه خبره أمر بإحضاره من بجاية؛ ليتبرَّك به، فلما وصل إلى تلمسان قال: ما لنا وللسُّلطان الليلة نزور الأخوان، ثم نزل واستقبل القبلة وتشهَّد، وقال: ها قد جئت، ها قد جئت، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤]، ثم قال: الله الحيُّ وفاضت روحه.

=

=

قال الشيخ أبو الحجّاج الأقصري: سمعت شيخنا عبد الرزاق يقول: لقيت أبا العباس الخضر ﷺ فسألته عن شيخنا أبي مدين فقال: إمام الصديقين في هذا الوقت، وكان ﷺ جميلاً ظريفًا متواضعًا زاهدًا ورعًا، محقّقًا مشتملاً على كرم الأخلاق، واجتمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله، وتأدّبوا بين يديه.

ومن كلامه: ليس للقلب إلاّ وجهة واحدة متى توجَّه إليها حُجب عن غيرها.

وكان يقول: الخالي من الأُنس والشَّوق فاقد المحبَّة.

وكان يقول: إذا ظهر الحق لم يبقَ معه غيره.

وكان يقول: الفقر نورٌ ما دمت تستره، فإذا أظهرته ذهب نوره.

وكان يقول: الحضور مع الله جنّة، والغيبة عنه نار، والقرب منه لذّة، والبعد منه حسرة، والأنس به حياة، والاستيحاش منه موت.

وكان يقول: الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق تعالى.

وكان يقول: من نظر إلى المكونات نظرة إرادة وشهرة حُجب عن العبرة فيها والانتفاع بها.

وكان يقول: من عرف أحدًا لم يعرف الأحد، والحق تعالى ما بان عنه أحد: أي من حيث العلم والقدرة، ولا اتصل به أحد أي: من حيث الذات والصفات.

وكان يقول: من لم يصلح لمعرفته شغله برؤية أعماله، ومن سمع منه بلّغ عنه.

وكان يقول: من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة تدعوه إلى ذلك فهو مفتونٌ، وكل من رأيته مع الله يدّعي حالاً لا يكون على ظاهره منه شيء فاحذروه.

وكان يقول: من قطع موصولاً بربه قُطع به، ومن أشغل مشغولاً بربه أدركه المقت.

ومكث سنة في بيته لا يخرج إلاّ للجمعة، فاجتمع الناس على باب داره، وطلبوا منه أن يتكلّم عليهم، فلمّا ألزموه خرج فرأى عصافير على سدرةٍ في الدّار، فلما رأوه فرُّوا فرجع، وقال: لو صلحت للحديث عليكم لم تفر مني، ثم رجع وجلس سنة أخرى، ثم جاءوا إليه فخرج فلم تفر منه الطيور، فتكلّم على الناس، ونزلت الطيور تضرب بأجنحتها وتصفّق حتى مات منها طائفة، ومات رجلٌ من الحاضرين ﷺ. وانظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١/١٣٣)، والانتصار (ص٤٥١) بتحقيقنا.

«ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الباء عليه مكتوبة» كأنه يقول: بي قام كل شيء[1].

---

(١) قال الشيخ العطار: يشير بذلك إلى أن الباء مكسورة، ومن الكسرة يتولد الياء: أي بي قام كل شيءٍ وظهر، فالباء لمصاحبة الموجودات من حضرة الحق ومقام الجمع والوجود إلى ما لا يتناهي، وهذا معنى قولهم: (بي كان ما كان، وبي يكون ما يكون).

والنقطة طرف الخط والمراد منها النقطة التي تحت باء البسملة، والبسملة من باب النحت، يُراد بها: بسم الله الرحمن الرحيم، ومرادهم بنقطة البسملة ما وقع به التميز: أي تميز العابد عن المعبود: أي تميز وجود العبد بما تقتضيه حقيقة العبودية، وذلك أن فاتحة الفاتحة هي البسملة وبيانها ظهر الوجود، ولكن من غير تميز فجاءت النقطة للتميز، فكان ذلك كالتجلّي الأول الذاتي الذي ظهر به الوجود الحق لنفسه في عين ذلك التجلّي: أي من غير تميز بين الذات وبينه، وكالتعين الصفاتي الذي هو في الواحدية المقتضي للتميز، وهو مظهر التعين الأول: أي هذا التعين ظهر صفة إلهية جملية في المرتبة الواحدية، فالكلام على التشبيه والإستعارة من وجه.

قيل للشبلي: أنت الشبلي؟ قال: لا أنا نقطة الباء، أشار بذلك إلى التميز المذكور.

وقد قال العارف سيدي ابن الفارض مشيرًا إلى ذلك بقوله:

ولو كنت لي من نقطة الباء خفضة رفعــت إليَّ مــا لم أنلــه بحــيلتي

فبالتعين وقع التميز، وقد علمت أن أول تعين هو الحقيقة المحمدية، وهذه النقطة المراد بها ما ذكرناه مظهر هذه الحقيقة، والظاهر عين المظهر باعتبار، فكان ﷺ هو هذه النقطة الجامعة لما يكون وكان.

وقد أشار إليه سيدنا الشيخ الأكبر بقوله: (الجامعة لما يكون وكان)، وعكس الترتيب لأجل الموافقة للجملة الآتية.

فإن قلت: الكلام بالنقطة لا بالباء.

قلت: لا ينفك التعين عن الظهور: أي لا تنفك النقطة عن الباء، فما ينسب لكل ينسب إلى الآخر، على أن النقطة ترجع إلى الباء من وجه بلسان الإشارة.

واعلم أن الذات تبارك وتعالى لا تعلق له بالعالم ولا بشيء لغناه الذاتي، وأن الذي له التعلق والتأثير بالعالم هو الأسماء، والبسملة كافية للعالم، وبها يتم أمره فإنها مشتملة على الاسم: الله والرحمن الرحيم، أما الأول فإنه له جمعية الأسماء جمعية إجمال، والاثنان الباقيان لهما جمعية ذلك تفصيلاً.

وانظر: كشف الأسرار لصلاة سيد الأبرار (ص١٢٠) بتحقيقنا.

فوجوده تعالى بذاته، وصفاته كلها قائمة بذاته كوجود العالم كله علوه وسفله به، وقائم بقيوميته، وتدلُّ أيضًا على بهائه وبلائه لأنبيائه وأحبائه، وفيها وجوه متعددة من الاستعانة والإلصاق، والملابسة والتبعيض، والظرفية والسببية كلها تعطي البقاء.

ولذا قال الشيخ قُدِّس سرّه: فيها دعوى من حيث بقاء الرسم، ولا تعطي الفناء مثل اللام فإذا قلت: «كتبت بالقلم»، فقد أثبت نفسك كاتبًا واستعنت على الكتابة بالقلم، فالأشياء كلها ظهرت باستعانة الباء، وهو السبب الذي عنه وجدت ومنه ظهرت وفيه بطنت، وإليه إشارة الشبلي قُدِّس سرَّه لـمَّا قيل له: أنت الشبلي فقال: أنا النُّقطة التي تحت الباء، وتعطي الإلصاق أيضًا كما في «مررتُ بالمسجد»، فكما قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧]، فألصق الذهاب بالنور كإلصاق المرور بالمسجد، والنور هو الباء والباء نور السماوات والأرض وهو الحق الذي قامت به، وتعطي الظرفية كما في «صليت بالمسجد». وكنا صادرون من فوقها، وكنا موجودين فيها قبل وجود أعياننا، وأمَّا إعطائها التبعيض؛ فلأن الذات وإن كانت واحدة لها وجهان الغيب والشهادة، والظهور والبطون، والأول والآخر وغير ذلك، وكل من هذين الوجهين يصح أن يُقال: أنَّه بعض الذات، فإن كشف الذات من حيثُ الشهادة لا من حيث الغيب، والعِلم بها من حيث الغيب لا من حيث الشهادة، فلا يُعَايَنْ من الذات إلا الوجه الواحد الذي يدلُّ عليه الذي ظهر عليه، ويُغيب عنه الوجه الآخر، فلا يشهد شاهد إلا بعض الذات بهذا الاعتبار، وتكون الباء زائدة كما في ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء:٧٩].

وأمَّا فيما نحن بصدده؛ فلأنه يستحيل مؤثر بين مؤثرين لا مقدور بين قادرين، فالقدرة القديمة لها الأثر بالبرهان، والحادثة لا أثرٌ لها بالدليل الرَّاجح والعيان، فإذا وُجد أثر في الشاهد عند القدرة الحادثة فالعقل يحكم أنها قدرة صحيحة ثابتة عينها، وأن الأثر وقع عندها لا بها، وأن القدرة القديمة هي التي لها هذا الأثر.

فالباء ليس لها أثر، وعينها ثابتة لكنها زائدة في حضرة الفعل، ولذا صارت النقطة عين التوحيد الحاجز بين الكون، والباء يمنع الكون من الشركة والدعوى فيبقى التوحيد معصومًا محفوظًا في الخلق، فلو كان الأثر للباء لما كانت النقطة، فالأثر للنقطة والباء زائدة لكن الأثر عند الباء فما من شيءٍ إلا والباء عنده فما من شيءٍ إلا ونقطة الباء فيه، وفي

هذا المعنى قيل:

أيــا عَجَــبًا يَعْصِــي الإلــهَ أمْ كــيفَ يَجْحَــدَهُ الجــاحدُ
ولله فِــي كــلِّ تحــريكةٍ وتَسْــكِينةٍ عِــلمٌ شــاهدُ
وفي كــلِّ شــيءٍ لــهُ آيــةٌ تــدلُّ عــلى أنّــه واحــدُ

وتلك الآية هي الوحدانية أيّ: وحدانية الشيء لا غير فليس عالٍ وسافلٍ إلا عارفًا بالوحدانية لخالقه، فما عبد عابد إلا هو تعالى.

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] أي: حَكَم وحُكمه ماضٍ نافذ ليس في وسع الخلق إمكان رده، فالشريك في الحقيقة هو الأحد، وليس المعبود الشخص المنصوب، بل إنما هو السر المطلوب، والمعبود هو الرب والله هو الجامع، فالمشرك يقول: بالواحد، لكن من مكان بعيد، فشقي بالبُعد، والمؤمن يقول به: من مكان قريب فسعد بالقرب، فكل عبادة قامت عن أمر أُثني عليها، فما لم تقم عن أمر ذُمت ولم يُثن عليها إلا إنها قامت على المشيئة المستوية للذات الأحدية.

قال الله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧]، فعلم أن لها حقًا يجب رعايته، وحفظه للغيرة الإلهية، ولولا تخيل المشرك في معبوده سرَّ الألوهية لما عبده أصلاً، لكن الحقَّ قرن السعادة بأمر المشيئة، والشقاوة بإرادتها، وما عبد أحد إلا الرب، فإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف:١١٠]، فما قال: بعبادة الله؛ لأن الأحد لا يقبل الشركة بحال، والعبادة ليست له، وإنما هي للرب، فلذا قيل العبودية: القيام بحقوق الربوبية.

قال الشيخ قُدِّس سرّه في (الفتوحات المكية): (اعلم أن العبد لا يكمل شهوده وعبادته لله تعالى إلا إن شاهده وعبده من حيث أوليته المنـــزهة عن أن يتقدمها أولية من حيث أولية العبد من أوليات كثيرة قبله، فإذا وفقَّ العبد، وعبد ربه من حيث أوليته تعالى انسحبت عبادته من هناك على كلِّ عبادة عبدها أحد من المخلوقين إلى حين وجود هذا العابد).

قال الشَّيخ الشَّعراني قُدِّس سرَّه: «وهو أمر نفيس ما سمعنا من أحد، ففيه إشارة

عظيمة إلى السِّر المذكور عند أهل الإفهام، فعلم بما قرر أن المعبود بكل لسان، وفي كلّ حال وزمان إنما هو الواحد، وكذا العابد من كلّ عابد والمنكر لهذا جاحد، فما ثَمَّ إلا واحد والاثنان، والثلاثة، والأربعة، وغير ذلك إلى ما لا يتناهى إنما هي واحد لا تجد سوى الواحد، وليس ثَمَّ أمر زائد ،بل أن الواحد ظهر في مرتبتين معقولتين فسمِّي اثنين كما ترى، ثم ظهر في ثلاث مراتب صار هكذا، وسمِّي ثلاثة، ثم في الرابعة هكذا، ثم في الخامسة هكذا، ويسمى أربعة وخمسة، فبظهور الواحد في كلّ مرتبة ظهرت تلك المرتبة، وبزواله عن كل مرتبة فنيت، فإذا عدم الواحد من الخمسة عدمت، وإذا ظهر ظهرت وهكذا في الكلّ، ولا يلزم من عدم الخمسة عدم الواحد، فتفطن لهذا واحذر من الاتِّحاد، فإنه لا تكون الذاتين واحدة، بل إنما هما واحدان ألا ترى إذا ضربت الواحد في الواحد لا يحصل إلا الواحد».

قاله الشَّيخ قُدِّس سرّه، وكل ما قلته أو أقوله إمَّا قاله الشيخ أو أشار إليه أو مثتنبطًا مما قاله.

ما حاصله أنه لا تصح نتيجة قط عن واحد، وإنما تكون النتيجة بظهور معنى الوحدانية في مرتبـــتين، وبازدواج الواحدين يظهر الموجود، فليست النتيجة الاثنين كما خيل من قيَّد بالقوتين المثبتتان للدارين، وهما الوهم والخيال المثبتان أيضًا للواحد الفرد المتعال، فإنه لا بد للإنتاج من وجه خاص هو كون الحُكم أعمّ من العلَّة أو مساوٍ لها، وأن يكون على شرط مخصوص، وهو تكرر الواحد في المقدمتين، فلا ينتج البرهان إلا إذا كان من مقدمتين كل منهما من مفردين أحدها خبر عن الآخر، فيكون واحد من هذه الأربعة متكررًا في المقدمتين.

فإذا أردنا الاستدلال على أن النبيذ حرام نقول: هو مُسْكِر وكل مُسْكِر حرام فبالضرورة ينتج أن النبيذ حرام لا خلاف في النتيجة، وإنما الخلاف في أن الحُكم صحيح أم لا وهو أمر آخر، والغرض وجود النتاج لا ظهور الصدق والكذب، وإن الأنثى والذكر ما انتجا إلا بالحركة المخصوصة على الوجه المخصوص، فلا إنتاج بوجود الاثنين لا من الأنثى والذكر ولا من المقدمتين ما لم تكن ثَمَّ حركة مخصوصة على الوجه المخصوص، فالحق تعالى أوجد العالم من كونه ذاتًا قادرة فهما أمران الذات وكونها قادرة.

ولا يظهر شيء إلا بالتوجه للإيجاد وكونها متوجهة غير كونها قادرة فهذا حُكم ثالث،

وقد أثبتنا أزلاً ذاتًا قادرة وما كان الوجود والظهور لشيء لعدم الحُكم الثالث الذي هو التوجه، فهو الواحد الفرد فلا يظهر شيء إلا بوجود التوحيد.

قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَه وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣]، ولا ظهور للواحد إلا بالمعنى دون الاسم فلولا معناه لم يوجد لشيء عين، ولو ظهر بالاسم لم يكن له عين، فانظر إلى الواحد بالنسبة إلى الأعداد حتى تفهم المراد فمهما زال معناه في عدد بطل الوجود، ومهما ظهر اسمه بطل الوجود انتهى.

فثبت بهذا أن جميع النتاج لا يكون إلا عن الفردية، فبالأحدية ظهرت الأشياء لظهورها عن الله الواحد من جميع الوجوه بثلاث اعتبارات هي أصل النتائج كلها كون الذات، وكون القادر، وكون التوجه، فبهذه الوجوه الثلاثة ظهرت الموجودات.

وأمَّا (**السين**) فهو الواسطة بين الباء الذي هو القلم الأعلى، والميم الذي هو دائرة الوجود، ولها الاتِّصال القبلي والبعدي كالباء، أو الميم وغيرهما بخلاف الدال والذال والراء والزاي والألف والواو، فإن لها الاتِّصال البعدي دون القبلي، والسين من المهموسة بالاعتبار المذكور من ظهورها بها كما أنها كذلك في الحقيقة، ومع ذلك لها مشاركة مع الباء من حيث الاتِّصال كما مرَّ ومع الميم كذلك .

ولذا صارت رابطة وواسطة بين الباء، والميم، بل هي عين الحجاب بينهما يمنع تداخل البعض في البعض، ولها مشابهة بعين الأعيان وغين الأغيار، وشين الشهود من جهة إعداد البسائط كتشابه الألف مع الراء، والزاي واللام وغير ذلك، وتشابه الميم بالنون والصاد والضاد وغيرها من الجهة المذكورة، وينوب مناب الشين، كما أن العين تنوب مناب الغين فافهمه، وكما أن السين لها مشاركة للباء فيما ذكر كذلك هي باءات ثلاث في الأصل؛ لأن فيها ثلاث علامات كل منها باء برأسه، ولها من المراتب الستة وهي من العشرات ستين، والعشرات هي المرتبة الثانية من الفردية كما أن الباء ثانية الوحدانية، والفرد قريب من الواحد فالفردانية قريبة من الوحدانية، فحصل للسين بهذا الاعتبار شبه بالواحد؛ لأنها من العشرات، وهي رأسها العشرة، كما أن رأس الآحاد الواحد، والمئات المائة، والآلاف الألف، فالعشرة وكذا المائة والألف في العشرات والمائتين، والألوف بمنـــزلة الواحد في

الآحاد، فالآحاد من الاثنين إلى التسعة حاصلة بتكرار الواحد، كذلك العشرات من عشرين إلى تسعين حاصلة من تكرار العشرة، فالسين حصلت من تكرار العشرة ست مرات، كما أن الباء حصلت من تكرار الواحد، فحصل للسين أيضًا مشابهة بالميم أي: من جهة مجاورة الميم لها؛ لأنه بالأربعين وهي قريبة من الستين وحاصلة من العشرة كالسين، ولها أيضًا مشابهة بالكون وبكنّ وبجميع ما كان آخره نون.

و(**النون**) أولها كآخرها، والواو حجاب بينهما فنشأة العالم كرة نصف الكرة منه حسّي، ونصفه غيبي كالفلك نصفه ظاهر، ونصفه غائب عن الحس؛ لأننا في الأرض والأرض حجاب عليه، ولذا نحجب بكوننا في عالم الطبع وظلمته عن إدراك عالم الأرواح الذي هو النصف الآخر من كرة النشأة، فلا نشاهد إلا آثاره فما ظهر في الرقم من النون إلا نصفه، والنصف الآخر المغيب مقدر عليها كما صوره الشيخ قُدِّس سرّه هكذا ن فالتحتانية هي الظاهرة في كن، والمحسوسات ظهرت عنها، والروحانيات ظهرت عن الفوقانية.

ولذا قال الشيخ قُدِّس سرّه: إن الواحد الجسماني ظهر عن الفهوانية أي: خطاب الحق بطريق المكافحة في عالم المثال، والواحد الروحاني ظهر عن معنى الفهوانية وهو عينها، والواو فاصل يأخذ المواهب من النصف الأول العلوي، وتلقيه إلى النصف الثاني السُّفلي، واتصلت بالعلوي دون السفلي؛ لأن (الواو) روحانية الذات حيث وُجِدَ في الهوية، وهي غيب فيها والهوية حفظ الغيب، وإن فيها ما هو من مراتب أسرار الحروف وهو كون أوله كآخره، وآخره كأوله كالميم والنون، والنون أيضًا روحانية فلروحانياتها اتصلت بالأول دون الثاني فالأخذ أي: أخذ الواو من العلوي أخذ اتّصال، وإلقائها إلى السفلي إلقاء تبليغ، فهو المقام الجبريلي، فالعلوية تعطي المواهب مجملة، والواو بمنـــزلة القلم عالم التسطير، فيفصلها عند الإلقاء والنون السفلي كاللوح فالأمور مُفصلة عندها بالقوة من حيث العلم.

ويدل (**السين**) على السلامة، وإشارة إلى أن الإنسان الكامل يستحق ثلاثمائة وستين نظرًا من الله تعالى.

أمَّا دلالتها على هذا العدد؛ فلأنه مرَّ أنها تقوم مقام الشين، وهي ثلاثمائة ونفسها

ستين، وأمَّا كون الإنسان الكامل مستحقًا لهذا العدد من النظر؛ فلأن طينة آدم عليه السلام كانت في التخمير أربعين ألف سنة، وهذا المبلغ ثلاثمائة وستين (أربعينيات)، وبكلِّ أربعين استحق نظرًا من الله تعالى، فلما كملت الأربعينيات استحق النظرات المذكورة بكمالها، ولهذا صار قلب الإنسان وسع الربّ دون غيره وصار خزانة للأمانة الإلهية.

كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ [الأحزاب:٧٢]، ويدل على السمو وهو العلو والسيما والسما، والكل في الحقيقة أوصاف الحق وفيها الدلالة على عالم السماوات، وهو عالم الغيب الذي هو جزء من مطلق العالم، وكذا صار في المرتبة الثانية من هذه الكلمة حيث وقعت بعد الباء؛ لأن الباء ظهر بها كل شيءٍ من الروحانية، والجسمانية والعلوية والسفلية، والسفلية ظهرت من العلوية؛ لأنها كالروح للسفلية وكذا كلّ عالٍ بالنسبة إلى سافله فتأمل.

وأمَّا (**الميم**) فلها الاتِّصال؛ لأنه كالباء والسين، فالباء والميم اتصلت بهما الشفتان بعد افتراقهما على ما هو شأن المحبين إذا اجتمعا، ولها وصلة بالنون إذا تعانقتا وامتزجتا، كما هو شأن الواصلين كما في: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [النبأ:١] امتزجت النون بالميم على طريق الإدغام فلا تعدد؛ إذ لا يشاهد إلا الميم فلا يبقى السائل ولا المسئول وهو المقام الذي قيل فيه: أنا من أهوى ومَن أهوى أنا .

وفي هذا المقام قال سيد الطائفتين الجامع للنورين الشيخ الكامل الجنيد البغدادي قُدِّس سرّه:

وغَنَّى لِي مِن قَلبِي وَغنيت كَمَا غنَّى
وكُنَّا حَيثُ مَا كَانوا وكَانوا حَيثُ مَا كُنَّا

وفي هذا المقام قيل: أنَا الحق[1]، وفيه قال الله تعالى: «**كنت سمعه وبصره**[2] »، ولكنَّ

---

(١) **تنبيه**: يقول الشيخ الشرقاوي أثناء كلامه على المتصوفة وأنواعهم: وفرقة أخرى لم يلتفتوا إلى ما يُفاض عليهم من الأنوار في الطريق، ولا إلى ما تيسره لهم من العطايا الجزيلة، ولم يعرجوا على الفرح بها جادين في المسير، حتى تأربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى فظنوا أنهم وصلوا وغلطوا، فإن لله =

الشدُّ على الميم يدلُّ على أنَّ هناك ذات أُخرى، وإن كان في عالم الشهادة ذاتٌ واحدةٌ، فالأحياء لله تعالى فقط، فلو رأيناه لغيره كما وقع لعيسى عليه السلام، ولبعض الكُمَّل، فإنَّه وإن

=

تعالى سبعين حجابًا من نور لا يصل السالك إلى واحد من تلك الحجب إلا ظن أنه قد وصل، ولا يصل السالك إلى تلك الأنوار والحجب ما لم يخرج عن حجاب نفسه، ويكون هو أيضًا ربَّانيًا بل هو نور من أنوار الله تعالى، أعني بسر القلب والروح فيه يتجلى له حقيقة الحق، حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به ويتجلى فيه صورة الكل، حتى قيل أنه اللوح المحفوظ فإذا انتهى إلى ذلك السالك أشرق نوره إشراقًا عظيمًا؛ إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وقد كان في أول الأمر محجوبًا بمشكاة هي كالساتر له كما دلّ عليه القرآن فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله تعالى ربما التفت صاحب ذلك القلب، ورأى من جماله الفائق ما يدهشه فربما سبق للسكر والدهشة إلى لسانه فقال: أنا الحق، فإن أخذ الحق بيده ومدّته الألطاف الإلهية سار ولم يقف وإلا هلك، وربما التبس المتجلي بالمتجلي فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة فيظن أنه لونها، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيحصل الغرور، وبهذه العين نظرت النصارى للمسيح، لما رأوا إشراق نور الله تعالى قد تلألأ منه فغلطوا عند رؤيته كمن نظر كوكبًا في مرآة، أو ما فطن أن الكوكب في المرآة أو الماء فيمد يده ليتناوله.

وإلى تلك الحجب النورانية الإشارة لقول الخليل ﷺ: ﴿فلما جَنَّ عليه اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قال هذا رَبِّي﴾: أي نور من أنوار الله وهو أول الحجب؛ إذ هي على الطريق السالك ولا يتصور الوصول إلا بعبورها، وبعضها أصغر وبعضها أكبر بقدر القرب والبعد، وأصغر الأنوار السماوية هي الكواكب فيستعار لفظ الكوكب لأول تلك الأنوار؛ لأنه أصغرها وأعظمها الشمس وبينهما القمر، فلم يزل إبراهيم يترقى من نور إلى نور وحجاب بعد حجاب، وكلما أظهر له شيء من الأنوار الإلهية ظن أنه قد وصل، فيقول: هذا ربي فينكشف له بنور النبوة والتوفيق الإلهي أن وراءه أمورًا، فكلما انكشف نور ظهر للأول درجة الانحطاط عن ذروة الكمال، واطلع على أن له نهاية فيقول: ﴿لاَ أُحِبُّ الأَفِلِينَ﴾، ولم يزل كذلك إلى أن تجاوز ما لا ينتهي، فلما انتهى إلى جنات لا نهاية لها وانقطع عمله عما دون ذلك قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام:٧٩]، وانظر: شرح الحكم الكردية للشيخ الشرقاوي (ص٢٢٠) بتحقيقنا لأول مرة، طبع دارة الكرز.

وروى أن الحلاج مرّ يومًا على الجنيد، فقال له: أنا الحق! فقال الجنيد: أنت بالحق أية خشبة تفسد فتحقق فيه ما قال الجنيد: لأنه صلب بعد ذلك. وانظر كتابنا الإمام الجنيد (ص٧١).

(٢) رواه البخاري (٢٣٨٤/٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٤٦/٣).

كان المشاهد والمبصر للعين ليس إلا ذات واحدة لكن الفعل والأثر يدلان على أن ثَمَّ ذات أُخرى عنها كان هذا الفعل والأثر، فالشد في الحرف بمنـــزلة الفعل والأثر، ولها نسبة قريبة أيضًا غير ما ذُكر، مع أن النون وهي إنها من العالم المهموس بالاعتبار المار سابقًا، والميم مرتبة ثانية للشفعية وهي الأربعة، فإن لها المراتب الأربعة وهي الأربعون في العشرات، وللنون مراتب خمسة وهي الخمسون، والخمسة: هي المرتبة الثانية للفردية؛ لأن أول الأفراد ثلاثة عند أصحاب العدد فلهما حُكم المجاورة في العدد؛ لأن الأربعين مجاورة لخمسين، ولهذا تدغم النون في الميم، وخفيت فيها، وإن الميم أولها منعطف على أخرها كالواو والنون فأشبهتهما، وللميم مرتبة ليست لغيرها وهي المرتبة الشفعية، والنون كذلك فإنها من عالم الأنفاس والروائح فلها طريق في الخيشوم ليس لغيرها ذلك فكل منهما حرف شريف والميم لأبينا آدم، ولنبينا محمد عليهما وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة، وأكمل التسليم إلى الأبد فهما شريكان فيها.

و(**الياء**) المتصلة بالميمين بسبب الوصلة بينهما؛ لأنها حرف علَّة.

فعمل نبينا ﷺ في آدم عليه السلام عملاً روحانيًا بالياء، وإليه إشارة بقوله ﷺ: «**كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين**(١)».

وكذا وقعت في أول اسمه وآخر اسم آدم، وعمل آدم في نبينا ﷺ بالياء عملاً جسمانيًا فآدم أبو محمد، وعيسى وأبونا في الجسمية، ومحمد أبو آدم، وأبونا وجد لعيسى، فإن أبوه روح القدس، وهو ابن لنبينا من حيث الروح، (فالياء) لها أول العقد؛ لأنَّها من العشرة فلها الأحدية في إنشاءِ العقد، ومرتبتها ثانية كالباء؛ لأنها ثانيةٌ من الأربعة التي اختصت بها العدد من الآحاد، والعشرات، والمئات والآلاف.

والباء هي الثانية من مراتب الحروف والوجود المطلق كما مرَّ، ولها البدايةُ في اليقين وفي قوله تعالى: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا**﴾ [فاطر:٢]، فهي النفخة الرحمانية كما أنَّ للباء بداية في الوجود، فلذا صارت نقطتهما في التحت إلا إنه

(١) رواه أحمـد في المسند (١٢٨/٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٥٣/١٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩٠/٦).

جعل نقطتان للياء حتى تتميز عن الباء؛ لأنها متميزة عنها بالعشرة التي لها دون الباء، ولها المرتبة الثانية من مراتب الطبائع الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، فهي باردة واليقين أيضًا موصوف بالبرد وهو من أوصاف السعداء، والأولياء؛ لأن البرد من الفرح والسرور.

(والميم) لها دلالة على الملك والملكوت، والمراتب الإلهية والكونية والمعروف، والمحبّ والمحبوب، والمريد والمراد، والموجد والموجود، والمبدئ والمحصي، والمحي والمميت، والمالك والملك والمدام، والمقيم والمقام وغير ذلك.

فهي الدائرة التي أوله آخره، وآخره أوله، وهي المشتملة على العلويَّة والسفليَّة، ولهذا اتَّصلت الياء الساكنة بالميمين؛ لأنها حرف علة فعنها ظهرت الأحكام، والأمور المقربة للسعادة الأبدية؛ ولأنَّها حرف الأنبياء عليهم السلام حيثُ وقعت بين ميم آدم، وميم محمد عليهما الصلاة والسلام كما مرَّ.

قال الله تعالى في اتِّصال الأمر بيننا وبينه من هذا الوجه: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ [فصلت:٦]، ﴿**بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً**﴾ [الجمعة:٢]، ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ [التوبة:١٢٨]، ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ [الأحزاب:٦]، والكل من هذه الآيات يعطي الاتِّصال فاتصلت بهما هكذا ميم، واتصلت الواو بالنون الأول هكذا نون لما مرَّ، ولم تتصل الألف بالواوين هكذا واو؛ لأن الواو الأولى و واو الهوية والهاء داخلة فيها كدخول الخمسة في الستة فأغنت عنها والواو الثانية واو الكون، وهي تحققت بها الهوية فوجدت بصورتها من أنواع أشكال (الهاء) سواء كان هكذا ه أو هكذا ه فتكون واو مقلوبة، أو هكذا ه فتكون رأس الواو.

فهذه الأشكال الثلاثة مقطوعة، وإن وُصلت فلها شكلان هكذا هـــ ه، والواو موجودة فيهما كما ترى في الأول مستقيمة، وفي الثاني مقلوبة، فهذا دليل على قوة نسبة الروحاني إلى جانب الحقِّ المتعال، فالواو هي الدليل على وجود الصورة في قولهﷺ:

«**إن الله خلق آدم على صورته**(١)»، فظهر الكون على صورة المكون وحال بينهما

---

(١) **حديثٌ صحيحٌ**: رواه البخاري (٥٨٧٣)، ومسلم (٢٦١٢)، وأحمد في المسند (٢/٢٤٤)، والحميدي (٢/٤٧٦)، من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

حجاب العزة الأحمى المستدعية لرفع المناسبة بين الخلق والجناب الأعلى، فلا مناسبة لألف الأحدية بواوين واو الهوية، وواو الكون، فلذا لم يتصل بأحد منهما، فإذا نظرت إلى الكون من حيث الصورة فهو عدم، وإذا نظرته من حيث الذات فهو وجود.

قال الشيخ قدس سره: المد الموجود في الميم يدلُّ على أنَّ كلا من آدم، ومحمد عامل في الآخر، آدم من جهة الجسمية، ومحمد من جهة الروحية.

وقال: إن ميم بسم لآدم فإنه صاحب الأسماء، فالمد الموجود فيه عالم الأجسام ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء:١] لا نحو: خلقت من آدم، ولو خلقت من غيره لما صدق من نفس واحدة من حيثُ الجسمية، وميم الرحيم لمحمد ﷺ؛ إذ هو صاحب الرحمة ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

الأول: رحمة الإيمان.

والثاني: رحمة الإيجاد.

فالمد الموجود فيه كان استمداد عالم الأرواح، فظهر مقامه ﷺ في عالم الأرواح أولاً ومقام آدم أخيرًا، أو في عالم الأجسام ظهر مقامه أخيرًا، ومقام آدم أولاً، فقيل لأجل هذا المذكور: بسم الله الرحمن الرحيم فهو الأول بالروحانية والآخر بالجسمية وآدم بالعكس، فأول من تنشق عنه الأرض غدًا محمد ﷺ فتبدوا روحانيته من أرض جسمه فيخلع عليه ويقرب.

وهذا الترتيب المذكور فيه إشارة إلى أن الخلق محجوب بالأسماء فيثبت لكلِّ اسم مسمًّى مستقلاً فيقع في تيه الشرك والضلال، فيجب على العبد أن يخرج عن الأسماء فتغيب عنه المسميات إلا الله فيصل إلى الله فينتفع من جلاله وهو الرحمن، ويتمتع من جماله وهو الرحيم فما لم يخرج عن الاسم في النطق لا يصل إلى النطق بالله، وما لم ينطق بلفظ الله لا يصل إلى الرحمن وكذا الرحمن بالنسبة إلى الرحيم.

وفي البسملة أربع كلمات الأول بسم، والثانية الله، والثالثة الرحمن، والرابعة الرحيم، وتحت كلٍّ منها معاني ودقائق لا تُحصى، بل ليس شيءٌ خارجًا منها فلها الحيطة لجميع

المراتب الحقيَّة والخلقيَّة، وكلّ ما فيها مندرج تحت الباء وما في الباء مندرج في النقطة التي تحتها، وتلك النقطة لها طرفين طرف الغيب، وطرف الحس فانتقلت من الغيبية إلى الحسية، ثمّ ظهرت بالتكرار منها الحروف الثماني والعشرون، كل منها مركب من عدة نقطات، فالألف من سبعة، والباء والتاء والثاء من تسعة، والجيم والحاء والخاء من خمسة، والدال من ستة، والراء والزاي من أربعة، والسين والشين كالدال والذال، والصاد والضاد من ثمانية، والطاء والظاء من إحدى عشر، والعين والغين كالحاء والخاء، والفاء والقاف كالراء والزاي والكاف من خمسة عشر، واللام من عشرة، والميم كالفاء، والنون كالباء والواو من اثنا عشر، والهاء كالحاء، والياء كالألف، وظهرت من الحروف كلمات غير متناهية، ومن الكلمات الكلام إلى ما لا يدخل في الحدّ والحصر، والعين واحدة ظهرت من الجموع وبطنت في المجموع، والكثرة إنما هي في الأسماء باعتبار خصوصياتها التي هي التعينات، والأسماء نِسب وإضافات وهي أمور عدمية بالنسبة إلى الخارج، وإن كانت بالنسبة إلى العقل موجودات، فليست في الوجود إلا ذات واحدة تتراءى متكاثرة بانفياض تلك الأمور العدمية إليه.

وقد عُلِم مما مرَّ وجه قولهم:

إن معنى القرآن كله مندرج في الفاتحة، ومعناها في البسملة، ومعنى البسملة في باء البسملة، ومعنى الباء في النقطة، ونشير إلى طرف من إشارات هذه الكلمات الأربع على قدر البضاعة المنجاة، وإن كانت من باب تحصيل الحاصل؛ إذ ما تركوا خصوصًا ابن العربي قُدِّس سرّه شيئًا إلا وذكروه بأفصح العبارات، وبينوه بأوضح البيانات، لكن بحكم لكلّ جديدٍ لذة.

وإن الله لا يتجلّى في صورة واحدة لشخصين كما لا يتجلّى في صورة واحدة لشخصٍ واحد مرتين فنتشبث بأذيالهم، ونقول: بأقوالهم، ونتكلم بكلامهم، فنقول: قد مرَّ في الكلمة الأولى من الإشارات ما يغني عن البيان هنا.

الجلالة:

فنقول في (الجلالة) أي: لفظ الله؛ لأنه مسمّى بها عند الطائفة، يراد بها عندهم إمَّا الذات المطلقة المجردة عن جميع النِّسب والاعتبارات حتى عن قيد الإطلاق والتجريد، أو

المرتبة الإلهية أي: أحدية جمع الأسماء الفعليَّة الوجوبيَّة، أو أحدية جمع جميع الأسماء الفعليَّة والانفعاليَّة والوجودية والإمكانية، كذا قاله الجامي في: «شرح الفصوص» رحمه الله.

وهو على ما قاله الشيخ محي الدين ابن العربي قُدِّس سرّه:

«بمنـــزلة الذات للأسماء، ففيه يندرج كلُّ اسم، ومنه يخرج وإليه يعرج، وهو عند المحقِّقين للتعلق لا للتخلق، بل هو دليل الذات فقط، وله ظهور فيما ليس للذات التحلِّي فيها من المراتب الكثيرة، فالجلالة تعطي من المعاني المحتوية عليها ما يعطي ذلك الاسم الخاص من الأسماء به، فتكون نائبًا عن ذلك الاسم، وفيه يكون شرفه فالمذنب إذا قال: يا الله اغفر لي، فإن وقعت الإجابة فلا يجيبهم إلا الاسم الغفار، والجلالة هنا نائبة منابه، وله شرف في هذا المقام لقيامها لهيمنتها على جميع الأسماء مقامة وهي محتوية على أربعة ظاهرة في الرقم (ألف) الأولية، و(لام) يد الغيب المدغمة، و(لام) يد الشهادة المنطوق بها و(هاء) الُهوية[١]، وعلى خمسة ظاهرة في اللفظ».

وحَكَمَ الشيخ بعدم ظهور اللام الأولى في اللفظ، وحَكَم بوجود حروف أخرى فيها ليست بظاهرة لا في اللفظ ولا في الرقم، وهي(واو) (هو)و (واو) (الهوية) إذا الهاء تدل عليهما، فالواو مدلول عليها، وبالجملة فحروفها من كلِّ التقادير لا تزيد على ستة وهي

(١) والهوية بضم الهاء: يُراد بها عند الحكماء: الحقيقة الجزئية؛ لأن ما به الشيء هو هو، إن كان جزئيًا تسمَّى بذلك. وإن كان كليًا يُسمَّى بالماهية، وإن لم يعتبر فيه كلية ولا جزئية كان حقيقة، فهي أعم منها. وهذا المعنى وإن كان صحيحًا في نفسه عند السادة حيث أن الوجود الحق عندهم جزئي لا كلي: أي هو شيء واحد ظهر بكثرة إلا إنهم: أي السادة اصطلحوا على الهوية بأنها الوجود الحق الذي لم يؤخذ بشرط شيء، ولا بشرط لا شيء، فإن الوجود كما قدمنا إما أن يؤخذ لا بشرط شيء، وهو الذات البحت.

وإما أن يؤخذ بشرط شيء ولو كثرة، وهو مقام الجمع المعبر عنه بالواحدية، وإما أن يؤخذ لا بشرط شيء ولا بشرط لا شيء، وهو هذه الهوية السارية بكل شيء، أي شيء كان، وهي الوجود الحق المذكور، والمراد بالسريان الظهور في المظاهر: أي ظهور هذه الهُوية في كل شيء، كما يشاهده العارفون فإنهم صرَّحوا به، لا يكون الكامل كاملاً حتى يرى هوية الحق سارية في كلِ شيء، بل وهويته كذلك؛ إذ هي هي، ولا يظن الحلول بقسميه، بل ولا يتوهم أن لا إثنينية أصلاً، بل شيء واحد تعين بتعينات حسية وغيرها رجعت إلى عدم محض. وانظر: كشف الأسرار لصلاة سيد الأبرار للعطار (ص١٢٥) بتحقيقنا.

هذه (أ ل ل أ ه)، فالألف الأولى إمَّا ألف الأولية، أو ألف القدرة، أو الأحادية المقتضية للانعدام، والألف الثانية في اللفظ دون الخط إشارة إلى الكمال الذاتي، فبثبوتها لفظ تدلُّ على تحقق وجود نفس الكمال في ذاته تعالى، وبسقوطها خطًا تدل على عدم نهاية الكمال؛ إذ المسقط لا يدرك فذلك الغير المتناهي، أو تدل على الذات البحت الذي كان فيه العماء ليس فوقه (هوا) ولا تحته (هوا) من غير اعتبار شيء فيه حتى الأحادية، واللامين إشارة الجلال والجمال المقدم إلى الجلال؛ لأنه أسبق إلى الذات من الجمال لعزَّته المتقدمة والمؤخر إلى الجمال المطلق الساري في المظاهر أو (اللام) الأولى للمعرفة؛ لأن (الألف) لكان الله ولا شيء معه، و(اللام) الثانية لام الملك، فإنه لو زالت صورة الألف واللام الرقمية يبقى له، و(الهاء) كناية عن غيب الذات المطلقة باعتبار أن (الهاء) أول الحروف ولها المبدأ وهو غيب في الإنسان وأقصى الغيب، أو أنه كناية عن صفة الباطن، وحتى يكون الألف كناية عن صفة الظاهر، فإن الأول للإضمار، والثاني للإظهار.

وقال الشيخ الجيلي قدس سره: استدارة رأس الهاء إشارة إلى دوران رحا الوجود الخفي والخلقي على الإنسان الكامل، فإن في عالم المثال كالدائرة فإن شئت قلت: هي خلق وجوفها حق أو بالعكس أو قلت: بأن الأمر فيه مبهم دوري بين أنه خلق فله العبودية والعجز والافتقار، وبين أنه على صورة الرحمن فله العز والكمال، فهي الحقيقة البرزخية التي هي للكُمَّل والجمع مع الفرق، ويجوز أن يُقال أن اللامين تدلان على النعمتين المتحركة على الظاهرة والساكنة على الباطنة؛ لأنهما متفقتان في الجنسية كاللامين.

وأما (الواو) فهو على ما قاله الشيخ الأكبر قدس سره لعالم الشهادة، كما أن الهاء لعالم الغيب، والواو في الهاء ما لها ظهور لا في اللفظ ولا في الرقم؛ لأن الغيب المطلق هو الله تعالى، ولا يتمكن ظهور عالم الشهادة فيه فكانت غيبًا في الغيب، وغيب الغيب هو هذا، ومن هنا يثبت شرف الحس على العقل؛ لأنه غيب في العقل، واليوم هو الظاهر دون الحس، وفي الغد نظرتْ إليه تعالى الأبصار فكانت الغايات لها، والبدايات للعقول، فالحس أشرف من العقل في كلِّ شيء؛ لأنَّه إليه يسعى العقل ومن أجله ينظر، فصار(عالم الشهادة) غيب الغيب، ولذا ظهر في الدنيا من أجل الدائرة؛ إذ الدائرة ينعطف آخرها على أولها كانعطاف آخر الواو على أوله هكذا (واو) فصار (عالم الشهادة) أولاً مقيِّد عما

يجب له من الإطلاق، فلا يبصر البصر إلا في جهة، ولا تسمع الأذن إلا في قرب بخلاف ما إذا انطلق من هذا القيد مثل سماع سارية ونظر عُمرﷺ، وبلغ الصوت إليه مع بُعد المسافة بينهما جدًا؛ لأنه كان في المدينة.

وسارية مع العسكر كانوا فوق همدان بقرب منه في عالم الغيب، وهو (عالم العقل) صار في الوسط لما أنه يأخذ (عالم) الشهادة المقيد عن الحس البراهين لما يريد العلم به، وعالم الشهادة صار غيب الغيب كما مرَّ، وهكذا صورته:

واللام بصورته الرقمية برزخ لتوسطه بين الألف والهاء، فيمكن الإشارة باللام إلى عالم العقل وهو معقول؛ لأن الهاء للغيب، والألف للظهور والشهادة، واللام للعقل المتوسط.

فإنه يأخذ الدليل من عالم الحس فيصل به إلى ما في عالم الغيب، فلفظ الجلالة بهذه الإشارات شاملة على :«**كان الله ولا شيء معه**»[١]، وعلى مقام المعرفة والملك، وعلى أن ظهور ما سواه به، وعلى أنّه باطن كما هو ظاهر، وأنه لا مقاومة لاسم من الأسماء معها ألا ترى أن فرعون صرح بالربوبية فقال: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾ [النازعات:٢٤].

وما قال: أنا الله؛ لأن الربوبية لا تقوى قوة الألوهية، ودعائه الألوهية ما كان بلفظ الله بل بلفظ إله لا مطلقًا بل مقيدًا بغيره فقال:

﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ [القصص:٣٨]، وذلك؛ لأنه قالها: على المشيئة لا عن الحال من طريق الأمر فلم يتجرأ أن يقول: أنا الله أو إله بالإطلاق، فلا يرد قول من قال: هذا عن الحال من طريق الأمر.

كما وقع لأبي يزيد البسطامي قُدِّس سرّه حيث قال: «مرة أنا الله، وقال: إنني أنا الله لا إله أنا فاعبدون».

وهذا من كمال سريان الألوهية بحيث لا يبقى موقع فارغ منها من الظاهر وهو من حيث الواقع، فإنها ليست جارحة من جوارح أمثال هذا القائل، ولا عرق من عروقه، ولا شعرة من شعره إلا وهي ذاكرة له تعالى وعارفة به تعالى، ولفظ (الله) وقع في القرآن على

(١) رواه البخاري (١١٦٦/٣)، والبيهقي في الكبرى (٢/٩) بنحوه.

ما قاله الشيخ ﷺ بلسانين العربي والعبراني أو لسان الظاهر ولسان الاعتبار.

الرحمن:

وأمَّا اسم (**الرحمن**) [1] فله الهيمنة على جميع الأسماء كاسم (الله) لله الأسماء الحسنى، وللرحمن الأسماء الحسنى وهما مدعوان: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى** ﴾ [الإسراء:١١٠] لكنَّ الله ممنوع الحِمى مطلقًا أبدًا، وكذا الرحمن ما دامت معه ألف أنا، ولام المعرفة، وإذا زالا تقول: يا رحمن الدُّنيا والآخرة كما تقول: إلهنا وإلهكم أو إلهك و إلهي؛ لأنه حقًا تقع الكناية عنه بألا فالهاء هو الهوا والهوا هو الله والله هو الهوا والله اسم الذات المجازية التي تتنوع في الصور على البصائر والأبصار، وظهر هذا التنوع البصري في أعيان الأرواح كالصورة الدحيية ونحوها، والهوا من هذا الاسم هو اسم الذات الحقيقية التي تتنوع فيها الصور، وتتقدس في نفسها عن التنوع والانتقال.

قال الشيخ قُدِّس سرّه: «الرحمة تناقض التكيف دون الألوهية، ولهذا قيل لهم: اعبدوا الله ما قالوا: وما الله ؟ ولما قيل لهم: اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن ؟ فزادهم نفورًا حيثما عرفوا الحقيقة وما عقلوها ولو عرفوها لعرفوا أن للرحمن الأسماء الحسنى كما لله، ولو عرفوا أن له الأسماء الحسنى أيضًا لعرفوا أن من أسمائه المكلف والمعبود وغير ذلك أيضًا».

وقال أيضًا: «لما كانت الهيمنة له على جميع الأسماء اختص بالأستواء، وبما في

---

(١) فإن (الرحمن) وصف عام، فهو رحمان الدنيا والآخرة، يشمل أهل القبضتين في الدنيا، ومن له مزج في ذلك كمن يولد كافرًا ويموت مؤمنًا وبالعكس، وكمن أخبر عنه صادق بأنه مؤمن، وكان بحسب الظاهر كافرًا، فهذا كله من متعلقات الرحمن: أي رحمته تشمله، ومن كان من أهل قبضة السعادة فإن له رحمة خاصة لا ينال غيره منها شيء وهي رحمة الرحيم، فتم العالم بهذه الأسماء الثلاثة دنيا وأخرى.

فإن قلت: وكيف تقول أسماء، وقد عبرت بأن (الرحمن) وصف وصفة والاسم غير ذلك؟

قلت: هذا بحث نحوي لا يلتفت إليه هنا، ومجيء هذه الأسماء بعد الباء كمجيء الأسماء بعد اعتبار التجلّي الذاتي، والتعين في المرتبة الواحدية الذي تفرعت عنه الأسماء. وانظر: كشف الأسرار (ص١٢١) بتحقيقنا.

السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وبالعلم بالسر بما هو أخفى، فالرحمن جمع الجمع فإنه المعلم الجاعل العلامة في عين الجمع بالتمانع».

وقال: «بعض الرحمن شاهد غيب اللاهوت، والرحيم شهادة شاهد الرحمن، ومعلوله، والرحمن اشتق من الرحمة مبالغة، ولذا كان المراد إرادة الأنعام ونفس الأنعام على العبد، ثم صرف إلى الذاتي أيّ: الحقيقة الذاتية فصار مُختصًا بالذات بحيث لا يسمَّى به غيره تعالى لكونه الجامع للحقائق الذاتية».

الرحيم:

وأمَّا (**الرحيم**) ففيه الميم المحمَّدي وجامع لأسماء الأفعال، وهي المائة التي نزلت واحدة منها لدار الدُّنيا وبقيت تسعة وتسعون لدار الآخرة، وهو من صفات الأفعال من جهة أنها مأخوذ من الرحمة التي هي نفس النعمة.

فقال بعض المشايخ: إن الهو، والله: سمِّيان الأول بالرحمة، والثاني بالرحيم، والرحيم مشترك مع الرحمن في الإحاطة على الوجه المذكور فهو دائرة الرحمن، والرحمن دائرة الدوائر ووجه الوجوه وجهة الوجهات.

وقال الشَّيخ قُدِّس سرِّه: «اسم من ثلاثة أسماء ظهرت في كلّ منـــزلة، وهو اسم مشترك في التنكير، ومفرد في التعريف اسم مختص بالإيمان والتَّقوى والاتِّفاق والاتِّباع، وهو في الألوهية مطلق، وإذا اتبع لاسم آخر مثل قوله: ﴿**غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة:١٧٣]، ﴿**الْبَرُّ الرَّحِيمُ**﴾ [الطور:٢٨]، فليس لضعف فيه، وهو في الكون مؤيد بغيره، أو مختص مقيد بحضرةٍ قال الله تعالى: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة:١٢٨] فالرحمانية لها الوجود الإيجادي، ولها الصبغة، والرحيم لها الصبغة والنعت والصفة، والرحمن لإيجاد الأعيان، والرحيم لتعين المراتب انتهى».

والرحمن واسطة بين الله وبين الرحيم، ويوجد منها ما هو من خصائص الذات من اللطف والإيجاد والقهر والإفناء فخُص بالذات، ويوجد من الرحيم اللطف والإيجاد والإبقاء دون القهر والإفناء؛ لأن الله تعالى أخبر عن صفة الإفناء، والإيجاد، والإثبات

بالرحمن حيث قال في كتابه العزيز:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:٢٥] ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان:٢٦].

وقال أيضًا: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان:٥٩].

وقد صَرَّحَ به الشيخ الجليل قدّس سره العزيز وحكى: «إنه لما خلق الله (الرحمة) تعلقت (بالرحمن)، فقال: مه قالت: لن أبرح».

فهذه إشارة أشارها المشير، وسر أسره اللطيف الخبير فكلٍ من الاسمين الشريفين فيهما رحمة متعلقة بالثقلين وغيرهما في هذه الدار بالعموم، وفي الدارين بالخصوص، فصار حرف الأول (راء) الرحمة، والثاني حائها، والثالث ميمها في الرحمن دون الرحيم فإن فيه صار رابعًا؛ لأنه ميم الحمد كما مرَّ ولإحاطتها وجدت الميم فيهما، وتوسطت في الرحمن؛ لأنها من عالم المثال المتوسط، و (الراء) مجرد معرفة بنفسها لا تحتاج إلى التعريف، و(الألف) حقيقة فيها من حيث المنطوق، ومنفصلة عنها، فكل حرف من حيث المنطوق توجد فيها الألف عينًا إن كان منطوقها ثُنائيًا، وإن كان ثُلاثيًا فقد تكون عينًا، وقد تكون غيبًا، وعلى تقدير أن تكون عينًا قد تكون متصلة، وقد تكون منفصلة.

وهذا إشارة إلى المعية الأزلية وإلى اتِّصال الوجود بالعالم ظاهرًا وباطنًا، وإنه ليس شيء خياليًا منه، و(الألف) في (الواو) إشارة إلى التكرار من غير انتقال، والحال مجددًا (كالراء) مُعرفة بنفسها، (والميم) مَرتبة علوية واجبة ليس لها مثال في السفل، والنون والواو في أنها حقائق في التنـــزلات بالتجليات إلا أن وسط الواو الألف المجرد العلوي الذي ليس له مثال في السفل في الرسم العربي ووسط النون الواو الذي لا مثال له في المجردات العلوية، والياء معرفة ليس لها مثال في العلو.

وهذا الذي ذكرته مبنى على تقسم بعضهم الحروف إلى قسمين: (مجرد) وهو المعرفة بنفسه الغير المحتاج إلى التعريف و(مُعرف) وهو النكرة في نفسه المحتاج إلى التعريف وهو النقطة؛ لأن الفرق بين بعض الحروف بالنقط وهي أصل الحروف كما مرَّ.

والمجرد أيضًا قسمان:

علوية واجبة: التي ليس لها مثال في السفل حتى تتعلق به، ويتعلق بها كالألف واللام، والهاء التي هي حقيقة الجلالة، والميم والكاف.

وعلوية مجردة روحانية: لها مثال في السفل يتعلق بها، وتتعلق به كالحاء، والدال والراء والسين والصاد والطاء والعين.

والمعرف أيضًا قسمان:

ما له في المجردات مثال: كالخاء والجيم والذّال والزّاي والشين والضاد والظاء والغين؛ إذ لو رفع عنها المعرف وهو النقطة لانتقلت إلى الحاء والدال إلى آخر المجردات.

وما ليس له مثال في المجردات: فمتى رفع عنه التعريف لم يبق له محل يصير إليه ولا شكل يُقال عليه، وهو الباء والتاء والثاء والياء والنون.

ثم قال ذلك البعض الذي قسم الحروف بهذا التقسيم: «فالعقول الناطقة لا تحتاج إلى التعريف؛ لأنها أعلام عارفة في نفسها معرفة لحقائقها، والنفوس الناطقة معرفة بالعقول المعيشية المكتسبة، وما من نفسٍ ناطقة إلا ولها مثال من العقول الإلهية، فمتى ارتفع حكم التعريف اتَّحدت النفس الناطقة بمثالها من العقول وتوجهها، والنفوس الحيوانية متى ارتفع عنها حُكم التعريف عادت إلى اللاشيء؛ إذ ليس لها مرتبة في العقول المجردة حتى ترجع إليها، والحقائق المفردة أشرف من العقول المجردة لكونها على صورة الحضرة الكاملة الواجبة من حيث التجريد؛ لأن الألف واللام والهاء والميم والكاف مجردات عن التعريف والمثل، فمن أمحا نقطة النفوس التي هي على مثالها وأزالها ارتفع التعريف والمثل، وصارت المرتبة كالمرتبة الواجبة من غير تعريف ومثل، وهي حقائق الفناء والتجريد، والبقاء بالاتِّحاد والتوحيد» انتهى كلامهم مُلخصًا.

وقال أيضًا: «إن المراتب الإلهية لا تتصل، ولا تنفصل وإنما الانفصال بالنعت والمرتبة لا بالحقيقة، وتفهم هذا الاتِّصال والانفصال إن المداد المطلق هو الوجود».

والقلم[1] هو الحق الموصوف بالوجود تعليلاً بالزيادة وهو المشترك وهو الواضع بالقلم مثال ما فيه تعيينًا في شهادة اللوح، فتكون النقطة أول مركز، ثم كذلك ثاني مركز إلى ستين مركزًا، ولذلك جاء حزب القرآن ستين حزباً تحقيق أجراه الحق، وحكمة أظهرها مفيضًا الأمر والخلق وهو العمر الذي بلغه النبي ﷺ بقوله:

« **يدخلون الجنة على صورة أبيهم آدم ستين ذراعًا**[2] ».

ولذلك قال ﷺ: «**عُمر أمتي ما بين الستين إلى السبعين**[3]».

ولما كانت الأيام التي خلق فيها السماوات والأرض ستة أيام كانت ست عشرات مكررة، وما زاد من الستين في عمر نبينا ﷺ فهو تكملة للتفاوت في الأشهر العربية، فالقرآن نور له الهيمنة على الأنوار.

وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿**وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام:٥٩].

وقال تعالى أيضًا: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام:٣٨].

وهو على سورة مُحكمة موزونة: ﴿**لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق:٣٧]، فالسورة دائرة كاملة، ولكلِّ سورة آية مُحكمة، وهي قطب دائرتها وأُمُّ كتابها، وهي محققة في بسم الله الرحمن الرحيم، فهو فاتحة لكلِّ دائرة وأُفق من الآفاق الكلية، وفلك من الأفلاك الجامعة وانتظامها بنظامه، ففيه المراتب الحقيَّة والخلقيَّة كلها.

وفيه (الألف) التي هي الحقيقة المنفصلة عن الإمكان.

(واللام) التي هي الحقيقة المتصلة بالإمكان.

و(الميم) التي هي دقيقة منفصلة عن الوجوب؛ لأن الوجوب منفصل عنه لما مرَّ.

---

(١) القلم: علم التفصيل، فإن الحروف التي هي مظاهر تفصيله في مداد الدواة، ولا يقبل التفصيل ما دامت فيها، فإذا انتقل المداد منها إلى القلم تفصلت الحروف به اللوح، وتفصل العلم إلى لا غاية.

(٢) رواه أحمد بن حنبل في المسند (٢/٤١٥)، الطبراني في المسند (٤/٢٩٧).

(٣) رواه الترمذي في السنن (٤/٥٦٦)، أبو يعلي في المسند(١/١٦٧).

و(الباء) الموحدة التي هي العدل، والحق الذي قام به السماوات والأرض.

و(السين) هي التي هي من المجردات العلوية التي لها من السفلي مثال، وهي الدالة على عدد السين، ولا فرق هنا بين المسمَّى والاسم إلا بمركز معرف بنقطتين إشارة إلى أن له مرتبتين؛ لأنه من العشرات وداخل فيه الآحاد فافهمه.

وفيه (الحاء) المجردة العلوية التي لها مثال من السفلية، ولا يعرف سر الحاء إلا من هو مثل الحاء فلا يحتاج إلى معرف، وانظر إلى أنه هو حرف ثاني من اسم أشرف الخلق، ومن روحه حملة عرش الحق، وفيه ترتيب عجيب على نمط غريب؛ لأنه بدأ بالباء؛ لأنه اثنان لا بالألف حيث أريد الظهور، وإدخال الوجود الأول في الثاني، فصارت الباء من عالم الشهادة من أجل الظهور والغيب مدرج، فلمَّا انتهى إلى السين عاد إلى ما منه بدأ هو الميم، ثم بدأ باللام، فعاد إلى ما منه بدأ وهو الهاء.

وقال الشيخ قُدِّسَ سرّه: «ثم بدأ بالألف في كلمة الله فلمَّا وصل إلى اللام عاد إلى ما منه بدأ وهو الهاء، فالتقت اللام بالسين فى الوسط، فكل شيءٍ بسم الله، ومن عرفه لم يحتج إلى علم سواه».

وقال بعض الأكابر: بسم الله منك بمنـزلة كن منه فهو الحادي لكلّ شيءٍ، والساري في كلّ شيءٍ فلا يخرج منه شيء، وتحقيقه أن وجودي بذاتي، بل إن الوجود عين ذاتي وللصفات كلها قائمة لي، والأسماء لي ووجود الأشياء وظهورها بي، وقيامها بقيوميته فله الأمر من قبل، ومن بعد وله الحمد.

ثم نتكلم بلسان العقل الباء جاره والاسم مجرورها وهو متعلق ولابد له من متعلق، فإذا لم نره ظاهرًا فحُكم بأنه مُقدَّر فهو باطن وغيب، ولما كان المتعلق بفتح اللام غيبًا غير ظاهر مع كونه متحققًا ثابتًا يتطرق إليه جميع الاحتمالات الممكنة لعموم إحاطته، واشتماله جميع الأمور، والأعمال والأفعال الظاهرة والباطنة، فيمكن أن يكون المراد أن الأمور كلها بسم الله إجمالاً وتفصيلاً أي: من حيث التعيين، ففي لسان العقل رمز غريب إلى لسان الحقيقة.

والاسم عند النحاة اللفظ الدَّال على المسمَّى وليس بمسمى بل لفظه وأثره، فالمدعو بذلك اللفظ المسمَّى والألفاظ أيضًا المسمى.

وكلمة (الله) إن كان اللفظ الدال على المسمى فالإضافة للبيان؛ إذ لا يجوز أن يكون للاسم، وإن قلنا: الاسم قد يُطلق ويراد به المسمَّى، فهنا أُطلق لفظ الله وأريد به المسمَّى وهو الذات الكاملة الواجبة فالإضافة للاختصاص أي: اختصاص جنس المضاف بالمضاف إليه فيعمُّ جميع اسمائه، أو اختصاص الفرد الخاص وهو لفظ الله، فيكون مع التقدير الأول واحدًا؛ لأن التقدير الأول بسم هو لفظ الله أي: بلفظ الله، والتقدير الثاني باسم هو للذات المسمَّى بهذا اللفظ وهو الله، فكأنه قال: بلفظ الله أيضًا، والرحمن الرحيم صفتان مشبهتان عرض عليهم اللزوم، أو حُكم اللزوم، والمراد بهما إمَّا إرادة الإحسان والإنعام أو نفس الإحسان والإنعام من إطلاق السبب في مسببه القريب أو البعيد.

الحمد لله:

والحمد عند هذه الطائفة إظهار صفات الكمال، ولا كمال إلا للحق تعالى سواء لوحظ بعين الجمع أو الفرق، وكذلك مظهر لها الكمال جمعًا وفرقًا[1].

قال النبي ﷺ: «**لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**[2]».

وثنائه تعالى على نفسه هو إظهار كماله بتجليه وظهوره في المظاهر على هذا النمط

---

(١) قال القطب القونوي: أظهر مراتب الحمد: «مرتبة الأفعال والأسماء» التي متعلقها «مرتبة الفعل»، وهو في مرتبة الصفات وأسمائها يكون مدحًا لا حمدًا، فإن بقيت الصفة فللوجه الجامع الرابط بين مرتبة الصفة والفعل.

والحمد المتعلق بالذات هو حمد الحمد وهو ثناء الصفة بنفسها لمن هي صفة ذاتية له غير مفارقة ولنفسها أيضًا.

وأظهر مراتب الحمدُ مرتبةُ الأفعال والأسماء التي متعلّقها مرتبة الفعل، وهو في مرتبة الصفات وأسمائها يكون مدحًا لا حمدًا، فإن بقيت الصفة؛ فللوجْه الجامعِ الرابط بين مرتبة الصفة والفعل.

والحمدُ المتعلّق بالذات:هو حمد الحمد، وهو ثناء الصفة بنفسها لمن هي صفة ذاتية له غير مفارقة ولنفسها أيضًا. وانظر: النفحات (ص٩٨) بتحقيقنا.

(٢) رواه مسلم (٣٥٢/١)، ومالك في الموطأ (٢١٤/١).

الكامل والنظام المشاهد، وهو مصدر بمعنى الفاعل أي: الحامدية، أو بمعنى المفعول أي: المحمودية أي: الحاصل بالمصدر أي: الهيئة التي عليها الحامد أوالمحمود عند تعلق الحمد به، أو نفس المصدر أي: النسبة، وعلى التقادير الثلاثة فاللام فيه إما الجنس أو الحقيقة أو الاستغراق.

فالأقسام تسعة حاصلة من ضرب الثلاثة في الثلاثة، فإن كل من لام الجنس والحقيقة والاستغراق يحتمل فيه معاني الحمد الثلاثة، والله علم الذات المجردة عن جميع النسب حتى عن التجريد، أو غير ذلك من المعاني التي سبقت للفظ الجلالة وهذا المعنى أنسب بالمراد، والمعنى الثاني أولى من المعنى الثالث، والله أعلم وهو يقول الحق ويهدي السبيل.

فالمعنى جنس الحامدية، أو المحمودية، أو الحمد على تقدير أن يكون اللام للجنس، أو الحقيقة المطلقة الشاملة لكلِّ حامدية أو محمودية أوحمد المعبر عنها بلفظ الحمد على تقدير كونها للحقيقة، أو كل فرد من أفراد الحامدية أو المحمودية أو الحمد من أي حامد صدر، وعلى أي محمود وقع على تقدير كونها للاستغراق خالص ملكًا واختصاصًا واستحقًا للذات البحت المعرات عن النِّسب والاعتبارات، وقيل: بعدم الفرق بين لام الجنس والحقيقة، ومن لاحظ الحمد بعين الجمع واستهلاك المظاهر في الظاهر لا يقدر أن يُحمِّله على الاستغراق؛ إذ لا تعدد في الجمع، ومن لاحظه بعين التفرقة فيُحمِّله الاستغراق أيضًا بتأويل أنه خالق جميع المحامد ومالكه، وإلا فلا يقول: أن الحامد هو الله، والمحمود أيضًا هو الله في صورة (حمد زيد عمر) لا في مرتبة الإطلاق ولا في مرتبة التقييد، بل في الصورة المذكورة.

يقول: إن الحامد (زيد) والمحمود (عمر)، فلو قال: كلُّ أفراد الحمد مثلاً لله بلا تأويل يلزم أن يكون حمد زيد لعمرو حمد لله لا حمد زيد، ويكون الحامد حقًا هو تعالى لا زيد، وأن يكون المحمود هو تعالى لا عمر، وهو ينسب القائل بهذا إلى الكفر والزندقة، فلا يمكن له الحمد المذكور إلا بالتأويل بأنه تعالى خالق لكلِّ أفراد الحمد أو مالك أو صاحب، ومن لاحظه بعين جمع الجمع، وهو أن يرى الوحدة في عين الكثرة والكثرة في عين الوحدة، فلا تحجبه الكثرة عن الوحدة كأهل الفرق، ولا الوحدة عن الكثرة كأهل الجمع، فهو يحمل (ال) على الجنس، والحقيقة والاستغراق بلا تأويل، فعنده الحمد كله

لله، وليس كله لله بخلاف من كان في الجمع فإن الحمد كله لله لا غير، ومن كان في الفرق فإنه يقول: بالبعض لله، وبالبعض الآخر لما سواه إلا بالمذكور، فحقًا يكون كمن في الجمع في إثبات جميع أفراد الحمد من حيث الخلق لله لا غير، وكمن في جمع الجمع من حيث إثبات الحمد لغيره تعالى أيضًا.

وفي الحقيقة لاكمال الإ كماله، ولا مظهر له إلا هو جمعًا أو فرقًا، فهو الحامد في كلّ مرتبة من مراتب الإطلاق والتقيُّد، وهو المحمود لكلّ فضيلة لا حامد سواه ولا يحمد أحد إلا إياه.

واعلم أن هذا الحمد على لسان الحقيقة إشارة إلى حمده الأزلي نفسه بنفسه؛ لأن كل موجود ممكن إشارة إلى ما كان في الأزل في باطن علمه تعالى، وهو شامل للشكر والمدح أيضًا، فهو الشاكر والمداح أيضًا.

وقال صاحب «مرآة الأرواح»: «حمد الله تعالى ذاته في الأزل بالوحدانية، وصفاته بالكمالية وشكر الذات على نعمة الوجود، والصفات على نعمة بذل الوجود بالجود، ومدح الذات بنفي جميع الذوات في الوجود، والصفات على بذل الأوصاف لكلّ ممكن وموجود، وأفنى بها فيها أي: في صفاتها، وهذا الحمد وإن كان مطلقًا باعتبار إضافته إلى حضرة اسم هو أحدية جمع جميع الأسماء الإلهية وهو الله إلا أن حال الحامد يُقيِّده بحضرة خاصة من حضرات الأسماء الإلهية؛ إذ الحمد لا يكون إلا من تلك الحضرة الخاصة.

ولهذا قيده بما يدل عليها حاله قُدِّس سرّه تصريحًا بما يفهم إشارة فقال: **(الذي أودع البيان الإلهي ببدائع المعاني الفاخرة)** **(أودعه)** أي: حفظه كودعه أو جعله مصونًا، أو وضعه على سبيل الأمانة في شيء، و **(بيان)** مصدر **(بان)** أي: اتَّضح وأوضح؛ لأن بان وبين وتبين وأبان كلها لازمة ومتعدية وكل منهما مُحتَمَل أي: الاتِّضاح والإيضاح فافهم، و **(الألي)** كل اسم إلهي مضاف إلى الملك أو الروحاني، وأمَّا إن كان مضاف إلى بشر فإلهية، و **(البديع)**: ما فاق في الحسن والعجيب و **(المعاني)**: جمع المعنى مصدر ميمي أو مخفف معنى بمعنى ما يقصد من المعاني الغيبية والعلوم اللدنية والمعارف الربانية، وإضافة **(البديع)** إلى **(المعاني)** من إضافة الصفة إلى الموصوف أي: المعاني البديعية، ويحتمل على البُعد أن يكون بديع فعيلاً بمعنى المبدع أي: المخترع، وحقًا تكون الإضافة بيانية إلا إن

المناسب الجمع إلا إن يُقال: إنّ الإضافة إلى الجمع تفيد جمع المضاف أي: مبدعات هي المعاني، و(**الفاخرة**): مؤنث الفاخر وهو الجيد من كلّ شيءٍ، والمعنى الله تعالى هو الذي وضع البيان أي: الاتّضاح أو الإيضاح المضاف إلى الآلّ في المعاني الحسنة العجيبة الحسن الجيدة، ويحتمل حذف المضاف هنا أي: في أداء المعاني البديعية الفاخرة، أو في معرفتها، ويحتمل أن يكون المراد بالبيان النطق الفصيح المعرب عمًّا في الضمير، وحقًّا يكون البيان ظرفًا للمعاني أي: أودع المعاني البديعية الفاخرة في البيان الآلي، وحقًا يكون المراد بالمعنى ما يقصد باللفظ ويفهم منه وهذا أرجح من الأول، لكنَّ الظاهر لا يساعده تأمل وفيه براعة الاستهلال وهي كون الابتداء مناسبًا للمقصود وكذا فيما يأتي والله أعلم فافهم.

(**وجعل من الكلم ما يقرب حدَّ الإعجاز أمد الفصاحة الباهرة**).

قوله: (**من الكلم**) بيان لما قدَّم للحصر، و(**ما**) موصوفة أو موصولة و(**يقرب**) مع متعلقاته صفة أو صلة، و (**حدَّ الإعجاز**) بمعنى مرتبة الإعجاز لا بمعنى أن الكلام بلغ أعلى طبقات الفصاحة بحيث خرج عن طوق البشر ويعجزهم عن المعارضة؛ لأنه حقًّا يكون حدَّ الإعجاز بمعنى غايته ونهايته، فيكون نفس الإعجاز في غاية الفصاحة لا ما يقرب من حدَّ الإعجاز أمدها أي: يكون نهاية الإعجاز طرفًا أعلى والقريب من الطرف الأعلى لا يكون منها للزوم الانقسام فيما لا ينقسم وهو طرف؛ لأنه نهاية الشيء، فيجب أن يكون أمرًا واحدًا لا ينقسم في الامتداد الذي جعل ذلك الأمر طرفًا له وقيل: إن الإعجاز بمعنى نهايته ولا يلزم الانقسام المذكور؛ إذ قد يجعل الطرف نوعًا وماهية واحدة مع تعدد أفرادها، إذ الملاحظ في الطرفية ذات النوع ولا تعدد فيها من حيث نوعيتها وتعدد أفرادها من حيث التشخص والتعين لا يوجب تعدد النوع من حيث أنه نوع، فعلى هذا يجعل نفس الإعجاز طرفًا أعلى، وحدًّا للإعجاز بمعنى نهايته وما يقرب منه من أفراد ذلك النوع والحكم الثابت للنوع يجوز ثبوته للأفراد كالجسمية الثابتة للإنسان ثابتة لأفراده من زيد وعمر وغيرهم.

فكون نوع الإعجاز طرفًا أعلى لا ينافي كون أفراده من غاية الإعجاز، وما يقرب منها أيضاً طرفًا أعلى وفيه نظر؛ لأن حكم النوع من حيث هو نوع لا يثبت للأفراد، وأصلاً كالنوعية للإنسان يمتنع ثبوتها لأفراده، وكالجنسية الثابتة للحيوان فإنه ممتنع ثبوته

للأفرادها من الإنسان والفرس وغيرهما؛ لأن الوحدة لازمة للطبيعة من حيث هي هي والطرفية كذلك، ولا شك أن ثبوتها لطبيعة الإعجاز من حيث هي هي.

وأمَّا الجسمية: فهي من أحكام أفراد الإنسان لا من أحكام طبيعته، وثبوتها لها في ضمن ثبوتها للأفراد بخلاف النوعية والجسمية والطرفية، فإنها ثابتة للطبيعة في نفسها لا في ضمن الأفراد ويرد على الأول أيضًا؛ لأن كون حد الإعجاز بمعنى مرتبته مأخوذ من كلام صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء:٨٢] أي: (**لكان الكثير منه مختلفًا لتفاوت نظمه، وبلاغته، وكان بعضه بالغًا حدَّ الإعجاز، وبعضه قاصرًا عنه تمكن معارضته**) انتهى.

ودلالة هذا الكلام على كون الحدِّ: بمعنى المرتبة مبنية على كون الضمير في (**عنه**) راجعًا إلى حدِّ الإعجاز لا إلى الإعجاز وعلى كون قوله: (**تمكن معارضته**) صفة كاشفة (**لقاصرًا عنه**) لا مقيده، وكلاهما ممنوع وخلا فهما يجوز على أن كون (**الحدّ**) في هذه العبارة بمعنى المرتبة لا يستلزم كونه بهذا المعنى في كلِّ عبارة لعدم الملازمة بينهما، والحاصل أن ما يقرب من حدِّ الإعجاز لا أمد الفصاحة على ما قاله الشيخ قدس سره إلا أن يكون الحد بمعنى المرتبة لا بمعنى النهاية، فإنه على هذا لا يكون أمد الفصاحة؛ لأن القريب من نهاية الإعجاز لا يكون أعلى طبقات الفصاحة كما مرَّ، لكن هذا على تقدير كون الإضافة غير بيانية، وأمَّا إذا كانت بيانية فيكون ما يقرب من حدِّ الإعجاز خارجًا عن نفسِ الإعجاز لا عن أفراده مطلقًا سواء كان الحدُّ بمعنى الغاية والنهاية أو بمعنى المرتبة فافهم.

وأصل الشيء غايته ومنتهاه، و(**الفصاحة**) في الأصل: الظهور والإبانة، وفي الاصطلاح: قد يوصف بها المفرد نحو كلمة فصيحة، والمركب نحو كلام فصيح، والمتكلم نحو شاعر فصيح بخلاف البلاغة، فإنه لا يوصف بها إلا المتكلم والكلام حيث لم يسمع كلمة بلاغية، فالفصاحة في المفرد خلاصه من تنافر الحروف بحيث يوجب ثِقل الكلمة على اللسان، وعن النطق بها نحو مستشزرات بميم، ثم سين مهملة، ثم تاء منقوطة بنقطتين في الفوق، ثم شين معجمة، ثم زاي كذلك، ثم راء مهملة بمعنى مرتفعات، ومن الغرابة بأن لا تكون الكلمة غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال كمسرج بمعنى المنسوب إلى

السريجي والسريج اسم [تبين] ينسب إليه السيوف إن لم يكن اسم مفعول من سرج الله وجهكك أي: نضره وبهجه، أو مطلقًا إن قلنا: بأنه أيضًا كذلك لاحتمال كونه مولدًا مستحدثًا، ومن مخالفة القياس اللغوي أي: خلاف ما ثبت عن الواضع «فالأجلل» غير فصيح و«أبى يأبى»، و «عود يعود» وغير ذلك مما ثبت عن الواضع كذلك أي مخالفًا للقانون فصيح.

وأمَّا (**الفصاحة**) في الكلام فخلاصه من ضعف التأليف بأن لا يكون على خلاف القانون النحوي المشهور كالإضمار قبل الذكر من حيث اللفظ والمعنى والحكم نحو «ضرب غلامه زيد»، ومن تنافر الكلمات بأن لا تكون الكلمات ثقيلة على اللسان وإن كانت فصيحة كل منها نحو: «ليس قرب قبر حرب قبر».

ومن التعقيد بألا يكون الكلام مُعقدًا غير ظاهر الدلالة على المراد لخلل واقع إمَّا في النظم، أو في انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم بحسب اللغة إلى المعنى الثاني المقصود وهو لأنه أورد [الفهوم] البعيدة المحتاجة إلى الوسائط الكثيرة مع خفاء القرائن الدالة على المقصود، وأمَّا في المتكلم فهو ملكة تفيد صاحبها القدرة على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح، فلو وجد التعبير المذكور بدون الرسوخ والثبوت فيه لا يسمَّى فصيحًا اصطلاحًا، وإن رسخ فيه فيسمَّى فصيحًا وجد التعبير بالفعل أو لم يوجد.

وأمَّا (**بلاغة الكلام**): فمطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، وفي المتكلم فملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ، فكل بليغ فصيح لأخذ الفصاحة في تعريف البلاغة دون العكس بجواز كون الكلام الفصيح غير مطابق لمقتضى الحال، وأن يكون لأحد ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ من غير المطابقة للمقتضى.

و(**الباهرة**) الظاهرة الفاخرة، والمعنى إنه جعل سبحانه وتعالى ما يقرب من الكلم أي: الكلم التي تقرب من حدِّ الإعجاز غاية الفصاحة أي: أعلى طبقات الفصاحة بمعنى أنه جعل حدّ الإعجاز وما يقرب منه طرفًا أعلى للكلام البليغ، كما أن ما سواهما طرف أسفل، فيكون حد بمعنى: المرتبة لا النهاية، فحقًا يكون أعلى وما يقرب كلاهما حد الإعجاز، وهو أن يرتقي الكلام في البلاغة إلى حدٍّ يخرج عن طوق البشرية، وهذا هو الموافق لما في المتن.

وقال بعضهم: أن الأعلى هو حدّ الإعجاز وما يقرب منه لا يكون من الطرف الأعلى كما مرَّ تفضيله، والشيخ قُدِّس سره ما التفت إلى هذا القول لضعفه وقلّته فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(وأقام أشباح صور الألفاظ هياكل تدبرها أرواح المعاني بقوة الأسرار الزاهرة)

(أقام) أي: أدام، و **(أشباح)** كشبوح جمع شبح متحرك الوسط أي: الشخص و**(الصور)** جمع صورة وهي: الشكل، والمراد أشخاص الأشكال أو الإضافة بيانية أي: الأشباح التي هي صور الألفاظ أي: الصور الكائنة للألفاظ.

و **(الهياكل)** جمع الهيكل وهو: الضخم من كلّ شيءٍ وهو الشكل أيضًا، فالشيء من حيث تعينه شخص، والهيئة الحاصلة من تأليف الأجزاء صورة وشكل، والهيئة الحاصلة من تأليف الصورة مع المادة هيكل.

فالله تعالى أدام أشباح صور الألفاظ وأشخاصها هياكل أي: فيها أو جعلها هياكل صفتها تدبرها أرواح المعاني الإضافة بيانية أي: الأرواح التي هي المعاني فشبّه صور الألفاظ بقوالب الأجسام وأبدانها، فكما أن الهياكل الإنسانية تدبيرها بالروح، فكذلك تدبير هياكل الألفاظ بمعانيها، وتدبير هياكل الحروف بأعدادها فكمال اللفظ بالمعنى، وكمال الحروف بالأعداد، كما أن كمال الصورة بالروح فالروح للصورة، والمعنى للفظ، والعدد للحروف بمنـزلة الجلاء للمرآة، ويقال: أن الله تعالى أجرى سنته أن لا يساوي شبحًا ومحلاً إلا وهو قابل للروح والروح من أمر الله، وهو يظهر بالنفخ وهو إفاضة الروح فالأمور ثلاثة: الفاعل وهو المفيض، وفعله وهو الإفاضة، والمفاض وهو الروح والكل منسوب إليه تعالى، وبقي أمرٌ رابع غير ظاهر استناده إلى الحق تعالى وهو القابل وهو من فيضه الأقدس، وهو عبارة عن التجلّي الحبي الذاتي الموجب لوجود الأعيان الثابتة واستعداداتها في الحضرة العلمية، والفيض المقدس الوجودي الموجب لظهور ما تقتضيه تلك الاستعدادات في الخارج، فالأول أقدس وأنزه من شوائب الكثرة، فالقابل أيضًا منسوب إليه فالكل منه ابتدئه بحسب فيضه الأقدس، ومنه انتهائه بحسب فيضه المقدس:

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣] بالفناء فيه آخرًا كما ابتدأ منه عند الوجود عن عدمٍ أولاً، فأرواح المعاني تدبر هياكل الألفاظ بقوة الأسرار المتلألأة المنورة المشرقة،

كما أن أرواح الأبدان مدبرة لهياكل الإنسان مثلاً، فالروح أمرٌ واحدٌ في البدن ولا حركة له إلا بإرادة الروح، فلا يُخفى عليه شيء من حركات البدن وسكناته، وليس شيء أقرب إليه من الروح، وقربه إلى جميع البدن على حدٍّ سواء موجود قبل وجود البدن، ويبقى موجودًا بعد فناء البدن، ولا كيفية للروح في البدن، ولا يعلم له أينية في البدن فما خلى عن الروح شيء من البدن، ولا يمس ولا يحس، ولا يمثل بالصورة.

فهو: ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام:١٠٣]، فكذلك المعنى في اللفظ، والعدد في الحرف، وكذلك الحق في الخلق ذاته واحد مدبر للعالم ومحرك لما هو كائن، فلا يتحرك شيء من العالم إلا بتقديره، وقضائه وإرادته:

﴿**لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ**﴾ [آل عمران:٥]، وليس شيء أقرب إليه منه، ولا أبعد إليه كل شيءٍ فهو قريب إلى كلّ شيءٍ، وهو تعالى موجود قبل كل موجود، وبعد كل موجود، ومقدس عن الكيفية والأينية، ومحيط بالعالم كإحاطة الروح بالبدن، ومنـــزه عن أن يكون محسوسًا، أو ملموسًا ﴿ **لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام:١٠٣]، ولا يشبهه شيئًا، فقد علم من التقرير المذكور معنى قول الرسول ﷺ: «**من عرف نفسه فقد علم ربه**[١] ».

وألبس عروس الكلم منصة الكرم خلعة «**إن من البيان لسحرًا**[٢] » (المنصة) بكسر الميم ما ترفع العروس عليه فانتصب وارتفعت، وبفتح الميم وهو المراد هنا المحجلة محركة وهو الموضع الذي يزين بالثياب والمستور للعروس.

وقال الشيخ: (**المنصة مجلى الأعراس**)، وفي اصطلاح القوم التجليات الغيبية، وإضافة العروس إلى العلم بيانية أو من إضافة المشبه به إلى المشبه كلجين الماء، واكتسب الجمعية من المضاف إليه فهو في معنى العرائس أو الأعراس، وكذا إضافة المنصة إلى الكرم، وإضافة

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/١٢٢٥)، وذكر قول الشيخ الأكبر بأنه وإن لم يصح من طريق الرواية لكنه صح عندنا من طريق الكشف، وقد صححه السيوطي وشرحه برسالته: «القول الأشبه».

(٢) رواه البخاري (٥/١٩٧٦)، وأبو داود (٢/٧٢٠)، والحاكم (٣/٧١٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/٢٤٤)

الخلعة إلى قوله: إن من البيان إلخ؛ لأن المراد به اللفظ لا المعنى فافهم.

والمعنى ألبس الله تعالى الأعراس التي هي الكلم، أو الكلم التي هي كالأعراس من منصة هي الكرم، أو من الكرم الذي هو كالمنصة فالجار وهو من مقدر من قبيل قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف:١٥٥] الآية أي: من قومه وهو أولى من تقدير في، ولا يجوز أن يكون فاعلاً لا لبس؛ لأنه عطف على الأفعال المتقدمة من أودع وجعل وأقام وفاعلها الحق تعالى وهو يقتضي مفعولين الأول العروس في عروس الكلم، والثاني قوله: خلعة؛ لأنه تعالى مَلبس، والكلم لابِس، والخلعة ملبوسة أي: ألبس الحق الكلم هذه الخلعة، وهي أن من البيان لسحر، فإن المراد بالبيان هنا، والجان أرجح من احتمال البيان المذكور في الفقرة الأولى، وهو المنطوق الفصيح المعرب عمًّا في الضمير وهو مدح للبيان كما أن قوله: « **إن من الشعر لحكمة**[1] » ذمّ للشعر، وتفصيله موجب للتطويل المفضي إلى الملل، والسحر أطبق القول على أنه من الخوارق، وليس منها لترتبه على الأسباب المعتادة عند مباشرتها يخلق الله تعالى إياه عقبها البتة، فهو كالإسهال المترتب على شرب السقمونيا، فإنه ليس من الخوارق كالشفاء الحاصل بالأدوية الطبية بخلاف الحاصل من الأدعية الصالحة لعدم ترتب الشفاء على الدعاء بالعادة.

وأمَّا **الحكمة**: فلها معاني متعددة، وعند الطائفة هي: الفهم عن الله والمشهور وضع الشيء موضعه من حيث حصول المناسبة المخصوصة الكاملة المجهولة الكيفية.

(فبرزت تزهو وترفل في برود الإعجاب آونه نظمًا وتارة نثرًا).

(الفاء): حرف عطف للتعقيب **(البروز)** الظهور، و**(الزهو)** المنظر، المنظر الحسن ونور البنات والإشراق، وهو المراد ويحتمل الأول، و**(الرفل)**: إرسال الذيل أو جره على الأرض جرًا حسنًا، و**(البرود)** جمع برد بالضم وهو: ثوب مخطط.

و**(الإعجاب)** جمع عجب بالتحريك، والإضافة بيانية.

و**(الآونة)** جمع أوان بمعنى: الحين.

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٧٦)، وابن ماجه (٢/٣٠٩)، وابن حبان في الثقات (٩/١٧)، وأبو نعيم (٧/٢٦٩).

و(**النظم**) التأليف وضم الشيء إلى آخر وجمعه في سلك، والمراد الأبيات والأشعار.

و (**النثر**) ضد النظم وهو من قولهم: نثرًا لشيءٍ ينثره نثرًا إذا رماه متفرقًا كثيره أي: ففي عقب إلباس الكلم الخلعة المذكورة برزت وظهرت الكلم حال كونها تزهو وتشرق، وترفل، وتجر ذيلها على الأرض، وتتبختر في برود هي الإعجاب آونة متعلق ببرزت أي: ظهرت أحيانًا نظمًا، وتارة نثرًا.

وفيه إشارة إلى أن النظم أكثر وإن كان النثر أولى فافهم، وفيه أنه بالعكس بل الأكثر والأولى هو النثر دون النظم إلا أن يقال: أكثر استعمالاً ورغبة لا سيما بين العرب وبالنسبة إلى أكثر الأذهان خصوصًا أذهان الأجنة؛ لأن فهمهم للأشعار أكثر من فهمهم للنثر، على ما قاله السيد الأستاذ العبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرُّه، وظاهر أن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة يؤيد كون النثر أفضل من الشعر، والقرآن كذلك وفيه تأمل فتأمل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(**وأشهد أن لا إله إلا الله الذي تجلت أسراره في معاني الأرواح**) أي:

أعترف وأعلم بنفسي وأعلم الناس أنه أي: الشأن أنه لا معبود بحق يستحق للعبادة إلا هذا المعبود الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال المندرجة تحت حيطة الجلال والجمال، أو لا مراد يصح أن يراد إلا هذا المسمَّى باسم الله، أو لا مقصود يُقصد جمعًا وتفصيلاً إلا هذا المقصود الأعظم الذي من حصوله حصول كل شيء، ومن فواته فوات كلِّ شيء؛ لأنه ما وجد شيئًا من فقده وما فقد شيئًا من وجده، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أنا بدك اللازم فإلزم بدك، فإن حصلته حصل لك كلّ شيء، وإن فاتك فقد فاتك كل شيءٍ.

ولا موجود في الوجود إلا هذا الموجود الكامل الذي كل الموجودات من ضلال وجوده.

فالأول للعوام، والثاني للخواص، والثالث لأخص الخواص، والرابع لخاصة أخصهم.

ولذا قيل: إنه مخصوص بسر القلب لاحظ للشأن فيه إلا من حيث التلفظ، فلا معبود يعبد جمعًا وتفصيلاً إلا هو، ولا يراد حيث ما يراد إلا هو، ولا يقصد حيث ما يقصد إلا

هو قال الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

وحُكم الله لا يتغير، فالسعيد مَن عبده من مكانٍ قريب، والشقي مَن عبده من مكانٍ بعيد، ويلزم من حصر العبادة فيه حصر الإرادة وإلا قصد أيضًا، ولا موجود إلا هو: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، وكان تعالى ولا شيء معه، والآن إلى أبد الآباد على ما كان، فالعالم بأسره صورة الله تعالى من حيث أنه يدرك به، وصورة الشيء ما به يُحس أو يعقل فهو بأسره ظاهره؛ لأن صورة الشيء ظاهره، وهو تعالى بمنـزلة الروح المدبر للبدن، والروح باطن وهو قبل البدن، والبدن يزول والروح يبقى، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، فأول من جهة كونه آخرًا، وآخر من جهة كونه أولاً، وظاهر من جهة كونه باطنًا، وباطناً من جهة كونه ظاهر إلا أنه أول وآخر من جهتين، وكذلك الظاهر والباطن؛ لأنه لو كان آخريته بمعنى انتهاء الوجودات إليه ولا يوجد بعده ممكن آخر للزم الفساد والكذب؛ إذ لا آخر للممكن؛ لأن الممكنات غير متناهية، وإن كانت بحسب نشأتها الأخروية فلا آخر لها، وإذا لم يكن لها آخر، فكيف يكون الحق سبحانه آخرًا لها؟ بل هو آخر لرجوع أمر الوجود وتوابعه إليه تعالى بفناء الموجودات ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً في ذاته وصفاته وأفعاله إذا ظهرت القيمة الكبرى أو القيمة الدائمة المشاهدة للعارفين، فالوجود وتوابعه كان أولاً لله تعالى، ثم نُسب إلى الخلق، ثم بعد هذه النسبة رجع الكل إليه، فالحق تعالى جمع بإطلاق هويته بين الأضداد وهو ظاهر بها أزل الآزال وأبد الآباد؛ لأنه تعالى بهويته سارية في جميع الموجودات بباطنها في البواطن، وبظاهرها في الظواهر.

كما قال الشيخ قدس سره: (**الذي تجلت**) أي: ظهرت أسراره (**في معاني هي الأرواح**)؛ لأن الأبدان للأرواح كالألفاظ للمعاني، وسيأتي أنه لمعت أنوراه في الأشباح، فالأسرار للبطون والأنوار للظهور والجمع فيهما باعتبار التعينات فاعرف.

ففي البواطن باطن، وفي الظواهر ظاهر، ولا يكون ظاهرًا إلا وله باطن، فهو الظاهر في عين البطون، والباطن في عين الظهور، وهو الأول في عين الآخرية، والآخر في عين الأولية، فهو عين ما ظهر وعين ما بطن، وما ثَمَّة من يراه، ولا من يـبطن عنه سواه، لكن إذا ظهر الظاهر بأنانيته وأظهر أحكامه وآثاره بنفيه الاسم الباطن ولا يجامعه، ولا

يتمكن من إظهار أحكامه، وآثاره، وكذا الباطن، فلو قال الظاهر: أنا، يقول الباطن: لا، وإذا قال الباطن: أنا يقول الظاهر: لا، والمتكلم واحد فيهما بحكم أحدية العين، والسامع كذلك وهكذا في كلّ ضد؛ لأنه يثبت مقتضى ذاته، وينفي مقتضى مقابله وعدل عن قوله: (**المتجلية أسراره**) مع كونه أخص إلى قوله: (**الذي تجلت**.. إلخ)، مع أنه بمعناه لاستقرار الصلة في النفوس وإذعان النفوس لها؛ لأنها المطلوبة القصوى، والغاية العظمى، والصلة هنا قوله: (**تجلت**) مع متعلقاته، ثم عطف عليها قوله: (**ولمعت أنواره في مباني الأشباح**)، في القاموس لمع البرق كمنع لمعًا ولمعانًا محركة أضاء ومثله التمع.

و(**المباني**) مفرده المبنى وهو ما يبنى عليه الشيء، والمراد هنا المواد إن كانت الإضافة لامية، والصور إن كانت الإضافة بيانية، و(**الأشباح**) كالشبوح بضم الشين جمع الشبح بفتح الباء وهو الشخص، وقد يسكن كذا في القاموس أي: ظهرت أنوار الحق تعالى من آثار الأسماء والصفات، أو المراد ظهوره أي: يضيء ظهوراته وتجلياته بحسب الاسم الظاهر، فلو أبقيت قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور:٣٥] الآية على ظاهره نقول: بالثاني، وإلا نقول: بالأول بأن تقول: صفاته منورة لهما أو الصفات نورهما، أو تقول: الحق تعالى منورهما أي: موجدهما ومظهرهما، فأنوار الحق أضاءت في المباني التي هي الأشخاص أو الكائنة للأشخاص، فالعلم بأسره ظهوره من ظهور الحق بل عين ظهور الحق على الحقيقة، فالأشياء بذواتها معدومة ووجودها بوجود الله، والأفعال كلها له تعالى لكونها خلقًا له، قال الله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات:٩٦] أي: أوجدكم باختفائه بصوركم، وأوجد أفعالكم كذلك فأنتم وأعمالكم ظاهرة، وهو باطنكم وباطن أعمالكم، فما بقي في الخلق إلا المظهرية، فإن الحق تعالى لا صورة له حتى تظهر ذاته وأفعاله فيها، فالحركات المنسوبة للخلق والكمالات الثابتة لهم للحق تعالى حقيقة، ولهم مجازًا باعتبار ظهورها منهم، فهو كظهور الأفعال والصفات والكمالات في البدن مع أنه ليس له شيء منها؛ لأن حركته للروح وكذا علمه وصدقه ووفائه وسخائه وشجاعته وغير ذلك؛ لأن أعضاء الإنسان وجوارحه أجسام لولا الروح لم تتحرك، ولم تدرك شيئًا ولم تكن لها فضيلة مما مرّ، ولكن ظهور هذه المذكورات في البدن فنسبت إليه لا إلى الروح، ألا ترى إنه لما زال الروح وفارق عن البدن لا يبقى للبدن حركة ولا صفة ولا فضيلة، فصورة الإنسان تثني على روحها بهذه الصفات الجميلة كثناء العالم الذي هو

بمنـــزلة الصورة للحق تعالى عليه، كما قال الله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:٤٤] أي: تسبيحًا بلسان القال؛ لأننا نسمع ذكر الله من الأحجار بلسان نطق تسمعه أذاننا المقيدة في عالم الحس لا في عالم الخيال؛ لأن هذا التسبيح بلسان الحال كما يقوله علماء الرسوم: بأن حديث الله في الصوامت مثل هذا قالت: الأرض للوتد لم تشقني.

قال له الوتد: بلا من يدقني حديث حال، وتسبيح الأشياء تسبيح حال، وإلا بأنه في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا**﴾ [الأحزاب:٧٢] إباءة حال لا قال.

وقال الشيخ قدس سره في «الفتوحات المكية» في آخر الباب الثاني عشر:

«المسمى بالجماد والنبات: عندنا لهم أرواح بطنت من غير أهل الكشف» أي: من إدراكهم إياها في العادة فلا يحس بها مثل ما يحسها من الحيوان، فالكل عند أهل الكشف حيوان ناطق غير أن هذا المزاج الخاص يسمَّى إنسانًا لا غير، ونحن زدنا مع الإيمان بأخبار الكشف، فقد سمعنا الأحجار تذكر الله تعالى رؤية عين بلسان نطق تسمعه أذاننا منها وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله مما ليس يدركه كل إنسان انتهى.

وهذا هو المراد من قول الشيخ في الفصوص: فلكل صورة من صور العالم لسان من ألسنة الحق ناطق بالثناء على الحق، فكل ثناء من كل مثن منه تعالى؛ لأن المثني لسان من ألسنته، وأيضًا كل ثناء واقع على كل مثنٍ عليه فهو واقع على الحق؛ لأن المثني عليه بعض صور تجلياته، ولما ذكر من أن أسرار الحق تجلت في الأرواح الغيبية وأنواره لمعت في الأشباح صار وجود كل شيءٍ من وجوده، بل وعين وجوده واختصت المحدثات بأنواع كرمه وجوده من ظهوره.

وكذا تفرع الشيخ رحمه الله تعالى عمَّ سبق قوله فعمَّ بوجوده الوجود، فأشار إلى أن: (**كل الوجود بوجوده، ولولا وجوده لما كان شيء**)؛ لأنه لا يتحقق شيء في العقل ولا في الخارج إلا به، والوجود في وجوده هو المطلق بدون اعتبار قيد العموم، وهو عين الذات عند هذه الطائفة على الخصوص عند الشيخ ﷺ، وحقًا فالإضافة بيانية والوجود العام هو المنبسط على الممكنات أي: الأعيان الثابتة في العلم والموجودات الخارجية

والذهنية إلا أن الوجود العام على الأعيان الثابتة في العلم ظل للوجود المطلق، فإنه مقيد بالعموم، والعام المنبسط على الموجودات الخارجية والذهنية ظل لذلك الظل لتضاعف التقيِّد، فاللام في (**الوجود**) للجنس أو عوض المضاف إليه أي: بالوجود المطلق وجود كل شيءٍ من الأعيان والموجودات الخارجية والذهنية.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن الظل موجود بلا ريب في الحسِّ تابع في الوجود للشخص لكن لا يظهر إلا إذا كان ثَمَّة من يظهر فيه، وكذا محل ظهور هذا الظل لا يظهر إلا به وذلك؛ لأن النور المحض لا يدرك ما لم يمتزج بظلمة ما، وكذا الظلمة الصرفة لا بد لها في الإدراك من النور.

قال الشيخ قدس سره في الفصوص: فكل ما تدركه أي: من العالم فهو وجود الحق ظهر في أعيان الممكنات أي: تقيد بأحكامها وآثارها فسمي ظلاً وعالَمًا فكل ما تدركه من حيث هوية الحق أي: إطلاقها من غير اعتبار اختلاف الصور فيه هو وجوده أي: الحق تعالى ومن حيث اختلاف الصور فيه أي: فيما تدركه من العالم هو أعيان الممكنات، فكما لا يزول عنه أي: عن كل ما تدركه حين تلبسه باختلاف الصور اسم الظل كذلك لا يزول عنه حين تلبسه باختلاف الصور اسم العالم، أو ما سوى الحق تعالى أي؛ لأن إطلاق هذين الاسمين على كلِّ ما تدركه إنما هو باعتبار كونه ظلالاً لا باعتبار كونه عين ذي الظل، فمن حيث أحدية ظليته أي: من غير اعتبار اختلاف الصور هو الحق :أي؛ لأن الظلية ليست إلا بالاعتبار المذكور، فإذا زال الاختلاف زالت الظلية فصار واحدًا أحدًا، والحق هو الواحد الأحد ومن حيث كثرة الصور فهو العالم وسوى الحق والظل.

ثم قال: (**فالعالم ما له وجود حقيقي**) :أي؛ لأنه هو الحق، والعالم كثرة صور متوهمة فيه وجوده وقيامه بالحق أي: الوجود الحقيقي لا بنفسه كما يتوهمه المحجوبون، وهذا هو معنى الخيال؛ لأنه خيل لك أنه أمر زائد على الوجود قائم بنفسه لا بالوجود خارج عن الوجود أي: الحق وليس كذلك في نفس الأمر انتهى بمدونه مع زيادات ضممتها إليه.

(**فالباء**) في بوجوده كالباء في قولهم: حقيقة الشيء ما به الشيء هو هو، فظاهرها سببية وليست بمرادة، فإنه من ضيق العبارة في هذا المقام، ويحتمل أن يكون بمعنى (من) أي: فعمَّ من وجوده الوجود المنبسط على الممكنات، وليس الوجود العام وجود الحق؛

لأن العام مقيد والوجود الحق مطلق، وأمَّا في الحقيقة فهو عينه لا فرق إلا بالإطلاق والتقييد؛ لأنه امتاز بالقيد عن المطلق، فإذا ارتفع القيد يرجع إلى إطلاقه وهو المعنى بقولهم: إن وجود العالم هو وجود الله تعالى، فافهم الإشارات ولا تعتمد على ظاهر العبارات.

وكما أن بوجوده عمَّ وجود الموجودات، فلا موجود إلا وجوده من وجوده وقائم به، وهو تعالى سار بهويته في جميع الموجودات، فالكل كالطاقات يظهر فيها الوجود الحق من حيث الأسماء والصفات فبظهوره فيها تستحق الكمالات السرمدانية والإعطاءات الربانية.

كما أشار الشيخ قدس سره بقوله: (**وخصَّ بظهوره نسخة المحدثات بأنواع الكرم والجود خصه بالشيء**) خصًا وخصوصًا أي: فضَّله بذلك، و(**النسخة**) المنقول منه، و (**المحدثات**): هي الممكنات، فالحق تعالى خص بظهوره في نسخة المحدثات إياها وفضَّلها بالودِّ (**بأنواع الكرم والجود**) أي: العطاء بأن تفضَّل عليهم بأنواع الإعطاءات التي هي مظاهرها ما تتجلى فيه وبه من الفوائد والعوائد وغيرها مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين في هذه الدار، وفي تلك الدار وغير مما لا يعلمه إلا الله، فكل ممكن موجود له نعمتان أنعمَّ الله عليه بالإيجاد حيث أوجده من العدم، فإن الإيجاد من الله تعالى نعمة لغنائه عن كلِّ شيء، واحتياج كلِّ شيءٍ إلى الوجود حتى لا يكون نفيًا محضًا وعدمًا صرفًا، ثم بعد الإيجاد أنعمه بالإمداد حيث يدفع عنه المضرات، ويجلب له المنافع عناية منه ورحمة وتفضلاً وإحسانًا، ويحتمل أن يكون معنى كلام الشيخ قدس سره خص بظهوره نسخة المحدثات حيث ظهر فيها بأنواع الكرم والجود.

فتكون (**الباء**) في (**بظهوره**)، وفي (**بأنواع**) للصلاة، ويكون (**بظهور**) متعلقًا (**بخص**)، و(**بأنواع**) متعلقًا (**بالظهور**)، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(**وأشهد أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم ترجمان لسان الحق بين الحدث والقدم**) أي: أقرُّ وأعترف وأعلم أن سيدنا ورئيسنا؛ لأنه من السيادة بمعنى الرئاسة (**محمدًا**) عطف بيان أو بدل ﷺ أي: أفاض رحمته بالتجليات الذاتية على محمد القابل للترقي في جميع مراتب الكمال.

(**وسلم**) أي: عليه بالاسم السلام إليه حقائق الكمال، ويعطيه السلامة عن سطوات

تجليات الجلال الذي من شأنه القهر، ويهبه السلامة عن الانحرافات، والتحقق بحقائق المرتبة الاعتدالية، وهو جملة معترضة بين اسم إن وخبرها إخبارية صورة إنشائية معنى في قوة قوله: (**اللهم صلى عليه وسلم**)، وخبر أن قوله: (**ترجمان لسان الحق.. إلخ**) [1] أي:

---

(١) وإذا تأمّلت هذه الأقوال وقرّرتها وجدت فيها سائر الكمالات المخصوصة؛ فهو سيد الرسل، **وترجمان لسان القدم** في الأحكام والآيات البيّنات، أجرى الله تبارك وتعالى على يديه آيات وخوارق عادات، وذلك لقوة كلماته، وفصاحة لسانه في تنوُّعاته، وإيجاز بلاغته الخارقة، وإعجاز الفصحاء، وضربهم سيوف معانيه البارقة: خصَّه الله تبارك وتعالى بأنواع البلاغة، فترجم عن سائر الأنبياء؛ فهو تُرجمان لسان الحضرة، ناطق بلسان القدم عن كل من تقدَّم، أعطاه الله تبارك وتعالى من دراية اللسان ما لم يُعطِ إنسانًا، ومن فصل الخطاب ما يفيد الألباب، جعل الله تبارك وتعالى لـه ذلك طبعًا وخُلقًا؛ فله الحكمة العزيزة، والقوة الغريزة، وأمَّته يتكلمون على لسانه، فيأتون على البديهة بالعجب، ويدلُّون به إلى كل سبب، ويخطبون بديهًا في المقامات شديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون، ويفرحون، ويتوصَّلون، ويتوسَّلون، ويرفعون، ويضعون، فيأتون بذلك بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من حمط اللآل، يتجرَّعون الألباب، ويذلُّلون الصِّعاب، ويُذهبون اللحن، ويهيجون الدمن، ويجرون الجبال، ويبسطون يد الجعد البنان، ويصيِّرون الناقص كاملاً، ويتركون النبيل خاملاً، وهم ما بين وجيه وعارف نبيه، فمنهم الخابر الصابر، والكالم الضائر، والمجد بالعنابر، والمخبر بما هو إليه صائرٌ، وفيهم البدويُّ ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنــزع القوي، ومنهم الحضريُّ ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول، القليل الكُلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية، أخذ منهم العارفون الفارقون، ترجموا، وأحكموا، وأظهروا ببلاغتهم الحجَّة البالغة، والقوَّة الدامغة، فأفواه أنواعهم دابغةٌ، وأنوار تراجمهم بترجمانهم سابغةٌ، هُمُ هُمُ، القدح الفالج، والمربع الناهج، لا يشكون، إن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادتهم، قد حووا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعلُّوا صرحًا لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتفننوا في الغثّ والسمين، وتعالوا في القليل والكثير، وتساجلوا في النظم والنثر، بُهرت ببلاغتهم العقول: وظهرت فصاحتهم بذكرهم المنقول، وتظاهرت حقيقتهم، فهم الفحول، ترجموا، فهم تراجمين الحضرة، وبرهنوا ببراهينهم النضرة، فظهر لهم البرهان، وانقمع ضدهم وهان، ترجم نبيهم العظيم ورسولهم الكريم بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من =

النبي ﷺ مترجم لسان الحق، وكلامه بين (**الحوادث والقدم**)؛ إذ لا مناسبة بينهما، فلا بد من ذي جهتين وهو الحقيقة المحمدية تأخذ الإمداد من حضرات الأسماء الإلهية، وتعطي إلى ما دونها من العوالم، فهو ﷺ ممد العالم بأسره، ولولاك لولاك لما خلقت الأفلاك نصه: والمراد بهذا (**اللسان**) هو اللسان الذي أعطى لنا أي: العربية أو المقصود معنى لسانه لا مطلق لسان الحق؛ لأنه تعالى ما أبرز لنا من الألسن إلا ما يناسب عقولنا، وإلا فله تعالى ألسن لا يعرفها إلا الله.

ويؤيد ما ذُكِرَ ما ذكره الشيخ الشعراني قدس سره في «ميزانه» من بعض هواتفه فإنه قال **هاتفٌ إلهيٌّ**:

«كيف يستَدلُّ علَيَّ شيءٌ من مصنوعَاتي، وأنا أظهرُ من كل ظاهرٍ، وأخفى من كل باطنٍ، وأقربُ إلى كلِ شيءٍ من معرفته بنفسه، ولو أبَديتُ لعبادي لغةً للعزِّ لخطفتُ الأفهامَ ودرستُ المعارف، ولو أبديتُ لهم لسانَ الجبروت لأُنكِرَتِ المعارف»(١) انتهى،

=

بين يديه ولا من خلفه، تنـــزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ، أُحكمت آياته، وفصِّلت كلماته، وقهرت مبالغاته تظافر النحاز وإنجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، فهو الترجمان الذي ملأ الصدور وشفاها، ويسَّره الله تبارك وتعالى لألسنٍ وشفاها، يروي العليل، ويشفِي الغليل، وينفع الخليل، ويوقِّر العارف الجليل، جمع جميع المعاني، وترجم عن جميع المباني، نبعت منه جميع العيون، وترجم فأحكم لأعدائهم الخبون، فصاحته ترجمان لسان القدم، ومنبع العلم والحلم والحكم، فنبعت العلوم من صدره، فجميع سائر المعاني من خلق القرآن. وقال بعض العلماء: لـــه إدراك الأشياء: مسموعًا، ومعقولاً ﷺ.

(١) قلت: ولعظم هذه الهواتف المباركة نذكرها: هاتفٌ آخر:

(كيف يُستَدَلُّ علَيَّ بشيءٍ وأنَا لستُ بشيءٍ يُعلَمُ! ولا مثلي شيءٌ يُشهَدُ، ولو كنتُ شيئًا لجمعتْني مع غيري الشيئيَّة، فيقع التماثل، وأنا لا شَبيه).

هاتفٌ آخر: (جميع التعَرُّفَات التي أبديْتُهَا لعبادي لا تحتَمل تَعرُّفي الذي لم يَبدُ، فإنِّي لا أنا التعرُّف، ولا أنا العلم، ولا أنا كالتَعَرُّف ولا أنا كالعلم، وكلُّ ما علِمَهُ عبادي بأوهَامهم فهُوَ هبَاءٌ منثورٌ).

هاتفٌ آخر: (ما عَرَّفتُهُ لعبادي من القُرْب ليس هو القُرب الذي أعرفُه أنا، فلا بُعدي عَرَفُوا، ولا قُربي عَرَفُوا، ولا وصفِي كما يَليقُ بي عَرَفُوا، وذلك أن القُرب الذي عرفوه مسافةٌ، والبُعد الذي

=

=

عرفوه مسافةٌ، وأنا القَرِيبُ البَعِيدُ بلا مسافة، وأنا أقربُ إلى اللسانِ من نطقه إذا نطق).

هاتفٌ آخر: (جَهِلَني من أنكَرَني، وأنكرَ شيئًا من جميع الوجود، وكيف يَدَّعِي عبادي معرفتي وأنا إذا تَجَلَّيتُ لهم في الآخرة! يُنكرُون ربُوبيَّتي، ويتعوَّذون منها، وبها يتعوَّذون، ولَكِنْ لا يشعرون، ويقولون لذلك التجلي: نعوذ بالله منك، وها نحن لربِّنا منتظرون، فحينئذ أخرجُ عليهم في الصورة التي لدَيهم فيُقِرُّون لي بالربوبية، وعلى أنفسهم بالعبودية، فهم لعَلامتِهم عابدون، وللصورة التي تقررت عندهم مشاهدون.

فمن قال منهم أنه عبدي فقوله زُورٌ، وكيف يصحُّ له دعوى أنه عبدي! وعندما تجلَّيتُ له في الآخرة أنكرَني، فقد قَيَّدَني بصورةٍ دون صورةٍ، فهو عابدٌ وثنٍ، وهو جاحدٌ لِي، وإن لم يُقَيِّدْني لم يَحصُرني، ومَنْ لم يَحصُرني لم يَعرفْني).

هاتفٌ آخر: (متى رأيتَ نَفسكَ ثابتًا ولم تَرَني في الرؤية مثبتًا حُجبَ عنكَ وجهي، وأسفرَ لَكَ وجهُكَ، فانظر ما بَدَا لكَ، وما تَوارَى عنكَ، وإن لم تجعل كُلَّمَا بَدَا ويَبدُو وراءَ ظهركَ لم تفلحْ، وإذا لم تفلحْ لم تجتمعْ عَلَيَّ، وإذا لم تجتمعْ عَلَيَّ لم تَرَني، وإذا لم تَرَني لم تكن بِي).

هاتفٌ آخر: (ما خلَقتُ لكَ وجهين إلا لتنظُرَني بوجه، وتنظر ذاتَكَ بالوجه الآخَر، لكن مع أيِّ وجهٍ توجَّهتَ إليه غبْتَ عن الآخر، غير أن هنا لطيفةً أُنَبِّهُكَ عليها، وذلك أنكَ إذا توجَّهت إلى مشاهدةِ وجهِكَ غبتَ عن وجهي وعن وجهِكَ.

فإذا انقلبتَ إلىَّ فَنَى عنكَ وجهُكَ، فصرتَ غريبًا في الحضرة، تَستَوحَشُ فيها، وتطلبُ وجهكَ الذي كنتَ تأنَسُ به، فلا تجده، وإن توجَّهتَ إلى وجهي وتركتَ وجهكَ أقبلتُ عليكَ، ولم يكن لكَ مُؤنِسٌ غيري، ولا مشهودٌ إلا إيَّاي.

فإذا انقلبتَ إلى الانقلاب الخاص الذي لا بدَّ لكلِّ إنسانٍ منهُ وجدتَني أنيسًا وجليسًا وصاحبًا، ففرحتَ بلقائي، وتتذكر أُنسكَ الماضي، فتزدَادُ أنسًا إلى أنسٍ، وتَرَى عندي وجه ذَاتِكَ، ولا تفقدُهُ، فتجمع بين الوجهين في صورةٍ واحدةٍ، فيَعظُمُ الابتهاج والسرور، ولكن كل ذلك الفرح والسرور إنما هو بغيري لا بي، فإنكَ لم تعرفني، وأنا لا أنا جسمٌ ولا أنا معنًى).

هاتفٌ آخر: (كُلُّ ما جمَعَكَ على المعرفة فهو معرفةٌ، ولكن غايةُ المعارف كلها تنتهي إلى الجهلِ بِي، فإن كلَّ شيءٍ يُستَدلُّ به على معرفَتِي يشهدُ لِي بأنه ليسَ كَمثلِي شيءٌ، وذلك أقصَى علمهُ، وغايةُ معرفتهُ، وكل شيءٍ في العالم لا تتعدى دلالَتُهُ نفسه، ولو بلغَ في أعلى مَراتب القرب مِنِّي).

هاتفٌ آخر: (كيف يَدَّعِي عارفٌ معرفَتِي ويحكمُ عَلَيَّ بعلمه! وأنا إذا شئتُ تَنَكَّرتُ بما به تَعرَّفتُ، وأجهلتُ بما به أعلمتُ، وليس العارفُ بِي إلا الذي يقول: (سبحانَ مَنْ لا تعرفهُ المعارفُ، ولا تعلمهُ المعلوماتُ)، فإن المعارف إنما هي نورٌ من أنواري، والمعلوماتُ إنما هي كلمةٌ من كلماتي).

هاتفٌ آخر: (لا تَخرُجْ من بيتكَ إلا إليَّ ولا تَدخلْ بيتك إلا إليَّ تَكُنْ في ذمَّتي وجِوَارِي، واعلم أنه لا يُدخلُ عليَّ بالأجسام، ولا تُدركُ معرفَتِي بالأوهام، فاذهبْ عن الأسماء تذهب عن المعاني، فإذا ذهبتَ عن المعاني صَلُحْتَ لمعرفَتِي).

=

=

هاتفٌ آخر: (كلُّ مشارٍ إليه ذو جهة، وكل ذي جهة مكتنفٌ منظورٌ، وكل منظورٍ مُتَخَيَّلٌ، وكل مُتَخَيَّلٍ معلومٌ، وكل معلومٍ مفهومٌ، فمَن أشارَ إليَّ فما عَرَفَني) .

هاتفٌ آخر: (إذا تَعرَّفتُ إليكَ ولو مرة في عمركَ فقد أعلَمتُكَ بولايَتي لكَ، فتكونَ بيني وبينَ كل شيء.

فلا تَجعلْ بعد ذلك بيني وبينكَ اسمًا ولا علمًا.

واطرحْ كلَّ شيءٍ أُبديهِ لكَ من الأسماء والعلوم؛ لئلا تحتجبَ بذلكَ عَنِّي، واعلم أن نفسكَ حجابُك، وعلمك حجابُك، ومعرفتك حجابُك، وتعرُّفي إليكَ حجابك.

فأخرجْ من قلبكَ كل شيءٍ، والعلم بكلِ شيءٍ، والذكر لكلِ شيءٍ، وفرِّغْ قلبَكَ من كلِ شيءٍ؛ لتنظرَ إليَّ، وتحصل على كل شيءٍ، وترى الضدين يجتمعان، وذلك بُدوٌّ أعلام التحقيق، وإذا بدت آيات العظمة لرأى العارفُ معرفتَهُ نكرةً).

هاتفٌ آخر: (إذا رأيتَني والسوى فغضَّ وجهَكَ وقلبَكَ؛ حتى يخرج السوَى، فإنك إن لم تغضهما خرجتَ وبَقِيَ السوى، وإذا رأيتَ اسمي و لم تَرني فما علمكَ لي، ولا أنتَ عبدي، وإذا رأيتَني مع كلِ شيءٍ فألْقِ المعية، وابقَ لِي وحدِي، فلا أغيبُ عنك؛ فأنتَ مَطْلَبِي، وأنا ضالَّتكَ، وما مِنَّا مِنْ غاب).

هاتفٌ آخر:

(إذا رأيتَني فاستُرني، وإذا لم تَرني فلا تُفَارِق اسمي؛ هَلك، واعلم أن لكلِ شيءٍ اسمًا لازمًا، ولكل اسمٍ اسمًا لازمًا، فالأسماء تَفرُقُ عن الاسم، والاسم يَفرُقُ عن المعنى، ومن لم يرني من وراءِ الضدين رؤيةً واحدةً لم يعرفْني).

هاتفٌ آخر: (إذا رأيتَني فاستُرني عمَّنْ لم يَرَني، فإن لم تفعل أخذتُكَ به، أنا ظاهرٌ لا للظهور، ولا لنفيه، ولا لأرى، ولا لأن أُرى، ولا لِمَا ينعطفُ عليه لام علة، وأنا غيبٌ؛ لا عمَّا، وعن، ولا لِم، ولا لأن، ولا فيمَا، ولا في، وأنا في كلِ شيءٍ؛ بلا أينية منه، ولا حيثية فيه، ولا محلية منفصلة، ولستُ فيها، ولا هي فيَّ، واعلم أني لستُ معيونًا للعيون، ولا معلومًا للقلوبِ، وإذا كان فعلُكَ لا يُحيطُ بكَ فكيفَ تُحيطُ بي وأنت فعلي!).

هاتفٌ آخر: (ما تعرَّفتُ قطُّ إلى قلب إلا أفنَيتُهُ عن جميعِ معارفِه، فقف من وراءِ الكون، واسأله عَنِّي تجدَ الكونَ كلَّهُ جاهلا بي، واسأل الجَهلَ تجدَ الجهلَ جاهلاً).

هاتفٌ آخر: (متى كان الرسولُ إليك قولاً أو فعلاً فأنت في عُرضَة الحجاب، ومتى جَمعتَكَ الأقوال عَلَيَّ فلا قُرب منِّي، لأن الحروف عاجزةٌ أن تُخبرَ عن نفسِهَا، فكيفَ تُخبرُكَ عنِّي! فأنا المُخبرُ عنِّي لمن أشاء.

وأنا الظاهرُ لا كما ظهرت الظواهر.

وأنا الباطنُ لا كما بَطَنَتِ البواطن، وعلمكَ بي من وراءِ الحروفِ لا في الحروف؛ لأن حضرتي تُحرِّق الحروف، فاخرجْ عن العلم تخرج من الجهل، واخرج من البعد تخرج عن القرب والبعد،

=

=

واخرج من القرب ترى الله).

هاتفٌ آخر: (اخرج عن المَوْصُولِ والمَفصُولِ والصفات كلها؛ فإنه لا يهجم عَلَيَّ شيءٌ منها، وإذا أَرَيْتُكَ نفسي فاعلم أنكَ أبعدُ الأبعدين عنّي، لأني وشيئًا آخر لا يجتمعان، فجالسْ نفسكَ وحدها أُجَالِسُكَ، واستعذْ بي من شرِّ ما عرفته).

هاتفٌ آخر: (لا تجعلِ الكونَ من فوقِكَ ولا من تحتكَ ولا عن يمينك ولا عن شمالك ولا في علمك، ولا في وجدكَ، ولا تعبِّرْ عنه بلغة من لغاتكَ، وانظرْ من قَبْلِه فثمَّ مقامكَ، فأقم فيه ناظرًا إلى كيف كُوِّنتَ وكيف أكونُ، وكيف بَعُدتَ فيما قَرُبتَ، وكيف دَنوتَ فيما بَعُدتَ، فإذا دخلتَ عليَّ فادخلْ وحدكَ، ولا تدخلِ عليَّ بعلمٍ ولا معرفةٍ، فإن دخلتَ بذلك فلا تَجِدُني ولا تعرفني؛ لأن الدليل من جنس الحجاب، ومن كان دليله من جنس حجابه احتجب عن حقيقة ما دَلَّ عليه، ومَنْ لم يكن جاذبهُ الحق تعالى إليه لم يصلْ إليه).

هاتفٌ آخر: (إذا جاءكَ التأويل فقد جاءكَ حجَابي الذي لا أنظر إليه، ومَقتي الذي لا أعطفُ عليه، وإذا جاءكَ العلمُ الصادر عن المشاهدةِ احرق العلوم والعلماء، واعلم أنه ما آمن بي من حَكَّمَ عقله على آياتي وصفاتي، وما أضَفْتُهُ إلى نفسي على ألسنة رسلي.

وأما ما قلت إلا: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ [البقرة:١٨٦]، لا بعقولهم، ومن أوَّلَ فما آمن حقيقةً إلا بعقله لا بي، فإن قال إنه ما قصدَ بالتأويلِ إلا تنــزيهي فذلك من حِيَلِ النفوس وحُبِّهَا لمنازعة ربوبيتي، وأن تكون مَتبُوعةً لا تابعةً).

هاتفٌ آخر: (ما عَرَفَني مَنْ عَرَفَ قُربي بالحدودِ، وما عَرفَني مَنْ عرف بُعْدي بالحدودِ، وما شيءٌ أقربُ إليَّ من شيءٍ).

هاتفٌ آخر: (لا تَدخلْ عَلَيَّ بعلمٍ فتجهلْ، ولا بجهلٍ فتخرجْ، واخرجْ من العلم الذي ضده الجهل، واخرج من المعرفةِ التي ضدها النكرة تَجدني).

هاتفٌ آخر: (الأكوانُ كُلهَا طالبةٌ لي من وراء الأكوان، والخلاءُ لا نهايةَ له؛ لأنه امتدادٌ مُتَوَهَّمٌ لا في جسمٍ، وليس لخلقي مركزٌ يستقرُّون عليه إلا معرفتي، ولا سبيل لهم إلا الوقوف على معرفتي؛ فالطلبُ منهم لي دائمًا مستمرًّا أبد الآبدين ودهر الداهرين، وهذا تحيرَ فيه العقول، وإذا كانت هذه حيرتهم في مخلوقٍ فكيف الحيرة فيَّ!).

هاتفٌ آخر: (إذا جئتني فألقِ العبارةَ وراء ظهركَ، وألقِ المعنى وراء العبارة، وألقِ الوجد وراء المعنى، فإن جئتني بشيءٍ مما بَدَا فلستَ منّي، ولا أنا منكَ، فالقَني وحدكَ أُعلمكَ كيف تتأهَّبُ للقائي، واحذرْ إذا أقمتُكَ في مقامِ معرفتي أن تطلبَ الخروج منه؛ فإن خرجتَ أُوقَدتُ لكَ نارًا مفردةً).

هاتفٌ آخر: (قُلْ للعَارفين: إن رجعتم تسألُوني عن معرفتي فما عرفتموني، وإن رضيتم القرار على ما عرفتم فما أنتم منّي، وإيَّاكم أن تتكلَّموا في معرفتي بغير ما أخبرتُ به عن نفسي على ألسنة

=

=

رسلي، واعلموا أنكم من أهل من لا يُتَكَلَّمُ فيه، فلا تتكلموا أنتم فيه تخرجوا من مقامِ العارفين إلى مقام الزائرين).

هاتفٌ آخر: (إذا تعلَّق العارفُ بالمعرفةِ وادَّعى أنه تعلَّقَ بي هربَ من المعرفةِ كما يهربُ من النكرةِ، وإذا ادَّعى الوصول إليَّ فهو في حجابٍ عني بدعواه).

هاتفٌ آخر: (أعلى معارف خَلقي بي أن يشهدَ أحدُهم العرشَ وحملته، وما حواه من كل ذي معرفةٍ، يقول بحقائق إيمانه: ليس كمثل الله شيءٌ، ثم هم بعد ذلك في حجابٍ عنِّي بذلك، ولو رُفِعَ حجابي لاحترق العالَم بأسره في لمح البصر).

هاتفٌ آخر: (لا تبدو الولاية لعبدٍ إلا بعد الفراغ من سِوَايَ، وحتى يتفرغَ من علمهِ ومعرفتهِ يدخلُ مقامَ البهت في حضرةِ الجبروت، وهناك يرى المعرفة أصنامًا والعلوم أزلامًا).

هاتفٌ آخر: (رسولُ رحمةٍ لا يحيطُ بمعرفتي، ورسولُ عقوبة لا يحيطُ بمعرفتي، وغاية علم العلماء بي جهلٌ، فلا أنا ما عَرَفُوه، ولا أنا ما جَهِلُوه).

هاتفٌ آخر: (كيف يصحُّ لعبدٍ مراقبتي وأنا ذاتي لا تُعرَفُ! ونسبتي إلى العالم لا تُعلَم! وإن جعلَ الأشياءَ مظاهري وراقبهَا فما راقبني، وإنَّما راقبَ الأشياء لا أنا).

هاتفٌ آخر: (أنتَ عبدُ السِّوَى ما رأيتَ للسِّوى أثرًا وحكمًا، فإذا لم تَرَ للسِّوى لم تتعبَّدْ لسِوَاي، واعلم أن محوكَ إثباتٌ له؛ لأنك ما محوتَهُ حتى أثبتَهُ).

هاتفٌ آخر: (معرفةٌ لا جهلَ فيها لا تَبدُو، وجهلٌ لا معرفةَ فيه لا يَبدُو).

هاتفٌ آخر: (عَرِّفْني إلى مَنْ يَعرفُني يرَاني عندكَ، فيسمعَ منِّي، ولا تعرِّفني إلى من لا يعرفُني يرانِي عندكَ يراكَ ولا يرَاني، فلا يسمعَ منِّي ويُنكِرُني، وإذا سألكَ أحدٌ عنِّي فسلْه عن نفسه، فإن عرفها فَعرِّفني إليه، وإن لم يعرفها فلا تُعرِّفني إليه، فإني قد أغلقت بابي دونه).

هاتفٌ آخر: (لستُ النور الذي تعرفه، ولا الظلمة التي تعرفها).

هاتفٌ آخر: (أنا النُّورُ وأنتَ الظلمة، ولا تجتمعُ الظلمة والنُّور كما لا يجتمعَ الليل والنهار، فإن رأيتَ النهارَ لم تَرْ الليل، وإن رأيتَ الليلَ لم تَرَ النهار.

وكذلكَ إن شَهدتني لم ترَ خلقي، وإن شَهدتَ خلقي لم تَرَني، ولا يُمكنُكَ شُهُودي مع خلقي أبدًا؛ لأن مَعيَّتي علمٌ لا شهودَ فيه، واعلم أن نوركَ الذي أنتَ عليه إنما هو من حيث ما تُواجهُني من ذاتكَ، ولو كنتَ أنتَ النور لما ظهرَ للظلِّ عينٌ.

فأنا النورُ، وأنا مُذْهِبُهُ، وأنتَ لستَ أنا، فأنا النُّورُ بلا ظلٍّ، وأنتَ النُّورُ الممتزج لإمكَانكَ، فأنتَ بينَ الوجودِ والعدم، فلا تَتخلَّصُ لأحدهما، فلا أنتَ موجودٌ، ولا أنتَ معدومٌ؛ إذ لو كنت موجودًا لا تتَّصِفُ بالعدم لكنت حقًّا، ولو كنتَ معدومًا لا تتَّصِفُ بالوجودِ لكنتَ محالاً، فإن أعرضتَ عن ظلِّكَ

=

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ثم أشار إلى أكمل مراتبه بألطف عبارة فقال: (**الذي بلغه بأيادي الخطوة إلى منصة دنى فتدلى**) (**التبليغ**) الإيصال بلغته الخبر أي: أوصلته إليه، و(**الأيادي**) أفاعل جمع أيدي هو جمع يد، فهو من صيغ منتهى الجموع كأساور وأناعم، وإضافته إلى (**الخطوة**) إمّا بيانية أو لامية على سبيل الاستعارة المكنية والتخيلية حيث شبه (**الخطوة**) بما له اليد في النفس استعارة مكنية، وأثبت ما هو من لوازم المشبه به وهو اليد مثلاً استعارة تخيلية وقرينة للأولى، كما أنها قرينة لها و(**المنصة**) قد ذكرت، والإضافة هنا بيانية، والمضاف محذوف على المضاف إليه، وهو القرب أي: صفة أنه هو الذي بلغ الحق تعالى إياه وأوصله بأيادي الخطوة، والمرتبة والمكانة إلى مجلى الأعراس الذي هو مقام قرب (**دنى فتدلى**) أي: دنى وقرب النبي ﷺ، فتدلى الحق تعالى إليه، وذلك أن رقيقة المناسبة بين الطالب والمطلوب بالانجذاب من الطرفين قد يقع الالتقاء في الوسط وقد لا يقع في الوسط، فإن وقع في الوسط فيسمّى ذلك الالتقاء الواقع في الوسط في اصطلاح هذه الطائفة منازلة.

قال الشيخ قُدِّس سرّه في الباب الرابع والثمانين وثلاثمائة من (الفتوحات المكية):

اعلم أن المنازلة فعل فاعلين هنا، وهي تنـــزل من اثنين كل واحد منها يطلب الآخر

=

فقد أعرضتَ عن إمكانِكَ، وجَهِلْتَني ولم تَعرِفني؛ فإنه لا دليلَ لكَ على أنّي إلهكَ، وربُّكَ ومُوجدُكَ؛ لإمكانك ووهمك، وهو شهودُ ظلّكَ، فلا تنظر إليّ نظرًا يُغنيكَ عنّي فتدّعي أنكَ أنا؛ فتَقَعْ في الجهل، ولا تنظرْ إلى ظلّكَ نظرًا يُغنيكَ عنّي فتجهَلْ ما خلقتُكَ لهُ، فَكُن تارةً وتارةً، وما خلقتُ لكَ عينين إلا لتَشهَدَني بالواحدة، وتَشهدَ ظلَّكَ بالأخرى).

هاتفٌ آخر: (من ادَّعى معرفتي وأضافَ لغيري أمرًا خارجًا عن أمري فما عَرفني، ومن أُشكِلَ عليه أنّي أنا الفاعل وحدي في الوجودِ فليترقَّ بعقلِهِ إلى المخلوق الأول الذي لم يَتَقَدَّمهُ مخلوقٌ، ولم يكن موجودٌ إلا أنا، ويقف ينظرُ من كان شريكي في الخلق يزول إشكالهُ، فأنا الذي أخلقُ الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب تَتَكوّنُ عن أمري، خلقتُ النفخَ في عيسى، وخلقتُ التكوينَ في الطائرِ، فلا تقل: لي، فنفسكَ إذا خاطبتَ بقولكَ افعل أو لا تفعل، لأن حضرتي لا تقبلُ المحاققة، وما يخاطبني سوى ما خلقتُ، وما خلقتُ إلا ما علمتُ، وما علمتُ إلا ما هو المعلوم عليه في نفسه) انتهى.

وانظر: الميزان الذرية (ص٨٢) بتحقيقنا.

لينـزل عليه، فيجمعان في الطريق في موضع معين أي: عند أهل المنازلة فيسمى تلك منازلة بهذا الطلب من كل واحد، وهذا النـزول من العبد صعود على الحقيقة، وإنما سميناه نزولاً لكونه يطلب بذلك الصعود النـزول بالحق، وإن لم يقع في الوسط، فبأي طرف يكون أقرب؟ فصاحب ذاك الطرف في المحبوبية مُقدَّم، وفي المحبَّة مؤخر، فإن كان أقرب بطرف الحق فيسمَّى ذاك القرب حين الإضافة إلى العبد التداني، وإن أقرب بطرف العبد فيسمَّى ذلك القرب إذا أضيف إلى الحق تعالى التداني.

وهو المراد بمقام (**دنى فتدلى**)، فيكون دنى منسوبًا إلى النبي ﷺ وتدلى منسوبًا إلى الحق تعالى، فالتدلي لا يكون إلا من طرفه؛ لا من العلوية وفي عين هذا التدلي دنو العبد؛ لأنه يدنى إلى من تدلى إليه، فكان دنوه عروجًا قاله الشعراني في ميزانه رحمه الله تعالى.

ثم ترقى إلى الأعلى في وصفه ﷺ، فقال: (**ثم توجه في نادي الحضرة بتاج قاب قوسين أو أدنى توجه فتتوج**) أي: ألبسه التاج، و(**التاج**) الإكليل، و(**النادي**) كالندوة، والمنتدى مجلس القوم نهارًا أو المجلس ما داموا مجتمعين فيه، والإضافة في (**نادي**)، وفي (**تاج**) بيانية، والمراد حضرة القدس والمقام محذوف على (**قاب قوسين**) أي: ألبسه في مجلس الحضرة أي: ألبس الحق تعالى النبي ﷺ ليلة الإسراء في مجلس هو حضرة قدسه التاج الذي هو مقام قاب قوسين بأن كان من حضرة الحق الخاصة كقاب قوسين، أو أدنى وشهد هذا المقام بعين رأسه بخلاف كُمَّل ورثته، فإنهم يشهدون ذلك بعين قلوبهم.

وقد أنشدوا في هذا:

قَابَ قوسين لِمَن سَرَى بِه ... قَابَ قوسين لنا مِن قبلنا
ولِذَا نلناهُ مِنهُ فانتَبهَ ... غيرُ أنّي وارثٌ مستخدمُ
مَا هنا بينهمَا مِن مُشتبَه ... فحلالٌ وحرامٌ بين
عينُ مَن أسرَى بِهِ مَا أنَا بِهِ ... إنَمَا الشُبهةُ مَن قَالَ أنَا
ليس يَدرِي ذاكَ غيرُ المنتبه ... وهو يدري أنّهُ وارثهُ

فالأولياء ما شهدوا إلا بحكم الوراثة، والتبعية للنبي ﷺ، والوارث لا يبلغ مقام مورثه أبدًا، ولا تتصل أيضًا دائرة الخلق بدائرة الحق، وإن كانت هي من دائرة الحق؛ لأن الأمر

كان عينًا واحدة لكن الخط الذي به تميز الخلق عن الحق، والحق عن الخلق وقع بين الدائرة وقسمها نصفين، وهما قوسان، فكل صورة لها قوس أي: صورة الخلق لها قوس، وصورة الحق لها قوس أظهر التقويس، والفرقان بين الصورتين الخط الذي قسم الدائرة بنصفين، وفي الأول كانت دائرة واحدة لا فصل بين قطريها، ولـمَّا أظهر الخط حكمه وصف الخلق بالحجاب عنه تعالى ووصف نفسه بالنـزول إليهم إشارة إلى أنه يريد الرجوع إلى ما كان الأمر عليه، فكل من الصورتين تسعى في إزالة ذلك الخط ودفعه ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ**﴾ [هود:١٢٣]، فالعارفون يشهدون السر القائم بدائرة الخلق أنه من الحق، فلا يقولون: أنه خلق صِرف، والعوام غير العارفين لا يشهدون هذا السر فيقولون: أنه خلق صِرف، وأنشدوا في هذا المعنى:

إذا قطعت بخطٍ كـرةٍ فـبدَا قوسان ذلكَ قرب الحقّ فَاعتبرُوا
إلى حقيقةِ أدنى منهمًا فَإذا ما جزته لاحَ ما ينقضي بِهِ النظرُ

وقال آخر:

مَا قابَ قوسين إلا نصف دائرة تَعطي التَّميزُ بين الكونِ والله
مَمن يُعَايفُ عيـنًا لا يُغَايرهَا عين فَذاكَ دنو العالمُ السَّاهِي
وهو الذي فيهِ أو أدنى وفيهِ له أسرارُ علم ولا يَدرِي النهى مَا هي

ولما كان أفضل الخليقة وأقربهم إلى الله من الحضرة الخاصة كـ ﴿**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ [النجم:٩]، فمن ادَّعى أنه صار عين الحق بالاتَّحاد الذاتي فدعواه زور وبهتان وكفر عظيم، وعباد الأوثان أخف حالاً منهم على ما صرح به الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس سره في كشف الحجاب والران عن أسئلة الجان، ثم لما ألبسه الحق تعالى تاج القرب المذكور فاقتضى الأمران يلبسه خلعة مناسبة للإكليل وهو التجلِّي الذاتي المستلزم لفناء العبد في الحق فلبس تلك بعدما تفضَّل بها عليه.

وهو الذي أشار إليه بقوله: (**فلبس ثوب خلافة إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**) أي: في عقب ما توجه بتاج قاب قوسين أو أدنى شرَّفه بخلعة الخلافة والنيابة عن الحق المستفادة من آية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾[الفتح:١٠]، فأثبت أن

المبايعة معه ﷺ هي المبايعة مع الحق فله تجلّي الألوهية المفني للعبد بالكلية أصالة حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ولكل ورثته بالتبعية، وأمَّا التجلّي الواقع لسائر الأنبياء فهو تجلي الربوبية، كما وقع لموسى عليه السلام قال الله تعالى:﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى﴾ [الأعراف:١٤٣]، فنصيب الجبل التدكك، ونصيب موسى الصعق، فبقي وجود الجبل وإن كان مدكوكًا وموسى وإن كان مدهوشًا إذا الربوبية رباهما بالإبقاء؛ إن الرب له الثبوت بحسب المادة؛ لأن معناه الثابت يقال: رب بالمكان أي: أقام فيه وثبت، وبحسب الطبيعة والصيغة أيضًا؛ لأنه صفة مشبهة تدلُّ على ثبوت مبدأ الاشتقاق للذات المبهمة من غير دلالة على تجدد وانصارم بخلاف الإله، فإنه يتنوع بالأسماء فهو كل يوم في شأن، فلما شرفه بهذه الخلعة العظيمة فلبسها فإضافة (الثوب) إلى (الخلافة)، وإضافتها إلى ما بعدها المراد منه لفظة بيانية أي: لبس ثوبًا هي خلافة هي قوله تعالى في حقه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ الآية، وإضافة الخلافة للملابسة أي: الخلافة المستفادة المفهومة من هذه الآية(1)، وحق العبارة أن يقول: وألبسه ثوب خلافة إلخ لكن عدَّل عنه إلى قوله: (فلبس) حتى لا يلزم التكرار بحسب المعنى؛ لأن المعنى في توجه ألبسه التاج كما عرفته فلو قال: فألبسه للزم التكرار بحسب المعنى، ويمكن أن تكون النسخة هكذا والخلاف وقع من الناسخ وبعد ما توجه ووضع على التاج على رأسه وألبسه خلعة الخلافة فلبسها رفع له الأعلام التي بها يعرف الخليفة.

فأشار إليه بقوله: **(ورفعت له أعلام من أطاع الرسول فقد أطاع الله)** أي: رفع الله للنبي ﷺ الأعلام الدالة على ثبوت خلافته حيث أنزل في حقه: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء:٨٠]، فأثبت أن إطاعته ﷺ هي إطاعة الحق، وهذا يدلُّ على كونه خليفة؛ لأن إطاعة الخليفة في الحقيقة إطاعة ذي الخليفة، ولما كانت الإطاعة بعد المبايعة ومن آثارها أسند الخلافة إلى المبايعة، والأعلام إلى الإطاعة مع أن الخلافة والنيابة مفهومة من الكلامين، ومفهومه المخالف أن من خالف الرسول فقد خالف الله، فأثبت أن إطاعته إطاعة الله، ومخالفته مخالفة الله، والإطاعة أنواع، وكذا المخالفة، فلذا قال: **(أعلام)**

(١) وأما الخلافة الباطنية فهي أن يكون المتصف بها نائبًا عن الحق تعالى في الأرض: أي في جميع الأول؛ لظهور الصورة الإلهية به؛ لاحتوائه على الجمعية التي لها ومطابقته إياها، فصورته الظاهرة عين الصورة الإلهية الباطنة، فيعلم من ذاته جميع أسماء خالقه تعالى.

بالجمع، وفيه دلالة كاملة على خلافته التامة؛ لأنه أكمل موجود في هذا النوع الإنساني؛ لأن الكاملين في هذا النوع هم الأنبياء وكل منهم مظهر لاسم كلي، وجميع الأسماء الكلية داخلة تحت الاسم الله الذي هو مظهره، فهو أكمل هؤلاء الكاملين، ولهذا بدأ الأمر به، وختم به الأول بحسب الروحانية، والثاني بحسب النشأة العنصرية، فكان نبيًا بالفعل، وآدم بين الماء والطين أو لا ماء ولا طين، كما كان نبيًا في آخر الزمان بعد انقراض الأنبياء كلهم ﷺ.

(**وعلى آله**) أي: أفاض الرحمة المقرونة بالتعظيم بالتجليات على ذا النبي الكريم، وعلى آله وهم الذين يؤل إليهم أموره ﷺ ومواريثه العلمية والمقامية والحالية، فلا يلزم إهمال الأصحاب وأعاد على الآل؛ لأنه لا يجوز عطفه على الضمير المجرور المتصل بلا فصل ولا فصل هنا، وردًّا على المعتزلة لأنهم زعموا عدم الجواز، وينقلون فيه حديثًا وهو: « **من فرق بيني وبين آليْ بعلي فرق الله بينه وبين الجنة**[1] »، وهذا الزعم باطل، والحديث إمَّا موضوع أو اشتبه عليهم على الاسم المشدد الياء بعلي الحرف المخففة الياء أي: بيني وبين آلي بعلي ﷺ بأن يقول ﷺ: (وعلى عليّ وعلى آله أو صلى على محمد وعليّ وآله وغير ذلك صلاة كافية بعدد إنعام الله وإفضاله) أي: غير متناهية؛ لأن الأنعام والأفضّال المنسوبتان إلى الحق غير متناهية.

و(**الإنعام**) جمع نعمة، والمراد العطية، و(**الإفضال**) جمع فضل ضد النقص، أو المراد الإحسان، وحقًا يكون من ذكر العام بعد الخاص، وبعد من الظروف المنقطعة عن الإضافة المبنية على الضم جبرًا لما نقص منها وهو مبهم غير مخصوص بالزمان أو المكان؛ لأن الزمانية والمكانية فيه باعتبار قيده، فإن كان زمانًا فظرف زمان، وإن كان مكانًا فظرف مكانًا، والواو إما نائب عن ما، فلذا وقع فيما بعده أو استئنافية فيكون ألف؛ لأنه مظنة؛ لأنه إما أي بعد زمان البسملة والحمد له والصلاة.

(**فهذه نبذة لطيفة**) (**النبذة**) مؤنث النبذ، وهو الشيء القليل اليسير، و(**اللطيفة**) تأنيث اللطيف وهو من الكلام ما غمض معناه وخفي أي: العبارات الدالة عليها النقوش

---

(١) لم أقف عليه هكذا.

الدالة على المعاني التي بمنـــزلة المفرد المشاهد المحسوس قليلة يسيرة غامضة معانيها وخفية جدًا، ولا يجوز أن تكون هذه إشارة إلى معاني تلك العبارات، وإن كان وصف لطيفة يساعده على ما عرفت من معناه؛ لأنه حقًا يكون وصفًا بحال الموصوف بخلاف ما إذا كانت هذه إشارة إلى العبارات، فإنه حقًا يكون وصفًا بحال المتعلق؛ لأنه يأباه قوله: و(**كلمات ظريفة**)؛ لأنه صريح في الأول و(**الكلمات**) جمع كلمة، والمراد بها ما يعمُّ الكلام أو ما يخص الكلمة ولعلّه أولى؛ لأن التغيير أولى من التفسير، وحمّل النبذة على المشار إليه (**بهذه**) يؤيده؛ إذ كونها قليلة باعتبار الكلام أظهر فافهم.

و(**الظريفة**) تأنيث الظريف وهو حسن الهيئة ولا يكون إلا في اللسان أي: اللغة ويستعمل في الوجه والبراعة وذكاء القلب والحذق، وقيل: لا يوصف به إلا الفتيان الأزوال والفتيات الزولات لا الشيوخ ولا السادة، والأزوال جمع زول وهو العجب، وفرج الرجل، والشجاع، والجواد، والشخص، والبلاء، والخفيف الظريف الفطن والأخير هو المراد هنا أي: المشار إليه (**بهذه**) الذي نزل منـــزلة المحسوس المشاهد كلمات صفتها أنها ظريفة هيئتها، ويجوز أن يكون المراد بالمشار إليه بهذه العبارات التامة وهي المفيدة للمخاطب فائدة تامة وبالمعطوف ما هو الأعم، فيكون من ذكر العام بعد الخاص، أو المراد بهذه ما هو أعمّ، ويكون قوله: (**وكلمات**) من عطف الخاص على العام، وقد عرفت ضعف كونه عطف تفسير، لكن قوله: (**يستعان بها في طريق أهل الله تعالى**) يؤيده؛ لأنه لو جعل صفة للكلمات فلا يصح إلا بطريق المجاز، ولو جعل حالاً من فاعل نبذة المستتر فيه الراجع إلى المبتدأ، فالفصل مانع وإن لم يكن بالأجنبي اللهم إلا أن يجعل خبرًا بعد خبر لهذه فتأمل.

أي: تلك العبارات والكلمات من أوصافها وأحوالها أو هي مما يستعان بها أي: بمعانيها إذ لا دخل للألفاظ في الاستعانة بها إلا باعتبار المعاني، لكن لما كانت دالة على المعاني، وإنها لا تستفاد إلا من الألفاظ أسند الاستعانة إلى الألفاظ مبالغة فكأنها هي المستعانة بها، وسواء قلنا: بالحقيقة أو المجاز والاستعانة لا تكون إلا في طريق أهل الله تعالى، وهم الأدباء المعاملون مع الحق والخلق على مقتضى المراتب، والأمناء الحاملون لحمل الأمانة التي من صورة الحق تعالى التي حدَّ عليها آدم عليه السلام حين عرضها على سماوات الأرواح وأرض الأجسام ﴿**فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا**﴾ [الأحزاب:٧٢] أي: لم يطقن

ذلك و لم يستطعن ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢] لعدم أحدية جمع الجميع عند واحد منها، وحملها الإنسان الكامل الذي صاحب الكشف والتجلي؛ لأن ما عداه ليس بناسٍ في الحقيقة، فهو المتحقق بأحدية الجمعية لا غير، والخلفاء الذين استخلفهم الله تعالى في حفظ خزائن الدنيا والآخرة.

فإن هذه العبارات والكلمات متعلقة ببيان آدابهم وأحوالهم، فمن نظر إليها تحصل له المعرفة بطريقهم فيسهل عليه السلوك فيها ويكون على بصيرة: **(وهي من الحِكَم الإلهية الجارية على لسان بعض عباد الله تعالى)** **(الواو)** حالية أو استئنافية، و**(من)** متعلقة بالمقدر وهو معدودة أو اسم بمعنى البعض في محل الرفع خبر هي.

والمراد **(بالحِكَم الإلهيَّة)**: العلوم والمعارف المتعلقة بالمراتب «الألوهيَّة».

والمراد **(بعباد الله)**: هم الذين أعدَّ الله لهم ما لا عينٌ رأت من موقف التنـــزيه المطلق، والعلوم اللدنيَّة، والتصرفات الصمدانية وغير ذلك مما خصوا به، ولا أذنٌ سمعت من الخطابات الإلهيَّة والإلهامات الربانية، ولا خطر على قلبِ بشر، فهم الذين يرون ببصيرتهم ما لا يتعلق به شيء من القوى الجسمانية في الدُّنيا، وأمَّا في الآخرة فيرونه بالبصر والبصيرة أي: وتلك العبارات اللطيفة، والكلمات الطريفة معدودة من الحِكَم الإلهية، أو بعض الحِكَم الإلهية أي: العلوم والمعارف المتعلقة بالمرتبة الإلهية الموصوفة بأنها الجارية على لسان بعض عباد الله تعالى، فتلك العبارات ليست من مطلق الحِكَم الإلهيَّة، بل من الحِكَم الجارية على ألسن العباد، وليست من الجارية على ألسن كلِّ العباد، بل الجارية على ألسن بعضهم، ففي تخصيص العبارات، والكلمات بالأوصاف المذكورة مدح بكمالها، وإنَّها مما لابدَّ منه للطالب السالك في طريق أهل الله، فيزداد إليها شوق الطالبين ورغبة السالكين، و**(هي هذه الكلمات)** أي: التي يُستعان بها في طريق أهل الله.

ومن الحِكَم الإلهية المذكورة هذه الكلمات الآتية من هنا إلى آخر الكتاب، والمراد بالكلمات هنا: ما يعمُّ الكلمة والكلام، أو المراد بها الكلام، ولا يجوز أن يُراد بها الكلمة فقط إلا عند القول: بعطف التفسير، ويكون المراد بالموصوف باللطيفة والظريفة هي وحدها، وفيه بُعد لا يخفى تأمل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فهذا أوان الشروع في المقصود:

شرح نصوص الحكم الأكبرية

١- تجلّي الحق لكلّ فردٍ من أفراد الموجودات، بما يليق به من سرِّ التجلّيات.

وقدّم بحث التجلّي؛ لأنه الأصل في طريقهم، والعمدة في عقائدهم فقال: (**تجلّي الحقُّ لكلّ فرد من أفراد الموجودات**) أي: تجلّى وسرى بهويته، وأحدية جمعه الأسمائي الحقّ تعالى، بعدما تجلّى أولاً بنفسه لنفسه في نفسه لكلّ فردٍ هو من أفراد الموجودات من المحسوس وغيره والشريف وغيره، فإنه الحقيقة الواحدة التي هي حقيقة الحقائق كلّها، وتتكاثر باعتبار تعيناتها، وتجلياتها في مراتبها المتكاثرة، وتصير حقائق مختلفة جواهريَّة متبوعيَّة، وعَرَضيَّة تابعة، فكل عين من حيث الامتياز عمَّا سواها ليست إلا عين أعراض شتى اجتمعت في عينٍ واحدة، فلولا سريان الوجود الحق والتجلّي في الموجودات ما كان للعالم ولا لشيءٍ من الأشياء وجود وظهور، فإن الأشياء معدومة في حدِّ ذاتها لا تظهر إلا بالسريان المذكور.

ولــمَّا قاله الشيخ قُدِّس سرّه: (**مِن تجلّي الحق تعالى في كلّ فرد من الموجودات**)، قيل: إن كل متصف بالصفات السبع الكمالية ما عدا الوجوب والغناء الذاتيين، لكن ظهور تلك الصفات بحسب الاستعداد والقابلية، وبقدر ما تطلبه حقيقة ذلك الموجود، و (**بما يليق به من سرِّ التجلّيات**)، فعلى هذا يكون (**بما**) متعلقة بالتجلّي، وضمير(**به**)راجعًا إلى كلّ فردٍ.

و(**مِن سرٍّ**) بيان لما أي: تجلى لكلّ بشيءٍ يليق ذلك الشيء بكلّ فردٍ متجلي فيه من سر تجليات الحق، ويجوز أن يكون الضمير المذكور راجعًا إلى الحق تعالى أي: تجلّي الحق تعالى يكون بما يليق بالحق أن يتجلّى به في الموجودات مِن أسرار التجليات.

ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقًا بأخذ قُدِّم عليه للحصر.

وحقًا يكون الضمير في (**به**) لكلّ موجود المقدَّم رتبة، فيكون المعنى بما يليق بكلّ موجود من أسرار التجليات[١] لا أزيد ولا أنقص.

---

(١) وفي الفصوص في فص الحكمة الشعيبية أثناء كلام له ما نصه: فإن صور التجلي ما لها نهاية تقف عندها وكذلك العلم بالله ما له غاية في العارفين به يقف ذلك العلم عندها بل هو معنى العارف في كل زمان بطلب الزيادة من العلم به رب زدني علماً رب زدني علماً، رب زدني علماً، فالأمر لا يتناهى من الطرفين. انتهى.

=

٢- أخذ كل موجود حظه مما قابله: بحسب كل م.سر لما خُلق له.

(**أخذ كل موجود حظة مما قابله**)، فكل موجود لا يأخذ حظه، وحصته مما قابله إلا بقدر ما يليق به، وتطلبه حقيقته من الاستعداد والقابلية، وهذا مبني على أن الوجودات ظلال، فكل شيءٍ ظله بقدر مقابله للشمس.

وقوله: (**بحسب «كل ميسر لما خُلق له**[1]**»**) إمَّا متعلق بالكائن صفة للحظ أي: حظه الكائن بحسب أن الكل ميسر لما خُلق في حضرة العلّمية له؛ إذ لا يأتي من كلّ شيءٍ إلا ما خُلق له بحسب الاستعداد، ولا بد من حصول ما خُلق له، ولهذا قال الشيخ في الفصوص: (فما في أحدٍ من الله شيء) أي: بل الله يُظهر ما كان مستورًا فيه وموجودًا بالقوة، (ولا في أحدٍ من سوى نفسه شيءٍ) أي: ما يظهر فيه إلا ما كان مستورًا فيه فلا يفيض عليه شيئًا من سوى نفسه، لكن باعتبار الفيض المقدس، وأمَّا باعتبار الفيض

=

وبيانه أن العارف وليًا كان أو نبيًا أو رسولاً أو ملكاً في كل مقام أو منـزل أو مرتبة أو شيء من الأشيـاء أقيم فيه يحصل له من العلم بأسماء الله تعالى وصفاته ومن القيام بآدابه أو وظائفه ما يناسب المقام الذي فوقه الذي هو محتجب عنه فيستعد بذلك لهذا الذي هو أعلى وأرفع وأكمل وإن كان الذي هو فيه في الفضيلة بحيث المنتهي فيقول رب زدني علماً فإذا زاد علمه وارتقي لما هو أعلى استعد لعلم آخـر فيقول رب زدني علماً وهكذا إلى ما لا نهاية له دنيا وأخرى فأمر التجلي والعلم لا يتناهى من طرف الحق لعدم تناهي كمالاته وعلومه حقيقة والطلب لا ينتهي من جانب العبد لا في الدنيا ولا في الآخرة، وقد كان سيدنا محمد ﷺ أعلم الخلق بالله و لم يستغن مع ذلك عن زيادة الله فكان يطلب من ربه الزيادة والترقي وربه تعالى يزيده في كل لحظة من العلم به ما يزيد رفعة وجلالة بسببه وقد خاطبه الله تعـالى بقولـه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤] وقوله: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] فأمـره بطلب الزيادة من العلم وبالاقتراب أي: زيادة القرب من جنابه العلي، وقد ذكر العارفون أنه كان يترقى في الزمن الفرد إلى مقامات لا يبلغها الإحصاء ولا يحصرها العد وإن مقاماته غير محصورة ولا مدركـة لـنا لسـعة إطلاقه ﷺ وإفاضة الحق عليه في كل وقت ما يعجز عن حمله جميع الأنبياء والمرسـلين وسائر الخلائق أجمعين، ومن اطلع على حقيقته ﷺ وعلم ما يحصل لها من الترقيات في كل لحظة من اللحظات وحالة من الحالات اعترف بعدم تناهي فضله على الإطلاق كما يعترف باستحالة تناهي كمالات الملك الخلاق. وانظر: جلاء القلوب للشيخ جعفر الكتاني (بتحقيقنا).

(١) رواه البخاري (١٨٩١/٤)، ومسلم (٢٠٤٠/٤).

الأقدس فالكل من الله ابتدائه وانتهائه تأمل.

ويجوز أن يكون متعلقًا (**بأخذ**) وهو الظاهر على تقدير أن يكون (**بما**) متعلقًا بتجلي كما مرَّ، واعلم أن الحق تعالى يتجلى، ويظهر في جميع الأشياء وهي مظاهر له، والمظهر لا يجب أن يكون محسوسًا شهاديًا، بل يجوز أن يكون معقولاً غيبيًا مظهرًا لشيءٍ صورته، والصورة ما به الشيء يُحس، أو يُعقل فالعالم كله صورة الله؛ لأنه به يعقل ويدرك، وظهور الشيء تعينه وتميزه، كظهور الجنس في مرتبة الأنواع، والنوع في مرتبة الأشخاص، فإن الأول يتميز بالمنوعات، والثاني بالمشخصات، وكل مظهر مغاير لما ظهر فيه، وهو يظهر فيه بالصورة والشبح لا بالذات ما عدا مظاهر الحق تعالى؛ إذ لا فرق هناك بين الظاهر والمظهر إلا بالإطلاق والتقييد، والظاهر يظهر في المظاهر بالذات لا بالصورة، والشبح كالحقيقة المطلقة الإنسانية فإنه باعتبار الإطلاق ظاهر، وباعتبار التقييد بالمشخصات مظهر، ولا فرق إلا بالتقييد والإطلاق، والظاهر في تعينه تابع لمظهره، والمظهر في ظهوره تابع للظاهر، فالمظهر بالاعتبار الأول له المرتبة الأولية، وبالاعتبار الثاني له المرتبة الأخرية، والمظهر من حيث هو مظهر باطن؛ لأن له حُكم المرآة فإذا امتلأت من الصورة فالظاهر هو الصورة لا المرآة، فالظهور صفة الظاهر لا المظهر، وباطن هذا الظاهر هو نفس الظاهر، لكن باعتبار حال تقدمه عن حال ظهوره، وباطن الباطن من غيب هوية الذات؛ لأن كل متعين مسبوق بلا تعين، وباطن الباطن على سبيل الإجمال هو الذات البحت المعبر عنه بالوجود المطلق الذي في العماء الذي ليس فوقه هوا ولا تحته هوا.

***

مطلب الوجود المطلق

وهذا الوجود المطلق له مجالي ثلاثة كلٌ منها مُلحق بالصرافة والإطلاق حيث لا شيء معه فيها ليس بصرف ساذج من حيث نسبة اسم إليه، الأول الأحدية:

وهي المسمَّاة بمقام جمع الجمع وحقيقة الحقائق، ففي الأحدية ليس فيها ظهور لشيءٍ من الأسماء والصفات والنِّسب والإضافات، فهو ذات صرف لكنه نُسبت إليه الأحدية فنــزل حُكمه عن السذاجة.

والثاني الهوية: ففيها ظهور الأحدية لا غير فلحق بالصرافة، لكن دون لحاق الأحدية

لتعقل الغيوبة فيها[١].

والثالث الآنية: فليس فيها غير الأحدية والهوية فلحق بالسذاجة، لكن دون الأحدية والهوية لتصور التحدي والحضور، والحاضر والمتحدي الحاضر أقرب إلينا من الغائب رتبة؛ لأنه متعقل باطن بالنسبة.

وبعد هذه المجالي مجالي التقيّد والتعين فأولها مجلى الواحدية، ثم الربوبية، ثم الأعيان الثابتة، ثم مجلى الرحمنية، ثم الرحيمية، ثم النفس المنطبعة في الجسم الكلي، ثم الهيولي الكلية، ثم الطبيعة الكلية، ثم العقول والنفوس الناطقة، ثم العالم الخيالي المطلق والمقيد، ثم عالم الملك والشهادة، وتفصيل هذه المراتب قد ذكرتها في شرح رسالة الولي الكامل المكمَّل الشيخ رسلان الدمشقي قُدِّس سرَّه العزيز، وذكرها غيري أيضًا.

وله التجلي بحسب الأفعال، والأسماء، والصفات فلا فعل إلا فعله، ولا اسم إلا اسمه، و لا صفات ولا ذات إلا ذاته، فلا شيء إلا وهو تعالى قبله وعنده وفيه وبعده ومعه.

فهو الظاهر قبل كلّ شيء، والمظهر لكلّ شيءٍ، وأظهر من كلّ شيءٍ، وأقرب إلى كلّ شيء من كلّ شيءٍ، ومع كلّ شيءٍ، وليس معه شيء، ولولاه ما كان وجود شيء فظهر بكلّ شيءٍ، وفي كلّ شيءٍ ولكلّ شيءٍ، لكن استتر بوجود الأكوان والوهم حاجب للعيان فلو ارتفع الوهم والأكوان لوقع العيان وأشراق نور الإيمان، وإن كنت تطلب العيان، وإشراق نور الإيمان فارفع حجاب الوهم عنك بما سيلقى إليك، ولا تقف عند صور الأكوان، وكن ملازمًا للمعاني.

---

(١) والأحدية اسم للذات المطلقة البريئة عن الحصر والتقييد وعن النطق أيضاً ومضادتها للثنوية، فلما تسمت بالأحدية كان اسمها أيضاً بهذه المثابة فلما نشأ الألف عن هذا الاسم، وجب أن يكون صامتاً لبراءة الاسم و المسمى عن النطق، وإنما قلنا: إن الألف نشأ عن الأحدية لدلالته عليها من وجهين:
الأول: كونه أولاً، والواحد للظاهر بهذه الأشياء كان قبلها.

والثاني: أن حظه من العدد واحد وهذا نصيبه صورة انفعاله، فإنه إذا شهد أحد نفسه في مرآة لا يريد انطباعه على صورته، والمرآة تمكن التمييز وتعطي نصيب المتمكنين من الانطباع والظل، فظل الألف واحد وهو ناطق وصورته المنطبعة واحدة وهي نصيبه من العدد وليس صمت من أجل الانطباع ولا الظل، وإنما صمته لكونه ناشئاً عن الأحدية بغير واسطة سوى الإرادة.

٣- أفن ما أضيف إليك: تبق بما أضيف إليه.

فمما سيلقى إليك قوله قُدِّس سرّه: (**أفن ما أُضيف إليك: تبق بما أضيف إليه**) أي: أزل وارفع عنك كل ما أُضيف، ونُسب إليك من ذاتك، وأسمائك وصفاتك وأفعالك وأحكامك، بأن لا ترى لك وجودًا واسمًا وصفةً وفعلاً وحكمًا، وتتحقق بما قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] يعني ظهر بصورتكم، وصورة أعمالكم، فهو تعالى ما فقد في أعمالكم، كما أنه ما فقد في ذواتكم، فإثبات ما ليس بثابت محض دعوى ونزاع و لا يليق بالعبد النّـزاع مع سيده، والعبد الـمُنازع مع السيد ما له إلا الخسران خصوصًا إذا لم يكن للعبد مأوى يأوي إليه غير سيده، وإن ما أُضيف إلى العبد فانٍ، والموصوف بالفاني لا يكون إلا الفاني(١).

وقوله:(**تبق**) جواب الأمر مجزوم بأن المقدرة مع شرطها على الأصح، ويجوز فيه فتح التاء من بقي يبقى من الباب الرابع كالعلم يعلم، وضمها من أبقى يبقي من المزيد كأكرم يكرم، وحقًا يكون مبنيًا للمفعول :أي؛ لأنك إن تفن ما أضيف إليك مما ذكر تبق أنت أيها العبد السالك، أو تبق أنت بالبناء للمفعول أي: يجعلك الله تعالى باقيًا بما أُضيف إلى الحق؛ لأنه كل ما ترتفع صفة من الصفات البشرية من العبد قامت صفة إلهية مقامه، وصفات الله باقية ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦]، والموصوف بالباقي لا يكون إلا الباقي، فمن كان في الفناء فهو فانٍ وإن كان موجودًا، ومن كان في الباقي فهو باقٍ وإن كان مفقودًا، مع أنه لا يتصف في الحقيقة بالوجود إلا من صار مفقودًا، وهو القائم بالله الفاني عن وجوده بوجود الله، والإفناء المذكور لا يكون إلا

(١) تقول الست عجم: معنى الفناء ظهور الانتقام في حال الاصطلام فإنه لما ظهر عليه هذا الحال وأثر بظهوره أثراً أفنى بذلك الأثر شيئاً من الوجود الذي يجمعه العارف وصفاً، فإذا أُفنى هذا الشيء تيقن العارف أن هذا الفناء من ذاته إذ الواحد بمجموع الكل والكل بمجموع الآحاد، فمتى فنى شخص فنى الكل إذ كل شخص مختصر من المجموع، لكن إذا فنى هذا الشخص لا يكون الحقيقة المطلقة فانية، وإنما تفنى الحقيقة المقيدة فمراده بهذا الفناء واحد من المقيدين لا واحد في الإطلاق، فإن الإطلاق لا يصدق إلا على واحد والواحد المطلق لا يفنى ولا يطلق عليه الفناء، بل يطلق على المقيدين لأنهم آحاد متكثرة تفنى شيء ويبقى شيء فكأنه لما صدر عنه هذا الأثر فنى به واحداً من الأشخاص المقيدة، فكان هو الفاني بالنسبة إلى التقييد. وانظر: شرح المشاهد لعجم (بتحقيقنا).

بالتوجه التام إلى الحق سبحانه وتعالى؛ لأنه إنما تتقوّى جهة الحقيَّة على الخلقية، والبقاء[1] على الفناء به على حسبه حتى إذا كمل التوجه اضمحلت الخلقيّة بقهر الحقيّة عليها، والتوجه إنما يحصل بالمحبَّة الذاتية المستورة الموجودة فيه بالقوة، وظهور تلك المحبة ليس إلا بالاجتناب عما يناقضها من المخالفات والمنازعات والتوجه التام، تفريغ القلب عما سوى الله تعالى، والتجريد عن كلّ وصف بشري، وأن لا يتقيد بشيء من الوجود والعدم والإظهار والإخفاء وغير ذلك، وإذا لم تفن أنت أيها السالك الطالب للتوحيد الموجب للنجاة الأبدية ما هو منسوب إليك بأن ترى الأفعال والحركات والسكنات لك وصادرة منك، وأنت فاعلها تبقى في الشرك الخفي الموجب للحرمان من الدخول في حضرة القدس؛ لأن كلك شرك خفي.

كما قال الشيخ الولي الكامل رسلان قدَّس الله روحه في أول رسالته «كلك شرك خفي»: والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [يوسف:١٠٦]، فالمراد الشرك الخفي، وإلا فلا يجتمع مع الإيمان الشرك الجلي، وقوله ﷺ: «**الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا**[2]»، ومعنى كون الشرك الخفي هو أنه يشرك بالله من وجه لا يشعر به وهو في التوحيد، وخفاء هذا الشرك إنما هو عن العوام، وأمَّا الخواص فليس بخفي عندهم؛ لأنهم لا يرون غير الله، فمتى أثبتوا وجود الغير لله تعالى فيحكمون بكفرهم، فهم حقًا مشركون شركًا جليًا وحقيقة لا خفيًا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

٤-كل منحة وافقت هواك فهي: محنة، وكل محنة خالفت هواك في منحة.

ثم أيد الحُكم المذكور فقال: (**كل منحة وافقت هواك فهي محنة**): منحه كمنعه

---

(١) تقــول الست عجم: إن البقاء لا يصدق إلا على الكثرة كما ذكرنا فمن فنى من المتكثرين أطلق علــيه الإطــلاق، وكان بالنسبة إلى الكثرة فناء وبالنسبة إلى الإطلاق بقاء إذ الإطلاق باق والكثرة مشــهودة الفناء، ولا يعلم أن عين فنائها النسبي هو عين البقاء الحقيقي فكأنه لما شهد فناء واحد من الكــثرة وجــد بقاءه في ذاته المطلقة إذ العارف كلما يشهد فناءً ظاهراً يدركه بقاء في غيب أحديته الخافية. وانظر: شرح المشاهد القدسية (بتحقيقنا).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١١٤/٣) بنحوه، وذكره المناوي في فيض القدير (١٧٢/٤).

وضربه أي: أعطاه، والاسم (**المنحة**) بالكسر فهي بمعنى: العطية اسم لما يُعطى، و (**المحنة**): اسم للتعب والمشقات، وفي الأصل محنه كمنعه أي: ضربه، والمنح بلا تاء اللين من كلِّ شيءٍ أي: كل عطية ونعمة (**وافقت هواك فهي**) أي: تلك المنحة الموافقة لهواك محنة أي: تعب عليك، ونقمة لك في الحقيقة لا نعمة ورحمة، والمراد بالمنحة الموافقات للهوى التي تكون محنة الملائمة للطبع الموافقة للنفس المبعدة للقلب عن الله سبحانه وتعالى، وأمَّا نفس المنحة للهوى ليست موجبة للمحنة؛ لأن الرزق اللذيذ الملائم للطبع الموافق للهوى إذا كان حلالاً بحسب الشَّرع ليس بمحنة لخلوصه عن تبعة العذاب يوم القيمة، فالمنحة الموافقة للهوى التي هي المنحة هي: الرحمة الممتزجة مع النقمة فظاهرها رحمة وباطنها نقمة، وقد تكون رحمة خالصة، أو ممتزجة لكن ظاهرها نقمة وباطنها رحمة كشرب الدواء الكريه الذي لا يُلائم الطبع في الحال، لكنه تعقبه الراحة وزوال ما لا يلائم بحسب المال، وهاتين المنحتين ما فيهما ضرر لكن في كل ضرر من حيث عدم شهود المنعم معه؛ لأن كل التذاذ يصحبه فرح وسرور بالملتذ به مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين لا كمال ولا صحة له إلا بالهناء، ولا هناء إلا بشهود منة المنعم، ولا شهود لها إلا بشهود المان بالفضل والإحسان سواء كان في هذه الدَّار أو في تلك الدار، أمَّا الشهود في هذه الدار فبالبصيرة فقط، وأمِا في تلك الدار فبالبصر والبصيرة.

فلولا تجلي المنعم بالإحسان ما صحَّ نعيم المنعم عليه أصلاً، وإذا تجلى بالجمال ولوْ لأهل النار لغيبهم عن النقمة، و لو حجب جماله ولو عن أهل الجنة فأطاب لهم النعيم؛ لأن النقمة والعذاب بوجود الحجاب، والنعيم بظهور التجلي، فكل من فرح بالنعمة بمجرد وجود المتعة فيها بدون ملاحظة مُنعمها ومُوجدها فهو من الذين غفلوا بالنعمة عن المنعم، ونسوها بها فإنما هِمَمَهُم مقصورة على ملذهم من الأكل والشرب وغيرهما.

وهو الذي صدق عليه قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً**﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال الله تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ أي: كلما جددوا معصية جددناهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية حتى ركنوا إلى النعمة، وغفلوا من المنعم أخذوا قاله: سهل بن عبد الله رحمه الله.

ومن فرح بها من حيث شهودها من المنعم، وممن وصل إيَّاها فهو من الموقنين القائمين بالشريعة دون الحقيقة لمشاهدة نسبة الخلق، فهو ممن يوجه إليه قوله تعالى: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس:٥٨] أي: من كلِّ شيء حتى عن عباداتهم وأحوالاتهم ومقاماتهم، ومن فرح في النعمة بالله من حيث كمال ذاته، وتقدس أسمائه، وجلال صفاته، وكمال أفعاله من غير اشتغاله بالمتعة أي: متعة النعمة ولا بباطنها من أنعام المنعم، فهو ليس من الغافلين، ولا من الذَّاكرين الذين شغلهم الإنعام عن المنعم، بل هو مشاهد له لا يشهد إلا إيَّاه، ولو كلف مشاهدة غير المنعم ما أطاقه لاستغراقه في شهود الله تعالى وانجماع سره عليه، فهو الذي صدق عليه قوله تعالى:

﴿**قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام:٩١] أي: قل، واذكر الله، وعول عليه، واكتفي به عن كلِّ شيءٍ سواه، ثم اتركهم في خوضهم يعلبون أي: يتشاغلون بما لا حقيقة له؛ لأنه معنى اللعب والوجود كله كذلك من حيث التحقيق قال رسول الله ﷺ:

«**أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**(١)».

والمصراع الثاني هو: وكل نعيم لا محالة زائل وإن كان صادقًا، لكن المصراع الأول أصدق، فالمقصود التام وما هو بساط المعرفة تزكية النفس وتطهيرها من جميع العيوب، والعيوب: كل ما أوجب نقصًا معصية أو غير في الأفعال أو الأخلاق أو الآداب مع الله أو مع خلقه، فإذا عرفت ما تقرر فكل ما وافق هواك يُبعدك عن مولاك فالمطلوب منك مخالفة هواك؛ إذ لا منازع يُنازع مع الحق إلا الهوى، كما ورد في بعض الأخبار.

٥- عطايا الله إن أرددت الأمور كلها إليه: استرحت من منازعات كثيرة.

والنـــزاع ليس إلا من نسبة الأمور إلى ما سواه، فإن نسبت الأمور إلى الغير فتتعب في المنازعة مع الحق والخلق (**وإن أرددت الأمور كلها إليه**) بأن أرجعت الأمور جميعًا مما هو منسوب إليك، أو إلى غيرك، ومما هو لك أو عليك أو لغيرك أو على غيرك إلى الحق تعالى، وترى أنه الفاعل لكلِّ شيءٍ، والمعطي لكلِّ شيءٍ، والمانع لكلِّ شيء (**استرحت من منازعات كثيرة**) لا تعد ولا تُحصى؛ لأنك تشهد جريان القدرة في الأشياء كلها

---

(١) رواه البخاري (١٩٣٥/٣)، مسلم (١٧٦٨/٤)، والترمذي (١٤٠/٥)، وأحمد (٢٤٨/٢).

فتشهده تعالى محركها ومسكنها، وتنفي الفعل عن الأشياء، وتثبته للحق تعالى فتكون حقًا مسلوب الحول والقوة والإرادة، فلا تطيق على المنازعة؛ لأنها من توابع المذكورات، والعاجز الضعيف العاري عن المذكورات لا نزاع له مع أحد.

ولهذا تحقق الأولياء بشدة ضعفهم حتى كان منهم من لم يقدر على تناول ليمونة وأخذها لما أعطوها، وكان منهم من إذا وقع منه شيء في الطريق من اللباس وغيره ما قدر أن يعود إليه أو يحمله، هذا ليس إلا من شدة ضعفهم بخروجهم عن حولهم وقوتهم إلى حول الله وقوته.

وقال: (**من منازعات كثيرة**) بوصف المنازعات بالكثرة إشارة إلى أنه لا يخرج من جميع المنازعات بالكلية إلا بعد الدخول في مقام الفناء في الله والبقاء بالله بخلاف رد الأمور إلى الله تعالى لبقاء بعض المنازعات فيه؛ لأن أهل تجلي الأفعال وإن عظم مقامهم وعزَّ مرامهم، لكنهم محجوبون عن حقيقة الأمر، وفاتهم من الحق غير ما نالهم من تجليات الأسماء والصفات والذات، فتجلي الأفعال ومشاهدة أنها كلها للحق تعالى حجاب، وصاحبها محجوب والمحجوب في المنازعة ولو في الجملة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

٦- عطايا الله كلها حسنة، فما وافق هواك جعلته خيرًا، وما خالفه جعلته شرًّا.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٨].

(**عطايا الله كلها حسنة**): (**العطايا**) جمع العطية، وهي اسم لما يُعطى أعمّ من أن يكون خيرًا موافقًا لهوانا، أو شرًّا غير موافق له، وإضافته إلى الله للاستغراق، وللإشارة إلى أن الحُكم الذي بعده باعتبار هذا التقيد أي: من حيث إنها عطايا الله لا من حيث إطلاقها وذواتها، و(**الحسنة**) ضد السيئة أي: عطايا الله تعالى كلها الظاهرة في الكون الجامع، الواصلة إلى مستعديها بواسطة العباد سواء كانوا من البشر كالعلم الحاصل للمتعلم من المعلم، أو من غيره كالعلم الحاصل للكُمَّل بواسطة الملائكة والأرواح البشرية الكاملة وغير ذلك من العطايا أو بغير واسطة العباد، وسواء كانت تلك العطايا ذاتية ناشئة من أحدية جمع جميع الأسماء والصفات من غير خصوصية صفة دون صفة؛ لأن الذات من حيث إطلاقها لا تتجلى ولا تعطي، أو كانت أسمائية بأن تكون من خصوصية صفة من

الصفات، وسواء كانت عن سؤال معين أو غير معين كأن يُقال: اللهم أعطني شيئًا كذا أو أعطني ما هو فيه مصلحتي، والسؤال كان بلسان المقال أو بلسان الحال أو الاستعداد، (**حسنة**) أي: رحمة وكرامة منه ولطف من حيث أنها منه؛ لأن قدرة تعالى لا نفكك منه اللطف.

وقال العطاء السكندري رحمه الله: (**مَنْ ظَنَّ انْفكاكَ لُطْفِه عنْ قدرِه فذلكَ لقُصُورِ نَظَرِه**) [1]: يعني عقلاً وعادةً وشرعًا، أمَّا عقلاً؛ فلأنه ما بلاء إلا والعقل يحكم بأسوء منه، فيكون هو بالنسبة إلى ما فوقه لطف، وأمَّا عادة؛ فلأنها ما وجدت بلية لشخص إلا وجد ما هو أعظم منها بغير، وأما شرعًا؛ فلأن كل بلية إمَّا مُكفرة لذنوب صاحبها، أو مُوجبة للثواب أو مُخففة للعقاب أو مُبشرة بالمنفعة الدنيوية أو بغير ذلك من حقارة النفس وغيرها.

وورد في هذا الباب أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من وصب** [2]»

---

(١) قال الشيخ سيدنا ابن عجيبة: من أعظم إحسان الله وبره كون لطفه لا ينفك عن قدره، فما نزل القدر إلا سبقه اللطف وصحبه، وبهذا حكم النقل والعقل، أما العقل فما من مصيبة تنزل بالعبد إلا وفي قدرة الله ما هو أعظم منها وقد وجد ذلك، فإذا نزلت بك أيها الإنسان مصيبة فاذكر من هو أعظم منك بلاءً، فكم من إنسان يتقطع بالأوجاع! وكم من إنسان مبتلى بالجذام والبرص والجنون والعمى! وكم من إنسان مطروح في الفنادق لا يجد من يبريه إلا من ابتلاه! وكم من إنسان أعمى أو مقعدًا أو محموم إلى ما لا يتناهى! نسأل الله عافيته الدائمة في الدارين.

وأما من جهة النقل فقد ورد في ثواب الأمراض والأوجاع أحاديث كثيرة وآيات قرآنية في مدح الصابرين، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، إلى غير ذلك، وقوله ﷺ: «مَا يُصيبُ المؤمنَ من وصبٍ ولا نصبٍ ولا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ حتَّى الشوكةُ يُشاكُهَا، وحتَّى الهمُّ يُهِمُّهُ إلا كَفَّرَ به سيئاته».

وورد في الحمى أحاديث كثيرة وأن حمى ساعة تكفر سنة إلى غير ذلك.

وقد ذكر الشيخ ابن عباد ﷺ منها جملة شافية، فليطالعه من أراد تكثير الأجور، ورفع الستور والرضا بالمقدور، وما ذكرناه كاف إن شاء الله..

(٢) رواه مسلم في الصحيح (١٩٩٢/٤)، وابن حنبل في المسند (٣٠٣/٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٣٥٣/٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤٤١/٢).

أي: مرض، وهو بفتح الأول والثاني، ولا نصب وهو ككتف المريض الوجع وبفتح النون والصاد وبضمهما، وفتح الثاني وضم الأول الداء وبسكون الثاني التعب ولعله هو المراد: «**إلا كفّر به خطاياه حتى الشوكة يشاكها**(١)».

ومنها ما قال أيضا: «**حمى يوم كفارة سنة**(٢)».

ومنها ما قال أيضًا: « **الحمى حظ كل مؤمن من النار** (٣)»

فعلى هذا العطايا كلها إمَّا حسنة أو فيها حسنة جمعًا وفرقًا، وليس هذا بمراد للشيخ، بل المراد أن العطايا كلها من حيث أنها من الله حسنة لا اتِّصاف لواحدة منها بكونها شرًّا؛ لأن الاتصاف بكونها شرًّا بالنسبة إلينا حيث قال: (**فما وافق هواك جعلته خيرًا، وما خالفه جعلته شرًّا**) لعدم فهمك عن الله، لأن من فتح باب الفهم له لا يرى إلا خيرًا منه تعالى، بل في الحقيقة لا خير ولا شرّ إلا بالنسبة للعباد كما أشار إليه قوله: ﴿**فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**﴾ [الفجر:١٥] ﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** ﴾ [الفجر:١٦] كلا أي: ليس الأمر في نفسه كذلك، بل الكل رحمة وإكرام، وأيضًا قد يكون العطاء منعًا والمنع عطاء فلا إكرام في العطاء، ولا إهانة في المنع فلا فرح بشيء ولا على شيء، فلا تقل بالإكرام ولا بالإهانة، بل ﴿**قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ**﴾ [النساء:٧٨] أي: قل أيها العبد السالك: أن كل الأمور مبدئها من عند الله لا اختلاف فيها بالخيرية والشرية من حيث أنها مخزونة عنده تعالى في خزائنه تعالى العلمية التي هي حقائق الأشياء وأعيانها الثابتة، وإنه يعطي كل شيء ما اقتضى عينه من غير زيادة ونقصان أي: بقدر قابلية الـمُعطى له، فالاختلاف ليس إلا من مقتضيات الأسماء والصفات وعلى حسب استعداد الأعيان.

فإن قلت أيها السالك: القول المذكور فيصير الكل خيرًا عندك لا ترى فيها اختلافًا،

(١) رواه البخاري (٥/٢١٣٧)، ومسلم (٤/١٩٩٠).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخلفاء (٢/١٥٢).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/١٦١)، وذكره المناوي في (٣/٤٢١)، والعجلوني في كشف الخلفاء (٢/١٤٩).

فاخرج أنت عن هواك حتى تخلص عن ورطات كثيرة، وإذا أخرجت عن هواك فلا تبقى لك نية في شيءٍ تكون أنت حقًا تحت قهر الأمر، ومن كان مقهورًا فهو بربه، ومن كان بربه لا يفته شيئًا من أدبه، ولم يتوقف له شيء من مطلبه فهو في أمن من الله لا يخاف من شيءٍ ولا يخوفه شيء.

٧- خف من كل مالك فيه نية. ولو كان طاعة، ولا تخف مما أنت مقهور فيه ولو كان معصية.

وهو الذي أشار إليه بقوله: (**خف من كل مالك فيه نية**) أي: خف أيها السالك من كلِّ شيءٍ تكون لك في ذلك الشيء نية وقصد واختيار من نفسك بأن تقصد بنفسك شيئًا بدون أن تجعل نيتك من الله إلى الله بالله لله (**ولو كان طاعة**) أي: ولو كان الشيء الذي لك فيه نية طاعة؛ لأن محاسنك عيوب لما يدخلها من العلل والآفات، وحقائقك أيضًا كلها دعاوي؛ لأنها ليست منك ولا لك ولا بك ولا عنك، وإن نفسك مجبولة على ضد الخير، فإذا قصدت شيئًا بنفسك فلا يكون هذا القصد إلا بمقتضى هواها، وهي لا تطلب إلا ما هو شرّ، أو من جهة الشرّ، ولذا قيل: إذا اشتبه عليك أمران لا مندوحة عنهما، ولا أرجحية لأحدهما، ولا يمكن الجمع بينهما كأخذ هدية وتركها لمن لا يتغير بالرد ولا يغتر بالقبول فانظر أثقلهما على النفس، فاتبعه وخذ ما هو الأثقل عليها؛ إذ لا يثقل عليها إلا الحق فافن أنت عن هواك ونيتك، وإن نحت الجبال بالأظافر أيسر من الفناء عما ذُكر على ما قالوا: يُخلص عملك عن الغلل والآفات، ولا يمكن لك هذا إلا بالعبودية لله بالله، فحقًا تنسى حظوظ نفسك لاختيار ربك على حظوظك.

قال بعض الأفاضل: العبد حين ما أطاع أحوج إلى حلم الله منه حين ما عصى؛ لأنه في الأول مصحوب بالعلل والدعاوي، وفي الثاني مصحوب بالافتقار والاضطرار، وأفضل الأوقات الوقت الذي يُشاهد العبد فيه ذله وافتقاره، فالحاصل لا يصدر من النفس إلا الناقص أو الكامل الذي لحقته العلل من الملاحظات والالتفات وطلب الأعواض والأغراض، فلولا جميل ستره تعالى ما كان عمل من أعمالنا أهلاً للقبول، فلا تكون لك النية في شيءٍ إلا من الغفلة المستلزمة للنقص وفوات المقصود الموجبان للخوف.

فاعمل في وقتك بما اقتضاه أمره تعالى لذلك قيل: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون،

وقال بعض آخر: أحْرِصُ على أن أصبح مفوضًا مستسلمًا لعله ينظر إلي، ويرحم لي، فعلم بما تقرر أنه ينبغي لك أن تخاف من كل ما تنويه وتعمله بقصدك.

(ولا تخف مما أنت مقهور فيه ولو كان معصية) أي: لا ينبغي لك الخوف من كلّ شيء أنت مقهور في ذلك الشيء ولو كان ذلك الشيء معصية لعدم قصدك فيه وكونك مقهورًا، والمقهور لا يُسأل عما يُقهر عليه، ومن هنا قيل: قضى عليك ربك بالذنب فكان سببًا للوصول لك كما ورد في الحديث: «**رُبَّ ذنب أدخل صاحبه الجنة**[1]»، وهو الذنب الذي صدر منه حالة كونه مقهورًا فيه، وقيل: معصية أورثت ذلاً وافتقارًا خيرٌ من طاعة أورثت عزّا واستكبارا.، وذلك؛ لأن الطاعة وإن كانت في ذاتها خيرًا والمعصية في ذاتها شرًا، لكن قد يصير بالعوارض الخير شرًّا والشر خيرًا مثلاً الذنب شرّ، لكن إذا حصل منه الانكسار والتوبة إلى الله والتشمير لخدمة الله يكون خيرًا له، والطاعة خير لكن إذا اعتمد عليها ويستصعر من لم يعملها ويطالب العوض عليها يكون شرًّا له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**﴾ [الحج:٦١] أي: المعصية في الطاعة والطاعة في المعصية، كما قاله الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله تعالى، وقال أبو مدين ﷺ: انكسار العاصي خير من صولة المطيع فهذا كله من رؤية العمل، والنية فيه بخلاف ما إذا نسي العمل ولا يرى لنفسه قصد أو نية؛ لأنه حقًا لا يكون فاعلاً لما هو طالبه، بل لما هو مطلوب منه، ومن هنا قيل: ما توقف مطلب أنت طالبه بربه، ولا تيسر مطلوب أنت طالبه بنفسك، وقيل أيضًا: ما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه، وإلى هذا إشارة قوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ**﴾ [الإسراء:٨٠] أي: لا بنفسي﴿ **وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ**﴾ [الإسراء:٨٠] أي: لا بنفسي، والمقصود ترك النية في الأعمال مع الشهوة؛ لأن الإرادة والقصد تتعلق بالشيء من حيث الشهوة ومن غيرها.

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثامن والعشرين وثلاثمائة: «فالسعداء أخذوا الأعمال بالإرادة والقصد وأخذوا بالشهوة، فمن رُزق الشهوة في حال العمل فالتذ بالعمل التذاذه بنتيجته فقد عُجل نعيمه له، ومن رُزق الإرادة في حال العمل من غير شهوة فهو صاحب

(١) لم أقف عليه.

مجاهدة»، ثم قال: «وأكثر الناس لذة بأعمالهم العباد، وأقلهم لذة: العارفون».

فإذا عرفت هذا فالمطلوب أن لا تقصد اللذة بخروجك عن نيتك ونظرك على أفعالك، وأن تعلم بأن الله لا يلتذ بشيء فمن الالتذاذ بالعبادات صار نقصًا، وقد ورد فيما أوحي إلى داود عليه السلام: «فإن أردت التقريب من حضرتي فاعبدني امتثالاً لأمري عبادة لا لذة فيها فإني لا يلتذ برؤيتي لعدم مجانستي لخلقي فليس أنا جسم ولا معنى حتى يلتذَّ بي» تدبر فيه فإن فيه ما يؤيد ما قاله الشيخ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

٨ - توافق الخلق من حيث لطائف الأرواح، واختلفوا من حيث كثائف الأشباح.

ثم قصد الشيء وعدم قصده من الاختلاف والتفاوت وفي الحقيقة لا تفاوت، فأشار أولاً بقوله: (**عطايا الله كلها حسنة لا تفاوت فيها**).

وثانيًا بقوله: (**توافق الخلق من حيث لطائف الأرواح**) الموافقة ضد المخالفة، والخلق بمعنى المخلوق، و(**اللطائف**) جمع لطيفة وهي ضد الكثيفة وهو من إضافة الصفة إلى الموصوفة أي: الأرواح اللطيفة.

* * *

مطلب في الروح

والأرواح جمع الروح وهو قسمان[1]: قسم يسمَّى بالروح الحيواني وهو جسم لطيف،

(١) قال سيدنا القونوي: اعلم أن الارتباط الذي بين الروح الحيواني، وبين المزاج الطبيعيُّ الإنساني ثابت بالمناسبة، كما أن الارتباط بين النفس الناطقة وبين الروح الحيواني إنما صح وثبت أيضًا بالمناسبة، ولو لا ذلك ما تأتي للنفس تدبير المزاج البدني لما بينهما من المباينة من جهة بساطة النفس، وتركيب البدن، وفرط كثرة أجزائه، واختلاف حقائق ما تألَّف منه.

فالبخار الذي في تجويف القلب، وإن كان جسمًا فإنه ألطف أجزاء بدن الإنسان وأقربها نسبة إلى الأجسام البسيطة؛ وهو كالمرآة للروح الحيواني.

والروح الحيواني: من حيث اشتماله بالذات على القوى الكثيرة المختلفة المنبثّة في أقطار البدن، والمتصرفة بأفانين الأفعال والآثار المتباينة تناسب المزاج البدني المتحصّل من العناصر، وما يتبعه من الخواص المعدنية والنباتية والحيوانية، ومن حيث أنه قوة بسيطة متعلقة غير محسوسة مجعولة في ذلك البخار القلبي الذي قلنا أنه كالمرآة له تناسب النفس الناطقة؛ وإنه أيضًا كالمرآة لها: أي للنفس.

=

=

ونسبة النفس الجزئية الإنسانية إلى النفس الكلية، نسبة الروح الحيوانية إليها من جهة الافتقار إلى المادة، والتقيُّد بها وملابسة الكثرة، ومن جهات غير هذه المذكورة كخواص إمكانات الوسائط من الأفلاك والنفوس والعقول والشئون المعبر عنها بالأسماء.

ونسبة النفس الكلية إلى القلم الأعلى المسمَّى بالعقل الأول، والروح الكلي؛ نسبة النفس الجزئية إلى النفس الكلية، ونسبة الروح الكلي المشار إليه إلى جناب الحق سبحانه نسبة النفس الكلية إليه؛ بل أقل وأضعف هذا وإن كان هذا الروح الكلي الذي هو القلم أشرف الممكنات، وأقربها نسبة إلى الحق، وأنه حامل الصفات الربانية، والظاهر بها علمًا وعملاً وحالاً.

فالسير، والسلوك، والتوجه بالرياضة، والمجاهدة، والعلم، والعمل؛ المحققين المتأصِّلين بأصولِ الشرائع والتعريفات الربَّانية يثمر بعناية الله ومشيئته انصباغ القوى المزاجية بوصفِ الروح الحيواني في الجمع بين خاصية البساطة والتجريد، وبين التصرُّفات المختلفة بالقوى المتعددة في فنون الأفعال، والتصريفات الظاهرة في بدنِ الإنسان بالقوى والآلات.

والروح الحيواني كماله الأول انصباغه بأوصاف النفس الناطقة، والنفس الناطقة الجزئية كمالها الأول تحقُّقها بوصفِ خازن الفلك الأول المسمَّى في الشرائع بـــ «اسماعيل»؛ وعند أهل النظر بالفعال، وكمالها المتوسط ظهورها، وتحققها بوصف النفس الكلية، واكتساب أحكامها على وجهٍ يوجب لها التعدي منها إلى المرتبة العقلية والروح الكلي.

ثم الاتصال بجناب الحق والاستهلاك فيه بغلبة حكم الحقية على الخلقية، وزوال الخواص الإمكانية والتقييدية بأحكام الوجوب، وبقهر حكم الحق الواحد القهار كل حكم، ووصف كان يُضاف إلى سواه، وهذا القهر يرد على كل ما امتاز من مُطْلق الغيب الكليّ الربانيّ، وتلتبس بواسطة الأحوال الإيجادية بأحكام الإمكان والتقييدات الكونية المتحصِّلة من الشروط الوسائط.

فيستهلك الجزء في كله، ويعود الفرع إلى أصله، مستصحبًا خوص ما مرَّ عليه واستقر فيه مدة، ووصل إليه؛ كماء الورد كان أصله ماء فسرى في مراتب التركيب والمواد، واكتسب بسرايته ما صحبه بعد مفارقةِ التركيب من طعمٍ، ورائحةٍ، وخواص أخر، ولا يقدح شيء منها في وحدته وبساطته.

وإذا عرفت هذا، فاعلم أنه يتحصَّل بين كيفيات المزاج الإنساني وبين ما يكون قلب الإنسان وذهنه مغمورًا به من المقاصد والتوجهات وغيرهما كانت ما كانت، وبين ما ارتسم أيضًا في نفسه من العلوم، والعقائد، والأوصاف، والأخلاق في كل وقتٍ؛ هيئة اجتماعية.

تلك الهيئة مع ما ذكرناه أولاً في القاعدة بالنسبة إلى جناب الحق من جهة عدم الوسائط، وبالنسبة إلى سلسلة الحكمة والترتيب، وما أودع سبحانه من القوى، والخواص، والأوامر، والأسرار في السماوات العُلا وما فيها من الكواكب والأملاك، وما يتكيَّف به من الأوصاف والتشكُّلات؛ كالمرآة

=

=

يتعين فيها من تجلّي الحق، وشأنه الذاتي، وأمره الترتيبي الحكمي العلوي، وما يتبعه جميع التصورات والتصرفات الإنسانية وما ينضاف إلى الحق من الأسماء والصفات والشئون والآثار.

فمنها: أي من الأمور المتعينة المشار إليها: ما هي دائمة الحكم ثابتة الأثر.

ومنها: ما يقبل الزوال؛ لكن ببطء.

ومنها: سريعة الزوال والتبدُّل من حالٍ إلى حالٍ.

ومنها: ما نسبته إلى الحق أقوى وأخلص.

ومنها: ما نسبته إلى الكون أو الإنسان جمعًا وفرادىً من حيث ظاهر المدارك غالبا أحق وأنسب.

ومنها: ما يفيد معرفة الاشتراك بين الحق وما سواه من إنسان وغيره.

ومنها: ما يقضي بالاشتراك بين الحقّ والإنسان فقط.

ولست أعني بالإنسان هنا نوع الإنسان؛ بل يُعنى به الإنسان الحقيقي الذي هو بالفعل إنسانٌ كاملٌ الذي من جملة مناصبه مقام النيابة عن الحقّ، وكونه واسطة بين الحق وما سواه في وصول ما يصل من الحق إلى الخلق في عصره، هكذا كل كامل في كل عصرٍ.

وهذا المشهد لما أريته عرفت منه سرَّ التجدُّد بالأمثال، وبالأضداد، والمتخالفات، وأعني بالتجدد تجدُّد وجود الكون، والخواطر، والتصورات ونتائجها في كل زمان، وظهور الخلق الجديد الذي الناس منه في لبسٍ كما أخبر تعالى.

وقوله الحق: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]

ورأيت تعين الوجود المطلق بصورِ الأحوال؛ وهي ذات وجهين، فكلها إلهية من وجهٍ، وكونية من وجهٍ، وصادق على الجهتين باعتبار آخر.

ورأيت تعين الأسماء، والصفات الإلهية والكونية بحسب تلك الأحوال.

ورأيت كيف ينتج بعض الأفعال، والعقائد، والأحوال الإنسانية سخَط الحق ورضَاه، وأحكامه وتعدد أثره الوحداني مع عدم تغير أمر في ذلك الجناب الأقدس؛ بل رأيت بعض الأفعال والتصورات العلمية والاعتقادية من الإنسان، إذا اقترن بحالٍ مخصوص من أحواله؛ استجلب بحكم علم الله السابق فيه، وتقديره اللاحق؛ تعينًا جديدًا من مطلق غيب الحق يظهر بحسب تلك الهيئة الاجتماعية المتحصلة كما قلنا من التصورات العلمية الروحانية، أو الاعتقادية الذهنية الظنية، والكيفيات المزاجية، والنقوش والتعشُّقات النفسية، والأوصاف والأخلاق الشريفة والدنيئة.

فإن كان أثر ذلك الأمر الظاهر التعين شيئًا موافقًا لما سبق به التعريف الإلهيّ بلسان الشريعة، وما

=

=

تدرك العقول، والفطر السليمة وجه الملائمة والحسن فيه؛ أضيف إلى الحق؛ بمعنى أن ذلك أثر رضاه ورحمته، وإن كان الأمر بالعكس أضيف إلى الحق بمعنى أنه أثر غضبه وقهره، سلمنا الله منهما.

وإن كان الغالب على مزاج تلك الهيئة المتحصلة من اجتماع ما ذكرنا؛ حكم حال الإنسان؛ أعني: الحال الجزئي الحاكم عليه؛ إذ ذاك كان ذلك السخط أو الرضاء أو الحكم الإلهي المتعين في الإنسان بحسب حاله الحاضرة؛ قابلاً لزوال بسرعة، وكان قصير المدة.

وإن كان الغالب على الشخص، والجالب ما ذكرنا حكم العقائد، والعلوم الراسخة، والأوصاف والأخلاق الذاتية الجبلية، والمكتسبة الثابتة؛ ثبت الأثر والحكم أو تماديًا المدد الطويلة شرًّا كان أو خيرًا.

وكذلك إن كان الغالب فيما ذكرنا من الإنسان حكم صورة مزاجه، وقواه البدنية الطبيعية، والأوصاف والأحوال اللازمة للبدن وقواه؛ انقضى الحكم بمفارقة هذه النشأة العنصرية.

وإن كانت الغلبة للأمور الباطنية النفسانية، وما بعدت نسبته من عالم الشهادة؛ بقيَ الأثر، والحكم مصاحبين إلى حين ما يشاء الله.

وإن كان الغالب فيما ذكرنا الأمور الذهنية الخيالية الظنية؛ تمادى الحكم في النشأة البرزخية أيضًا حتى يشاهد ما قُدِّر له أن يشاهده ممَّا كان يتصوَّره على خلاف ما كان عليه، وإليه الإشارة بقول الله تبارك تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وحتى تظهر غلبة أحكام الروح، وعلمه، وحكم صحبة الحق بالمعية الذاتية، وسره على حكم المزاج، وتخيلات صاحبه التخيلات الغير المطابقة لما عليه المتصور.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠].

ثم اعلم أن كل نشأة ينتقل الإنسان إليها بعد الموت، فإنها متولدة عن هذه النشأة العنصرية، وإن في ضمن هذه النشأة ما يدوم ويبقى، وإن تتنوع ظهوره، واختلفت كيفياته، وتراكيبه؛ وفيه ما يفنى بالموت، وفيه ما يصحب الروح في البرزخ من الفاسدة والتصورات الرديئة، والمقاصد القبيحة المستحضرة، والباقي من لوازم ما ذكرنا من صور الأفعال، والأقوال الإنسانية بموجب القصد والاستحضار المذكورين.

وأما النشأة الحشرية فإنها باطن هذا الظاهر فيبطن هناك ما ظهر الآن، ويظهر ما بطن على وجه جامع بين جميع أحكام ما بطن الآن، وظهر وما نتج من هذا البطون والظهور، والجمع والتركيب.

ثم عند الصراط يفارق السعداء ما يبقى فيهم من خواص هذا المزاج، والدار مما هو عنصريٌّ غير طبيعيٍّ، وتبقى معهم أرواح قوى هذه النشأة وجواهرها الأصلية المتركّبة بالتركيب الأبدي الطبيعي

=

=

الغير العنصري، وصورة الجمع والتأليف الغيبي الأزلي.

وأهل الشقاء ينفصل عنهم ما قد كان يبقى فيهم من أرواح القوى الإنسانية والصفات الروحانية، وتتوفَّر في نشأتهم صور الأحوال المزاجية الانحرافية والصفات الرديئة والكيفيات المردئة الحاصلة في تصوُّراتهم وأذهانهم، والتي ترتبت عليها أفعالهم في الدار الدنيا وأقوالهم.

وينضم إلى صورهم ما تحلَّل من أجزائهم البدنية في هذه النشأة، فإن كل ما تحلَّل من أبدانهم يعاد إليهم، ويجمع لديهم بصورة ما فارقهم عقلاً، وعلمًا، وحالاً، وعملاً، وما يقتضيه ذلك الجمع والتركيب الذي يغلب عليه حكم الصورة على الروحانية.

وأهل الجنة بالعكس، فإن أكثر قواهم المزاجية، والصفات الطبيعية، وما تحلَّل من أبدانهم ينقلب بوجه غريب شبيه بالاستحالة صورًا روحانية مع بقاء حقيقة الجسم في باطن صورة السعداء، فالباطن هنا مُطلَقٌ، والظاهر مقيَّدٌ، والأمر هناك بالعكس؛ حكم الإطلاق في ظاهر النشأة الجنانية، وحكم التقييد في باطنها؛ وغالب الحكم والأثر فيما ظهر هناك لما بطن هنا وبالعكس.

والنشآت المشار إليها هنا أربعة:

أولها: هذه «النشأة العنصرية»: وهي كالبذرة لباقي النشآت؛ ولها الإدماج والجمع الأكبر.

وبعدها: «نشأة البرزخ»: وإنها منتشئة من بعض صور أحوال الخلق، وبعض أعمالهم، وظنونهم، وتصوراتهم، وأخلاقهم، وصفاتهم، فيجتمع مما ذكرنا أمور تحصل لها هيئة مخصوصة؛ كالأمر في المزاج المتحصِّل من اجتماع الأجزاء التي منها تُركِّب ذلك المزاج كان ما كان، فتقتضي تلك الهيئة ظهور النفس في الصورة المتحصلة من تلك الهيئة، وذلك الاجتماع، وصفة الصورة بحسب نسبة الصفة الغالبة على الإنسان حين مفارقة هذه النشأة.

فيظهر بعضهم في البرزخ؛ بل وبرهة من زمان الحشر في صورة أسد وذيخ وطير؛ كما ورد في الشرْع، وشهد بصحته الكشف والتعريف الإلهي، وليس بالمسخ والتناسخ المستنكر، فإن القائلين بذلك زاعمون أنه في الدنيا، وهذا إنما هو في البرازخ بعد الموت، فافهم.

ومن غلبت عليه الأحكام الروحانية وإفراط إعراضه عن هذه الدار وهذه النشأة: كالشهداء المقبلين في سبيل الله للجهاد بطيب قلب، وصحة إيمان؛ تظهر نفوسهم في صور طيور روحانية؛ كما أخبر ﷺ : «إنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَعَلَّقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ تَحْتَ الْعَرْشِ». وورد في المعنى في الحديث الصحيح: إن في غزوة أُحُد قال بعض الصحابة لبعضهم معاتبًا له: «أتقعد عن جنة عرضُها السَّماوات والأرض، والله إني لأجد ريحها دون أُحُد».

وهذا من بكرة نور الإيمان، وفرط استفراغ الهمَّة حال التوجُّه مع الإعراض التام عن هذه النشأة

=

=

وهذه الدار، واستشهد صاحب هذا القول يومه ذلك ﷺ.

والمتوسطون من الأولياء المفرطين في الانقطاع عن الخلق والمجاهدات البدنية أيضًا كذلك، وأما الكُمَّل فإنهم لا ينحرفون إلى طرف من الوسائط، بل يوفون كل مرتبة حقها؛ فمنهم تامُّون في عالم الطبيعة، وتامُّون في الحضرات الروحية؛ كربِّهم سبحانه الذي أعطى كلَّ شيء خلقه، فلا تغلب عليهم الطبيعة ولا الروحانية.

ومن سواهم؛ إمَّا: «مغلوب الروحانية، مستهلك الطبيعة».

وإما: «مغلوب الطبيعة المستهلك قواه الروحانية في عرصة طبيعته»؛ كما هو حال جمهور الناس.

و«الكُمَّل المقرَّبون في حاق الوسط»؛ برازخ بين الطبائع والأرواح؛ بل بين المرتبة الإلهية والكونية، فافهم. وأما الباقيان من النشآت:

فأحدهما: «النشأة الحشرية».

وثانيهما: «النشأة الاستقرارية في إحدى الدارين» وقد سبق التنبيه عليهما، والله الميسر.

جاء وارد بكتابه في جملته أمر مضمونه: اعمل لي، قلت: اعمل له تصديقًا بوعده، ووعيده، وترجيًا لفضله المرغب فيه، قالت نفسي: هذا لا يصلح لمقامي، قلت: اعمل له بموجب أمره امتثالاً وانقيادًا، قالت: هذا أيضًا لا يصلح؛ لأني حالتئذ أكون عبدًا لأمره لا عبده، قلت: اعمل له لا نظرًا إلى الأمر؛ بل نظرًا إليه من كونه آمرًا، قالت: إن الوارد يأبى هذا أيضًا؛ فإني أكون عبدًا له من كونه آمرًا؛ لا عبدًا حقيقة، قلت: اعمل له؛ شكرًا على ما أنعم به عليّ، قالت: مقامي يَأْباه، قلت: اعمل له؛ ابتغاءَ وجهه الكريم، قالت: وقوفك مع حظك منه، وابتغاء عملك على علة أمر ينافيه كمال المقام، قلت: فاعمل به سبحانه له، قالت: نِعْمَ الآلة، وبِئْسَ المستعمل، قلت: اعمل ولا اقصد بعملي أمرًا ما، ولا استحضر حال مباشرتي العمل والشروع فيه نية متعلقة بمطلب معيَّن يكون سببًا لانبعاثي نحو العمل، قالت: لا؛ هذا شبيه العبث، قلت: فكيف العمل؟ قال الوارد برسالة النفس: اجتهد ألا تجعل لهمتك وهمك متعلَّقًا غير الحق؛ لكن تعلُّقًا جُمْلِيًا كليًّا غير محصور فيما علمت منه أو سمعت عنه، بل على نحو ما يعلم نفسه في أكمل مراتب علمه بنفسه وأعلاها، ثم ترى أنه العامل بك لا أنت.

هذا بعد أن يستصلحك فيكسبك وصفه الإطلاقي كما أخبر إمام الكُمَّل ﷺ بقوله: «إِنَّ اللهَ قَالَ عَلَى لسانِ نبيِّه». وفي رواية: «عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ سمع الله لمن حمده».

وإكساب ذلك الوصف هو أن يصدق في حقك حكم التمحُّض المنبَّه عليه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[الفتح:١٠] و: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وحكم التشكيك المنبه عليه بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

=

وقيل: عرض، وقيل: الدَّم، والمتصوفة يسمونه نفسًا، وهي قوة ساكنة مولدة للحياة، ومنقذة للحسِّ والحركة والشهوة والغضب من جنده.

والروح الطبيعي قوة طالبة للغداء ساكنة في الكبد بالتصرف والهضم والدفع من صفاتها.

=

فمتى صحَّ لك ذلك وراثة محمدية كان قولنا: يعمل بك وأنت وغيرهما من الضمائر إشارة إلى الشأن الذي قيَّد فعله سبحانه المطلق الذي لا وصف له قبل هذا التقييد الشأني، ولا اسم، ولا حكم، ولا رسم، وإنما عرض له بحكم هذا التقييد ظهورٌ بوصف، واسم، وحكم، ورسم، وتبع هذا التقييد الشأني المنبه عليه تقييدات أُخَر كانت مدرجةً ولازمةً للتقييد المنبَّه عليه؛ كقيْد الأزمنة والأمكنة والمواطن والمراتب التابعة لمرتبة الشأن المذكور والنشآت، فإنه؛ أعني هذا الشأن منبع كل ما ذكر ومحتده.

فإذا تحققت بهذا الوصف الإطلاقي من حيث هذا الشأن الجمعي الأُحُديِّ صدرت منك الأفعال، وصدروها من جناب ربك دون غرضٍ ولا استكمال بها، لما ثبت في بعضِ أذواق أمهات المقامات الكبرى أنه سبحانه كمل فأوجد؛ لم يوجد ليكمل، فإيجاده نتيجة كماله، ليس كماله نتيجة إيجاده، فإن كنت مُحْذيًا على صورة حضرته فكذلك فلتكن، فيصدر الفعل المحمود المسمى خيرًا منك؛ لكونه خيرًا؛ لا لغرضٍ يصحبه تَوَخّي حصوله بذلك الفعل.

ومعنى قولي «لكونه خيرًا» ليس بمعنى أن العلم بِخَيْرِيَّتِه أوجب صدوره منك؛ بل تصير بحيث لا يمكن أن يصدر منك إلا من هذا شأنه.

وترى فعلك مع هذا الوصف الإطلاقي مطابقًا لأحكام المراتب الشرعية والعقلية، لكن غير منحصر فيها بالنسبة إلى إفهام المحجوبين؛ كما هي الأفعال المنسوبة إلى ربك لا يمكن معرفة أسرار جميعها ولا تنحصر في ميزان معين ولا يستوعب أحد ما يتضمَّنه من الحِكَم، ولا توجب الحكمة عليه فعل أمر ما، وإن لم يخل فعله من الحكم البالغة؛ بل بفعله هو عين الحكمة، ولبّ المصلحة، وثمرة الكمال الذي هو أصل أيضًا لكمال آخر مستحسن في كماله الذاتي الأول الظاهر بواسطة الأسماء وأحكامها. والعبد على خُلُق سيده، وإن جهل أمره ومقصده، فذلك أيضًا عنوان صحة حاله الدال على كمال مضاهاته.

وكفاه ذلك شرفًا وبهاءً ورئاسة تعلو على كل رئاسة وتحكم على كلِّ كمالٍ مقيَّدٍ وحالٍ، والله أعلم.

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: «الروح الحيواني كأنه سراج موضوع في زجاجة القلب» أي: الشكل الصنوبري المتعلق من الصدر، والحياة ضوئه، والدم دهنه، والحسن والحركة نوره، والشهوة حرارته، والغضب دخانه، والقوة الطالبة للغذاء أي: الروح الطبيعي خادمه وحارسه ووكيله، وهذا الروح يوجد عنه جميع الحيوانات؛ لأنه مشترك بين البهائم وسائر الحيوانات والإنسان فهو جسم وآثاره أعراض وهو لا يهتدي إلى العلم، ولا يعرف المصنوع ولا حق الصانع، وإنما هو خادم أسير بموت البدن لو يزيد دهن الدم ينطفئ ذلك السراج بزيادة الحرارة، ولو نقص ينطفئ بزيادة البرودة، وانطفائه بسبب موت البدن وليس خطابه تعالى ولا تكليف الشارع لهذا الروح انتهى.

والقسم الآخر جوهر فرد كامل حي بذاته يتولد منه صلاح البدن وفساده والروح الطبيعي والحيواني وجميع القوى البدنية كلها من جنوده، وهو يقبل صور المعلومات وحقائق الموجودات.

قال بعض: يعلم الحقائق من غير اشتغال بالأعيان كأن يعلم حقيقة الإنسان من غير رؤيته، كما علم الملائكة والشياطين من غير رؤيتهم، ولا يموت بموت البدن، وإنما يفارقه ومن مفارقته له يتعطل أحوال القوى الحيوانية والطبيعية ويعود إليه يوم القيامة، والإنسان ليس إنسانًا إلا بهذه الروح؛ لأنه اجتمع فيه حقائق المكونات، ولا يسعه الكون من جهته ولا يخطاب، ولا يكلف إلا لأجله فالحكماء يسمونه نفسًا ناطقة، والحق سماه نفسًا مطمئنة، والقوم سموه قلبًا وليس بعرض؛ لأنه من أمر الرب وهو ليس بعرض، كما أنه ليس بجسم، بل صورة مجردة معقولة غير محسوسة كالعقل الأول والقلم واللوح كذا قاله بعضهم.

والحقيقة على خلاف ذلك؛ لأن الحقيقة واحدة ما بسواها كأعراض شتى مجتمعة في شيءٍ واحد فافهم، والمراد هنا المعنى الثاني المسمَّى بالقلب تارة، والنفس تارة، والروح كذلك، والسر كذلك، والخفي كذلك وإلا خفي كذلك، والمراد بالخلق الإنسان إن قلنا: باختصاص الروح به، وجميع الخلق من الممكنات إن قلنا: إن الجماد والنبات لهم روح كما قال الشيخ في «الفتوحات المكية» في آخر الباب الثاني عشر: المسمَّى بالجماد والنبات عندنا لهم نطق من غير أهل الكشف إياها في العادة، فلا يحس بها مثل ما يحسها

من الحيوان، فالكل عند أهل الكشف حيوان ناطق غير أن هذا المزاج الخاص يسمَّى إنسانًا لا غير، ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار والكشف، فقد سمعنا الأحجار تذكر الله تعالى بلسان طلق تسمعه أذاننا منها، وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلاء الله ليس يدركه كل إنسان، فأهل الكشف يسمعون نطق كل شيء في عالم الحس لا الخيال، كما يسمعون نطق ذي النطق من نوع الإنسان، وتسبيح الأشياء في: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:٤٤] تسبيح بلسان القال لا الحال، كما هو عند أهل النظر ممن لا كشف له، وهكذا الإباءة في ﴿**فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا**﴾ [الأحزاب:٧٢] إباءة قال لا حال.

وكذا حديث الأرض والوتد. حيث قالت الأرض للوتد: لم تشقني، قال الوتد: لها سلي من يدقني.

حديث قال لا حال بمعنى أن يفهم من حاله كذا وكذا حتى لو نطق لنطق بالمفهوم منه.

فإذا عرفت هذا فالخلق كلهم من حيث أرواحهم اللطيفة لهم التوافق أو النوع الإنساني من تلك الحيثية توافقوا لا تفاوت فيهم كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ **مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ**﴾ [الملك:٣]، بل من حيث الحقيقة المطلقة لا تفاوت أيضًا،والتفاوت إنما هو في الصور؛ إذ كل صورة تعطي حُكمًا غير ما تعطيه الصورة الأخرى فالطبيعة واحدة، والصورة قد يُحكم عليها بأنها حارة يابسة، وقد يُحكم عليها باردة يابسة وغير ذلك، والطبيعة لا اختلاف فيها من حيث ذاتها.

وهذا هو المراد من قوله: (**واختلفوا من حيث كثائف الأشباح**) اختلف الخلق من حيث الأشباح الكثيفة؛ لأن كل شيء يحكم بخلاف ما يحكم به الآخر، أو المراد أن اختلاف الخلق من حيث ذوات الأشباح، فإن كل شبح مُغاير للآخر ذاتًا، كما هو مغاير حُكمًا.(**فالكثائف**) جمع كثيفة، وهي ضد اللطيفة مضاف إلى الأشباح إضافة الموصوف إلى الصفة و(**الأشباح**) جمع شبح: وهو الصورة المسواة بلا روح.

وهنا بحث وهو أن الحق تعالى موجد للأشياء إمَّا بالفيض الأقدس كما في الأعيان الثابتة، أو المقدس كما في الموجودات الخارجية.

وقال الغزالي ﷺ في الإحياء: إنه لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من

عدله، فحينئذ الموجودات بفيض الحق لا بذات الحق فلا يلزم التوافق إلا من جهة أن الكل حاصل بالفيض، وحقًا لا تفاوت بين الأشباح، كما لا تفاوت بين الأرواح مع أنه لا نسلم أن الأرواح غير متفاوتة؛ لأن أرواح الكافرين غير أرواح المؤمنين، وأرواح المؤمنين غير أرواح الكاملين من الأولياء والأنبياء والمرسلين، وبهذا يبطل كثير من قواعد القوم من أن الكل منه وبه وإليه وأن العين واحدة والتعدد والكثرة إنما هي من النسب والإضافات، فالجواب هو أن يُقال: الفيض الحاصل به الموجودات لا يخلوا إمَّا أن يكون موجودًا حقيقيًا أو أمرًا اعتباريًا، فعلى الأول لا يجوزان موجودًا بذاته وإلا يكون واجبًا، بل لا بد من فيضٍ آخر يُوجده، وهكذا يتسلل إلى أن ينتهي إلى ذات واجب الوجود، وحقًا يلزم الاعتراف بمدعاهم، فكل موجود بذاته ومنه وإليه لا غير، وبهذا الاعتبار لا تفاوت في الموجودات، وعلى الثاني أيضًا لابد من ذات واجب الوجود؛ لأن اجتماع هذا الأمر العدمي وانضمامه وهو الفيض إلى الأمر الآخر العدمي الاعتباري أيضًا لا يُعقل بدون قيام هذين الأمرين، أو واحد منهما بأمر موجود حقيقي وهو الحق تعالى.

وفي الحقيقة الفيض[1]: هو عين المفيض، لكن باعتبار نسبة العموم، والانبساط على

---

(١) وهذا الفيض المذكور عبَّر عنه الحكماء بالجعل البسيط الذي جعل الماهيات مجعولة: أي كانت عن فاعل لأسماء ليست واجبة الوجود، فلا بدَّ لها من فاعلٍ، وإنما كان هذا الجعل بسيطًا لأنه لم يعتبر فيه سوى صدور هذه الأعيان عنه، لا أنه جعلها موجودة في الخارج كما هو شأن الجعل المركب حيث كان بعد هذا الجعل، فإن جعل الماهية سابق على جعلها موجودة، فمن هذا عُلم أن الخلاف في كون الماهيات مجعولة أو غير مجعولة راجع إلى اللفظ، فهي مجعولة بالجعل البسيط غير مجعولة بالجعل المركب، وهذه الأعيان مع استعداداتها صدرت عن الواجب تعالى بمحض الجود لأسماء صور أسمائه تعالى، فأسماؤه اقتضتها، وأسماؤه عين ذاته، فكان ما ذكر من مقتضى الذات في الجملة، فلم يكن للواجب تعالى اختيار فيها، وإذا كان الأمر كما ذكر فلا يتصور سؤال حقيقة من الحقائق أن تكون على خلاف ما هي عليه؛ لعدم دخل الاختيار كما ذكرنا، مثلاً لو قال الكافر: لِمَ أوجدتني كافرًا، ولَمْ توجدني مؤمنًا؟ فيقول تعالى: استعدادك سأل ذلك، فيقول: أنت جعلت هذا الاستعداد لي، فيقول تعالى: كان ذلك من مقتضى ذاتي بواسطة أسمائي، والأمور الكائنة بمقتضى الذات لا يسأل عنها، فإنه لا يُقال: لما كان الإنسان متكلمًا حتى يصدر عنه الذِّكر مثلاً، فلله الحجة البالغة.

وهذا العلم الحاصل من صور الأسماء ليس تابعًا للمعلوم؛ لأنه كان من التجلّي الذاتي، وبالفيض الأقدس عن حكم حاكم، وسُمِّي علمًا فعليًا كاختراع القوة العاقلة صورة لم يكن لها نظير، فهو علم =

حقائق الممكنات، وهذه النسبة أمر اعتباري، ويُقال بهذا الاعتبار: أن الذات أمر اعتباري أيضًا؛ لأن الذات المأخوذة بهذه النسبة تكون من الأمور الاعتبارية إن كانت في نفسها من الأمور الحقيقية، وإن الأرواح في الحقيقة لا تعدد فيها؛ لأن الروح من أمر الرب وأمر الرب لا تعدد فيه فهو كالماهية الكلية المعقولة نحو حيوان ناطق فإنه واحد بذاته لا تعدد فيه، لكن بظهوره في الأفراد الإنسانية من الزيد والبكر والعمر والخالد إلى ما لا يتناهى وتعينه بتعيناتها يصير متعدد، فكذا الروح ماهية واحدة تتعد بتعدد المظاهر.

وما تقدم من أن الذات بالاعتبار تكون أمرًا اعتباريًا مبني على أن الحق تعالى لكونه العلي لنفسه له الكمال الذي يستغرق جميع الأمور الوجودية، والنسب العدمية في ذاتها إضافية، أو سلبية بحيث لا يفوقه نعت منها سواء كانت محمودة أو مذمومة شرعًا أو عُرفًا أو عقلاً فتصح إضافة المذام كالمحامد إليه تعالى؛ لأن الإضافة إليه كالإكسير ينقلب به النقصان كمالاً فتصير المذمة محمَّدة، والمضاف إليه تعالى إنما هو ذوات المذام مجردة عن صفة المذمة.

قال الجامي رحمه الله في شرح الفصوص: «إن كل موجود صورة حقيقة مخصوصة ومظهر اسم خاص من الأسماء الإلهية، ويكون ظهور أحكام تلك الحقيقة وآثار الاسم الظاهر فيه محمَّدة وكمالاً له، وإن كان بالنسبة إلى من لا يلائمه مذمة ونقصانًا، ويكون عدم الظهور والخلل فيه بالعكس كالهداية للأنبياء والأولياء الكاملين والإضلال للشياطين فكل منهما كمال نسبي بالنسبة إلى ما خلق له لا إلى ما يقابله، أو يضاده فمنشأ المذمة إنما هو خصوصية المحل المقتضية لعدم الملائمة فالحق بذاته مستغن عن الكل، وبحسب شروطه مقتض للكل، ويكون كل في محله مقتضى حكمته ودليل قدرته وفضيلة حيطته وآية

=

فعلي أولي، والعلم الفعلي المذكور يسميه الحكماء بالعناية الأزلية التي وجد العالم بها على اعتبار أن العلم عين الذات: أي الذات إذا تعلقت بالمعلومات تُسمَّى علمًا، لا أن الصفة نفس الذات كما يُتوهم، وقس الباقي من الصفات على ذلك، وقد أُشير إلى ما ذكرناه من أن الأعيان مع استعداداتها كانت عن التجلّي الذاتي بقوله ﷺ: «**من وجد خيرًا فليحمد الله**»، حيث أن ذلك كان بفضله تعالى من غير دخل لشيءٍ من الأشياء في ذلك، والله أعلم. وانظر: كشف الأسرار (ص١٨٤) بتحقيقنا.

كماله مع فرط نزاهة جلاله، ولا يتصور فيه عدم الملائمة أصلاً فلا يتطرق إليه مذمة، بل صاحب كمال الحيطة واستيعاب الوجوه، ولو لم يُوصف بوصف مَظهر من مظاهره كان قادرًا في سعة الإحاطة وكمال الاستيعاب» انتهى بجملتها مع قليل حذف وتغير والله أعلم.

فإذا كان الخلق (من حيث لطائف الأرواح) لا تفاوت بينهم من حيث الشرف والخسة فإنهما من خصوصية المحل كما مرَّ، والمحل هي الأشباح والخلق ليس خلقًا إلا من حيث الروح فلا يجوز تحقير شيء ولا إهانته، ويجب القيام بشكر الخليقة أيضًا؛ لأنهم مظاهر النعم والإحسان، ومحل التوصيل مع أن الشريعة من بساط الحِكمة، وهي تقتضي شكرهم ولو كان مجازًا وإن كان الحُكم يقتضي أن الله واحد من جميع الوجوه فلا تنسب شيء إلى غيره وذلك؛ لأن الحِكَم والحكمة صفتان للحقّ يجب إثباتهما ولا يجوز نفيهما، ولا نفي واحد منهما وإثبات الآخر مع أن الكل من عين واحدة، فالمعاملة معهم معاملة مع الله وشكرهم شكرًا لله.

وقد قال الله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٥]، فجعلهما تابعًا لنفسه في الشكر، وأيضًا لا واسطة بينهما فاعرف، فإن عاملت معهم بالحسنة فالله تعالى يعاملك بها، وإن عاملتهم بالسيئة فهو يعاملك أيضًا بالسيئة.

٩- بما عاملت به الخلق: يعاملك به الحق. وبما عاملت به الحق: يعاملك به الخلق.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**بما عاملت به الخلق: يعاملك به الحق**) أي: بأي شيء من السوء والحسن عاملت بذلك الشيء الخلق، أو بالذي عاملت به الخلق وهذا أولى، فعلى الأول تكون (**ما**) موصوفة، وعلى الثاني موصولة، وعلى التقديرين المضاف مُقدر على (**ما**) أي: بجنس ما عاملت به مع الخلق وقدره يعاملك أيها السالك بذلك الجنس والقدر الحق تعالى، ويجوز أن يُراد بما معناه مجردًا عن اعتبار الجنس أو المثل أو القدر، والمراد بضميره في (به) الثاني هو مع الاعتبار المذكور، فيكون حقًا من باب الاستخدام، لكن معاملة الحق تكون بالخلق لـمّا مرَّ من أن الخلق مظاهر أفعال الله تعالى؛ إذ هي لا تظهر إلا في الأجسام ولذا أعطف على وجه التفسير على قوله: (**يعاملك به الحق**) قوله:

(**يعاملك به الخلق**)؛ لأن معاملة الخلق هي معاملة الحق في الحقيقة، أو نقول: هو عطف التغاير؛ لأن معاملة الحق غير معاملة الخلق، فمعاملة الحق ما ليس للعبد نسبة كالصحة والمرض والفقر والغناء والفناء والبقاء وغير ذلك، ومعاملة الخلق ما لهم نسبة في ذلك كأن يعطوه أو يضربوه أو يكرموه ونحوها مما لهم نسبة الاكتساب، وقال بعض: كل ما تعمل مع غيرك من سوءٍ أو حسن، فإمَّا يجري ذلك عليك وتراه، أو يجري على ولدك ويراه.

ونظموا فارسيًا فيه وهو هذا:

انجــــه تومــــيكني بادكــــران يابــر ســر خــودت ايد يا سران

فالكمال أن تعطي الربوبية ما لها من كمال النسبة بكمال الشكر حيث لا موجد سواه، وأن تعطي الخلق ما لهم من مجاز النسبة بمجاز الشكر، فتكون أنت حقًا قائمًا بحق الشريعة والحقيقة، وعامر الدارين مع أنه لا بد من إثبات الأسباب لحكمته، ولكن لا يجوز الاعتماد عليها برؤيتها وحدها بدون موجدها لأحديته، ولما كان كلٌّ فردٍ من أفراد الخلق صورة من صور شؤونه وأقله إنه خلقه وفي الحقيقة عينه لا غيره، وإنما التميز بالإطلاق والتقييد ينبغي المعاملة معه معاملة حسنة لا سيئة سواء كان إنسانًا أو غيره، والإنسان مسلمًا أو غيره ذي نسب أو لا شريفًا أو خسيسًا؛ لأن الإسلام والكفر وغيرهما مما مرَّ من العوارض.

ألا ترى أن بني آدم طاهر بلسان الشريعة وما فرَّقوا في هذا بين المسلم، والكافر، فإن الكافر من حيث ذاته طاهر ونجاسة المشركين كما في الآية الكريمة لوصف عارض قام بهم، فالمراد أن المشركين نجس اعتقادهم لا ذاتهم، أو المراد اجتنابهم كالنجس فالحُكم عليهم بالنجس مجازًا لا حقيقة، وذُكر المسلم وحده في حديث: «**لا تنجسوا موتاكم، فإن المسلم لا ينجس حيًا، ولا ميتًا** [1]» للغالب، ولهذا لهذه الطائف العالية شفقة تامة على جميع خلق الله حتى حُكي أن الشيخ الأكبر قُدِّس روحه ونُوِّر ضريحه لـمَّا توفى في رحمة الله تعالى تخاصم المسلمون واليهود والنصارى عليه وادَّعى كل منهم أنه شيخهم

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٥٤٢/١)، البيهقي في السنن الكبرى (٣٠٦/١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤٦٩/٢).

ويقيمون بمؤنة جهازه ودفنه، وإنما هو من تمام رأفته بالكل بحيث ظن المخالف أنه شيخه، وهل هذا إلا نتيجة الترك؟ حتى ترك الترك وهو الزهد الحقيقي.

١٠- ليس الزاهد من زهد في الدرهم والدِّينار، إنما الزاهد من زهد فيما سوى الجبار.

فبينه بقوله: (**ليس الزاهد من زهد في الدرهم والدينار، إنما الزاهد من زهد فيما سوى الجبار**).

المراد الكامل؛ لأن الزهد يختلف باختلاف المقام، فللعوام زهد بمعنى ترك الحرام، وللخواص زهد أيضًا وهو ترك الفضول من الحلال، ولأخصهم زهد وهو ترك ما يشغلك عن مولاك، والكل خير وممدوح على ما ورد به الحديث حيث قال النبي ﷺ:

«**الزهد خير كله**[1]»، والكامل الأخير؛ لأن حقيقة الزهد أن تترك نفسك دنياك وروحك عُقباك، ويبقى سرّك مع مولاك[2].

وقال الشيخ الجيلي قُدِّس سرَّه في الإنسان الكامل: «زهد المسلمين والمؤمنين والمحسنين في الدنيا ولذاتها، وزهد الشهداء في الأولى والعقبى، وزهد الصديقين في سائر المخلوقات، فلا يشهدون إلا الحق تعالى مع الأسماء و الصفات، وزهد المقربين في البقاء معهما فهم في الحقيقة الذات»، ويمكن أن يكون مراد الشيخ هذا الأخير وهو الظاهر من إطلاقه، ويمكن أن يكون مراده زهد الصدِّيقين، لكن بتقدير معطوف بعد الجبار أي: وأسمائه وصفاته، والمعنى ليس الزاهد الكامل الذي يعمل الزهد في الدُّنيا والدرهم المستعبدين للناس

(١) ورد بلفظ: وخير دينكم الورع، من حديث عمرو بن قيس الملائي: رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/٢٨٤)، ووكيع في الزهد (٢٢٢)، وهنّاد في الزهد أيضًا (٩٣٢)، كلاهما بتحقيقنا، وابن أبي الدنيا في الورع (١٥٩/ق/ب)، وابن عبد البر في بيان العلم وفضله (١/٢٦).

(٢) فائدة: قال الشيخ الشعراني: قد منّ الله تعالى عليّ بالزهد في الدنيا من حداثة سنّي إلى وقتي هذا، حتى لو أمطرت السماء ذهبًا، ومكتوب على كلّ دينارٍ من أخذ هذا لا يحاسبه الله تعالى عليه في الدنيا ولا في الآخرة، لكنت لا أجد عندي داعية إلى أخذ شيءٍ منه إلا لدَينٍ أُوَفّيه به، أو لسدّ فاقة في ذلك الوقت الذي أنا فيه فقط، ومن شكّ في وصولي إلى هذا المقام فالله تعالى يغفر لي وله إن شاء الله. وانظر: الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع للمصنف (ص٣٢) طبع بتحقيقنا.

والمهلكين لهم حيث ورد: «**أهلك الناس الدينار والدرهم**[1]» بأن يترك الالتفات إليهما بحيث لا يخطران لا هما ولا وجودهما بباله، بل الزاهد الكامل الذي زهد فيما سوى الجبار من الدنيا، والآخرة وما يتعلق بهما حتى العلوم والمعارف بأن يشهد الحق وأسمائه وصفاته، بل لا يشهد إلا الذات بدون اعتبار الأسماء والصفات وهذا هو الطي الحقيقي، ومن هنا يقال: المسافة إلى خطوتين، وإليه يشير قوله عليه ﷺ: «**الدنيا خطوة مؤمن**[2]» أي: يتخطاها بالزهد فافهم.

وقال بشر الحافي رضي الله عنه: «من دخل في طريقنا يومين فقد حاز مُلك الدارين».

فيدلُّ هذا على أن المسافة يومان في اليوم الأول يترك الدُّنيا، وفي الثاني يترك الآخرة، وفي اليوم الثالث واصل؛ لأنه يكون لربِّه حقًّا بلا علل، وأمَّا طي الأيام بلا طعام وشراب، وقطع الأرض في أقرب مدة بلا مشي، وتعب فهو رسمي لا اعتداد به.

وقال بعض: ليس الشأن أن تُطوى لك الأرض فإذا أنت حيث مشيت من البلاد، بل الشأن أن تُطوى عنك أوصاف نفسك فإذا أنت عند ربك، وقال بعض: من مكنه الله على مخالفة هواه فهو أعظم من المشي على الماء والهواء، ويناسبه قول بعض: لا تتعجبوا ممن لم يكن في جيبه شيء فيخرج منه ما يريد، ولكن تعجبوا ممن يضع في شيء فلم يتغير بفقدانه عند إدخال يده في جيبه، وعند هذه الطائفة كل ما يشغلك عن مولاك فهو ديناك تحجب به عن الحق تعالى، ولذا نفي الشيخ قُدِّس سرَّه اسم الزاهد الأعلى من زهد فيما سواه تعالى، وهو الغاية العظمى والمطلب الأقصى؛ إذ فيه غاية الرِّضا.

١١- لا ينال غاية رضاه مَن في قلبه شيء سواه.

(**ولا ينال غاية رضاه مَن في قلبه شيء سواه**) أي: لا يصل إلى غاية رضاء الحق تعالى وكماله الذي في قلبه شيء صفته سوى الحق تعالى من كل ما يمنعك عنه تعالى؛ لأنه تعالى وهبك نعمة الوجود وما وضع فيك إلا قلبًا واحدًا: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ**﴾ [الأحزاب: ٤]، وذلك حتى تكون من الغير مُعرضًا، وعليه مُقبلاً، وفي محبته خالصًا صادقًا؛

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٩/١٢٩).

(٢) لم أقف عليه.

لأن القلب الواحد يكفيه مُحبًّا واحدًا، ولا ينبغي أن تجعل القلب الواحد مائة جزء، وترسل كلّ جزءٍ منها لطلب مقصد، والتفرقة ليست إلا هذا، أو الجمعية أن يشتغل الواحد بالواحد ويعرض عن الكل، وظن بعض أن جمعية القلب في جميع الأسباب فبقوا في التفرقة أبد الآباد، وكل من كان في التفرقة والوسواس فهو عند أهل الجمع من أشر الناس، بل ليس بناس إنما هو نسناس، فالسالك يجب عليه أن يخرج من التفرقة، ولا يسلك إلا طريق الوصول إلى ربِّ الأرباب.

١٢ – المريد هو الذي سار بنفسه إليه، والمراد هو الذي سِير به رغمًا عليه.

والسالك باعتبار الكمال والنقصان على قسمين مريد ناقص، ومراد كامل، فأشار الشيخ إلى بيَانهما وعرَّفهما فقال: (**المريد هو الذي سار بنفسه إليه**) أي: الذي ثبتت له الإرادة وهي لوعة في القلب أي: حرقة فيه وألم من حبٍّ أوهمٍّ أي: مرض في اصطلاح هذه الطائفة، هو السالك الذي سار إلى الله بالله بنفسه، ولكن تجرد عن إرادته على ما هو مذهب الشيخ، أو صحت له الأسماء فدخل في المنقطعين إلى الله بها على ما هو مذهب غيره، ويقال لهذا: سالك، ولما يأتي المجذوب وكل مَن مشى على المقامات بالحال لا بالعلم فهو سالك، فكل منهما سالك إلا إن المريد سالك مجذوب، والمراد مجذوب سالك كما قال الشيخ قُدِّس سره: (**والمراد هو الذي سِير به رغمًا عليه**) أي: والمراد عند هذه الطائفة هو السالك الذي جُذب ابتداء وإلا فالمريد يُجذب أيضًا لكن انتهاء.

وهذا يفرق بينهما كما يُفرق بأن المريد لربِّه، والمراد بربِّه وأنه مترقي وهذا متدلي ويتفقان في معنى التحقق؛ لأنه يكون لكلٍّ منهما ما لصاحبه، لكن البساط مختلف الأول صاعد، والثاني نازل والعلم واحد والمشاهدة واحدة، فهما يشهدان أن الصفات في منـــزل واحد، لكن هذا في تدليه وذاك في ترقيه، ومعنى الجذب أخذ العبد إلى حضرة الحق من غير ترتيب وتدريج وقال الشيخ ﷺ:(**هو خلع إرادة العبد مع تميُّز المراد له**)، وهو المراد من قوله: (**سِير به**) أي: الله، فسيره بالله لا بنفسه أي: الحق تعالى سارٍ به كرهًا عليه وقسرًا، فجاوز الرسوم والمقامات من غير المجاهدات والرياضات والمكابدات بخلاف الأول، فإنه جاوز المقامات بالمكابدات وغيرها فافهم.

هذه إذا كان المريد واصلاً؛ إذ الوصول لا يكون إلا بالجذبة التي توازي عمل الثقلين،

وأمَّا غير الواصل فهو ماشٍ على المقامات لا يجاوزها، وقال الولي الكامل الشيخ رسلان الدمشقي ﷺ وعنا وعن الأمة ببركته: (ما دمت أنت فأنت مريد، فإذا أفناك عنك مولاك فأنت مراد) فعلى هذا المريد هو الذي يدَّعي الوجود لنفسه، ويقول: أنا، والمراد هو الذي فنى عن وجوده وإرادته، ولا يقول: أنا أبدًا والمال واحد والعبارات مختلفة متنوعة، لكن الحق أن المريد غير واصل والواصل هو المراد؛ لأن كل مَن سلك بنفسه ما دام في السلوك بالنفس فهو غير واصل، وإذا صار سلوكه بربه فهو واصل.

* * *

مطلب في قول أبي يزيد[1]

(١) ذكره الشيخ الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وترجمه فأحسن، وقال: ومنهم التائه الوحيد القائم الفريد البسطامي أبو يزيد تاه فغاب، وهام فآب، غاب عن المحدود وآب إلى موجد المحسوسات والمعلومات، فارق الخلق ووافق فأبد بإخلاء السر وأمد باستيلاء الذي إشاراته فانية، وعباراته كامنة لعارفيها صائنة، ولمنكريها فائتة.

اسمه طيفور بن عيسى بن شروشان وكان جده مجوسيًا فأسلم وكان سبب إسلامه على ما ذكره شيخ المشايخ أبو عبد الله محمد بن علي الداستاني البسطامي قدس الله روحه أنه كان يخالط شروشان ولد إبراهيم الذي ورد بسطام في أول الإسلام فلام إبراهيم ولده وأنكر عليه صحبة شروشان، وقال له: رجل مجوسي تصاحبه؟ فقال لوالده: هو رجل مرضي الخصال لا يرد السؤال عن السؤال سخي وفي وإنما أحبه لذلك، فقال له والده: قل له: إن أبي يجيئك ضيفًا، فأخبره فقال: نعم إن فعل فعلي الهدية والكرامة، فلما حضر إبراهيم وأحضر شروشان الطعام. قال له: لا آكله حتى تعطيني مرادي وتقضي حاجتي. قال: وما ذاك؟. قال: أن تسلم. قال: أفعل وكرامة، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده رسوله، فكان هذا سبب إسلامه. وقد كثر اسم طيفور في قبيلته وقومه في يومه وغير يومه، وفي الأجانب من كل جانب كانوا يسمون باسمه ويكنون بكنيته تبركًا واستسعادًا، ولكن هو ذلك الطيفور الذي هو نور على نور، ولا زال المشايخ المتقدمون في عصره يزورونه ويتبركون بدعائه وهو عندهم من أجل العباد والزهاد وأهل المعرفة بالله. قد فاق أهل عصره بالورع والاجتهاد ودوام الذكر لله تعالى حتى بال الدم من خشية الله تعالى.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلمي رحمه الله: مات أبو زيد عن ثلاث وسبعين سنة، وهو من
=

=

قدماء مشايخ القوم له كلام حسن في المعاملات، ويحكى عنه في الشطح أشياء منهـا مالاً يصح ويكون مقولاً عليه يرجع إلى أحوال سنية وفراسة حادة ورياضة لأصحابه حسنة. مات سنة إحدى وستين ومائتين، وقيل: أربع وثلاثين ومائتين.

ذكر معنى أقواله المشهورة عنه في الشطح: «سبحاني سبحاني ما أعظم شاني».

قال الشيخ أبو النصر السراج رحمه الله: وقد قصدت بسطام فسألت جماعة من أهل بيت أبي يزيد عن هذه الحكاية فأنكروا ذلك، وعلى تقدير صحة ذلك، فنقول: قوله سبحاني سبحاني على معنى الحكاية عن الله ﷻ أنه يقول: سبحاني سبحاني لأنا لو سمعنا رجل يقول:

لا إله إلا أنا فاعبدني، لا يختلج في قلوبنا شيء غير أنا نعلم أنه هو ذا يقرأ القرآن، أو هو يصف الله بما وصف به نفسه، وكذلك لو سمعنا دائما أبا يـزيد وغيره وهو يقول: سبحاني سبحاني، لم نشك أنه يسبح الله ويصفه بما وصف به نفسه.

وكذا قال: الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف: وما يحكى عن أبي يـزيد قوله: سبحاني حاشا لله أن يعتقد في أبي يـزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى.

قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله أنا الحق.

قيل لأبي القاسم الجنيد قدس الله روحه إن أبا يـزيد يسرف في الكلام، وقال: وما بلغكم عن إسرافه في كلامه؟ قيل يقول: «سبحاني سبحاني ما أعظم شأني». فقال الجنيد:

إن الرجل مستهلكٌ في شهود الإجلال، فنطق بما استهلكه لذهوله في الحق عن رؤيته إياه فلم يشهد إلا الحق تعالى فنعته، فنطق به ولم يكن من علم ما سواه ولا من التعبير عنه ضنًا من الحق به، ألم تسمعوا مجنـون بني عامـر لما سئل عـن اسم نفسه؟ فقال: ليلى، فنطق بنفسه ولم يكن من شهوده إيـاه فيه، وقيـل لـه: من أنـت؟. قال: أنا من ليلى ومن ليلى أنا.

وأما ما حُكي عنه قوله: «ضربت خيمتي بإزاء العرش» فإن صح عنه أنه قال ذلك فهذا غير مجهول أن الخلق كلهم والكون وجميع ما خلق الله تحـت العـرش، أو بإزاء العرش يعني: وجهت وجهي نحو ملك العرش، ولا يوجد في العالم موضع إلا وهو بإزاء العرش، فلا سبيل للمتعنت إلى هذا الطعن.

وأما ما حُكي عنه أنه قال: «خضت بحرًا وقف الأنبياء بساحله» فقد تكلم الناس على مقالته هذه بأشياء على قدر أذواقهم، ونذكر هنا ما قاله الشيخ الكبير أبو الحسن الشاذلي قدس الله روحه فإنه

=

أقرب إلى أفهام الناس.

قال: إنما يشكو أبو يـــزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام، ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى الخوض، أي: فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: وهذا الذي فسربه الشيخ كلام أبي يــزيد هو اللائق بمقام أبي يـــزيد.

وقد قال: إن جميع ما أخذ الأولياء من ما أخذ الأنبياء كزق مُلئ عسلاً، ثم رشحت منه رشاحة فما في باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة هي للأولياء.

وقال: والمشهور عن أبي يـــزيد التعظيم لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب.

وحُكي عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته وقعد في المسجد ينتظره، فجاء ذلك الرجل وتنخم في حائط المسجد فرجع أبـــو يـــزيد ولم يجتمع بـــه، وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة كيف يؤمن على أسرار الله، وما جاء عن الأكابر أُولي الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يستنكر ظاهرها أوّلناها لهم لما علمناه من استقامتهم وحُسن طريقتهم، وقد قال ﷺ: «ولا تظنَنّ بكلمة برزت من امرئ مسلم سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملاً» انتهى كلامه قدَّس الله سرَّه العزيز.

وأما قوله في بعض كلامه: رفعني وأقامني بين يديه، يعني: أشهدني ذلك وأحضر قلبي لذلك؛ لأن الخلق بين يدي الله سبحانه لا يذهب عليه منهمٓ نفس ولا خاطر ولكن يتفاضلون في حضورهم لذلك ومشاهدتهم له، ويتفاوتون في صفائهم عجب من كدورة ما يحجب بينهم وبين ذلك من الأشغال القاطعة والخواطر المانعة، والله تعالى أعلم. وأما قوله: قال لي وقلت له، فإنه يشير بذلك إلى مناجاة الأسرار وصفاء الذكر عند مشاهدة القلب لمراقبة الملك الجبار في آناء الليل والنهار.

واعلم أن العبد إذا تيقن بقرب سيده منه ويكون حاضر القلب مراقب الخواطر فكل خاطر يخطر خطر بقلبه كأن الحق سبحانه يخاطبه بذلك، وكل شيء يتفكره بسره فكأنه يخاطب الله به إذ الخواطر وحركات الأسرار، ما يقع في القلوب بدؤه من الله تعالى وانتهاؤه إلى الله، فهذا على هذا المعنى، والله أعلم. وفيما ذكرته كفاية وهذا الباب واسع، وقد شرح الشيوخ ما نسب إليه من الكلام المغلق على

وهذا هو المراد من قول سنطان الزُّهاد والعُبَّاد أبي يزيد البسطامي قدس روحه ونُور ضريحه: «السالك مردود والطريق مسدود» أي: السالك بنفسه مردود أي: غير واصل فافهم[1]، فثبت أن المراد هو هو الواصل والوصول مشروط بمتابعة الرسول.

=

أفهام بعض الناس كسيد الطائفة الجنيد والشيخ أبي النصر السراج وغيرهما قدس الله أرواحهم.

قال الجنيد قدَّس الله روحه: الحكايات عن أبي يـــزيد مختلفة، والناقلون عنه فيما سمعوه متفرقون، وذلك لاختلاف الأوقات الجارية عليه بما فيها والاختلاف بالمواطن المتداولة بما خص منها فكل يحكي عنه ما ضبط من قوله، ويروي ما سمع من تفصيل مواطنه.

وقال الجنيد أيضًا: وكأن كلام أبي يـــزيد رحمة الله عليه بقوته وغوره وانتهاء معانيه مغترف من بحر قد انفرد به، وجعل ذلك البحر له وحده.

وقال الجنيد أيضًا: كل الخلق يركضون فإذا بلغوا ميدان أبي يزيد هملجوا.

وقال أبو الحسين: ولعمري لقد كان يبدو منه الشيء بعد الشيء على سبيل الغلبة لا يجوز أن يتخذها الإنسان دعوى يدعيها. وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت علي بن بندار، يقول سمعت أبا بكر بن محمود يقول: بلغني أن أبا حفص قدم على أبي يزيد، فقال له: يا أبا يـــزيد: يبلغنا عنك في كل وقت أشياء منكرة، فقال: إنما يخرج الكلام مني على حسب وقتي، ويأخذه كل بحسب وقته ثم ينسبه إلي، والله أعلم.

وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (١٠/ ٣٣، ٤٠)، وفيات الأعيان (١/ ٣٠١)، صفة الصفوة (٤/ ٨٩، ٩٤)، المنتظم (٥/ ٢٨)، الرسالة القشيرية (١٧)، طبقات الصوفية للسلمي (٨)، ميزان الاعتدال (١/ ٤٨١)، الكواكب الدرية (١/ ٢٤)، البداية والنهاية (١١/ ٣٥)، مرآة الجنان (٢/ ١٧٣)، نفحات الأنس (٥٦)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ٨٩)، طبقات الأولياء (١٠٨)، النجوم الزاهرة (٣/ ٣٥)، جامع كرامات الأولياء (٢/ ٤٠)، نتائج الأفكار القدسية (١/ ١٠٤)، رشحات عين الحياة (١٤)، معجم البلدان (١/ ٦٢٣)، درر الأبكار (ص١٢٠)، وروضة الحبور في مناقب الجنيد البغدادي وأبي يزيد طيفور لابن الأطعاني (ص١٨) بتحقيقنا.

(١) قال سيدنا الشرقاوي في شرح حكم شيخه الكردي: (ومراتب السلوك ثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان). فالإسلام: أوَّل مراتب السلوك لعامَّة المؤمنين. والإيمان: أوَّل معارج القلب لخاصَّتهم.

=

=

والإحسان: أوّل معارج الروح لخاصة المقرّبين، وقد فسّر ذلك ﷺ في الحديث المشهور حيث قال في الأول: «الإسلام أنْ تشهدَ أنْ لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا رسولُ الله، وتقيمَ الصلاةَ، وتُؤتيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتحجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلا».

وفي الثاني: «إنْ تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر كلّه خيرِه وشرِّه وحلوِه ومُرِّه».

وفي الثالث: «أنْ تعبدَ الله كأنّك تراهُ، فإنْ لَمْ تكنْ تراهُ فإنّه يراك»، فاستفيد منه أن الإسلام: قيام البدن بوظائف الأحكام، والإيمان: قيام القلب بوظائف الاستسلام، والإحسان: قيام الروح بمشاهدة العلاّم.

ألا تراه يقول: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه)، فتكون قائمًا بوظائف العبودية مع شهودك إيَّاه، (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) فتكون قائمًا بوظائف العبودية مع شهوده إياك، فأنت في الأول مرادٌ، وفي الثاني مريدٌ، وشتَّان ما بينهما؛ فإن إرادتك حجابٌ.

قال داود ﷺ: «يا ربِّ إنّي أطلبُك. قال: يا داود أنت مِنْ أوّل قدمٍ فارقتني. قال: يا ربِّ وكيف؟ قال: لأنك جعلت الطلب منك إليَّ، ولو جعلته مني إليك لوجدتني»؛ لأن الكلَّ منه سبحانه وتعالى؛ إذ لا وصول إليه إلا به.

قال سيدي أبو يزيد ﷺ: همت في بدايتي في ثلاثة أشياء: كنت أظنُّ أني أحببته وطلبته وذكرته، فرأيت ذكره لي سبق ذكري له، وطلبه لي سبق طلبي له، وحبُّه لي سبق حبِّي له؛ فالكل به وبفضله.

واعلم أن أسبق هذه المراتب الثلاث التوبة: أعني الرجوع عن الذنب، وهي ثلاثة أقسام: توبة العوامِّ من الذنوب، وتوبة الخواصِّ من غفلة القلوب، وتوبة خواصِّ الخواصِّ من كل ما سوى المحبوب.

فشتَّان ما بين تائبٍ من الزلات، وتائبٍ من الغفلات، وتائبٍ من رؤية الحسنات، وتُسمَّى الأولى: توبة، وتُسمَّى الثانية: إنابة، والثالثة: أوبة.

فمَنْ تاب خوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومَنْ تاب رجاء مثوبة فهو صاحب إنابة، ومَنْ تاب قيامًا بالعبودية لا رغبة في الثواب ولا رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة، فالتوبة للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، فعمَّ بلفظ الإيمان الطائعين والعاصين، وسمَّاهم مؤمنين؛ لئلا تتمزَّق أكباد الفريق الثاني من خوف القطيعة، وأمر الجميع

=

١٣- لا يرتجى الوصول من لم يتابع الرسول.

كما قال الشيخ قدس سره: (**لا يرتجى الوصول من لم يتابع الرسول**) أي: لا يمكن الوصول إلى الحق تعالى إلا لمن تابع الرسول ﷺ كمال المتابعة على طريقة علماء العاملين، والأولياء الكاملين المكمَّلين.

=

بالتوبة لئلا يعجب الفريق الأول بطاعته فيحتجب عن مولاه، والإنابة للأولياء والمقرَّبين، والأوبة للأنبياء والمرسلين.

قال أبو عليٍّ الدقّاق ﷺ: التوبة على ثلاثة أقسام؛ لأن لها بدءًا ووسطًا ونهايةً، فبدؤها يُسمَّى توبةً، ووسطها يُسمَّى إنابةً، ونهايتها تُسمَّى أوبةً، فالتوبة للمخالف، والإنابة للطائع، والأوبة لمراعي الأمر الإلهي انتهى.

وسأل شابٌ السريَّ ﷺ عن التوبة؟ فقال: هي أن تذكر ذنبك. فقال له الشاب: بل أن تنسى ذنبك. ثم خرج، فدخل الجنيد على السري قدَّس الله سرَّهما، فرآه مقبوضًا، فسأله عن ذلك، وأخبره بخبر الشاب، فقال الجنيد ﷺ: صدق الشاب؛ لأن ذكر الجفاء في محل الصفاء[1] جفاءٌ انتهى.

لكن قال الشيخ الأكبر ﷺ في كتاب «العبادلة»: إن من نسي ذنبه نسي عفو الله ومغفرته؛ إذ لا تعلُّق لهاتين الصفتين إلا بالمذنبين انتهى.

وقد يُقال: إن العبد لا ينفكُّ عن ذنبٍ، كلٌّ بحسب مقامه، فلا يلزم من نسيان الذنوب الماضية نسيان العفو؛ لتذكرهما عند الذنوب الحاضرة، وإن كانت لا تضرُّه ففي الحديث: «إذا أحبَّ الله عبدًا لم يضرُّه ذنبُه» أي: وفَّقه للتوبة، فلم يضرُّه ذنبٌ، أو يكون حكمه حكم أهل بدر الذين قال في حقّهم ﷺ: «إنَّ الله اطَّلع على أهل بدرٍ، فقال لهم: افعلوا ما شئتم؛ فقد غفرنا لكم».

فإن ما من عددٍ مخصوصٍ أو رتبة عدد أهلها محصورون كأهل بدر، وأهل الصُّفَّة وغيرهما، إلا أراد الله تعالى رجالاً من خواصِّ هذه الأمة تحفظ ذلك العدد، لكن أهل بدر مقطوعٌ لهم بحصول المغفرة، بخلاف ورثتهم، ولو كُشف لنا عن إرثهم لهم؛ لأن المكاشف غير معصومٍ في كشفه.

[1] واختُلف في أوَّل مقامات الطريق، فقيل: التوبة، وقيل: اليقظة: أي يقظة الفؤاد، وقيل: الزهد، وقيل: الانتباه: أي من نوم الغفلة، وهو المشار إليه بحديث: «النَّاسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا»: أي فإذا ماتوا عن اختيارهم وسكنوا تحت مجاري الأقدار انكشفت لهم الأستار عن عالم الأنوار، فدخلوا الطريق على بصيرة. وانظر: شرح الحكم الكردية للشرقاوي (ص٤١) بتحقيقنا.

وأمَّا من لم يتابعه على الوجه المذكور، فلا يمكن له الوصول وهو فضول في فضول وذلك؛ لأن متابعة الرسول هي الوسيلة التي لا يمكن بدونها الوصول؛ لأن المتابعة له ﷺ متابعة الله وإطاعته، قال الله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وطاعة الله غنيمة، وطاعة العدو هلاك، فطاعة الرسول غنيمة، وطاعة عدوه هلاك، وإنه لا يمكن الوصول بدون المحبَّة وهي بمتابعته؛ لأنه قال ﷺ على لسان الحق: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

والتعبير بعدم الإمكان؛ لأن الرجاء لا يستعمل إلا في الممكن، فما كان ممكنًا يُرتجى وما لا فلا، بخلاف التمني فإنه يستعمل في الممكن والمُحال لجواز تمني عود الشباب مع أنه مُحال دون رجائه، فالوصول إلى الله تعالى بدون متابعة الرسول ﷺ غير ممكن فلا يرتجى ولكن يتمنى.

قال أبو العطاء السكندري رحمه الله تعالى: **«الرجاءُ ما قارنه عملٌ، وإلا فهوَ أُمْنِيَّةٌ»**(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قال بعض العلماء: الرجاء تعلق القلب بمطموع يحصل في المستقبل، مع الأخذ في العمل المُحصل له، وأقرب منه طمع يصحبه عمل في سبب المطموع فيه، لأجل تحصيله انتهى. والأمنية اشتهاء وتمني لا يصحبه عمل، فإن كان مع الحكم والجزم فهو تدبير وهو أتم قبحًا، قاله الشيخ زروق ﷺ.

قلت: فمن رجا أن يدرك النعيم الحسي كالقصور والحور فعليه بالجد والطاعة والمسارعة إلى نوافل الخيرات وإلا كان رجاؤه حمقًا وغرورًا.

وقد قال معروف الكرخي ﷺ: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق.

وقيل: من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح، فكذلك فليزعم أن الربح مع الفقير، ووقد النار من البحر صحيح، ومن كان رجاؤه تحقيق العلوم، وفتح مخازن الفهوم، فعليه بالمدارسة والمطالعة ومجالسة أهل العلم المحققين العاملين، مع تحليته بالتقوى والورع، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فإن فعل هذا كان طالبًا صادقًا وإلى ما رجا واصلاً، وإلا كان باطلاً وبقي جاهلاً.

=

وقال بعض الفقهاء: هو تعلق القلب بمطموع يحصل في المستقبل مع الأخذ في العمل

=

وقد قال بعض المحققين: من أعطي كليته في العلم أخذ كليته، ومن لم يعط كليته لم يأخذ بعضه، ولا كليته وفي الحديث عنه ﷺ: «إنَّما العلمُ بالتَّعَلُّمِ، وإنَّمَا الحِلْمُ بالتَّحَلُّمِ، من يطلبِ الخيرَ يُؤْتَهُ، ومنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ» انتهى.

والـذي تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول، ويشرح الصدور، ويوسع المعقول، ومن كان رجاؤه الوصول إلى إدراك المقامات وتحقيق المنازلات ومواجيد المحبين وأذواق العارفين فعليه بصحبة الفحول من الرجال أهل السر والحال، بحط رأسه وذبح نفسه، والأخذ فيما كلفوه به من الأعمال مع الذل والافتقار والخضوع والانكسار، فإن زعم أنه لم يجدهم فليصدق في الطلب، فسر الله كله في صدق الطلب، وليستغرق أوقاته في ذكر الله، وليلتزم الصمت والعزلة، وليحسن ظنه بالله، وبعباد الله، فإن الله يقيض له من يأخذ بيده: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

قال في القواعد قاعدة: طلب الشيء من وجهه وقصده أقرب لتحصيله. وقد ثبت أن حقائق علوم الصوفية منح إلهية، ومواهب اختصاصية لا تنال بمعتاد الطلب فلزم مراعاة وجه ذلك، وهو ثلاث:

أولها: العمل بما علم قدر الاستطاعة.

الثاني: اللجأ إلى الله على قدر الهمة.

الثالث: إطلاق النظر في المعاني حال الرجوع لأصل السنة، فيجري الفهم وينتفي الخطأ ويتيسر الفتح.

وقد أشار الجنيد رحمه الله تعالى إلى ذلك بقوله: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال، إنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال، أو كما قال. وفي الخبر عنه ﷺ :

«مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ أورثَهُ الله علمَ ما لم يَعْلَمْ».

وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائف العلوم من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا انتهى.

فمن رجا أن يدرك هذه الأمور المتقدمة وشرع في أسبابها وتحصيل مبادئها كان علامة على نجح مطلبه، وكان رجاؤه صادقًا. ومن طمع فيها من غير أن يأخذ بالجد في أسباب تحصيلها كان أمنية أي غرورًا وحمقًا.

وكان الحسن ﷺ يقول: يا عباد الله اتقوا هذه الأماني، فإنها أودية النّوكى يحلون فيها، فوالله ما أتى الله عبدًا بأمنية خيرًا في الدنيا والآخرة انتهى.

والنوكى بفتح النون جمع أنوك، وهو الأحمق، ولما كان من رجا شيئًا، وطمع فيه الغالب أنه يطلبه بين الشيخ خير ما يطلبه العبد ويرجوه.

المحصل له، وقيل: طمع يصحبه ميل في سبب المطموع فيه؛ لأجل التحصيل.

وعلى كلٍّ الرجاء بلا عمل لا يصح أن يكون رجاء، بل هو أمنية وتمني بلا حقيقة، والأمنية عين المنيّة أي: الموت؛ لأن المنية إعدام الحياة، والأمنية كذلك إلا أنها إعدام حسي، والأمنية إعدام معنوي.

وقال بعضهم أي: حسن ﷺ[1]:

---

(١) وُلد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ﷺ، رأى عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ.

ومات في شهر رجب سنة عشر ومائة؛ وهو ابن تسع وثمانين سنة.

قال يونس بن عبيد: ما رأيت رجلاً قط أطول حزنًا من الحسن.

وكان يقول: لا تضحك فإنك لا تدري لعل الله قد اطَّلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا.

وقال الحسن: إذا رأيت في ولدك ما تكره فاعتب الله تعالى: أي اطلب رضا الله تعالى، فإنما هو شيءٌ يُراد به أنت.

وقال: لا تزال كريمًا على إخوانك ما لم تحتج إلى ما في أيديهم، فإذا احتجت ثقل عليهم حديثك وهُنت عليهم.

وقال: أوحى الله إلى عيسى ﷺ أن قل لبني إسرائيل يحفظوا عني حرفين:

أن يرضوا بدني الدنيا؛ لسلامة دينهم، كما أن أهل الدنيا رضوا بدنيِّ الدين؛ لسلامة دنياهم.

وقال: في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم:٧] قال: إن الرجل لينقر الدرهم على ظفره فيعلم بوزنه وما يحسن يصلي.

وقال: كل نفقة ينفقها ابن آدم يُحاسب عليه يوم القيامة إلاّ نفقة الرجل على إخوانه، فإن الله ﷻ يستحي أن يسأله عنها.

وعن داود قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد إنك تنفق في هذه الأطعمة، فقال: ليس في الطعام إسرافٌ.

وقال: كنا نسمع أن إحدى موجبات الجنة: إطعام الأخ المسلم السغبان.

وكنا نسمع: أن من وافق من أخيه المسلم شهوةً غفر له.

=

«والله ما أولى عبد بأمنية خيرًا في الدنيا ولا في الآخرة».

وقال المعروف الكرخي رحمه ا لله ورضي عنه[١]: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من

=

وانظر في ترجمته في: حلية الأولياء (١٣١/٢)، وتهذيب التهذيب للحافظ (٢٦٣/٢)، والمعارف لابن قتيبة (٤٤٠ـ٤٤١)؛ وخلاصة تهذيب الكمال (٦٦)، وكتابنا عن الحسن البصري سيد التابعين (أتمه الله).

(١) قال ابن الأطعاني: هو ابن فيروز، وقيل: ابن الفيرزان، وقيل: معروف بن علي الكرخي — كرخ بغداد على الصحيح — وهو من جُلّة المشايخ، وقدمائهم، والمشهورين بالزهد والورع والفتوة مجاب الدعوة يستسقى بقبره. يقول البغداديون: قبر معروف ترياق مجرب، وقبره هناك مشهور، ومعروف ظاهر يتردد الخلق إلى زيارته، فكم من صاحب ملكه بشيء، ومعروف معروف. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله في رسالته - في ترجمة معروف: وهو من موالي علي بن موسى الرضا رضي الله عنهما مات سنة مائتين، وقيل:حدى ومائتين، وكان أستاذ سري السقطي. وقد قال له يوماً، فإذا كانت لك إلى الله حاجة فأقسم عليه بي.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول:

كان معروف أبواه نصرانيين فسلّموا معروفاً إلى مؤدبهم وهو صبي، وكان المؤدب يقول له:

قل ثالث ثلاثة، ويقول معروف: بل هو الواحد، فضربه المعلم يوماً ضرباً مبرحاً، فهرب معروف، وكان أبواه يقولان: ليته يرجع إلينا على أي دين شاء فنوافقه عليه، ثم إنه أسلم على يدي علي بن موسى الرضا، ورجع إلى منزله، ودق الباب فقيل: من بالباب؟ فقال: معروف، فقالوا: على أي دين [أنت؟] فقال: على الدين الحنفي، فأسلم أبواه.

قال سري السقطي: رأيت معروفاً الكرخي في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته: من هذا ؟ فقالوا: أنت أعلم يا رب، فقال: هذا معروف الكرخي، سكر من حبي فلا يفيق إلا بلقائي.

وقال محمد بن الحسين: سمعت أبي يقول: رأيت معروفاً الكرخي في المنام بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقلت: بزهدك وورعك؟ فقال لا: بل بقبولي موعظة ابن السماك ولزومي الفقر ومحبتي للفقراء، فأما موعظة ابن السماك فيما قال معروف: كنت ماراً بالكوفة فوقفت على رجل يقال له: ابن السماك وهو يعظ الناس، فقال في خلال كلامه: من أعرض عن الله بكلّيته أعرض الله عنه جملة، ومن أقبل على الله بقلبه أقبل الله إليه برحمته، وأقبل بوجوه جميع الخلق إليه، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه برحمته وقتاً ما، فوقع كلامه في قلبي، وأقبلت على الله وتركت كل ما كنت فيه إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضا، ثم ذكرت هذا الكلام لمولاي، فقال: يكفيك هذا موعظة إن اتعظت!.

وقال السري السقطي: قيل لمعروف عند موته: أوْصِ! فقال: إذا أنا مت فتصدقوا بقميصي، فأني أريد أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً.

=

=

وقال أبو بكر بن أبي طالب: دخلت مسجد معروف، وكان في منزله، فخرج إلينا ونحن جماعة فقال: السلام عليكم ورحمة الله فرددنا عليه السلام، فقال:

حياكم الله بالسلام ونعمنا وإياكم في الدنيا بالأحزان، ثم شرع في الأذان وارتعد واضطرب، فلما بلغ الشهادتين قام شعر لحيته وحاجبيه واضطرب حتى خفت أن لا يتم أذانه، وانحنى حتى كاد يسقط، قال: قال الله تعالى: أحب عبادي إلي المساكين الذين سمعوا قولي وأطاعوا أمري، ومن كرامتهم علي أن لا أعطيهم دنيا فينقلبوا بها عن طاعتي.

قال إبراهيم الأطروشي: كنا ببغداد على دجلة مع معروف إذ مر أحداث في زورق يضربون بالدف، ويشربون ويلعبون، فقلنا: أما تراهم يعصون الله تعالى مجاهرين؟ ادع الله عليهم فرفع يديه، وقال: إلهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة.

فقالوا إنما سألناك لتدعو عليهم فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم، فرُوِيَ أنهم تابوا بأجمعهم.

وجاء معروف يوماً إلى دجلة ليتوضأ، ووضع مصحفه وملحفته فجاءت امرأة فأخذهما فتبعها، وقال: يا أختي أنا معروف، ولا بأس عليك، ألك ولد يقرأ القرآن؟ قالت: لا. قال: فزوج؟ قالت: لا. قال: فهاتي المصحف وخذي الملحفة.

قال محمد بن منصور الطوسي: كنت عند معروف الكرخي فدعا لي ثم عدت إليه من الغد وفي وجهه أثــــر، فقال له إنسان: يا أبا محفوظ كنا عندك بالأمس ولم يكن بوجهك هذا الأثر فما هذا؟ فقال: ســـل عمـــا يعنيك؟ فقلت له: بمعبودك ألا قلت لي! فقال: صليت البارحة ههنا واشتهيت أن أطوف بالبيــت فمضــيت إلى مكة، فطفت ثم ملت إلى زمزم لأشرب من مائها فزلقت على الباب فأصاب وجهي ما تراه.

وقـــال خلـــيل الصياد: فقدت ابني محمد زمناً طويلاً فوجدنا عليه وجداً شديداً، فأتيــت معروفـــاً، فقلــت له: يا أبا محفوظ غاب ابني محمد وأمه عليه واجدة، فقال: ما تشاء؟ قلت: تدعو الله أن يردّه، فقال: اللهم إن السماء سماؤك والأرض أرضك وما بينهما لك، آت محمداً، قال خليل: ثم خرجت إلى باب الشام، فإذا ابني محمد واقف، فقلت: محمد! فقال: يا أبت الساعة كنت بالأنبار.

وقـــال يعقوب بن أخي معروف: كان عمي مؤاخياً لصديقين: براهيم والأسود ابن سالم وكانا جميعاً يودّانـــه مـــودة صحيحة، ويتجاريان عنده بالعلم والعمل، فقالا لعمي: إن بشر بن الحارث يحب أن يؤاخيك وهو يكره كثرة اللقاء خوفاً أن لك عليه حقوقاً بحق الأخوة فتعوده أو يعودك، فإن أنت قبلته أن لا تلتقيا إلا لله ﷻ فاعقد ذلك، فقال معروف:

والله لوددت رجلاً لله ما أحببت أن أفارقه في ليل ولا نهار، وأن أشركه في أعمالي كلها من النوافل، ولـــو قسمت لي الجنة لأحببت أن يدخله الله قبلي لأني إنما أحببته لله، ومن أحب لله وأبغض لله فقد اســـتكمل الإيمان، وقد عقدت له الأخوة برسالتكما كما عقد رسول الله ﷺ لنفسه ولعلي، وشاطره العلم وفقهه بأشياء خصه بها جبريل عليه السلام من الدعاء والذكر في الخلوة، وأنا أوصيه بالله تعالى إذا خلا بـــالله ﷻ، واعـــلما أن العلم إذا عمل به العالم استوت قلوب المؤمنين، وما أحب رجل رجلاً لله إلا

=

وجب على المحبوب الدعاء له، وإن العبد إذا صدق في سره لمن وده في الله أصلح الله له سره وعلانيته، ويشفع بعضهم في بعض وجعل ما أسكنه قلوبهم فيه نجاتهم وألهمهم الشكر على إحسانه إليهم، وعرفهم أن ذلك منه فهم في أعمال الآخرة في تمام، ومن الدنيا على رحيل، ومن الساعات على تفقد فأي وقت أتاهم الموت لم تلحقهم حسرة إلا على ما فاتهم من صحة الأعمال.

وقال: إن بعض جلسائه انصرف من عنده في شهر رمضان بعد صلاة المغرب، قال: فجئته من الغد، فقال لي: أي وقت بلغت منزلك! قلت: كما دخلت أفطرت، فقال: من أين كان لك ما أفطرت عليه؟ فقلت: لا أدري، قال: لا تفطر على شيء حتى تدري وإلا فأفطر فهو خير لك.

[قال معروف] يقول الله تعالى في بعض الكتب: ابن آدم ما أخسرك، تسألني فأمنعك لعلمي بما يصلحك، ثم تلح علي في المسألة فأجود بكرمي عليك، وكم من جميل أعطيك فأعطيك ما تسألني فتستعين بما أعطيك على معصيتي فأهم بهتك سترك فتسألني فأستر عليك، ثم تعاود المعصية، فأستر عليك، فكم من جميل أصنعه بك، وكم من قبيح تعمله معي! يوشك أن أغضب عليك غضباً لا أرضى بعده أبداً.

وقال: رأيت بالبادية شاباً حسن الوجه، له ذؤابتان حسنتان، وعلى رأسه رداء قصب، وعليه قميص كتان، وفي رجليه نعل طاق. قال معروف: فتعجبت منه في مثل ذلك المكان، ومن زيّه فقلت السلام عليكم ورحمة الله، فقال: وعليك السلام يا عم. فقلت له: الفتى من أين؟.قال: من مدينة دمشق، قلت: ومتى خرجت منها؟. قال: ضحوة النهار. قال معروف: فتعجبت منه وكان بينهم وبين الموضع الذي رأيته فيه مراحل كثيرة، فقلت له: وأين المقصد؟ قال: مكة إن شاء الله، فعلمت أنه محمول، ثم ذهبت فلم أره حتى مضت ثلاث سنين، فلما كان ذات يوم وأنا جالس في منزلي أتفكر في أمره، وما كان منه إذا بإنسان يدق الباب فخرجت إليه، فإذا بصاحبي فسلمت عليه، وقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحباً وأدخلته المنزل، فرأيته حافياً حاسراً، فقلت: إيش الخبر؟ فقال: يا أستاذ لم تخبرني بما يفعل معامليه؟ قلت له: فأخبرني ببعض خبرك؟. قال: نعم لاطفني حتى أدخلني الشبكة، ثم ضربني ورماني، فمرة يلاطفني، ومرة يهينني، ومرة يكرمني، ومرة يجيعني، فليته أوقفني على بعض أسرار أوليائه، ثم ليفعل بي ما يشاء. قال معروف: فأبكاني كلامه فقلت له: فحدثني ببعض ما جرى عليك من فارقتني، فقال: هيهات أن أبديه وهو يريد أن أخفيه، ولكن أخبرك بما فعل بي في طريقي إليك سيدي ومولاي.

ثم استفرغه البكاء، فقلت: وما الذي فعل بك؟. قال: جوعني ثلاثين يوماً، ثم جئت إلى قرية فيها مقثاة قد نبذ منها الدود وطرح، فقعدت آكل منه، فبصرني صاحب المقثاة، فأقبل إلي يضرب ظهري، ويقول: يا لص ما خرب مقثاتي غيرك، مذ كم أنا أرصدك حتى وقعت عليك، فبينما هو يضربني إذ أقبل فارس نحوه مسرعاً إليه وقلب السوط في رأسه، وقال: تعمد إلى ولي من أولياء الله تضربه وتقول له يا لص فأخذ بيدي صاحب المقثاة، وذهب بي على منزله فما ترك شيئاً من الكرامة إلا عمله معي، واستحلني، فبينما كنت عنده لصاً إذ جعلني ولياً، ثم إن صاحب المقثاة. قال: قد جعلت هذه المقثاة لله تعالى ولأصحاب معروف، فقلت له: صف لي معروفاً؟ فوصف لي الصفة فعرفتك بما كنت شاهدته من

الذنوب، ورجاء الشفاعة بلا اتّباع السنة نوع من الغرور، ورجاء رحمة مَن لا يُطاع حمق وجهل».

وقال البعض: «إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى لقوا الله وليست لهم حسنة يقول: أحدهم أحسن الظن ربي وكذب إذ لو أحسن الظن بربّه لأحسن العمل له».

قال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣].

=

صفتك. قال معروف: فما استتم كلامه حتى دق صاحب المقتاة الباب، ودخل إلي وكان موسراً فأخرج جميع ما له ودنياه وجعل الجميع للفقراء، وصحب الشاب سنة، ثم خرجا إلى الحج فماتا بالربذة رحمهما الله.

وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى: جرى ذكر معروف الكرخي في مجلس والدي، فقال واحد من الجماعة: هو قصير العلم، فقال له والدي: أمسك عافاك الله، وهل يراد العلم إلا لما وصل إليه معروف.

وروي عنه: إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله.

وروي عنه: إذا أراد الله بعبد شراً أورثه حب الدنيا والخذلان، وأسكنه بين الفقراء.

وقال: إذا أراد الله بعبد شراً ابتلاه بالخذلان، وأسكنه بين الأغنياء، فإذا نظر إليهم استعظم غناهم.

وقال: قلوب الطاهرين تشرق بالتقوى وتزهر بالبر، وقلوب الفجار تظلم بالفجور، وتعمى بسوء النية، وإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل، وأغلق عنه باب الفترة والكسل.

وقال: ما أكثر الصالحين، وأقل الصادقين في الصالحين.

وقال له رجل: أوصني، فقال: توكل على الله حتى يكون هو معلمَك ومؤنسَك وموضعَ شكواك، فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك.

وقال: علامة مقت الله للعبد أن يراه مشتغلاً بما لا يعنيه من أمر نفسه، وطلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع حمق وجهل.

وقيل له: ما علامة الأولياء؟ فقال: ثلاثة: همومهم الله، وشغلهم فيه، وفرارهم إليه، ثم قال: ليس للعارف نعمة، وهو في كل نعمة.

وقال: التصوف الأخذ بالحقائق، والكلام في الدقائق، والإياس مما في أيدي الخلائق. والله أعلم.

وانظر في ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي (ص٨٣، ٩٠)، الرسالة القشيرية (١٢)، حلية الأولياء (٨/ ٣٦٠، ٣٦٨)، تاريخ بغداد (١٣/١٩٩)، مرآة الجنان (١/٤٦٠)، طبقات الحنابلة (١/٣٨٠)، نفحات الأنس (٥)، اللمع (١٨٥)، وفيات الأعيان (٢/١٣٦)، التعرف (١١)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/٨٤)، طبقات ابن الملقن (٥٨)، معروف الكرخي لابن الجوزي.

والمراد بالوصول: معرفة الله تعالى على وجهٍ يقتضي القيام بحقوقه، والوقوف عند حدِّ أمره ونهيه بأن يصل القلب إلى العلم بجلاله وعظمته بحيث يُباشر حقيقة القلب، ويسري معناه إلى جميع الجوارح والبدن على حُكم العلم بلا توقف ولا اختيار، والناس في هذا المقام مُتفقون في أصل الحقيقة، ومتفاوتون في المراتب، فمنهم من وصل إلى صفوة اليقين ذوقًا ووجدانًا، ومنهم من فنى في أفعاله وأفعال غيره فخرج عن التدبير والاختيار فوجد الله بطريق الأفعال، فلا يرى فعلاً إلا فعل الله تعالى، ومنهم من وجده تعالى بطريق الصفات فلا يرى إلا صفاته، ومنهم من يجده بطريق الأسماء فلا يرى اسمًا إلا اسم الله، ومنهم من يجده بطريق الذات فلا يرى إلا ذاته وهو أعلى مراتب الوصول، ولكن لهذه المرتبة مقامات وحضرات لاتتناهى.

وليس المراد بالوصول البلوغ والاتّصال؛ لأنه تعالى جلّ أن يبلغه شيئًا، أو يبلغ إلى شيءٍ، أو يتصل بشيءٍ أو يتصل به شيءٍ؛ لأن ما ذكر كلها نسب ومسافات وعلل وإضافات هي من سمات المحدثات، والحق تعالى منـــزه عنها غاية التّنـــزيه.

قال سيد الطائفتين(١): متى يتصل من لاشبيه له ولا نظير بمن له شبيه، ونظير هيهات

(١) هو سيد الطائفتين ومفتي الفريقين وإمامهم وتاجهم وطاووس العباد وقطب العلم والعلماء:

أبو القاسم الجنيد بن محمد ابن الجنيد الخزاز القواريري قدس الله روحه ونوّر ضريحه

وكان أبوه يبيع الزجاج، فلذلك كان يقال له: القواريري، وكان هو خرازًا.

لقبه الأستاذ أبو القاسم القشيري قدّس الله روحه في رسالته بسيد الطائفة وإمامهم، ولقّبه جماعةً من الشيوخ بتاج العارفين في حكاية.

وقال الشيخ الفرغاني: كان الجنيد وأبو الحسين النوري يسميان ببغداد طاووسا العباد.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: كان الجنيد قطبًا في العلم، أصله من نهاوند وهي مدينة من الجبل قيل: إن نوحًا عليه السلام بناها، ومولده ومنشأه بالعراق، وكان شيخ وقته، وفريد عصره، ومن كبار أئمة القوم وسادتهم، ومقبول على جميع الآل، وكلامه في الحقائق مشهور.

تفقّه على أبي ثور صاحب الإمام الشافعي، وكان يُفتي في حلقته، وقيل: بل كان فقيهًا على مذهب سُفيان الثوري. وصحب قدس الله روحه خاله أبا الحسن سري السقطي، والحارث المحاسبي =

=

وغيرهما من المشايخ. وأفتى وهو ابن عشرين سنة. وصحبه أبو العباس بن سُريج الفقيه الشافعي، وكان إذا تكلم في الأُصول والفروع بكلام أعجب الحاضرين، فيقول: أتدرون من أين لي هذا؟ هذا من بركة مجالستي لأبي القاسم الجنيد.

قال الشيخ ابن عجيبة: وكان شيخ العارفين وقدوة السالكين وعلم الأولياء في زمانه.

وقال أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله المنادي: كان الجنيد بن محمد قد سمع الحديث الكثير من الشيوخ، وشاهد الصالحين وأهل المعرفة، ورزق من الذكاء وصواب الجوابات في فنون العلم ما لم ير في زمانه مثله عند أحد من قرنائه، ولا ممن أرفع سنًا منه ممن كان ينسب منهم إلى العلم الباطن والعلم الظاهر في عفافٍ وعزوفٍ عن الدنيا وأبنائها، لقد قيل لي أنه قال ذات: يوم كنت أفتي في حلقة أبي ثور الكلبي الفقيه ولي عشرون سنة.

وكان ورده في كل يوم ثلاثمئة ركعة وكذا كذا ألف تسبيحة.

وقال ابن الأطعاني: وقد تخرّج بصحبته خلائق في سلوك طريق الله لو ذكرتهم لطال الكلام.

وقال ابن عجيبة: وكلامه وحقائقه مدونٌ في الكتب، ثم انتشر التصوف في أصحابه وهلم جرا ولا ينقطع حتى ينقطع الدين.

وقال أبو نعيم: اشتغل بالعبادة ولازمها حتى عَلت سِنّه وصار شيخ وقته وفريد عصره في علم الأحوال والكلام على لسان الصوفية وطريقة الوعظ، وله أخبار مشهورة وكرامات مأثورة.

وله مكاتباتٌ كثيرة مشتملة على درر من المعارف والحقائق في غاية النفاسة يطول ذكرها.

وقال جعفر الخلدي: قال الجنيد ذات يوم: ما أخرج الله إلى الأرض علمًا وجعل للخلق إليه سبيلاً إلا وقد جعل لي فيه حظًا ونصيبًا.

وكان الجنيد شيخ الطائفة يتكلم على بضع عشر، قال: وما تم في أهل مجلسه عشرون.

وأفتى وهو ابن عشرين سنة.

وقال ابن الأطعاني: وقد تخرج بصحبته خلائق في سلوك طريق الله لو ذكرتهم لطال الكلام.

وقد أُجمع على الاقتداء بعلماء لجمعهم بين علمي الظاهر والباطن، وهم: الحارث بن أسد المحاسبي، وأبو القاسم الجنيد، وأبو محمد رويم، وأبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي، وابن عطاء.

=

=

ومما ذكره الإمام ابن الأطعاني أن الإمام الجنيد صحب الحارث بن أسد المحاسبي، والمحاسبي صحب أستاذه بشر ابن الحارث الحافي، وهو صحب أستاذه عامر بن شعيب، وهو صحب أستاذه الحسن البصري قدس الله أرواحهم، وبشر الحافي صحب أيضًا الفضيل بن عياض، وهو صحب جعفر الصادق، وكان ممشاذ الدينوري فصحب أيضًا أبو عبد الله أحمد بن يحيى بن الجلاء، وهو بغدادي الأصل أقام بالرملة ودمشق، وكان من أجلة مشايخ الشام، وكان عالمًا ورعًا، وابن الجلاء صحب أبا تراب عسكر بن حصين النخشبي من أجلة مشايخ خراسان المذكورين وكبارهم والمشهورين بالعلم والفتوة والتوكل والزهد والورع، مات بالبادية فنهشته السباع سنة خمس وأربعين ومائتين، وهو صحب حاتمًا بن عبد الرحمن بن عنوان، ويقال: حاتم بن يوسف الأصم من أكابر مشايخ خراسان، قيل: إنه لم يكن أصم، وإنما تصامم مرة فسمي به، وهو صحب أبا علي شقيق بن إبراهيم البلخي من كبار مشايخ خراسان له لسان في التوكل حسن الكلام فيه، وقيل: هو أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان، وهو صحب أبا إسحاق إبراهيم ابن أدهم وناهيك به، وهو صحب أبا عمران موسى ابن زيد الداعي ببلخ، وهو صحب أويسًا القرني، وهو صحب أميري المؤمنين عمر ابن الخطاب وعلي ابن أبي طالب رضي الله عن الجميع[1].

ونقل الشيخ الماجري ما يدل على عظم قدر الإمام الجنيد ومكانة طريقته المرضية العلية بقوله:

فمما نقلته من كلام الشيخ أبي محمد صالح- تلميذ سيدي أبي مدين الغوث قدس الله أسرارهم- أنه قال: لما قدمت من بلاد المشرق وأخذت في استعمال هذا الطريق، أنكر عليَّ ذلك فقهاء الوقف، وبدّعوني حتى ضاق صدري، وعيل صبري، فدعوت الله تعالى إن كان ما أنا عليه من هذا الطريق مما يقربني إليه فييسره عليَّ، فرأيت فيما يرى النائم قائلاً يقول لي: «لا تلتفت إلى هؤلاء الفقهاء المنكرين، ولا تسألهم إلا في مسائل الفقه، فكلهم أرضيون ما فيهم سماوي، ثم عليك برسالة القشيري وحقائق السلمي ومنهاج العابدين؛ ففيها ما تطلبه، وخذ الطريق عن أربابه، مثل محمد بن واسع، وسفيان الثوري، ومالك بن دينار، و**الجنيد**، وشقيق، وإبراهيم، والفضيل، وغيرهم».

فاستخرت الله في ذاك واستعنته، وعالجت منه ما قدر حتى فتح الله لي بما هو حظي منه.

وقال السراج الطوسي: إن الجنيد البغدادي مع كثرة علمه وتبحره وفهمه ومواظبته على الأوراد والعبادات وفضله على أهل زمانه بالعلم والدين، فكم من مرة طُلب وأُخذ وشهدوا عليه بالكفر والزندقة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

=

=

وقال التادلي حينما ترجم له في كتاب المعزى: وهذا الإمام ممن اتفق على جلالته المتقدمون والمتأخرون وله كرامات وآيات أضربنا عنها اختصارًا إذ الجبل لا يحتاج إلى مرساة.

تُوفي قدَّس الله روحه يوم السبت، وكان نيروز الخليفة سنة سبع وسبعين ومائتين، وقيل: ثمان وسبعين، آخر ساعة من نهار الجمعة ببغداد، ودفن يوم السبت بالشونيزية عند خاله وشيخه سري السقطي رضي الله عنهما، وقبره بها ظاهر يزوره الخاص والعام، وكان عند موته قد ختم القرآن الكريم، ثم بدأ من سورة البقرة فقرأ سبعين آية ثم مات.

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله تعالى: كنت عند الجنيد حال نزعه، وكان يوم جمعة، ويوم نيروز، وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت له: في هذه الحالة يا أبا القاسم، فقال: ومن أولى مني بذلك وهو ذا تطوى صحيفتي؟. وقيل له حال نزعه قل: لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته فأذكره.

وقال أبو بكر العطار: حضرت وفاة الجنيد مع جماعة من أصحابه، وفيهم أبو محمد الجريري فنظر إلى الجنيد وهو منشغل بما هو فيه من درس القرآن والركوع والسجود، فقال له: يا أبا القاسم لو رفقت بنفسك، فقال: يا أبا محمد حالة وصلت بها إلى الله تعالى في بدء أمري لا أفارقها أبدًا حتى ألحق بالله، ثم قال له الجنيد: يا أبا محمد لي إليك حاجة إذا مت فغسلني وكفني وصلّ عليّ، قال: فبكى الجريري وبكينا، ثم قال: وحاجة أخرى: تتخذ لأصحابنا طعام الوليمة، فإذا انصرفوا من الجنازة رجعوا إلى ذلك حتى لا يقع بهم التشتت. قال: فبكى الجريري بكاءً شديدًا، ثم قال: والله لإن فقدنا هاتين العينين لا اجتمع منا اثنان أبدًا، وقال أبو جعفر الفرغاني: فكان والله كذلك ما اجتمع اثنان بعد وفاته، وإنما كان ذلك ببركة الشيخ ورؤيته.

وقال جعفر الخلدي: رأيت الجنيد في المنام بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم، ونفدت تلك الرسوم، وما نفعنا إلا رُكيعات كنا نركعها في الأسحار.

وسُئل عمن أخذت هذا العلم؟ فقال: أما في أول أمري فعن خالي سري السقطي، ثم عن أدبي مع الله سبحانه وتعالى ثلاثين سنة تحت هذه الدرجة، فأعلمَ السائل أولاً بنسبة الوراثة ثم ثانيًا بما أورثته صحبتُها من الأدب الموجب للذوق والوجدان؛ لأن علم أهل التحقيق يؤخذ وراثة وإلقاء، وتعلمًا وذوقًا ووجدًا.

=

هذا ظنٌ عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث أن لا إدراك ولا وهم ولا إحاطة ولا إشارة إلا اليقين، وتحقيق الإيمان، وحقيقة الوصول، والدخول، والوجود شيء واحد، وهو العلم بالله إذا كان بالله، أو بمن هو بالله بخلاف ما إذا كن بغيره، فإنه لا يقال: له الوصول، ولا يحصل العلم بالله إلا بالاتّصاف بالصفات الروحانية المتوقف عليها الانتقال من المرتبة الحيوانية.

١٤- من لم يتّصف بالصفات الروحانية لم يُنقل عن المرتبة الحيوانية.

كما قال قدس سره: (**من لم يتّصف بالصفات الروحانية لم يُنقل عن المرتبة الحيوانية**) الصفات الروحانية كالتقوى والطاعات، والمرتبة الحيوانية المنى والشهوات، والكل موجود في الإنسان، ولا دخول في ضدّ إلا بعد الخروج من ضدٌ آخر هذا على ما قيل: العلاج بأضدادها، فعلاج البخل بالإيثار، والغضب بالحلم والتحمل وكظم الغيظ، والحرص بالزهد والتجريد والعزلة، والشره بتقليل الطعام والجوع، وصفة الشهوة بترك اللّذات وكثرة الرياضات، لكن هذا طريق بعيد لا يمكن لنا خصوصًا في هذا الزمان تبديل صفة واحدة إلا بعمرٍ طويل لا يمكن التبديل بالكلية قال الله تعالى: ﴿**لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾ [الروم:٣٠]، فالطريق الأقرب أن تسعى في تصفية القلب بالتجريد الصوري أولاً، والتفريد الباطني ثانيًا يعني يجرد بالظاهر بترك الدنيا أو العزلة، والانقطاع عن الخلق والمألوفات وطلب الجاه والمال والمنال، ثم يفرد باطنًا عن كلٌ محبوب ومطلوب ما سوى الحق تعالى، وهذا طريق العاشقين، والأول طريق الزاهدين.

وحُكي أن حسين المنصور لـمَّا رأى إبراهيم الخوَّاص رحمة الله عليهما قال له: أنت في أي مقام فقال: إبراهيم في جوابه إني أروض نفسي في مقام التوكل منذ ثلاثين سنة

=

ودُفن بالشونيزية بالضم ثم السكون ثم نون مكسورة وياء مثناة من تحت ساكنة وزاي وآخره ياء النسبة، مقبرة ببغداد بالجانب الغربي، وقد دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين منهم جعفر الخلدي ورويم وسمنون المحب وهناك خانقاه للصوفية قدس الله أسرارهم. وحرز الجمع الذي صلّى عليه فكان ستين ألفًا. وقال صاحب مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار: قبره يزوره الخاص والعام وإليه المرجع في هذا الطريق. انظر في ترجمته: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين، وروضة الحبور لابن الأطعاني بتحقيقنا.

فقال: الحسين إذا فنيت عمرك في عمارة الباطن فأين أنت من الفناء في الله؟

فإذا حصل للسالك تصفية القلب فيتوجه توجهًا تامًا فيصير قابلاً لإمداد فيض الحق تعالى، فإذا حصل الفيض فمن أثره يتبدل في طرفة عين كثير من الصفات التي لا يمكن تبديل كل واحد منها في أزمنة مديدة بمجاهدات ورياضات كثيرة، فلنرجع إلى ما هو المقصود بإذن الملك الودود.

فاعلم أن الإنسان باعتبار نشأته العنصرية قد اجتمع فيه أربعة أشياء:

الصفات السبعية، والبهيمية، والشيطانية، والربانية وهي التي تسمَّى بالروحانية، وظهور كل منها باعتبار غلبة ظهور صفتي الهوى والغضب الذاتيتين للنفس، وخفائه بفقدانهما فيه، فهو من حيث سلط عليه الهوى يكون له أفعال البهائم، ومن حيث سلط عليه الغضب يكون له أفعال السباع، ومن حيث سلطاهما عليه، وتركبا فيه يكون له الشيطانية من حيث الشرّ والقهر والغلبة والمكر والخديعة، ومن غلب عليه سلطان الروح الذي هو من أمر الرب فله الأفعال الملائكية والكمالات الروحانية، فمن لم يتصف بالصفات الروحانية بأن لم يصر روحًا صرفًا، ولم يخرج عن اللذات والشهوات والإرادات لم ينقل بالبناء للمفعول أي: الله تعالى لا ينقله من المرتبة الحيوانية إلى المرتبة الإنسانية المساوية للمرتبة الملكية، بل أزيد منها من حيث إن الإنسان هو روح العالم الذي من جملته الملك بخلاف الملك فإنه ليس له هذه الرتبة.

* * *

مطلب في الإنسان الكامل

قال الشيخ الأكبر في الفكوك: «إن الإنسان الكامل الحقيقي هو البرزخ بين الوجوب والإمكان، والمرآة الجامعة بين صفات القدم، وأحكامه وبين صفات المحدثات، وهو الواسطة بين الحق والخلق وبه، ومن مرتبته وصول الفيض إلى الخلق، والمدد الذي هو السبب لبقاء ما سوى الحق من العالم كله علوا وسفلاً، ولولاه من حيث برزخيته لم يقبل شيئًا من العالم المدد الإلهي الوحداني لعدم المناسبة والارتباط، ولم يصل إليه» انتهى كلامه.

فإذا عرفت هذا فالحق به ينظر إلى الخلق، ويرحمهم، فالإنسان هو الحادث بوجوده

العنصري ذاتًا وزمانًا لكون نشأته العنصرية مسبوقة بالعدم الزماني، ولعدم اقتضاء ذاته الوجود، وهو الأزلي المتقدم على سائر الأعيان باعتبار وجوده العلمي أي: عينه الثابتة في الحضرة الحلمية، بل بحسب وجوده العيني الروحي؛ لأن نفوس الكُمَّل كليَّة أزليَّة سابقة في الوجود للقلم الأعلى، وهو النشأ الدائم الأبدي؛ لأن الكمَّل هو الذي ينمو، ويزداد دائمًا أبدًا في المراتب فأول مراتبه التعين الأول أي: الحقيقة المحمدية، ثم التعين الثاني الذي هو صورته التفصيلية، ثم العقل الأول، ثم النفس الكل إلى آخر المولدات الذي هو نشأته العنصرية، ثم لا يزال يزداد بحسب التجليات الإلهية والشؤونات الربانية أبدًا دنيا وآخرة، وهو الكلمة الفاصلة الجامعة بين كلمة جامعة لحروف الفعل، والتأثير التي هي حقائق الوجوب، وبين كلمة جامعة لحروف الأنفال والتأثر التي هي حقائق الإمكان ومتوسطة بينهما، ولذا تمَّ العالم بوجوده، فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم(١).

كما قاله الشيخ قُدِّس سره في الفص الأول من كتاب «الفصوص»: «فكما أن تمامية الخاتم وكماله بالفص، ونقصانه بعدمه كذلك كمال العالم بالإنسان الكامل ونقصانه بعدمه، فالعالم في الحفظ من الخلل ما دام فيه هذا الإنسان المذكور، وإذا خرج عن العالم وانتهت جميع ما فيه، فبقاء صور أنواع الموجودات على ما خلقت عليه الموجب لبقاء كمالاتها وأحكامها وآثارها به، وهذا الإنسان هو المتصف بالصفات الروحانية المنتقل عن المرتبة الحيوانية الحائز برتبة الإحاطة بجميع الأسماء ورتبة جمعية مظاهرها».

* * *

(١) قال ﷺ في الباب السادس والأربعين وثلاثمائة: إن الإنسان الكل الكامل الكلي لم يزل مع الله، فلا يزال مع الله، فهو باقٍ ببقاء الله، وما عدا الإنسان الكامل، فهو باقٍ بإبقاء الله تعالى.

مطلب مَن عرف نفسه(١)

(١) أي من عرف صفات نفسه عرف صفات ربه على الضد منها، فمن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء، ومن عرف نفسه بالخطأ عرف ربه بالوفاء والعطاء.

وقيل: إنه من تعليق مستحيل على مستحيل؛ لأن معرفة نفسك وكيفيتها على ما هي عليه مستحيلة فكذلك معرفة الرب على ما هو عليه.

وذكر الشيخ أحمد بن غانم المقدسي في ذلك عشرة أوجه:

الأول: إن هذا الهيكل الإنساني لما كان مفتقرًا إلى مدبر ومحرك، وهذه الروح تدبره وتحركه عَلِمنا أن هذا العالم لابد له من محرك ومدبر.

الوجه الثاني: لما كان مدبر الجسد واحدًا وهو الروح علمنا أن مدبر العالم واحد لا شريك له في ملكه.

الوجه الثالث: لما كان هذا الجسم لا يتحرك إلا بإرادة الروح وبتحريكها له علمنا أنه تعالى مدبر لما هو كائن في كونه، لا يتحرك متحرك بخير أو شر إلا بتقديره وإرادته وقضائه.

الوجه الرابع: لما كان لا يتحرك شيء في الجسد إلا بعلم الروح وشعورها بها، لا يخفى على الروح من حركات الجسد وسكونه شيء علمنا أنه ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ**﴾ [يونس: ٦١].

الوجه الخامس: لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء، بل هو قريب إلى كل شيء في الجسد علمنا أنه قريب إلى كل شيء، ليس له شيء أقرب إليه من شيء، ولا شيء أبعد عنه من شيء لا بمعنى قرب المساحة؛ لأنه منــزّه عن ذلك.

الوجه السادس: لما كان الروح موجودًا قبل وجود الجسد، ويكون موجودًا بعد عدم الجسد علمنا أنه سبحانه وتعالى موجود قبل كون خلقه، ويكون موجودًا بعد فقد خلقه مازال ولا يزال وتقدس عن الزوال.

الوجه السابع: لما كان الروح في الجسد لا نعلم له كيفية علمنا أنه مقدس عن الكيفية.

=

فمن اتصف نقل من الحيوانية، ومن نقل يمت حسّه، ومن مات عرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه، ومن عرف ربه جهل نفسه، وهذا هو المطلوب الأعظم؛ لأن المقصود الأعظم من إيجاد صنف الإنسان المعرفة وهي مستلزمة للجهل بالنفس، وعليه ورد الحديث القدسي:

«كنت كنــزًا مخفيًا، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق؛ لأن أعرف [1]».

=

الوجه الثامن: لما كان الروح في الجسد لا يعلم له أينية علمنا أنه تقدس عن الأينية فلا يوصف بأين ولا كيف.

الوجه التاسع: لما كان الروح في الجسد لا يحس ولا يمس ولا يجس علمنا أنه سبحانه وتعالى منــزه عن الحس والجس والمس واللمس.

الوجه العاشر: لما كان الروح في الجسد لا يُدرك بالبصر، ولا يُمثل بالصور علمنا أنه لا تدركه الأبصار، ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١] انتهى.

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/١٠١١).

قلت: وفي رواية: «فبي عرفوني». قال الشيخ العطار: عبَّر في هذا الحديث عن الذات البحت بالكنــز بجامع النفاسة والاختفاء، وعن هذا التعيُّن الأول بالعلم الذاتي بقوله: «**فبي عرفوني**»؛ لأن علمه تعالى عين ذاته، وإنما كان التعيين الأول بالعلم الذاتي؛ لأنه أقدم الصفات، مع أن علم الشيء بنفسه من ضرورياته، على أن علمه بذاته تعالى يستلزم العلم بسائر كمالاته فافهم، نعم صفة الحياة مقدمةٌ على العلم تقدُّم الشرط على المشروط؛ إذ من شأن العالِم أن يكون حيًّا، لكن القصد للمشروط، فكان أشرف الكل وأقدمها، لا يُقال علمه بذاته تعالى يقتضي الإحاطة بكمالاته، وكمالاته لا يُحاط بها لعدم تناهيها، فهو تعالى لا يُعلم ذاته؛ لأنا نقول: العلم الذي يقتضي الإحاطة هو الحصولي لا الحضوري، على أن علمه بذاته عين ذاته، فلا إيراد، وصورة هذا التعيُّن الأول هو التجلّي الذاتي الأول: أي التجلي بصورة هذا التعيين الذاتي، فتجلّى تعالى لذاته بذاته في ذاته، فحصل علمٌ وعالمٌ ومعلومٌ، ووجد الذات نفسه من غير توهُّم سبق خفاءً واستتارًا، بل ذلك بمجرد اعتبارٍ لا حقيقة؛ فإن الأمر كائنٌ لا محالة، وهذه الثلاثة الحاصلة من هذا التجلي: أعني العلم والعالِم والمعلوم.

وإن شئت قلت: المتجلي والمتجلى فيه والمتجلي له هو شيءٌ واحدٌ ذاتًا مختلفٌ اعتبارًا.

=

=

قال حضرة الشيخ أكرم: يعني ترجع هذه الثلاثة إلى شيءٍ واحدٍ، وهو الذات البحت، قبل اعتبار هذا التعين والتجلي الذاتيين، فإن مرتبة الأحدية المنطوية على كل شيءٍ تنفي التعدد والتغير لذاتها، وقد بقي مرتبةٌ واعتبارٌ ثالثٌ للوجود، وهو ألا يأخذ بشرط شيءٍ، ولا بشرط لا شيء، ويُسمَّى الذات بهذا الاعتبار بالهوية السارية في جميع الموجودات، وبقي اعتباراتٌ متداخلةٌ فيما ذكرناه من المراتب، وسيأتي التعرض لها إن شاء الله تعالى.

وقد جعل العارف الفرغاني في مقدمته على شرحه لتائية سيدي عمر بن الفارض[1] أول تعيُّنٍ تعيَّن به الحق تعالى هو الوحدة الذاتية: أي غير الزائدة على الذات الأقدس، بمعنى أن ما يُنسب إلى ذاته تعالى يُنسب إلى هذه الوحدة، ولها اعتباران أصليان:

أحدهما: سقوط الاعتبارات عنها بالكلية، وتُسمَّى الذات بهذا الاعتبار بالاسم الأحد، ومتعلقه بطون الذات وإطلاقها وأزليتها.

والاعتبار الثاني: ثبوت الاعتبارات الغير المتناهية لها: أي لتلك الوحدة الذاتية، مع اندراجها فيها اندراجًا جُمَليًّا في أول رتب الذات، وتُسمَّى الذات بهذا الاعتبار بالاسم الواحد، ومتعلقه ظهور الذات ووجودها وأبديتها، فكانت الوحدة المذكورة برزخًا بين هذين الاسمين ومنشأً لهما، وهما متفرعان منها.

وهذه الاعتبارات الثابتة للواحد في أول رتب الذات لا مغايرة بينها ولا تَميُّز ولا تفصُّل، بل لا مغايرة بينها وبين الذات في هذه المرتبة، بل هي عين الذات، بمعنى أن كل ما يُضاف إلى الذات يُضاف إليها: من الجمعية والاشتمال على الكل، حتى أنه لا مغايرة في هذه المرتبة بين هذين الاعتبارين المذكورين؛ لأن هذه المرتبة لذاتها تنفي التعدد والغيرة، فإذن كلٌّ من الاعتبارات عين الآخر بل عين الذات؛ لما أسلفناه وقدَّمناه.

قال العارف الفرغاني: ولا يعرف ارتفاع المغايرة بين الاعتبارات في أول رتب الذات، إلا من ارتفع حالاً ومقامًا عن التقييد بالمراتب المقيَّدة بأحكام الكثرة.

ولارتفاع حكم هذه المغايرة في هذه المرتبة حكم بعض أكابر المحققين من أهل الله بأن (الواحد الأحد) اسمٌ واحدٌ مركبٌ كـــ (بعلبك)، وعني بهذا البعض حضرة سيدنا الشيخ قدَّس الله سرَّه.

ويُسمي بعضهم هذه الاعتبارات المندرجة في الوحدة في أول رتب الذات بالشئون الذاتية، وهي مسمَّى الأسماء الذاتية والنسب الإلهية المتفصلة تفصيلاً لا حدَّ له ولا عد، في ثاني رتب الذات الأقدس مرتبة الأسماء والصفات، ويدل عليها باطن اسم الله، وباطن اسم الرحمن، والاسم الأحد، والواحد، ومفهوم جميع أسماء الضمائر ومفاتيح الغيب، فالذي يعيِّن هذه الشئون والاعتبارات ما في المرتبة الثانية،

=

=

كباقي المراتب من الصور والآثار، بغيبها وأزلية أزليتها.

ولهذا الغيب الذي يعين ما فيه ما ذكرنا، وقعت الخشية والرهبة لسيدنا محمد ﷺ المشار إليهما بقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ**﴾ [الأحقاف:٩]؛ لأنه ربما يكون في هذا الغيب والرتبة الأولى ما لم يتعيَّن بالمرتبة الثانية بعد.

فالاطّلاع على ما في علمه تعالى لا يُوجِد الاطّلاع على سائر هذه الاعتبارات الغيبيَّة والشئون الذاتية.

يشهد لذلك قوله ﷺ: «**لا أحصي ثناءً عليك**»: أي لا أبلغ كل ما فيك.

وقوله: «**واستأثرت به في مكنون الغيب عندك**»، هذا الكلام على التعيُّن الأول، وهذا دخولٌ على التجلي الأول.

أقول: إن هذا التعين الأول الذي هو الوحدة الذاتية برزخ الواحدية والأحدية، الذي هو عين الذات الأقدس بالمعنى المذكور سابقًا، هو عين قابلية الذات لبطونها وغيبها، وانتفاء الاعتبارات عنها، وحكم أزليتها، ولظهورها وظهور ما تضمنته من الاعتبارات المثبتة حكم أبديتها لنفسها إجمالاً ثم تفصيلاً، فكانت هذه القابلية أصل كل قابلية؛ أي وفاعلية، لأنه لا مغايرة كما عُلِمَ، بل هي عين الذات، فكانت كالمتحدثة مع نفسها في نفسها، والمخبرة لها بما هي عليه من اقتضاء ظهورها، وظهور اعتبارات واحديتها والكمال الذاتي والأسمائي المتعلق بذلك الظهور حديثًا، وإخبارًا نـــزيهًا بحرف نـــزيه وحداني، هو عين الذات متضمن جميع المعاني كليها وجزئيها، والألفاظ، والكلم القولي والفعلي، الدال عليها في سابع رتب أبطن الكلام، المشار إليه في قوله ﷺ: «**إنَّ للقرآن ظهرًا وبطنًا، فِي كلِّ بطنٍ بطنٌ إلَى سبعةِ أبطُنٍ**».

وكان في تلك القابلية أيضًا قابلية ميل الذات بالسماع والإخفاء، وفي تلك القابلية أيضًا كان قابلية ملاحظة الذات نور جمالها الذي هو عين واحديتها، وملاحظة ظهورها وظهور اعتباراتها، وملاحظة الكمال المتعلق بذلك الظهور، بحسب ذلك الميل والسماع والإصغاء.

فلاحظ في سابع رتب أبطن الملاحظة، وفي تلك القابلية أيضًا قابلية التأثير بذلك الحديث؛ ليميط حمار غلبة حكم جلال الغيب والبطون عن الجمال والظهور، المكنَّى عن تلك الإماطة بتغليب الرحمة وسبقها على حكم الغضب، الذي هو اللاظهور المتضمن معنى الردى والعدم؛ لأن الظهور واللاظهور في حكم تلك القابلية الأولى على السواء، فغلب أثر هذا الحديث والميل الذاتي حكم الظهور على اللاظهور، وحكم بسبقه، فعند ذلك تجلَّى الذات الأقدس على نفسها، بحكم ذلك الأثر والتغليب والسبق، وظهرت لنفسها في نفسها: أي في عين وصورة ذلك التعين والقابلية الأوليَّة، فوجد الذات

=

=

نفسها بهذا التجلّي والظهور، من غير توهم تقدم استتار وفقدان وغيبة؛ لأن ما ذكر مجرد اعتبار لا حقيقة، وهذا التجلّي الذي هو عين العلم والوجود والشهود، بحكم مرآته المذكورة التي هي عينه: أي صورته الحاملية المتضمنة ذلك الحديث والميل والملاحظة والتأثير بذلك الحديث بنفسه اللاتي: أي هذه المذكورات هي عين التجلّي والقابلية الأولى: أي في أول رتب الذات، منصبغ بحكم اعتبار معنى، هو باطن صفة القول وصفة السمع وصفة البصر وصفة القدرة، في سابع رتب أبطن كل واحدٍ منهما، وهي رتبة هذا التعين الأول، كما أشار إلى ذلك سيدي سلطان العاشقين العارف الكبير عمر بن الفارض بقوله:

فلفــظ وكلّــي بــي لســانٌ محدثٌ ... ولحظــي وكلّــي في عــينٍ لعــبرة

وسمــع وكلّــي بالــندا أسمــع الندا ... وكلّــي في ردّ الــردى يــد قــدرة

معاني صفــاتي مــا وراء اللبس أثبتت ... وأسمــاء ذات مــا روى الحــس بُثّت

يعني: أثبتت تلك المعاني بالمرتبة الأولى مرتبة التعين الأول، التي هي وراء مرتبة لبسها من كونها شئونًا ذاتية بأحكام الكثرة، حتى صارت تلك المعاني صفات متغايرة متمايزة في المرتبة الثانية، وقيل: فيها سمعٌ وبصرٌ وقولٌ وقدرةٌ ونحوها، بعد أن لم تكن في الرتبة الأولى صفات، بل اعتبارات غير متميزة ولا متغايرة بحسبها وحكمها.

فقوله: (بأحكام الكثرة) متعلقٌ بلبسها: أي وراء رتبة لبسها بأحكام الكثرة، وهذا اللفظ الذي كل الذات عين لاحظة به؛ ليعبر من الباطن إلى الظاهر، والسمع الذي كل الذات سامع به حديثه ذلك، واليد التي كل الذات فاعل بها في ردها اللاظهور، المكنى عنه بالردى إلى الظهور والوجود، كل ذلك معاني صفة السمع والبصر، وصفة القدرة، وصفة القول الثابتة متميزة في المرتبة الثانية الألوهية متغايرة، وهذه المعاني التي هي باطن هذه الصفات كانت غير متغايرة في الرتبة الأولى التي هي سابع أبطنها بالنسبة إلى غاية ظهورها، وفي مرتبة الحس. انتهى كلام الفرغاني ببعض تصرف.

وقد حذا في كلامه هنا حذو من أثبت مرتبة بين مرتبتين:

الأحدية والواحدية، يعني اعتبر ذلك مرتبة، وبعضهم لم يرَ مرتبة بين مرتبتيها، بل يجعل التعين الأول من مرتبة الواحدية، وأيضًا جنح إلى أن أول التعينات الوحدة الذاتية، وجَمْعٌ من العارفين أنها العلم الذاتي، والخلاف لفظي؛ إذ الوحدة عين العلم؛ لأنه تعالى لا بدَّ وأن يعلمها، وعلمه عين ذاته، وهي ذاتية أيضًا فهي عين ذاته، وأنت خبير بأن العلم أقدم الكل، والله أعلم.

١٥- من لم يمت حسَّه، لم يعرف نفسه.

ولهذا عقَّب كلامه السابق بقوله: (**من لم يمت حسَّه، لم يعرف نفسه**).

قوله: (**لم يَمُت**) بفتح الياء، وضم الميم من مات يموت أي: قام به الموت، أو بضم الأول، وكسر الميم من أمات يُميت أي: أعدم، والمراد بالحسِّ ما به الدرك، ويحتمل المعنى المصدري أي: الدرك، والمعنى الذي لا ينعدم دركه بأن لم يصل إلى مقام (بي يبصر وبي يسمع)، وهذا إذا غلبت على خليقته حقيقته ولا يدرك هو شيئًا، ويرى الأفعال كلها لله تعالى، ويرى قواه وجوارحه آلة للحق، أو لم يعد حسه بالمجاهدات والرياضات والمكابدات (**لم يعرف نفسه**)؛ إذ معرفة النفس موقوفة على الخروج من وجوده وإرادته وأعماله، وعوض أعماله المستلزم لموت الحس، فإذا خرج عمَّا ذكر ينعدم حسه، وإذا انعدم حسَّه عرف نفسه بالعجز والذل والافتقار وغير ذلك من الصفات المختصة بالنفس، وإذا عرف نفسه بما ذكر عرف ربه بالقدرة والعز والغناء وغير ذلك من الصفات الكمالية له تعالى، وإذا عرف ربه بالمذكور جهل نفسه؛ لأن المعرفة توجب الفناء في الله ومن فني فيه غاب عن كلِّ شيءٍ.

وقال أبو العطاء الإسكندري في حِكَمه: «مُحال أن يراه ويشهد معه سواه»(١).

---

(١) قال سيدي ابن عجيبة: لأن ثبوت السوى حجاب، فلا يصح الشهود حتى يزول كل موجود ولا يبقى إلا واجب الوجود، ويرى ما سواه كأنه ظلال أو خيال عند التحقيق مفقود. فإن قلت: إذا كان السوى مفقود فلم قال ﷺ في تفسير الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه» . وقال لمعاذ: «اعبد الله كأنك تراه» ، فأتى بكاف التشبيه إذا كانت الرؤيا حاصلة فكيف يشبهه ﷺ بمن يرى؟

فالجواب: أنه ﷺ في محل التشريع والتحقيق، وهذا الحديث وقع في محفل كبير فيه من هو من أهل المراقبة، وفيه من هو من أهل المشاهدة، فأتى بكلامه يقبله الخاص والعام، فالكل مخاطب بإتقان العبادة كأنه يشاهد، فمنهم من بلغ ذلك ذوقاً، ومنهم من يكون منه ذلك مجاهدة.

وأيضاً شهود أنوار الملكوت سر من أسرار الربوبية لا تفشى لغير أهلها، ولو قال ﷺ أن تعبد الله لأنك تراه أي: ترى أنوار جبروته متدفقة لرياض ملكوته لكان فيه إفشاء لسر الربوبية ولا يفهمه إلا الخواص، وقد قال ﷺ: «خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون». فأتى بكلام موجه يقبله أهل الظاهر وأهل الباطن، فأهل الظاهر يتركون الكاف على بابها، وأهل الباطن يجعلونها بمعنى اللام، لأن رؤية البصيرة عندهم في معد العيان لأن البصر إذا فتحت البصيرة غلبت عليه و لم يبق له حكم أصلاً.

=

وذلك؛ لأنه إذا دخل الرب في القلب خرب ما سواه لتحققه بالمعاني القيومية، والإحاطة الديمومية فيُشده في كلِّ شيءٍ ومعه، وإنه له فلا ينظر لشيءٍ سواه.

ولذا قيل: أبى العارفون أن يشهدوا غيره معه؛ لأنه إذا ظهرت صفاته اضمحلت مكنوناته؛ إذ لا نسبة للخلق عند ظهور آثار الحق.

وأنشدوا في هذا :

مُــذ عَــرَفتُ الإلـهَ لَمْ أرَ غـيرًا وكَـذَا الغـير عِـندنَا ممـنوع

وفي بعض النسخ عنده أي: الحق تعالى

مُـذ تجمعـت مَـا خـشيتُ افتراقًا فأنـا اليوم واصـلٌ مجمـوعُ

وقال بعضهم: الخروج عن الأغيار وسيلة لمعرفة النفس، ومعرفة النفس وسيلة لمعرفة الرب، والمراد: أن الخروج عن الأغيار سبب الخروج عن النفس، وهو سبب معرفة النفس، وهي سبب معرفة الرب إلى آخر ما قدمنا، وفيه نظر يدفع بالتأمل فتأمل، ولعلَّ المال واحد والعبارة مختلفة فافهم.

١٦- ما يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول.

وكلام القوم مما مرَّ وما يأتي وغير ذلك يحتاج في فهمه إلى التحقق بأعمال النبي ﷺ، وأقواله فلا يفهم كلامهم أي ذوقًا ووجدانًا إلا من يكون سالكًا فيما سلكه النبي ﷺ، ولذا قال قُدِّس سرَّه: (**ما يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول**) تقفيته واقتفيته أي: تبعته والأثر بقية الشيء، والخبر وكلاهما محتمل؛ لأنه يتبع ما بقي منه من الأحكام، ويتبع خبره أي: أحاديثه المروية عنه بعده أيضًا، و يحتمل أن يكون من قولهم: (خرج في إثره) مكسور الهمزة، أو أثره بفتح الأولين أي: بعده، ويقال: لنقل الحديث ويمكن على والمعنى، والله أعلم بمراد القائل ما يعرف معرفة ذوق ووجدان دون علم الذي نقوله في هذا

=

وأيضاً الرؤية إذا أطلقت إنما تنصرف للبصر، فلو لم يأت بالتشبيه لتوهم أن الله تعالى بالبصر الحسي وهو محال، قال الله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبصَارُ﴾ [الأنعام١٠٣]، أي: الحسية، وإنما تراه البصائر المفتوحة، فإذا انفتحت البصيرة استولت على البصر فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة من أنوار الملكوت، والله تعالى أعلم..

الكتاب: أو فيه وفي غيره، أو ما يعرف قولنا أحد من الآحاد إلا الأحد الذي تبع أثر الرسول خاتم المرسلين والنبيين محمد ﷺ، وعلى أله وصحبه أجمعين؛ لأنه الرابط لرقائق الحقائق من عين الجمع إلى عين التفصيل، وواسطة نزول المعاني من سماء القدس إلى مقام التنزيل، فمن لم يتبع أثره حسن المتابعة لم يهتد إلى أقوالهم ألا ترى أنهم ما وصلوا إليها إلا بعد ارتياض نفوسهم بالرياضات التعبة الشاقة مدى الليالي والأيام.

١٧- لا تأخذ العلم إلا عمّن قرأه، ويعمل به.

واقتفاء أثر الرسول لا يكون إلا بالعلم، والعلم في الابتداء لا يكون إلا بالتعلم، والتعلم لا ينفع إلا إذا كان من عَالِم عامل بعلمه، وهو الذي قاله قُدس سره:

(**لا تأخذ العلم إلا عمّن قرأه، ويعمل به**) أي: لا تأخذ أيها السالك الطالب للعلم حتى تقتفي به أثر الرسول، ولا تتعلم إلا عن الرجل الذي قرأ العلم ومع هذا يعمل به؛ لأنه العالم بالله تعالى وآياته استودع الله تعالى في قلبه غرائب العلوم، وأطلعه على الأسرار المطلوبة عن الغير، وجذبه إليه ورقاه إلى حضرة قربه، وشرح صدره لقبول الأنوار، وجعله داعيًا للعباد، ونذيرًا لهم، ورحمة فيهم، وهاديًا مهديًا وهو المنتهى في بني آدم لا منزلة فوق منزلته غير النبوة، وهو الذي يسمَّى بالعظيم في الملكوت، كما ورد أن النبي ﷺ قال: «**من تعلم وعمل وعلم دُعي في الملكوت عظيمًا**[1]».

فعليك بالأخذ من هذا الرجل، واحذر أن تخالفه، وأن تترك القبول منه والرجوع إليه ونصيحته، فإن السلامة فيما يقوله وعنده، والهلاك والضلال عند غيره؛ لأنه ينطق عن نور تام فيفيد المخاطب نورًا تامًا بخلاف غيره، فإنه إمَّا ينطق عن نور ناقص فلا يفيد إلا الناقص، أو عن الهوى فلا يفيد شيئًا.

وقيل: إن ما خرج من القلب دخل القلب، وما قص على اللسان لم يجاوز الأذان، وقد قسموا الناس إلى ثلاثة متكلم بمجموع نافعة إشاراته ومفيد عباراته، ومتكلم مسموع متجلية عباراته ومفهومة إشاراته، ومتكلم مدفوع تمجه الأسماع ولا يحصل به الانتفاع.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٣/٦)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢١٣/٢)، وهو حديث عن عيسى بن مريم عليه السلام في الكتابين.

مطلب
الناس أربعة رجال

وقال العالم الرباني القطب الصمداني السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرّه العزيز(١): **الناس أربعة رجال:** رجل لا لسان له ولا قلب.

(١) قد أفرده العلماء بالتأليف، ونحن نذكر بعون الله تعالى ملخص ما قالوه.

فنقول: هو السيد الجليل الحسيب النسيب أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى، ابن أمير المؤمنين الحسن السبط، ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وُلد سنة سبعين وأربعمائة، وتُوفي سنة إحدى وستين وخمسمائة، وله من العمر إحدى وتسعون سنة.

كان يقول: عثر الحسين عثرة فلم يكن في زمانه من يأخذ بيده، وإنا لكل من عثر مركوبه من أصحابي ومريدي ومحبي إلى يوم القيامة آخذ بيده، يا هذا فرسي مسرج، ورمحي منصوب، وسيفي شاهر، وقوسي موتر لحفظك وأنت غافل.

وحُكي عن أمه رضي الله عنها، وكان لها قدمٌ في الطريق أنها قالت: لما وضعت ولدي عبد القادر كان لا يرضى يلقم ثديي في نهار رمضان، ولقد عمَّ على الناس هلال رمضان فأتوني وسألوني عنه، فقلت لهم: إن ولدي لم يلقم اليوم ثديًا، ثم اتَّضح أن ذلك اليوم كان من رمضان، واشتهر ببلدنا في ذلك الوقت أنه وُلد للأشراف ولدٌ لا يرضع في نهار رمضان، وفي ذلك قال الشيخ عثمان الموصلي مادحًا لحضرته، قدَّس الله تعالى روحه:

صـــام في مهـــده وكـــان رضـــيعًا فجـــلا ظلمـــة الـــشك في رمضان

وكان ﷺ يلبس لباس العلماء، ويتطيلس ويركب البغلة، وترفع الغاشية بين يديه، ويتكلم على كرسي عالٍ، وربما خطى في الهوى خطوات على رؤوس الأشهاد الناس، ثم يرجع إلى الكرسي.

وكان يقول: بقيت أيامًا لم أستطعم فيها بطعام، فلقيني إنسان فأعطاني جرة فيها دراهم، فأخذت منها خبزًا سميذًا وخبيصًا، فجلست آكل فإذا برقعة فيها مكتوب: قال الله تعالى في بعض كتبه السالفة: (إنما جعلت الشهوات لضعفاء خلقي؛ ليستعينوا بها على الطاعات، أما الأقوياء فما لهم والشهوات) فتركت الأكل وانصرفت.

وكان أنه لترد عليَّ الأثقال الكثيرة لو وُضعت على الجبال تفسخت، فإذا كثرت وضعت جنبي على الأرض وتلوت: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا۝إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]، وقد انفرجت عني

=

تلك الأثقال. وقال له رجلٌ مرة: كيف الخلاص من العجب؟ فقال: مَنْ رأى الأشياء من الله تعالى وهو الذي وفّقه لعمل الخير، وأخرج نفسه من البين، فقد سلم من العجب.

وقيل له مرة: ما لنا نرى الذباب تقع على ثيابك؟ فقال: على أي شيء يعمل الذباب عندي، وما عندي شيء من دنس الدنيا ولا عسل الآخرة!.

وكان يقول: أيما امرئ مسلم عبر على باب مدرستي خفّف الله عنه العذاب يوم القيامة.

وكان رجل يصرخ في قبره ويصيح حتى آذى الناس فأخبروه به، فقال: إنه رآني مرة ولا بدَّ أن يرحمه الله تعالى لأجل ذلك، فمن ذلك الوقت ما سُمع له صراخ.

وتوضأ يومًا فبال عصفور عليه، فرفع رأسه إليه وهو طائرٌ فسقط ميتًا، فغسل الثوب ثم باعه وتصدَّق بثمنه، وقال: هذا بهذا.

وكان يقول: يا رب كيف أهدي لك روحي وقد صحَّ أن الكل لك؟!

وكان يتكلّم في ثلاثة عشر علمًا، وكانوا يقرؤون عليه دروسًا من التفسير، ودروسًا من الحديث، ودروسًا من المذهب، ودروسًا من الخلاف والأصول والنحو.

وكان يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر، وكان يفتي على مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل ﷺ، وكانت فتاواه تُعرض على علماء العراق فيتعجبون منها أشد الإعجاب ويقولون: سبحان من أنعم عليه!.

ورُفع له سؤال في رجلٍ حلف بالطلاق أنه لا بدَّ أن يعبد الله عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها، فما يفعل من العبادات، فأجاب عنه على الفور يأتي مكة ويخلي له الطواف، ويطوف أسبوعًا وحده فينحل بيمينه، فأعجب علماء العراقيين، وكانوا قد عجزوا عن الجواب عنها.

ورفع إليه شخص سؤالاً أنه يرى الله ﷻ بعين رأسه، فقال: أحق ما يقولون عنك؟ فقال: نعم، فانتهره وأهانه عن هذا القول، وأخذ عليه العهد أنه لا يعد إليه، فقيل للشيخ: أمحقٌّ هذا أم مبطلٌ؟ فقال: هو محقٌّ ملبس عليه، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ثم انخرق من بصيرته إلى بصره منفذ، فرأى بصره بصيرته، وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده، فظنَّ أن بصره رأى ما شهد به بصيرته، وإنما رأى بصره بصيرته فقط وهو لا يدري.

وكان يقول: ترائى لي نور عظيم ملأ الأرض، ثم بدت لي صورة تناديني: يا عبد القادر أنا ربك، وقد حللت لك المحرمات، فقلت: اخسأ يا لعين فإنك شيطانٌ، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني وقال لي: يا عبد القادر، نجوت مني بعلمك بحكم ربك، وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بمثل هذه سبعين من أهل الطريقة، فقلت: لله الفضل، فقيل له: كيف علمت أنه شيطانٌ؟ فقال: بقوله: قد حللت لك المحرمات؛ إن الله لا يأمر بالفحشاء.

=

=

وسُئل عن المعرفة فقال: هي أن يتعرى العبد بنفسه عن حبِّ الدنيا، وبروحه عن التعلق بالعقبى، وبقلبه عن إرادة شيء مع إرادة المولى، وتجرد بسره عن أن يطمح إلى الكون، أو يخطى على سره.

وسُئل عن الدنيا فقال: أخرجها من قلبك إلى بدنك؛ فإنها لا تضرك.

وسُئل عن الشكر فقال: حقيقة الشكر الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، ومعاهدة المنَّة، وحفظ الحرمة على وجه معرفة العجز عن الشكر.

ولما اشتهر أمره في الآفاق اجتمع مائة فقيه من أدباء بغداد؛ ليمتحنوه في العلم، فجمع كل واحد منهم سؤالاً وجاءوا إليه، فلمَّا استقرَّ هم المجلس أطرق الشيخ رأسه فظهرت من صدره بارقة من نور؛ فمرَّت على صدور المائة فمسحت ما في قلوبهم، وبهتوا واضطربوا وصاحوا صيحة واحدة، ومزَّقوا ثيابهم، وكشفوا رؤوسهم، ثم صعد المنبر وأجاب الجميع عمَّا كان عندهم، واعترفوا بفضله.

وكان من أخلاقه مع جلالة قدره يقف مع الصغير والجارية، ويجالس الفقراء، ويفلي ثيابهم، وكان لا يقوم قط لأحد من العلماء ولا لأعيان الدولة، ولا ألَمَّ قط بباب وزير ولا سلطان، وكان يرى الجلوس على بساط الملوك، ومن داناهم من العقوبات المعجلة للفقير، وكان إذا جاءه الخليفة أو الوزير يدخل الدار ثم يخرج حتى لا يقوم لأحد؛ إعزازًا للطريق في أعين الفقراء.

وكان الشيخ علي الهيتي ﷺ يقول عن الشيخ عبد القادر الكيلاني: كان قدمه على التفويض والموافقة مع التبري من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد مع الحضور في موقف العبودية.

وكان الشيخ عدي بن مسافر الأموي ﷺ يقول: طريق الشيخ عبد القادر الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح، واتحاد الظاهر والباطن، والسلامة من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضر في القرب والبعد.

وكان الشيخ بقاء بن بطو ﷺ يقول: كان طريق الشيخ عبد القادر اتحاد القول والفعل، واتحاد النفس والوقت، ومعانقة الإخلاص والتسليم، وموافقة الكتاب والسُّنة في كل نفسٍ وخطرةٍ ووارد وحال والثبوت مع الله ﷻ.

وعنه ﷺ أيضًا كانت قوة الشيخ عبد القادر في طريقه إلى ربِّه كقوى جميع أهل الطريق شدةً ولزومًا، وكانت طريقته التوحيد وصفًا وحكمًا وحالاً، وحقيقته الشرع ظاهرًا وباطنًا، ووصفه قلب فارغ، وكون غائب، ومشاهدة رب حاضر بسريرةٍ صافيةٍ لا تتجاذبها السلوك، وسر لا تنازعه الأغيار، وقلب لا يفارقه البقايا.

وكان الشيخ أبو الفتح الهروي ﷺ يقول: خدمت الشيخ عبد القادر أربعين سنة، وكان في مدتها يصلِّي الصبح بوضوء العشاء، وكان كلما أحدث جدَّد في وقته وضوء ثم صلَّى ركعتين، وكان يصلِّي العشاء ويدخل خلوته، ولا يمكِّن أحدًا يدخلها معه، فلا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر، وقد أتاه

=

=

الخليفة يريد الاجتماع به ليلاً فلم يتيسّر له الاجتماع به إلى الفجر، وقال: بتُّ عنده فرأيته يصلّي أوّل الليل يسيرًا، ثم يذكر الله تعالى إلى أن يمضي الثلث الأول، ويقول: المحيط الرّب الشهيد المجيب الفعّال الخلاّق الخالق البارئ المصوِّر، فتطاول جثته مرّة، وتنضاك مرّة، وتعظم مرة، ويرتفع في الهواء إلى أن يغيب عن بصري مرة، ثم يصلّي قائمًا على قدميه يتلو القرآن حتى يذهب الثلث الثاني، وكان يطيل سجوده جدًّا، ثم يجلس متوجهًا مراقبًا مشاهدًا إلى قريب طلوع الفجر، ثم يأخذ في الدعاء والابتهال والتضرُّع والتذلُّل، ويغشاه نور يكاد يخطف الأبصار إلى أن يغيب عن الأبصار.

قال: وكنت أسمع عنده: سلام عليكم، وهو يرد السلام إلى أن يخرج لصلاة الفجر.

وكان ﷺ يقول: أقمت في صحراء العراق وخرابه خمسًا وعشرين سنة متجرِّدًا سائحًا، لا أعرف الخلق ولا يعرفوني، وكانت طوائف من رجال الغيب أعلمهم الطريق إلى الله تعالى، ووافقني الخضر عليه السلام في أوّل أمري ودخولي العراق وما كنت عرفته، وشرط عليَّ ألا أخالفه وقال: اقعد ها هنا، فجلست في المكان الذي أقعدني فيه ثلاث سنين يأتيني كل سنة مرَّة، ويقول لي: اقعد مكانك حتى آتيك، قال: ومكثت سنة في خراب المدائن آخذ نفسي بطريق المجاهدات، فآكل المنبوذ ولا أشرب الماء، ومكثت فيها سنة أشرب الماء ولا آكل المنبوذ، ومكثت سنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام.

واجتمع عنده مرة الفقراء والفقهاء في مدرسته النظامية فتكلّم في القضاء والقدر، فبينما هو يتكلّم إذ سقطت حيَّة عظيمة في حجره من السقف، ففرَّ منها كل من كان حاضرًا عنده ولم يبقَ إلا هو، فدخلت الحيّة تحت ثيابه ومرَّت على جسده، وخرجت من طوقه والتفّت على عنقه، وهو مع ذلك لم يقطع كلامه، ولا غيَّر جلسته، ثم نزلت إلى الأرض وقامت على ذنبها بين يديه فصوَّتت، ثم كلمها بكلام لم يفهمه الحاضرون، ثم ذهبت فرجع الناس فسألوه عما قالت، فقال: قالت لي: اختبرت كثيرًا من الأولياء فلم أرَ مثل ثباتك، فقلت لها: وهل أنت إلا دويدة يحركك القضاء والقدر الذي أتكلم فيه! قال ﷺ: ثم إنها جاءتني بعد ذلك وأنا أصلّي ففتحت فمها موضع سجودي، فلما أردت السجود دفعتها بيدي وسجدت، فالتفّت على عنقي ثم دخلت من كمّي وخرجت من الكم الآخر، ثم دخلت من طوقي ثم خرجت، فلما كان الغد دخلت خربة، فرأيت شخصًا عيناه مشقوقتان طولاً فعلمت أنه جني، فقال لي: أنا الحية التي رأيتها، ولقد اختبرت كثيرًا من الأولياء بما اختبرتك به فلم يثبت لي أحد منهم كثباتك، وكان منهم من اضطرب باطنه وثبت ظاهره، ومنهم من اضطرب ظاهرًا وباطنًا، ورأيتك لم تضطرب لا ظاهرًا ولا باطنًا، وسألني أن يتوب على يدي فتوّبته.

قال ابن الأخضر ﷺ: وكنا ندخل على الشيخ عبد القادر ﷺ في الشتاء وقوة البرد وعليه قميصٌ واحدٌ، وعلى رأسه طاقية، والعرق يخرج من جسده، وحوله من يروِّح عليه بمروحه كما يكون في شدة الحر، وكان يقول لأصحابه: اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تمرقوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تفرقوا، وانتظروا ولا تيأسوا، واجتمعوا على الذّكر ولا تفرقوا، وتطهَّروا من الذنوب ولا تلطخوا،

=

=

وعن باب مولاكم لا تبرحوا. وكان يقول: إذا أقامك الله تعالى في حالة فلا تختر أعلى منها ولا أدنى.

وكان يقول: لا تختر جلب النعماء ولا دفع البلواء؛ فإن النعمة واصلة إليك بالقسمة استجلبتها أو كرهتها، والبلوى حالة بك ولو كرهتها ودفعتها، فسلّم لله في الكل يفعل ما يشاء، فإن جاءتك النعمة فاشتغل بالذكر والشكر، وإن جاءتك البلوى فاشتغل بالصبر والموافقة، أو الرِّضا والتنعُّم بها، أو العدم والفناء عنها، على قدر ما تُعطى من الحالات، وتنقل عنها حتى تصل إلى الرفيق الأعلى، وتُقام في مقام من تقدَّم ومضى من الصدِّيقين والشهداء، فلا تجزع من البلوى، ولا تقف بدعائك في وجهها، وأقر بها فليس نارها أعظم من نار جهنم، ففي الخبر أن جهنم تقول للمؤمن: «جز يا مؤمن؛ فقد أطفأ نورك لهبي»، وليس نور المؤمن الذي أطفأ لهب النّار إلا الذي صحبه، وتميز به عمَّن عصى، فليطفئ بهذا النور لهب البلوى، فإنّ البلية لم تأت العبد لتهلكه وإنما لتختبره.

وكان يقول: لا تشكو لأحد ما نزل بك من الضُّر كائنًا من كان صديقًا أو قريبًا، ولا تتهم ربك قط فيما فعل فيك، وأنزل بك من إرادته، بل أظهر الشكر والخير، ولا تسكن إلى أحد من الخلق، ولا تستأنس به، ولا تطلع أحدًا على ما أنت فيه، فإنه لا فاعل سوى ربك، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨] ﴿وإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام:١٧]، وإن يردك بخير فهو على كل شيء قدير، فاحذر من أن تشكو الله تعالى وأنت معافى وعندك نعمة ما؛ طلبًا للزيادة وتعاميًا لما له عندك من النعمة والعافية ازدراءً بها، فربما غضب عليك وأزالها عنك، وحقق شكواك، وضاعف بلواك، وشدد عليك العقوبة، ومقتك وأسقطك من عينه، وأكثر ما ينـــزل بابن آدم من البلايا لشكواه من ربه ﷻ.

وكان يقول: لا يصلح لمجالسة الملوك إلا المتطهِّرين من رجس الزلاّت والمخالفات، ولا تقبل أبوابه تعالى إلاّ طيِّبًا من الدعاوى والهوسات، وأنت يا أخي غارق ليلاً ونهارًا في المعاصي والقاذورات، ولذلك ورد حمى يوم كفّارة سنة، فالأمراض والشدائد جعلها الله تعالى مطهِّرة لك؛ لتصلح لقربه ومجالسته لا غير.

وقد ورد أيضًا أشد بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، ودوام البلاء خاص بأهل الولاية الكبرى، وذلك ليكونوا أبدًا في الحضرة، ويمتنعوا من الميل إلى غير الله تعالى، ثم كلما دام البلاء بالعبد قوي قلبه وضعف.

وكان يقول: ارضَ بالدون ولا تنازع ربك في قضائه فيقصمك، ولا تغفل عنه فيبتليك، ولا تقل في دينه بهواك فيرديك، ولا تسكن إلى نفسك فتُبتلى بها، وبمن هو أشد شرًّا منها، ولا تظلم أحدًا ولو بسوء ظنّك به، وحملك له على محامل السوء فإنه لا يجاوز ربك ظلم ظالم.

وكان يقول: إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبَّه فاعرض أعماله على الكتاب والسُّنة، فإن كانت محبوبة فيهما فأحبه، وإن كانت مكروهة فاكرهه؛ لئلا تحبه بهواك وتبغضه بهواك، قال الله تعالى:

=

=
﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، ولا تهجر أحدًا إلا لله، وذلك إذا رأيته مرتكبًا كبيرة أو مصرًّا على صغيرة، قلت: قد اشترط الشيخ ﷺ في جواز الهجر الرؤية، يعني العلم واليقين، فلا يجوز الهجر بمجرد الظن والتخمين، وقد هلك في هذا الباب خلقٌ كثيرٌ، ولم يموتوا حتى ابتلاهم الله تعالى بما رموا به الناس، والله أعلم.

وكان ﷺ يقول: ما سأل أحد الناس دون الله تعالى إلا لجهله بالله، وضعف إيمانه ومعرفته ويقينه، وقلة صبره، وما تعفف من تعفف عن ذلك إلا لوفور علمه بالله، وقوة إيمانه، وحياءه منه سبحانه وتعالى.

وكان يقول: إنما كان الحق تعالى لا يجيب عبده في كل ما سأله فيه؛ شفقة على العبد أن يغلب عليه الرجاء والغرة، فيتعرض للمكر به، ويغفل عن قرع باب الخدمة فيهلك، والمطلوب من العبد ألا يركن إلى غير ربه والسلام.

ولما حضرت وفاته استوصاه ولده الشيخ عبد الوهاب، فقال له: عليك بتقوى الله وطاعته، ولا تخف أحدًا سواه، ولا ترجه، وكِّل الحوائج كلها إلى الله واطلبها منه، ولا تثق بأحدٍ سوى الله تعالى، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه وتعالى، التوحيد التوحيد التوحيد، وجماع الكل التوحيد.

وقال ﷺ في مرض موته: إذا صحَّ القلب مع الله ﷻ لا يخلو منه شيء، ولا يخرج منه شيء، أنا لب لا قشور، وقال للأولاد: ابعدوا من حولي؛ فقد حضر عندي غيركم، فأوسعوا لهم، وتأدَّبوا معهم، ها هنا رحمة عظيمة، فلا تضيِّقوا عليهم المكان.

قال الشيخ عفيف الدين، وسأله بعض ولده عمَّا يجده فقال: لا يسألني أحدٌ عن شيءٍ، أنا هو ذا، أتقلب في علم الله تعالى.

وأخبرني ولده عبد الرزاق وموسى ﷺ أنه كان يرفع يده ويمدها ويقول: وعليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته، ادخلوا في الصف، هو إذا أجنح إليكم.

وكان يقول: ارفقوا ارفقوا، ثم أتاه الحق وسكرة الموت، فكان يقول: استعنت بالحي القيوم الذي لا يموت ولا يخشى الفوت، سبحان من تعزز بالقدرة، وقهر العباد بالموت، لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله.

وقال ولده موسى: ولما قال (تعزَّز) لم يؤدها لسانه على الصِّحة، فما زال يكرِّرها حتى قال: (تعزز) ومدَّ بها صوته وشدَّدها حتى صحَّ لسانه بها، ثم قال: الله الله، ثم خفي صوته ولسانه ملتصقٌ بسقف حلقه. تُوفي ﷺ ليلة السبت ثامن ربيع الآخر، ودُفن ببغداد ﷺ وقدّس سره.

انظر في ترجمته: طبقات الشعراني الكبرى (١٠٨/١)، ونور الأبصار للصبان (٢٢٤)، والنجوم الزاهرة (٣٧١/٥)، والشذرات (١٩٨/٤)، وسر الأسرار ،وفتوح الغيب، وقلائد الجواهر، ومعدن الأسرار، وخلاصة المفاخر، والروض الزاهر، والسيف الرباني، سبعتهم بتحقيقنا.

وهو العامي لا خير فيه ولا وزن له إلا أن رحمه الله تعالى برحمته، ويهدي قلبه للإيمان به، ويحرك جوارحه للطاعة له تعالى، فاحذر أن تكون منه، وأن تلذ به، وأن تأخذ منه شيئًا.

ورجل: لسان بلا قلب فينطق بالحكمة، ولا يعمل بها يدعو الناس إلى الحق تعالى وهو يفر منه، وهو الذي حذر منه النبي ﷺ بقوله: «**أخوف ما أخاف على أمتي علماء السوء**(١)»، فنعوذ بالله من هذا فابعد منه ليلاً يخطفك بلذيذ لسانه فتحرقك نار معاصيه ويقتلك نتن باطنه.

ورجل: قلب بلا لسان، وهو مؤمن ستره الله تعالى عن خلقه، وبصره بعيوب نفسه، ونوَّر قلبه، وعرفه غوائل مخالطة الناس وشوم النطق، وتيقن أن السلامة في الصمت في الحديث: «**من صمت نجا**(٢)».

وقال بعض العلماء: العبادة عشرة أجزاء تسعة في الصمت فهذا ولي الله والخير كل الخير عنده، فدنوك ومصاحبته، وخدمته، وقضاء حوائجه تدخل في زمرة الصالحين ببركته، ورجل لسان وقلب وهو المذكور أولاً المدعو في الملكوت بالعظيم فلا تجانبه، وأقبل منه النصائح، وهو أكمل مما قبله، فمن تكلم بحكمة عن حقيقة دون تحقق كالعلماء وأهل البداية فيفيد العلم والفهم دون التأثير، ومن تكلم بها عن تحقق وتمكن كالعارفين الواصلين فيفيد التأثير أيضًا؛ لأن أنوارهم سبقت أقوالهم فإنما ينطقون بما يناسب الحكمة على حسب حال الناس منها فتصل إلى قلوب السامعين، فتؤثر فيها وتتمكن، ولم يمنع من التمكن إلا الجحود والضلال كحال أهل الكفر حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم خوفًا من التمكن؛ لأنه ما أنكر كلام الأنبياء أحد من حيث ذاته، وأقروا بحسنه، وصرحوا بكماله إلا أنهم جحدوا حقيقته عنادًا، فقالوا: ﴿**أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾ [الأنفال:٣١] ﴿**هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ [النمل:٣١]، وغير ذلك وكلام الأنبياء والأولياء كان عن إذن وما

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (١/١٤٠) بنحوه.

(٢) رواه الترمذي في السنن (٤/٦٦٠)، وأحمد بن حنبل في المسند (٢/١٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٥٤)، ذكره المناوي في فيض القدير (١/٤٨٧).

هو عن الإذن فيخرج، وعليه حلاوة وكسوة الأنوار وما هو عن غير الإذن فيخرج مكسوفة الأنوار، والإذن يختلف بحسب الأوقات والحالات والأشخاص، ولهذا الرجلان يتكلمان بحقيقة واحدة فتقبل من واحد، وترد على الآخر، وتقبل أيضًا من شخص في وقت، وترد عليه في وقت آخر، والواحد أيضًا يتكلم بها فيقبل منه شخص، ويردها آخر في وقت واحد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فعلم مما تقرر أن الذي يُؤخذ منه العلم رجلان: الذي قلب بلا لسان، والذي قلب ولسان، والأخذ من غيرهما خسران وحرمان.

١٨- من لم يمت عن هواه، لا يمكن أن يراه.

ولـمَّا عرفت أن الوصول إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ **فاعرف بأن** معاينته، ومشاهدته[1] لا تكون إلا بانعدام الهوى عنك، وعدم بقائه فيك،كما أشار إليه الشيخ ﷺ بقوله: (**من لم يمت عن هواه، لا يمكن أن يراه**) أي: الذي لم ينقطع بالكلية عن هواه كالميت حين يموت ينقطع بالكلية عن كلِّ شيءٍ، لا يمكن لها أن يعاينه تعالى، ويشاهده بعين البصيرة؛ لأنه حرام على من بقي فيه مقدار فص النوى من الهوى أن يرى من لا يرى معه السوى؛ لأن الهوى ميل النفس إلى السوى.

والرؤية ظهور أسمائه وصفاته، وقد مرَّ أنه إذا ظهرت صفاته اضمحلت مكنوناته، والميل إلى ما سواه تعالى إنما يكون برؤيته إياه، فلا يمكن لأحد مشاهدة الحق إلا بعد فنائه

(١) المشاهدة: هي إزالة الموانع عن الحقيقة المستعدة لقبول الحق، وحقيقتها: استغناء النظر الصحيح بالبصيرة النافذة في تحصيل المطلوبات عن نصب الأدلة والبراهين، وغايتها: رؤية الصديق عين خبر الصادق في صورة كونه اهـ.
والمشاهدة ضرب من الكشف وخصوص وصف فيه، لكن المشاهدة مختصة بشهود الله تعالى، فمادام الشاهد في حضرة الله سمي هذا الكشف مشاهدة، وإذا شهد ما سواه سُمي كشفاً لا شهوداً، وقد يسمى شهوداً لا مشاهدة، والكلام من مقام المكاشفة لا من مقام المشاهدة لأن المشاهدة للبهت، فالمشاهدة تطلق على حضرتي الإطلاق والتقييد وهما منسوبان إلى الله تعالى، والمشاهدة هاهنا تقال على الإطلاق والتقييد، وهو محل يرى الله فيه صورة موصوفة بالإطلاق والتقييد فإطلاقها لعظمتها وتقييدها كونها صورة.

عن مشاهدة الخلق، فالخلق إنما هو خلق عند عدم ظهور الحق وتجليه في الأشياء، وإذا تجلى على العبد، ودخل قلبه فيراه في كل شيء، ويكون الأشياء مرآة لرؤيته الحق تعالى، فيكون الظهور للحق لا للخلق، ويكون الظاهر الحق لا الخلق؛ لأن المرآة إذا امتلأت من الصورة فإنما ترى الصورة دونه المرآة، فعلى هذا إذا صار وجود الحق مرآة للخلق يكون الظاهر الخلق لا الحق، وتحقيق هذا هو أن العبد بعد ما عرف الله تعالى بألوهيته بأن عرف أنه إله بسبب إنه مألوه أي: محل لتصرف الحق فيه، وتوجه إليه تعالى بكليته تنفتح عين بصيرته بنور الكشف، فيعطيه هذا الكشف أن العالم بجميع حقائقه الموجودة فيه تجلي الحق الوجودي بالفيض المقدس في صور أعيانهم الثابتة التي يستحيل وجودها بدونه، هذا إذا شاهد الوجود الحق في أعيان الموجودات الخارجية، وهي مظاهر للحق تعالى موجودة في أعيانها ظهر الحق بها وفيها بحسبها نحوًا من الظهور ونوعًا من التجلي، وإن شاهد الوجود الحق في مجالي الأعيان الثابتة ومراتبها وهي غير موجودة في أعيانها، بل هي على عدمها الأصلي، ووجودها العلمي ظهر الوجود الحق بها مختلف الصور، فهو حقًا يرى أن العالم تجلي الحق في صور أعيانهم الثابتة التي يستحيل ظهور أحكامها، وآثارها في الوجود الحق بدون التجلي الوجودي؛ لأنه يستحيل وجودها في نفسها؛ لأنها ما شمت رائحة الوجود في هذا الكشف، وهذان النوعان من الكشف في مقام الجمع بعد الفرق الأول.

وبعد هذا الكشف يأتي كشف آخر أصح وأرقى من الأول لتحققه بالحق والخلق، وهو مقام الفرق بعد الجمع المسمَّى بجمع الجمع؛ لأنه يجمع الجمع مع الفرق، فيظهر له بهذا الكشف صور الأعيان الثابتة وأمثلتها في مرآة الوجود الحق من غير انتقالها من العلم إلى العين إلا أنها أثرت في مرآة الوجود الحق من حيث قبولها وصلاحيتها لآثار تلك الأعيان صورًا وأمثلة يظنها الجاهل بالأمر على ما هو عليه موجودات عينية وليست كذلك، ولا يلزم من هذا الحلول؛ لأن الوجود واحد لا يحل في نفسه، والحلول إنما يكون بين الشيئين الموجودين بوجودين مختلفين، فليس للأعيان وجود سوى وجود الحق تعالى حتى يلزم حلولها في الحق، أو حلوله فيها فافهم، واحذر من أن تنسب إلى القوم ما هم بريئون منه، والله يقول الحق بلسان عبده فلا إنكار عليه إذا تكلم بمثل هذا المقال، وهو يهدي السبيل الموصل إلى فهم الحقائق وقبولها لمن يشاء.

١٩- ما دمت في طلب الحق، فلا تقف مع الخلق.

وقد علم ما سبق أن الهوى والميل إلى الخلق مانع من مشاهدة الحق والوصول إليه؛ لأنه لا يمكن المشاهدة مع وجود الهوى والميل الذي به الوقوف مع الخلق، فيجب على السالك الطالب للحق أن لا يقف مع الخلق، كما قاله قُدِّس سرّه:

(**ما دمت في طلب الحق، فلا تقف مع الخلق**)، و(**ما دمت**) في تأويل دوامك؛ لأن (**ما**) آلة المصدر وهو ظرف لـــ (**لاتقف**) بحذف المضاف وهو المدة أي: إذا لم يمكن رؤية الحق تعالى، ومشاهدته مع وجود الهوى والميل إلى الخلق، فلا تقف أيها السالك الطالب للحق مع الخلق، ولا تميل إليهم وتريهم معدومة صرفة مدة دوامك في طلبك الحق تعالى؛ لأنك متى تميل إلى شيء تحبه، وإذا أحببته تشتغل به، وإذا انشغلت به فتؤثره على غيره، ولذا قيل: إذا أردت اشتغال عوالملك عن شيءٍ فآثر عليه مقابله، فإن أردت ترك الدنيا فآثر عليها الآخرة، وإن أردت ترك حظوظها فآثر عليها الحق، وأن أردت ترك حظوظ نفسك فآثر عليها العبودية لله تعالى.

وقد ورد فيما أوحي إلى بعض الأنبياء: إن كنت تحبني فاخرج حبَّ الدُّنيا عن قلبك فإنهما لا يجتمعان معًا، فمن كان مع الأكوان، فكيف يشهد المكون؟، والحق تعالى لا يحب الهوى والقلب المشترك، كما لا يحب العمل المشترك، والقلب المشترك هو الذي دخله الميل إلى الخلق، والأنس بهم، والوقوف معهم، وهذا القلب لا يقبل، وما لا يقبل فهو مردود؛ لأنه تعالى لا يرضى بالشرك قال تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**[1]»، والقلب إيوان الملك ويسعه، فلا ينبغي أن تجعل غيره شريكًا له فيه، فالوقوف مع الخلق حجاب لك من الوصول إلى الحق، فمن لم يجد الحق تعالى ما وجد شيئًا، ومن وجده ما فقد شيئًا، فإذا كان الالتفات إلى الغير حجابًا فالرضا به كذلك بالأولى، وقد خاب من رضي دونه بدلاً.

وقال الله: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾ [الذاريات: ٥٠].

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (٢٢٩٨/٤)، وابن ماجة في السنن (١٤٠٥/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٩/٥).

وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١]، والخلق إن دعاك إليهم ظاهرهم فقد نهاك عنهم باطنهم، والله تعالى وسم الدنيا بالوحشة والأغيار والأكدار تزهيدًا للمريد فيها، ويأنس بالواحد العزيز الغفار.

٢٠ - السائر إلى الله منقطع برؤياه.

فمن سار إلى الله ينقطع عن سيره برؤية ما سواه، وينقطع عن الخلق برؤياه، كما قال قُدِّس سرَّه: (**السائر إلى الله منقطع برؤياه**) أيّ: الذي يسير إلى الله لله بالله منقطع، ومُعرض عن جميع الخلق من المحسوسات، والمعقولات، والجسمانيات والروحانيات بسبب رؤيته الحق تعالى (**فالباء**) سببيه، والضمير لله تعالى، فيفيد أن الانقطاع عن الخلق إنما يكون بالرؤية، وقد مرَّ أنه مُحال أن يراه، ويشاهد معه سواه، وكما أن الانقطاع إنما يكون بالرؤية، فكذلك الرؤية إنما تكون بالانقطاع، لكن هذا الانقطاع اختياري، والأول اضطراري وشتان ما بينهما فلا توقف ولا دور.

ويحتمل أن يكون الضمير في (**برؤياه**) راجعًا إلى السائر لا إلى الله تعالى، ويكون المتعلق المقدر المنقطع عن السير لا عن الخلق أي: هذا اللفظ دون ذاك فيكون المعنى السائر إلى الله تعالى منقطع عن سيره بسبب رؤيته نفسه؛ لأن السالك الذي يسلك بنفسه، ويرى في سلوكه وجوده مردود، والطريق عليه مسدود، وهو المراد بقول السلطان أبي يزيد طيفور البسطامي قُدس سره: (السالك مردود، والطريق مسدود)، فلا ينافي قول النبي ﷺ: «**من طلب الله وجده**[1]»؛ لأن مراد أبي يزيد السالك بنفسه.

ومراد النبي ﷺ: الطالب بالله أو بمن هو بالله، فاندفعت المنافات، وزالت الشبهات فيما ذكر وتطايره فافهم والله أحكم وأعلم.

٢١- من قنع بخالص الحلال، يُرجى له الكمال.

ثم إن منشأ المذكورات من الاتِّصاف بالصفات الروحانية وغيره مما ذكر تناول الحلال؛ إذ به ينال العبد ما ينال، ويحصل له الكمال، كما قال قُدِّس سرّه:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/١٠٩) بنحوه.

(من قنع بخالص الحلال، يُرجى له الكمال) أي: الذي يقنع بالحلال الخالص، وهو الطيب الخالص عن تبعه العذاب يوم القيامة غير ممتزجة بنقمة الآخرة، ومبعد للنفس والقلب عن الحق تعالى يرجى لذلك الرجل الموصوف بما ذكر الكمال الذي هو غاية المنال، ومطلوب بكل حال وعلى كل حال، والله تعالى تفضَّل على الطائع بأكل الحلال ليقيمه بين يديه ليلاً ونهارًا وأكله يلين قلبه ونور، فلا تحتجب عن دخول الحضرة، كما ورد في الحديث، وإن صلواته مقبولة ودعواته مجابة، ولا يكون غافلاً عن ذكر الله والتوبة في كلّ نفس وبه تزكوا الجوارح ويصفى القلب.

وقال أبو محمد سهل التستري رحمه الله[1]:

---

(١) هو السيد الجليل والعارف بالله تعالى أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن رفيع التستري ﷺ، أحد أئمة القوم، ومن أكابر علمائهم المتكلمين في علوم الخواص، ويقول فيه أعيانهم: (سهل للسيادة أهلٌ)، صحب خاله الجنيد ومحمد بن سوار، ولقي ذا النون، وأخذ الأكابر عنه طبقةً بعد طبقة، وطبق الأرض من علم الحقائق، فحسده فقهاء بلده، فقاموا عليه، ونسبوه إلى قبائح بسبب قوله: (التوبة فرضٌ على العبد في كل نفس)، ولم يزالوا به حتى أخرجوه من بلده إلى البصرة، فمات بها، وحفظ القرآن وهو ابن سبع، وكان يُسأل عن مسائل الزهد والورع ومقامات الإرادة وفقه العبادة وهو ابن عشر، ولم يبرز للناس حتى وقع له الإذن من الله، وكان إذا جاع قوي، وإذا شبع ضعف.
قال عنه الشيخ الأكبر ﷺ: (وكان بدء سهل في هذا الطريق سجود القلب، وكم من وليٍّ كبير الشأن طويل العمر مات وما حصل له سجود القلب! ولا علم أن للقلب سجودًا مع تحققه بالولاية، ورسوخ قدمه فيها، فإن سجوده إذا حصل لا يرفع أبدًا من سجدته، فهو ثابتٌ على تلك القدم الواحدة، التي تتفرع منها أقدامٌ كثيرةٌ، وأكثر الأولياء يرون تقلُّب القلب من حالٍ إلى حالٍ، وصاحب هذا المقام وإن تقلبت أحواله فمن عينٍ واحدةٍ هو عليها ثابتٌ، يعبِّر عنها بسجود القلب، ولهذا لما رأى سهل في ابتداء دخوله الطريق أن قلبه سجد وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقي حائرًا، فما زال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته فما وجد أحدًا يعرفها، فإنهم أهل صدقٍ لا ينطقون إلا عن ذوقٍ محقق، فقيل له: إن في عبدان شيخًا معتبرًا، لو رحلت إليه؟ ففعل؛ فقال له: أيُّها الشيخ، أيسجد القلب؟ فقال: إلى الأبد، فوجد شفاءه عنده؛ فلزم خدمته، فالله تعالى يؤتي ما شاء من علمه من شاء من عباده: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [غافر: ١٥].
وكان مذهبه ﷺ التحري في الحلال، فلم يوجد في زمنه من يدقق فيه مثله، وفي ذلك قال ﷺ من باب التحدث بنعمة الله: أنا حجَّة الله على الخلق، وأنا حجَّة الله على أولياء زماني. فبلغ ذلك أبا زكريا الساجي وأبا عبد الله الزبيري؛ فذهبا إليه، فقال له أبو عبد الله الزبيري، وكان جسورًا؛ لأنه كان ضريرًا: بلغنا عنك أنك تقول: أنا حجَّة الله على الخلق، وأنا حجَّة الله على أولياء زماني، فبماذا
=

=
صرت، هل أنت نبيٌّ أو صدّيقٌ؟ فقال ﷺ: لم أذهب حيث ظننت، ولست أنا نبيًّا، إنما قلت هذا؛ لأنني صححت أكل الحلال دون غيري. فقال له: وأنت صححت الحلال. فقال ﷺ: نعم، لا آكل دائما إلا حلالاً. فقال له الزبيري: وكيف ذلك؟ فقال له ﷺ: قسَّمت عقلي وقوتي ومعرفتي على سبعة أجزاء، فأترك الأكل حتى يذهب منها ستة أجزاء، ويبقى جزءٌ واحدٌ، فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتتلفَ معه نفسي أكلت بقدر البلغة؛ خوفًا أنْ أكون أعنت على نفسي؛ ولترد علي الستة الأخرى، فبهذا صحَّ لي الحلال. فقال الزبيري: نحن لا نقدر على المداومة على هذا، ولا نعرف أن نقسِّم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاء، واعترف بفضل سيدنا سهل ﷺ.

ومن كلامه ﷺ: من لم يكن مطْعمه من الحلال لم يُكشف عن قلبه حجابٌ، وتسارعت إليه العقبات، ولا تنفعه صلاته ولا صومه.

وقال: أصول طريقنا سبعةٌ: التمسك بالكتاب والسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق.

وقال: العيش أربعةٌ: عيش الملائكة بالطاعة، والأنبياء في العلم وانتظار الوحي، والصديقين في الاقتداء، وسائر الناس في الأكل والشرب كالبهائم.

وقال: الدنيا حرامٌ على صفوة الخلق، لا يتناولون فيها إلا بقدر الضرورة.

وقال: السرور بالله هو السرور، والسرو بغيره هو الغرور.

وقال: العلوم ثلاثةٌ: علمٌ ظاهرٌ يبذل لأهل الظاهر، وعلمٌ باطنٌ لا يظهر إلا لأهله؛ خوف الفتنة، وعلمٌ بين العبد والربِّ يستحيل إظهاره لأحد من الخلق.

وسئل عن الاسم الأعظم، فقال: أروني الأصغر أريكم الأعظم، أسماء الله كلها عظيمةٌ، اصدق؛ وخذ أيَّ اسم شئت يفعل معك.

وقال: إن الله حجب عقول الخلق بحجب لطيفة، فحجب العلماء عنه بالعلم، والزهّاد بالعمل، والحكماء بلطائف الحكمة، أما العارفون فأسكن قلوبهم من نور معرفته، فلم يحجبهم بشيء.

وسئل ﷺ عن ذات الله ﷻ فقال: ذاتٌ موصوفةٌ بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودةٌ بحقائق الإيمان من غير حدٍّ ولا حلول، وقد حجب سبحانه وتعالى الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلَّهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والأبصار لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون من غير إحاطة ولا إدراك نهاية، وله ﷺ ذكرٌ عظيم الشأن، جرَّبه أهل العرفان.

وقال عنه شيخنا ابن العربي ﷺ: دخلتُ به الخلوة، ففتح لي به في ليلة واحدة، وفيه أسرارٌ عجيبةٌ وأذواقٌ غريبةٌ، ومن أكثر ذكره حُبِّبَت إليه الطاعات، وبُغِّضَت إليه المنكرات، ومَن ذَكَرهُ سبع مرات وهو في فراشه وجد له حلاوةً في سِرِّه، وهذا الذكر هو: (اللهُ مَعِي، اللهُ ناظرٌ إليَّ، اللهُ شاهدٌ عليَّ).

وله ﷺ تصانيف نفيسةٌ، منها ((رقائق المحبين ومواعظ العارفين))، و((جوابات أهل اليقين))، و((المعارضة والرد على أهل الفرق أهل الدعاوى في الأحوال)). ومات قُدِّس سرُّه سنة ٢٨٣هـ، نفعنا الله به، آمين. وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (١٠/١٨٩، ٢١٢)، وصفة الصفوة (٤/٤٦، ٤٩)، طبقات الشعراني (١/٩٠)، والشذرات (٢/١٨٢)، والرسالة القشيرية (١٨).

«مَن أكل الحلال وكفَّ أذاه عن الخلق وصل، و لم يحجب عن مشاهدة الملكوت».

وقال أيضًا: «مَن لم يكن طعامه من حلال لم يكشف عن قلبه حجاب، وتسارعت إليه العقوبات، ولا تنفعه صلواته، ولا صومه، ولا صدقاته بخلاف من كان طعامه من الحلال».

وقال بعضهم في الشاب إذا تعبد الله تعالى: يقول الشيطان لإخوانه: انظروا إلى طعامه فإن كان سوء يقول: دعوه فقد كفاكم نفسه، وللحرام ضرر عظيم للكل من الخواص والعوام وغيرهما ومثله الشبهة، فللعوام وقوعهم في أعمال مذمومة لم تكن لهم عادة بفعلها، وللمريدين قساوة القلب، وثقل في الطبيعة، وللمتوسطين الغفلة عن مصالح الدين، وللكاملين الغفلة، وكثرة الخواطر التي لا نفع لهم فيها، وللمكملين منع الدخول في الحضرة بقلوبهم في الصلاة وغيرها، وللقطب والإمامين والأوتاد والأبدال أمورهم يعرفون بها وروي: «**أنه لن يدخل الجنة لحم ودم نبتا على سحت، فالنار به أولى**[1] ».

وروي أنه: «**لا يدخل الجنة جسد غذي بحرام**[2]».

الأول: رواه الترمذي عن كعب ابن عجرة، والثاني أبو يعلي وغيره عن أبي بكر ﷺ.

فمَن أكل الحرام الصرف يصدر منه ما هو حرام صرف من الأفعال والأقوال والخواطر، وإن أكل مكروهًا وقع منه ما هو المكروه من المذكورات، وإن أكل غير ما هو الأولى يقع منه خلاف الأولى، ومن أكل الحلال لا يقع منه شيء من المذكورات، فلا يعصي الله تعالى، ومن لا يعصي لا يبلى جسده تحت التراب كالأنبياء، وكذا الأولياء الذين ما وقع منهم مخالفة الله ورسوله وكذا يُبلى ثوبه، على ما حكى سهل التستري ﷺ أنه قال: قد اجتمعت بواحد من أصحاب عيسى عليه السلام في ديار قوم عاد فسلمت عليه فردَّ علي السلام فردت عليه حية صوف فيها طراوة، فقال: إنها عليّ من أيام المسيح عليه السلام، فتعجبت من ذلك فقال: يا سهل إن الأبدان لا تخلق الثياب إنما تخلقها رائحة الذنوب

(١) رواه الترمذي (٢/٥١٢)، والحاكم في المستدرك (٤/١٤١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ١٣٥)، و الطبري في التفسير (٤/٥٧٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/٣١).

(٢) رواه البيهقي في الكبرى (٣/٣٤٦)، وذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ (١/٣١٣).

ومطاعم السحت، فقلت: فكم لهذه الجبة عليك؟ فقال: لها عليّ ستمائة سنة.

فقلت له: هل اجتمعت بنبينا ﷺ قال: نعم وآمنت به حين آمن به الجن الذين أوحى إليه في حقهم :﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن:١] الآية.

وقال بعضهم: ما رأيت بالتجارب شيئًا يطرد النوم كأكل الحلال.

وفضائل أكل الحلال كثيرة.

ولذا يُرجى لآكله الكمال، والحرام بضده فلا يرجى لآكله ذلك.

وأحسن الحلال ما يكون من الكسب الذي لا يكون فيه غش، فإن الغش حرام ومُحرم في الحديث: «**من غشنا فليس منا**[1]»، وفي رواية (غش)، وقيل: البركة في التقوى، والفقر في الغش قال بعض: الكسب المشروع الذي أباحه الشرع الشريف من الزراعة والصناعة والتجارة ملحق برتبة الإيمان، فهو واجب وجوبًا مؤكدًا كالإيمان، وقال بعض: فرض كفاية.

وقال بعضهم: سنة مؤكدة، وقال آخر: سنة.

وقال بعضهم: حرام، والكل حق لا مطلقًا، بل بالنسبة فمن يقع في المحرمات بتركه يجب عليه أو عليه مؤنة الغير، فلا شيء يقوم بها عنده وإن أمكن وجوده من غيره ففرض كفاية، أو يعمُّ الحاجة إليه كالزراعة، فكذلك من جهة أنه قيل: بوجوبه سُنَّة مؤكدة، ومن جهة امتثال الأمر سُنَّة كالدعاء، وإن كان للتكاثر أو التفاخر فحرام.

وقال صاحب تحفة الملوك: الكسب كالعلم وهو أربعة أقسام:

فرض، ومستحب، ومباح، وحرام.

الأول: كسب أقل الكفاية.

والثاني: الزائد عليه لمواساة الفقراء وصلة الأقرباء.

---

(١) رواه مسلم (١/٩٨)، وابن ماجة في السنن (٢/٧٤٩)، وأحمد في المسند (٢/٥٠)، وابن حبان في الصحيح (٢/٣٢٦).

وقال: إنه أفضل من النوافل، والثالث الزائد عليه لكن للتنعم والتجمل.

والرابع: ما كان للتكاثر والتفاخر، والآية ناطقة بالكسل.

وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

قال بعضهم: وجوبًا، ومنهم الشيخ الكامل إبراهيم المبتولي شيخ شيخ الفاضل الكامل عبد الوهاب الشعراني: وهو الخواص، وذكروا أحاديثًا دالة على الكسب وعدم جواز تركه، وقال بعض ندبًا كما في قوله تعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

هذا كله في المريد دون الكامل لانشغاله بالله كل الاشتغال، ومع هذا يجب على الكاسب أن لا يعتمد على كسبه، ولا يرى أثر لكسبه في تحصيل الرزق، والوصول إليه، ويرى الفضل له تعالى وحده، وإلا فهو مشرك بالله وهو لا يشعر(١).

---

(١) قال سيدي الشعراني: ومن أخلاقهم: كثرة التباعد عن أبناء الدنيا، لاسيما إن نهاهم شيخهم عن ذلك؛ لأن المريد لضعفه يسرق طبعه من طباع أبناء الدنيا، فيصير في طلب الدنيا وشهواتها كأحدهم ولو غلط، كما هو مشاهد فيمن يخالط الفقراء على صدق، فيصير يزدري لبس الجبة التي كان يلبسها في الزاوية والطعام الذي كان يأكله فيها، ويطلب أهلي من ذلك، ولا يتيسر له ذلك إلا بالدخول في الكسب بطريق حلال أو حرام، فيتلف ويخرج من طريق الزهد والقناعة التي كان عاهد شيخه عليها، وقد وقع مثل ذلك لبعض من خرج من طاعتي من المجاورين، فينقطع عن مجالس الذكر والعلم وتلاوة القرآن، وصار عليه ظلمة من شدة المقت، ولو أنه كان أطاعني وقنع بما في الزاوية من اللقمة والخرقة لكان عليه وعلى ثيابه النور، كالجماعة المقيمين في الزاوية، فلا حول ولا قوة ولا سعادة إلا من الله العلي العظيم.

وقد كان سيدي محمد الغمري ﷺ يكره للفقير النظر إلى تحسين ثيابه، والجلوس على باب المسجد أو شباكه الذي على السوق، ويقول: إن ذلك يشغل قلب الفقير عن اتّباع طريق القوم، فعلم أن كل فقير نهاه شيخه عن مثل ذلك، أو فرض له به وخالف فهو كذابٌ مخذولٌ ممقوتٌ، ولا يجئ منه شيء في الطريق.

فاعرض يا أخي ذلك على من يدّعي الصدق من إخوانك تعرف حاله، ولا تنسَ نفسك، والحمد لله رب العالمين. وانظر: الكوكب الشاهق (ص٩٤) بتحقيقنا.

قال الشيخ الفاضل الشعراني قدس سره[1]: عليكم بالكسب، وإمساك الدنيا بعد الزهد فيها على وجه الأدب مع الله تعالى، وللحكمة التي جعلها في إمساكها لا محبة في ذاتها كما كان عليه السلف الصالح من الصحابة فإنهم جمعوا بين الضرتين، وقاموا بينهما بالعدل والقانون الشرعي وقيد الحلال بالخالص؛ لأن معناه الحلال الخالص؛ لأنه من إضافة الصفة إلى الموصوف كجرد قطيفة أي: قطيفة جرد ثوب جرد بفتح الراء أي: خلق والقطيفة دثار مخمل والجمع قطائف وقطف بضمتين كذا في القاموس.

وقوله:(**يرجى له الكمال**)، وما قال: يكون له الكمال إشارة إلى أن القناعة وحدها ليست موجبة لكمال، بل تحتاج إلى شيءٍ آخر من عدم امتناع تعلق المشيئة بالكمال فإنها لا تتعلق بكمال الكل؛ لأن الأعيان الثابتة متفاوتة الاستعداد بعضها قابلة للكمال، وبعضها غير قابلة له، وعلمه تعالى على ما ذهب إليه الشيخ قدس سره: تابع للأعيان لا يتعلق بها إلا على ما هي عليه في أنفسها، ومشيئته تابعة للعلم فما كل أحد عينه الثابتة مقتضية للكمال، فلا يتعلق بها العلم على هذا الوجه، فلا تتعلق المشيئة أيضًا لكونها تابعة له.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩] (لو) فيه لامتناع التالي لامتناع المقدم أي: (لو) حرف يدل على امتناع التالي لامتناع المقدم، فيكون معنى الآية امتناع هداية الكل لامتناع تعلق المشيئة بها.

وهكذا نظائره كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [فاطر:١٦]الآية.

---

(١) هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفا بن الشيخ موسى، ولد على أصح الروايات وأشهرها في ٢٧ رمضان عام ٨٩٨ هـ ببلدة قلقشندة وهي قرية جده لأمه، ثم انتقل بعد أربعين يومًا من ولادته إلى قرية أبيه ساقية أبي شعرة وإليها انتسب، وعُرف بهذا اللقب واشتهر به وإن كان هو قد سمّى نفسه في مؤلفاته بالشعراوي، توفي والده قبل أن يبلغ العاشرة، فنشأ يتيمًا من الأبوين، وكان الله وحده كما يقول هو نصيره ووليه، جاء إلى القاهرة عام: ٩١٠ هـ، وكان صوفيًا في منهجه أخذ نفسه به طوال حياته، يقول في المنن: إن من منن الله عليَّ أن ألهمني مجاهدة نفسي من غير شيخٍ منذ طفولتي.

من تصانيفه: الدرة المنثورة في زبد العلوم المشهورة، وشرح جمع الجوامع للسبكي، والمقدمة النحوية في علم العربية، والبحر المورود في المواثيق والعهود.

فامتناع إذهابكم، وإتيان خلق آخر لامتناع تعلق المشيئة بهما إذ مقتضى الأعيان لا تتبدل، وأيضًا إشارة إلى أن لغير القناعة بالجلال الخالص دخلاً في الكمال مثل الإخلاص والصدق وغير ذلك من الصفات الكمالية، ولذا أردفه بذكر إخلاص النية أولا، ثم الفناء ثانيًا؛ لأنهما من أعظم الصفات الكمالية وأعمها كالأول.

٢٢- من أخلص لله نيته تولاه الله وملائكته.

فقال قُدِّس سرّه: **(من أخلص لله نيته تولاه الله وملائكته)**:

الإخلاص[1] والصدق كلاهما بمعنى واحد، وهو ضدُّ الرياء أو الصدق سر الإخلاص؛

---

(١) قال الشرقاوي: قيل لسهل بن عبد الله ﷺ: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، وكم أجهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت فيه على لون آخر.

قال أبو طالب ﷺ: والإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الخالق، وأول الخلق النفس.

وعند المحبِّين: ألا يعمل عملاً لأجل النفس، وإلا يدخل عليه مطالعة العوض، أو تشوف إلى حظ طبع.

وعند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال، وترك السكون والاستراحة بهم في الأحوال انتهى.

فإذا حمل العبد في نفسه وألزمها التواضع والمذلّة، واستمرَّ على ذلك حتى صار له خلقًا وحيلة بحيث لا يجد لضعته ألمًا ولا لمذلته طعمًا زكت نفسه واستنار بنور الإخلاص قلبه، ونال من ربه أعلا درجات الخصوصية، وحصل أوفى حظ ونصيب من المحبة الحقيقية، فهذا لا يكره الذم من الخلق؛ لوجود النقص في نفسه ولا يحب المدح منهم؛ لفقد القدر والمنـــزلة في نفسه، فصارت الذلة والضعة صفة لازمة له، لزوم العرض للجوهر، فإن كان مع الله تعالى بالذل طلبه واستحلاه، كما يطلب المتكبر العز ويستحليه إذا وجده، فإن فارق ذلك الذل ساعة لغيَّر قلبه لفراق حاله، كما أن المتعزز إن فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه؛ لأن ذلك عيش، فإذًا لا بدَّ للمريد إسقاط جاهه وإخمال ذكره، وفراره عن موضع اشتهاره وتعاطيه أمورًا مباحة تسقطه من أعين الناس، كقصة السائح الذي سمع به ملك زمانه فجاء إليه، فلما علم بذلك السائح استدعى بقلاً وجعل يأكله أكلاً عنيفًا بمرأى من الملك، فلما رآه على تلك الحالة استحقره واستصغره فانصرف عنه ذا ماله.

وقد بالغ بعضهم في مداواة علة الجاه الذي علِقَ في القلوب، حتى استعملوا في ذلك أشياء منكرة في ظاهر الشرع، ورأوا فعل ذلك جائزًا لهم ولغيرهم، وذلك مثل قصة الرجل الذي دخل الحمام ولبس

لأن كماله به وهو التبرأ من الحول والقوة، فالإخلاص لنفي الرياء، والصدق[1] لنفي

=

من فاخر ثياب الناس، بحيث تظهر ومشي بذلك متمهلاً بحيث يُرَى ويُظَن بذلك السرقة، فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه، ورموا الثياب عنه واشتهر عندهم بالسرقة، حتى كان يعرف عندهم بلص الحمام، فحينئذ وجد قلبه.

ومثل ما يُروى عن أبي يزيد ﵁ في قصة الشاهد، الذي أمره بحلق رأسه ومخلاته مغلقة في عنقه أيضًا، وإعطائه من ذلك لمن يصفعه من الصبيان، وطوافه على تلك الحال في المحافل والمحاضر ذكر ذلك أبو حامد الغزالي ﵁ وغيره.

وإذا جاز لمن غصّ بلقمة حلال أن يسيغها بالجرعة من الخمر إذا لم يجد غيره، مع أن تحريمه مقطوع به ولا يفوته بترك الجرعة إلا حياة فانية، فلأن يجوز مثل هذا إذا تعين عليه أولى؛ إذ يفوته بترك المنكر في ظاهر الشرع الحياة الباقية والقرب من الله تعالى، فإذا التزم العبد هذه الطريقة من الرياضات ماتت نفسه، وحيا قلبه وقرب من حضرة ربه، واجتنى ثمرة غرسه على غاية الكمال والتمام.

وتلك الثمرة أخلاق الإيمان، التي تكيفت بها نفسه وصارت كصفاته ذاتية له، وهي نتيجة الحكمة التي أنبتها الله في قلوب عباده المتواضعين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة:٢٦٩].

(١) قال الشرقاوي ﵁: ومراتب الصدق مختلفة: أوسطها استواء السر والعلانية، وأعلاها كون السر أحسن من العلانية، وأدناها عكس ذلك، وهو من أشرف الصفات قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣].

وقال ﷺ: «عليكم بالصدق، فإنه باب من أبواب الجنة، وإياكم والكذب فإنه باب من أبواب النار، واسلموا لله اليقين والمعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرًا من المعافاة، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا، وكونوا عبادًا لله إخوانًا كما أمركم الله».

وعنه ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا».

وعنه ﷺ: «تحروا الصدق، وإن رأيتم أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة، واجتنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة».

=

=

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ سئل عن الكمال؟ فقال: «**قول الحق، والعمل بالصدق**».

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «إني إذا أحببت عبدًا ابتليته ببلاء لا تقوم له الجبال؛ لأنظر كيف صدقه؛ فإن وجدته صابرًا اتخذته وليًا وحبيبًا، وإن وجدته جزوعًا يشكوني إلى خلقي خذلته ولم أبالِ»، فكتمان المصائب من علامات الصدق، وكذا كتمان الطاعات وكراهة اطّلاع الخلق عليها.

ودرجة الصديقين أعلى الدرجات بعد النبوة قال تعالى: ﴿**فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ**﴾ [النساء:٦٩].

وقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً**﴾ [مريم:٤١].

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ**﴾ [الزمر:٣٣]: يعني محمدًا ﷺ، ﴿**وَصَدَّقَ بِهِ**﴾: يعني أبا بكر رضي الله عنه، فإنه صدَّق النبي ﷺ.

ولذا قال عليه السلام: «دعوا لي صويحبي فإني بُعثت إلى الناس كافةً، فلم يبقَ أحدٌ إلا قال لي: كذبت إلا أبا بكر فإنه قال لي: صدقت».

وقال ﷺ: «**قلت لجبريل ليلة أسري بي: إن قومي لا يصدقوني فقال: يصدقك أبو بكر وهو الصدِّيق**».

وعنه ﷺ: «**يا أبا بكر إن الله سمَّاك الصديق**».

والصدق عند العارفين: حالة ينشأ عنها الفعل بالهمة فيُقال: فلان من أهل الصدق إذا كانت الأشياء تنفعل عن همته.

قال في الفتوحات في الباب السادس والثلاثين ومائة ما معناه: الصدق قوة الإيمان، ولصاحب الفعل بالهمة، قيل لأبي يزيد: ما اسم الله الأعظم الذي تنفعل به الأشياء فقال: أروني الأصغر حتى أريكم الأعظم ما هو إلا الصدق أصدق وخُذْ: أي اسم شئت، فإن أسماء الله تعالى كلها عظمة، وهو نعت إلهي، ولا يكون الصادق صادقًا ما لم يقم به الصدق ذوقًا، فإذا قام به كان نائبًا عن الله في الأشياء، فلا يغلبه شيء منها توجه له بهمته، فإن لم يوجد منه هذا الحال فليس القائم به هو الصدق الذي هو النعت الإلهي، بل أمر ظهر بصورته كظهور الشبهة بصورة الدليل.

وله حال ومقام: فمن تعلّق صدقه بالكون من حيث التأثير فيه كان صاحب حال. ومن تعلّق صدقه بالله تعالى كان صاحب مقام؛ لعدم الأثر عنه، فإنه تعالى ليس محلاً لتأثير غيره فيه، فيكون صاحب هذا المقام صادق التوجه إلى الله تعالى.

=

العجب، فلا كمال لعمل إلا بهما فيجب على السالك تصحيح العمل بالإخلاص، وتصحيح الإخلاص بالتبرأ المذكور.

قال أبو طالب المكي ﷺ: «إخلاص المخلصين أخرج الخلق من معاملة الحق وأولهم النفس، وإخلاص المحبين عدم العمل لأجل النفس حتى لا تتطرق إليه مطالعة، وميل الحظوظ، وإخلاص الموحدين عدم النظر إلى الخلق في الأفعال، وعدم السكون، والاستراحة في الأحوال».

أي: الذي أخلص نيته أي: جعلها خالصة لله تعالى بأن لا يرى نيته نية لنفسه، بل لله وحده بقرنية ما مرَّ من قوله: «خف من كل مالك فيه نية، ولو كان طاعة».

أو المراد بجعلها خالصة له أن لا يشاركه في المنوي أو نية المنوي غيره تعالى بأن لا يكون قصده بصومه مثلاً مدح الناس أو إحسانهم أو دخوله في الجنة أو دجاته العالية وغير ذلك، بل يكون القصد بالعمل رضاء الحق تعالى، فحقًا تولى الله تعالى إياه، ويتصرف فيه ظاهرًا وباطنًا، ويصير وليًا ومحبوبًا له تعالى، وكذا ملائكة الحق يتولونه، ويتصرفون أموره،

=

فإن ظهر عنه أثر في الكون كان من غير قصد، بل أجراها الله تعالى على لسانه أو يده بغير اختياره فلا يخرجه عن مقامه، فإن آثر عن قصد وعلم وادعى أنه صادق مع الله فهو إما جاهلاً بالأمر أو كاذبًا، فحال الصدق يناقض مقامه، ومقامه أعلا من حاله في الخصوص، وحاله أشهر وأعلا في العموم.

وكان الإمام عبد القادر الجيلي ﷺ على ما ينقل إلينا من أحواله حاله الصدق لا مقامه، وصاحب الحال له الشطح، وكذلك كان ﷺ.

وكان الإمام أبو السعود بن الشبلي تلميذه مقامه الصدق لا حاله، فكان في العالَم مجهولاً؛ لتمكنه من مقام الصدق مع الله، نقيض الشيخ عبد القادر فإنه كان محققًا متمكنًا في حال الصدق، فظهرت على يديه الخوارق، وكان مشهورًا في العالَم رضي الله عنهما فما سمعنا في زماننا مثل الأول في مقام الصدق، ولا مثل الثاني في حاله، فالصدق الذي هو نعت إلهي لا يكون إلا لأهل الله تعالى، والصدق المعروف عند الناس سار في كل صادقٍ من مؤمنٍ وكافرٍ، وهو ظل الأول كظل الشخص بالنسبة له انتهى.

فلا تكون راحة القلب عنه زائلة ولا يزال محبوبًا لدى الخلق؛ لأن من أحبه الله تعالى أحبه كله، كما أن من لان لله ألان الله له كل شيء فلا يؤذيه أحد، وإن أراد به حاسد فلا يضره حسده، ويجعل كيده في نحره فلا يتعب في شيء، ولا ينازع مع أحد، ولا يحزنه الفزع الأكبر قال تعالى: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [يونس: ٦٢].

فهم في مقام الجمع بل جمع الجمع(١) فخرجوا عن حولهم وقوتهم ولا يرون فعلاً لأنفسهم، بل يرون الأفعال من الله تعالى منة عليهم، فلا يتعبون في الأعمال، ولا يحاسبون، ولا ينصب لهم الميزان، ويعبرون على الصراط من غير شعورهم به وما قيل من أنه: لا يأمن أحد إلا بوضع القدم في الجنة على تقدير فهو في حق غيرهم من العاصين، وأمَّا غيرهم فهم أحباء الله تعالى، فكيف يحزنهم الفزع الأكبر؟ فإذا لم يحزنهم هذا فكيف بغيره؟ مع أن منهم من المحبوبين لا من المحبين، والمحبوب من شأنه طلب الأعواض والأغراض، والمحب من شأنه أن لا يطلب الأغراض والأعواض، قال ابن العطاء الأسكندري في حِكَمه: ليس المحب الذي يرجو من محبوبه عوضا أو يطلب منه غرضًا، فإن المحب الذى يبذل لك لا الذي يبذل له، ولله در ابن الفارض ﷺ حيث قال:

في حـــب مَن يهواه ليس بمسرفِ مَـــا لِـــي سوَى نفسي وبَاذل نفسه
وياخيـــبة المسسعى إذا لم تُسْعِف فلـــئن رضـــيتُ بِهَـــا فقد اسعفتنِي

يقال: أسعف حاجته أي: قضاها له، وأسعف دنا وكلاهما محتمل، و(المسعى) مصدر ميمي بمعنى السعي، وهذا كله من الإخلاص، ولا يصل أحد إلى المرتبة العليَّة، والمقامات السنية إلا به وهو بالمعنى الأول من معنى الكلام موقوف على الفناء، وبالمعنى الثاني يترتب عليه الفناء وذلك؛ لأن خروج العبد من نيته لا يكون إلا بالفناء ،وإخلاصه النية لله تعالى وسيلة له، ولذا يطلب الإخلاص بالمعنى الأول من المقربين لفنائهم في الله دونه بالمعنى الثاني؛ إذ لا حاجة لهم إليه بهذا المعنى، وإنما يطلب من الأبرار لأن يتخلصوا من أكدار النفس، ويشاهدوا الحق ويفنوا عما سواه فيدخلوا في مقام المقربين، وينجوا عن التعب والعناء مثلهم فلا يأتيهم الأذى، ولا السجن المفهومان من حديث: «**لو دخل المؤمن في**

(١) الجمع: إشارة إلى الحق بل يكون، ويسمى جمع التمحض، لا تطرأ الصور الكونية في الحق وانطماس كثرتها في وحدية، وانجلاء عينه لدى الغير، بإطلاق لا يبقى معه غير.

حجر ضب لقيض الله له فيه من يؤذيه[١]».

وحديث:« **الدنيا سجن المؤمن**[٢]»، فإنهما في حق الأبرار دون المقربين فلما تقرر ذكر بعد الإخلاص الفناء وما يتعلق به.

٢٣- حجبت عنه بك، ولو فنيت عنك به رأيته معك.

فقال: مقدمًا لـــمَا به الحجاب عما به الرؤية؛ لأن معرفة الشيء بضده: (**حجبت عنه بك**) (**حجبت**) بالبناء للمفعول؛ لأن حجبه حجبًا وحجابًا ستره كحجبه، واللازم منه احتجب ويحجب، والحجاب ما احتجب به أي: سترك الله عن رؤيته، ومشاهدته بقرينة قوله الآتي: (**رأيته**)، وإلا فكلامه يحتمل تقدير غير الرؤية من المعرفة وغيرها فافهم وتأمل.

ولكن سترك بحجاب هو نفسك أي: رويتها بأن جعلك رائيًا ومشاهدًا لوجودك، فصارت رؤيتك حجابًا لك عن رؤيته، فأنت الحجاب والمحجوب؛ لأنه تعالى لا يصح أن يكون حجابًا ولا محجوبًا؛ لأنه المظهر لكل شيء، والظاهر بكل شيءٍ، وفي كل شيءٍ، ولكل شيءٍ، وقبل كل شيءٍ، وبعد كل شيءٍ، وعند كل شيءٍ، وليس معه شيءٍ، وهو مع كل شيءٍ وأقرب إليك من كل شيء فمن تجليه ظهور كل شيء، وأنت عدم أن الله خالق كل شيء فالكل منه وبه وإليه ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨] ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:٢٦] كان الله ولا شيء معه الآن على ما عليه كان[٣]،

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٦/٧)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١١١٣/٢) بنحوه.

(٢) رواه مسلم (١٨٦٠/٤)، والترمذي في (٥٦١/٤)، و ابن ماجه (١٣٧٨/٢).

(٣) فائدة جليلة: وفي «النفحات القدسية» للسيد عبد الله المحجوب الميرغني ما نصه: إذا منح الله تعالى عـــبده المحـــبة والعرفان وجذبه إلى أعالي مقامات الإحسان وتجلى له بكمال الشهود لا يرى إلا الإله المقصود ورسوله الذي هو عين الوجود ويتحقق في مقام الفناء كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان وينكشف له في مقام البقاء أن الرسول ﷺ كان و لم يكن معه شيء من الموجودات سوى رب الأرض والسماوات وهو ﷺ الآن على ما عليه كان مخصوص من السر بالتجلي الحقيقي من الله كما أنه سبحانه مخصوص بالوجود المشار له بلا إله إلا الله أي لا موجود أبد الأباد إلا رب العباد وما سواه فان وإن أبرزه الإيجاد فسبحان من تفرد بالوجود في سائر الأزمان وتنـــزه بكمال استغنائه عن المكان والزمان، وصلى الله على المخصوص بالتجلي الأعظم في سائر الأحيان وسلم على من انشق منه =

فمن العجب أن يكون العدم حجاب العدم، وأن يظهر الوجود في العدم، والنور في الظلمة

=

سائر الذوات والألوان، انتهى.

فهو سبحانه وتعالى: اللطيف الذي لا يدرك ولا يمثل.

والخفي الذي لا يعرف ولا يكيف ولا يعقل.

والأزلي الذي لا تحد أزليته بمتى.

والأبدي الذي لا تقيد أبديته بحتى.

لا يطلق عليه التعيين، ولا يتطرق إليه التأيين.

إن قلت: أين؟ فقد سبق المكان.

وإن قلت: متى؟ فقد تقدم الزمان.

وإن قلت: كيف؟ فقد جاوز الأشكال والأمثال والأقران.

وإن طلبت الدليل، فقد سبق الخبر بالنصب العيان عظم كما تكيفه العقول والأفكار والحواس وكبر كماتحكم به الأفهام والأوهام والقياس لا يصوره خيال ولا يشاكله مثال ولا ينوبه زوال ولا يشوبه انتقال، ولا يلحقه فكر ولا يحصره ذكر ولا تحويه الجهات والأقطار ولا يحيط بمشاهدته ومعرفته البصائر والأبصار ولا يعلم من حيث هويته وذاته ولا من حيث نفسه أبد الآبدين ودهر الداهرين ولا يحصل من العلم به في العالم الكوني إلا أن يعلم العالم أنه لا يعلم ولا يدرك البتة ولا يفهم وهذا القدر يسمى علماً ولا يعد جهلاً ولا شكاً ولا وهماً.

ولذا قال الصديق الأكبر وعلم هذه الأمة الأشهر: «العجز عن درك الإدراك إدراك» إذ قد علم المعترف بالعجز والتقصير أن في الوجود أمراً ما لا يعلم وهو الله اللطيف الخبير ولم يزل ولا يزال سبحانه إلى ما لا نهاية له قائماً بذاته متصفاً بمعاني أسمائه وصفاته منزهاً عن القيود الصورية والمعنوية، مقدساً عن قبول كل تقدير متعلق بكمية أو كيفية متعالياً عن الإحاطة الوهمية والحدسية والظنية والعلمية، محتجباً بكمال عزته عن جميع بريته الكامل منهم والناقص المقبل منهم إليه في زعمه والناكص غنياً بذاته عن الآثار الصادرة عن ذاته فأحرى عن غيره من جميع مخلوقاته، خلق العالم بما فيه وأخرجه من العدم على وفق ما سبق في علمه القديم بما قدر وحكم خلقه وأكن فيه أسراره وأوجد الإنسان الكامل وجعله قلب الوجود وجعل عليه مداره وعلمه الأسماء والمسميات كلها فعرف العالم وعرف أسراره تفاصيلها وجملها وحكم فيه بطريق المنة والفضل بما يوافق الإرادة الأزلية والعدل، وخصه واختصه بحضرة جماله القدسي لقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

وانظر: جلاء القلوب للكتاني (١/٤٩٥).

وقد كان ذلك؛ لأن ظهور النور يكون بالظلمة كما أن ظهورها بالنور، لكن بظهور النور تنعدم الظلمة وبظهورها يستتر النور، وفي الحقيقة لا يظهر بالنور إلا النور، فظهور الوجود بالوجود لا بالعدم وهذا هو القول ألا قوم.

فالله الله لا موجود إلا الله، بل الوجود هو الله والأشياء صور الوجود، وصورة الشيء ما به يدرك الشيء أو يحس، فصح أن الله تعالى خلق العالم على صورته، وخلق آدم على صورته فما دمت أنت احتجبت عنه ولا تراه **(ولو فنيت عنك به رأيته معك)** أي: ولو فنيت أيها السالك الطالب المريد لرؤيته تعالى عن وجودك وإرادتك بأن ظهر في قلبك نور من مصابرة الأعداء، والمرابطة على ثغر القلب ليلاً يدخل فيه الغير.

كما وقع للسلطان أبي يزيد البسطامي قُدِّس سرّه حيث صار حاجبًا على باب القلب عشرين سنة أو ثلاثين، ومنع ما سواه تعالى من الدخول فيه، فحقًا يقوّى ذلك النور فيفنيك عن وجودك الذهني، ولكن ليس هذا بنفسك، بل به تعالى أي: بإفنائه الأزلي ومن استعدادك الأصلي؛ لأن الفناء اختصاص إلهي غير كسبي حاصل للعين الثابتة في حضرة العلم من الفيض الأقدس الحاصلة به العين، واستعدادها فإذا فنيت عنك بإفناء الحق إياك يصفى لك الإقبال على الرب، فإذا صفى الإقبال تغيب عن وجودك العين أيضًا ولوازمه فيمتليء قلبك من نور التوجه فيستره عن رؤية ما سواه تعالى، ثم يسري من الباطن إلى الظاهر، فيعمُّ أجزاء الظاهر فيتشابهان، وحقًا يخلو قلبك من كلّ شاغل، وإذا خلى قلبك من الشاغل رأيته معك، وتتحقق حقًا بقوله تعالى:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، فتصير واحدًا للواحد الأحد، فتكون حقًا موحدًا حقيقة؛ لأنك أفردت القديم الحادث، ولا يصح التوحيد إلا بهذا قال العالم الرباني سيد الطائفتين الجنيد البغدادي قدس سره: لما سئل عنه إفراد القدم من المحدث، ثم أيد القول السابق بالكلام اللاحق تنهيضًا للسالك الصادق.

٢٤ - ما لم تفن بشريتك، وتموت لم تعرج معارج الملكوت.

فقال قُدِّس سرّه: **(ما لم تفن بشريّتك، وتموت لم تعرج معارج الملكوك)** أي: ما لم تعدم أيها السالك أوصاف بشريتك بأن تموت عنها، فالمضاف مقدر.

وقوله: **(وتموت)** بيان لإفناء البشرية، والمراد بالموت الإعراض عن متاع الدنيا،

ومقتضيات النفس، ويسمَّى الموت الإرادي، وهو الحاصل للسالكين قبل موتهم الطبيعي بالإعراض عما ذُكر[١].

كما قال النبي ﷺ: «**من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر** رضي الله عنه[٢]».

وقال أيضًا: «**موتوا**» أي: بالموت الإرادي «**قبل أن تموت**[٣]» أي: بالموت الطبيعي، فجعل ﷺ الإعراض المذكور موتًا، ولأجل أن الأعراض عن الدنيا وطيباتها، والامتناع من مقتضيات النفس ولذاتها موت ينكشف للسالك الذي يموت ما ينكشف للميت من معرفة الغيوبات، ومعرفة الأمر على ما هو عليه، فما لم يمت السالك بالخروج عن الدنيا، وتوابعها وعن النفس وشهواتها كالميت إذا مات لا يبقى له شيء مما ذكر، وتنقطع عنه علاقته بالكلية لا ينكشف له ما ينكشف للموتى، ولا يصعد مصاعد الملكوت أي: عالم الغيب فكيف برؤية الله؟ فلا يراه أبدًا، ويحصل من هذا الموت الحياة الأبدية والولادة الثانية.

---

(١) **قلت: ومنه الموت الكلي**: ومعناه الفناء في الحضرات الأربعة في ذات المتصف، وهذا عند الإطلاق يطلق عند المتصف مع مجموع الحضرات الموت؛ لأن الموت الأول نقلة وهذا الموت الكلي هو من حياة إلى حياة، فانتقل الشاهد بمجموع أوصافه من حياة التقييد إلى حياة الإطلاق لأنها تباين النقلة المعهودة المسماة بالموت في لسان العموم، وهذه نقلة تسمى فناء وهو البقاء الحقيقي بفناء الأشياء كلها، ولهذا قال: كلي لأن الكلّي لفظ ينطلق على المجموع فهذا كله في حال هذه النقلة الكلية بفنى أعيانها المتفردة وتبقى عيناً واحدة لذات واحدة تدرك صرف الإدراك الذي لا حجاب فيه وهذه صفة الإطلاق، ومنها يأخذ في التقييد ويعود الحضرات في حقه كالحال الأول عند الاتصاف لكنه مادام في مقام الإطلاق لا ينطلق عليه المذكور إلى أنقضاء آن آخر، فكأن الحضرات جمعت لهذا الشاهد في حال قوله جزئ وشهد فيها صورة الموت في الظاهر وصورة التمايز العلمي في الأولية وصورة الكمال في الباطن وصورة الإقرار في الآخر عند نقلة الكاملين من الباطن، فلما اتصف بها فنيت أعيانها في ذاته فانطلق عليها الموت لزوال عيانها وعلى الشاهد ففناء هذه الأعيان هو الكليّ المعبرَّ عنه، ومنه يقول الكامل: قد أعطيت سر الحياة من قوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:٢٦]، فلما ذكر الكل وجب أن يكون فناء أعيانها الظاهرة وبقاء ذاته الحقيقية، فعند اتصاف الشاهد بهذا الاسم يطلق على نفسه التسمية بالسر المذكور لأنه فني كل شيء في ذاته. وانظر: شرح المشاهد (بتحقيقنا).

(٢) ذكره المقري في نفح الطيب (٥/١٦٤).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/١٦٦٦).

وإليه أشار عسى الروح الأمين عليه، وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم إلى يوم الدين بقوله: لن يلج ملكوت السماوات والأرض من لم يولد مرتين وذلك؛ لأن الترقي من مقام إلى مقام أعلى بفناء الأول، والبقاء بالثاني، والثاني جزء الأول فافهم.

***

مطلب الموت على أربعة أقسام:

واعلم أن الموت في اصطلاح هذه الطائفة يطلق على أربعة أقسام: موت أبيض، وموت أسود، وموت أحمر، وموت أخضر.

فالأول الجوع ويسمَّى موتًا أبيضًا؛ لأن صفاء القلب وبياضه ومرآته من قلة الأكل، كما أن قساوته وصدأه من كثرة الأكل.

والثاني الصبر وتحمل الأذى؛ لأنه موت وعناء.

ويسمَّى أسود لشدته، ولحرمانه عن حظوظات النفس في هذا المقام، والثالث مخالفة النفس في غير ما أمره الله ونهاه، ويسمِّي أحمر لاحمرار وجه قلبه لحياته بالحياة الأبدية، وفي هذا المقام يحل له السماع من وجوه الأول موت النفس عن الصفات الذميمة.

ومن هنا إذا يموت واحد منهم يعملون السماع في عرسه، والثاني تهنئة القلب لازدواجه بالمعاني الغيبية، ومعاقدته الصفات الحميدة والسماع في إعلان النكاح سُنة.

قال النبي ﷺ: «**أعلنوا النكاح ولو بضرب دف**[1]».

والثالث إن النفس لما فتحت لها عين ترى بها الحق، وحصل لها سمع تسمع به الحق بمقتضى الآية الكريمة: ﴿**يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ [الزمر:١٨].

كل قول تسمعه في كسوة، وصوت مليح، ووزن موزون تفهم منه نداء ارجعي، وتدرك ذوق خطاب ألست فيزيد منه شوقها إلى جانب الحق المطلق، ويتكمل أعراضها عن الحق المقيد، والرابع القناعة والرضا بكلّ ما يُعطي إليه من اللذيذ وغيره والقليل وغيره

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/٢٤١) بنحوه.

والجديد وغيره ويسمَّى اخضرا؛ لأنه في هذا المقام يخضر بستان عيشه، ويحصل له عيش جديد، فالسالك ينبغي أن يموت بالموتات الأربعة حتى يصير قابلاً للعروج في مدارج الملكوت، ومستعد للانتقال إلى الجبروت والعظموت واللاهوت والناسوت، فيشاهد الحي الذي لا ينام ولا يموت، ولما كان الفناء مستلزمًا للمعرفة ذكرها عقبه.

٢٥ – لا تعرف الحق، وصفاته مما لم تشهد سره فيك، وآياته.

فقال قُدِّس سرّه: (**لا تعرف الحق، وصفاته مما لم تشهد سره فيك، وآياته**) الصفات، والآيات في (**صفاته وآياته**) منصوبان على المفعولية الأول لتعرف، والثاني تشهد وعلامة نصبهما الجر؛ لأن النصب في جمع المؤنث السالم محمول على الجرّ كما في التثنية وجمع المذكر السالم أي: لا تعرف أنت أيها السالك الطالب للمعرفة الحق سبحانه وتعالى يعني وصفاته؛ لأنه عطف تفسير حيث منعوا معرفة الذات إلا بالأسماء والصفات؛ لأن ذاته أحدية ولا تجلّي في الأحدية لكونه نسبة تقتضي الإثنينية أي: المتجلي والمتجلى له المتغايرين ذاتًا إن كان المُتجلى له غيره، أو اعتبارًا أن المتجلى له نفسه؛ لأنه حقًا كونه متجلي من وجه ومتجليًا له من وجهٍ آخر، والإ ثنينية منافية للأحادية، فالمراد: أنك لا تعرف الحق بصفاته أي: لا تعرف صفاته ما لم تشهد سره أي: سرّ الحق القائم به كل شيءٍ، أو سر الأُلوهية الموجود في كلّ شيءٍ، أو سر الربوبية، الذي لو زال عن الوجود وارتفع لبطلت الربوبية ضرورة بطلان أحد المتضايفين بالآخر ولو ظهر ودنى لبطلت.

أمّا في الأول فالسر هو المربوب فبزواله تزول الربوبية؛ لأن الرب والمربوب أمران متضايفان، فما لم يكن الرب لم يكن المربوب، وما لم يكن المربوب لم يكن الرب أي: لم يوصف بالرب، وأمّا في الثاني فهو أن الرب هو الذي ظهر بصورة المربوب، فتحققت نسبة الربوبية، فلو ظهر لأحد هذا السريان ظهر الرب بوحدته الحقيقية لبطلت الربوبية لارتفاع الإثنينية، فيدخل العبد حقًا في الفناء الصرف والانمحاق المحض فتبطل العبودية اللازمة للربوبية عنده، ومن بطلان اللازم يستلزم بطلان الملزوم، فإذا عاد إلى وجوده عادت عبوديته، وإذا عادت عادت الربوبية له، واستتر ذلك السر عنه، وهكذا دائمًا فما لم تشهد السر المذكور فيك لا تعرف تعالى المعرفة المذكورة وكذا آياته؛ لأنها بجملتها منطوقة فيك؛ لأنك وإن كنت إنسانًا صغيرًا صورة، والعالم كله إنسان كبير صورة لكن

الأمر بالعكس رتبة؛ لأن للخليفة استعلاء على المستخلف عليه، وأنت ظاهر بصورة من استخلفك، فإنشاء صورتك الظاهرة الجسمانية العنصرية من حقائق العالم وصوره، وإنشاء صورتك الباطنة على صورته أي: أحدية جمع أسمائه وصفاته، ولهذا قال في حقك: «**كنت سمعه وبصره**[1]» وما قال: كنت عينه وأذنه مع كونه صحيحًا أيضًا، لكن التعبير بالصفات الباطنة دون الظاهرة أدل مما نحن بصدده.

صرح به الشيخ قدس سره في «الفصوص» بأجمعه فإن قيل: كيف منع أهل الله التجلي في الأحادية؟ مع أن لهم مقام الفناء في الوجود وفيه يقع التحقق بحضرة الأحدية.

فالجواب على ما قاله الشيخ قدس سره في «الفصوص» في فص حكمة عليَّة في كلمة إسماعيلية: «الناظر في مقام الفناء إلى الحق تعالى إمَّا أن يكون ناظرًا به تعالى لا بنفسه، فحقًا هو الناظر نفسه لا أنت، فما زال ناظرًا نفسه بنفسه على ما هو عليه أزلاً وأبدًا فليس هذا تجليًا؛ لأنه الانكشاف للغير ولو اعتبارًا، وإمَّا أن يكون ناظرًا بنفسه له تعالى لا به تعالى، فحقًا لا أحدية بسبب وجود الناظر و الأحدية لا شيء معها و إمَّا أن يكون ناظرًا بهما فلا أحدية أيضًا حقًا؛ لأن الناظر في هاتين الصورتين العبد دون الرب، بل في الصور الثلاث الأحدية، أمَّا الأخيرتين فظاهر للتغاير الذاتي بين الناظر و المنظور.

وأمَّا في الأولي مع أنه الناظر والمنظور فللتغاير الاعتباري؛ لأن كونه ناظرًا باعتبار، ومنظورًا فلا أحدية أصلاً في الصور الثلاث، واعلم أن الأول مقام قرب الفرائض، والثاني مقام قرب النوافل، والثالث مقام الجمع بين الفرائض والنوافل وهو المسمَّى بالفرق الثاني، فإذا أوعيت هذا فمعرفة الحق تعالى وصفاته موقوفة على مشاهدة سره وآياته فيك، ولهذا قال النبي ﷺ: «**من عرف نفسه فقد عرف ربَّه**[2]».

ويحتمل أن يكون المراد لا تعرف الحق بالوحدانية ولا صفاته بالواحدية، وإنها مؤثرة في الحقائق الكلية والجزئية إلا بالمشاهدة المذكورة، ويحتمل أيضًا أن يكون، وآياته بيانًا

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/٢٠٨)، وذكره المناوي في فيض القدير (١/٢٢٤)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/١٥٢٩).

لسره فافهم، وهذه الصفات المذكورة قد تكون بالجذبة الإلهية التي توازي على الثقلين، فيحصل للعبد بلا تعبد الإخلاص والفناء والمشاهدة والعروج وهذا نادر والأكثر حصولها عن يد شيخ مرشد كامل بالله.

٢٦- من لم يأخذ الطريق عن الرجال، فهو ينتقل من مُحالٍ إلى محال.

وهو الذي ذكره الشيخ قُدّس سرّه بقوله: (**من لم يأخذ الطريق عن الرجال، فهو ينتقل من محال إلى محال**):

اعلم أيدك الله تعالى أن السلوك في الطريق المبين والوصول إلى عالم اليقين موقوف على الكامل المرشد الأمين، فإن موسى عليه الصلاة والسلام مع كمال نبوته، وارتفاع درجة رسالته التمس من معلمه الخضر عليه السلام الجد المتابعة في مكتب تعلم العلم اللدني، وقال له: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً**﴾ [الكهف:٦٦].

وقال بعضهم: بالاحتياج في التربية بعد زرع بذر الطلب في أرض القلوب فإنه بتأثير نظر الحق، وعنايته لاغير، فوجود الشوق والطلب في القلب لا يكون إلا بالحق تعالى، ونبينا ﷺ أراد أن يزرع هذا البذر في قلب أبي طالب فقيل له: ﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص:٥٦].

ولكن إذا وقع ذلك البذر في القلب يحتاج إلى مرشد مسالك لوجوه متعددة منها أن هذا الطريق يحتاج إلى دليل عارف بالطريق كالكعبة، بل بالأولى؛ لأن سالك طريقها له نظر يرى به الطريق، وله قوة وقدم يمشي بها بخلاف السالك ليس له نظر ولا قدم ولا قوة، ومنها أن في هذا الطريق السُّرّاق وقطاع الطريق مثل الطريق الظاهر، وهي الزخارف الدنيويَّة، والنفس، والهوى، والشياطين، وإخوان السوء، فيحتاج إلى دليل صاحب الولاية، ومنها أن في هذا الطريق عقبات مذلات وشُبهات كثيرة لا يمكن الخلاص منها إلا بحماية شيخ كامل، ولهذا وقع الدهري، والطبائعي، والبراهمة، وأهل التشبيه، والتعطيل، والأهواء، والبدع، وأهل الإباحة في الضلالة لانفرادهم في السلوك مما قدروا قطع العقبات والشبهات، فكل منهم وقع في آفة وشبهة وفساد، فضلوا وأضلوا.

ومنها أن في هذا الطريق وقعات، وفترات من الامتحان، والابتلاء لا يمكن العبور عنها بدون شيخ كامل.

ومنها أنه يعرض للسالك في الطريق العلل والأمراض من انحراف مزاج الطلب والإرادة، فيحتاج إلى طبيب حاذق لإزالتها بالأدوية الصالحة وإلا فينقطع عن الطريق، ومنها أن مرآة القلب لـمَّا صفت يتجلى الروح فيها مجردًا عن الكسوة البشرية، ومتصفًا بالصفات الربانية، فيوجد العبد في هذا المقام وذوق: أنا الحق وسبحاني، فيظن أنه مقام لا مقام فوقه، وما لأحد من الأنبياء والأولياء مقام فوق هذا المقام، فلو لم يكن له شيخ يبين له المقامات، ويكشف له ما فوق هذا المقام، ويرغبه ويشوقه فيه يبقى في مقامه أبد الآباد، ومنه خوف زوال الإيمان، وحصول آفة الحلول والاتِّحاد(١).

(١) قلت: مسألة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود قد كثر فيها الكلام من العالم والجاهل، فكثر الكلام، وتخبطت الآراء، وتنازعت، وبمجرد إطلاق لفظ وحدة الوجود يتوهم الجاهل القول بالحلول والاتحاد، ونسبها ظلمًا وعدوانًا الكثير من الجهلة قديمًا إلى سيدنا الشيخ الأكبر وأكابر الأولياء: كالشيخ سيدي عبد الكريم الجيلي، والشيخ القونوي، والشيخ ابن سبعين، والشيخ ابن الفارض، وغيرهم رضي الله عن جميعم، وتبعهم على ذلك أتباعهم من المتأخرين، وإن شئت قلت: أعوانهم في تلك الجهالة، وكان مدخلهم إلى هذه النسبة وتلك الاعتراضات وتجرؤهم على ما يجهلونه من علوم الأولياء نظرهم إلى علوم القوم باعتبار أنها علومٌ فلسفيةٌ، مصدرها الفكر والعقل، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ولا قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، ولا قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨]، ولا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران:٧٩]، ولا قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:٢٤]، ولا ما روي عن أبي جحيفة قال: سألت عليًّا ﷺ: هل عندك عن النبي ﷺ شيءٌ سوى القرآن؟ فقال: «لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في القرآن وما في هذه الصحيفة»، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ الحديث، ولا ما روي في البخاري: حدثنا إسماعيل قال: حدثني أخي عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم»، ولم يبلغهم مما ورد في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مما يقرر اختصاص الحق سبحانه لمن شاء من عباده بما شاء من عطاياه، سواء كان المُعطى محسوسًا أم معنويًا كالعلم بالله والفهم في كتابه، فراحوا ينكرون كل ما يجهلونه، وكأنهم أحاطوا بما عند الله، أو تحكموا =

=

على الله في ألا يعطي أحدًا من خلقه إلا بعد أن يستأذنهم، ولا يُفهِمُ أحدًا في كتابه إلا بما فهمُوه هم بفهمهم السقيم لا غير، فسبُّوا ولعنُوا أولياء الله، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]، وجعلوا يستشهدون بأقوال أهل الكفر المستشرقين الذين ما أرادوا بالإسلام والمسلمين خيرًا قطُّ على أئمة الهدى المسلمين، فينسبون العلم اللدني الوارد ذكره في كتاب الله وفي سنة رسول الله تارةً إلى المسيحية، وتارةً إلى الفلسفة اليونانية، وأخرى إلى الاستنباطات العقلية تبعًا لهؤلاء المستشرقين، الذين أدركوا حقيقة علوم التصوف، وما لها من العظمة بحيث يعجز غير المسلمين عن الإتيان بشيءٍ منها، وكيف لا وهي من السيد الأعظم ﷺ متلقاةٌ، وأن التصوف الإسلامي منذ عهد الصحابة إلى الآن السبب الأقوى والفعَّال في دخول جموع الناس في دين الله أفواجًا، وهذا ما يشهد به التاريخ، فراحوا ينسبونها إلى أنفسهم أو إلى عقلٍ وفكرٍ كما مرَّ محاولين بذلك التقليل من شأن العلم في قلوب المسلمين، ولكن هيهات هيهات: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨] ببعضٍ من النظريات التي يكذبها التاريخ، وتأباها عظمة الدين الخاتم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤].

فترى دافع المتقدمين إلى الإنكار: الحقد، والحسد، وحب السمعة، والمتأخرين: الجهل الذي ملأ قلوبهم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩] فتراهم ينقلون أقوال إخوانهم الذين يمدونهم في الغيِّ دون أدنى معرفة بالدليل الذي استند إليه العلماء بالله، ولا يستبرئ لدينه فيبحث عنه، بل أخذوا يكررون ويرددون الأقوال المنكرة في حقِّ سادات الأمة المحمدية ورثة الأنبياء تلك الأقوال العارية بالطبع عن دليل القوم، وكان الأحق بهم قبل أن يؤذنهم الله بمحاربته بإيذائهم لأوليائه أن يأخذوا العلم من أهله؛ وخصوصًا أن علوم القوم موضوعها العقائد المتعلقة بمعرفة الله ورسوله ﷺ، وتلك أمورٌ محلها القلب، فلا اطِّلاع عليها إلا لصاحبها.

ولا تظنن يا أخي أن علوم القوم خاليةٌ عن تأييد الشرع، أو عاريةٌ عن الدليل، كما صوَّرها هؤلاء الجهلة، بل الحق الذي لا مرية فيه أنه لا توجد عقيدةٌ قررها القوم في كتبهم إلا وهي محاطةٌ بالدليل الشرعي، والمتتبع لأقوالهم نفعنا الله بهم يجدها مصحوبةً بالدليل.

فتبرًا لدينك يا أخي، وإيَّاك أن تعترض على أحدٍ من العلماء بالله بجهلك في أمرٍ جهلته من كلامهم، أو أن يكون لك أيُّ نسبةٍ تربطك بهذا الاعتراض فالأمر جدٌّ وليس بالهزل.

=

=

وانظر كيف نُسبوا إلى الله في تسميتهم، بل وحقيقتهم في قول: أولياء الله، أو العلماء بالله، أو العارفين بالله، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، فما عاديت في الحقيقة إلا ما نُسب لله؛ فانتبه من رقدتك.

واعلم أني ما ذكرت لك تلك المقدمة في هذا الموضع إعلامًا منّي بأن واحدًا من العلماء بالله يقول بالحلول أو الاتحاد معاذ الله، ولكن لأوضح لك حقيقة الخلاف، والله يتولى هداك وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وإليك نصوص ما ذكره ساداتنا العلماء بالله في نفيهم للحلول والاتحاد المتوهَّم في حقهم الشريف فأقول وبالله التوفيق:

قال سيدنا في «الفتوحات» في باب الأسرار: من قال بالحلول فهو معلولٌ؛ فإن القول بالحلول مرضٌ لا يزول، ومن فَصَلَ بينك وبينه فقد أثبت عينك وعينه، ألا ترى قوله: «**كنتُ سمعَه الذي يسمع به**»، أثبتك بإعادة الضمير إليك ليدلك عليك، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول فإنه أثبتك حالاً ومحلاً، فمَنْ فَصَلَ نفسة عن الحق فنعْمَ ما فَعل.

وقال في باب الأسرار أيضًا: الحادث لا يخلو عن الحوادث، لو حلَّ بالحادث القديم لصحَّ قول أهل التجسيم، فالقديم لا يَحِلُّ ولا يكون مَحَلا، ومن ادعى الوصل فهو في عين الفصل اهـ.

وقال في هذا الباب أيضًا: أنت أنت، وهو هو، فإيَّاك أن تقول كما قال العاشق: (أنا من أهوى ومن أهوى أنا)، فهل قدر هذا أن يرد العين واحدةً؟ لا والله ما استطاع فإنه جهلٌ، والجهل لا يتعقلُ حقًا، ولا بدَّ لكل أحد من غطاء ينكشف عند لقاء الله.

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلامٍ طويلٍ: وهذا يدلك على أن العالَم ما هو عين الحق، ولا حلَّ فيه الحق؛ إذ لو كان عين الحق أو حلَّ فيه لما كان تعالى قديمًا ولا بديعًا انتهى.

وقال في الباب الثاني والتسعين ومائتين: من أعظم دليلٍ على نفي القول بالحلول والاتحاد أنك تدرك عقلاً أن الشمس هي التي أفاضت على القمر النور، وأن القمر ليس من نور الشمس شيئًا مشهودًا؛ لأنها لم تنتقل إليه بذاتها، وإنما القمر محلا لها، فكذلك العبد ليس فيه شيءٌ من خالقه، ولا حلَّ فيه اهـ.

وقال في الباب الرابع عشر وثلاثمائة: لو صحَّ أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى لصحَّ انقلاب الحقائق، وخرج الإله عن كونه إلهًا، وصار الحق خلقًا، والخلق حقًّا، وما وثق أحدٌ بعلمه، وصار المحال واجبًا، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدًا اهـ.

وقال في الباب الثامن والأربعين: لا يصحُّ أن يكون الخلق في رتبة الحق تعالى أبدًا، كما لا يصحُّ أن يكون المعلول في رتبة العلة اهـ.

=

=

وقال سيد الطائفة الجنيد ﷺ: التوحيد إفراد القدم عن الحدوث.

وقال سيدي عبد القادر الأمير ﷺ **في** ((**مواقفه**)) في حديث مسلم: ((**إن الحق تعالى يتجلى لأهل المحشر ..إلخ**)): وفرقةٌ تقرُّه في الدنيا والآخرة: أي التحول المذكور في الحديث من غير حلول ولا اتحاد ولا امتزاج ولا تولُّد، مع اعتقاد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وهم العارفون بالله تعالى أهل التجلي والشهود في الدنيا اهـ (ص٣٥٣).

وقال أيضًا: الموقف الثلاثون: قال لي الحق: ((أتدري من أنت؟ فقلت: نعم، أنا العدل الظاهر بظهورك، والظلمة المشرقة بنورك. فقال لي: عرفت؛ فالزم، وإيَّاك أن تدَّعي ما ليس لك، فإن الأمانة مؤداةٌ والعارية مردودةٌ، واسم الممكن منسحبٌ عليك أبدًا، كما هو منسحبٌ عليك أزلاً اهـ.

ثم قال في شرح حديث (كنت سمعه): وإنما هي الأحكام العدمية التي ظهر الوجود الحق بها لا غير، ولا اتحاد كما يفهمه العميان، ولا تأويل كما يقول صاحب الدليل والبرهان اهـ.

وقال في الكلام على حديث (ما وسعني..إلخ): قلب العارف الكامل المحقق الواصل يصير عين معروفه، وعين ما حققه، مع بقاء التمييز: إلهٌ ومألوهٌ، ربٌّ وعبدٌ اهـ.

وقال سيدي عليُّ بن وفا نفعنا الله به: إنما كانت القلوب السليمة تحنُّ إلى التنزيه أكثر من التشبيه لأن التنزيه هو الأصل، والتشبيه إنما هو تنزُّلٌ للعقول، ومن شأن الذات الإطلاق لذاتها، وتساوي النسب لصفاتها؛ فاعلم ذلك، ونزِّه ربَّك عن صفات خلقه اهـ.

وقال سيدي أيضًا: المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم: فناء مراد العبد في مراد الحق تعالى، كما يقال: بين فلانٍ وفلانٍ اتحادٌ، إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه، ثم أنشد:

وعِلمُك أنَّ كل الأمر أمري هو المعنى المسمَّى باتحاد

وقال سيدي أيضًا: الاتحاد لفظٌ يطلق ويراد به أعلى درجات قرب العبد من الرب اهـ.

وانظر يا أخي رحمك الله إلى ما قاله هؤلاء السادات في الحلول والاتحاد؛ كي تعلم حقيقة مرادهم بتلك اللفظة، على فرض وقوعها في كلامهم، هو استخدام اللفظ ليس إلا، ودليلي فضلا عمَّا ذكرته من نفي القوم لذلك: قال سيدي عليٌّ ﷺ: (إن الاتحاد لفظٌ) ولم يقل معنًى أو حقيقةٌ، فاعلم تلك الأقوال، وعضَّ عليها بالنواجذ، واجعلها أساسًا تحمل عليه كلام القوم.

وانظر قول الشيخ الشعراني: وعندي أن هؤلاء القائلين بالاتحاد كلهم لم يصحُّ لهم اتحادٌ قطُّ إلا بالوهم، وانظر كلامهم تجده من أوله إلى آخره لا يبرح من الثنوية، فإنه لا بدَّ من مُخاطِب ومخاطَب.

وفي كلامه ﷺ ما يغني عن التعليق من نفي تلك الاعتقادات المتوهمة، وقولي المتوهمة إنما هو بالنظر للمنكر، فإننا إذا أمعنا النظر في كتابات المعترضين على أقوال الكُمَّل رضي الله عنهم نجدها منصبَّةً حول معنًى غير مقصودٍ بالمرة للقائل، ولو ذكرت للقائل معنى تلك المقولة بتفسير المنكر لها؛ لكان من

=

ومنها أنه يظهر للمريد في الطريق ما يشير إلى الزيادة أو النقصان وغير ذلك من صفاء القلب وكدرته ومعرفة الصفات الذميمة والحميدة، وما علامة الحجب الدنياوية، والأخروية، والأحوال الشيطانية، والنفسانية، والرحمانية، وسائر المعاني الحاصلة من الوقائع التي لا تعد ولا تحصى، والمبتدئ لا معرفة له بها؛ لأنها لسان الغيب لا يعرفه إلا أهل الغيب، فيحتاج إلى من يكون مؤيدًا بتأيدات إلهية، ومعلمًا بتأويلات غيبية حتى لا يكون من تلك الإشارات والمعارف محرومًا فيستحيل له معرفة المقامات.

ومنها أن السلوك في الطريق لا يكون إلا بواسطة الذكر، والذكر لا يفيد إفادة تامة إلا إذا أخذه من تلقين مرشد كامل.

ومنها أن السالك إذا سلك بنفسه لا يقدر على قطع مقام واحد بسنين متعددة؛ لأن سلوكه أضعف من سلوك النمل، وكل عقبة مسافة سبعين ألف عام، وأيضًا يحتاج في بعض المقامات إلى الطيران ولا يمكن له؛ لأنه على مثال البيضة وهي لا تطير إلا إذا صار طيرًا، ولا تصير طيرًا إلا بتصرف طير آخر، وهو الشيخ الكامل المكمِّل.

حُكي عن أبي بكر الخراساني من ولاية الجام وكامن مجاذيب الحق تعالى، ولكن ماله شيخ معين أنه قال:

=

أول المـــنكرين لها وأشد الناس اعتراضًا عليها، فإذن تلك العقائد المعترض عليها ليس لها وجودٌ إلا في عقل المنكر، فإنه اعترض على ما فهمه هو، لا على حقيقة المراد باللفظ.

فـــإذن الخـــلاف ليس في المعاني، وإنما هو خلافٌ نشأ عن استخدام تلك الألفاظ، ودليلي في ذلك ما ذكرته لك من أقوال هؤلاء الأئمة، فخذ تلك القواعد واحكم عليهم بمقتضى قولهم تجدهم جميعًا أقرب الخلق إلى الله وإلى رسوله ﷺ وأعرفهم بالله ورسوله ﷺ.

فإن قلت: فكيف العمل في تلك الأقوال الكثيرة المشحونة باستخدام تلك الألفاظ الموهمة؟!

أقول لك: بعد ما تقدم ذكره من القول إن لم تستطع قبول تلك الأقوال ولم تفهم المعنى الموافق للشرع الذي هو يقينًا مراد القائل فتأولها بما يوافق الشرع، فإن الكتب الفقهية والشرعية مليئةٌ بالتعارض والترجيحات وتأويل الأقوال والأدلة المتعارضة، فقس على ذلك والله هو الموفِّق.

واعلم يا أخي أني لم أذكر لك جميع كلام القوم في نفي الحلول والاتحاد ووحدة الوجود المتوهمة وإنما ذكرت لك طرفًا منه، فإنهم نبَّهوا عليه كثيرًا فاختر يا أخي لنفسك، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ووالله لا ينسب القول بالحلول أو غيره من القبائح إلى القوم بعدما ذكرناه من كلام إلا معاندٌ مكابرٌ، فحمل كلامهم على مرادهم لا غير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والسلام.

«بعدما سرت في الطريق مدة خمس وأربعين سنة وصلت إلى مقام من صعوبته اجتهدت فيه ظاهرًا وباطنًا، وتحملت مُقاساة شديدة إلى سنتين حتى أن الحق سبحانه وتعالى وفقني على العبور عنه».

ثم حكوا هذه القصة للشيخ مجد الدين البغدادي رحمه الله فقال: «لا يعرف أحد قدر المشايخ ولا يؤدي حقهم، ولي بعض المريدين قطعوا المسافة من البداية إلى النهاية بسنتين، ولـمَّا وصلوا إلى ذلك المقام بيوم أو يومين عبروا عنه فلله دُرهم» نفعنا الله بهم وأدخلنا في زرهم، فلما عرفت هذا فالذي لم يأخذ الطريق عن رجاله فهو لا ينتقل أبدًا، وإن انتقل بسابق العناية الإنسانية الأزلية، والجذبة الإلهية، فهو انتقال مما هو كالمحال إلى ما هو مثله، فهو مبالغة في كون الانتقال متعسرًا، ويمكن الإبقاء على معناه الأصلي، وإن الفرد الموجود كالعدم لندرته.

* * *

مطلب في صفات الشيخ[١] والمريد[٢]

ورجال الطريق هم الذين وصلوا إلى مقام القرب، والتمكين وله خمسة أركان، وعشرون صفة:

أمَّا الأركان فهي: عبدية الحضرة، واستعداد قبول الحقائق الحضرة بلا واسطة، ووجود الرحمة الخاصة من المقام العندية، وشرف تعلم العلوم من الحضرة، وكون التعلم

(١) الشيخ: هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، والبالغ إلى حد التكميل فيها لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بدوائها وقدرته على شفائها والقيام بهداها إن استعدت، ووفقت لاهتدائها.

(٢) سُئل الدقّاق قدَّس الله سرَّه عن المريد؟ فقال: حقيقةُ المريد أن يشير إلى الله تعالى، فيجد الله مع نفس الإشارة. وقيل له: فالذي يستوعب حاله؟، قال: هو أن يجد الله بإسقاط الإشارة.

وسئل الروذبادي: عن المريد والمراد؟ فقال: المريد الذي لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له والمراد لا يريد من الكونين شيئًا غيره.

منها بلا واسطة قال الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:٦٥]، فاندرج فيه جميع ما ذكر من الأركان كما هو الظاهر، وأمَّا الصفات: فهو أن يكون عالمًا بالشريعة على قدر الحاجة، وأن يكون على اعتقاد أهل السنة والجماعة، وعاقلاً بالعقل الديني والمعاشي، وسخيًّا وشُجاعًا، وعفيفًا من جهة النفس، وعالي الهمَّة مشفقًا على المريد، وحليمًا وعفوًا، وحسن الخلق، وصاحب الإيثار، وكريمًا ومتوكلاً، ومسلِّمًا وراضيًا بالقضاء، وذات وقار وساكنًا في الحركات، وثابت القدم في الإرادات، وذات هيبة، فالموصوف بهذه الأوصاف متخلق بأخلاق الله يوصل المريد إلى الحق تعالى بإذنه تعالى في مدة قصيرة بشرط أن يكون المريد أيضًا موصوفًا؛ لأنه ينبغي أن يكون موصوفًا بعشرين وصفًا كالشيخ، وهي التوجه والزهد والتجريد واعتقاد أهل الحق والتقوى والصبر والمجاهدة والشجاعة والبذل والفتوت والصدق والعلم والطلب والحيلة مع الأعداء.

والملامية هي أن يكون المدح والذم، والرد والقبول عنده سواء والعقل والأدب وحسن الخلق والتسليم والتفويض، فإذا وجد المريد كذا، وأخذ عن رجل كذا في مدة يسيرة يحصل ذا، وإلا فمتعسر أو متعذر كما عرفت، فإذا لم يأخذ الطريق من الرجال فالانتقال محال، وإذا لم يحصل الانتقال لم يتحقق بحقائق الحروف والأسماء، ومن لم يتحقق بها يكون مصروفًا عن كشف غوامض الأشياء(١).

---

(١) قال السيد مصطفى البكري ﷺ: قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩] فالأبواب هنا: الأساتذة فمن رام سلوك الطريق بنفسه فقد غشَّها.

قال بعضهم: لأن تكون تحت حُكم هرة خير لك من أن تكون تحت حكم نفسك، فمن لم يخرج عن موافقة نفسه في هواها فما زكاها، ولا يأمن غوائل نفسه إلا جهول، ولا يركن إليها إلا من على الرداء بجبول بعدما سمع قول الحق جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣].

وقوله ﷺ «**ليس عدوك الذي يقتلك فيدخلك الله به الجنة، وإن قتلته كان ذلك دورًا ولكن أعد الأعداء نفسك التي بين جنبيك**».

فإذا رمت الخلاص من دسائسها، والنجاة من خبائسها، فاتخذ خلافها سبيل، واستعمل المجاهدة =

٢٧ - من لم يتحقق بحقائق الحروف والأسماء، فهو مصروف عن كشف غوامض الأشياء.

وكما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**من لم يتحقّق بحقائق الحروف والأسماء، فهو مصروف عن كشف غوامض الأشياء**) التحقق[1] بالحقائق من أصعب الأحوال يحتاج إلى عدم انطباع صور الأكوان في مرات القلب بأن لا يرى النفع والضرر منها حتى لا يعتمد عليها، ولا الجمال لها حتى لا يحبها، ولا يشتهي شيئًا منها حتى لا يغفل، وإن القلب المكبل بالشهوات لا يمكن انتقاله كلما أراد النهوض أخلدته، وإن نهض فعن السير أمسكته، وإن سار فمن الإسراع منعته، وإن أسرع ففي الطريق ثبطته، ولذا قيل: لدغ الزنابير على الأجسام المقدحة أيسر من لدغ الشهوات على القلوب، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أن حذر قومك عن الشهوات فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عني، ويحتاج أيضًا الرجوع إلى الله بالإنابة عن الهفوة والوقوع في الزلل، فإن الهفوة مانعة عن الفهم، فلا يفهم صاحبها دقائق الأسرار.

قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

فإذا اتصف الرجل بهذه الأوصاف يشرق قلبه فرأى الحقيقة، وعرف الحق تعالى

=

فيها ليلاً طويلاً فإذا لانت بعد قسوتها، وخضعت بعد شدتها، وأنست بعد وحشتها، وأقبلت بعد نفرتها فاستنهضها لعالي الأخلاق، وشوقها لرفيع الأذواق فإذا مالت لذلك، وأقبلت على ما هنالك، وتشعت فيه، وظهر لها من الحق ما كان هواها يخفيه، حنت حنو الغريب لأوطانه، وناحت على ما ضيعته نواح القمري على أغصانه، ورجعت طالبة إلفها القديم، وناديها التي كانت به تهيم، ثم بعد هذا فإياك من فلتاتها، ثم إياك أن تغتر بتركها لعاداتها بل لا تغفل عن الجهاد فيها أن تكن عرفت ظواهرها وخلافيها، وانظر قول القائل: ما دامت النفس حية تسعى فهي حية تسعى، فمتى ما غفلت عنها ربما رجعت بك إلى وراء، وأنت تظن أنك أمام لما اعتمدت عليه من حسن سلوكها والسلام.

(١) التحقيق: هو ما يحصل معه القطع الذي يستحيل معه وجود النقيض، وحقيقته: وجدان وجودٍ في كشفٍ يستحيل معه الستر الموجب لتوهم الغيب، وغايته: بلوغ يوجب الوقفة؛ لاستحالة توهمِ مطلوبٍ سيحصل انتهى.

فيتحقق حقًا بالأسماء والحروف ويعلم حقائقها، فيكشف له الأشياء الغامضة من المعاني اللطيفة، والعلوم الغريبة الظريفة، وإلا فيصرف، ويمنع عن هذا الكشف المذكور لوجود الران على قلبه، فلا يدرك غوامض الأشياء، والله ولي الهداية، والتوفيق، وإرساله التحقيق، والتدقيق، والسلوك في سواء الطريق.

٢٨ - لا يبرز لسرِّ الله إلا مَن تبدَّلت أرضه وسماءه.

ثم بيّن قُدِّس سرّه كيفية البروز لمعرفة سر الله فقال: (**لا يبرز لسرِّ الله إلا مَن تبدَّلت أرضه وسماءه**) أي: لا يظهر لمعرفة سره الله من البروز بمعنى الظهور أو الإبراز بمعنى الإظهار، فعلى الأول يكون (يبرز) مبنيًا للفاعل مضموم العين، ويجوز كسرها بقواعد الصرف، وعلى الثاني يكون مبنيًا للمفعول، فبالجملة لا يكون أحد من الآحاد مستعدًا بالفعل إلا الرجل الذي تبدلت أرض نفسه بأن صارت صفاها البشرية صفاتًا ملكية، وتبدلت سماء روحه أيضًا بأن صار سرًّا أو خفيًا أو أخفى، أو المراد سماء القلب بأن يصير روحًا، أو المراد بتبديل أرض النفس أماتتها عن صفاها، وتبديل أرض القلب أحياؤها بنور الإيقان والعرفان، وذلك إذا استولى سلطان الحقيقة على ممالك الخليفة طوى سرادقات الوجود، فما بقيت أرضه ولا سماؤه ولا ظلماته ولا ضياؤه فإنه ما عند الله صباح ولا مساء، وفي هذا المقام تلاشت العبدية في كعبة العندية، ونودي بفناء الفناء في عالم البقاء ورفعت لقبلة وما بقي إلا الله ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة:١١٥] إن الله واسع يوسع قلب من يشاء من عباده عليم بمن يسع عليهم أو عليم بتوسيع القلب لسعته، ففيه إشارة إلى أن القلوب مشارق شموس المعارف ومغاربها فتغرب من هواجس النفس، وتشرق من واردات الروح، ثم الكلام في التبديل مقتبس من قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ [إبراهيم:٤٨]، وفيه إشارة إلى إبقائهما مع تبديلهما، ولا يجوز زوالهما عن خصائص النفسية، والعلمية لاحتياج الإنسان في السير إلى الله إلى كلتا الصفتين، فالبعض كالقدمين، والبعض كالجناحين، والبعض كالسفينة، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ [فاطر:٤١] أي: سماوات القلوب، وأرض النفوس أن تزولا كما مرَّ من الاحتياج إليهما فاعرف.

والسر على ما قاله الشيخ قُدِّس سرّه: ثلاثة سر العلم[1] وهو حقيقة العالم به، وسر الحال وهو معرفة مراد الله في الأشياء، و سر الحقيقة وهو ما تقع به الإشارة، والظاهر أن المراد بالسر هنا المعنى الثاني، فلا يعرف مراد الله في خلق الأشياء إلا من تبدلت أرضه وسماؤه، وفنيت رسوماته، وقد ورد في بعض المخاطبات ما صلحت لنا ما دام فيك بقية لسوانا، فإذا حولت السوى أفنيناك عنك فصلحت لنا فأودعناك سرنا، ويمكن أن يكون المراد بالسر الذي به الأشياء، وقيام الأسماء، والصفات بالذات، كما مرت الإشارة إليه وهو سر القدر المحكم في الخلائق بمعنى أن جميع ما عليه الممكنات من الأحوال دنيا وعقبى معلومات علمه تعالى الأزلي وقدره عليها، وحكم بها عليها ثم أظهرها فيها، وهذا السر مجهول لكلِّ أحد إلا العارفين فإنهم لا يجهلونه لكنهم أعرضوا عن إيضاحه كما ينبغي سوى الشيخ الفاضل الكامل المكمل محي الدين بن العربي قُدِّس سرَّه العزيز كما أشار إليه في الفصوص، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

٢٩- لا يعرف الاسم الأعظم إلا مَن له في الولاية قدم.

فكما أنه لا يعرف سره إلا من تبدلت أرضه وسماؤه، فكذا لا يعرف اسمه الأعظم إلا من كان له في دائرة الولاية قدم، كما قاله الشيخ قُدِّس سره:(**لا يعرف الاسم الأعظم إلا من له في الولاية قدم**) المراد بالمعرفة غير المعرفة بالسماع، وإلا فغير الولي يعرف به بالسماع من العلماء والأولياء، كما اجمعوا على لفظ الجلالة أنه الاسم الأعظم، وقيل غير ذلك وهي لا تفيد فائدة تامة، وإنما لمعرفة المفيدة أن تحصل بالإلهام الإلهي إمّا بالواسطة أو بلا واسطة، والاسم الأعظم كل اسم يصل به إلى المقصود فيعمُّ جميع الأسماء الإلهية، فكل من دعا باسم، راستجاب له فذلك اسم أعظم بالنسبة إليه، وإلى الوقت الذي دعا فيه؛

---

(١) قال الشيخ القونوي في النفحات: سر العلم هو معرفةُ الأشياء قبل وقوعها وكيف تقع؛ تكون علمًا في أولِ درجات كمالِ العلم؛ لتعلُّقه بها من حيث حقيقتها، وهو المعبر عنه بمشاهدة المفصل في المجمل، فإذا علمها بعد ظهور حقيقتها في مرتبة روحانيتها، ثم مثاليتها، ثم صورتها الحسية؛ فقد تم علمه بها ويكون علمه حالتئذ خبرة، وسيما في حق من لم يفارق كل واقع في حال من الأحوال؛ بل كان مصاحبًا له مصاحبةً ذاتيةً علميةً، دون ملابسةً ولا ممازجةً، فافهم. (النفحات ص٥٦) بتحقيقنا.

لأنه اسم واحد مستور بين أسمائه الحسنى لا يظهر إلا لمن أطلعه الله عليه وهو أعظم الأسماء الإلهية؛ لأنه يؤدي إلى أفضلية بعض الأسماء على بعض ولاقائل به؛ لأن الأسماء نسبتها إلى الذات نسبة واحدة فلا تفاضل بين الأسماء، وكذا بين المرات لارتباطها بالأسماء إلا أن يُقال:إن يقع التفاضل في الكون من حيث الفروع دون الأصول، ولهذا يجب تفضيل نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين لانعقاد الإجماع على ذلك، وإلى الأول الأول الإشارة بقوله تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال بعضهم: المراد بتفضيل بعض على بعض أن كل واحد منهم فاضل، ومفضل نفضل هذا منهم بأمر على الآخر فضل الآخر المفضل بأمر آخر، فكل منهم فاضل بوجه ومفضل بوجه، وذلك يؤدي إلى التساوي في الفضيلة فافهم.

فالاسم الأعظم على ما ذكرنا يختلف بحسب اللغات، وبحسب المطلوب، والطالب، والأمكنة والأزمنة، وقيل: إنه واحد وقيل: اثنان تفضيل الاسم الأعظم على ما قال بعض. الجلالة وهو لفظ الله، وبه قال الإمام الأعظم أبو حنيفة ﷺ، وعليه رأي أكثر المشايخ من أهل التصوف، والعارفين.

وقال الله تعالى لنبيه: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١].

وعليه محمد بن الحسن الشيباني، وإسماعيل، وابن إسحاق الأنصاري، وهشام، والشعبي، وأبو جعفر الطحاوي، ويؤيد هذا قوله تعالى المذكور.

وقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه:١٤].

وإنه يوجد في لفظ الله مالا يوجد في غيره؛ لأنه إذا أخذ منه الألف بقي لله، وإن أخذت اللام الأولى بقي له، وهو اسم الله، وإن أخذت الألف الثانية بقى له، وإن أخذت اللام الثانية بقي هو، وإنه لم يسم به غير الله، وإنه اسم الذات المقدسة، وإنه لا يُثنى ولا يجمع، وأنه يقال فيه: يا الله باجتماع حرف النداء مع حرف التعريف، ولا يوجد هذا في غيره، فلا يقال الرحمن يا الرحيم بأنه يوصف ولا يوصف به.

(وهو) ولا إله إلا هو، و (هو الله لا إله إلا هو)، و(الحي القيوم) و (ربنا) و (الله الحي القيوم)، و (الله) (الرحمن الرحيم)، و (الأحد) و (الصمد)، و(الوهاب)، و (خير

الوارثين)، و (حسبنا الله ونعم الوكيل)، و (الغفار)، و (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، و (القريب) و (سميع الدعاء) (والسميع العليم) و(العلي العظيم)، و(الودود) و﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾[البروج:١٥] ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٦].

و (توكل على الحي الذي لا يموت)، وآخر البقرة، وثلاث آيات من الأنعام، وبين الجلالتين و ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام:٧٣]، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، و (المتكبر)، والحروف النورانية الواردة في أوائل السور، والمفرد من الأسماء، والمركب منها وال ويؤده وإذوناي وأهيا شراهيا ويا شمعيثا.

فهذه ستة وثلاثين اسمًا كل قال به: بعض استنبطه من حديث أو آية.

وقال بعضهم: أنه في البقرة آيتان، وفي آل عمران واحدة، وفي الأنعام ثلاث، وفي الأعراف اثنان، وفي الأنفال اثنان، وفي الرعد اثنان، وفي مريم واحد، وفي طه أربعة، وفي المؤمنون واحد، وفي الروم واحد، وفي السجدة واحد، وفي يس اثنان، وفي ص اثنان، وفي غافر ثلاث، وفي حم عسق اثنان، وفي الجاثية واحد، وفي الرحمن اثنان، وفي الحشر ثلاث، وفي تبارك واحد، وفي الإخلاص اثنان.

وقوله (**من**) موصولة بمعنى الذي و(**له**) جملة ظرفية صلته وفي الولاية متعلق بالظرف وقدم فاعل له أو قدم مبتدأ مؤخر وله خبره قدم عليه للتخصيص وفي الولاية كما مرَّ، والمعنى لا يعرف الاسم الأعظم ذوقًا ووجدانًا الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي يُجاب، والذي به يكون المشي على الماء، والطيران في الهواء أحد من الآحاد إلا الأحد الذي كان له في دائرة الولاية العامة قدم، والولاية اختصاص إلهي غير كسبي كسائر المقامات وأولها انتهاء السفر الأول، وهو السفر من الخلق إلى الحق بإزالة التعشق عن المظاهر والأغيار، والخلاص من جميع القيود والأستار، وقال بعض: لا يلحق بأهل الولاية من حصل له العلم اليقيني؛ لأن الله تعالى لا يتجلى إلا لمن محا رسمه، وزال عنه اسمه ولا نهاية لكمال الولاية، ولهذا مراتب الأولياء غير متناهية.

وقال بعضهم: بمجرد حصول نور الذكر في القلب يدخل في الولاية.

وباستقراره في الباطن كملت له الولاية، وباستغراقه الظاهر والباطن تمت له.

٣٠- مَن عرف الاسم الأعظم في العالمين تحكم.

ثم بين فائدة الاسم الأعظم فقال: (**من عرف الاسم الأعظم في العالمين تحكم**) أي: السالك الذي دخل في الولاية فحصل له الاسم الأعظم، وعرف به يصير حاكمًا في العالمين فيعزل، وينصب، ويغني، ويفقر، ويمرض، ويُشفي على حسب الإرادة الأزليَّة، والاستعدادات العلمية؛ لأن الاسم الأعظم له تأثير في كلّ شيء، ويعطي كل ما يسأله به، ويجاب كل ما دعا حتى لو دعا به لجميع الأمة أن يغفر لهم لكان كذلك، وقليل منهم مَن يوجد بيده الاسم الأعظم، ولا يكون صاحبه إلا ممن يتحمل الأذى من كل الناس ،فلو ضربوه أو جرحوه لم يتحرك أصلاً، بل يلتمس من الضارب أو الجارح أن يصافح معه، ويعفو عنه بسبب أنه تعب من ضربه أو تجريحه، وهيهات هيهات بذاك رزقنا الله والمسلمين بحرمة سيد المرسلين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

فلله تعالى أسماء هي مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، والذي تجلى له الحق تعالى بالهوية الذاتية من الكُمَّل والأقطاب، وقد نقل أنه له تعالى أربعة آلاف اسمًا ألف وواحد لا يعملها إلا هو، وألف يعلمها الملائكة المقربون، وألف يعلمها الأنبياء والمرسلون، وثلاثمائة في التوراة، ومثلها في الإنجيل، ومثلها في الزبور، وتسعة وتسعون في القرآن، والكل داخل تحت الاسم الباطن، والأول بوجه على ما قاله الداود القيصري رحمه الله تعالى: وتحت الاسم الآخر والظاهر من وجه آخر، وأمهات الأسماء كلها هي الأسماء الحسنى، وبين كل اسمين متقابلين أسماء متولدًا منهما يسمى بالبرزخ، وكذا الصفتين المتقابلتين كالجمال والجلال بناء على تغاير الأسماء والصفات، فإنها باعتبار ظهور الذات فيها تسمى أسماء الذات، وبظهور الصفات تسمَّى أسماء الصفات، وباعتبار ظهور الأفعال تسمَّى أسماء الأفعال، وفي الحقيقة الكل أسماء الذات، فهما صفتان جامعتان لجميع المتقابلات، فما يتعلق باللطف فهو الجمال، وما يتعلق بالقهر فهو الجلال، ولا يخلوا الجلال من الجمال وبالعكس، فالأول كاللطف الإلهي المختفي في القهر الإلهي قال الله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:١٧٩]، والثاني كالتحير الحاصل من الجمال الإلهي، ولهذا قال علي ﷺ: «سبحان من اتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمته، وشدة نقمته لأعدائه في سعة رحمته».

فلو علم الكفار بسعة رحمته لما يأسوا من دخول جنته، ولو عرف المسلمون بنقمته لما طمعوا في دخول جنته، ويتولد من اجتماع الأسماء بعضها مع بعض مطلقًا الأسماء الغير المتناهية، ولكل منها مظاهر علمًا وعينًا.

و(**العالمين**) جمع عالم من العلامة، وهي عبارة عمَّا يعلم به الشيء، واصطلاحًا كل ما سوى الله تعالى؛ إذ به يعلم الحق تعالى من حيث أسمائه وصفاته، فإن لكلٍّ فرد من أفراد العالم يعلم به اسم من الأسماء الإلهية وهو مظهر له بخصوصه، ولا فرق في هذا بين المستحقرات بالنظر إلى العوام وغيرها، ومن هناك تفاوت في خلق الرحمن، وكل اسم مشتمل على الذات، وهي جامعة للأسماء كلها، فكل فرد منها علامة يعلم به جميع الأسماء كالعالم يعلم به جميع الأسماء، فالعوالم صارت غير متناهية بالاعتبار المذكور لكن انحصاروها في خمسة باعتبار أن الحضرات خمسة، ولكلٍّ حضرة عالم كلي جامع لما عداها، فالحضرة الأولى الغيب المطلق المشتمل علىغيوب كل ما في العالم وعالمها الأعيان الثابتة المسمَّاة بالحقائق والإلهمات الممكنة.

ويقال: عالم الأعيان، وعالم الغيب المطلق[1].

---

(١) قال ابن ناصر الكيلاني: فاعلم أن العالم عالمان ا ثم ثالث عالم يدركه الحس وهو المعبر عنه بالشهادة وعالم لا يدركه الحس وهو المعبر عنه بعالم الغيب المطلق فإن كان مغيبًا في وقت للحس فلا يسمى ذلك غيبًا، وإنما الغيب ما لا يمكن أن يدركه الحس أصلاً لكن يعقل بالعقل إما بالدليل القاطع وإما بالخبر الصادق وهو إدراك الإيمان فالشهادة مدركها الحس وهو طريق العلم ما هو عين العلم وذلك يختص بكل ما سوي الله ممن له إدراك حسي والغيب مدرك العلم عينه فافهم.

فهذا الغيب الذي أثبتناه هو الغيب المطلق الحقيقي الذي لا يظهر لأحد أصلاً ولا لمن ارتضى من رسول لأنه حضرة ذاته وهويته تعالت وتقدست عن أن يحاط وأن يتعلق بها الإدراك أصلاً من حيث هي هي، فإنه من المتفق عليه أن حقيقته لا تحاط بالعلم ولا تتقيد بالوصف، سبحانك ما عرفناك حق معرفتك وهذا القدر من المعرفة المتعلقة بهذا الغيب المطلق إنما هي معرفة إجمالية حاصلة بالكشف الأجلي والتعريف الإلهي الأعلى الذي لا واسطة فيه غير نفس التجلي المتعين من هذه الحضرة الغيبية المطلقة الغير المتعينة فالغيب المتعلق صار دليلاً على الغيب المطلق لأنه الأصل، فالمتعين منه دليل عليه من حيث غير منعتين فكان هو الدليل والمدلول قال تعالى إشارة إلى هذا المقام أي الغيب المتعين المقيد عالم الغيب فلا يظهر على عيبه أحدًا: ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ [الجـــن:٢٧].

=

والحضرة الثانية: حضرة الغيب المضاف الأقرب إلى الغيب المطلق، وعالمها عالم العقول والنفوس المجردة، ويسمَّى عالم الأرواح الملكوتية والجبروتية.

والحضرة الثالثة: حضرة الغيب الأقرب إلى الشهادة، وعالمها عالم المثال، وإنما كان هذا غيبًا مضافًا؛ لأن الأرواح لها صور عقلية مجردة مناسبة للغيب المطلق، وصور مثالية مناسبة لعالم الشهادة، والحضرة الرابعة حضرة الشهادة المطلقة المقابلة للغيب المطلق، وعالمها عالم الملك من السماوات والأرض وغيرهما، فالملك الشهادة والدنيا والخلق وهو مظهر لما فوقها وهو الملكوت أي: عالم المثال المطلق، فإن الملك عالم المثال المقيد، والمطلق لا يظهر إلا في المقيد والملكوت مظهر الجبروت أي: عالم المجردات من العقول والنفوس، والجبروت عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية، وهي مظهر الأسماء الإلهية، وهي مظهر الشؤون الذاتية، فكل سافل أمثلة لعاليه، ووراء هذه الحضرات الأربع حضرة الأسماء المسمَّاة بالواحدية ومقام الجمع.

وحضرة الذات المسمَّاة بالأحدية ومقام جمع الجمع، وبين الواحدية والأحدية حضرة الهوية الأقرب من الأحدية.

وحضرة الآنية الأقرب إلى الواحدية، وهما ملحقان بالأحدية من حيث عدم شيء معهما كالأحدية، فاعرف هذا.

والحضرة الخامسة الحضرة الجامعة للحضرات المذكورة من الملك، والملكوت، والجبروت، والأعيان الثابتة، وعالمها عالم الإنسان، فإن الإنسان وإن كان من حيث صورته الجسمانية بعض من عالم الملك والشهادة، ومن حيث صورته الروحية من عالم

=

وإنما قلنا بالغيب الحقيقي المطلق لأنه ﷺ ذكر في الباب السابع والأربعين وأربعمائة من «**الفتوحات**»: أن لــه في نفسه ما لا يصح أن يعلم أصلاً هو الذي له بنفسه المشار إليه بقوله: ﴿**اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران:٩٧] فقوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾ [الحشر:٢٢] أراد الغيب بالنسبة إلينا وإلا لا غيب له والذي هو غيب بالنسبة إلينا يحمل الشهادة له تعالى أو نقول أنه عالم الغيب أو عالم بأنه غيب لا يصح أن يعلم أصلاً.

قال الشيخ الأكبر ﷺ: وهذا الذي نبهناك عليه من العلم بالله ما أظهرناه اختبارًا ولكن حكم الخبر علينا فتحفظ ولا تغفل عنه فإنه يعلمك الأدب مع الله انتهى كلامه ﷺ.

الملكوت، لكن جامع لجميع العوالم، ومشتمل على كل ما فيها فصار عالمًا برأسه، فلله دُرُّ القائل حيث قال:

دَوَاؤكَ فِيكَ ومَا تَشْعُره ... وداؤكَ منكَ ومَا تَبصرُ

وتزعمُ أنَّكَ جرمٌ صغيرٌ ... وفيكَ انطوَى العالَمُ الأكبر

فصاحب الاسم الأعظم يتصرف في هذه العوالم(١) كلها بالتصرف المناسب لكلّ

(١) قال سيدي ابن ناصر الكيلاني: العالم مأخوذ من العلامة، وهو عبارة عن كل ما سوى الله، والعوالم كثيرة جدًا، وأمهاتها هي الحضرات الوجوديَّة، وأول العوالم المتعيِّنة من العماء عالم المثال المطلق، ثم عالم الرسم، ثم عالم القلم واللوح، ثم عالم الطبيعة من حيث ظهور حكمها في الأجسام تحقيقي الهيولي، والجسم الكل، ثم العرش، ثم هكذا على الترتيب إلى أن ينتهي الأمر إلى الإنسان في عالم الدنيا، ثم عالم البرزخ، ثم عالم الحشر، ثم عالم جهنم، ثم عالم الجنان، ثم عالم الكثيب، ثم حضرة أُحديَّة الجمع والوجود الذي هو ينبوع جميع العوالم كلها، هكذا كاشفه صاحب الكشف الأتم، فافهم والله الهادي والمفهم. وانظر: مجمع البحرين شرح الفصين (بتحقيقنا).

وقال الغوث سيدي محمد وفا: اعلم وفَّقك الله أن العوالم الثلاث: وهو عالم العقل وبما فيه من أسرارٍ ذاتيةٍ، لاهوتيّة وصفات قدوسية واجبية، ومعان نورانية، هي أقوية التفرد والتحكمات.

وموضع إبداء الأسرار والصفات بالتجليات.

كان هذا عالم الجبروت، مفارقًا لما سواه بذاته وصفاته وإياه، وبما تنـزّه عن الزمان والمكان، والأين والمثل والكيف، والإطعام والأذواق، والألوان، وكانت النفس الناطقة وهي العالم القريب بالتجريد من صفاته المحققة بالتوحيد، هي عرشه وفرشه، وحضرته وقدسه، وهي عالم الملائكة العظام، والحجب المقدسة الكرام، ثم إن عالم الكون والفساد والطباع الأربعة الأكوان، وبما انحصروا في القوة الحيوان، ولذلك كان النتاج من حيث هذه الروح الحيوانية عن الكل بالجزء، تبرز نوادرًا من القوة للفعل، ثم تتطور وتنتقل من الاستعداد المعدني، ثم استعداد النبات، ثم استعداد الحيوان، ثم تتنزل الروح من العالم المشترك البرزخي، الذي هو الفصل بين العالمين، والوصل بين المتباعدين، عالم الروح الأمين بالاستعدادات الإنسانية إلى الكُمَّل من الأشخاص الحيوانية، وبما نزفت الممكنات الكونيات بتنزل الواجبات الآمريات، حكمةٌ كحكمة، وسنةٌ كسنة.

واعلم أنه ما خلف حجاب هذه الأكوان الحيوان غير عالم الجان، ونهايتها الإنسان، كما أن غاية الإنسان الرحمن، وما بين الإنسان والرحمن إلا الملائكة المقرَّبون، والأرواح القدسيون المكرمون، وما نزفت من الأرواح الحيوانية تكون بالملائكية، وإن عكست انتقلت إلى الشيطانية، ومهما نزفت من

منها، [....] وحفظ الحفيظ له واصل كتاب مبين به يظهر خفايا العلوم وما يضمر.

فبالعنصري هو الحادث، وبالباطني هو دائم هو الأزلي هو شامل كمال الجلاء به حاصل بهذا الكمال من العالم كفص الختام من الخاتم، ومن لا خفاء في ولايته لا يبعد عنه أكثر مما ذكرته.

٣١- لا تكون عبدًا لله، وأنت تميل إلى شيءٍ سواه.

فإن الإنسان لا يكون وليًا لله إلا بعد كونه عبدًا صرفًا له تعالى، وهو لا يكون إلا بقطع الالتفات عن كلّ شيءٍ في الأمور الكلية والجزئية، كما قاله الشيخ قُدِّس سرُّه:

(**لا تكون عبد الله، وأنت تميل إلى شيءٍ سواه**) أي: لا تكون أنت أيها السالك الطالب للوصول عبدًا صرفًا خالصًا لله تعالى، والحال إنك تميل إلى شيءٍ مما سواه تعالى، ولو مقدار فص نوات؛ لأنك حقًا تكون عبد ذلك المقدار ومقيدًا به، وقد ثبت أن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، بل متمول؛ لأنه لا يكون الإنسان عبدًا خالصًا لله حتى يكون حُرًّا مما سواه، وذلك بأن أفناه مولاه عن الهوى والميل إلى ما سواه بالحكمة، والحكم، والمعرفة، والحلم، وعن الإرادة المنسوبة إليك بالعلم فيبقى بلا هوى ولا إرادة، فيكشف لــه الأمر على ما هو عليه، فيتحقق بأنه الفاعل الموجود الشائي لما يريد، فلا فعل إلا فعله، لكنه ظهر فينا، ولا إرادة لأحد إلا بإرادته لا بإرادة نفسه كما يتوهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فحقًا تضمحل عنه العبودية[1] في الوحدانية المستهلكة فيها جميع الآثار والأسماء

=

الإنسانية إلى الملائكية فإلى النبوية، فإن أحجمت وقفت مع الملائكية، وإن نفدت فإلى الحضرات الرحمانية.

هذا فيما يُعطى الترقي والتلقي مع الجاذب الملكي، والدليل النبوي.

وأما فيما تُعطى التــنــزلات الربّانية بالبطانات السريانية، فتخصيصٌ لا يُعقل سره ولا يُدرك كنهه.

(١) قال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: (العبودية): وهي الذلة والافتقار وليست بنعت إلهي، ولهذا لما لم يجد أبو يزيد البسطامي شيئًا يتقرب به إلى الله تعالى ليس للألوهية فيه مدخل، قال: يارب بماذا أتقرب

=

=

إليك؟ فقال الله تعالى له: تقرَّب إليَّ بما ليس لي الذلة والافتقار انتهـــى.

فالعبد معناه الذليل، يُقال: أرضٌ معبَّدة: أي مذللة. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]: أي ليذلوا لي، ولا يَذلُ له من لا يعرفه، ولذا فسَّر ذلك ابن عباس بقوله: أي ليعرفوني فهو تفسير باللازم، وإنما خص هذين الجنسين بالذكر؛ لأنه لم يدع أحد الألوهية والتكبر على الله تعالى من سائر المخلوقات غيرهما، و لم يتحقق بمقام العبودية على كماله أحدًا مثل رسول الله ﷺ، وكان عبدًا مخلصًا في جميع الأحوال التي تخرجه عن مرتبته؛ ولذا شهد الله تعالى له بأنه عبد مضاف إليه بقوله: وإنه لما قام عبد الله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١]، ولما أمره تعالى بتعريف مقامه يوم القيامة قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» بالراء: أي ما قصدت الفخر عليكم بالسيادة، بل أردت تعريفكم بشري لكم؛ إذ أنتم مأمورون باتِّباعي.

ورُوي: «ولا فخز» بالزاي: أي ما قلته متبجح؛ إذ الفخز: التبجح بالباطل في صورة الحق، فالعبد مع الحق في حال عبوديته كالظل مع الشخص في مقابلة السراج، كلما قرب من السراج عظم الظل، ولا قرب من الله إلا بما هو لك لا له، وكلما بَعُدَ من السراج صغر الظل، ولا يبعدك عن الحق إلا خروجك عن صفتك التي تستحقها، وطمعك في صفته تعالى.

قال الشيخ الشعراني في رسالة الأنوار القدسية في معرفة أدب العبودية: واعلم أن سبب تعدي العبد عن حدوده كونه مخلوقًا على الصورة، ولله تعالى العزة والكبرياء والعظمة فسرن هذه الأحكام في العبد تحقيقًا للواقع، والكامل من العبيد هو الذي لا يصرفه خلقه على الصورة عن الفقر والذلة والعبودية؛ لما يعرف من نفسه من العجز والضعف والافتقار إلى أدنى الأشياء، والسَّالم من قرصة برغوث، وهذا يدركه كل إنسانٍ من نفسه ذوقًا، فليحذر العبد من رؤية نفسه على أحد من رعيته، ولو عبده الذي في رقه؛ لأنه ربما يكون عند الله أحسن منه حالاً، كما ورد في الحديث، وليحذر من قوله: تجعل رأسك برأسي أو مثلك بمثلي أو غير ذلك، فإن هذا كله دليل على الجهل والقساوة والكبر، والله لا يحب المتكبرين.

ولو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى يكرهه لكان ذلك كافيًا في الزجر؛ لأن العبيد كلهم حرمهم ورقيقهم ملك له تعالى، لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بما فضَّله سيده به، وهو لا يعلم إلا بوحي، فالزم الذل وترك الزجر لعبدك وخدمك إن كنت عبد الله انتهى. وانظر: شرح الحكم الكردية للشيخ الشرقاوي (١٣٧) بتحقيقنا.

والصفات، فيفنى هو ويبقى الربّ، فلا يرى لنفسه عملاً ولا وجودًا ولا إرادة، فتخلص عبادته، وإذا أخلصت عبادته يصير عبدًا صرفًا لله تعالى.

وقال بعضهم: المكاتب قنٌّ ما بقي عليه شيء من مال الكتابة، وإذ أوفى خرج من رق سيده لرق هواه، ودخل في رقّ نفسه فالرق للسيد أولى.

وقال أيضًا: المكاتب يسعى في طلب رزقه، وهو في ثلاثة سيده ودينه ونفسه، والعبد الصِّرف الخالص لا يسعى في طلب رزقه، بل هو يُحمل إليه وهو في رقّ سيد واحد انتهى.

وفي هذين الكلامين إشارة عظيمة **﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** [ق:٣٧].

وإنما كان الرزق يُحمل إلى العبد الخالص؛ لأنه لا يتحرك له، بل هو ساكن دائمًا، والمرزوق والرزق كل منهما في طلب الآخر، فإذا سكن أحدهما يتحرك الآخر، وإذا تحرك سكن الآخر.

ومن شأن العبد الخالص السكون وعدم التحرك لانسداد أبواب داره سوى باب واحد، والدار إذا كثرت منافذها كثر ضوئها، وقلّ أمنها فافهم وتأمل.

فعلى هذا عبد الله هو المنقطع عما سوى الله، ومتوجها بالكلية إلى الله، ولا ينبغي للعبد الميل إلى السوى؛ لأنه ما خُلق لهذا قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

فانحصرت غاية الخلق والإيجاد في العبادة والمعرفة، وإنه ما خلقه إلا لأجله، وفي الحديث القدسي: «**يا ابن آدم خلقتك لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك**[1]».

فلا شيء أعلى من الإنسان من هذه الحيثية، فهو وإن كان بالنسبة إلى الوجود العنصري أضعف الأشياء لكن بالنسبة إلى وجوده الروحي أكملها.

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/٣٦٦).

٣٢ - الحِكم الإلهية منبع الروح العليَّة.

كما أشار إليه الشيخ قُدِّس سرّه بقوله: (**الحِكم الإلهية منبع الروح العليَّة**) أي: العلوم والمعارف المتعلقة بالرتبة الإلهية التي هي أحدية جمع الأسماء الإلهية منبع ومنشأ للروح العلية الواحدة العظيمة، وهو أول مخلوق خلقه الله تعالى، فلا واسطة بينه وبين أمر الله، ولذا وصفها بالعليَّة؛ لأن العلو والسفل لا يتصور إن ثَمَّة إلا باعتبار عدم الوسائط وقلّتها وكثرتها، ولذا صار أعلى وعالٍ وسافل وأسفل، وهو المسمَّى بالحقيقة المحمَّدية أيضًا، وبالعقل والقلم الأعلى والحق المخلوق به الخلق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الحجر:٨٥] ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام:٣٧] قال النبي ﷺ: « **أول ما خلق الله العقل**[١]».

وفي آخر: «**أول ما خلق الله روح نبيك يا جابر**[٢]».

وفي رواية: «**نوري**[٣]» والكل صادق؛ لأن قلم الحق ليس كقلمنا، فقلمه ما يناسب عظمته وجلاله، وهو الروح المحمَّدي الذي ظهر به الموجود، وتميز العباد من المعبود، فلما نظر إليه بنظر المحبَّة غلب عليه الحياء فشق الروح فصار شقين شق منهما العقل، ولذا يكون الحياء في مواضع العقل دون غيرها، والشق الآخر الروح ولو شئت قلت: النور وهذا وإن كان ثلاثة ففي الحقيقة قلم واحد، أو نقول: العقل الأول، والقلم الأعلى، والروح المحمدية، والحقيقة المحمدية المراد بجميعها واحد حتى يحصل الجمع بين الأحاديث، وهذه الروح العلية المذكورة نشأت من الحِكَم الإلهية وهي معدنها، وهذا باعتبار عدم

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٩٠/٧)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٢٧٥/١).

(٢) روى عبد الرزاق في المصنف (١٨) عن معمر عن ابن المنكدر عن جابر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى؟ فقال: هو نور نبيك يا جابر خلقه الله، ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء... الحديث، وانظر: الجزء المفقود من الجزء الأول من مصنف عبد الرزاق (ص٦٣)، وتلقيح الفهوم للشيخ الأكبر (تحت الطبع بتحقيقنا)، وشرف المصطفى للخركوشي (٧٠٣/١)، وكشف الخفاء للعجلوني (٣١١/١)، والمواهب اللدنية (٧١/١)، ومواكب ربيع في مولد الشفيع للحلواني (ص٢٧، ٣٣).

(٣) رواه أحمد (١٢٨/٤)، والبيهقي في الشعب (١٣٤/٢)، وأبو نعيم (٩٠/٦).

الواسطة كما مرَّ وإلا فالكل من الحِكَم الإلهية، لكن بالواسطة قليلة أو كثيرة.

ولما كانت المرتبة الإلهية التي حكمها معدن الروح العليَّة عبارة عن أحدية جمع الأسماء والصفات الإلهية كانت الروح أحدية جمع مظهرياتها فهي حقيقة الحقائق، والمرتبة الإنسانية الكمالية الإلهية الجامعة للمراتب كلها، وهي المسمَّاة بحضرة الجمع، وأول مرتبة تعينت في غيب الذات، وآخر مرتبة ظهرت في الوجود فيها تتم الدائرة كما بدلت بها، فهي الوحدة الجامعة، والتعين الأول، والمقام الأقدم، والمبدأ الأول، والأب الأول، وعلة العلل، وأمَّا كون آدم الأب الأول فمن حيث الصورة لا المعنى، وسائر الأرواح من نور هذه الروح العليَّة، بل هي منشأ الخلائق كلها كما عرفت مما مرَّ، ولما كانت الأرواح من شعاع روح محمد ﷺ، وهو أكمل الأشياء، فالإنسان الحقيقي المعبر عنه بالعالم الأكبر، والفرد الكامل أيضًا كذلك بحكم التبعيَّة لا الأصالة، ولذا صار الإنسان كليًا.

وكل، وإن كان بحسب الصورة جزئيًا وجزء.

٣٣- بالفتح الألى أنت جزء وكلي.

كما قاله الشيخ قدس سره: (**بالفتح الألى أنت جزء وكلي**) أي: بالفتح الإلهي، والكشف الرباني أنت أيها السالك جزء من حقائق العالم أي: الأعيان الثابتة، ومن صوره التي هي الموجودات المتحققة في العالم باعتبار صورتك الجسمانية العنصرية، وجزئي أيضًا باعتبارها، وأنت أيها السالك كلي باعتبار صورتك الباطنة الروحانية أي: النشأة الجامعة بين النشأة الروحية والعنصرية التي هي أحدية جمع مظهريات الأسماء الإلهية لعموم هذه النشأة وحصره الحقائق كلها، ولهذا سمِّي الإنسان بالإنسان؛ إذ له مع كلٍّ حقيقة نسبة مخصوصة بها أنس الكل، وأنس الكل به.

ومن هذه النشأة خلقه الله على صورته أي: صفته تعالى في كل اسم وصفة ينسب إليه تعالى كما ورد في الحديث: «**إن الله خلق آدم على صورته**[1]».

وهذا لا يكون إلا لاعتبار نشأته الباطنة، وأحدية جمع روحه وقلبه، وقواه الروحانية،

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٢٢٩٩/٥)، وابن حبان في الصحيح (٤١٩/١٢)، والطبراني في الكبير (٢٩٧/٤)، وعبد الرازق في المصنف (٣٨٤/١٠).

فإذا كان آدم على صورته فالحكم جارٍ في ذريته لكن بمتابعته، ولكن لا تكون صورة الحق تعالى بالفعل إلا في الإنسان الكامل وفيما سواه بالقوة.

ولهذا قال تعالى في شأنه: «**كنت سمعه وبصره**[(١)]» اللذين هما من الصفات الباطنة، وما قال: كنت عينه وأذنه اللتين هما من الجوارح الظاهرة مع كونه صحيحًا لسريانه بهويته في الموجودات جميعها فرقًا بين صورته الظاهرة وصورته الباطنة، وكما أنك كلي بالاعتبار المذكور، فكذلك أنت كل لاندراج جميع ما في العالم فيك؛ لأنك إجمال العالم وهو تفصيلك، ولهذا يسمي النوع الإنساني بالعالم الأكبر أو الكبير بحسب المعنى، وبالصغير والأصغر بحسب الصورة، فالإنسان الكامل بحسب عينه الثابتة أحدية جمع جميع الأعيان الثابتة التي هي للعالم، وبحسب وجوده العيني أحدية جمع جميع الموجودات الخارجية، وبحسب عينه العلمية والوجودية معًا أحدية جمع جميع أعيانه الثبوتية، والخارجية معًا فأعيان العالم الثابتة تفصيل عينه الثابتة، والخارجية تفصيل عينه الخارجية، والمجموع تفصيل المجموع والتفصيل صورة الإجمال، والصورة شهادة بالنسبة إلى ذي الصورة، وكذلك الموجود العيني بالنسبة إلى وجوده العلمي، فالعالم شهادة والإنسان الكامل عينها والأجسام عنصرية كانت أو غير عنصرية حجب ظلمانية، والأرواح حجب نورانية مثالية كانت الأرواح أو روحية، والإنسان ظلماني ونوراني؛ لأنه بين كثيف من حيث صورته العنصرية، وبين لطيف من حيث صورته الروحية؛ لأن الأرواح لطيفة كلها، ومن هذه الجهة لا ترى في خلق الرحمن من تفاوت، وقد مرَّ في كلام الشيخ أنه قال: «توافق الخلق من حيث لطائف الأرواح، واختلفوا من حيث كثائف الأشباح، وليس كل أحد يعرف ويدرك لطافة الأرواح إلا من خرج من كثافة الأشباح».

٣٤ – لا يرى لطائف الأرواح إلا من تصفَّى من كثائف الأشباح.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: «**لا يرى لطائف الأرواح إلا من تصفَّى من كثائف الأشباح**» أي: لا يشاهد الأرواح اللطيفة فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف.

ويحتمل أن تكون الإضافة لامية.

---

(١) تقدم تخريجه.

والمراد (**باللطائف**) الحقائق أي: لا يدرك حقائق الأرواح، ويحتمل أن تكون الإضافة بيانية أي: لطائف هي الأرواح المودعة في ذوات الموجودات، فاختص كل موجود بلطيفة وهي السر الذي بين الحق والعبد لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ لأنه من أمر الله، وأمر الله مجهول، وقد قال الله تعالى أمرًا إلى رسوله:

﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[الإسراء: ٨٥]، وعلى التقدير لا يرى ولا يشهد ذوقًا ووجدانًا لطائف الأرواح أحد من أهل العقول إلا الرجل الذي تصفّى أي: صار صافيًا من كدورات الأشباح الكثيفة؛ لأنه لا يرى النور إلا بالنور، ولا اللطيف إلا باللطيف؛ إذ الكثيف ظلمة والظلمة عدم والعدم غير مدرك، ومع هذا لا يرى النور المحض ما لم يمتزج بظلمة ما، كما أن الظلمة لا تدرك إلا بالنور فافهم.

فعلى ما ذكرنا الإضافة في (**كثائف الأشباح**) من إضافة الصفة إلى الموصوف، والمضاف مقدر وهو مجرور (مِن) في الحقيقة كما عرفت، ويجوز أن تكون الإضافة للاختصاص لكون الكثائف من لوازم الأشباح، كما أن اللطائف من لوازم الأرواح، وحقًا المراد بها الصفات الذميمة المقتضيات للبشرية والمال واحد والاختلاف في العبارة، وعلى هذا يجوز أن يراد باللطائف في الاحتمال الثاني من الاحتمالات الثلاث في الإضافة ما أودعه الله في الأرواح من الخصائص الحكمية والأسرار الربانية دون الحقائق كما قررنا؛ لأن كل شيءٍ مملوء من اللطائف والخصائص بحيث لا يبقى فيه موضوع يسع ما في الغير، ولهذا قال الشيخ الأكبر في فصوص الحكم: «ما في أحد من الله شيء، ولا في أحد من سوى نفسه شيء» أي: الله تعالى يظهر ما كان مستورًا وموجودًا فيه بالقوة، وما يظهر فيه إلا ما كان مستورًا فيه، ولا يعرف هذا على ما قاله الشيخ قُدِّس سرّه في «الفصوص»: المذكور إلا من كان عين صفاء خلاصة خاصة الخاصة من عموم أهل الله، فعموم أهل الله المؤمنون الموحدون، وخاصتهم السالكون السائرون، وخاصة تلك الخاصة الذين بقرب النوافل متحقّقون، وخلاصتهم الذين بقرب الفرائض واصلون، وصفاء الخلاصة وصفوهم صاحب مقام قاب قوسين الجامع بين القربين، وعين الصفا صاحب أو أدنى الذي له في المقامات الثلاثة دوران، ولا يتقيد بواحد منها في زمن من الأزمان، وهذا المقام مختص بنبينا ﷺ وكُمَّل ورثته.

ثم أشار قُدِّس سرّه: إلى أنه لا اعتبار بالصورة، وإنما المعتبر المعنى، والصورة وسيلة لدرك المعنى.

ولذا قيل: صورة الشيء ما به يحسّ الشيء أو يعقل، والمعتبر من المعاني، والحقائق المعنى الأصلي الذي قام بنفسه، وجميع المعاني قائمة به، وهو الوجود المطلق عن قيد الإطلاق، فإن الوجودات المتقيدة منشأها هو الوجود المطلق، ولا فرق إلا بالإطلاق والتقيد، والمقيد عين المطلق برفع قيده، فمنه المبدأ وإليه الميعاد يوم التنادي.

٣٥- لما سقطت نقطة سرّ الحقيقة انطبع فيها صور الأكوان، فلما تجردت إلى مركزها تركت كل صورة في كون بها، وتجرّدت للرحمن.

فقال ﷺ: (**لما سقطت نقطة سرٍّ الحقيقة انطبع فيها صور الأكوان، فلما تجردت إلى مركزها تركت كل صورة في كون بها، وتجرَّدت للرحمن**).

اعلم أيها السالك الطالب للتحقيق وفقنا الله وإياك على سواء الطريق، وأجارنا الله وإياك من ظلمات أهل الإلحاد، والزنديق أن الشيخ ﷺ أدرج في هذا الكلام جميع الأحكام، وبين فيه ما هو مفتاح الأصول ودهر الدهور، مع ما يندرج فيها من الشؤون الذاتية، والحقائق الإلهية، والكونية، وكيفية البدء والعود، وجميع ما في الكتاب راجع إليه، بل كل المسطورات محمول عليه فهو العلم الفاخر والبحر الزاخر.

ومن تحقق به يصل إلى غاية الغايات، ويرتقى جميع الدرجات والمقامات، وهو يحتاج إلى بيان معنى ألفاظه، وإظهار نكاته، وتوضيح إشاراته، وعدّ مراتبه، وذكر أكثر ما هو مصطلح القوم، وهذا وإن كان يحتاج إلى مجلدات كثيرة، بل الأقلام عن ترقيمه عليلة مكسورة، والأوراق لنقوشه مفقودة، والبحور لمداده قليلة، لكن نشير إلى نبذة منه بعون الله وحسن توفيقه بحيث تشبع الجوعان وتروي الظمآن، وتطفئ نار الطلب في أفراد الإنسان.

* * *

مطلب بيان مراتب الذات

فنقول وبالله التوفيق: اعلم أيدك الله أن الله تعالى لما أحب في شأن ذاته البطون أن يظهر من كنـــزيته المخفية المشار إليها بحديث: «**كنت كنـــزًا مخفيًا**[١]» إلى آخره تعين بالتعين الخاص الذاتي اللائق بجنابه الأقدس.

وهو أول مرتبة من مراتب الذات أي: مراتب التنـــزلية، وقبلها كانت غيبًا مطلقًا وغيب الغيب، والذات الإلهية كلّت العبارات دونها، وانقطعت الإشارات قبل الوصول إلى سرادق حرمها، ولذا سميت بمنقطع الإشارات، وبمجهول الغيب، وسمّاها بعضهم بالعد المقدم على الوجود أي: عدم لحوق النسبة الوجودية لمطلق الصرافة الذاتية المعراة عن النسبة وغيرها لا بمعنى أنها معدومة، فتوجد تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فهي مجهولة من كل الجهات لا تُعرف بوجه أبدًا، فهي المسكوت عنها على ما قالت هذه الطائفة.

وهي المشار إليه بالعماء[٢] في قوله ﷺ لما سئل عنه أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هو في اللغة بمعنى: السحاب الرقيق، على الأول بمعنى: الحضرة الأحدية، وعلى الثاني: بمعنى الحضرة العلمية، فالمشترك مستعمل في كلا معنييه على تقدير التعميم، أو يجعل من باب عموم المجاز.

ووجه المناسبة بين المنقول منه، والمنقول إليه: أن السحاب بين السماء والأرض، والأحدية بين الغيب المطلق والواحدية، والعلم بين العالم والمعلوم، وفي كلامه قُدِّس سره إشارةٌ إلى أن الإفاضة على طبق العلم، والعلم تابعٌ للمعلوم فكل ما في الخارج محذي على طبق عينه ﴿**مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ**﴾ [الملك:٣].

وكون العلم تابعًا للمعلوم بالنظر إلى حضرة الأعيان القديمة التي أعطت الحق العلم التفصيلي بها، وأما بالنظر إلى رتبة العلم الإجمالي الكلي، فالمعلوم تابع للعلم؛ لأن الحق لما تجلّى من ذاته لذاته بالفيض الأقدس حصلت الأعيان واستعداداتها، فلم تحصل عن جهل تعالى الله عن ذلك.

ويوصف العماء بالرباني نظرًا للفيض المقدّس في صورة التعميم، أو لأن صفة التربية كانت كامنة في الحضرة الأحدية، وآخر عطف على أول التنـــزلات الظهورات الأكملية؛ إذ هو ﷺ غاية الغايات، وأكمل كمال النهايات التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كيف وهو الظهور التام، والمظهر العام، وليس في الإمكان أبدع مما كان، ولو كان لكان، فإنه لأشرف من الوجود، وقد تجلّى به كمال التجلي =

=

في الحقيقة والشهود. وهو مرتبة الأحدية، كما صرَّح به الشريف الجرجاني في تعريفاته.

وهذا بناء على ما قررناه من حملنا التعينات على قيودات الذات الأوليَّة، التي في مقابلتها الصور العلمية كما ذكرناه، هذا وإن كان صحيحًا في نفسه؛ لأنه من اصطلاحاتهم، فهو غير مراد هنا لحضرة الشيخ، وإنما ذكرناه تتميمًا للفائدة.

وقيل: إنما يراد بالعماء النفس الرحماني الذي يعبر عنه بالوجود الحق المتعين بالتعينات، وهو أول غيب ظهر، وبه وفيه ظهرت صور الأشياء، والربَّاني نسبة للرب تعالى؛ لأن الحق فيه من اسمه الرب.

كما أنه على العرش باسم الرحمن، وهذا العماء أين الحق، وهويته: أي أول ما ظهر فيه تعالى.

وشاهد ذلك حديث: أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ فقال ﷺ: «كان في عماء ما تحته هواء ولا فوقه هواء».

دفعًا لتوهم أن يراد بالعماء معناه اللغوي، الذي فوقه هواء وتحته هواء؛ لأنه عبارة عن الغيم الرقيق، وإذا كان أين الرب تعالى كان عينه؛ لأنه لا يكون هوية له تعالى إلا عينه، وعلى هذا يكون المراد بالتعينات ما يعين النفس الرحماني حتى يكون بذلك التعين أعيانًا وجودية علمية، سواء كانت غيبًا كالأرواح والعقول والنفوس، أم شهادات كالجسم والفلك، الكل فما تنازل عنه من عالم الشهادة، ولا شك أن أول التعينات: أي أول ما تعين به هذا النفس الذي هو العماء، وكان عينًا وجودية هو الصورة المحمدية المعبر عنها بالعقل الأول، والقلم الأعلى، والنور المحمدي، والحق المخلوق به، وقد يعبر عنها بالإنسان الكامل؛ إذ الظاهر مطابق للباطن، يعني كما أنه ﷺ أول التعينات في عالم المعاني كما ذكرنا، كان أول التعينات في الظاهر.

ولو كان غيبا فيكون مبدأ في كل عالم، ومنه تتفرع الأشياء؛ إذ هو الأب الأكبر.

قال العارف ابن الفارض مُترجمًا عن لسان الحضرة:

وإنِّي، وإن كنتُ ابن آدم صورةً فلي فيه معنًى شاهدٌ بأُبوتي

شاهد ذلك قوله ﷺ: «أول ما خلق الله نوري».

وقوله ﷺ: «وإني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وكنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين».

وحديث الكوكب عند سؤاله ﷺ جبريل عن عمره فقال: «إن كوكبًا يظهر في كل سبعين ألف سنة مرة، وإني شاهدته سبعين ألف سنة فقال ﷺ: أنا ذلك الكوكب».

=

«كان في عماء ما فوقه هوا ولا تحته هواء[1]» أي: ليس فوقه صفة، ولا تحته نسبة، ولذا قال بعض المحققين: أن العماء غير داخل في مراتب الوجود، بل هو أمر وراء الوجود.

وقال الولي الكامل محمد الصوفي المدعو بدمرداش: إن العماء أول مرتبة من مراتب

=

فإن قلت: كيف ذلك العدد والمبالغة فيه؟

قلت: إذا صحَّ الحديث فلا إشكال؛ إذ ذلك كان في عالم الأرواح، وهي قديمة عندهم قدمًا غير ما يقوله الحكماء. فإن قلت: كيف تكون قديمة وهي مخلوقة؟

قلت: لا منافاة كما تقدَّم قبل هذا.

وقد ذكر حضرة الشيخ ﷺ في الفتوحات في الباب الحادي والسبعين بعد الثلاثمائة مسائل تتعلق بهذا البحث. ولنذكر نبذة منها تبركًا بأنفاس الشيخ، قال ﷺ:

ثم أوجد في هذا العماء جميع صور العالم، الذي قال تعالى فيه أنه: ﴿**هَالِكٌ**﴾ [القصص:٨٨]، يعني من حيث صوره لا وجهه، يعني إلا من حقيقته، فإنه غير هالك، ولا يمكن أن يهلك.

أقول: قد جعل حضرته ﷺ في غير هذا الموضع وجه الشيء عبارة عن الحق تعالى.

قال البيضاوي: في قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]: أي إلا الجهة التي تلي جهته تعالى.

ثم قال الشيخ: فصورة العالم بجملته صورة دائرة فلكية، ثم اختلفت فيها صور الأشكال إلى ما لا يتناهى، حكمًا لا وجودًا.

أقول: عنى بقوله: (حكمًا لا وجودًا) أن وجود العالم متناه بتناهي الدنيا دون حكمه، فإن له حكمًا في البرزخ غير هذا الحكم، وكذا في الدار الآخرة.

ثم قال: والملائكة الحافون حول العرش ما لهم سياحة إلا في هذا العماء المستدير، الذي ظهر فيه عين العرش على التربيع، وحملته من صور المعاني، وصور أجسامها الحروف الدالة عليها، وهي:

أ ب ج د هـ و ز...إلخ.

وفيه ظهرت الملائكة المهيمة، والعقل والنفس، والطبيعة الذاتية، التي هي عين هذا النفس الرحماني بما فيه، وهي غير الطبيعة التي رتبتها دون النفس التي قال بها الحكماء، فإن حضرة المولى لا يقول بها أصلاً.

(١) رواه الترمذي في السنن (٥/٢٨٨) بنحوه، ابن ماجة في السنن (١/٦٤)، أحمد بن حنبل في المسند (٤/١١).

الوجود، وهو أول موصوف بكينونة الحق فيه فإن له تعالى خمس كينونات:

أولها هذا، والثاني كينونته في العرش، والثالث في السماء، والرابع في الأرض، والخامس في الموجودات، وهي الكينونة العامة قال الله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [الرحمن:٥].

وقال أيضًا: ﴿**وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ**﴾ [الأنعام:٣].

﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ**﴾[الزخرف:٨٤]، ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد:٥].

وقال النبي ﷺ: « **ينـــزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا**[1]»، وعنده أن الموجودات جميعها ظهرت في العماء بكن أو باليد الإلهية أو اليدين أو الأيد، وأمَّا نفس العماء فبالنفس الرحماني الباعث له الحب الذاتي، ولذا سُمِّي بالعماء عنده؛ لأنه هو السحاب المتولد من الأبخرة التي هي نفس العناصر لما فيه من الحرارة والرطوبة، وعنده أيضًا هو الحق المخلوق به كل شيء، وأول ما ظهر في الوجود في عين العماء الحقيقة الكلية المحمَّدية الجامعة للمراتب كلها فظهر فيه الملائكة المهيمنة الجلالية والجمالية، ثم أخرج من الهيمان كاملاً قابلاً لجميع الكمالات، وهو العقل الأول والروح المحمَّدي والقلم الأعلى، ثم انبعث من العقل الأول النفس الكلية، ثم انبعث منها الجوهر الهبائي وهو جوهر مظلم لا نوراني، فلم يزل يظهر في العماء صور أجناس العالم شيئًا فشيئًا وطوراً بعد طور إلى أن كمل صور الأجناس، وأمَّا الأشخاص فتكون بعدها تكوين استحالة من وجود إلى وجود لا من عدم إلى وجود هذا كلامه.

وقال بعض آخر: أول المراتب المدد الإلهي المسمَّى بحقيقة الهيولي الأصلية، والطبيعة الكبرى، ثم القلم الأعلى، ثم اللوح، ثم العرش، ثم الكرسي، ثم فلك رجل ثم فلك المشتري، ثم فلك المريخ، ثم فلك الشمس، ثم فلك الزهرة، ثم فلك عطارد، ثم فلك القمر، ثم كرة النار، ثم الهواء، ثم الماء، ثم التراب، ثم المعدن، ثم النبات، ثم الحيوان.

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي قدس سره في كتاب: «المشكل من الفتوحات»:

---

(١) رواه مسلم (٥٢١/١)، والترمذي (٣٠٦/٢)، وأحمد (٤١٩/٢)، والدارمي في السنن (٤١٢/١).

«الإنسان عين الوجود، ووجود عين الإنسان الموجود لما أحبَّ الحق تعالى الظهور من ذاته لذاته بمقتضى ذاته قسم ذاته قسمين من غير تعدد في العين، فسمَّى الأول بالواجب، والقديم والرب والفاعل، ويسمَّى الثاني بالممكن والحادث والعبد والمنفعل».

فأول ما ظهر في الأول على ما قاله في كتاب «مراتب الوجود»: الغيب المطلق ثم الأحدية المسمَّاة بالتجلي الأول الرابطة بين البطون والظهور، ثم الواحدية التي تظهر فيها الأسماء والصفات والمظاهر بالشأن الذاتي لا بالشؤون فما ثَمَّة امتياز؛ لأنها القابلة للظهور والبطون، ويسمونها الأعيان الثابتة، وحضرة الجمع، والوجود، وحضرة الأسماء، والصفات، ومنشأ السوى، ثم الألوهية التي هي الظهور الصرف، وفيها تمايز كل عن الآخر، ويسمونها بنشأة الكثرة الوجودية، وحضرة التعينات الإلهية وحضرة جمع الجمع، ومجلى الأسماء، والصفات الأكملية، ومرتبة المراتب، ثم الرحمانية المعبر عنها بالوجود الساري المشار إليها في قول رسول الله ﷺ: «**بنفس الرحمن**[1]».

ثم الربوبية المتعين فيها وجود العبودية، وظهور مواقع الجلال والجمال، وهي المسمَّاة بحضرة القدس، ومنها إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتعيين المجازات بالنعيم للمطيع والعقاب للعاصي، ثم المالكية التي هي حضرة نفوذ الأمور والنهي.

ومنها قوله تعالى : ﴿**كُن فَيَكُونُ**﴾ [مريم:٣٥]، ثم الأسماء، والصفات النفسية، وهي:

الحياة والعلم والإرادة والقدرة، وهي أمهات الأسماء في الحقيقة، فلا ينافي القول بأنها الصفات السبع الكمالية تأمل، ثم حضرة الأسماء الجلالية مثل الكبير والعظيم والعزيز وغير ذلك، ثم الجمالية كالرحيم والسلام والمؤمن والمهيمن وغير ذلك، ويلحق بها الأول والآخر والظاهر والباطن والقريب والبعيد، ثم الفعلية سواء كانت جلالية كالقهار والمنتقم والمميت، أو جمالية كالمحي والرزاق والخالق، وأول ما يظهر في الثاني عالم الإمكان وهو البرزخ بين الوجودين أي: الحقيقي والمجازي، ولا يطلق عليه العدم، ولا الوجود لما فيه من قبول الجهتين، فلا يصح وقوع اسم العدم على الممكن من كل وجه إلا بنسبة ما فيصح عليه مقابلة تلك النسبة اسم الوجود الوجود أيضًا، فلا وجود ولا عدم.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٢٩٨)، النسائي في السنن (٦/٢٣٢).

فالوجود عبارة عن الحق، والعدم عبارة عن الخلق، فالخلق معدوم والحق موجود، والممكن متوسط بينهما، فالمعبر عنه بالعقل الأول، والقلم الأعلى، والروح المحمدية، فالحقيقة المحمدية أول مخلوق، وهي النتيجة الإلهية صورة ومعنى، أمَّا صورة؛ فلأن الله تعالى خلق في الإنسان كل صور الموجودات، وحقائقها جملة وتفصيلاً، فهو نسخة العالم وهو صورة الحق تعالى؛ لأن صورة الشيء ما به يحس الشيء أو يعقل، وهو تعالى يعقل بالعالم، وأمَّا معنى؛ فلأن الإنسان قابل لجميع الأسماء والصفات الإلهية وظهرت فيه أمهاها وأئمتها من الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام.

فالروح الأعظم أي: النفس الكلية المعبر عنها بالإمام المبين، فالعرش المسمى بالجسم الكلي، وهو مستوى الرحمان فالكرسي، وهو عبارة عن مستوى الفعلية، فالأرواح العلوية، فالطبيعة المجردة عن الاستقصات أي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، فالهيولي أي: حضرة التشكيل والتصوير فالهبا: أي المكان الحكمي؛ لأن العالم متحيز كله لابد له من حيز، فإن كان ذلك الحيز مخلوقًا، فقد دخل في العالم فلا بد له من مكان آخر، وهكذا إلى أن يتسلل ويدور؛ إذ ينتهي إلى محل حكمي لا يكون خلقًا حتى يدخل في جنس العالم ولا حقا مطلقًا؛ لأنه لا يكون ظرفًا لغير، ولا الغير طرفًا له، فالجوهر الفرد الذي هو أصل الأجسام، فالمركبات علمية كانت أو عينية أو سمعية جسمانية أو روحانية أو نورانية، فالفلك الأطلسي؛ لأنه لا نجم ولا كوكب فيه.

وقال الجيلي قدس سره: «شاهدت في موضع من هذا الفلك فلكًا صغيرًا يدور سبعين ألف مرة في مدة طبق الجفن وفتحه، ويسمى بفلك الآن؛ لأن كل دورة من دوراته تسمَّي أنا فالفلك المكوكب المسمى بنقطة البروج وفلك الأفلاك، ويقال: الفلك المكوكب؛ لأنه فيه جميع الكواكب ما خلا السبعة التي في السماوات السبع، فالكوكب في فلكه كالحوت في الماء، فسماء زحل الذي هو سماء سيدنا إبراهيم عليه السلام، فسماء المشتري الذي هو سماء سيدنا موسى عليه السلام فسماء بهدام أي: المريخ الذي هو سماء سيدنا يحيى عليه السلام، فسماء الشمس الذي فيه إدريس عليه السلام، فسماء الزهرة الذي فيه سيدنا يوسف عليه السلام، فسماء الكاتب أي: العطارد الذي هو لنوح عليه السلام، فسماء القمر الذي هو لسيدنا آدم عليه السلام، فالفلك الأثير أي: الكرة النارية، فالفلك المأثور أي: الكرة الهوائية، فالفلك المتأثر أي: الكرة المائية، فالفلك المتأثر أيضًا المسمَّي بالكرة الترابية، فالمعدن، فالنبات، فالحيوان،

فالإنسان الذي هو الجامع للحقائق الحقية والخلقية وبه كمل العالم».

فإذا أوعيت هذا: **(فالنقطة هي سر الحقيقة)**، فالإضافة بيانية، والمراد بسقوطها التنـــزل إلى الحقائق الحقية والخلقية؛ والمراد بسر الحقيقة الأمر الإلهي النازل على كلّ شيء القائم به كل شيء، والمراد بالحقيقة حقيقة الحقائق العالية الواجبة الفعالة المؤثرة، فإضافة السر إليها غير بيانية، أو المراد الهوية الغيبية السارية في كل ممكن موجود، فالإضافة حقًا بيانية، والمال واحد في الحقيقة، فنقطة سر الهوية الغيبية المطلقة إشارة إلى أوائل التجليات الإيجادية في امتدادات النفس الرحمانية[1] لإظهار الحقائق الكونية، فهي كالنقطة من عالم الرقم، فإنها هيئة جمعية أحدية مراتب مخارج الحروف الرقمية، ومدارج أشكالها، وهيئاتها الحسية نسبة صورتها إلى مدارج الحروف والكلمات نسبة التعين الأول من المتعين إلى مراتب الموجودات أي: أعيانها، فهي مبدأ امتداد نفس الألفية، والألف صورة جمعيتها، وقائم بها فهي قيوم للألف قيوم للحروف كلها، فالنفس الرحمانية سارية في جميع حقائق أرواح الممكنات، وهي عين الكل مع احتفائها في ماهيتها واحتجاها بخصوصياتها، وكما أن النقطة عين حقيقة الألف، والألف عين التعينات الحروفية الظاهرة من الامتدادات النفسية الإنسانية، والنقطة لا تدرك مع الألف مع أنها معها حيث كانت كذلك الحقيقة المطلقة عين التعين الأول والتعين الأول عين حقائق الموجودات كلها علويها وسفليها وهو معهم أينما كانوا، والحال إن هذا لا يدرك.

---

(١) (النفس الرحماني): هو عبارة عن الوجود الحق المتعين بالتعينات: أي الهيولي الحاملة لصور الموجودات، كما أن النفس الإنساني حامل لصور الحروف.

قال الشيخ: النفس الرحماني في العالم كآدم في البشر، وسُمِّي نفسًا لأنه أول ما ظهر عن الغيب المطلق ظهور النفس عن المتنفس، وقد يُطلق عليه لفظ العماء كما أسلفناه عند قوله من العماء الربَّاني، ووصفه بالرحماني؛ لنسبته إلى الاسم الرحمن في قوله ﷺ:

«إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن». وخُصَّ الاسم (الرحمن) بهذه النسبة لجمعيته، وهو هنا أنسب من الاسم (الله). لدلالته بالإشارة على أن انبساط هذا الوجود كان بالرحمة الذاتية.

وخُصَّت اليمن بالذكر لحلول أُويس القرني فيها؛ إذ كان له في مظهر هذا الاسم نصيب، ونبينا ﷺ هو النفس الرحماني الساري.

وكما أن النقطة مادة لصورة الألف، والألف هيولي لصور الحروف، وحقائق الحروف تعيناها كذلك الهوية الغيبية مادة النفس الرحمانية والنفس مادة الكلمات الأكوانية، وصورها تنوعات تجلياتها، وتمثلات تصرفاتها، وقابليات آثارها، وانطباع صور الأكوان فيها ظهورها، وثبوتها.

والصور في طور التحقيق الكشفي، على ما قال الفاضل عبد الرحمن الجامي رحمه الله في «شرح الفصوص»: على قسمين علوية وسفلية.

والعلوية أيضًا على قسمين: حقيقية وإضافية، فالأول صور الأسماء الربوبية، والحقائق الوجوبية، ومادتها العماء، والحقيقة الفعالة لها أحدية جمع ذات الألوهية، والثاني حقائق الأرواح العقلية والمهيمية، والنفسية، وهيولاها أي: هيولي الصور الروحانية النور، والسفلية أيضًا على قسمين علوية، وسفلية فمن الأول الصور الروحانية، وصور العالم المثال المطلق أو المقيد، ومن الثاني صور عالم الأجسام الغير العنصرية مثل: العرش والكرسي ومادتها الجسم الكل، ومنه صور العناصر والعنصريات، ومن العنصريات الصور الهوائية والنارية والمارجية ومادتها الهواء والنار، وما اختلط معهما من الثقلين الباقيين من الأركان المغلوبين في الخفيفين، وأمَّا السفلية الحقيقية فما غلب في نشأته الثقلان على الخفيفين، فالثقلان الأرض والماء، والخفيفان النار والهواء، وهي ثلاث أقسام معدنية ونباتية وحيوانية، والقسم الآخر آخر مراتب الوجود، وكل من هذه الصور عالم، وكل عالم مشتمل على صور شخصية غير متناهية لا يحصيها إلا الله تعالى، والحقيقة الفعَّالة الإلهية فاعلة بباطنها الصور الأسمائية وبظاهر ما عداها من الصور، فالحقيقة الإلهية أصل جميع الصور؛ لأن أصل الأصل أصل، والطبيعة الكلية التي هي مظهر لها أصل صورة العالم كله، وتجرد النقطة إلى مركزها رجوعها إلى الأصل الجامع، وتركها الصورة كلها في كون بها زوال الظهور عن الصور ورجوعها إلى ظلمتها الأصلية وتجردها للرحمن؛ لأن الإيجاد والظهور من مرتبة الرحمانية فافهم.

والمعنى أن الحق سبحانه وتعالى لما أحبَّ في شأن ذاته البطون أن يظهر من كنـــزيته التي أفادنا إيَّاها بكلامه القديم على لسان رسوله الكريم في جواب النبي العظيم:

«**كنت كنــزا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق؛ لأن أعرف**[(١)]» ظهورًا على حكم شؤونه الذاتية، فسقطت، وتنــزلت النقطات التي هي سر حقيقة الحقائق، وهي الهوية الغيبية فانطبع فيها صور الأكوان بعد ما ظهرت في محل حكمي ليس بحق ولا بخلق حتى لا يلزم كون الحق ظرفًا للغير، كما مرَّ فتشكلت وتصورت بأشكال العالم وصوره ونسبه وإضافاته وأحكامه كلها صورة، ومعنى ،ظهورًا، وبطونًا فناء، وبقاء، عينًا، وحكمًا، وجودًا، وشهودًا، فما في الوجود المحقق إلا الله وما سواه في الوجود الخيالي لا الحقيقي، فكل ما سوى الحق خيال حائل وظلّ زائل، فالعالم ما ظهر إلا في الخيال فهو متخيل لنفسه، فهو هو وما هو هو، فإنه تعالى نفى عين ما أثبت، وأثبت عين ما نفى في قوله القديم: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾[الأنفال:١٧] فلا يخلو وجه الحق من العالم وإلا ما كان الحق إلهًا، وكان العالم مستقلاً بنفسه دونه وهو محال، فالعالم هو، والناطق هو، والمحرك هو، والمسكن هو، والظاهر هو، وهو الظاهر بصور العالم بحسب تعين تجلياته، وهي الصور المختلفة التي لا ظهر لها إلا في المتصل، فما أوسع دائرة الخيال فيها يظهر وجود المحال.

وفيه أنشدوا هذين البيتين:

لمــن كــان في علم الحقيقة راقي رأيــت ظــل خيال الظل أكبر عبرة
شــخوص ومحــال تمــرد وتنقضــي ويفــنوا جمــيعًا والمحــرك بــاقي

فالحق لا يقبل الصور من حيث أنه مطلق، وقد قبل التشكل بالظهور في الأنفس والآفاق، فالشكل والصورة إنما هي في حضرة الخيال فهو كرؤية النائم نفسه على صورته المعهودة في مدينة أخرى على حالة أخرى غير حالته التي هو عليها، وكرؤية أصحاب السلوك النبي ﷺ، أو الحق في صور متعددة مع أن العين واحدة، فتحول الحق من حيث التجلي الأسمائي دون الذاتي ثابت محقق كما روى البخاري ﷺ من رواية أبي هريرة ﷺ في حديث التحول قال:«**فيأتيهم الله تعالى في غير صورته التي يعرفونه بها فيقول: أنا ربكم، فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتى ربنا عرفناه،**

(١) تقدم تخريجه.

فيأتيهم في الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا[١]».

ولما تجردت تلك النقطة إلى مركزها، ورجعت آثار التجليات التقيدية إلى إطلاقها الأولية بالعروج من مظاهر السفليات الظاهرة إلى باطن غيوب العلويات، ومنها إلى غيب الأحدية، وحقيقة الهوية تركت أي: النقطة المقيدة بخصوصيات القوابل الظاهر من تقييدها صور متعددة متكثرة كل صورة ظاهرة بها في كون بها أي: بتلك النقطة لزوال الصور بزوالها عنها ورجوعها إلى أصلها ومركزها، وتجددت تلك النقطة للرحمن.

وهذا هو طور السالك مسالك العرفان الواجد روائح روح العيان المهذب بأنوار السكينة في عرصة الاطمئنان؛ لأنه في مقام الجمع ففني، وانسلخ عن كل شيء، فهو بائن بجلان المرتقى إلى روح عالم البقاء بأن انتقل من درجات الجمع والفناء ووصل إلى عالم التمكين والبقاء، فإنه كائن بائن أي: كائن مع الحق بائن عن الخلق أو كائن مع الخلق بائن عما هم فيه، ويحتمل أن المراد أن النقطة تنزلت من حضرة إلى حضرة إلى أن وصلت إلى المبدأ الأول وهو الإنسان الكامل إذ منه بدأ، وإليه رجع الأمر، وهو على صورة الرحمن القائم بحقائق الأسماء والأكوان قال النبي ﷺ: « **إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن[٢]**»، وفي رواية:«**على صورته[٣]**»، فصورته الظاهرية نسخة حقائق العالم، والباطنية: نسخة الاسم الأعظم فصار ختمًا كما كان بدءًا، وقوله: (**تجردت للرحمن**): إشارة إلى هذا، والله أعلم.

٣٦- لا يتصرَّف بالأسماء، والحروف إلا من صار غيبه له مكشوفًا.

ثم بيَّن أن العبد لا يدخل في التمكين، والتصرف إلا بعدما يصير الغيب له شهودًا، فلا يبقى له في الغيب تردد كالمحسوس، فقال: (**لا يتصرَّف بالأسماء، والحروف إلا من صار غيبه له مكشوفًا**) أي: لا يكون من أهل التصرُّف، ولا يقدر على التصرف بالأسماء الإلهية، والحروف السفلية، والعلويَّة أحد من الآحاد إلا الذي صار الغيب له كالمكشوف

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٤٠٣)، ومسلم (١/١٦٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

في ظهوره عنده، وتحققه ورسوخه في قلبه، وفي بعض النسخ (**مكشوف**) بلا تنوين فلعلّه لتناسب الحروف، وإلا فهو خبر لصار فيجب أن يكون منصوبًا بالتنوين فتأمل.

واعلم أن (**الحروف**)[١] في اصطلاح الصوفية من المحقّقين هي: الأسماء والصفات الإلهيّة، فيكون عطف تفسير للأسماء والحروف، على ما قال الفاضل الكامل المكمَّل الشيخ الجيلي قُدِّس سره[٢] في «الناموس الأعظم» على ثمانية أنواع:

---

(١) معنى الحروف هاهنا تمييز العلم في حال الاستقلال بصرف التقييد لأنه لابد له من التمييز والظهور والفيض فلما منع عن الفيض أفاض على ذاته نوراً خافياً ميز الأشياء المرادة للفيض في علمه، وهذا النور هو أشدَّ لطفاً من هذا النور المميز في الظاهر لشدة نوره يدرك كأنه خاف، لأنه لا جسم له يظهر إلى وجو الشاهد، وإنما هو لطف يدركه على سبيل الإحساس، ولهذا ميز العلم، والحروف هي المميزة بين المعلومات ولهذا يدرك كثيرة على قدر اختلاف الحروف وتكرارها، وقد رأينا صورة الحروف وأوردناها في كتاب الختم وعبرّنا عنها بالطائف، لأنها نشأت في ذلك المقام عن اللطف وصنعت منه وميزت مختلفة بنورانية زائدة على اللطف، وهذا التمييز لا يكون إلا في العلم اللائق بالأولية؛ لأن الاطلاع على الأولية يغني ما سواها ويبقى مجرد العلم فعند إرادة التمييز للمعلومات يظهر نورانية لطيفة لائقة بهذا العلم الخافي، فميز اللطائف التي هي الحروف لأن تميزها عند تمييز المعلومات، ومحال أن يحصل هذا المقام إلا وقد استقل الشاهد، بجهة الأولية وهي صورة السجن فعاد في هذا السجن تقلب أطوار العلم وهي الحروف المذكورة.

(٢) هوالعالم بالله تعالى الوارث المحمدي سيدي قطب الدين عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي أو الجيلاني؛ نسبةٌ إلى قرية جيل، وهي تقع في الجزء الغربي من بلاد فارس، وهو سبط السلطان المحمدي سيدي عبد القادر الجيلاني قُدِّس سرُّه، سلك الطريق على يد الولي الكامل المقرَّب سيدي إسماعيل الجبرتي قُدِّس سرُّه، وكان الشيخ ﷺ عالمًا بعلوم الشريعة والطريقة والحقيقة، إلا أنه اشتهر عنه بالكتابة في علم الحقيقة، وكان كثير التعظيم والمحبة للشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه.

ومن كراماته العظيمة التي كانت تقع له أثناء السلوك: أن رسول الله ﷺ كان يأتيه في اليقظة في صورة شيخه سيدي إسماعيل، فيُكلِّم الشيخ ويُباسطه، والشيخ يُكلِّمه ويُباسطه، والشيخ لا يعلم أنه مع رسول الله ﷺ يتكلَّم، فإن علم بعد ذلك حَصلَ له قبضٌ من هذا المشهد؛ حياءً من السيد الأعظم ﷺ.

وله قُدِّس سرُّه في علوم القوم مؤلفاتٌ كثيرةٌ تنبئ عن جزء من علمه، وعظمته، وكمال معرفته، ووراثته، ومنها كتابه الأكرم الأفخم المسمى: بـ «**الناموس الأعظم والقاموس الأقدم في معرفة قدر النبي ﷺ**»، وهو في أربع وأربعين جزءًا، معظم ما نسب إليه من مؤلفات إنما هو عبارةٌ عن جزءٍ معينٍ من هذا الكتاب العظيم، كـ «**الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية**»، و«**لسان القدر بنسيم السحر**»، و«**قاب قوسين**»، و«**مراتب الوجود**»، وما زال أغلب ذلك الكتاب مفقودًا حتى الآن، ولم

=

حقيقة: وهي أعيان الأسماء والصفات.

وعالية: وهي معلومات العلم الإلهي المُعبر عنها بالأعيان الثابتة في الحضرة العلمية، وروحية: وهي الأرواح النوريَّة التي أظهر الله بها هذا الوجود كما أظهرَ الكمالات بالحروف الملفوظة.

وصورية: وهي جوائح هذا العالم الكلّي، وجوارح الإنسان بالحُكم الجذري، وقد ذكر الشَّيخ المعظم إليه في «قطب العجائب وفلك الغرائب» كل ما يختص بجوارح الإنسان من الحروف.

ومعنوية: وهي حركات الأشياء، وسكناها تنشأ منها حروف تتركب منها كلمات

=

يكمل جمعه فيما نعلم أحدٌ، ومنها كتاب «**الإنسان الكامل**»، وهو أشهرها، و«**قطب العجائب وفلك الغرائب**»، و«**المملكة الربانية المودعة في النشأة الإنسانية**»، وغير ذلك، نفعنا الله بعلومهم في الدارين، آمين.

وكان شديد التمسُّك بالشرع الشريف، مؤيِّدًا علومه بالكتاب والسنة، وفي ذلك قال في مقدمة كتابه «**الإنسان الكامل**»: (ثم ألتمسُ من الناظر في هذا الكتاب بعد أن أُعلمَهُ أني ما وضعت شيئًا في هذا الكتاب إلا وهو مؤيَّدٌ بكتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أنه إذا لاح له شيءٌ في كلامي بخلاف الكتاب والسنة فليعلم أن ذلك من حيث مفهومه، لا من حيث مرادي الذي وضعت الكلام لأجله، فليتوقف عن العمل به مع التسليم، إلى أن يفتح الله تعالى عليه بمعرفته، ويحصل له شاهدٌ من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ، وفائدة التسليم هنا وترك الإنكار ألا يُحرم الوصول إلى معرفة ذلك، فإن من أنكر شيئًا من علمنا هذا حُرِم الوصول إليه ما دام منكرًا، ولا سبيل إلى غير ذلك، بل ويخشى عليه حرمان الوصول إليه بالإنكار أول وهلة، ولا طريق له إلا الإيمان والتسليم) اهـ.

قلت: انظر رحمك الله في قول الشيخ: (فليتوقف عن العمل به): أي إذا لم تستطع أنت أن تقم الشاهد من الكتاب أو السنة فأمرك الشيخ بترك العمل، ولم يأمر الشيخ بالعمل إلا بعد التأييد بالشرع، مع العلم أن تلك المخالفة المتوهمة هي من حيث فهمك، لا من حيث حقيقة قول الشيخ، وإنما أوجب الشيخ ترك العمل لأن نظر الشيخ أوسع، ومعاملته مع الله أدقُّ، ومن أين يعي الجاهل مثل تلك المعاملة؟! ليت شعري! كيف يتهم أمثال هذا السيد من أكابر القوم رضي الله عن جميعهم بمخالفتهم لكتاب أو سنَّة، والله إن لم يكن هؤلاء هم أهل القرآن المتلبسون بالسنة فما اقتدى برسول الله أحدٌ، كان الله لأوليائه، ما أصبرهم على جهل من جَهِلَ عليهم! اللَّهُمَّ فهمنا عنك؛ فإنا لا نفهم عنك إلا بك، وارزقنا اللَّهُمَّ الإيمان الكامل بعلوم هؤلاء السادة، واحفظ ذلك علينا إلى أن نلقاك.

تناسب حال ذلك المتحرك، مثل الإنسان في حال قيامه تتركب منه صورة الألف، وفي حال منامه صورة الباء، وفي حال الرُّكوع صورة الدَّال إلى غير ذلك، حتى أنه يتصرَّف صاحب هذا العلم بالحركات الجسمية كالتصرف بالحروف، وإن كان عارفًا يكفيه التصرف بها.

وحسّية: وهي ما شوهد رقمًا وكتابةً.

ولفظية: وهي ما تُشكل في الهواء من قرع الريح الخارج من الحلق على مخارج الحروف، وخيالية: وهي صور تلك الحروف في نفس الإنسان عند تعقله، وكل نوع من هذه الأنواع ظرف لسر الإلهي ومظهر له، وله تصرف مخصوص يوجد فيه ولا يوجد في غيره، وهذا التصرف ومعرفته خاص بأهل الكشف الذين نُورت قلوبهم بالعلوم الفائضة من الحضرة الإلهية المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، أوالمتعلقة بالحقّ أو الخلق الذوقية الكشفية الوجدانية لا البرهانية، وذلك لتفريغ قلوبهم بالكليَّة عن جميع المتعلقات الكونية، وقوانين العلوم الرسمية مع توحد العزيمة ودوام الجمعية، والمواظبة على هذه الطريقة دون فترة ولا تقسم خاطر ولا تشتت عزيمة، نفعنا بهم وأدخلنا في زمرتهم وأحشرنا معهم والحمد لله رب العالمين. فلا يمكن التصرف بما ذكر إلا بصيرورة الغيب له مكشوفًا، ولا يصير الغيب له مكشوفًا ما لم يخرج من حسِّه، ولا يخرج من حسه ما لم يصطفيه الله تعالى، ويستخلصه لنفسه.

٣٧- العبد عبد حسّه إلا من استخلصه لنفسه.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**العبد عبد حسّه إلا من استخلصه لنفسه**) أي: كل عبد فاللام استغراقي بدليل الاستثناء كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ [العصر:٢] أي: كل الإنسان، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [العصر:٣].

فكل فرد من أفراد هذا الجنس عبد لحسِّه، ومدركاته لكونه ملتفتًا إليه ومحبًّا له، والمحبّة تقتضي العبودية، فكل من أحبَّ شيئًا فهو عبد له، كما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله:

«**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم**[(١)]» أي: محبهما، فعبر عن المحبّة بالعبودية تأمل.

فلا يكون عبدًا خالصًا صرفًا، ولا يخرج عن حسّه أحد من الآحاد إلا العبد الذي استخلصه الله ذلك العبد واختاره واصطفاه لنفسه، فوَجَّهه بقلبه إلى نفسه، وقطعه عن جميع التعلقات الكونية فوحدّ عزيمته، وأدام جمعيته، فهو فانٍ عن حسّه، ولا يرى لنفسه محسوسات ولا مدركات ولا معلومات ولا معقولات بإفناء الله تعالى إيَّاه حيث تجلّى عليه بصفة من صفاته، فبظهور صفة من صفاته تضمحل مكنوناته؛ لأنه إذا قورن الحادث بالقديم تلاشى الحادث في القديم لغلبة سلطانه، فالعبد إذا رأى قلبه منقطعًا عمًّا سواه مستقلاً بالله، مستغرقًا في ذكر الله ومشاهدته، فليعرف بأنه ممن أصطفاهم الله، واختارهم لنفسه فهو موفق، ومن أهل العنايات الإلهية، فليحمد الله على ما هداه، وليشكره على ما أعطاه.

وفي كلام الشيخ قُدِّس سرّه إشارة إلى عدم إمكان الخروج عن قيد الرسوم، وأنه مُحال إذا لم يكن بالله، فالمخرج والمسلك (هو) والموصل (هو)، فلا يخرج خارج، ولا يصل واصل، ولا يدخل داخل إلا به، وفي الحقيقة لا تمايز بين هؤلاء، وبينه إلا بالإطلاق والتقييد فهو تعالى مطلق، وهؤلاء مقيدة، والمقيد عين المطلق برفع القيد، وقد صرَّح الشيخ رحمه الله باتِّحاد هؤلاء حقيقةً، وتعددها صورةً، ولا يكون عارفًا بالأمر على ما هو عليه أحد إلا بهذا، ودليل هذا حديث النوافل المشهور، وهو: «**كنت سمعه، وبصره، ويده، ولسانه، ورجله**[(٢)]»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (١٠٥٧/٣)، الترمذي في السنن (٥٨٧/٤)، ابن ماجة في السنن (١٣٨٥/٢).

(٢) رواه هكذا الحكيم الترمذي في الأمثال من الكتاب والسنة (١٣٥/١)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (٣٤٤/١١)، وأصله في البخاري كما تقدم.

(٣) قال سيدنا الشعراني: ما بقي أحدٌ من الخلق إلا قال بالاتحاد، فما سلم منه أحدٌ، لا سيَّما العلماء بالله الذين علموا الأمر على ما هو عليه من شدة الوصلة والقرب، كما أنشد بعضهم:

عَجِبْـــتُ مِـــنْكَ ومِـــنِّي أَشْـــغَلْتَنِي بِـــكَ عَـــنِّي
أَدْنَيْتَـــنِي مِـــنْكَ حَـــتَّى ظَنَنْـــتُ أَنَّـــكَ أَنِّـــي

=

=

لكن منهم من قال به عن أمر إلهيٍّ، ومنهم من قال به بما أعطاه الوقت والحال، ومنهم من قال به ولا يعلم أنه قال به، فهم مختلفون في الأحوال، وقد أحال الاتحاد أصحاب النظر العقلي؛ لأن عندهم نصير الذاتين ذاتًا واحدةً، وذلك محالٌ في العقل.

وأما أصحاب الكشف فإنما قالوا به؛ لأنهم يرون ذاتًا واحدةً لا ذاتين، ويجعلون الاختلاف في النسب والوجوه، والعين واحدةٌ في الوجود، والنسب عدميَّةٌ، وفيها (يعني النسب) وقع الاختلاف، فإن الذات الواحدة تقبل الضدين من نسبتين مختلفتين، كما قال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦].

وقال ﷺ: «إنَّه القائلُ على لسان عبده: سَمِعَ اللهُ لمَنْ حَمِدَهُ».

وقال النبيُّ ﷺ في الحديث القدسيِّ: «فإذا أحببتُه كُنْتُ سَمْعَهُ وبصرَه ولسانَه ويدَه ورجلَه» وغير ذلك قولاً شافيًا؛ لأنه ذكر أحكامها، فقال: «سَمْعَهُ الذي يسمعُ بِهِ، وبصرَه الذي يُبْصِرُ بِهِ، ويدَه التي يَبطشُ بِهَا، ورجلَه التي يمشي بِهَا».

ومعلومٌ أنه بسمعه يسمع، أو بذاته يسمع، وعلى كل حالٍ فقد جعل الحق هويته عين سمع عبده وبصره، ويده، ورجله، فإما يريد ذات العبد، وإما صفته، وإما نسبته، فهذا هو قول الحق الذي لا يمترى فيه أصحاب العقول، فمن اتحاد الملك قوله مع علمه بذلك قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]، فأضاف فعل التسبيح لنفسه، والرسول كذلك يقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ﴾[المائدة:١١٧]، ومن الناس مَنْ يقول: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات:١٠]، فأضافوا القول لأنفسهم، والسموات والأرض والجبال تأبى، وتشفق من حمل الأمانة، وتقول: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، وتضيف الإتيان لنفسها، فما في العالم إلا من نسب الفعل إلى نفسه دون الله مع علم العلماء بالله أن الفعل لله لا لغيره، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وغر الناس كون الحق تعالى أضاف العمل والقول لهم، وفاتهم أن الإضافة سائغةٌ من نسبتين مختلفتين، فالله تعالى خالق العمل وموجده والعبد مظهره؛ إذ كان العمل لا يظهر إلا في جسم، فمن إضافته تعالى الأمر حكاية قول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل:٢٢]، يعني من العلم.

وقالت نملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور:٢٤].

وقال عن الجلود: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت:٢١]، وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، فما ترك شيئًا من المخلوقات إلا وأضاف الفعل إليه، وهذا المقام لا يُتمكّن لمن دخله أن يرأس عليه أحدٌ من جنسه، ولا أحدٌ من المخلوقين؛ فإن الأمر واحدٌ في نفسه، والواحد لا يرأس على نفسه، وهو مقامٌ عزيزٌ، العالم كله واقعٌ فيه، ولا يعلمه إلا أهل الشهود، ولكن

=

من الأولياء من ستر الاتحاد بألفاظ لا يفهمها إلا الأكابر، ومنهم من كشف ذلك لحالٍ غلب عليه، فمن ستر ذلك سيدي علي وفا ﷺ، فقال مخرجًا ذلك في قالب لسان الحق تعالى:

إنْ كُنتَ تَنْظُرُ فِي المراتبِ صورتي ... فَأنَا الذي لَكَ فِي المشَاهِدِ شَاهِدٌ
وإذَا نظرتَ عَلَى الحقيقةِ ذَاتَنا ... فَأنَا وأنتَ هنَاكَ شيءٌ واحِدٌ

وقال عفا الله عنه:

إذَا مَا كَانَ قَصْدُك غيْرَ قَصْدِي ... فَذَاكَ دَلِيلُ صِدْقِك فِي الوِدَادِ
وعِلْمُكَ أنَّ كلَّ الأمرِ أمْرِي ... هو المعنَى المسمَّى باتحادِ

وقال رحمه الله:

هو أولٌ وهو آخرٌ ... وهو باطنٌ وهو ظاهرٌ
وهو غيرٌ ومغايرٌ ... وهو مشهودٌ وشاهدٌ
واحدٌ في كلِّ حالِ ... يَتجَلَّى بمثالِ
متدانٍ متعالِ ... صَدَرَتْ عَنْهُ مواردُ

وقال ﷺ:

قَالَ لي كلُّ التمنِّي ... أنتَ هو التعبيرُ عَنِّي
يَا عليُّ أنتَ سمائي ... أنتَ أرضي أنت شاني
قُلْ وطُلْ لا تَتَكَتَّمْ ... بُحْ وصَرِّحْ لا تُكَنِّي
أنتَ بَيْتِي أنتَ عَرْشِي ... أنتَ فَرْشِي أنتَ أنِّي

وقال أيضًا ﷺ:

ذَوَاتُنَا وجُودُهُ ... وغَيْبُنَا شهودُهُ
غيبٌ ونحنُ عَيْنُهُ ... مرادُه مريدُهُ
فالكلُّ نحنُ يَا فَتَى ... لأنَّنا حُدُودُهُ
والكلُّ هو بِلاَ مِرَاء ... إن أطْلَقْتَ قيودهُ
مَا ثَمَّ إلا واحدٌ ... عَددُه معدودُهُ

ومن كشف ذلك سيدي عمر بن الفارض ﷺ، فقامت عليه القيامة فقال:

وفي الصحوِ بَعْدَ المحوِ لَمْ أكُ غَيْرَهَا ... وذَاتِي بِذَاتِي إذْ تَحَلَّتْ تَجَلَّتِ

جَلَتْ فِي تجليها الوجودَ لناظري ففي كل مرئيٍّ أراها برؤيتي
فَوَصْفِي إذَا لَمْ تُدْعَ باثْنَيْنِ وَصفُهَا وهيئتُها إذْ واحِدٌ نَحْوَ هيئتي
فإذَا دُعِيَتْ كنتُ المُجيبُ وإنْ أكُنْ مُنَادًا أجَابَتْ مَنْ دَعَانِي ولبَّتِ
وإنْ نَطَقَتْ كنتُ المُنَاجي كَذَاكَ إنْ قَصَصْتُ حديثًا إنَّما هِي قَصَّتِ
وقَدْ رُفِعَتْ تاءُ المخاطب بَيْنَنا وفي رفعِهَا عَنْ فرقةِ الفرقِ رِفْعتي
فإنْ لم يُجوِّزْ رؤيةَ اثنين واحدًا حجَاك ولم يَثْبُتْ لبعدِ تثبُّتِ
سَأجْلُو إشاراتٍ عَلَيْكَ خَفِيَةً بهَا كعباراتٍ لَدَيْكَ جليَّةِ
وأُثْبِتُ بالبرهَانِ قولي ضَاربًا مثالَ محقٍّ والحقيقةُ عُمْدَتِي
بمتبوعةٍ يُنْبِيكَ فِي الصَّرْعِ غَيْرُها عَلَى فَمِهَا فِي مَسِّهَا حيثُ جُنَّتِ
ومِنْ لغةٍ تَبْدُو بغيرِ لِسَانِهَا عَلَيْه براهينُ الأدلةِ صَحَّتِ
وفِي العلمِ حقًّا إنَّ مبدًا غريبٌ مَا سمعتُ سِوَاهَا وهي في الحسن أبدَتِ
فَلو واحدًا أمسيتَ أصبحتَ واجدًا مُنَازلةً مَا قلته عَنْ حقيقةِ
ولكنْ عَلَى الشركِ الخفيِّ عكفتُ لو عرفتَ بنفسٍ عَنْ هُدَى الحقِّ ضَلَّتِ
كَذَا كنتُ حينًا قَبْلَ أن يُكْشَفَ الغطَاءُ مِنَ اللبْسِ لا أنفكُّ عَنْ ثنويَّةِ
أروحُ بفقدِ بالشهودِ مؤلِّفي وأغدو بوجدٍ بالوجودِ مُشتِّتي
يفرِّقني لُبِّي التزامًا بمحضري ويجمعني سلبي اصطلامًا بغيبتي
أخالُ حضيضَ الصحوِ والسكرِ معرجي إليها ومحوي منتهى قَابِ سدرتي
فَلو جلوتَ الغينَ عنِّي اجْتَلَيْتَنِي مفيقًا فمنِّي العينُ بالعينِ قَرَّتِ
فمِن بعدما جَاهدتُ شاهدتُ مَشْهَدِي وهَادي لي إيَّاي بَلْ رَبِّي قُدْوَتِي
وبي موقفي لا بَلْ إليَّ توجُّهي ولكنْ صَلاتي لي ومنِّي كعْبتي
ففارقْ ضلالَ الفرقِ فالجمعُ منتجٌ هدى فرقةٍ بالاتحادِ تحدَّتِ

إلى آخر ما ذكر رحمه الله تعالى.

وأما التستري رحمه الله: فله في ذلك النظم الكثير بل كل أشعاره في الاتحاد فمنه قوله:

إيَّاكَ لا تنظرِ اثنين لا تتبعْ الغَلَطَ أنتَ هو فقطْ

=

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦].

وقوله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله**[1]».

وقوله تعالى: «**عبدي مرضت فلم تعدني، وسألت فلم تعطني، وجعت فلم تطعمني**[2]»، وغير ذلك فصدق قول الصادق الصدوق: «**أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد: ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل**[3]»، والله أعلم.

فإذا عرفت هذا فاعلم أنه وإن كان الكل من الله وبالله، ولا أثر لشيءٍ سوى الله لكن الغالب بالأسباب، وعندها ومن جملتها مصاحبة الرجال لا كل الرجال.

٣٨- لا تصحب من الرجال إلا من كان حاله يترجم دون المقال.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**لا تصحب من الرجال إلا من كان حاله يترجم دون المقال**) أيّ: لا تصحب أيُّها السالك الطالب للكمال إلا الرجال؛ لأن جليس الصالح صالح، وجليس الطالح طالح؛ لأن المجاورة لها أثرٌ شديدٌ في الحيوان والنبات والجماد، فالماء والهواء يُفسدان بمقارنة الجيفة، والجمل الشرود يصير ذلولاً بمقارنته الجمل الذّلول، والزرع والنبات يفسدُ كل منهما بمقارنة الأرض المفسدة، فإذا كانت المجاورة والمقارنة مؤثرة في هذه الأشياء المذكورة، ففي النفوس الإنسانية أشدُّ تأثيرًا، فإذا قررنا هذا، فالنظر إلى أهل الصلاح يؤثرُ صلاحًا، وإلى أهل الفساد يؤثرُ فسادًا، كما أن دوام النظر إلى المحزون

=

فَلَيْسَ ثَمَّ سِوَى فردٍ بعينهِ عينُ الكثيرِ فلا تلوي على أحدْ

وعندي أن هؤلاء القائلين بالاتحاد كلهم لم يصحُّ لهم اتحادٌ قطُّ إلا بالوهم، وانظر كلامهم تجده من أوله إلى آخره لا يبرح من الثنوية؛ فإنه لا بدَّ من مخاطِبٍ ومخاطَب، وتأمَّل قول التستري: (إيَّاك لا تنظر اثنين) فنفس قوله: (إيَّاك) يقتضي الثنوية، ويحكم عليه بها، ولذلك ذهبنا إلى خلافهم، وغاية أحدهم أن يقول أحدهم: (أنا هو)، فمدلول (أنا) خلاف (هو)؛ فتأمَّل.

(١) رواه البخاري (٢٢٨٦/٥)، ومسلم (١٧٦٣/٤)..

(٢) رواه مسلم (١٩٩٠/٤).

(٣) تقدَّم تخريجه.

يُحزنُ، وإلى المسرور يُسرّ، (**ومن الرجال**) لا تصحب منهم أحد إلا الذي كان (**حاله يترجم عنه**) ليدل على كونه رجلاً (**دون المقال**) أي: لا تصحب الرجل الذي يترجم عنه، ويدلُ عليه مقاله؛ لأن المعتبر عند القوم وغيرهم من العلماء العاملين الحال دون المقال؛ لأن الحال باطن، والمقال ظاهر ولا اعتبار للظاهر إلا بتبعية الباطن؛ إذ لولاه ما عُلم الباطن.

والمراد (**بالرجل**) في اصطلاحهم الذي يكون من صفوة خلاصة خاصة الخاصة من المحقّقين، وهو الإنسان الكامل الجامع للفضائل والفواضل الفاني في الله الباقي بالله، المؤيد بتدبير الله، المنقطع عن الشهوات، المنفرد من أبناء جنسه بالرياضات والخلوات، العابر في السير والسلوك على المراتب والمقامات، البرزخ بين قوسي الوجوب، وإلا ما كان الظاهر فيه مفهوم، قوله تعالى: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن:٢٩] لا يغرب عن علمه شيء في الأرض، ولا في السماوات لا من الواجبات، ولا من الممكنات، وقد ذكرنا سابقًا رجال الطريق وأوصافهم في شرح قوله: (**من لم يأخذ الطريق عن الرجال، فهو يتنقل من محال إلى محال**): فالرجل هو البالغ الكامل الرشيد، ولا يكون كاملاً رشيدًا إلا إذا كان موصوفًا بالأوصاف المذكورة، ومتأدبًا بالآداب المسطورة، وإلا فهو طفلٌ صغيرٌ غير مميز، وامرأة أو خنثى، ولهذا السر كانتْ أخت الحسن البصري قُدِّس سرّه تكشف بعض وجهها، وتستر بعضه عن الناس فقيل لها: هل لا تستحي من الله؟ أو من أخيك؟ أو من الناس؟ فقالت: أستحي من الله، فقيل لها: كيف؟ والكشف حرام عليك والستر واجب، وأنت أخت الحسن البصري، فلا يليق مثل هذا بأمثالك، فقالت: الله تعالى حرَّم علينا الكشف للرجال، وأنا لا أرى رجلاً في هذه المدينة حتى أستر عنه إلا الحسن البصري، وهو نصف رجل لا رجل كامل، فلو لم يكن هو لما غطيت هذا النصف من الوجه أيضًا فتأمل هذا، وليس فيه مصادمة الشريعة النبوية؛ إذ لا يعرف بلسان الأخرس إلا الأخرس أو أمُّه فافهم.

وقال الشيخ في الباب التاسع والخمسون بعد الخمسمائة من «الفتوحات المكّية» أوصاف الرُّجل الكامل، فأذكر لك عباراته وأشرحها؛ لأن الناظر فيها إمَّا عاجز عن تحصيل معانيها فانقطع عن تناول الفائدة منها، أو حصَّلها ولكن عجز عن معرفة ما أراده، فنقول وبالله التوفيق وهو يهدي السبيل.

مطلب أوصاف الرجل الكامل

قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**في كلّ عصر له شخص تجري بأنفاسه الدهور**) أي: لظهور الصفات المحمَّدية إمام كامل يتحكم في العالم، أول من ظهر بهذا المقام أبونا آدم ﷺ، وآخره عيسى ﷺ، ويكون للكُمَّل بحكم الإرث والتبعية.

ثم قال: (**عينه في الوجود فردًا الواجد العالم البصير**) أي: عين أنه لا يكون في الزمان إلا واحد الذي وجد في سره، وعَلِمَ بإعلام الله إيَّاه، ورآه ببصره كذلك، فالمراد بالواجد، وما بعده روح الشيخ الذي هو جزء النور المحمدي، ويجوز أن يكون الواحد بالحاء المهملة فصدقه على ما يصدق عليه غير خفي، وكذا العالم والبصير ولو عند غبي، ثم قال:

(يا واجدا مجده تعالى ينادي حقيقته، وسره ليس له في الورى نظير) قاله: دفعًا للتوهم الناشئ من الكلام السابق من أن الإمام الكامل يتصرَّف في العالم كتصرف الحق، والمعنى: يا واجدًا عظمة الله تعالى ليس له تعالى في الخلقِ نظيرٌ ومثل، فلا يجوز حقًّا الطعن في اعتقاد الشيخ قُدِّس سرَّه، وفيه إشارة إلى أنه ليس كل عارف يجد عنده مجده تعالى، وإنما ذلك للكُمَّل من الأولياء، وقال بعض من الأكابر: بالحاء المهملة، وبرفع مجد بأنه فاعل، وإن الخطاب للذات الإلهية، وهو مستقيمٌ في المعنى دون القواعد العربية؛ إذ لا يجوز فيها تقدم الفاعل على الفعل، وإن قيل: كما بالابتدأ وما بعده خبر، والجملة صفة للمنادى لكان أقرب، والله أعلم.

ثم قال: (ليس لأنواره ظهور) أي: أنوار الله تعالى من الأسماء، والصفات إلا بنا إذ لنا الظهور؛ لأنه يستحيل ظهور أثر الخالق، والرازق، والقادر، والعالم بلا مخلوق ومرزوق ومقدور ومعلوم، ثم قال: (ونحن مجلى لكلّ شيءٍ، فظهر في عينه الأمور) أي: يبدوا فينا كل الأمور؛ لأننا مظهر لكلّ شيءٍ تظهر الأمور في عين ذلك المظهر فضمير (عينه) للمجلي، فهذا هو القطب الكامل المستكمِّل لجميع شروط القطبية.

ثم قال في الباب المذكور من الكتاب المشار إليه في بيان الطيفة الذاتية المتعينة في الصورة الجزئية بالكمالات الكلية، وهي حقيقة الختم الإلهي المُعبر عنها بالإنسان الكامل، ومنه الشيخ قُدِّس سرَّه وهو واصف لحالته في الكمال، فقال على هذا المنوال: (**النور الباهر**) أي: الروح الكامل هو النور الظاهر لتخلقها بالصفات الإلهية، وهي نور باهر،

وجوهر الجواهر أي: لانطباعها بصورة كل صورة ومعنى، وتوضيحه قوله بعد هذا: (يقبل الإضافات الكونية) أيَّ: أحكام الظهور والإشارات الغيبية أيَّ: أحكام البطون، والأوضاع الحكَمية أيِّ: ترتيب وضع الحكَمة في الأكوان، والمكانات الحكمية أي: بسكون الكاف بخلاف الأول فإنه بفتحها أيَّ: الرفعة، والمكانة الإلهية التي قبلتها هذه الروح الكاملة رفيع المكانة أي: الشأن والمقدار؛ لأنه موصوف بالصفات الإلهية، ولاندراج الدارين فيه؛ ولأن الأشياء مخلوقة له، وهو مخلوق لأجلّه تعالى علم في رأسه نار أي: علم على الذات الإلهية في رأسه نار موقدة تطلع على الأفئدة، وتلك النار هي المسمَّاة بالجلال والعظمة والكبرياء والقهر، فمن لوازم الكمال الاتِّصاف بالعظمة والكبرياء.

ولذا قال أبو يزيد البسطامي: لما سمع ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢]:

بطشي يارب أشد من بطشك، ومن هنا لما ظهر على رجل بالعظمة والكبرياء فما استطاع الثبوت عنده فهلك الرجل، وكان الرجل قبل هذا يرى ربه كل يوم مرارًا فلم يضره شيء، ولم يصبه سوء لاستطاعته لذلك؛ لأن رؤيته لربه على قدر قابليته لها، فاستطاع لذلك، ولهذا قال بعده: (عبرة لأولي الأبصار)، ثم قال: (فيه نجوى الله وجوده) أيَّ: وجود الإنسان الكامل كاسم الله محيط لجميع المعاني الألوهية تفصيلاً وإجمالاً، ثم قال: (ويغني عن شهود الحق شهوده) أي: إذا شاهدت هذا الرجل يغنيك عن شهودك الحق المطلق، ثم قال: (منازله معدودة) أي: منازل هذا الرجل معدودة محصورة، وهي السبع التي يجب على كلّ كامل أن يقطع إيَّاها للبلوغ إلى درجة التحقيق، وهي التوحيد الصرف، وقطع مسافة الفرق، فلا يشهد، ولا يعلم، ولا يسمع سوى الله تعالى، وهذا هو الفناء في الله ومقام الجمع، ثُمَّ البقاء بالله وجمع الجمع، ثُمَّ السذاجة الذاتية الصرفة، وهو أن يقبل بحقيقته وهيئته التصور بكل صورة من صور التجليات، ويقبل كل معنى من معاني الأسماء والصفات؛ لأن من لا يكون ذاته ساذجة تقبل جميع المعاني والانطباع بكل صورة لا يمكنه التخلق بأخلاق الله تعالى، ولا إبراز ما هو فيه بالقوة إلى الفعل، ثُمَّ مقام إعطاء مفاتيح الغيب المسمَّاة بمفاتيح الأقفال لخزائن الغيوب، وعند الشيخ قُدِّس سرَّه: هي مفاتيح التواني، والمراد بها أسماء الأفعال التي هي المؤثرة في ظهور عالم الغيب إلى الشهادة، وفي هذا المقام يعلم بمقتضيات الأسماء على ما هو عليه في محلّها، ثُمَّ مقام إعطاء مفاتيح غيب الغيب، وهي الصفات السبع الكمالية المسمَّاة بالأمهات وأئمة الصفات فيعرف تلك

الصفات، ويتحقق بها ظاهرًا وباطنًا في كلّ الأوقات فلا يتوارى عنه في هذا المقام مشهوده، ولا يجوز عليه استتاره، وسمَّاها الشيخ ﷺ: بالمفاتيح الأولى، ثم مقام استكمال التحقق بالأسماء الذاتية والصفاتية والفعلية فيُكسى بالهيبة، ويتوّج بالعظمة، فلو نظر إلى الجبل بالقهر، وإلى البحر بالهيبة لتدكك الجبل من قهره، ويـــبس البحر لهيبته، ومن هنا قيل: همة الرجال تقطع الجبال.

وقال الشيخ قُدِّس سرّه: (في رأس نار تطلع على الأفئدة)، ثم مقام طلوع الفجر، وظهور شمس الكمال على الجوارح، والقوى الظاهرة أي: على بدنه، كما هو على روحه، فيستوي الظاهر والباطن، فيميز البدن روحًا وقلبًا وعقلاً، وبعد هذا المقام إمَّا القول: بالعجز والسكوت، فالمتميز ساكت، وغيره عاجز.

ثم قال: (آثاره مشهودة) أي: آثار الكامل ظاهرة كإحياء الموتى، وإماتة الأحياء، وإبراء الأكمه والأبرص، وإخبار الناس بأسمائهم وأفعالهم، وما يأكلون، وما يدخرون، كما وقع لعيسى الطّيلا، ولسلطان الأولياء السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني، وغيرهم من الكُمَّل، ثم قال: (وكلماته محدودة) أي: بحد الشريعة، فلا يخرج بالحكم عن الحكمة، بل يعطي كلَّ ذي حقًا حقه، ثم قال: (آياته بالنظر مقصودة) أي: يتجلى بما شاء فيما يشاء فيظهر ويبطن، ثم قال تحقيقًا لهذا: (أُعطى مقاليد البيان) أي: الظهور، (فأفصح) أي: أظهر معاني ما أرادته ذاته، ثم قال: (فمنه نثر) أي: تجليات ذاتية غير متعددة، ولكلّ تجلي اسم واحد، (ومنه نظم) أي: تجليات صفاتية تحت كلّ تجلي أسماء متعددة متغايرة نحو تجلي القدرة، فإنه جامع لجميع الأسماء الأفعاليَّة، وكذا كل ماله الهيمنة على ما تحتها كالإرادة والعلم والجلال والجمال والكمال وغير ذلك، (ومنه أمر) أي: بتكوين وغيره من أوامر الله تعالى، (ومنه حكم) أي: نافذ غير متغير في العالم، ثم قال: (إذا أسهب ذهب) أي: إذ تمادى نظره على حقائق الصفات التي لا نهاية لها ذهب عن حُكم الكون فلا يسمَّى خلقًا حقًا، وليس من العالم ولا فيه لذهابه عنه وعمًّا فيه بالكلية، وأصل (الإسهاب) الإطالة والإطناب في الحديث، ثم قال: (إذا أوجز أعجز) أي: إذا اختصر لذاته أعجز غيره عن دركه، أو أظهر كل أمر معجز، ثم قال: (فصيح المقال كثير القيل والقال) أي: ظاهر تكوينه بالكلمة، لأنه أمر بأمر الله.

ومن هنا قال السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني: (وأمري بأمر الله إن قلت: كن يكن فلز بجنابي إن أردت مودة) ﷺ، وأعاد علينا بركاته، وأيضًا كثير الكلام إذ الموجودات كلماته، ثم قال: (تختلف أشكاله) أي: لتصوره بكلّ صورة ومعراجه أي: لتحققه بكل حقيقة، ثم قال: (يخفى على المتبع أثره ومدارجه) : أي؛ لأنه وراء الأطوار الكونية، فهو كالحرف أشكاله مختلفة بحسب وضع كل واضع من كلّ لغة، وآثاره من الخاصية والطبع والفعل في كلّ معنى وصورة، والتصرف فيها على المقتفى لمعرفة ما ذكر مخفية.

ثم قال: (كائن) أي: مع الحق بائن أي: عن الخلق أو كائن مع الخلق بائن عمّا هم فيه، ثم قال: (راحل) أي: عن المراتب الخلقية قاطن أي: في المراتب الإلهية، ثم قال: (مستوطن الجناب) أي: مقيم في عالم المعنى ومحل العلم بالله، ثم قال: (وافترش الكتاب) أي: جعل الأسماء والصفات الإلهية فرشًا له في موطن كماله، يتقلب عليها لكونه في باطنه ساكنًا مع ربه، انتهى كلامه في بيان الكامل في هذا المقام.

ثم نرجع إلى ما كُنّا بصدده (فالرجل) هو الذي يترجم عنه ذو قاله ؛إذ ليس للقال دخل في الحال.

٣٩- الحقيقة لا ينطلق بها لسان، بل هي ذوق ووجدان.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**الحقيقة لا ينطلق بها لسان، بل هي ذوق**[1] **ووجدان**[2]) أي: الحقيقة لكونها لا حدّ لها ولا جهة، وإنها في العدم أي: طريقها عدم وفناء لا ينطق بها لسان فلا تدخل تحت حيطة العبارة؛ لأن اللسان لا دخل له إلا في الألفاظ، والألفاظ إنما وضعت بإزاء المعاني المعقولة فما لم يعقل لم يكن مدلولها؛ لأن دلالة الألفاظ على المعاني إنما تكون بعد تعبيرها بالألفاظ مسبوقًا بتعقلها وهي وراء طور العقل

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنّا به: الذوق هو إدراكٌ في القلب، يميز به بين أشخاص أصناف المعاني، هذا إذا صح من علة داء الشرك الخفي، وحقيقته: وجدان حلاوة من التمنّي في رياض تروض الرضا، وغايته: الاستغناء في تصور معاني الحقائق عن نصب الأدلة والبراهين السمعية والعقلية اهـ.

(٢) الوجد: ما يصادف القلب من الأحوال المعينة. أي: الأحوال التي تأخذه عن شهوده نفسه، ومن شهو الحاضرين، وما يلاقيه من الكون: ويفجأ القلب بالوصف المذكور، وهو وجد صحيح، وعلامة صحته أنه فائدة ومزيد علم ذوقي، وإلا فالغيبة فيه توأم القلب باستيلاء أبخرة طبيعية.

فلا تصل إليها القوة العاقلة، فامتنع أن يتعلق بها شيء من القوّى الجسمانية المُدركة بالحفظ والإحساس والتخيل والمحاكاة، مع أنه لا تتعلق هذه الأمور إلا بما هو مقيَّد، والحقيقة مطلقة كما عرفت، فالدخول فيها لا يكون اختياريًا، بل اضطراري ولا منوطًا بسعي السالك، بل بنفي سلطان الوهم والعقل، وظهور سلطان الحب والعشق، بل كل من عرف الحق بطريق العلم لا يخرج عن حجب الصفات إلى معاينة الذات، ولم يرتق عن الحضرة الواحدية إلى عرصة الأحدية، فالحقيقة لا تُدرك إلا بالذوق والوجدان بأن عزل عقله بنور الحق، وجن بالجنون الإلهي كما قيل: العشق جنون إلهي، فصحَّ معلومه عن غمام كثرة الصفات، وصفا عن كدورة الاعتبارات بحيث ارتفعت التكثرات العقلية بالمحبة الذاتية، ويبلغ السالك إلى ما بلغه الواصلون من نفي الصفات عن الذات الذي هو كمال الإخلاص على ما قاله علي بن أبي طالب ﷺ مِن أنَّ كمال الإخلاص في نفي الصفات عنه.. إلى آخره.

فحقًا يصير علمه عينًا وعينه حقًا، ويصير موحدًا توحيدًا شهوديًا، وعيانًا لا علمًا وبيانًا، لكن ينبغي أن يعلم أن العقل الذي لا يُدرك به الحقيقة وتكون هي ورائه ليس المراد به العقل المطلق؛ لأن العقل المطلق المنور بنور الإطلاق الذاتي بالقوة الأصلية الإحاطية يدرك المعنى الكلي والحقيقة الكلية، وما يدركهما يطلق عليه العقل لصدق حدّ العقل عليه، فالعقل لا يُدرك به الحقيقة إذا لم يكن معه نور الإيمان، ويدرك به الحقيقة إذا كان معه نور الإيمان، وهذا مثل قولهم: أن الله لا يدرك بالعقل، وهو لا يدرك إلا بالعقل، فكل منهما باعتبار، فلا منافاة بينهما، والمنافاة إنما هي من وحدة الاعتبار، وستعرف إن شاء الله تعالى توضيح الحقيقة، فلا تعجل إن الله مع الصابرين، فلا يدخل في الحقيقة الداخل في حُكم الوهم والعقل، بل لا يدخل فيها إلا بغلبة سلطان العشق على سلطان العقل بحيث لا يبقى للعقل حُكم أصلاً، وانطمس نوره بنور العشق كانطماس نور القمر بنور الشمس، فأهتك ستر العقل بقوة العشق والحب، فيكون حاله كحال المجانين فيصير ذا حقيقة، ويكون في مقام السُّكر والسكر(١) يتفاوت، فمنهم من يشرب شراب الحب

(١) يقـــول الهجويري: ثم أن أولئك رجال الصوفية الذين يفضّلون الصحو على السكر، وهم الجنيد وأتباعه، يقولون: إن السكر محلٌّ للآفة؛ لأنه تشويش الأحوال، وذهاب الصحة، وضياع زمام النفس. وانظر: كشف المحجوب (ص٤١٥).

أضعاف ما يشربه غير و لم يَسْكَر لكمال استعداده، ومنهم مَن يَسْكر بأدنى شرب، ومنهم من لا يسكر إلا بالكثير، ولا يلزم من السكر حصول الحقيقة بتمامها، كما قال أبو يزيد البسطامي قُدِّس سرّه:

شَــرِبْتُ الحبَّ كأسًا بعد كأسٍ فَمَــا نَفَــذَ الشَّــرَابُ ومَا رُوِيتَ

فهو قُدِّس سرّه من الطائفة الأولى، فلما كانت الحقيقة بهذه المثابة فلا يكون الوصول إليها إلا بالله، أو بمن يكون هو بالله، (ويترجم عنه حاله دون قاله) كما أشار إليه الشيخ قبل هذا، فبيَّن من يصلح لهذا تنبيهًا للسالك الطالب للوصول.

٤٠- الشَّيخُ من أخذك، وكشفَ عنك.

فقال قُدِّس سرّه: (**الشَّيخُ من أخذك، وكشفَ عنك**) أيّ: شيخك المرشد لك هو الذي أخذك عن نفسك، وإرادتك، وأخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى، وكشف عنك الغطاء، وقال لك: ها أنت والمولى، وهذا هو الذي استنار بنور الحق سماء روحه وأرض نفسه، فطهر روحه بالرؤية والمشاهدة، وزكّى نفسه بالخدمة والطاعة، فصار مجلى للذات ومظهرًا للأسماء والصفات خصوصًا، والحق تعالى متجلي وظاهر في الأشياء عمومًا، نور قلبه من نور الله، وهو وارث علم رسول الله ﷺ، قال ﷺ:

«**العلماء ورثة الأنبياء**[(١)]» أي: العلماء بالله[(٢)]؛ لأنهم بالإرث أقرب للزوم الخشية

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٣٤١/٢)، الترمذي في السنن (٤٨/٥)، ابن ماجة في الصحيح (٨١/١)، الطبراني في المسند (٢٢٤/٢).

(٢) قال ابن عباس: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

وقال ﷺ: «أفضل الناس المؤمن العالم الذي إن احْتِيجَ إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه».

=

لعلمهم، والعلم الذي لا خشية معه ليس صاحبه أهلاً لأن يكون وارثًا لانتقال العلم الموروث إليه على غير الصفة التي كان عليها عند المورث، وحقيقة الإرث انتقال الموروث إلى الوارث على الصفة التي كان عليها عند المورث، ولا يستلزم الخشية إلا العلم بالله، فالعلماء بالله هم الوارثون حقًا، والبواقي تبعًا.

٤١- الشيخ من حمل عنك المشقّات، وأشهدك منازل القربات .

ثُمَّ قال قُدّس سرُّه توضيحًا لفهم السالك، وتقريعًا لسامعه السامعين:

(**الشيخ من حمل عنك المشقّات، وأشهدك منازل القربات**) أي: الشيخ الحقيقي الذي له تلقين الذكر للمريد هو الذي يحمل عنك جميع المشقات، ولهذا شرط بعضهم أن يكون الشيخ قادرًا على أن يخلع على المريد حال التلقين أي: حين أن يقول له قل: لا إله إلا الله جميع العلوم الشريعة المطهرة بحيث لا يجهل شيئًا من أحكامها، ولا يحتاج إلى سؤال العلماء، ومطالعة الكتب، كما وقع لعلي بن أبي طالب ﷺ لـمَّـا لقنه رسول الله عليه وسلم، وللحسن البصري ﷺ لمَّا لقنه علي بن أبي طالب ﷺ، وكان عمره حقًا على ما صححه جلال السيوطي رحمه الله وغيره عشر سنين ذكره الشيخ علي الخوّاص[1] للشيخ

=

وقال ﷺ: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم».

وقال ﷺ: «الإيمان عريان، ولباسه التقوى وزينته الحياء، وثمرته العلم» أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل.

وقال ﷺ: «العالم أمين الله في الأرض».

وقال ﷺ: «يشفع يوم القيامة الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء».

وقال ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع».

(١) هو الولي الكامل العارف بالله تعالى سيدي عليٌّ الخوَّاص البرلسي، شيخ المصنِّف رضي الله عنهما، وقد ترجمه في «**الطبقات**» قائلاً: كان ﷺ أميًّا لا يكتب ولا يقرأ، وكان يتكلم على معاني القرآن العظيم والسنة المشرفة كلامًا نفيسًا، تحيَّر فيه العلماء، وكان محل كشفه اللوح المحفوظ عن المحو والإثبات، فكان إذا قال قولاً لا بدَّ أن يقع على الصفة التي قالها، وكنت أُرسِل له الناس يشاورونه عن أحوالهم، فما كان قطُّ يحوجهم إلى الكلام، بل كان يخبر الشخص بواقعته التي أتى لأجلها قبل أن =

=

يتكلم، فيقول: طلّق، مثلاً، أو شارك، أو فارق، أو اصبر، أو سافر، أو لا تسافر، فيتحير الشخص، ويقول: من أعلم هذا بأمري اهـ.

وقال: وكان يعامل الناس على حسب ما في قلوبهم، لا على حسب ما في وجوههم.

قال: وله كلامٌ نفيسٌ، رقمنا غالبه في كتابنا المسمى بـ«**الجواهر والدرر**»، كل جواب منه يعجز عنه فحول العلماء، حتى تعجب من كتب عليه من العلماء: كسيدي شهاب الدين الفتوحي الحنبلي ﷺ، وسيدي شهاب الدين بن الشبلي ﷺ، وسيدي ناصر الدين اللقاني المالكي ﷺ، والشيخ شهاب الدين الرافعي ﷺ.

وقال الشيخ شهاب الدين الفتوحي ﷺ: لي سبعون سنةً أخدم العلم، فما أظن قطُّ أنه خطر على بالي لا السؤال ولا الجواب من هذا الكتاب: يعني «**الجواهر والدرر**» اهـ .

ونقل الشيخ الشعراني من أقواله الكثير، وإليك قبسٌ منها:

قال: لا يسمى عالمًا عندنا إلا من علمه غير مستفاد من نقل أو صدر، بأن يكون خضريَّ المقام، وأما غير هذا فإنما هو حاكٍ لعلم غيره فقط، فله أجر من حَمَلَ العلم حتى أدّاه، لا أجر العالم، والله لا يضيع أجر المحسنين.

وقال: من أراد أن يعرف مرتبته من العلم يقينًا لا شكَّ فيه فليردَّ كل قول حفظه إلى قائله، وينظر بعد ذلك إلى علمه، فما وجد معه فهو علمه، وأظن ألا يبقى معه إلا شيءٌ يسيرٌ لا يُسمَّى به عالمًا.

وقال: لا يصير الرجل عندنا معدودًا من أهل الطريق إلا إن كان عالمًا بالشريعة المطهَّرة: مجملها ومبيَّنها، ناسخها ومنسوخها، خاصِّها وعامِّها، ومن جهِلَ حكمًا واحدًا منها سقط عن درجة الرجال.

فقلت له: إن غالب مسلكي هذا الزمان ساقطون عن درجة الرجال. فقال: نعم؛ إن هؤلاء يرشدون الناس إلى بعض أمور دينهم، وأما المسلِّك فهو لو انفرد في جميع الوجود لكفى الناس كلهم من العلم، في سائر ما يطلبونه.

وقال: من علامة العلم الإلهي أن تمجه العقول، ولا تقبله إلا بالإيمان فقط.

وقال: أكمل الإيمان ما كان عن تجلٍّ إلهيٍّ؛ لأنه حينئذ على صورة إيمان الرسل عليهم الصلاة والسلام، ودونه ما كان عن دليلٍ، فلما عَلِمَ الصحابة أن إيمان الرسل لا يكون عن دليلٍ لم يسألوا رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه، وذلك لأن حقيقة الرسالة تقتضي أن لا دليل عليها، وأن الرسل مع الحق في التوحيد العام كنحن معهم؛ إذ هم مأمورون كما نحن مأمورون؛ إذ هم مقلّدون للحق، ونحن مقلّدون لهم.

وقال: من تحقق برتبة الإيمان عَلِمَ أن جميع المراتب تصحب رتبة الإيمان، كمصاحبة الواحد لمراتب الأعداد الكلية والجزئية؛ إذ هو أصلها الذي بنيت عليه فروعها وثمارها.

وقال: إذا كَمُل توحيد العبد لا يصحُّ له أن يراس على أحد من المخلوقين؛ لأنه يرى الوجود لله.

وقال: لا يَصَحب كمال الإسلام اعتراضٌ، ولا يصحب كمال الإيمان تأويلٌ، ولا يصحب كمال

=

عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرُّهما العزيز في بعض سؤالاته عنه، فلا يجوز التلقين لمشايخ هذا الزمان إلا بقصد التبرك حتى يدخل المريد في سلسلة سند القوم، ويدخل به في محبتهم فيكون مُسَلِمًا لمقالاتهم، أو معتقدًا لها أي: يقطع بصدقهم فيها، وما عدا هذين المقامين فحرمان لكلِّ أحدٍ مريدًا كان أو لا على ما قاله الشيخ الأكبر في الباب الثاني من الفتوحات ﷺ: «وأيضًا الشيخ المسلك الكامل المكمَّل أن يقدر على أن يشهدك جميع منازل القربات فيدور بك في معاطف الطريق يمينًا وشمالاً، كما هو عليه جميع السادات

=

الإنسان سوء أدبٍ، ولا يصحب المعرفة هِمَّةٌ، ولا يصحب الإخلاص في العمل لذةٌ، ولا يصحب العلم جهلٌ.

وقال: ما ثَمَّ في الفرق الإسلامية أسوأ حالاً من المتكلمين في الذات بعقلهم القاصر؛ فإن الله ﷻ قد تنـزَّه في حمى عزته عن أن يُدرَك أو يُعلَم بأوصاف خلقه، عقلاً كان أو علمًا، روحًا كان أو سرًّا، وذلك أن الله ما جعل الحواس الظاهرة والباطنة إلا طريقًا إلى معرفة المحسوسات لا غير، والعقل بلا شك منها؛ فلا يُدرك الحق تعالى به؛ لأن الحق ليس بمحسوسٍ ولا معلومٍ معقول.

وقال: العلم والمعرفة والإدراك والفهم والتمييز من أوصاف العقل، والسمع والبصر والحاسة والذوق والشم والشهوة والغضب من أوصاف النفس، والتذكُّر والمحبَّة والتسليم والانقياد والصبر من أوصاف الروح، والفطرة والإيمان والسعادة والهدى واليقين من أوصاف السرِّ، والعقل والنفس والروح والسر المجموع أوصافٌ للمعنى المسمَّى بالإنسان، وهي حقيقةٌ واحدةٌ غير متميزة، وهذه الحقيقة وأوصافها روح هذا القالب المتحرك المتميز، والجميع روح صورة هذا القالب، والمجموع من الجميع روح جميع العالم اهـ .

قال المصنف بعد ذكر هذا التفصيل: وهذا كلامٌ ما سمعته قطُّ من عارفٍ، ولا رأيته مسطورًا في كتاب، وهو دليلٌ على علوِّ مقام شيخنا في المعرفة اهـ .

قلتُ: وهذا هو الشأن في جميع علوم القوم رضي الله عنهم؛ فهم كما قال مظهر صفائهم أبو يزيد قُدِّسَ سرُّه مخاطبًا لمن سواهم: أخذتم علمكم ميتٌ عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحيِّ الذي لا يموت. فإذا تأمَّلت كلامهم في الحقائق فإن فهمتَ لا تشكُّ لحظةً أن تلك العلوم تعجز العقول عن أن تأتي بمثلها، وإن لم تفهم أيقنت أن لهذا الكلام صولةً ليست بصولة باطلٍ، وإلا فكلنا أرباب عقولٍ، فلما لَم نتكلم على أسرار الكتاب والسنة كما تكلّموا؟! ولما لَم نؤلّف في التجليات والمواقف والحقيقة المحمدية كما ألَّفوا، ولا يستطيع من سواهم أن يقول: (أوقفني الحق، وقال لي)، ولا (تجلى لي)، ولا (رأيته ﷺ في المشهد الأسمى والمستوى الأزهى)، ولا غير ذلك، مما يُبهر القلوب، ويُفرح الأرواح، ويُعجز العقول، فإن أُعلِمت فاستمسك؛ وإلا سلِّم تسلمْ، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

الصوفية إلا بعضهم مثل الشيخ أبي مدين المغربي ﷺ، فإنه كان يقصد اختصار طريق الوصول للمريد، وينقل إلى محل الفتح من غير المرور به على الملكوت خوفًا على استئناسه بعجائب، وهذا أولى لاختصاره وعدم علم المريد بالعوالم لا يضره؛ لأنه بعد الفتح يتدلى المريد بنفسه إلى العوالم فيكشفها ويشاهد ما فيها بالحق، فعلى هذا يكون للشيخ أثر في الفتح، وإن كان الفاتح حقيقة هو الله تعالى؛ لأنه كالبدوقة والدليل حيث يقول له: اسلك هذه الجهة فهي أقرب لك، ويدل على أن طريق الاختصار أحسن ما وقع لأبي يزيد البسطامي قُدِّس سرّه لما وقف على العابدين فلم ير له قدمًا معهم، وكذلك وقف مع المجاهدين والزاهدين والصابرين والمتوكلين وسائر المقامات فلم ير لنفسه مع كلٍّ منهم قدمًا، فقال: يارب كيف الطريق إليك؟، فقال له تعالى: يا أبا يزيد اترك نفسك أي: حظوظ نفسك في الدنيا والآخرة، فالله تعالى اختصر له الطريق بأخصر كلمة وألطفها؛ لأن من يترك حظ نفسه يقوم معه ربه».

٤٢- لا يصلح من يربي الخلق، إلا من كانت صفته من صفة الحق.

ومن صفات الشيخ أن يكون متخلقًا بأخلاق الله،كما قال الشيخ ﷺ:

(لا يصلح من يربي الخلق، إلا من كانت صفته من صفة الحق)

أي: لا يصلح لتربية الخلق، ولا يليق بها كل من يريد تربية الخلق إلا الرجل الذي كانت صفة ذلك الرجل من صفة الحق بأن يأخذ من كل صفة من صفات الله تعالى حظًا يليق به، كما وقع الأمر من النبي ﷺ إلينا بقوله: «**تخلقوا بأخلاق الله تعالى**[1]»

أي: المرضية الكمالية، وهذا التخلق لا يكون إلا بعد التخلق بأخلاق الرسول ﷺ على ما ورد أيضًا: «تخلقوا بأخلاق الرسول».

فالشيخ لا يصلح للتربية ولا مربيًا للمريدين إلا إذا كان متخلقًا بأخلاق الرسول وأخلاق الله تعالى، أو المراد من كون صفة العبد صفة الحق أن يصير الحق تعالى عين قوى العبد الباطنة، وجوارحه الظاهرة.

---

(١) ذكره الرفاعي في البرهان المؤيد (١/٢١١).

٤٣- لا يقدر أن يتصرَّف في الأكوان إلا من كان له الحق السمع، والبصر، واللسان في قوة الدليل للحكم المذكور.

فحينئذ يكون قوله قُدِّس سرّه: (**لا يقدر أن يتصرَّف في الأكوان إلا من كان له الحق السمع، والبصر، واللسان في قوة الدليل للحكم المذكور**) أي: لا يصلح من يربي الخلق إلا من كانت صفته من صفة الحق؛ لأنه لا يقدر أن يتصرَّف في الأكوان أحد من الآحاد إلا الرجل الذي كان الحق تعالى لذلك الرجل سمعًا، و بصرًا، ويدًا، ولسانًا، ورجلاً فبه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه ينطق، وبه يمشي، كما ورد في حديث النوافل المشهور وهو: «**لا يزال يتقرب إلي العبد بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعًا، وبصرًا، ويدًا، و لسانًا، ورجلاً، فبي يسمع، و بي يبصر وبي يبطش، و بي ينطق، وبي يمشي**[1]»، فالعبد في هذا المقام تغلب حقّيته خلقيته، فيشاهد نفسه في مرآة الحق، فيكون العبد في هذا المشهد هو الظاهر والله مختفيًا فيه، فحقًا الفاعل والمدرك هو العبد، والحق آلة له، فلا يَعقل، ولا يَدرك إلا بالحق، ولذا يصلح للتربية لكون قواه وجوارحه وأعضائه حقًا، وسيأتي الكلام في هذا البحث أيضًا إن شاء الله تعالى.

٤٤- تترك الوسائط، ما لم تصر من البسائط.

ولـمَّا كان السبب الكامل في هذا ترك الوسائط وهو موقوف على التجريد، والانفراد عن كلّ شيءٍ، أشار إليه الشيخ قُدِّس سرَّه بقوله: (**تترك الوسائط، ما لم تصر من البسائط**) أي: لا يمكن لك أيُّها السالك الطالب للوصول ترك الوسائط، والعلائق، ولا تقدر عليه ما لم تصر أنت من البسائط، ولا تقبل التركيب بوجه من الوجوه، ولا تتعلق بشيءٍ مما سوى مطلوبك، فكل بسيط يناقض المركَّب ولما المركب لا يكون إلا مع غيره مع أن ذلك الغير بسيط في أصله، فالنقطة بسيطة لا يتوقف حصولها على شيءٍ، والحروف كلّها موقوفة عليها، ومركّبة منها، فالبسيط هو الأصل، والمركّب هو الفرع، وما في الأصل ليس في الفرع، ألا ترى أن الأمس الإلهي إذا كان من الحق تعالى بدون الوسائط لا يتخلف المأمور أبدًا، وإذا كان بالوسائط فقد يتخلف وقد لا يتخلف، مثلاً

(١) تقدَّم تخريجه.

قال الله تعالى على ألسنة الرُّسل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[البقرة:٤٣]. ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾[آل عمران:٢٠٠]، ﴿وَجَاهَدُوا﴾ [البقرة:٢١٨].

فإن وجدت الإرادة الإلهية مع هذا يقع المأمور بلا تخلق، وإلا فلا لتوقف الامتثال على الإرادات.

ولهذا ترى الأمر الإلهي يأتي إلى الخلق، فمنهم عامل، ومنهم متخلف عن العمل، فعلم من هذا أن الأمر الإلهي قد يكون بما يوافق الإرادة، وقد يكون بما يخالفها، فالأول يقع في الحال، والمأمور المتمثل يُوصف بالطاعة، ويسمَّى مطيعًا، والثاني لا يقع، والمأمور يوصف بالمخالفة والمعصية، ويسمَّى مخالفًا وعاصيًا، ولهذا قال النبي ﷺ:

«شيبتني هود وأخواهّا أي: أظهرت الشيبة في لحيتي سورة هود، وأخواهّا لما تحوي عليه من قوله: (فاستقم كما أمرت)[1]».

والذي شيبه ﷺ قوله تعالى في سورة هود: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]، فإنه لا يدري دائمًا أن الأمر الإلهي هل هو بما يوافق الإرادة فيقع المأمور فيتصف بالطاعة، أو بما يخالف الإرادة، فلا يقع المأمور به، فيتصف بالمعصية، قاله الشيخ الأكبر في فصوصه.

قال الشيخ الجيلي قَدَّس الله سرَّه: «إن غاية المطلوب في سر السلوب، ومواهب التجديد في حقائق التجريد، والظفر بسر الأحد في نفي العدد».

وقال: «فمن ترك ما ظهر ظفر بسر القدر، ومن ملأ النظر من جمال مظاهر الصور عمى عن سر توحد في باطن عين الخير، فمن تجرد، ومن تفرد توحد، ومن تكثر تعدد، ومن تعدد تقيَّد، ومن تقيد تلذذ، ومن تلذذ تذبذب، ومن تذبذب تعذب، ومن خرج عن كلِّ ذلك شهد ما هنالك، ومن لم يكن كذلك أسقط في مهاوي المهالك» انتهى.

فخذلك أيها السالك من هو نتيجة الباطن والظاهر، ولا تبدل الطول بالقاصر، ولا تبع بالذر الدر الفاخر، واطلب النور الباهر بأمر الملك القاهر، وكن من البسائط، واترك

(١) رواه الترمذي في السنن الكبرى (٥/٤٠٢)، وأحمد في الزهد (١/٩) بنحوه، والحاكم في المستدرك (٢/٣٧٤).

الوسائط فإن البسيط منفرد عن كلّ شيءٍ، وكل شيءٍ متعلق به، فإذا تركت الوسائط وصرتُ بسيطًا، فحقًا تخلص محبَّتك لله تعالى ومحبَّته لك إلا أن محبتك له محبَّة الفرع للأصل، ومحبته تعالى لك محبَّة الأصل للفرع.

٤٥- محبَّته لك محبة الأصل للفرع.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**محبَّته لك محبة الأصل للفرع**) أي: محبَّة الحق تعالى لك أيُّها السالك محبَّة الأصل لفرعه[1]؛ لأنه تعالى أصل الأشياء، وحقيقتها وبالهوية سائرة في

(١) قال الشيخ القونوي: للمحبة أسبابٌ شتَّى، وموجبات متعددة؛

منها: ما هو نتيجة عن مناسبةٍ واقعةٍ بين بعض صفات المحب والمحبوب؛ يتحدان من حيث تلك الصفة، وإن تَفَاوَتَتْ حظوظهما.

منها: لاستحالة ظهور حكم صفة ما في موجودين أو شخصين على السوية؛ بل لا بد من حصول التفاوت؛ لتفاوت استعدادات الماهيات الغير المجعولة المقتضية لقبول الوجود الواحد الشامل جميعها على الأنحاء المختلفة بصورِ حصصٍ متنوعة.

ولهذا تعذَّر وجدان المثلية بين اثنين من جميع الوجوه ذاتًا وصفةً وحالاً؛ بل غاية ذلك الشبه من بعض الوجوه.

ثم نقول؛ وقد تكون المحبَّة الحاصلة بين اثنين نتيجة اشتراك، ومناسبة في بعض الأفعال، أو في بعض الأحوال، أو في المرتبة؛ كالاشتراك في النبوّة، والولاية، والخلافة، والعلم بالله أو بما شاء الله من حيث الذات.

والمراد من قولنا: من حيث الذات أن العلم عندنا قد يكون ذاتيًّا؛ فلا يدخل في قسم الصفات، فلو لم يذكر القيد المنبَّه عليه لَظُنَّ أن ذكر العلم تكرارٌ، فإنه داخل في قسم الصفات.

وإذا تقرر هذا فنقول: المحبةُ حقيقةٌ كليةٌ مشتركةُ الحكم بين الرتبة الإلهية والكونية، فمناسبتها ثابتة بين الحق والخلق، فتصحُ نسبتها إلى الحق من وجه وباعتبارٍ، وإلى الخلق أيضًا كذلك؛ بموجب حكم المناسبة التي سنـــزيد في بيانها إن شاء الله، ليس من حيث ما يتوهَّمه المحجوبون من أن الحق يحب عباده من حيث مغايرتهم إيّاه أو فيهم من يحبه من كونه خلقًا وسوى؛ ويغترون بما يفهمونه من قوله ﷻ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤] وبقوله: ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٩٥] و﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦] ونحو ذلك.

=

=

هذا عندنا من المستحيلات، فإنه من المحال في مشرب التحقيق أن يحب شيء ما سواه من حيث ما يغايره إلا بموجب حكمَ معنى مشترك بينهما، من حيث ذلك المعنى ثبت بينهما مناسبة تقضي بغلبة حكم ما به الاتحاد على حكم ما به الامتياز والمباينة.

فبحكم العلم بتلك المناسبة أو الشعور بها على العالم، أو الشاعر أن يطلب رفع أحكام المباينة بالكلية، وظهور سلطنة ما به الاتحاد؛ لتصح الوصلة التامة، وتظهر سلطنة الواحد الأحد، فلا جائزٌ أن يحب الحق الخلق أو الخلق الحق.

وإنما ثم أسرار آخر ذاتية، وصفاتية، وفعلية، وحالية، ومرتبية من حيث هي تثبت المناسبة فتحصل المحبة، غير ذلك لا يجوز.

فأما «**الصفاتية**»: فإن الوحدة صفة ذاتية للحق، والكثرة صفة ذاتية للعالم؛ فهما متقابلان من هذه الوجه، لكن للوحدة كثرة نسبية من حيث ما يتعقّل أن الواحد نصف الاثنين، وثلث الثلاثة، وربع الأربعة، وخمس الخمسة، فهذه أحكامٌ لازمةٌ لوحدة الواحد، ولا توجب كثرة في حقيقته، فإنها أمورٌ اعتبارية لا وجودية، وهكذا يجب أن يتعقّل جميع الصفات الإلهية ليس غير ذلك.

ثم نقول: ولكثرة أيضًا وحدةَ تخصُّها هي معقولية وحدة الجملة من حيث هي جملة وكلية، فمتى علم أحدهما بالآخر، أو تعقل بينهما ارتباط؛ فبموجب حكم القدر المشترك، فما علم هذا بذلك إلا بما فيه منه، فافهم.

ثم قال الوارد المتعين لسانه في القلب الجامع الإنساني وهو من مقدمات كتاب: «علم العلم»: اعلم أن مستند الآثار كلها ممن تُنسب إليه هو التوجه الذاتي المؤثر فيه بالحال الجمعي؛ لكن من حيث كينونة المؤثر فيه في ذات المؤثر وارتسامه في نفسه، والحال الجمعي ناتج عن الحركة الحُبِّيَّة؛ وموجب الحركة على اختلاف ضروبها طلب التحقق بالمحبوب المقتضي للحركة نحوه، والمحبة كيفية لازمة لاستجلاء العالم ما في الاتحاد به؛ ظاهرًا وباطنًا، جمعًا وتفصيلاً؛ كما له لذةً وابتهاجًا، عاجلاً أو آجلاً، مؤقتًا أو غير مؤقت.

و «علم العالم»: عبارة عن كمال إحساسه بذاته ولوازمها، وكمال الإحساس مشروطٌ بصحة الإدراك، وكمال الحياة المستلزم رفع كل حجاب والتباس.

و «الالتباس»: عبارة عن امتزاج أحكام المراتب، وتداخل أحكام الحقائق بسبب الوجود الواحد
=

كلِّ شيءٍ، وورد في حديث جابر:

«إن الله تعالى خلق روح محمد ﷺ من نور ذاته، وخلق العالم بأسره من روح محمد ﷺ»، فهو أقرب إلى الله تعالى، فهو الظاهر في الخلق بالمظاهر الإلهية فما بَعدَ عن الحق إلا بدبجة فهو كالألف بالنسبة إلى النقطة، فهو كسائر الحروف المهملة في ضهور النقطة بذاتها فيهم، لكن للألف عليهم زيادة وفضل من جهة القرب؛ لأن النقطتين إذا تركبتا صارتا ألفًا، فليس له إلا بُعد واحدٌ وهو الطول وما سواه فيه أكثر من بُعد واحد كالجيم فيه طول وعمق، والكاف فيه طول وعرض وعمق وهكذا باقي الحروف إمَّا فيها بعدين أو ثلاثة، والنقطة أمُّ الحروف وهي فيها بالقوة يعني تعقل ثبات الحروف فيها، ولا تُدرك الحروف إلا بعد بروزها من النقطة، فالنقطة أصل جميع الحروف لتركيبها من النقطة، ولا علاقة للحروف بالنقطة إلا وجودها في الحروف، وأول جزء من أجزاء الحروف نقطة، وثانيها أيضًا نقطة وهكذا ثالثها، ورابعها إلى أن تتم إجرائها، فالألف جميع أجزائه نقطة فالألف نقطة فما له في نفسه أنية، بل هويتها هي أنيته، وله حقيقة ما لها وهو عينها وله

=

المشترك بينهما؛ الموحد أحكام الكثرة المختصة بكل منها؛ وعوز مانع من كمال انبساط حكم المدرك من حيث إدراكه على شئون ذاته المستجنة فيه، وما يزيد الانبساط عليه بموجب قيد ينافيه الإطلاق.

و «رفع حكم الالتباس والجهل من المتصف بهما»: عبارة عن مزيد وضوح له فيما تعلّق إدراكه به من قبل؛ ويستلزم إعراضه عما كان حاكمًا عليه بسبب إقباله وميله إليه.

وعبارة عن؛ انبساط ذات المدرك وإطلاقه وكمال نوريته المنفّر ظلمة كل حجبة أوجبها التعدُّد والاختلاف.

و «الحجبة»: عبارة عن الإعراض عن سرٍّ ما سُمِّي حجابًا، والتشوُّف إلى ما لحظ بعين المحجوبية، وللمحجوب درجةُ المطلوب المتوسل إليه، وللحجَّاب درجة الوسيلة؛ ومرجع ذلك إلى جمع وتفصيلٍ قد يعبر عنهما بقبض وبسط يستلزمان البطون والظهور؛ اللَّذيْنِ لا يتحققان إلا بشهودِ القدر المشترك بينهما، وغلبة حكم الوحدة الجامعة بين العالم، وما قصد معرفته على أحكام كثرتهما الموجبة للجهل والحجبة، ولما كان الحق محيطًا بكل شيءٍ، وكانت أحكام وحدته غالبة على أحكام كثرة المعلومات؛ لهذا كان علمه بنفسه مستلزمًا لعلمه بكل شيء، فافهم.

حكمها؛ لأن شهود الألف جسمانياته، وتخلية روحانيَّة النقطة هيئة من هيئات النقطة، ووصف من أوصافها والأحرف كلها صغيرها وكبيرها كذلك ولو تقول: كيف هذا ؟.

وللنقطة ما ليس للحروف من الحلّ والعقد والسريان في الحروف، فمن طلب من الحروف شيئًا مما لها من المذكورات تنكسر زجاجة همّته، ويجرع خاسرًا؛ لفقده عنده ما لها من الأحكام قلت: هذا من طلبه بنفسه من نفسه التي هي غيرها عنده، ولو طلبها ومالها من الأحكام من نفسها التيّ هي نفسه لوصلها وكان له مالها، فالعبد إذا طلب من نفسه بنفسه فالطريق عليه مسدود والطالب مردود، وإذا طلب بالله من الله فالطريق له مقطوع والطالب واجد مطبوع، فالأول داخل في الدَّار من غير بابها، والثاني داخلها منه، وإلى الأول أشار سلطان أبي يزيد البسطامي قُدِّس سرَّه بقوله: «الطريق مسدود والطالب مردود».

وإلى الثاني أشار النبي ﷺ بقوله: «**من طلب الحق وجده**(١)».

ومن هنا بان لك الأصل، والفرع ولا امتياز في التحقيق إلا باعتبار الإطلاق والتقييد، فالمطلق يحب المقيد؛ لأنه جزئه، والكل محب للجزء.

فآدم عليه السلام أحب الحواء؛ لأنها جزئه، ومعرفة الجزء مقدمة على معرفة الكل، فمعرفة الإنسان مقدمة على معرفة ربّه أيّ: معرفة الإنسان بربِّه نتيجة عن معرفة الإنسان بنفسه، كما يدل عليه حديث: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**(٢)».

وحُب الأصل للفرع من باب حنين الكل إلى جزئه، وحنين ذي الصورة لصورته، وحُب الفرع للأصل من باب حنين الجزء لكله وحنين الصورة لذي الصورة، فالله تعالى خلق آدم على صورته، وخلق حواء على صورة آدم، والصورة عين ذي الصورة من وجه، وإن كانت غيره من وجه آخر، فالله أحب مَن هو على صورته، وآدم أحبَّ من يكون هو أصله، وأحبَّ أيضًا من يكون منه وهي حواء؛ لأنها جزئه، وحنت حواء إلى آدم حنين الشيء إلى وطنه وأصله وكله، وحب الأصل للفرع ذاتي، وحب الفرع للأصل تبعي أيّ:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

تابع لحب الأصل؛ إذ الحب تابع الوجود، ووجود الفرع من الأصل بالضرورة فكذلك حبّه للأصل.

وبما ذُكر عُلم معنى قول الشيخ قُدِّس سرّه: [**ومحبّتك له محبَّة الفرع لأصله**] أيْ: محبتك للحق تعالى محبة الفرع للأصل، ومحبة الله لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على الرحمة والإحسان والعطاء، يعني من أحبهم الله تعالى يكون لهم من المذكورات أتم نصيب، ومحبته تعالى لخلقه فوق محبة الخلق له، وقيل: إن محبَّة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، وفيه ما فيه إلا أن يُراد فوق كلّ محبة من العبد لغير ربه، فتأمل.

* * *

مطلب في تقسيم المحبَّة وتعريفها

وإثبات المحبة من الطرفين على ما قدَّره الشيخ هو الذي قرره أهل الحق، وصرح به الكتاب والسنة، بل هما مملوءان بذكر من يحبه ومن يحبهم.

قال الله تعالى: ﴿**يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ [البقرة:١٦٥]؛ وقال: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة:٥٤] ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [التوبة:٤].

وقال أيضًا: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٦].

﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٨].

﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة:٢٢٢].

وقال في أضداد ذلك: ﴿**لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾ [البقرة:٢٠٥].

﴿**لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[لقمان:١٨].

﴿**لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [آل عمران:٥٧].

وقال النبي ﷺ في دعائه: «**اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك**[١]».

---

(١) رواه الطبراني في الدعاء (١/٤٤١)، ابن أبي شيبة في المصنف (٦/٧٦)، وذكره المناوي في فيض القدير (٢/١٠٩).

وكان من دعاء داود عليه السلام: «اللهم إني أسألك حبّك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك اللهم اجعل حبك أحبُّ إلي من نفسي، وأهلي ومن الماء البارد».

وقال النبي ﷺ يقول الله تعالى: «من عادى لي وليًا فقد أذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي من أداء الفرائض، وأداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذ بي لأعيذنه(١)»(٢).

---

(١) ذكره ابن الجوزي في إيثار الإنصاف (١/١٠٥).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢/١).

فائدة جليلة في شرح هذا الحديث: قلت: هو حديث عمدة في الإسلام، وقيل فيه: أن الإيمان به من أصعب ما جاء به الشرع لأنه يقتضي الإيمان بمن هو مثلك في الصفات البشرية باعتباره محلى بصفات الحق تبارك وتعالى، فيسمع بسمعه ويبصر ببصره، وها أنا أذكر لك طرفًا من أقوال أهل العلم الثقات في هذا الباب الذي فيه تصريح بمكانة الأولياء الذين ابتلوا بمعاداتهم والإنكار عليهم.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: اعلم أن طريق القوم مشيَّدةٌ بالكتاب والسنة، وأنها مبنيَّةٌ على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء، وأنها لا تكون مذمومةً إلا إذا خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير، وأمَّا إذا لم تخالف فغاية الأمر أنه فهمٌ أوتيه رجلٌ مسلمٌ، فمن شاء فليعمل به، ومن شاء تركه.

ونظير الفهم في ذلك الأفعال وما بقي الإنكار في ذلك إلا سوء الظن بهم، وحملهم على الرياء، وذلك لا يجوز شرعًا، ثم أن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحَّر فيها أعطاه الله تعالى هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حدٍّ سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآدابًا ومحرَّمات ومكروهات نظير ما فعله المجتهدون، وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئًا لم تصرِّح الشريعة بوجوبه أولى من إيجابِ ولي الله تعالى حكمًا في الطريق لم تصرِّح الشريعة بوجوبه.

وإيضاح ذلك أنهم كلهم عدولٌ في الشرع اختارهم الله تعالى لدينهم، فمن دقَّق النظر علم أنه لا يخرج شيءٌ من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة، وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هي وسيلتهم إلى الله تعالى في كل لحظة! ولكن أصل استغراب من لا إلمام له بأهل الطريق أن علم التصوف من عين الشريعة كونهُ لم يتبحَّر في علم الشريعة.

ولذلك قال الجنيد رحمه الله تعالى: علمنا هذا مشيَّدٌ بالكتاب والسنَّة.

ردًّا على مَنْ توهَّم خروجه عنها في ذلك الزمن أو غيره، وما بلغنا قطُّ عن أحدٍ من القوم أنه نهى أحدًا

عن الصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج أبدًا، ولا تَعرَّض لمعارضة شيءٍ من الشرع، وكيف يترك الولي ما كان سببًا لوصوله إلى حضرة ربِّه؟ وإنما يحثُّ الناس على الإكثار من أسباب الوصول، فما بقي وجه الإنكار إلا على مواجيدهم وأفهامهم، وتلك أمورٌ لا تُعارض شيئًا من صريح السنَّة.

والأمر في ذلك سهلٌ، فمن شاء فليصدِّقهم، ويقتدِ بهم كمقلدي المذاهب، ومن شاء فليسكت ولا ينكر؛ لأنهم مجتهدون في الطريق، والمجتهد لا يقتدي وإن كان على مجتهدٍ آخر، وبالجملة فما أنكر على الصوفية إلا مَنْ جهلَ حالهم.

كان الشيخ عليٌّ الخواص رحمه الله تعالى يقول: إيَّاك أن تُصغي لقول منكرٍ على أحدٍ من طائفة العلماء والفقراء فتسقط من عين رعاية الله ﷻ، وتستوجب المقت من الله تعالى.

وقال الشيخ محيي الدين العربي قُدِّس سرُّه: أصل منازعة الناسِ في المعارف الإلهية والإشارات الربَّانية كونها خارجةً عن طور العقول، ومجيئها بغتةً من غير تفكُّرٍ ونظرٍ ومن غير طريق العقل، فتنكَّرت على الناس من حيثُ طريقها، فأنكروها، ومَنْ أنكر طريقًا من الطُرق عادى أهلها ضرورةً؛ لاعتقاده فسادها، وفساد عقائد أهلها، وقد غاب عن المنكر أن الأولياء والعلماء العاملين قد جلسوا مع الله سبحانه وتعالى على حقيقة التصديق، وعلى الصدق، والتسليم، والإخلاص، والوفاء بالعهود، وعلى مراقبة النفوس مع الله ﷻ حتى سلَّموا انقيادهم إليه، وألقوا نفوسهم سَلمًا بين يديه، وتركوا الانتصارِ لنفوسهم في وقتٍ من الأوقات حياءً من ربُوبيةِ ربِّهم، واكتفاءً بقيُّوميَّته عليهم، فقام لهم فيما يقومون لأنفسهم؛ بل أعظَم.

وكان سبحانه وتعالى هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم.

وقال قُدِّس سرُّه في باب الوصايا من «الفتوحات»: إيَّاكم! ومعاداة أهل لا إله إلا الله؛ فإن لهم من الله تعالى الولاية العامة؛ فهم أولياء الله تعالى، ولو أخطأوا وجاءوا بترابِ الأرض خطايا لا يشركون بالله شيئًا فإن الله تعالى يلقى جميعهم بمثلها مغفرةً، ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته، وإنما جاز هجر أحدٍ من الذاكرين الله تعالى لظاهر الشرع من غير أن نؤذيه، ونزدريه، وأطال في ذلك.

قلت: ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث القدسي الطويل الذي رواهُ مسلم: «قال الله تعالى: ومَنْ لقيني بترابِ الأرض خطيئةً لا يُشرك بي شيئًا لقيتُه بمثلها مغفرةً».

ثم قال قُدِّس سرُّه: وإذا عمل أحدكم عملاً توعَّد الله تعالى عليه بالنار فليختمه بالتوحيد؛ فإن التوحيد يأخذ بيد صاحبه يوم القيامة لا بدَّ من ذلك.

قلت: ويؤيده ما روي عن أبي ذرٍّ أنه قال:

«يا رسول الله، أوصني. قال: أوصيك بتقوى الله تعالى، وإذا عملت سيئةً فاتبعها بحسنة تَمحُها. قلت: يا رسول الله، أمِنَ الحسنات قول لا إله إلا الله؟ قال: مِنْ أفضل الحسنات» ذكره في شروح أم البراهين.

وكان الشيخ أبو تراب النَّخشبي رحمه الله تعالى يقول: إذا ألِفَ القلب الإعراض عن الله تعالى صحبته

الوقيعة في أولياء الله تعالى.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: وذلك لأنه لو كان من المُقبلين بقلوبهم على حضرة ربهم سبحانه وتعالى لشمَّ روائح أهل حضرة ربه تعالى، فتأدَّب معهم ومدحهم وأحبَّهم، وخَدَمَ نعالهم حتى يقرِّبوه إلى حضرته سبحانه تعالى، ويصير مثلهم كما هو شأنُ مَنْ يريد التقرُّب إلى ملوك الدنيا.

وكان الشيخ أبو عبد الله القرشي رحمه الله تعالى يقول: مَنْ بَغَضَ وليًا لله تعالى ضُرِبَ في قلبه بسهم مسموم، ولم يَمتْ حتى تفسد عقيدته، ويُخاف عليه من سوء الخاتمة.

وكان الشيخ زكريا الأنصاريُّ رحمه الله تعالى يقول: الاعتقاد صنيعةٌ، والانتقاد حرمانٌ.

وقال الإمام الشافعي ﷺ: الإنكار فرعُ النفاق.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: وذلك لأن المنافقين لو لم ينكروا على رسول الله ﷺ لآمنوا به ظاهرًا وباطنًا.

وكان الشيخ الجنيد قدَّس الله تعالى سرَّه يقول: مَنْ قعد مع هؤلاء الفقراء وخالفهم في شيء مما يتحقَّقون به نزع الله تعالى منه نور الإيمان.

وقد رُوي في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني قدَّس الله تعالى سرَّه بأسانيد متعددة:

عن أبي سعيد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عصرون التميمي الشافعي قال:

دخلتُ وأنا شابٌّ إلى بغداد في طلب العلم، وكانَ ابن السقَّا يومئذ رفيقي في الاشتغال في النظامية، وكنَّا نتعبد، ونزور الصالحين، وكان يومئذ ببغداد رجلٌ يقال له: الغوث، وكان يقال عنه: أنه يَظهرُ إذا شاء، ويختفي إذا شاء، فقصدت زيارته أنا وابن السقَّا والشيخ عبد القادر وهو يومئذ شابٌّ، فقال ابن السقا ونحن في الطريق: اليوم أسأله عن مسألة لا يدري لها جوابًا. فقلت: أنا أسأله عن مسألة، فأنظر ما يقول فيها. فقال الشيخ عبد القادر: معاذَ الله! معاذ الله! أن أسأله شيئًا وأنا بين يديه، إذًا أنتظرُ بركات رؤيته. فلما دخلنا عليه لم نره في مكانه، فمكثنا ساعةً فإذا هو جالسٌ، فنظر إلى ابن السقَّا مغضبًا، وقال: ويحك يا ابن السقا! تسألني عن مسألة لا أدري لها جوابًا، هي كذا، وجوابها كذا، وإني لأرى نار الكفر تتلهَّبُ فيكَ، ثم نظر إليَّ، وقال: يا عَبد الله، تسألني عن مسألة لتنظر ما أقول فيها! هي كذا، وجوابها كذا، ولتأخذنَّكَ الدنيا إلى شحمتي أذنيك بإساءة أدبك. ثم نظر إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني، وأدناه منه، وأكرمه، وقال: يا عبد القادر، لقد أرضيتَ الله ورسوله بأدبك، فكأنِّي أراك ببغداد، وقد صعدتَ على الكرسي متكلمًا على الملإ، وقلتُ: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وكأني أرى الأولياء في وقتك وقد حَنوا رقابهم إجلالاً لك، ثم غابَ عنَّا لوقته فلم نرهُ بعدُ ذلك.

فأمَّا الشيخ عبد القادر فإنه ظهرت أمارات قربهُ مِنْ الله ﷻ، وأجمع عليه الخاص والعام، وقال: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وأقرَّت الأولياء بفضله في وقته.

وأما ابن السقَّا فإنه اشتغل بالعلوم الفرعية حتى برعَ فيها، وفاق بها كثيرًا من أهلِ زمانه، واشتهر بقطع

من يناظره في جميع العلوم، وكان ذا لسان فصيح، وسمت بهيٍّ، فأدناه الخليفة منه، وبعثه رسولاً إلى ملك الروم، فرآهُ الملك ذا فنون، وفصاحة، وسمت فأُعجب به، وجمع له القسّيسين والعلماء بدين النصرانية، وناظروه، فأفحمهم عجزًا، فعظُمَ عند الملك، ثم رأى بنتًا للملك حسناء ففُتن، وسأل أباها أن يُزوِّجها منه، فأبى إلا أن يتنصَّر، فأجابه، وتزوج بها فذكر ابن السقّا كلام الغوث، وعلم أنه أُصيبَ.

وأما أنا فجئت إلى دمشق، وأُحضرني السلطان نور الدين الشهيد، وأكرهني على ولاية الأوقاف فوليتُها، وأقبلتُ على الدنيا إقبالاً كثيرًا، وَصدَقَ قول الغوث فينا كلنا نعوذ بالله تعالى من غضبه، ونسأله حُسن الخاتمة، آمين.

وذكرَ اليافعي رحمه الله تعالى في كتابه نشر المحاسن قال:

أخبرني بعض الصالحين من ذرية الشيخ أبي الحسن بن حرزهم: أنه لما وقف أبو الحسن المذكور على كتاب الإحياء نظر فيه، وتأمله، ثم قال: هذا بدعةٌ مُخالفةٌ للسنَّة، وكان مطاعًا في جميع بلاد الغرب، فأمر بإحضار كل ما فيها مِنْ نسخ الإحياء، وطلب من السلطان أن يلزم الناس ذلك، فأرسل السلطان إلى جميع النواحي، ونودي فيها: لعنةُ الله على مَنْ عنده شيءٌ من كتاب الإحياء ولا يحضرهُ، فأحضر الناس ما عندهم من ذلك، واجتمع الفقهاء، ونظروا فيه، ثم أجمعوا على إحراقه يوم الجمعة، وكان اجتماعهم يوم الخميس، فلمَّا كان ليلة الجمعة رأى أبو الحسن المذكور في المنام كأنه دخل من باب الجامع الذي عادته يدخل منه، فرأى في ركن المسجد نورًا، وإذا بالنبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما جلوسٌ، والإمام أبو حامد الغزالي قائمٌ وبيده كتاب الإحياء، فقال: يا رسول الله، هذا خصمي، ثم جثا على ركبتيه، وزحف عليهما إلى أن وصل إلى النبي ﷺ، فناوله كتاب الإحياء، وقال: يا رسول الله، انظر فيه، فإن كان بدعةً مخالفةً لسنَّتك كما زعم تُبت إلى الله تعالى، وإن كان شيئًا تستحسنه جُعل لي من بركتك، فانصفني مِنْ خصمي. فنظر فيه رسول الله ﷺ ورقةً ورقةً إلى آخره، ثم قال: والله إنَّ هذا الشيء حسنٌ. ثم ناوله أبا بكر، فنظر فيه كذلك قال: والذي بعثك بالحق يا رسول الله إنه لحسنٌ. ثم ناوله عمر، فنظر فيه كذلك قال كما قال أبو بكر، فأمر رسول ﷺ بتجريد أبي الحسن من ثيابه، وضَربه حدَّ الفترى، فجُرِّد من ثيابه، وَضُرب، ثم شفع فيه أبو بكر ﷺ بعد خمسة أسواط، وقال: يا رسول الله، إنما فعل هذا اجتهادًا في سنَّتك، وتعظيمًا لها، فغفرَ له أبو حامد عند ذلك، فلمَّا استيقظ مِنْ منامه وأصبح أعلم أصحابه بما جرى له، ومكث قريبًا من شهر وَجعًا من ذلك الضرب، ثم نظر بعد ذلك في الإحياء فرأى أمرًا آخر، وفهمه فهمًا مخالفًا للفهم الأول، فرآه موافقًا للكتاب والسنة، ورأى النبي ﷺ مسحَ على ظهره بيده المباركة الكريمة، فشُفي جسمه وقلبه بعد خمسة وعشرين يومًا، ثم فُتح عليه بعد ذلك، ونال من المعرفة بالله تعالى والحظ العظيم ما نال، وصحبه الشيخ أبو مدين فربَّاه، ثم قال له: قد فتحت لك ستة أقفال وبقي سابعٌ يفتحه لك الشيخ أبو يعزى؛ فاذهب إليه. فلمَّا رآه الشيخ أبو يعزى قال له: قال لك الشيخ أبو الحسن أني أفتح لك القفل السابع، ها أنا أفتحه بإذنه،

=

ففتحه له، ففتح، وكان من أمر الشيخ أبو مدين وعظم شأنه ما كان رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ولولا أن هذا الشيخ أدركه اللطف والعناية بالتوبة والهداية وتشفّع فيه الصدّيق ﷺ لكان يموت على ذلك الحال، ويلقى العذاب والنّكال، نسأل الله العفو والعافية وحسن الخاتمة، آمين.

وذكر الشيخ عبد الغني الشامي في كتابه «كشف النور» قال:

حكى الشيخ عبد الله بن زين اليابري الإشبيلي: أنه قرأ ليلةً تأليف أبي القاسم بن أحمد في الردّ على الغزالي فعمي، فسجد لله تعالى من حينه، وتضرّع، وأقسم أنه لا يقرأه أبدًا، ويذهبه الله سبحانه وتعالى، فردَّ الله سبحانه وتعالى بصره.

وقد حكى الشيخ الفقيه خير الدين الرملي الحنفي: أن بعض المنكرين رأى أن القيامة قد قامت ونصبت أوانٍ في غاية الكِبَر، وأغلي فيها ماءٌ تطاير منه الشرر، وجيء بجماعة، فسلقوا فيه حتى تمرَّى اللحم والعظم. فقال: ما هؤلاء؟ قال: الذين يُنكرون على ابن العربي وابن الفارض رضي الله تعالى عنهما.

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في «العهود المحمدية» قال:

حكى لي شيخي الإمام المحدِّث الشيخ إمام الدين إمام جامع الغمري بمصر عن شيخ الإسلام صالح البلقيني: أن سراج الدين البلقيني مرَّ يومًا بـ «باب اللوق» فوجد هناك زحمةً، فقال: ما هذه الزحمة؟ فقالوا: شخصٌ من أولياء الله تعالى يبيع الحشيش. فقال: لو خرج الدجال حينئذ في مصر لاعتقدوه من شدَّة جهلهم، كيف يكون حشَّاشٌ منْ أولياء الله تعالى؟ إنما هؤلاء حرافيش، ثم ولَّى، فسُلب جميع ما معه حتى الفاتحة، فتنكَّرت عليه أحواله وصارت الفتاوى تأتي إليه فلا يعرف شيئًا، ونسي ما قاله في حق الحشَّاش، فمكث كذلك في مدرسته بحارة «بهاء الدين» ثلاثة أيام، فدخل عليه فقيرٌ، فشكا إليه حاله، وأفشى له سرَّه، فقال: هذا من الحشَّاش الذي أنكرت عليه، فإن الفقراء أجلسوه هناك يُتوِّب الناس عن أكل الحشيش فلا يأخذها أحدٌ من يده، ويعود يأكلها أبدًا حتى يموت، فأرسل: استغفر له يُردَّ عليك حالك، فأرسل له، فبمجرد ما أقبل الرسول أنشده الشيخ:

نحـــنُ الحرافــيشُ لا نسكنُ علالِي الدُّور ... ولا نـــرائي ولا نشـــهدُ شـــهادةَ زورْ
نقـــنعُ بلقمـــةٍ وخِـرقةٍ بمسجدٍ مهجورِ ... مَـــنْ كـــان ذا الحـــال حالــهُ ذنبهُ مغفورْ

فلو كنَّا عصاةً نبيع الحشيش ما أقدرنا على سلب شيخ الإسلام، ثم قال: سَلِّمْ على شيخ الإسلام، وقل: اعمل أربعة خراف معاليف شواء، وأربعمائة رغيف، وتعال اجلس عندي كلٍّ مَنْ بعته قطعة حشيشٍ زن له رطلاً، وأعطه رغيفًا.

فشقَّ ذلك على شيخ الإسلام، فما زال به أصحابه حتى فعل ذلك، وصار يزن لكل واحد الرطل، ويعطيه الرغيف والشيخ يتبسَّم، ويقول: نحن نحلِّيهم في الباطن، وأنت تحلِّيهم في الظاهر إلى أنْ فرغ.

ثم قال له: اذهب إلى الدِّيك الذي فوق سطح مدرستك فاذبحه، وكُلْ قلبه يُردَّ لك علمك، فبالله عليك

=

كيف تتكبَّر على المسلمين بعلمٍ حمله الديك في قلبه، فمن ذلك اليوم ما أنكر البلقيني على أحدٍ من أرباب الأحوال. هذه حكاية الشيخ أمين الدين عن ولد الشيخ سراج الدين.

وكان قبل ذلك ينكر على سيدي عليٍّ بن وفا أشد الإنكار، فلمَّا وقعت له هذه الواقعة من الحَشَّاش تاب إلى الله تعالى عن الإنكار، وأوصى سيدي عليَّ بن وفا أن يصبَّ عليه الماء إذا مات، ففعل له ذلك، وقال: والله لقد رجع أمرك إلى سلامة. وكان الشيخ عليٌّ الخواص رحمه الله تعالى يقول: لو أن كمال الدُّعاة إلى الله تعالى كان موقوفًا على أطباق الخلق كلهم على تصديقهم لكان الأولى بذلك رسول الله ﷺ والأنبياء عليهم السلام قبله صدَّقهم قومٌ، فهداهم الله تعالى بفضله، وحُرِم آخرون، فأشقاهم الله تعالى بعدله.

ولما كان الأولياء والعلماء على أقدام الرسل في مقام التأسِّي بهم انقسم الناس فيهم فريقين: فريقٌ معتقدٌ مُصدِّقٌ، وفريقٌ منتقدٌ مُكَذِّبٌ، كما وقع للرسل عليهم السلام؛ ليحقق الله تعالى بذلك ميراثهم، فلا يُصدِّقهم ويعتقد صحة علومهم وأسرارهم إلا مَنْ أراد الله تعالى أن يلحقه بهم ولو بعد حين.

وأما المكذِّب لهم المنكر عليهم فهو مطرودٌ عن حضرتهم لا يزيده الله تعالى بذلك إلا بُعدًا.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي قُدِّس سرُّه: ولما عَلِمَ الله تعالى ما سيقال في هذه الطائفة على حسب ما سبق به العلم القديم بدأ بنفسه، فقضى على قومٍ أعرضوا عنه بالشقاء، فنسبوا إليه زوجةً وولدًا وفقرًا وغير ذلك، سبحانه وتعالى عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا، فإذا ضاق ذرع الولي أو الصدِّيق لأجل كلامٍ قيل فيه: من كفرٍ، وزندقة، وسحرٍ، وجنونٍ وغير ذلك نادته هواتف الحق تعالى في سرِّه: أما ترى إخوتك من بني آدم كيف وقعوا في جنابي، ونسبوا إليَّ ما لا ينبغي لي؟ فإن لم ينشرح لما قيل فيه نادته هواتف الحق سبحانه وتعالى: أما لك أُسوةٌ بي، فقد قيل فيَّ، وقيل في حبيبي محمدٍ، وفي إخوانه من الأنبياء والرسل ما لا يليق بمرتبتهم من السحر والجنون وغير ذلك، فيسكن قلبه عند ذلك.

صور من المحن لأهل الله وخاصته:

قال الجلال السيوطي: واعلم أنه ما كان كبيرًا في عصرٍ قطُّ إلا وكان له عدوٌّ من السفلة؛ إذ الأشراف لم تزل تُبتلى بالأطراف، كما قيل:

وإذا أتتْكَ مذمَّتي من ناقصٍ ... فهي الشهادةُ لي بأنِّيَ كاملُ

فكان لأبينا آدم عليه السلام إبليس، وكان لنوح عليه السلام حام وغيره، وكان لداود عليه السلام جالوت، وكان لسليمان عليه السلام صخر، وكان لعيسى عليه السلام في مدته الأولى بخت نصر وفي الثانية الدجَّال، وكان لإبراهيم عليه السلام النمرود، وكان لموسى عليه السلام فرعون، وهكذا إلى نبينا محمَّد ﷺ فكان له أبو جهل وغيره من المشركين، بل كان المنافقون يؤذونه أشد الإيذاء حتى رُوي: «إن قطيفةً حمراء فقدت يوم بدرٍ، فقال بعض المنافقون: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فأنزل الله تعالى في براءة رسوله ﷺ من الغلول: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران:١٦١]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ

=
المُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١].

وقال ﷺ: «ما أُوذي أحدٌ بما أُذويتُ في الله».

وتكلَّموا في جماعة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ونسبوهم إلى الرياء والنفاق، منهم: عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وكان كثير الخشوع في الصلاة، فكان بعضهم يقول: إنه مُراء، فبينما هو ساجدٌ؛ إذ صبوا على رأسه ماءً حميمًا، فزلع رأسه ووجهه وهو لا يشعر، فلمَّا فرغ من صلاته قال: ما هذا؟! فأخبروه، فقال: غفر الله لهم ما فعلوا، ومكث زمانًا يتألم مِنْ رأسِه ووجهه.

وكان لابن عمر رضي الله عنهما عدوٌّ يعبث به كلما مرَّ عليه.

وكان لابن عباس رضي الله عنهما نافع بن الأزرق، فكان يؤذيه أشد الإيذاء، ويقول: إنه يُفسِّر القرآن بغير علم.

وكان لسعد بن أبي وقاص ﷺ جهلةٌ من جُهَّال الكوفة، فكانوا يؤذونه مع أنه مشهودٌ له بالجنة، وشكوه إلى عمر بن الخطاب ﷺ وقالوا: لا يحسن يصلي.

ولا يخفى ما قاسى أهل البيت المطهَّر رضوان الله تعالى عليهم أجمعين من الأذى، حتى أنهم سبُّوا على المنابر.

ولا يخفى ما قاساه الإمام أبو حنيفة ﷺ مع الخلفاء من الضرب والحبس حتى أنه تُوفِّي محبوسًا، وما قاساه الإمام مالكٌ ﷺ من الضرب والإيذاء حتى أنه استخفى خمسًا وعشرين سنةً لا يخرج لجمعةٍ ولا لجماعة.

وما قاساه الإمام الشافعي ﷺ من أهل العراق ومن أهل مصر حتى أنهم وشوا به عند الخليفة هارون الرشيد، فأشخصه من الحجاز إلى العراق.

وما قاساه الإمام أحمد بن حنبل ﷺ من الضرب والحبس والإيذاء.

وما قاساه الإمام البخاري ﷺ حين أخرجوه من «بخارى» إلى «خرتنك».

ونقل الثقاة أنهم نفوا أبا يزيد البسطامي رحمه الله تعالى سبع مراتٍ من بلده «بسطام» لما أنكر عليه الحسين بن عيسى إمام ناحيته والمُدرس بها في علم الظاهر، فأخرجوه منها ولم يعد إليها إلا بعد موت الحسين المذكور، ثم بعد ذلك ألفه الناس، وعظَّموه، وتبرَّكوا به، ثم لم يزلْ يقوم له منكرٌ بعد منكرٍ وهو يُنفى إلى أن يستقر أمره على تعظيم الناس له والتبرُّك به إلى وقتنا هذا.

ووشوا بذي النون المصري رحمه الله تعالى عند الخليفة، وأخذوه من مصر إلى بغداد مغلولاً مقيَّدًا، فكلَّم الخليفة، فأعجبه، وقال: إن كان هو زنديقٌ فما على وجه الأرض مسلمٌ. وتعصَّب عليه مرةً فقهاء «أخميم»، ونزلوا في زورق؛ ليمضوا إلى السلطان بمصر يشهدون عليه بالكفر، فأعلموه بذلك، فقال: اللَّهُمَّ إن كانوا كاذبين فأغرقهم، فانقلب الزورق عليهم، والناس ينظرون حتى رئيس المركب،
=

=

فقيل له: ما ذنب الرئيس؟ فقال: حمل الفُسَّاق، ورموا «سمنون المحب» رحمه الله تعالى أحد رجال رسالة القشيري بالعظائم، وأرشوا امرأةً من البغايا فادَّعت عليه أنه يأتيها هو وأصحابه، واختفى بسبب ذلك سنةً إلى أن كشف الله تعالى عنهم تلك المحنة.

وأخرجوا سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى من بلده إلى البصرة، ونسبوه إلى قبائح، وكفَّروه مع إمامته وجلالته، ولم يزل بالبصرة إلى أن مات بها.

ورموا أبا سعيد الخرَّاز رحمه الله تعالى بالعظائم، وأفتى العلماء بكفرِهِ بألفاظٍ وجدوها في كتبه، منها: لو قلت منْ أين؟ وإلى أين؟ لم يكن جوابي غير: الله تعالى.

وشهدوا على الجنيد رحمه الله تعالى بالكفر مرارًا حين كان يتكلَّم في علم التوحيد على رؤوس الأشهاد، فصار يقرِّره في قعر بيته إلى أن مات، وكان من أشد المنكرين عليه وعلى «رويم» وعلى «سمنون» وعلى «ابن عطاء» ومشايخ العراق ابن دانيال كان يحط عليهم أشد الحط، وإذا سمع أحدًا يذكرهم بخير تغيَّظ، وتغيَّر لونه.

وأخرجوا الإمام محمد بن الفضل البلخي رحمه الله تعالى من «بلخ» لكون مذهبه كان مذهب أهل الحديث من إجراء الصفات على ظاهرها بلا تأويلٍ، والإيمان بها على علم الله تعالى فيها.

ولما أرادوا إخراجه قال: لا أخرج إلا أن تجعلوا في عنقي حبلاً وتمروا بي في أسواق البلد، وتقولوا هذا مبتدعٌ، نريد أن نخرجه من بلدنا، ففعلوا به ذلك، وأخرجوه، فالتفت إليهم، وقال: يا أهل بلخ، نزع الله تعالى من قلوبكم معرفته، فلم يخرج بعد دُعَائه قطُّ من بلخ صوفيٌّ، مع أنها كانت أكثر بلاد الله صوفيةً، وعقد الشيخ عبد الله ابن أبي حمزة رحمه الله تعالى مجلسًا في الردِّ عليه حين قال: أنا أجتمع بالنبي ﷺ يقظةً، فلزم بيته، فلم يخرج إلا للجمعة حتى مات.

وأخرجوا الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى إلى بلخ بسبب كتابين صنَّفهما، فأغلظوا عليه، وقالوا له: أنت فضَّلت الأولياء على الأنبياء، فجمع كتبه، وألقاها في البحر، فابتلعتها سمكةٌ سنين ثم لفظتها، وانتفع الناس بها.

وأخرجوا الإمام يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله تعالى، وقام عليه زُهَّاد الراز وصوفيتها.

وأخرجوا أبا عثمان المغربي رحمه الله تعالى من مكة مع كثرة مجاهدته، وتمام علمه وحاله، وضربوه ضربًا مُبَرِّحًا، وطافوا به على جملٍ، فأقام ببغداد إلى أن مات فيها.

وشهدوا على الشبلي رحمه الله تعالى بالكفر مرارًا مع تمام علمه وكثرة مجاهداته، واتباعه للسنَّة، فأدخله أصحابه «المارستان» ليرجع الناس عنه مدةً طويلةً.

وقتلوا الحسين الحلاج رحمه الله تعالى بسبب كلمات وجدوها في كتبه، قال ابن خلكان: وإنما سمي الحلاج؛ لأنه جلس على دكان حلاجٍ وبه مخزن قطنٍ غير محلوجٍ فذهب صاحب الدكان في حاجته، ورجع فوجد القطن كله محلوجًا، فسمِّي لذلك الحلاج. قال: وأما سبب قتله فلم يكن عن أمرٍ يوجب

=

القتل، إنما عمل عليه الوزير حيلةً حين أحضروه إلى مجلس الحكم مرات، و لم يظهر منه ما يخالف الشريعة، فقال الوزير لجماعة: هل له مصنَّفاتٌ؟ قالوا: نعم، فذكروا أنهم وجدوا له كتابًا فيه: أن الإنسان إذا عجز عن الحجِّ فليعمد إلى غرفة من بيته، فيطهِّرها، ويطيِّبها، ويطوف، ويكون كمن حجَّ البيت، والله أعلم إن كان القول عنه صحيحًا، فطلبه القاضي، فقال: هذا الكتاب تصنيفك، فقال: نعم، فقال: أخذته عن مَنْ؟ فقال: عن الحسن البصرى ولا يعلم الحلاج ما دسُّوه عليه فيه. فقال القاضي: كذبت يا حلال الدم. فمسك الوزير هذه الكلمة على القاضي، فقال: هذا فرغٌ عن حكمك بكفره، وقال للقاضي: اكتب خطَّك بالتكفير، فامتنع القاضي، فألزمه الوزير بذلك، فكتب، فقامت العامة على الوزير، فخاف على نفسه، فكلَّم الخليفة في ذلك، فأمر بالحلاج، فضُرب ألف سوط فلم يتأوَّه، وقُطِّعت يداه ورجلاه وصُلب، ثم أُحرق بالنار، ووقع الاختلاف بين الناس أهو الذي صُلبَ؟ أم رُفع كما وقع في عيسى ابن مريم عليه السلام؟

ورُوي أنه لما قُدِّم لتقطَّع يداه قُطعت اليد اليمنى أولاً، فضحك، ثم قُطعت اليسرى فضحك ضحكًا بليغًا، فخاف أن يصفرَّ وجهه من نزف الدم، فكبَّ بوجهه على الدم السائل، ولطَّخ وجهه بدمه، وأنشد يقول:

الله الله إنَّ الـــرُّوحَ قــد تلفــتْ ... شــوقًا إلــيك ولكــنِّي أمنِّــيها
ونظــرةٌ مــنك يــا سُؤْلي ويا أملي ... أشــهى إليَّ مــن الدنــيا ومــا فــيها
يــا قــومُ إنِّــي غريبٌ في دِيَاركم ... ســلَّــمتُ رُوحــي إليكم فاحكموا فيها
لم أُســلِّم الــنفس للأســقام تــتلفُها ... إلا لعــلمي أنَّ الوصــلَ يُحيــيها
نفــسُ المحــبِّ عــلى الآلام صــابرةٌ ... لعــلَّ مُســقِمَها يومًــا يُداويهــا

ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: يا مولاي، إني غريبٌ في عبادك، وذكرك أغرب منِّي، والغريبُ يألف الغريبَ.

وأخرجوا الإمام أبا بكر النابلسي رحمه الله تعالى مع فضله، وكثرة علمه، واستقامته، في طريقته من الغرب إلى مصر، وشهدوا عليه بالزندقة عند سلطان مصر، فأمر بسلخه منكوسًا، فصار يقرأ القرآن بتدبُّرٍ وخشوعٍ حتى قطَّع قلوب الناس، وكادوا أن يفتتنوا به.

وكذلك سلخوا النسيمي بحلب، وعملوا له حيلةً؛ حيث كان يقطعهم بالحجج، وذلك أنهم كتبوا سورة الإخلاص، وأرشوا من يخيِّط النعال، وقالوا: هذه ورقة محبَّة فضعها لنا في أطباق النِّعال، ثم أخذوا ذلك النعل، وأهدوه للشيخ من طريقٍ بعيدة، فلبسه وهو لا يشعر، ثم أطلعوا نائب حلب، وقالوا له: بَلَغنا من طرقٍ صحيحة: أن النسيمي كتب (قل هو الله أحد)، وجعلها في طباق نعله، وإن لم تصدِّقنا، فأرسل إليه وانظر ذلك، ففعل، فاستخرجوا الورقة، فسلَّم الشيخ لله تعالى ولم يُجب عن

=

نفسه، وعلم أنه لا بدَّ من قتله على تلك الصورة.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى: وأخبرني بعض تلامذته أنه صار ينشد موشحات في التوحيد وهم يسلخونه حتى عمل خمسمائة بيت، وكان ينظر إلى الذي يسلخه، ويبتسم.

وأفتوا بتكفير الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، وحرقوا كتابه الإحياء ثم نصره الله تعالى عليهم، وكتبوه بماء الذهب.

ورموا الشيخ أبا مدين المغربي بالزندقة، وأخرجوه من بجاية إلى تلمسان فمات بها.

وكذلك أخرجوا الشيخ أبا الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى من بلاد المغرب بجماعته، ثم كاتبوا نائب الإسكندرية بأنه سَيَقْدم عليكم مغربيٌّ زنديقٌ، وقد أخرجناه من بلادنا، فالحذر من الاجتماع عليه، فجاء الشيخ الإسكندرية، فوجد أهلها كلّهم يسبُّونه، ثم وشوا به إلى السلطان، ولم يزل بالأذى حتى حجَّ بالناس في سنين، كان الحجُّ فيها قد قُطِعَ مِنْ كثرة قُطّاعِ الطريق فاعتقده الناس.

ورموا الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى بالكفر، وعقدوا له مجلسًا في كلمة قالها في عقيدته، وحرضوا السلطان عليه، ثم حصل له اللطف.

ورموا الشيخ تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى بالكفر، وشهدوا عليه أنه يقول بإباحة الخمر واللواط، وأنه يلبس في الليل الغيار والزنار، وأتوا به مغلولاً مقيدًا من الشام إلى مصر، وخرج الشيخ جمال الدين الأسنوي، فتلقّاه من الطريق، وحكم بحقن دمه.

وأنكروا على الشيخ عبد الحق بن سبعين رحمه الله تعالى، وأخرجوه من بلاد المغرب، وأرسلوا مكتوبًا أمامه يحذّروا أهل مصر منه، وكتبوا فيه أنه يقول: أنا هو وهو أنا.

وأما الشيخ محيي الدين بن العربي والشيخ عمر بن الفارض رحمهما الله تعالى فلم يزل ينكرون عليهما إلى وقتنا هذا.

وإنما ذكرنا لك محن هؤلاء الأئمة الكرام تأنيسًا لك ليتحبَّب إليك سلوك طريق القوم، وتُقبل على مطالعة كتبهم فتنتفع بها، وتلحظك همّتهم، وتفوح عليك نفحاتهم، ويعود عليك مددهم، ومن ذاق عرف، ولا تلتفت إلى منكرٍ عليهم فإنه مطرودٌ، مبتعدٌ، ممقوتٌ، ولو أنه يفعل بعض العبادات فإنه لا يجد لها حلاوةً ولذة ألبتّة.

كما حكى الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في العهود المحمدية قال: أخبرني سيدي عليٌّ الخوّاص: أن شخصًا من العلماء استأذنه في الحج سَنةً من السنين، فقال له: لا تسافر تمقت، فقال: كيف أمقت بالحجِّ؟ ثم خالف، وسافر إلى مكة، فحضر وقت الخطبة فنهض قائمًا، وقال: يا أهل مكة، جُمعَتكم باطلةٌ؛ فإن شرطها أن يسمعها أربعون من أهل الجمعة وما هنا إلا مسافرون، وكانت الناس متفرّقين في ظلّ الكعبة من شدة الحرّ، فوقع لذلك ضجّةٌ عظيمةٌ، وأعادوا الخطبة، وكان مِنْ جملة من كان حاضرًا القطب، والأوتاد، والأبدال ومن شاء الله تعالى فرجع ممقوتًا، قال الشيخ: فأوّل ما رأيته

=

حين دخل مصر وجدته ممقوتًا كالجلد الذي لا روح فيه، ثم قال لي: تقول لي: إن حججت تمقت، ولولا حضوري هناك في هذه السنة بطلت جمعة أهل مكة في الموسم، قال الشيخ: فعرفت تمكن المقت منه من القطب والأولياء الحاضرين هناك.

قال الشيخ عبد الوهاب: وقد رأيت أنا صاحب هذه الواقعة، وقد نزع الله تعالى منه الاعتقاد من سائر العلماء والصالحين، فلا تكاد تذكر له أحدًا إلا جرّحه، وكان مع ذلك يقرأ كل يوم ختمةً، وسمعت سيدي عليًّا الخواص مرارًا يقول: أنا خائفٌ على هذا الرجل من الموت على غير حالةٍ مرضيَّة. قال: ولو أن هذا المنكر كان عنده أدبٌ لَعَلِمَ أن لله تعالى رجالاً يسمعون كلام من بينهم وبينه مسيرةُ ثلاثين ألف سنةٍ وراثةٍ إبراهيمية.

قال الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله تعالى: وقد اعتاد المتفقّهة في كل زمان على التفتيش عن عيوب الناس الشرعية بحيث لا يؤوِّلون ما يجدونه مخالفًا لعلمهم، وإن كان له ألف تأويلٍ، بل ينكرون بمقتضى علمهم ما يكون محتملاً للخطأ ولو بوجه ضعيف، وإن كان صوابه ظاهرًا؛ بل ربما بعضهم يجهل مذهب الآخر، فينكر عليه ما خالف مذهبه، كما حكى لي رجلٌ حنفيُّ المذهب: صلّى ركعتين في الجامع الأموي، فوضع يديه تحت سرّته، ثم لما فرغ من صلواته أقام عليه النكير رجلٌ شافعيُّ المذهب، وقال له: ضع يديك على صدرك، هذا الذي فعلته مكروهٌ، وأنت جاهلٌ بأحكام الصلاة، وهذه الأمور كلها طريقة المتفقهة في المذاهب إلا الفقهاء، فإن المتفقّهة قاصرون، ومرادهم أن يُعرَفوا بين الناس بلا فقه، والعلم لأجل أغراضٍ شيطانية بريدون إنفاذها وشهوات نفسانية يحاولون إيجادها، فيضطرُّ بهم الأمر إلى التفتيش عن عيوب الناس، فكيف يؤوِّلون شيئًا مقصدهم التفتيش عليه، ومتى ظفروا بوجه فاسد في حالٍ فكأنما ظفروا بملك الدنيا، ففي قلوبهم الفرح الشديد، فمن المحال أن يُقيلوا عثرة مؤمنٍ أو يتغافلون عن زلّة مسلمٍ؛ لأنهم في زعمهم لا يرتقون ويرتفعون إلا بإنكارِ المناكر خصوصًا على الكامل الخاشع، والعابد الذاكر.

وأما الفقهاء أصحاب القدم الراسخ في العلوم على حسب المذاهب الأربعة فإن قلوبهم مُتجَانبةٌ عن الدنيا، مُقبلةٌ على الآخرة، وبسبب ذلك لا حسد عندهم، ولا تكبُّر، ولا عداوة، ولا حقد، ولا رياء، ولا سمعة يعلمون أحكام الله تعالى على وجه التحقيق أصولاً وفروعًا، ومن شدة شفقتهم على عبادِ الله تعالى لا يكادون يجدون في الناس منكرًا أصلاً، ومن كمال اشتغالهم بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس لا يجدون في الغَير مفسدةً حتى يجدوا في أنفسهم مائة مفسدة يعدُّونها على أنفسهم، فلا يخفى عليهم دسائس النفوس، فَهُم في صددِ كمال نفوسهم، وتطهيرها، فَهُم في شغلٍ شاغلٍ عن إنكار المنكر على الغير، وإذا رأوا مُنكرًا لا ينظرون منه إلا الوجه الحسن في حق الغير احتياطًا، وورعًا، وعندهم أحكام الشريعة أمورٌ كليَّاتٌ يقررونها للناس في الدروس على الكراسي وفوق المنابر، وليس في قلوبهم وجود شيءٍ منها في أحدٍ من الناس على التعيين أصلاً، كما أن الله سبحانه وتعالى أنكر المنكر في القران بلا تعيينِ أحدٍ مع علمه تعالى بالمناكر وأهلها في كل زمانٍ، وكذلك الرسول ﷺ كان يقول: «ما بالُ أقوامٍ

يفعلون كذا»، ولا يذكر أحدًا بسوء؛ فهؤلاء هم الناس الذين يليق في حقهم أن يقال عنهم: علماء فقهاء أُمناء على أحكام الله تعالى.

قال النجم الغزي رحمه الله تعالى في كتابه «منبر التوحيد»: ولقد روي عن أبي حنيفة والشافعي رضي الله تعالى عنهما أنهما قالا: إن لم تكن العلماء أولياءً فليس لله تعالى وليٌّ، والمراد بهم: العاملون.

كما روي في التنبيه بذلك عن الشافعي ﷺ أيضًا لقوله ﷺ: «لا يكون العَالم عالمًا حتّى يكون بعلمه عاملاً»، كذلك ذكره بعضهم مرفوعًا، وإنما هو موقوفٌ على أبي الدرداء، كما رواه ابن حبان في «روضة العبّاد»، والبيهقي في «المدخل».

وذكر النجم الغزى أيضًا في كتابه المذكور عن الإمام الشافعي ﷺ أنه قال:

مَنْ أحبَّ أن يفتح الله تعالى على قلبه نور الحكمة فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء، وبعض العلماء الذين ليس معهم إنصافٌ ولا أدبٌ انتهى كلامه.

وهؤلاء العلماء الذين ترك مخالطة بعضهم موجبٌ للفتح على القلب في طريق الله تعالى هم المتفقّهة الذين قَدَّمنا ذكرهم قبل ذكر الفقهاء، وهم موجودون في كل زمان من عصر الإمام الشافعي، بل من قبله إلى يوم القيامة، خذلهم الله تعالى، وأذلّهم إن لم يكن لهم نصيبٌ في الهداية والتوفيق والتوبة انتهى كلامه.

وذكر الفاضل البركيلي رحمه الله تعالى في الطريقة المحمديَّة عن أنس ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «العلماءُ أمناءُ الرسل على العباد ما لم يخالطوا السلطان ويدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا وخالطوا السلطان فقد خانوا الرسل؛ فاعتزلوهم» رواه الحاكم.

وعن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: تعرَّضت وتصدَّيت لرسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقلت: يا رسول الله، أيّ الناس شرٌّ؟ فقال: «اللَّهُمَّ غُفرًا، اسأل عن الخير، ولا تسأل عن الشرِّ، شرار الناس شرار العلماء» رواه البزار.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أشدُّ النَّاسِ عذابًا يوم القيامة عالِمٌ لم ينفعْه علمُه» رواه الطبراني والبيهقي.

وعن مجاهد عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهم أنه قال: لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ: «مَنْ قالَ إنِّي عالِمٌ فهو جاهلٌ» رواه الطبراني.

قال رحمه الله تعالى: ولا أرى عالمًا مُنصفًا إذا نظر وتأمل في أحواله وأعماله يحكم لنفسه أنها بريئةٌ من هذه الآفات، ولو سلَّم أن العالم بريء من هذه الآفات المذكورة وأن لعلمه فضلاً فعلمه يورثه خشيةً من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، لا جرأة على الله تعالى، وأمنا منه، وكبرًا على عباده، وعجبًا عليهم، فلهذا صار الأنبياء عليهم السلام متواضعين خاشعين لم يكن فيهم كِبرٌ ولا عُجْبٌ، فحقُّ العبد ألا يتكبّر على أحدٍ، فإن نظر إلى جاهلٍ يقول: هذا

وكم في الأحاديث أحب الأعمال إلى الله كذا أن يحبّ كذا، ولا بد من إثبات المحبَّة من الطرفين، وإلا بطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، وتعطلت منازل السير إلى الله؛ لأن المحبَّة روح كل مقام ومنـــزل وعمل، وما خلا منها فهو ميت لا روح فيه، فإنها الاستسلام، بل هي حقيقة لا إله إلا الله، وحقيقة العبودية أيضًا؛ لأنه لا يمكن الإنابة والحمد والرضا والشكر والخوف والرجاء بدونها، ومن هنا قيل: لا صبر إلا صبر المحبين، ولا زهد إلا زهدهم، ولا حياء إلا حيائهم، ولا رضاء إلا رضاهم، ولا شكر إلا شكرهم وغير ذلك، وذكر بعض في إثبات المحبة ما يقرب من مائة طريق، وقال الجهمية: بأنه تعالى لا يحب ولا يحب وأوَّلوا محبة الله بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب، وأوَّلوا محبة العباد له بمحبة طاعته وعبادته وازدياد الأعمال لنيل الثواب، وأوَّل بعض محبة الله لعباده بالثناء

=

عصى الله تعالى بجهلٍ، وأنا عصيته بعلمٍ، فهذا أعذر منّي، وإن نظر إلى عالمٍ يقول: هذا عَلِم ما لم أعلم فكيف أكون مثله، وإن نظر إلى أكبر منه سنًا يقول: إنه أطاع الله قبلي، وإن نظر إلى صغيرٍ يقول: إني عصيت الله تعالى قبله، وإن نظر إلى ما يساويه سنًّا يقول: إني أعلمُ بحالي ولا أعلم حاله، والمعلوم أولى بالتحقير من المجهول، وإن نظر إلى مبتدعٍ أو كافرٍ يقول: ما يُدريني لعله يُختم له بالإسلام، ويختم لي بما هو عليه الآن، وإن نظر إلى كلبٍ أو خنـــزيرٍ أو حيَّةٍ أو عقربٍ أو نحوها يقول: هذا لم يعصِ الله تعالى، فلا عتاب ولا عقاب عليه، وأنا عصيته فأنا مستحقٌّ لهما، فيكون مصروف الهم إلى نفسه، مشغول القلب بعيبه؛ لخوف العاقبة عن عيب غيره، فإن قلتَ: فكيف أبغضُ المبتدع والفاسق في الله وقد أمرت به، وكيف أنهاهُما عن المنكر مع رؤية نفسي دونهما؟

قلتُ: تبغض وتنهي لمولاك؛ إذ أمرك بهما لا لنفسك، وأنت فيهما ترى نفسك ناجيًا وصاحبك هالكًا؛ بل يكون خوفك بما علم الله تعالى من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليهما مع الجهل بالخاتمة، فتكون كغلامٍ مَلكَ أمره بمراقبة ولده والغضب عليه، وَضربه مهما أساء، فيغضب عليه، ويضربه عند الإساءة امتثالاً لأمر مولاه، وتقربًا له به بلا تكبُّرٍ عليه؛ بل هو متواضعٌ له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، فكذلك عليك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق، وتقول: ربما كان قدره عند الله تعالى أعظم؛ لما سبق لهما من حسن العاقبة في الأزل، ولما سبق لي من سوء العاقبة وأنا غافلٌ عنه، فتغضب وتنهي لحكم الأمر محبةً لمولاك إذا جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون أقرب منك عنده في الآخرة انتهى.

فالحاصل: الإنكار على أولياء الله تعالى لا يكون إلا من سوء النيَّة، وخبث الطويَّة، كما قيل:

كـــلُّ امــــرئٍ يُـــشبهُه فعلُـــه ... ويـنـــضحُ الكُـــوزُ بمـــا فـــيه

عليهم والمدح لهم، وبعضٍ آخر أوَّلها بالإرادة، وقالوا: الإرادة إن تعلقت بتخصيص العبد بالأحوال والمقامات سمّيت محبة، وإن تعلقت بالعقوبة والانتقام سميت غضبًا، وإن تعلقت بعموم الإحسان والإنعام الخاص سميت برًا، وإن تعلقت بالإيصال في الخفاء من حيث لا يحتسب سميت لطفًا، فهي من صفات الأفعال عند من أوَّلها بالإحسان والإنعام، ومن صفات الذات كالكلام عند من أوَّلها بالثناء والمدح، ومن صفات الذات باعتبار نفس الإرادة، ومن صفات الأفعال باعتبار تعلقها عند من أولها بالإرادة.

وأثبت الشيخ الجيلي قُدِّس سرُّه في كتاب «الإنسان الكامل»: «للإرادة تسعة مظاهر الأول: هو الميل أيٌّ: انجذاب القلب إلى المطلوب.

والثاني: الولع وهو إذا قوِّى ودام ذلك الميل.

والثالث: الصبابة وهي إذا اشتدَّ الميل، وأخذ القلب في الاسترسال فيمن يحب.

والرابع: الشغف وهو إذا تفرغ القلب للحبيب بالكلية، وتمكن ذلك منه.

والخامس: الهوى وهو إذا استحكم الحب في الفؤاد.

والسادس: الغرام وهو إذا استولى حُكم الحب على الجسد.

والسابع: الحب وهو إذا نما وزادت العللّ المقتضية للميل.

والثامن: الود وهو إذا هاج إلى أن ينفى المحب عن نفسه.

والتاسع: العشق وهو إذا طفح حتى أفنى المحب والمحبوب».

وقال الشيخ المذكور في هذا المقام: «يرى العاشق المعشوق فلا يعرفه، ولا يصغي إليه، كما رُوي عن مجنون ليلى أنها مرت عليه ذات يوم فدعته إليها لتحدثه، فقال: دعيني فإني مشغول بليلى عنك».

ثم قال: «وهذا آخر مقامات القرب والوصول فيها ينكر العارف معروفه، فلا يبقى عارف ولا معروف ولا عاشق ومعشوق، فلا يبقى إلا العشق فقط، فهو الذات الصرف الذي لا اسم ولا رسم ولا وصف ولا نعت له فيظهر بالصورتين، ويوصف بالوصفين فتارة عاشق، وتارة معشوق» انتهى ملخصًا.

واعلم أن المحبَّة هي مطايا القوم، وطريقهم الأقوم الذي به بلغوا إلى المنازل العالية، والمراتب السامية فإنها أصل الوجود، وقوت القلوب، وغذاء الأرواح ففازوا بشرف الدارين، ونالوا بها الحسنيين الأحسنين، وبها قدروا على خلع النعلين، والخروج عن القوتين، وهي التي لا تزيدها الحدود إلا الخفاء كالوجود عند أهل الصفا وجودها هو حدُّها، وما قيل فيها: فمن جهة أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها لا بحسب حقيقتها؛ إذ ليس لها وصف أظهر من نفسها فهي كالعشق ذات صرفة، بل هي مرتبة من مراتب المحبَّة على ما قال بعضهم:

بأن لها عشر مراتب العلاقة والصبابة والغرام والوداد والشغف والعشق والتيم أي: التعبد والتذلل يقال: تيَّمه الحب أي: ذللَّهُ وعبَّده، والتعبد الصوف والخلة، فعلى هذا القول: العشق سابع مراتب المحبَّة.

وعلى قول الشيخ الجيلي: «المحبَّة سابع مراتب الإرادة ومظاهرها، فالمحبة بحسب اللغة لها خمسة معاني الأول الصفاء والبياض يقال: لبياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان، والثاني العلو والظهور ومنه حباب الماء، والثالث اللزوم والثبوت يقال: حبَّ البعير وأحب إذا برك، واستقر في موضعه، والرابع اللبُّ يقال: حبه القلب أيّ: لبه ولب الشيء خلاصته ومادته، والخامس الحفظ يقال: للوعاء الذي يحفظ فيه الماء مثلاً حب الماء».

ولها بحسب الاصطلاح أقوال تبلغ إلى ثلاثين قولاً أجمعها ما قاله الجنيد البغدادي قُدِّس سرَّه: «الذهاب عن النفس، والاتِّصال بذكر الرب، والقيام بأداء حقوقه، وحصر النظر بالقلب إليها، والموصوف بها من أنوار الهيبة أحرق قلبه، ومن كأس المودة صفى شرابه فانكشف الجبار من غيب الأستار لأجله، فإن تكلم فبالله، أو نطق فعن الله، أو تحرك فبأمر الله، أو سكن فمع الله فهو في جميع الأحوال بالله لله مع الله من الله إلى الله».

وقال أبو يزيد قُدِّس سرَّه: «هي استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك، وقريبٌ منه ما قيل: إنها استكثار القليل من الجناية، واستقلال الكثير من الطاعة».

وقال سهل ﷺ: «إنها معانقة الطاعة، ومباينة المعصية».

وقال أبو عبد الله القرشي: «أن تهب كلَّك لمحبوبك، فلا يبقى لك شيء»، وقال الشبلي قُدِّس روحه: «أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب».

وقال ابن عطاء الإسكندري رحمه الله: «هي إقامة العتاب دوامًا».

وقال أبو يعقوب السوسي ﷺ: «نسيان المحب حظه من المحبوب وحوائجه إليه».

وقال النصر بادي رحمه الله: «هي مجانبة السلو على كل حال».

وقال محمد بن المفضل: «هي توحيد المحبوب بالمحبَّة».

وقال يحيى بن معاذ: «هي مالا ينقص بالجفاء، ولا يزيد بالإحسان».

وقيل: هي الميل الدائم بالقلب الهائم.

وقيل: إيثار المحبوب على جميع المطلوب.

وقيل: موافقة المحبوب في الغائب والشاهد.

وقيل: محو المحب لصفاته وإثبات الحبيب لذاته.

وقيل: مواطأة القلوب لـمُرادات المحبوب.

وقيل: خوف ترك الحرمة مع إقامة الخدمة.

وقيل: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب.

وقيل: أن تُغار على المحبوب أن يحبه مثلك.

وقيل: إرادة غرست في القلب أغصانها فأثمرت الطاعة.

وقيل: توحيد المحبوب بخالص الإرادة وصدق الطلب.

وقيل: غضّ طرف القلب عمَّا سوى المحبوب غيرة، وعن المحبوب هيبة.

وقال الحارث المحاسبي: «الميل إلى الشيء بالكليَّة، ثم إيثاره على النفس والروح والمال، ثم الموافقة له سرًا وجهرًا، ثم العلم بالتقصير في محبته».

وقيل: بذل المجهود وترك الاعتراض على المحبوب.

وقيل: سُكر لا صحو معه إلا بالمشاهدة، ثم السكر الذي عند المشاهدة لا يوصف، وقيل: ألا تؤثر عليه غيره، ولا يتولى أمرك إلا هو، وقيل: الدخول تحت رِقِّ المحبوب،

والخروج من رِقّ ما سواه.

وقيل: سفر القلب في طلب الحبيب ولهج اللسان بذكره على الدوام.

ومن هنا قيل: مَن أحبَّ شيئًا أكثر ذِكره.

وقيل: إن كلك بالمحبوب مشغول وله مبذول.

ثم المحبَّة على ما قال بعض: جناح المسافرين، ودليل السالكين، وهي غايتهم والمتصف بها إمام الركب دائمًا، فمقدمة أرباب الفناء يلتقون بساقة أرباب المحبة.

وقال بعضهم: هي بين الهمَّة والأُنس وأول أودية الفناء والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحو، فمقدمة العامة في آخر مقام المحبة وساقة الخاصَّة في أول منازل الفناء، ومنـــزل الفناء مُتصل بآخر منـــزلة المحبة، وعلى الأول مقام الفناء عقبة في طريقها وليس بعدها إلا البقاء، وما دون المحبَّة من المقامات كلها أغراض لا عواض فما سوى المحبين أجير ينصرف عند أخذ الأجرة.

وأمَّا المحبون فهم عبيد ونفس العبد وعمله ومنافعه لسيده لا له فلا يعوضه في ملكه، فلا ينصرف من الباب أبدًا.

***

مطلب في أسباب المحبَّة التي تجلبها

والمحبَّة لها أسباب تجلبها قراءة القرآن بالتدبر والتفهم، والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض، ودوام الذكر قولاً وفعلاً وحالاً وتعقلاً، وإيثار ما يريد على ما تريد، والتفكر في الأسماء والصفات، ومشاهدة النعمة الظاهرة والباطنة من الذات، وبالتلاوة والاستغفار والمناجاة في الخلوات، ومجالسة المحبين الصادقين، ومباعدة الأسباب المانعة من توجه القلب إلى الحق تعالى، لكن المدار على الاستعداد يا أيُّها العباد.

وقال بعضهم: إنها على ثلاث درجات الأول هي القاطعة للوساوس والمنتجة للخدمة والتسلية عن المصائب، وهي نابتة من مطالعة المنة، وثابتة باتِّباع السنة، ونامية باختيار الفاقة، والثانية هي الباعثة على إيثار الحق على ما سواه، وحقًا اللسان يلهجُ بذكرها،

والقلب يتعلق بشهودها وظهورها بمطالعة الصفات والنظر إلى الآيات، والثالثة هي الخاطفة للقلوب، والعبارة منقطعة دونها والإشارة غير واصلة إليها، وهي قطب هذا الشأن لخلاصها من الشوائب والعلل والأغراض.

وقال الشيخ الجيلي: إن المحبَّة ثلاثة أنواع محبَّة فعلية، وهي أن يحب الله تعالى لإحسانه عليه، ولأن يزيد عليه ما أسداه إليه، ومحبة صفاتية وهي أن يحبه تعالى لجماله وجلاله، ومحبة ذاتية وهي التعشق الذاتي الذي ينطبع بقوته في العاشق بجميع أنوار معشوقه، فيبرز العاشق في صفة المعشوق كما يتشكل الروح بصورة الجسد.

فالأول: محبَّة العوام أي: ما دون الشهداء.

والثاني: محبَّة الخاصة أي: الشهداء.

والثالث: محبَّة خاصة الخاصة أي: المقربين.

واعلم أن الحرف الأول من المحبة حرف (الميم) الذي هو دائرة الوجود؛ لأن أولها منعطف على آخرها مثل الواو والنون، وقد مرَّ في صدر الكتاب بيان هذا، وعدده أربعين وهو عين الكمال الاعتدالي في كلِّ شيءٍ، وموافق لمراتب الوجود الحقّية والخلقية، فإنها وإن كانت كثيرة لا تُحصى لكن جميعها محصورة في الأربعين وما سواها داخل تحتها لاشتمالها الجميع، وإحاطتها بالكلّ، ولهذا صار مُفتاحًا للملك والملوك، والمريد والمراد، والمحِب و المحب، والمبدئ والمعيد، وغير ذلك كما ذكرنا في أول الكتاب، وأيضًا صار مُفتاحًا للاسم محمد[1] هو نبينا ﷺ، فهذا العدد وهو مدلول الميم أصل الأشياء وبه تمت

(١) قال شرف الدين الخليلي: إذا اعتبرت حروف الاسم بالجمل الصغير كانت الميم الأولى بأربعة والثانية بأربعة، فذلك ثمانيةٌ، والحاء بثمانية، فإذا ضربت ثمانية الميمين في ثمانية الحاء كان الحاصل أربعةً وستين، وهي مدة حياة النبي ﷺ؛ فإنه مات في السنة الرابعة والستين، ويُؤخذ منه عدد سور القرآن؛ وذلك أنك إذا ضممت إلى الأربعة والستين السابقة عدد النون التي هي التنوين اللاحق له عند الإعراب ذلك مائةٌ وأربعة عشر، وهي عدد سور القرآن، وعدد الكتب المنـــزَّلة من السماء؛ فإنه ورد في بعض الروايات أنها مائةٌ وأربعةٌ عشر، وأما على رواية أنها مائةٌ وأربعةٌ المشهورة فبيانه أنك إذا جمعت حروفه الرسميَّة وهي أربعةٌ إلى حروفه اللفظيَّة وهي ستةٌ باعتبار التنوين كان ذلك عشرةً، فإذا ضربتها في نفسها كان ذلك مائةً، زدْ عليها عدد الدال بأربعة يحصل مائةٌ وأربعةٌ، وهي عدد الكتب المنـــزَّلة، فصحف شيث خمسون على روايتها تُؤخذ من التنوين، وصحف إبراهيم عليه السلام ثلاثون تؤخذ من ضرب =

=

حروفه الخمسة من غير التنوين في الستة باعتبار التنوين يحصل ثلاثون، هذا على رواية أنه نـــزل عليه ثلاثون صحيفةً، ويُؤخذ عدد أيام رمضان، وأما على رواية أنه نـــزل عليه عشرون فيؤخذ من حروف الاسم بالجمل الصغير، وصحف موسى عليه السلام عشرةٌ غير التوراة، وصحف آدم عليه السلام على رواية أنها نـــزلت عليه عشرةٌ، فتؤخذ من الدال أو من الميم باعتبار الجمل الصغير، ويؤخذ منه أسماء الله الحسنى التسعة وتسعون، وذلك بأن تأخذ ميمًا واحدةً وتنطق بها تجد عدد حروفه الرسميَّة إلى عدد اللفظيَّة يحصل تسعةٌ، فضمُّها إلى التسعين يحصل ما ذكر: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنَّة»، وهي مشهورةٌ فلا نطيل بذكرها.

وأما أسماؤه تعالى على ما حكاه ابن العربي من أنها ألف اسمٍ فبيانه أنك تأخذ ميمًا فيها تسعون كما تقدَّم، والحاء فيها عشرةٌ، وذلك أنك إذا نطقت بها ومددت الحاء قلت: حـــاء، فالحاء بثمانية، والألف الأولى بواحد، والهمزة بواحد، وذلك عشرةٌ، فإذا ضممتها إلى التسعين كان ذلك مائةٌ، فإذا ضربت فيها عدد حروفه الرسميَّة الأربعة مع حروفه النطقيَّة الستة باعتبار التنوين فهي عشرةٌ كان الحاصل ألفًا.

ومثل ذلك يأتي في أسمائه الشريفة ﷺ؛ فإنها ألفٌ، ويؤخذ من ذلك مقدار يوم القيامة: «إنَّ يوم القيامة عند ربِّك كألف سنة مما تعدُّون».

ويُؤخذ من الاسم عددُ أركان الصلاة عند الإمام الشافعيِّ، وذلك أن الحاء بثمانية، والحروف الرسمية أربعةٌ، والحروف النطقية ستَّةٌ، فذلك ثمانية عشر، وهي عدد أركانها في قولٍ لبعض أصحابه، وإذا نطقت بالحاء كانت بتسعة، وإذا ضممت إليها الدال ذلك ثلاثة عشر، وهي عدد أركانها عند المحققين من أصحابه، وإذا مددت الحاء كانت بعشرةٍ كما تقدَّم، فإذا زدت عليها الدال كانت أربعة عشر، وهي عدُّها على قولٍ لبعض أصحابه، وإذا اعتبرت الحروف بالجمل الصغير: فالميم الأولى بأربعة، والحاء بثمانية، والميم الثانية بأربعة، وذلك عشرون، وهي عدُّها على قولٍ لبعض أصحابه.

ويُؤخذ من ذلك عدد الصفات الواجبة له تعالى؛ فهي عشرون صفةً، وهي: الوجود، والقِدم، والبقاء، والمخالفة للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، والوحدانيَّة، والقدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وكونه قادرًا، ومريدًا، وعالمًا، وسميعًا، وبصيرًا، ومتكلِّمًا، فالصفة الأولى من العشرين نفسيةٌ، والخمسة بعدها سلبيَّةٌ، والسبعة بعدها معاني، والسبعة الباقية معنويَّةٌ.

ويؤخذ منه أيضًا عدد المستحيلات العشرين، وهي: أضداد لتلك، وهي: العدم، والحدوث، وطروء العدم، والمماثلة للحوادث، وألا يكون قائمًا بنفسه، وألا يكون واحدًا، والعجز، وإيجاد شيءٍ من العالم مع كراهيته لوجوده: أي عدم إرادته له، والجهل، والموت، والصمم، والعمى، والبكم، وكونه عاجزًا.

ويُؤخذ منه أيضًا عدد السنن التابعة للفرائض؛ فإنها عشرون، وعدد ركعات التراويح، وعدد صلاة

=

=

الأوَّابين؛ فإن أقصاها عشرون، وإذا ضربت الحروف الرسميَّة في النطقيَّة باعتبار التنوين كان الحاصل ثلاثين، أسقط الثلاثة عشر السابقة يبقى سبعة عشر، وهي عددها على ما في الروضة، وإذا سقطت من الثلاثين التسعة السابقة بقي أحد وعشرون، وهي عدَّها على قولٍ حكاه أصحابه.

فإن قلت: هل يمكن أخذ كلٍّ واحدٍ من الخمس وعدد الأركان جملةً؟

قلت: يمكن؛ وذلك أن الميم الأولى بأربعة، وهي الظهر، وفيه مناسبةٌ أخرى، وهي أن الظهر أول صلاةٍ ظهرت، كما أن الميم أول حرفٍ عند النطق، والميم الثانية بأربعة، وهي العصر، وفيه مناسبةٌ أخرى، وهي أن العصر الصلاة الوسطى على الراجح، كذلك الميم وسط الحروف لا باعتبار التنوين، والدال بأربعة، وهي العشاء، وفيه مناسبةٌ أخرى، وهي أن العشاء آخر الصلوات المفروضة في اليوم والليلة، كذلك الدال آخر حروف الكلمة، وبقي المغرب والصبح، فأما الصبح فتُؤخذ من قسمة الحاء بثمانية على الدال مثلاً يخرج اثنان، وهما عدد ركعتيها، وكذا كل صلاةٍ هي ركعتان من سائر السنن، وأما المغرب فبأن تأخذ من الاسم الحاء يبقى فيه ثلاثة أحرفٍ باعتبار الرسم، تنطق بالحاء يحصل تسعةٌ، اقسمها على ما بقي من حروف الاسم يخرج ثلاثةٌ، وهي عدد ركعات المغرب، وقد عُلم من ذلك عدد الركعات تفصيلاً.

فأما إجمالاً فهو على وزان ما تقدَّم في أركان الصلاة عند الشافعيِّ على قول أنها سبعة عشر.

وهاهنا فائدةٌ جليلةٌ، وهي أن حروف الاسم خمسةٌ، وهي عدد الصلوات الخمس، وغيرها كما مرَّ، وليس هذا هو المراد هنا، إنما المراد أن التنوين اللاحق لهذا الاسم بخمسين، وهي عدد أصل الصلوات؛ فإنها فُرضت خمسين، فكما أن التنوين غير لازمٍ لهذا الاسم كذلك الصلوات الخمسون لم تكن لازمةً لنا، وإنما اللازم لنا الخمس، كما أن حروف الاسم الخمسة لازمةٌ له.

وأيضًا هنا فائدةٌ أخرى، وهي أن حروف الاسم إما خمسةٌ بلا تنوينٍ، أو ستَّةٌ به؛ وهذا أجري خلافٌ في أن الأحكام التكليفيَّة هي خمسةٌ بإسقاط خلاف الأولى، أو ستَّةٌ به؛ فهي مأخوذةٌ من الاسم على الرائين، وهي: الواجب، والمندوب، والحرام، والمكروه، والمباح، أو يُزاد عليها خلاف الأولى.

ويُؤخذ منه أيضًا الأحكام الوضعيَّة، وهي: السبب، والشرط، والمانع، والصحة، والفساد، وإذا تتبعت غالب أبواب الفقه عندنا وجدت أركان الباب إما خمسةً أو ستةً أو أربعةً، والباب يدور على أركانه، وبالله التوفيق.

وإذا ضممت الحاء مع الدال كان الحاصل اثني عشر، وهي عدد شهور السنة وعدد ساعات اليوم أو الليلة غير مستويَّة، وعدد بروج السماء؛ فإنها اثني عشر برجًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦]، والدال بأربعة، وهي عدد الأشهر الحُرم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦].

=

تخمير أبينا آدام عليه السلام، وهو أيضًا ظهر في الرتبة الرابعة من العشرات؛ لأن أربعين أربع عشرات، والعالم أربعة أنواع قديم وحديث وكثيف ولطيف، والطبائع أربع، والعناصر أربعة، والفصول أربعة وكذا حملة العرش، والملائكة المقربون، وجهات العالم، والروائح، والأوتاد، وأطوار العمر وغير ذلك أربع، والأربعة أصل في البسائط العددية، وهي أصل في تركيب الأعداد إلى غير النهاية؛ لأن بسائط العدد من الواحد إلى العشرة، ثم يشرع في التكرار، وليس مما فوق العشرة عدد من البسائط المتضمن للعشرة هو الأربعة فإنها فيها ثلاثة، والثلاثة والأربعة سبعة، وفيها أيضًا اثنان فكانت تسعة، وفيها واحد فصارت عشرة، وهي كاملة، وفي الميم اتصال قبلي وبعدي، واتصلت بها الشفتان بعد الافتراق، كما هو شأن المحبين إذا اجتمعا، ولها وصلة بالنون إذا تعانقتا، وامتزجتا كما هو شأن الواصلين.

والحرف الثاني (الحاء)، وهي حرف مُعرف بنفسه غير محتاج إلى التعريف لكونها مهملة، وأيضًا علوية مجردة روحانية لها مثال في السفل تتعلق به، ويتعلق هو بها كالخاء المنقوطة، ولها من العدد ثمانية وأبواب الجنة ثمانية، وحملة العرش يوم القيامة ثمانية، والصفات الكمالية للحق تعالى على ما قال بعض: وهو الأصح ثمانية ووقعت هنا في المرتبة الثانية، كما في الرحمن والرحيم، وفي محمد وأحمد ومحمود وغير ذلك.

=

وكذلك مدة مرضه ﷺ؛ فإنها كانت اثني عشر يومًا على قول، وكذلك عدد ما مضى من الشهر الذي مات فيه؛ فإنه ﷺ مات في ربيع الأول لاثنتي عشر ليلةً خلت منه، وإذا أخذت الحاء وهي بثمانية وهي أعداد أبواب الجنَّة وعدد حملة العرش؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧].

وعدد ما تجب فيه الزكاة من الأموال؛ فإنها ثمانيةٌ: الإبل، والبقر، والغنم، والذهب، والفضة، والزرع، والثمار وهي شيئان: التمر، والزبيب، وعدد أصناف المستحقين لها؛ فإنهم ثمانيةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة:٦٠].

وعدد ركعات الضحى؛ فإنها ثمانيةٌ على ما هو الراجح عند الشافعيَّة، وأما الوتر يُتَّخذ منه بأن تأخذ الحاء بثمانية، يبقى معك في الكلمة ثلاثة أحرف باعتبار الرسم، زدها عليها تحصل إحدى عشر، هي عدد ركعات الوتر. وانظر: فخر الأبرار (ص٣٧١) بتحقيقنا.

(والباء) قد ذكرناها في أول الكتاب، وهي بمنـــزلة النفس؛ لأنها حرف ظلماني فهي حاجبة بين العبد والرب، وقالوا: أول الحجاب ظلمة الوجود، وليس في لفظ المحبَّة حرف ظلماني إلا الباء، وهي هذا (بجد وزفشت ضظغ) والباقي من الحروف النورانية، وهي هذه (اهحطي كلمن سعصقر)، ومن هنا صارت النقطة تحته؛ لأن الباء فوق النقطة كالثوب فوق اللابس وبه حجب نور النقطة، وظهور النقطة وراء الباء والحقيقة وراء ما ظهر من المحسوسان، وبرزت الباء في الاثنين لا بها بعدت بُعدين؛ لأن النقطة لا بُعد لها من الطول والعرض والعمق، فالألف ظهرت في مرتبة الواحد لبعده منها ببعد واحد، والجيم برزت في الثلاثة؛ لأنها حازت بالأبعاد الثلاثة، والواحد عدد لا كالأعداد فهو شيء لا كأشياء، والباء هو العرش أيضًا، والعرش النفس الناطقة المسمَّاة بالقلب الذي يسع الرب، فالنقطة غيب الهوية التي لا تزول عن خفائها أبدًا، والباء مستوى الأعداد لا عدد إلا والباء موجودة فيه، والرحمن مستوى الرب وصفاته النفسية، والباء حرف نكرة في نفسه محتاجة إلى التعريف وهو النقطة وإلا لم يتميز من التاء والثاء، وليس له مثال في المجردات، فلو رفع عنه التعريف لم يبق له محل تصير إليه، ولا صورة يُعال عليها.

والحرف الرابع (الهاء)، وهو إشارة إلى الهوية السارية في الموجودات، وإلى أنها محيطة بالأشياء، فلا ظهر لشيء إلا بسراينها، والبياض الذي في جوفها الإنسان الكامل الذي به نظر الحقُّ إلى الخلق أو العالم؛ لأنه لا وجود له إلا بنظر الله تعالى إليه، فلو لم يكن نظره إلى العالم لفني بأجمعه، كما أنه لو لم تدر دائرة الهاء على البياض ما كان له وجود أصلاً بالنسبة إلى الدائرة، ومع وجوده بالدائرة باقٍ على ما هو عليه من العدم؛ لأن البياض على ما هو عليه قبل استدارة الهاء به بعدها أيضًا، فكذا العالم بعد وجوده على الحالة التي كان عليها قبل خلقه تعالى إيَّاه، أو جوف الدائرة هو الحق، والدائرة هي الخلق؛ إذ الحق باطن في الخلق فجمع هذا اللفظ جميع الأسرار إجمالاً، واجتمع فيه مخارج الحروف التي هي مبني الكلم والكلام، فإن (الميم) و (الباء) شفوية، و (الحاء) وسطي، و (الهاء) حلقي، وكل منها في مركزه إلا الباء فإنه شفوي وقع الوسط إشارة إلى أن الحب منه وبه وإليه.

فمن عرف هذه الأسرار يعرف أن لهذا اللفظ شأنٌ عظيمٌ كيف لا ؟! وهو مشترك بين الحق والخلق، وإن كان في الحقيقة ليس إلا الحق؛ لأنه قد ثبت بالنص لكن في طرف الحق ذاتي وأصلي، ومن طرف الخلق عارضي وفرعي، والفرع راجع إلى أصله، فيصير محبَّة

العبد محبة الحق وذلك إن محبة الحق محبة الأصل لفرعه، فكل من أحب شيئًا بهذه المحبة فهي محبَّة الحق، ولذا أحب النبي ﷺ النساء حيث ورد في الحديث: «**حُبب إلي من دنياكم ثلاث الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**[1]».

فالحق تعالى أحبَّ آدم حب الأصل للفرع، والكل للجزء، وذي الصورة لصورته، وآدم عليه السلام أحب حواء كذلك، فهو أحبها بحب الله تعالى إيَّاه، فالنبي ﷺ أحب النساء بحب الله تعالى إيَّاه من حيث أن كلاً من المحبين حب ذي الصورة لصورته، والأصل لفرعه، والكل لجزئه، وأيضًا أحب النبي ﷺ النساء لكمال شهود الحق فيهن؛ لأن الحق تعالى لا يشاهد من غير مواد أصلاً، فإنه تعالى بذاته غني عن العالمين، لا علاقة بينه وبين شيءٍ أصلاً بالشهود ولا بغيره، فلا يمكن شهوده إلا في مادة وهو في النساء أعظم وأكمل؛ لأنه تعالى يشاهد فيها من حيث هو فاعل منفعل معًا من غير انفصال بينهما؛ لأن المرأة تؤثر في تبهيج الشهوة فيه وتتأثر عنه حين المواقعة، فالمشاهدة باعتبار الأول من حيث هو فاعل، وباعتبار الثاني من حيث هو منفعل، وأمَّا مشاهدة الحق في المرأة من حيث صدورها عن الرجل فهو شهود في منفعل؛ لأنها منفعلة عن الرجل، ومشاهدته في الرجل من حيث أن المرأة ظهرت عنه فشهود في فاعل، ومشاهدته في الرجل من حيث أن المرأة ظهرت عنه فشهود في فاعل، ومشاهدته فيه من غير استحضار ظهرت المرأة منه فهو شهود في منفعل؛ لأن الرجل منفعل عن الحقّ بلا واسطة، فالشهودات الثلاثة منفصل بعضها من غير لزوم الاتصال، والمعيَّة بينها.

وأمَّا شهود الرجل الحق في نفسه من حيث إنه مؤثر في المرأة، ومن حيث إنها متأثرة عنه، فشهود من حيث هو فاعل ومنفعل كالشهود في المرأة إلا أنه أتم فيها، كيف؟ إن لم يكن أتم، كما أن في شهوده في المرأة فناء المشاهد دون شهوده في نفس الرجل على ما هو الظاهر، فكل من أحبَّ المرأة على هذه المعرفة فحُبَّه حُبّ إلهي، ومن أحبهن على جهة الشهوة الطبيعية فيكون هذا الحبُّ صورة بلا روح وإن كانت الصورة في نفس الأمر ذات روح، فهو يحب الالتذاذ، ومُحلّ الالتذاذ، وغاب عنه روح المسألة والعارف يعلم بمن التذ ومن التذ ومن اللذة، وفي هذا المعنى قال بعض قال بعض:

---

(١) رواه النسائي (٧/٦١)، وأحمد في المسند (٣/٢٨٥)، والحاكم في المستدرك (٢/١٧٤).

صَحَّ عِنْدَ النَّاسِ أَنِّي عَاشِق غَير أَنْ لَمْ يَعْرِفُوا عِشْقِي لِمَنْ

ثم بعد ما عرفت هذا، وأوعيت في قلبك، فاعلم بأن محبة الشيء لا تكون إلا بعد معرفته؛ لأن محبة المجهول مُحال، فالمُحب لله لا تكون إلا بعد معرفته إيَّاه بأنه هو الظاهر، وأنه هو الباطن.

٤٦- الحق تعالى ظاهر من حيث مخلوقاته، باطن من حيث ذاته.

فأشار الشيخ قُدِّس سرُّه إلى هذا بقوله: (**الحق تعالى ظاهر من حيث مخلوقاته، باطن من حيث ذاته**) أي: الحق سبحانه وتعالى ظاهر غير خفي حِسًّا باعتبار الموجودات العينية؛ لأنه تعالى هو الظاهر فيها، وهي مظاهر له، فلا ظهور لشيءٍ إلا ظهوره، والمخلوقات ظلمة لا تدرك إلا بنور ظهوره، كما أن النور لا يدرك إلا بالظلمة، وأمَّا من حيث ذاته الغنية عن العالمين، فباطن خفي حِسًّا وعقلاً؛ لأن ذاته لا تُدرك من حيث الكنه، والمراد أن الحق تعالى على ما ظهر لأهل الكشف مشهود محسوس في خلق موهوم أي: الظل المتخيل والخلق معقول فلا يدرك إلا بالعقل والخيال، بل لا وجود إلا في العقل والخيال، كما مرَّ غير مرة.

فمن يشهده على هذا المنوال فهو ماشٍ على طريقٍ مستقيم يعرفه ويعرف غايته، وداعٍ إلى الله على بصيرة؛ لأنه يعرف أنه يدعوا اسم اسما على اسم إلى اسم، فيعرف أنه غير مفقود في البداية كما في النهاية، وعلمه بمنـزلة الماء العذب الفرات السائغ للشارب، فينفع صاحبه، وما عدا هذا من المحجوبين كالحكماء، والفقهاء، وعامة الخلق، والمتكلمين على أن الخلق مشهود والحق معقول، فعلمهم بمنـزلة الملح الأجاج لا يروي الشارب، بل يزيد العطش وهو ماشٍ على طريقٍ مجهولٍ عنده، ويعرف أنه تعالى مفقود في البداية وموجود في النهاية، وداعٍ إلى الله على التقليد والجهالة لا على البصيرة.

وليس المراد أن الاعتبار في الظاهر والباطن مختلف كما هو المتبادر، بل المراد أن الاعتبار والجهة فيها واحد، فظهوره هو مخلوقاته ولا فرق إلا بالإطلاق والتقييد، كما عرفت فهو ظاهر من جهة ما هو باطن، كما أنه باطن من جهة ما هو ظاهر، فلا تغفل؛ لأن معرفة الحق تعالى إنما تكون لجميع الأضداد فيه من وجهٍ واحدٍ، كما مرَّت الإشارة إليه فيما سبق.

٤٧- من عرف الحق اشتغل به عن الخلق.

ولا يمكن لأحد الاشتغال بالحق والإعراض عن الخلق إلا بالمعرفة، كما أشار إليه الشيخ قُدِّس سرَّه بقوله: (**من عرف الحق اشتغل به عن الخلق**) أي: الذي عرف الحق بتلجياته الأسمائية والصفاتية أي: بأن عرفه بالأسماء والصفات، وصدق معه في جميع أحواله اشتغل بالحق تعالى، وانقطعت هواجسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطرٍ يدعوه إلى غيره، ويصير من الخلق أجنبيًا، ومن آفات النفس بريًا؛ لأن هذه المذكورات أوصاف العارف حال كونه مُعرضًا عن الخلق بقَطع طمعه عنهم بالكلية فيراهم كالبهائم والأحجار، بل يجعلهم في العدم، ويبقى عنده الواحد القهار، كما هو الأمر عليه في نفس الأمر.

فعُلم من هذا أن الجار والمجرور وهو (**عن الخلق**) متعلق بقوله: (**اشتغل**) بتضمينه معنى أعرض، فيجوز أن يجعل المتضمن اسم فاعل أصلاً، والمتضمن اسم مفعول قيدًا له كما عرفت، ويجوز أن يجعل الاسم المفعول أصلاً، وما هو اسم فاعل قيدًا له، فالمعنى حقًا من عرف الحق بالمعرفة المصطلحة عند القوم أعرض عن الخلق حال كونه مشتغلاً بالحق، وهذين الأمرين بالنسبة إلى تفسير هذا الكلام كمالاً يخفى، ويجوز أن يكون (**اشتغل**) بمعنى أعرض مجازًا، ويكون الباء في قوله: (**به**) سببية أي: أعرض بسبب الحق عن الخلق، وذلك لما مرَّ في شرح قوله: (من لم يمت حسه لم يعرف نفسه) فارجع إليه فإن فيه بيانًا شافيًا، وحاصله أن العارف ممتنع من شهود الغير مع الحق تعالى حيث لا غير عند العرفان تأمل يا إنسان، واكتف بالإشارة، ولا تطلب البيان.

وقد مرَّ في هذا الكتاب أن الله تعالى خلق الأشياء للإنسان، وخلق الإنسان لنفسه، وليس فيه ما يكون لائقًا بجناب الحق تعالى سوى قلبه؛ لأنه يسعه كما ورد في الحديث القدسي والقلب واحد؛ لأنه ما جعل تعالى لرجل من قلبين في جوفه؛ لأنه واحد يكفيه الواحد إذا اشتغل بأحد الشيئين يُحرم عن الاشتغال بالآخر، فالقلب إذا كان اشتغاله بالخلق يكون محرومًا عن الاشتغال بالحق، ومتى كان بالحق يحرم عن الخلق، والحق باقٍ، والخلق فانٍ، والحرمان عن الفاني أولى من الحرمان عن الباقي، بل الفاني وجوده حرمان فضلاً عن عدمه، ولذا قلوا في الدنيا: وجودها عدم وعدمها حياتها ممات ومماتها حيات زوالها بقاء، وبقائها زوال وغير ذلك، وحاصل ما ذكره الشيخ أن العارف بالله بتحليه في

قلبه لا يمكن له النظر إلى غيره لتلاشي الحادث في القديم عند اقترانه به، فإنه إذا ظهرت الصفات اضمحلت المكنونات، فمن عرف الحق لم ير غيرًا مع أن الغير عنده ممنوع، فلا غير عنده حتى يشتغل به فلا يكون اشتغاله إلا بالحق.

وإذا أوعيت هذا، فاعلم أن معرفة الحق وكذا غيرها من الأحوالات والمقامات، بل كل الإعطاءات والموهوبات، وإن كانت بحسب الظاهر من المخارج يعني ليست وما كانت موجودة، لكن بالتعلم والكسب حصلت له إلا أنها في الحقيقة مستترة كامنة فيه؛ لأن عينه الثابتة في الأزل كانت مستعدة لها فوجودها له منه لا من الغير، والحاصل أن كل ما يأتي أمر إلى العبد من خيرٍ أو شرٍ فهو منه لا من غيره، لكن لمّا كان ظهوره بالتدريج بحصول الشرائط والأسباب ظن المحجوبون أنه من الخارج بالكسب والتعلم.

٤٨- ما عرف الحق عارف إلا بما فيه منه.

وهو الذي أشار إليه الشيخ قُدِّس سرّه بقوله: (**ما عرف الحق عارف إلا بما فيه منه**) أي: ليس معرفة العارف(١) الحق تعالى إلا بما هو كامن فيه بظلام البشرية مستورٌ وفيه

(١) قال الشيخ الصيادي في شرحه لحكم سيدنا الرفاعي: ثم قال: (المعرفة بالله على أقسام): أي المعرفة بحكمة الله في ملكه، وخلقه، والقصد من إظهار عظمة ربوبيته على أقسام كثيرة، وأعظم أقسامها إصابة، وأجلّها حكمة، وأقربها لرضا الله تعظيم أوامر الله تعالى، بامتثال ما أمر به وترك ما نهى عنه.

وهذا هو الانتباه السليم الذي هو ضد الغفلة، وأقرب الطرق إلى الله تعالى، ولهذا اتبع سيدنا المؤلف جملته الماضية بقوله: (بين العبد والرَّب حجاب الغفلة لا غير)، فقد عيَّن أن الغفلة حائل، وقاطع عن الله تعالى، والانتباه حبل متين يلزم الاعتصام به ليصل به العبد إلى الله، وأيَّد مقصده بقول الله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢].

ثم قال: (العبد العارف): أي الذي ذاق طعم المعرفة المبحوث عنها، يفزع إلى الله لا لغيره، ويتوقع سر الله، وهو العون الناشئ من محض الكرم والفضل من دون سابقة صنع ولا عمل، وهو فرج الله الذي يحف بعبده من حيث لا يدري. (قلائد الزبرجد ص٢٠٩) بتحقيقنا.

وقال الشيخ الشرقاوي: فقد سُئِل الجنيد عن العارف فقال: «لون الماء لون إنائه».

أي هو متخلق بأخلاق الله حتى كأنه هو، وما هو هو، وهو هو، فالعارف عند الجماعة: من أشعر نفسه الهيبة والسكينة، وجعل أول المعرفة لله، وآخرها ما لا يتناهى، و لم يُدخِل قلبه حق ولا باطل وغاب عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق، فلا يشهد غير الله، ولا يرجع إلى غيره، فهو يعيش بربه لا بقلبه، =

=

وأفسدت المعرفةُ الداخلة قلبه أحوالَهُ التي كان عليها، بأن يقلبها الله تعالى إليه، لا بأن يعدمها، فإنها عند الجماعة لا تنعدم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] فلا حال عندهم للعارف؛ لخور رسومه، وفناء هويَّته، وغيبة أثره، وهو منقطع منقمع، عاجز على معروف، خائف متبرم بالبقاء في هذا الهيكل، وإن كان منورًا لما عرَّفه الشارع: أن في الموت لقاء الله، فتنغصت عليه الحياة الدنيا شوقًا إلى ذلك اللقاء فهو صافي العيش كدر طيب الحياة في نفس الأمر لا في نفسه، قد ذهب عنه كل مخلوق، وهابه كل ناظر إليه، ذو أنس بالله، معه تعالى بلا فصل ولا وصل، حي القلب قلبه مرآة للحق، حليم محتمل، فارغ من الدنيا والآخرة، ذو دهش وحيرة، يأخذ أعماله عن الله، ويرجع فيها إليه؛ بطنه جائع؛ وبدنه عار، لا يأسف على شيء، لا يرى غير الله، تبكي عينه ويضحك قلبه، فهو كالأرض يطأها البار والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي كل ما يجب وما لا يجب، لا تمييز عنده، لا يقضي وطره من شيء، بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه، يضيعُ ما له ويقفُ مع ما للحق، لا يشتغل عنه طرفة عين، عرفَ لربه بربه، مهدي في أحواله، لا تلحظه عين الأغيار، ولا يتكلم بغير كلام الله، مستوحش من الخلق، ذو فقر وذلة، يورث غنى وعزة، معرفته طلوع حق على الأسرار ومواصلة الأنوار، حاله فوق ما يقول، استوت عنده الحالات في الفتح، يفتح له على فراشه كما يفتح له في صلاته، وإن اختلفت الواردات بحسب المواطن، دائم الذكر، ذو لوامع تسقط التمييز، لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء، تضيء له أنوار العلم؛ فيبصر بها عجائب الغيب، مستهلَك في بحار التحقيق، صاحب أمواج تغط فترفع وتحط، صاحب وقت واستيفاء حقوق المراسم الإلهية على التمام، تعبه في تحوله من صفة إلى صفة، دائم لا يتعمل ولا يجتلب أحيذ الوقت، يسع الأشياء ولا تسعه، يرجو ولا يرجى، رحيم مؤنس، مشاهد جلال الحق وجمال الحضرة، معه مع كل وارد، يصادف الأمور من غير قصد، له وجود في عين فقد، ذل في عز، قهر في لطف، ولطف في قهر، حق بلا خلق، مشاهد قيام الله على كل شيء، فان عنه باق معه به، غائب عن التكوين، حاضر مع المكون، صاح بغيره، سكران بحبه، جامع للتجلي، لا يفوته ما مضى بما هو فيه، ثابت المواصلة، محكم للعبادة في العادة مع إزالة العلل، طائع بذاته، قابل أمور ربه، منـــزه عن الشبيه، يجري عليه منه أحكام الشرع، في عين الحقيقة، ذو روح وريحان، قلبه طريق مطروقة لكل سالك، صاحب دليل وكشف وشهود، يلزم الوارد ويتأدب مع الشاهد، بريء من العلل، صاحب إلقاء وتلق، مضنون به مستور، بوله محبوس في الموقف، ذاهبٌ تحت القهر، رجوعه سلوك، وحجابه شهود، سره لا يعلم، به زره كلما ظهر له وجه عَلِم أنه بَطُنَ عنه وجه، منفرد بلا انفراد، متواتر الأحوال بحكم الأسماء، أمين بالفهم، قابل للزيادة، موحد بالكثرة، صاحب حديث قديم، يعلم ما وراء الحجر من غير رفع حجاب، ذو أنوار، طامس شعاعاته محرقة، وفجاجات وارداته مقلقة، يرد عليه ما لا يعرف، متمكن في تلوينه، لكون خالقه كل يوم هو في شأن، يجرد بكله عن السوى، واقف بالحق في مواطنه، مريد لكل ما يُرَاد منه، ذو غيابة إلهية تجذبه، سالك في سكونه، مقيم في سفره، صاحب نظرة ونظر، يجد ما لا تسعه

=

العبارة من دقائق الفهم عن الله من غير سبب، مهذب الأخلاق، غير قائل بالاتحاد، ذاهب في كل مذهب بغير ذهاب، مقدس الروح من رعونات النفوس، مؤمن بالناطق في سره، مصغ إليه راغب فيما يرد به، مشفق بما في طيه، مظهر خلاف ما يخفى لمصلحة وقته، لا يُحكَم عليه، غريب في الملأ الأعلا والأسفل، ذو همة فعالة، مقيدة غير مطلقة، غيور على الأسرار أن تذاع في عالم الغيب والشهادة، عن أمر الحق ولاية وخلافة، حمَّال أعباء المملكة، يستخرج غيابات الأمور، تُنشئ خواطره أشخاصًا على صورته، محفوظ الأربعة، فريد من النظر، له في الملكوت وقائع مشهودة، قائم بالحق في جمعيته، ناقد الهمة، مؤثر في الوجود على الإطلاق من غير تقييد، لكن بالميزان المعلوم عند أهل الله، مجهولاً النعت والصفة عند الغير من جميع العالم، من بشر وجن وملك وحيوان، لا يُعرَف بحد، ولا يفارق العادة فيميز، خامل الذكر، مستور الحال، عام الشفقة على عباد الله، يغرق في رحمته من أُمِرَ برحمته، حتى يجعل له خصوص وصف، عارف بإرادة الحق في عباده قبل وقوع المراد فيريد بإرادة الحق، لا ينازع ولا يقاوم، ولا يقع في الوجود ما لا يريد، وإن وقع ما لا يرضى وقوعه بل يكرهه، شديد في لين، يعلم مكارم الأخلاق من سفسافها، فينـــزلها منازلها مع أهلها تنـــزيل حكيم، بريء ممن تبرأ الله منه، محسن إليه مع البراءة منه، مصدق، مؤمّن عباد الله من غوائله، مشاهد تسبيح المخلوقات على تنوعات أذكارها، لا يظهر إلا لعارف مثله، إذا تجلى له الحق يقول: أنا هو؛ لقوة الشبه في عموم الصفات الكونية والإلهية، إذا قال: بسم الله كان عن قوله ذلك كلما قصده بهمته، لا بقوله: (كن) أدبًا مع الله، فيعطي المواطن حقها، كبير بحق، صغير لحق، متوسع مع حق، جامع لهذه الصفات في حق، واحد خبير بالمقادير والأوزان، لا يفرط ولا يفرّط، يتأثر مع الآفات لتغير الأحوال، فلا يفوته من العالَم ولا مما هو عليه الحق في الوقت شيء، مما يطلبه العالَم في زمن الحال، يشاهد نشأ الصور من أنفاسه، بصورة ما هو عليه الحق في قلبه عند خروج النفس، فإذا أورد عليه النفس الغريب من خارج لتبريد القلب، طلع على ذلك النفس خلعة الوقت، فيضيء ذلك النفس بذلك النور الذي يجد في القلب، يستر مقامه بحاله، وحاله بمقامه فتجهله أصحاب الأحوال بمقامه وأصحاب المقامات بحاله عن فاعل شهوته؛ إذ لم يجد وجه الحق في طبيعتها يبذل لك لا له، عطاؤه غير معلول، لا يَمُن إذا امتن، ويَمتن بقبول المنّ، لا يؤاخذ الجاهل بجهله، فإن جَهْلُه له وجه في العلم، لا يُشعر المعطي من عنده حينما يعطيه، يُعرَّفه أن ذلك أمانة عنده أُمِرَ بإيصالها إليه، لا يُعرِّفه أن ذلك من عند الله، يفتح مغاليق الأمور المشكلة بالنور المبين، يأكل من فوقه ومن تحت رجله، يضم القلوب إليه إذا شاء من حيث لا تشعر، ويرسلها إذا شاء من حيث لا تشعر، يملك أزمة الأمور، وتملكه بما فيها من وجه الحق لا غير، ينظر إلى العلو فيستفل بنظره، وإلى السفل فيعلو ويرتفع بنظره، ويحجر الواسع، ويوسع المحجور، ويسمع كل مسموع منه، لا من حيثية ذلك المسموع، ويبصر كل مُبصَر، لا من حيث ذلك المبصر، يقضي بين الخصمين بما يرضيهما فيحكم لكل واحد لا عليه مع تناقض الأمر؛ يميل إلى غير طريقه في طريقه لحكمة الوقت، يغلّب ذكر النفس على ذكر الملأ من أجل المفاضلة غيرة أن يُفَاضَل الحق، فإنه ذاكر بحق في حق،

الأمور كلها عنده ذوقية لا خبرية، يعرف ربه من نفسه، كما علم الحق العالَم من علمه بنفسه، لا يُؤاخذ بالجريمة، عظمته في ذلته وصغاره، فلا ينتقل عن ذلته في موطن عظمته دنيا وأخرى، هو في عمله بحسب علمه، إن اقتضى العمل عمل، وإن اقتضى أن لا يعمل لم يعمل، عنده خزائن الأمور بحكمه، ومفاتيحها بيده، يُنَـــزِّل بقدر ما يشاء، ويخرج ما يشاء، غوّاص في دقائق الفهوم عند ورود الصلوات، له نعوت الكمال، له مقام الخمسة في حفظ نفسه وغيره، وينظر في قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] فلا يتعداه، يدبر أمور الكون بينه وبين ربه، كالمشير العالم الناصح في الخدمة، القائم بالحرمة، لا أبنية لسره، لا يبخل عند السؤال، ينظر في الآثار الإلهية الكائنة في الكون؛ ليقابلها مما عنده لما سمع قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣]، يسمع نداء الحق من ألسنة الخلق، يسمع الأشياء ولا يسمعه سوى ربه، فهو أينه وعينه، مراقب للأوامر الإلهية الواردة في الكون، ثابت في وقت التزلزل، لا تزلزله الحادثات، ليس في الحضرة الإلهية صفة لا يراها في نفسه، يظهرُ في أي صورة شاء بصفة الحياة، مع الوقوف عند الحدود، يعرفُ حقه من حق خالقه، يتصور في الأشياء بالاستحقاق، ويُصرف الحق فيها بالاستخلاف، له الاقتدار الإلهي من غير مغالبة، لا تنفذ فيه همم الرجال، يحصي أنفاسه بمشاهدة صورها، فيعلم ما زاد وما نقص في كل يوم وليلة، ينظر في المبدأ والمعاد، فيرى التقاطر في الدائرة، يلقي الكلمة في المحل القابل، فيبدو صورته وحاله في أي صورة كان، ما يطأ مكانًا إلا حييَ ذلك المكان بوطئته؛ لأنه وطئته بحياة روحية، إذا قام قام بقيامه ربه، ويغضب لغضبه، ويرضى لرضاه، فإن حالته في سلوكه كانت هكذا فعادت عليه ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، لا يخطر له خاطر في شيء إلا تكوّن، ولا يعرف ذلك الشيء أنه كونه له، على الأشياء شرف البصر على العماء لا شرف الاستواء فهو وحيد في الكون، غير معروف العين، من لجأ إليه خسر ولا تنقضي حاجته إلا به؛ فإنه ظاهر بصورة العجز وقدرته من وراء ذلك العجز، لا يمتنع عن قدرته ممكن، يحسن للمسيء والمحسن، يرجع إلى الله في كل أمر، ولا ينتقم لنفسه ولا لربه إلا بأمره الخاص، فإن لم يأمره عفا بحق؛ لشهوده السابقة في الحال، القليل عنده كثير، والكثير قليل، يجري مع المصالح فيكون الحق له ملكًا، يسبح أسماء الله تعالى بتنـــزيهها من أن تناله أيدي الغافلين، غيرة على الجناب الإلهي من حيث كونها دلائل عليه دلالة الاسم على المسمى، إن وُليَ منصبًا يُعطَى العلوم، لم يُرَ فيه متعاليًا بالله فأحرى بنفسه، يعدل في الحكم ولا يتصف بالظلم، جامع علوم الشرع من عين الجمع(١)، مستغنٍ عن تعليم المخلوقين بتعليم الحق، ويعطي ما تحصل به المنفعة، ولا يعطي ما تكون به المضرة، إن عاقب فتطهير، لا تبقى مع نور عدله ظلمة جور، ولا مع نور علمه ظلمة جهل، يبين عن الأمور بلسان إلهي؛ ليكشف غامضها ويجليها في منصتها، يرثُ ولا يورث بالنبوة العامة، يتصرف ويعمل ما ينبغي، يُؤذَى فيحلم عن مقدرة، وإذا أخذ فبطشه شديد؛ لأنه خالص غير مشوب برحمة.

قال أبو يزيد: بطشي أشد من بطش الله.

فهذه بعض صفات العارف من بعض ما ذكره في الفتوحات في باب المعرفة.

مغمور وموجودٌ فيه بالقوة، وذلك الكامن فيه منه أي: من نفسه لا من غيره لوجوده فيه بالقوة، ثُمَّ ظهر بالفعل بعد تحققه بشرائط الظهور، قال الشيخ قُدِّس سرُّه في فصوصه: «فما في أحد من الله شيء، ولا في أحد من سوى نفسه شيء، فكل أحد من شجرة نفسه جنى ثمرة علمه، فعلى هذا لا يأتي إلى المُعطى له شيء من سوى نفسه، فإنه لا يأتيه شيءٌ أصلاً ما لم تقضيه عينه الثابتة في الحضرة العلمية، فمن أي صورة وصل ذلك الشيء إليه؟ فهو من نفسه لا غير، لكن هذا باعتبار الفيض المقدس الذي به الموجودات الخارجية، وأمَّا باعتبار الفيض الأقدس الذي به الأعيان الثابتة، فالأمر كله منه ابتداؤه وإليه انتهاؤه «فلا اعتراض حقًا» فتأمل.

=

فينبغي لكل من يدعي المعرفة أن يعرض صفاته عليها؛ ليعلم هل هو متخلق بها أو لا فإن لم يجد نفسه بتلك المثابة كان المناسب له التحقق بالعجز وترك الدعوى والله أعلم.

و «تُزيد العرفان»: أي المعرفة بأحكام الله تعالى وما يليق بالأدب مع الحضرة العلية.

والعلماء الذين يخشون الله تعالى أطباء دين الله، المزيلون علله وأمراضه العارفون بالأدوية، فإذا كان رسول الله ﷺ قد اختلف الناس في أفعاله هل هي على الوجوب أو لا؟ فكيف بغيره؟! مع قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذا كله ليس بنص منه في وجوب الإتباع في أفعاله؛ فإنه ﷺ اختص بأشياء لا يجوز لنا ابتاعه فيها، ولو أتته نيابة فيها كنا عاصين مأثومين، فينبغي لكل مؤمن ويجب على كل مدع في طريق الله، إذا لم يكن من أهل الكشف والوجود والخطاب الإلهي، ومن لا يكون يطفأ نور معرفته نور ورعه أن يجتنب كل أمر يؤدي إلى تعلق القلب بغير الله تعالى فإنه فتنة في حقه؛ فيجب عليه أن يغلب عقله على شهوته، ويسعى في قطع المألوفات وترك المستحسنات الطبيعية وما يميل الطبع البشري إليه، ويجتنب مواضع التهم وصحبة المبتدعين في الدين، ما لم يأذن له الله وهم الأحداث، وكذلك السصبَاح الوجود من المردان ومجالسة النساء وأخذ الإرفاق؛ فإن القلوب تميل إلى كل من أحسن إليها والطبع يطلبهم، والقوة الإلهية على دفع الشهوات ما هي هناك، والمعرفة معدومة من هذا الصنف من الناس، وما صبر تحت الاختبار الإلهي إلا الذهب الخالص المعدني، الذي حاز زينة الكمال، وما بقي فيه من تربة المعدن شيء، وكل تكليف فتنة، وجميع المخلوقات فتنة، والإطلاع على نتائج الأعمال فتنة وهي حالة مقام يُستَصحب إلى الجنة، وكان ﷺ وهو صاحب الكشف الأتم والعالم بما ثَمَّ يستعيذ من فتنة القبر وعذاب النار ومن فتنة المحيا والممات.

وتوضيح هذا أنه إذا أتى إلى أحد من غيره شيء كما وقع لأهل الله، فإنهم يرون أرواح الأنبياء والأولياء الماضين في الوقائع، والمقامات في صورة حسنة تلقي إليهم علومًا ومعارف ليست عندهم قبل ذلك، مثل الشيخ ﷺ رأى النبي ﷺ في المنام، وأعطاه كتاب «الفصوص» وأمره بالخروج به إلى الناس، فهذه الصورة التي رآها، والعلوم التي تلقها من نفسه لا من غيره؛ لأنها كانت مستخبئة في غيب نفسه المستعدة لظهورها فظهرت عليه منصبغة بأحكام ما عليه مرآته من السعة والضيق والصقالة والاستواء وغيرها، ثم ألقت عليه ما يقتضيه استعداده من العلوم والمعارف لا غير، فإن الصورة التي يشاهدها صاحب الكشف، وتلقيه العلوم والمعارف بعينها مثل صورة صاحب الكشف الظاهرة في الجسم الصقال عند المقابلة إياه، فإن الصورة تظهر بحسب الجسم الصقال، فإنها تنقلب، وتتحول بحقيقته، وتتصبغ بصبغة فتظهر في الصغير صغيرًا، وفي الكبير كبيرًا، وفي المتحرك متحركًا، وفي المستطيل مستطيلاً، وقد تكون معكوسة من حضرة خاصة كأن يكون الجسم الصقال فوق رأسه، أو تحت قدمه فيراها فيه بعكس ما هو في الخارج بأن يصير فوقها تحتها وبالعكس، وفي العموم يقابل اليمين اليسار، وقد يكون على خلاف هذا بأن يكون اليمين مقابل اليمين واليسار مقابل اليسار، كانت المرآة متعددة فتظهر الصورة في مرآة مقابلة لمرآة أخرى في صورة الأصل؛ لأن عكس العكس لا يكون إلا بصورة الأصل، وهكذا رؤية صاحب الكشف أرواح الماضين من الأنبياء والأولياء، وتجلي الحق أيضًا كذلك؛ لأن ظهوره في كلِّ عينٍ بحسبه كظهور الكبير في الصغير، وظهوره في عالم الأمر كظهور الصورة في المستطيلة؛ لأن عالم الأمر له طول باعتبار سلسلة الترتيب، وظهوره في الأمور المتجددة أنا فأنا كظهورها في الجسم الصقال المتحرك، وظهوره في الخلق خلقًا مثل انعكاس الصورة في المرآة إذا كانت تحت الرائي، وظهور الخلق في الحقِّ حقًّا انعكاسها فيها إذا كانت فوق الرائي، وظهوره في الإنسان الكامل كاملاً مثل تقابل اليمين باليمين، وظهوره في غير الكامل غير كامل كتقابل اليمين لليسار، فعلى هذا التحقيق إن معرفة العارف من نفسه لا من الخارج، وهكذا أعطانا الكشف الصارم، وبه صرَّح الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه في الفصوص.

وبيانه على ما قال الشيخ في الكتاب المذكور إن صاحب الكشف إمَّا أن يكون مشهوده الوجود الحق في مرات الأعيان الثابتة موجودة في أعيانها ظهر الحق فيها، وبها

نوعًا من الظهور، وضربًا من التجلّي، أو يكون الوجود الحق الواحد أيضًا في مجال الأعيان الثابتة غير موجودة في أعيانها، بل هي باقية على عدمها الأصلي، ووجودها العلمي ظهر الحق بها مختلف الصور أو يكون مشهوده صور الأعيان الثابتة، وأمثلتها في مرآة الوجود الحق المطلق من غير انتقالها من العلم إلى العين إلا إنها أثرت في المرآة بسبب قبولها وصلاحيتها لآثارها صورًا يتخيل المحجوبون أنها موجودات عينية، وبكل من أنواع الكشف ما يحكم الحق تعالى إلا بنا، لأنّا تجليه تعالى.

فالحق تعالى يحكم علينا بالوجود وتوابعه بمقتضى أعياننا الثابتة، أو نحن صور أعيان ظهرنا في مرآة الحق، فيحكم تعالى علينا بالظهور وأحكامه بنا أيضًا؛ لأنه لا تظهرنا هذه المرآة إلا كما يقتضي أعياننا، بل نحن نحكم علينا بمقتضيات أعياننا لا أن نطلب منه تعالى بلسان الاستعداد أن يحكم علينا، وإلا ما أجرى علينا حكمًا، لكن هذا في مرآة الحق؛ إذ لو لم نظهر فيها لم نوجد فلم يجرِ علينا الأحكام والأحوال، فنحن الحاكم علينا بنا أن ثبت أن الوجود لنا بأن يكون الوجود المطلق مرآة للأعيان، والظاهر فيها الأعيان، وإن كان الوجود له تعالى، فكذلك نحن نحكم في وجود الحق وعليه بخصوصية الأحكام والآثار، فالحكم بخصوصية كل حكم وأثر لنا من حيث أعيننا الثابتة لا للحق تعالى؛ لأنه مطلق ولا حكم له بالخصوصيات، وعلينا في وجودنا العيني لا على الحق تعالى أيضًا إلا من حيث ظهوره فينا، وإيجاده بنا، واعتبار كونه تعالى حاكمًا، فليس إلا من حيث إفاضة الوجود علينا وعلى أحوالنا فلا يوجد حُكمًا ولا أثرًا لا يقتضيه أعياننا الثابتة فينا، ففي الحقيقة لا يحمد في المحامد، ولا يذم في المذام إلا نحن فما بقى له تعالى إلا حمد إفاضة الوجود علينا وعلى أحوالنا، فإن إفاضة الوجود له تعالى لا لنا إذ ما لا وجود له في حدٍّ ذاته لا يفيض الوجود على غيره، ولأجل هذا تكون لله الحجة البالغة على من لم يكشف لهم الأمر على ما هو عليه لما يقولون يوم القيامة للحق تعالى: لما أجريت علينا أعمالاً مخصوصة آدتنا إلى هذه الشدائد، فالله تعالى يكشف لهم عن ساق فيرون أن الأمر ليس كما ادّعوه وعلموه أنه تعالى فَعَلَ بهم، ويرون حقًا أن ما ادّعوه أنه فعل الحق بهم ناشئ منهم بحيث أن لهم استعداداتها الغيبية الأزلية، وقابلياتها الوجودية الأبدية؛ لأنه تعالى ما فعل بهم إلا كما علمهم وما علمهم إلا كما هم عليه في حال ثبوت أعيانهم في الحضرة العلمية فتبطل حجتهم، وتبقى الحجة البالغة عليهم له تعالى.

فعلى هذا لا فائدة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]؛ لأنها لا تظهر إلا إذا كانت عين الممكن قابلاً للشيء ونقيضه، وإذا كان الممكن لا يقبل إلا أحد النقيضين دون الآخر، ففائدته غير ظاهرة إلا أن يُقال: أن (لو) فيه يدلُّ على امتناع التالي لامتناع المقدم، ففائدة الآية امتناع هداية الكل لامتناع تعلق المشيئة بها؛ إذ الأعيان الثابتة بعضها قابل للهداية، وبعضها قابل للضلالة؛ لأنها قابلة لأحد الأمرين لا على التعيين، ثم يرجح أحد النقيضين بمشيئته واختياره على ما جَازه العقل؛ لأنه قاصر عن إدراك ما هو الأمر عليه في نفسه ،والأمر في نفسه على ما ذكرنا؛ لأن المشيئة تابعة للعلم وهو تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه في نفسه فما شاء إلا ما هو الأمر عليه، فكل عين إمَّا تعلقت المشيئة بهدايتها أن اقتضتها أولاً تتعلق بها، بل بضلالتها إن لم تقضها خلاف ذلك لا يكون، فحينئذ مشيئة تعالى الأزلية هي الاختيارية الثابت له تعالى لا على النحو المتصور من اختيار الخلق، وهو التردد الواقع بين أمرين ممكني الوقوع عنده، فيترجح أحدهما لمزيد فائدة ومصلحة، فإن هذا مستنكر في حقه لعدم صحة التردد لديه، وإمكان حكمين مختلفين بالنسبة إليه؛ لأنه لا يمكن سوى ما هو المراد في نفسه، ولا يوهم أن العلم حقًا جبر، فيكون تعالى فاعلاً بالإيجاب لعدم إمكان خلاف متعلقه؛ لأن نقول: العلم كاشف لا مؤثر، وتعلقه بحسب المعلوم، فالجبر من المعلوم على نفسه، والعلم من حيث أن تعلقه به تابع لما هو عليه، فقولهم: إن شاء أوجد العالم، وإن لم يشأ لم يوجده معناه أنه تعالى شاء فأوجد العالم، وإن لم يشأ لم يوجده صادق لكن صدق الجملة الشرطية لا يقتضي صدق المقدم، فلو لم تتعلق المشيئة بإيجاده لم يوجده لكن تعلقت، فلا يمكن عدم الإيجاد.

والحاصل أن إن لم يشأ غير صادق، بل ليس بممكن لمَّا مرَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ [الفرقان:٤٥].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [إبراهيم:١٩] وأمثالهما مثل قوله تعالى:

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ﴾ [الأنعام:١٤٩] في إفادة امتناع أمر لامتناع المشيئة لما ذكرنا من أن مقتضى الأعيان لا يتبدل، أو نقول: أمثال هذه الآيات لنفي الإيجاب المتوهم للعقول الضعيفة كيف؟ وإنه ما ثَمَّة سواه، أو باعتبار أن الحق تعالى بذاته غني عن العالمين، فمن

نظر إلى أحديته وعدم اقتضاء ذاته لأحد المتقابلات يحكم بأنه إن يشاء وجود العالم لما ظهر العالم، ومن نظر إلى أسمائه وصفاته حكم بأنه لا يمكن أن لا يشاء فضلاً عن وقوع المشيئة، فاعرف هذا، فإن مشيئته تعالى أحدية التعلق لا تتعلق إلا بأحد النقيضين على ما أجمع عليه المحقّقون، وصرح به الشيخ في تأليفه. فكما أن معرفة العارف لا تكون إلا بما فيه منه كذلك الجهل لا يكون إلا بما حجبه عنه، كما قال الشيخ قدس سره:

(**ولا أنكره جاهل إلا بما حجبه عنه**) أيّ: الجاهل الذي لا يعرف الحق تعالى، ولا يقربه في كلّ صورة لا ينكره إلا بشيء حجب ذلك الشيء إياه عن مشاهدة الحق ذوقًا ووجدانًا مما سوى الحق تعالى سواء نفسه وغير نفسه، فإن كل ما يقف العبد عنده بالالتفات إليه فهو حجاب له؛ لأن الحجاب انطباع الصور الكونية في القلب المانعة من تجلّي الحق تعالى، فالحجاب ليس إلا ما سواه، فإنه تعالى ليس بمحجوب عن أحد؛ لأنه تعالى ظاهر كمال الظهور، ومعنى خفائه حقًا عدم العارف به، أو معناه الظهور غاية الظهور من باب التضاد، ولا يقول بخفائه حقيقة إلا المحجوب والمشرك بالشرك الخفي؛ لأنه في الحقيقة ليس معه غير حتى يحجبه، ولو قلنا: بوجود الغير ولو من وجه كما عرفت قبيل هذا، فلا شيء أعظم منهما حتى يحجبه، وأيضًا لو حجبه شيء لكان محجوبًا أزلاً وأبدًا، وفي الأزل ما كان شيء، وأيضًا لو كان محجوبًا بالكان مقهورًا، وهو القاهر فوق كلّ شيء، فالمحجوب هو الجاهل، والحق تعالى محتجب عنه بالنظر إلى غيره تعالى، فأنكره بسبب ما حجبه عنه؛ لأنه لو لم يكن ما حجبه عنه لما أنكره، ويحتمل أن يكون المراد ولا أنكره الجاهل إلا بقدر ما حجبه عنه، فإن كان ما حجبه قليلاً فالإنكار قليل، وإلا فهو كثير على قدر حاجبه، فالعارف يعرف الحق تعالى في كلّ صورة، ولا ينكره في صورة من الصور أبدًا؛ لأن الحق عنده هو المعروف الذي لا ينكر، والجاهل يقيده بصورة مخصوصة فينكره في غيره ما قيده به، ويعرفه فيما قيده به على ما ورد في الحديث الصحيح:

«فيأتيهم الله يوم القيامة في غير صورة يعرفون، فيقول الحق تعالى: (أنا ربكم)، فيقولون: نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه فيأتيهم في الصورة التي يعرفونها فيقول: (أنا ربكم) فيعترفون به ويتبعونه »، وسواء كان العارف أو الجاهل لا يعرفه إلا في صورة معتقدة إلا أن الجاهل ينكره في غيرها، والعارف لا ينكره في صورة، ويعطي مراسم التعظيم والإجلال إلى كل صورةٍ بمقدار مرتبتها؛ لأن كل صورة

لها قدرًا معينًا من التعظيم والإجلال بحسب التجلي والاستعداد.

إذ قال الشيخ أبو مدين شيخ الشيخ المؤلف قَدَّس الله أسرارهما شعر:

لا تُنْكِـرْ الباطلَ في طُـورِهِ فَإِنَّـهُ بَعـض ظُهُورَاتـهُ
وأعْطِـهِ منْـكَ بمقـدَارَهُ حتّـى تُوفـي حَـقّ إثْبَاتَهُ

فمن عرف الحق تعالى بصورة مخصوصة، وأنكره فيما سواها يبقى في حوله وقوته، ويرى الأشياء من نفسه وغيره، فيكون اتّكاله على نفسه وعلى غيره فيتعب، ولا يكون الحق تعالى وكيلاً عنه مع أنه تعالى وكيل كل أحد ومدبر كل شيء، ومن عرفه في جميع الصور فلا ينكره في شيء من الصور، فلا يرى الغير حتى يتّكل عليه، فلا يكون اتّكاله إلا على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، فلا يكون له تعب؛ لأنه تعالى يرزقه من حيث لا يحتسب.

٤٩- من توكّل على الله في جميع أموره، ووالاه أتاه الله برزقه من حيث لا يحتسب، وكفاه.

كما قال الشيخ قُدِّس روحه وأعاد علينا فتوحه:

(من توكّل على الله في جميع أُموره، ووالاه أتاه الله برزقه من حيث لا يحتسب وكفاه) أيّ: العبد الذي توكّل، واعتمد على خالقه وهو الله تعالى في جميع أموره من الخير والشرّ أي: توكله عليه تعالى لا ليفعل به ما يشاء، بل ليفعل مصالحه، وولى الحق **(في جميع أموره)** أيضًا، فهو إمّا عطف تفسير، أو عطف مغايرة أيّ: يجعله تعالى متصرّفًا لنفسه؛ لأنه لا يدري بمصالحه فلا يتعب نفسه فيما ليس بيده منه شيء **(أتاه الله)** أي: هذا العبد المتوكل، والمولّي الحق تعالى برزقه من حيث لا يحتسب ذلك العبد، ولا يكون له شعور به، وكفى الله تعالى إيّاه بحيث لا يتعب في شيء من أموره قال الله تعالى: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق:٣]، بعد قوله: **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾** [الطلاق:٢] **﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾** [الطلاق:٣]، وأمّا التوكل على الله تعالى ليفعل به ما يشاء، وهو المشار إليه بقوله تعالى: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [المائدة:٢٣] أي: مؤمنين بأن الله لا يفعل إلا ما يريد؛ لأنه تعالى قال في آخر الآية

المذكورة قبل هذه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾[الطلاق:٣]، فلا بد أن يفعل ما يريد ﴿قَدْجَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣] فهو أرقى من الأول، وهو عبارة عن رفع الأسباب بالنظر إلى المسبب اسم فاعل، فليس لصاحب هذا التوكل اختيار، وتصرف فجميع ما يريده تعالى هو اختياره، وإرادته.

وأمَّا التوكل بمعنى إرجاع شأن ذات العبد إلى شأن ذات الحق تعالى بعدما وقوع نظره إلى ما سوى الحق تعالى بالاستغراق في شهوده تعالى، فهو أفضل من الكلّ، فالأول على ما قاله الشيخ الجيلي: في الإنسان الكامل للصلحاء، والثاني للشهداء، والثالث للصدّيقين، والرابع للمحقّقين، ورأس الإخلاص هو التوكل، ولذا قال الحق تعالى: ﴿فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة:٢٣] الآية، فينبغي لكلّ أحد أن يتوكل في أموره على الله تعالى حق التوكل؛ لأنه تعالى أعرف بما هو الأصلح للعبد، ولا بد أن يفعل ما يريد فما بقى للعبد سوى التوكل لجميع أموره، وترك التدبير لتدبير ربه.

فالعارف المقرُّ بالله في كلّ صورة المتوكل عليه في الأمور قريب إلى الله، ويشاهد قربه تعالى إليه وإلى كل شيء، والجاهل المنكر له في غير الصورة التي عرفه فيها بعيد عن الله تعالى، وإذا كان هو بعيدًا عنه تعالى فهو تعالى بعيد عنه أيضًا؛ لأنه أبعد الأشياء وأقربها بالمعنى الأزلي.

٥٠- قرب الحق من الخلق من حيث صفاته، وبعدهم عنه من حيث ذاته.

وإليه أشار الشيخ قُدِّس سرّه بقوله: (**قرب الحق من الخلق من حيث صفاته، وبعدهم عنه من حيث ذاته**)، وهذا الكلام أصل مذهب القوم، ويستخرج منه أكثر مُراداهم، وتفصيله إن قرب الحقّ من العبد ثابت بالنص.

قال الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة:٨٥] أيّ: إلى المتوفى: ﴿وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥] أنتم أني أقرب إليه منكم، بل تعلمون أنكم أقرب إليه مني، والأمر ليس كذلك، والمتوفي يبصر ما هو الأمر عليه؛ لأنه مكشوف الغطاء فبصره حديد غير كليل يبصر من هو أقرب الأشياء إليه.

وكذلك بعده قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وورد في بعض خطاباته مع بعض أوليائه: «أنا القريب البعيد قربًا هو البعد، وبُعدًا هو القرب».

وهما ثابتان أيضًا في حق العبد، ولكن هذا القرب، والبعد معنوي لا مسافي؛ لأنه ليس لله مسافة، فليس قربه كقرب الشيء من الشيء، ولا بعده كبعد الشيء من الشيء، وكذا قرب الأشياء إليه، وأمَّا قرب الأشياء وبُعدها بعضها من بعض فبالمسافة وهو ظاهر، وأمَّا المعنى كقرب الصديق من الوالد في المحبَّة، وكقرب من لا عداوة له ممن له عداوة في البغض، وكقرب الوزير من الملك في الرتبة، وأشباه ذلك فهو مجاز، والقرب الحقيقي المسافي، فإذا عرفت هذا فقرب الحق تعالى من خلقه من جهة (**صفاته**) أيّ: صفاته قريبة إلى العبد وغيره من المخلوقات؛ لأنها سارية فيها والكل آثارها؛ ولأن صفات الخلق فانية لبقائها على عدمها الأصلي، فليس في الوجود إلا صفاته، فحقًا يكون معنى قرب الصفات أن لا يشاهد العبد إلا الصفات، ولا يرى آثارها ممتازة عنها، وقال بعضهم: قرب الحق تعالى هو أن لا يبقى لذلك الشيء المتقرب إليه وجود معه أصلاً، وهذا قريبٌ من المعنى الثاني من المعنيين المذكورين، ويجوز أن يحمل ما قاله البعض على القرب من حيث الذات: وهو الذي كان الأمر عليه؛ ولأنه يلزم من قرب الصفات قرب الذات لعدم جواز الانفكاك بينهما فاعرفه، وهكذا قرب العبد من الحق تعالى من حيث صفاته بأن تكون صفاته قريبة من صفات الحق تعالى، كما يشر إليه قول النبي ﷺ: «**تخلقوا بأخلاق الله**[1]»، فمن تأمل هذا الكلام لا يخرج عن هذا النظام، وهو في الحقيقة له إمام، وأمَّا بُعد العبد منه تعالى فهو من حيث ذاته؛ لأنه لا ذات كذاته.

وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وبُعد الحق تعالى عنه فهو من حيث أنه كان الله ولا شيء معه، والآن كما كان.

واعلم أن القُرب[2]، والبُعد ليس إلا في الحجاب.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القرب: القيام بالطاعة، والقرب: هو دنو العبد من الله تعالى بكل ما يعطيه من السعادة، لأقرب الحق العبد، فإنه من حيث دلالة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، عليه قرب عام سواء كان سعيداً، أو شقياً، فكل عبد، في كل وقت، تحت حكومة الأسماء الإلهية قرب، من حيث تجلي اسم إلهي =

وأمَّا الحقيقة فلا قُرب فيها ولا بُعد، فالله تعالى لا يدومه قرب؛ لأنه لو كان هكذا لكان القرب سببًا لشهوده، وليس كذلك، بل هو مناف لشهوده لكونه وصفًا ثبوتيًا مع أن إثبات القرب له تعالى فيه شرك كمالا يخفى، والشرك وإثبات شيء معه ينافي الشهود؛ لأن حصوله عند اضمحلال الرسوم والقرب منها، وكما أنه لا يدومه قرب كذلك لا ينتهي إليه وجود؛ لأن المنتهي للوجود مغاير له، والمغايرة تقتضي الإثنينية وهي منافية للشهود؛ لأن نور شهود الجبار يفني جميع الأغيار، فإن قيل :هذا مخالف للنص حيث قال

=

وبعد من حيثية اسم آخر، فالقريب من المضل فلا بعيد من الهادي، والعكس، فكل اسم يعطي قربا، فالسعادة ترجع إلى هذا القرب المصطلح عليه، وقد يكون للحق قرب خاص من العبد زائد على قربه العام.

كما قال تعالى لموسى وأخيه عليهما السلام: ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، فإن هذه المعية، معية العناية بالحفظ والكلاءة، لا المعية العامة، فقرب العبد من الحق بكل ما يعطي من السعادة يتبع له قرباً خاصاً من الحضرات بالحقية، كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «من تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يسعى أتيته هرولة».

والقرب على قسمين: علمي، و عملي.

فالعلمي: أعلاه العالم بتوحيد الألوهية، وهو على نوعين نظرى، وشهودي. والعلمي: على نحوين:

قرب بأداء الواجبات: وهو القرب الفرضي كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «ما تقرب المقربون بأحب إليّ من أداء ما فرضته عليهم».

وقرب نفلي: كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت له سمعاً وبصراً». ومداد العمل المقرب:

إما من الباطن إلى الظاهر، فأعمه وأسـمه الإيمان

وإما من الظاهر إلى الباطن، فأعمه وأتمه الإسلام

وإما من القلب الجامع بين الظاهر والباطن، فأعلمه وأتمه الإحسان.

فمقتضى القرب النفلي: تجلي الحق للعبد متلبسا القابلية المحدودة. ومقتضى القرب الفرضي: تجلي الحق له، وظهور العبد بحسب الحق، غير محدود، ولا متناه.

فالتمييز بين قوسي الحقانية والعبدانية في القرب المفرط إن كان خفياً يعبر «بقاب قوسين». وإن كان أخفى يعبر عنه بـــ «أدنى».

ومن هنا قال قدس سره: «وقد يطلق على حقيقة: قاب قوسين»، فالتجلي بحكم هذا القرب، إن كان في مادة وصورة، تتبعها القرب في النسبة المكانية، في مجلس الشهود، وإن كان في مجلس الشهود، وإن كان في غير مادة، كان قرب المنـــزلة والمكانة، كقرب الوزير من الملك ... فافهم.

الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وغير ذلك مما ذكرنا، فالقرب الإلهي لا خفاء به قلنا: ثبوت القرب الإلهي لا يتحقق إلا في مقام الفرق؛ لأنه القابل المتعدد والرسوم، والقُرب رسمي، كما عرفت ويحتاج إلى الاثنين أي: العبد والحق بخلاف الجمع والمحو فإن فيه وحدة صرفة لا قرب ولا متقرب ولا متقرب إليه، فلا يلاحظ القرب إلا في الحجاب وأدناه أن ترى آثار نظرك إليه تعالى في كلّ شيء بأن يكون نظرك إليه تعالى أغلب عليك من معرفتك ذلك الشيء، وأقدم منها فلا ترى شيئًا إلا وترى الحق قبله رؤية ناشئة من رؤيتك ذلك الشيء، وهو أدنى مراتب مقام القرب فهو أنت ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله أي: قبل معرفة ذلك الشيء، ومنهم من يقول: بعده ومنهم من يقول: معه، ومنهم من يقول: ما رأيت شيئًا غيره.

ولا يعرف القرب إلا بالوجود أي: بوجود الأحوالات السَنيَّة، والمواجيد الربانية يعرف حصول القرب له لا بالبُعد؛ لأن المتأخر لا يكون سببًا للمتقدم، والبُعد متأخر عن القُرب؛ لأن معرفته سابقة عن معرفة البُعد؛ لأنه إذا وجد السالك التجلّي العرفاني تجدد له حال أشرف من الحال الذي كان عليه قبل التجلّي فيعلم أن هذا الذي كان عليه قبل هو البُعد بما حصل له من القرب، فعلى هذا البعد يعرف بالقرب، والقُرب يُعرف بالوجود لا بالبعد، وبه صرَّح صاحب المواقف في المواقف.

وأمَّا القُرب الذي يعرفه الحق أي: المطلق عن الحصر فهو له تعالى ليس للعبد دخلٌ فيه؛ لأن قربه محصورًا إمَّا في مرتبة أو مراتب، فالعبد لا يعرف قربه تعالى ولا بُعده ولا وصفه كما هو وصفه؛ لأن هذا العرفان مُختص به تعالى، لكن العبد إذا تبدلت أوصافه وذاته بأن مُحي عن نفسه، وبقي بالله تعالى لا بنفسه لا يبقى غيرًا حيث وصل إلى مقام كان الله ولا شيء معه، فيعرف ما ذكر بالله لا بنفسه، وهذا معنى عميق وعزيز قليلاً ما يصرح به، بل يرده ظاهر النصوص، ولكن مطابق لما هو الأمر عليه في نفسه، فاعرفه، ولا تقله، وأثبته، ولا تنكره.

ولا تقل أن العبد حقًا إذا كان عين الحق ولم يكن مغايرًا له، فمن أين القُرب والبعد؟؛ لأن هذا الواحد هو يصير قريبًا من جهة، وبعيدًا من جهة، ويكون مشهودًا وشاهدًا كذلك؛ لأن جهاته متعددة، وتأمل قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ:

«**كنت سمعه وبصره...**[1]» ما ذكره من القوى الظاهرة.

وقوله في التوراة: نريد أن نخلق خلقًا شبيهًا بشمائلنا وصورتنا، وليس في الذات ولا في الصفات تشبيه بالاتفاق؛ لأنه ليس كمثله شيء فما بقى إلا أن يكون هو الظاهر بنفسه، وذكر الشبيه نظير قول القائل: مثلك لا يبخل، وقوله ﷺ: «**خلق الله تعالى آدم على صورته**[2]».

وقال الشيخ قُدّس سرّه في فصوصه في هذا الباب شعرًا:

فمَــــن ثمــــه ومَــــا ثمــــه وعَـــينٌ ثمــــه هــــو ثمــــه
فمَـــن قَـــد عَمَّــــهُ خَصَّـــهُ وَمَـــنْ قَـــدْ خَصَّـــهُ عَمَّـــهُ
فَمَـــا عَـــينٌ ســـوى عَـــينٌ فَـــنُور عَيـــنه ظـــلمه
فَمَـــنْ يَغْفَـــلُ عَـــنْ هَـــذَا يُجِـــدْ فِـــي نَفســـه غَمَّـــهُ
وَلا يَعْـــرِفُ مَـــا قُلـــنَا سَـــوَى عَـــبدٍ لَـــهُ هِمَّـــةٌ

فأنكر في هذه الأشعار وقوع الماهيات والأشخاص من ذي العقول وغيرهم، وحكم بأن كل عين تعين بتعين مخصوص في الواقع فهو الحق بعينه فيه، وحكم بأن كل من أطلقه عن القيود، ونزهه عنها خصه الإطلاق وإن كل من أخصه عمّه أي: كل من حكم بأن ذلك المطلق هو الذي يختص بتلك القيود حَكَمَ بإطلاقه الذاتي، ونزهه عن الإطلاق المقابل للتقييد، فليس عين في الوجود يكون سوى عين آخر، وليس إلا عين واحد، فالغافل عن هذا جاهل بما هو الأمر عليه في نفسه، والجاهل مغموم، والعارف بهذا صاحب الهمَّة القوية العالية الذي لا يقنع بالظواهر، ولا يقف عند مبلغ علماء الرسوم، بل يرفع حجب التعيينات ولا يرضى إلا باللب؛ لأنه لب، واللب يذكر اللب قال الله تعالى:

﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ**﴾ [الزمر:٢١].

وقال في موضع آخر: ﴿**لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾ [ق:٣٧].

---

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

وما قال في موضع: لمن كان له عقل، فهو قيد يقيد الموصوف به بما يؤدي إليه فكره ونظره، ويُقال: عقل البعير بالعقال أي: قيده به، وعقل الدواء البطن فهو قيد لغةً وحقيقةً، فليس في القرآن ذكرى لمن كان له عقل؛ لأنه مقيد بما قيده به فكره، وإن رأى في القرآن ما يخالف ما يؤديه فكره يؤوله إلى معنى يوافق ما أدى إليه فكره، وأوّلوا (الألباب)، ومن له قلب لا يؤولون شيئًا ولا ينكرون شيئًا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فما أوسع قلب العارف حيث أنه بإطلاقه مقابل لإطلاق الحق، والحق أوسع وأعظم؛ لأنه غير متناهي، والقلب يسعه على ما ثبت بالحديث القدسي، وما يسع الغير المتناهي غير متناهي أيضًا، وفي هذا قال سلطان الزاهدين ورأس العارفين وإمام الواصلين أبو يزيد البسطامي قُدس سره: «لو أن العرش وما حواه من السماوات والأرض وما بينهما وما فيها مائة ألف ألف مرة وقع في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسَّ بها؛ لأن العرش وما فيه متناهي، ولا قدر للمتناهي بالنسبة إلى غير المتناهي».

وقال الشيخ الأكبر قدس سره: بل قلب العارف لو وقع في زاوية من زواياه ما لا يتناهى وجوده مما وجد ويوجد إلى الأبد بفرض انتهاء وجوده ولو كان مستحيلاً؛ لأن غير المتناهي لا يُحاط به مع التي هي واسطة في إيجاده وهو الحق المخلوق به الخلق أشار إليه بقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الحجر:٨٥].

ما أحسَّ بذلك حال كونه منطويًا فيما بين معلومات، واستدل لما قاله بقوله: فإنه قد ثبت بحديث: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**(١)».

إن القلب وسع الحق لاستعداده للتجليات الأسمائية والذاتية الغير المتناهية واحدًا بعد واحد، ومع ذلك لا يقنع بما حصل له فلا يروى؛ إذ كل تجل يورث له استعدادًا آخر إلى غير النهاية.

فالعارف في كل زمان يطلب الزيادة من التجلي؛ لأنه ليس له نهاية يقف التجلّي

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٥٥)، والمناوي في فيض القدير (٢/٤٩٦). فكان القلب يسع الفيوضات ضرورة، ولا تظن أن القلب هو هذا الصنوبري، بل هو اللطيفة التي تكون مظهرًا لكل الأسماء.

عندها فلا يقع بعدها تجلّي آخر، وكذا يطلب بلسان الاستعداد زيادة العلم بالحق فيقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤]، فلا الطالب من العبد يتناهى، ولا التجلي والإفاضة من الحق، ومن هنا قال أبو يزيد البسطامي قدس سره: «الرجل يتحسى بحار السماوات والأرض، ولسانه خارج يلهث عطشًا».

وقال أيضًا شعر:

شَـربْتُ الحـبَّ كأسًـا بعدِ كأسٍ فَمَـا نَفَـذَ الشَّـرَابُ ومَـا رُوِيتَ

فالعارف دائمًا عطشان؛ لأنه لا يمتلئ ولو امتلأ ارتوى، ومن إن قلب العارف بالله وسع كل شيء؛ لأنه وسع الحق تعالى، فيكون وسعه له باعتبار العلم والشهود، أو باعتبار الإحاطة والجامعية لها، فإنها حقيقة للأشياء جامعة لها.

٥١- القوم لا يتكلمون في دفاترهم إلا ببعض ما شاهدوه ببصائرهم.

فلو تكلم بجميع ما تكلم به الغير فما تكلم إلا ببعض ما عنده، وكل ما تكلم به من الغيبيات فهو بعض ماشاهده ببصره فضلاً عن بصيرته، وإليه الإشارة بقول الشيخ قُدِّس سرَّه: (**القوم لا يتكلمون في دفاترهم إلا ببعض ما شاهدوه ببصائرهم**) أيّ: القوم المعروفون وهم المحقّقون الموقنون الموحدون توحيدًا حقيقيًا ذوقيًا شهوديًا الذين من آدابهم وسيرهم ظاهرًا وباطنًا المحبَّة الخالصة لله تعالى التي ليس فيها طلب كشف الحجاب ورفع العقاب، ولا حصول الثواب، وفناء من نفوسهم وغيرهم لا عمل مكدود ولا بقاء مع شيء مما في الدارين لا يتكلمون في دفاترهم، ولا يألفون في كتبهم إلا بعض ما شاهدوه ورأوه ببصائرهم أي: أبصارهم لا بصيرتهم؛ لأن الشهود عند المؤلف قدس سره على ما قال في اصطلاحاته الخاصة هو: الرؤية بالبصر.

وعند بعضهم: هو الرؤية بالبصيرة بحيث تُشابه الرؤية بالبصر كمال المشابهة، ولا يتكلمون بجميع ما شاهدوه ببصائرهم؛ لأنهم لو تكلموا به لأدى إلى المُحال، والمؤدي إلى المحال مُحال وذلك؛ لأن قلبهم يسع الحق لَمّا مرَّ، والحق يسع الأشياء كلها، فالقلب يسعها أيضًا فتكون كلماته كلمات الرب وورد: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف:١٠٩]، فكلمات الرب غير نافدة، فكلمات العارف كذلك فلا يتكلم، بل لا يمكن التكلم إلا ببعض ما شاهدوه، أو نقول: لا يتكلم القوم إلا بالبعض دون الكل؛ لأن

بعض ما شاهدوه مما لا يُقال أو لا يجوز فيه القول، فلا يتكلمون إلا بما يُقال، ويجوز فيه أن يُقال.

٥٢- التوحيد نفي الإثنينية، وإثبات العينيَّة.

فالمراد بالقوم كما عرفت هم الموحدون، ولا يعرف الموحد إلا بمعرفة التوحيد فعرفه، فقال: (**التوحيد نفي الإثنينية، وإثبات العينيَّة**): (**التوحيد**) في اللغة مصدر وحده أي: أفرده، وفي القاموس التوحيد والإيمان متلازمان، وقيل: إن الإيمان اختياري، والتوحيد اضطراري، والمراد هنا الذوقي الشهودي المعتبر عند القوم أي: التوحيد الحقيقي الذوقي الشهودي المعتبر عند أهله المنسوب إلى العبد، أن تنفي الإثنينية بين الحق والخلق، وتثبت العينية لهما بأن تثبت أنهما عين واحدة، ولا تمايز إلا بالإطلاق والتقييد والوجوب والإمكان، ولا تقل: إنهما من عين واحدة؛ لأن فيه توهم الإثنينية فليس بتوحيد، بل المراد أن تعرف أن كلاً من الحق والخلق هو العين الواحدة باعتبار ارتفاع النِّسَب الاعتبارية من البين، وأيضًا هو العين الكثيرة إذا اعتبرت تلك النِّسَب و لوحظت أحكَامها، فإذا نفى العبد الإثنينية من كل شيء، وأثبت العينية في كلِّ شيءٍ فهو موحد، والنفي والإثبات المذكوران توحيد(١).

٥٣- التوحيد فناؤك أيُّها الموجود وحدك، وبقاؤه فيك وبَعدك.

وليس التوحيد حكمك وعلمك بالوحدانية أي: بأنه هو لا أنت ولا نفي الأغيار وإثبات الواحد القهار مع بقاء وجودك وشعورك بهذا، ولا نفي وجودك، وإثبات الذَّات المقدسة مع الحلول والاتِّحاد، بل التوحيد نفي الغيرية، وإثبات العينية في الغيرية بلا حلول واتحاد.

---

(١) التوحيد: هو حقيقةٌ لا تنقسم، في وحدة لا تتعدد، في عدد لا يتناهى، وحقيقته: معنًى لا تحدده القلوب، ولا تتصوره العقول، ولا يوصله بلاغة العبارة بالمقول، وغايته: نفي كل غيرٍ، مع وجود شهوده كل غيرٍ، الناطق عنه مقرٌّ بالخبر، والشاهد ذاهلٌ، والغائب عنه جاهلٌ، والمدَّعي له مبطلٌ، والعاجز عنه متخلفٌ، فإنه وراء كل غاية يُنتهى إليها، فكل واحدٍ يُجازى فيه بقدر ظنه؛ لأن شرط العلم الإحاطة، وهو معنًى يستحيل دخولهُ تحت الإحاطة؛ فلا علمٌ، ووجوده مُكْنَةٌ تستلزم ما لا يُقدر عليه، والمخصوص به هو المعجوز عمَّا حصل له اهـ.

كما أشار إليه الشيخ قدس سره ثانيًا بقوله: (**التوحيد فناؤك أيُّها الموجود وحدك، وبقاؤه فيك وبعدك**) أي: التوحيد الذي هو نهاية أن تفنى عن وجودك أيُّها المُدَّعي بأنك موجود حال كونك منفردًا عن هذا الفناء أي: ترى نفي وجودك فيك الثابت بزعمك، وترى بقاء الحق ثابتًا فيك، وترى بُعدك عنه؛ لأنك عدم وهو وجود وبينهما بون بعيد فتعرف بقاؤه فيك بلا دخول ولا خروج، ولا اتِّصال ولا انفصال؛ لأن الوجود لا يدخل في العدم ولو دخل لوجد، ولا يخرج عنه ولو خرج لما ظهر، وقد ظهر وكذا الاتِّصال والانفصال، وهذا لا يكون إلا بتجريد القلب عن الغيرية، ورؤية الإثنينية في العينية، والعينية في الإثنينية فحقًا لا تحجبه الكثرة عن الوحدة، ولا الوحدة عن الكثرة، وحاصل التوحيد أن يثبت معنى مطلقًا منـــزهًا عن الإطلاق، وهو ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا بجزأ ولا مركب ولا داخل ولا خارج ولا متصل ولا منفصل ولا منـــزه ولا مشبه ولا مطلق ولا مقيد، وهذه المعاني كلها مراتبه فظهر بالصور والمعاني كلها فتقع عليه العبارات كلها، ومنـــزه عنها كلها، ومنـــزه في بعض، ومشبه في بعض، فهو الواحد الأحد الموصوف بالوحدانية، وهو المتعدد الموصوف بالإثنينية والغيرية، فأنت أيها العبد لست بموجود بوجود زائد عن وجود الحق تعالى، وأنت موجود من حيث هوية الحق لا من حيث أنك أنت فافنِ أنانتيك في حقيتك تكن موحدًا وعبدًا لربك، وتكون مُنـــزهًا له عن كلِّ خلقه، وتنسحب عبادتك من هنا على جميع عبادة عبدها أحد من الخلق إلى حين وجودك.

ومن هنا قال الشيخ قدس سره: «من عبد الاسم فهو كافر، ومن عبد المسمَّى فهو مشرك، ومن عبد المعني فهو منـــزه للحق عن جميع الخلق».

فما سوى الحق اسم والحق المطلق المنـــزه عن القيود مسمًّى، والمطلق عن هذا الإطلاق المقابل للتقييد معنى فافهمه فإنه لطيف فإذا أوعيت هذا فهذا التوحيد هو الذي يقول به المحققون الكاملون الواصلون بعد التمكين إلا برد اليقين عندهم الحق بديهي ضروري، ولا حاجة للكسب والفكر والمجاهدة، فليس أحد من الوجودين يوحد الله بهذا التوحيد سواهم فإنهم المجبولون على الدين الخالص، المؤيدون بتأييد الحكيم الخبير، المتصفون بصفات المولّى القدير فعلموا بهذا التوحيد بعلم الله أو بالله أو بإعلام الله على اختلاف درجاتهم.

وهذا غير التوحيد الذي أمر به العبد فإنه مركّب مخلوق، ولا يصدر عن المخلوق إلا المخلوق وذات كانت منــزهة في نفس الأمر لا بتنــزيه المنــزه، وهو كان بهذا الوصف ولا أنت، والآن كما كان فتوحيده الذي وحَّد به ذاته المعرى عن الغير، والواسطة الذي هو عبارة عن علمه بنفسه لنفسه في نفسه لا يعلم بعلم ولا دليل ولا برهان، ولا يزاحمه عقل ولافهم، ولا إدراك ولا إشارة، فسبحان الله عما يصفون، فالعارف بمعرفة نفسه من غير تعريف الله له إياه، ويزعم أنه عارف بالله وتوحيده، فهو مشرك بالله لإثباته نفسه مع الله وهو غير ومعدوم مع الله في توحيده إيَّاه؛ لأن ميدان الوحدة ماحية لما سوى الله، فالعارف بعرفانه مُشرك بالله، ولا شعور له به، ويظن أنه موحد وليس بموحد، فهو كمن دخل على السلطان فهو في قصر عظيم فقال: وعزتك ما في القصر غيرك ولم يدر أن وجوده يكذبه.

فاجتهد غاية الاجتهاد قبل يوم الميعاد في خلاصك عن الشرك، وتدبر من أي وجهة تقع فيه ولا تخلص أنت من الشرك، ولا تعرف التوحيد المذكور إلا إذا لم تر نفسًا، ولا وجودًا، ولا صفة، ولا ذاتًا إلا بنفسه وجوده وصفته وذاته، ولا ترى هذه الرؤية فليس في الدارين ولا يرى فيهما إلا هو، والغير عينه بلا غيرية الغير، فهو الذي قال بعض الأكابر:

ذات لا ترى عين ما يرى، فبطونها كنــز لا يرى، وظهورها عين ما يرى فلا يعرف الله إلا الله؛ لأن ذاته منــزهة عن معرفة العارف لكونها غير معلومة لسواها من جميع الوجوه قال الله تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾ [آل عمران:٢٨].

وقال ﷺ: «**تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في ذات الله** (١)».

وقال أيضًا في جواب من سأل عن رؤية الرب:

«**ويحك نورًا أني أراه، وإني للعبد**(٢)» أي: كيف أرى؟.

وإن كان بكسر الهمزة فمعناه (إني أراه) بالله لا بنفسي، فهذا لا ينافي ما مرَّ فهو تعالى

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١/١٣٦)، ذكره المناوي في فيض القدير (٣/٢٦٣)

(٢) رواه مسلم في الصحيح (١/١٥٩).

لا يُشاهد إلا في الصورة من نفس العبد أو غيره.

فأعلم العلماء العارفين اعترف بأنه عرفه حق المعرفة.

وقال الصديق ﷺ: «**العجز عن درك الإدراك إدراك**»، فدلّ على أن ثَمَّة أمر يُعجز عن إدراكه، ومن هنا قيل شعر:

يَمُوت ولَيسَ لَهُ حَاصِل سَوَى عِلمَهُ أَنّهُ مَا عَلِمَ

وقيل أيضًا:

قَدْ تَحَيرتُ فِيكَ فَخذ بِيَدِي يَا دَلِيلاً لِمَنْ تَحَيرَ فِيكَ

وإن التوحيد هي الوحدة الحقيقية التي لا يُزاد عليها شيء لا من حيث الظهور، ولا من حيث البطون؛ لأنه تعالى من حيث إطلاقه المنـزه عن الإطلاق، والتقييد، والتشبيه والتنـزيه غير الظهور والبطون، وأفراد العالم كلها مع أنه ليس بخارج منها، ولا داخل، ولا مُتصل، ولا منفصل ظاهرًا وباطنًا؛ إذ لا يجوز أن يكون معه شيء زائد؛ لأن ذاته غنية عن العالمين، وقال ﷺ: «**كان الله ولا شيء معه**[1]»، فالآن كما كان؛ لأن كان وجودية لا زمانية ففيه معنى الدوام والثبوت، فمن هذه الحيثية لا يصح أن يحكم عليها بنفي ولا إثبات شعر:

عَجبْتُ مِنْ بحرٍ بَلا سَاحلٍ وسَاحل لَيسَ لَهُ بحرُ
وضَحْوةٌ لَيسَ لها ظُلمَةَ وَلَيلَةٌ لَيسَ لها فَجرُ
وكُرَةٌ لَيسَ لها مَوضِع يَعْرِفَهَا الجَاهلُ والحبرُ

ومن هنا قال بعض العارفين: من سأل عن التوحيد فهو جاهل، ومن أجاب عنه فهو مُلحد، ومن عرَّفه فهو مشرك، ومن لم يعرف ذلك فهو كافر يعني التوحيد لا يحصل بالطلب والسعي والحيلة، فلا يمكن تحصيله، وطلب المحال مُحال، والجواب عنه ميل وعدّل عن حقيقة الأمر؛ لأنه لا يدخل تحت حيطة العبادة مع أنه مجهول للنفوس البشرية، فكل من تكلم فيه فقد تكلم بالمُحال بغير دراية الحال، فإنه ليس بالقيل والقال.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال أفضل الخليقة صلوات الله وسلامه عليه: «**سبحانك ما عرفناك حق معرفتك**[١]»، وكذا جميع الأنبياء والأولياء.

وقال سيد الطائفتين الجنيد البغدادي قُدِّس سرَّه: «والله، ثم والله، ثم والله ما عرف الله سوى الله».

وكل من يقول: أنا عارف بالتوحيد فهو مشرك بعرفانه بالله؛ لأن الذات المطلقة تأبى عن مشاركة العرفان لها وعن كلِّ مشارك، ومن لم يعرف بأن الحق تعالى له هذا التوحيد مثل ما مرَّ، وأنه تعين بهذه التعينات كلها فهو كافر ساتر لما هو الأمر عليه.

* * *

مطلب الكفر أربع

والكفر أربع: المشهور بين الناس، وكفر بين الله، وبين الشيطان حيث استتر علو الحق بعلوه، وكفر بين الله وبين أوليائه حيث ستروا القدرة الإلهية بقدرتهم الظاهرة منهم في خرق العادات، وبوجودهم الظاهر لكونهم وقاية له تعالى، كما إنه تعالى وقاية لهم؛ وكفر بينه، وبين رسوله فإنه ستر بسيادته بسيادة الحق قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**[٢]».

والمراد بالكفر هنا الستر، فتأمل.

ومثله قول الشيخ أبي عبد الله الهروي الأنصاري قدس الله روحه في آخر باب التوحيد في «منازل السائرين»: لاشتماله على ألف مقام: وواحد ما وحدَّ الواحد من واحد، وكل من وحده جاحد توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد الواحد توحيده إياه توحيده، ونعت من ينعته لأحد، فأنت في التوحيد تثبت النعت له تعالى فلا نعت، والرسم فلا رسم، والأثر والمؤثر والمتأثر فلا شيء منها، فمن طلبه من حيث الحدود والجهات غافلاً عن الإطلاق، أو من حيث الإطلاق المقابل للتقييد شتته الحق فيما لا

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/٤١٠)، العجلوني في كشف الخفاء (١/٨٧).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (٤/١٧٨٢)، وأبو داود (٢/٦٣٠)، والترمذي (٥/٣٠٨).

حاصل له، وأبعده عن المراد، ومن طلبه من حيث الإطلاق الذاتي من نفسه بنفسه لنفسه حجبه منه به عنه، ومن طلبه به منه له وجده فينــزهه في الأحدية، ويشبهه في الواحدية والتلبس بالمظاهر، ويجمع بينهما في الكنــزية.

قال الشيخ قُدِّس سرّه في الفصوص: «فلا تنظر إلى الحق، وتعريه عن الخلق، ولا تنظر إلى الخلق وتكسوه سوى الحق، ونزهه وشبهه وقم في مقعد الصدق، وكن في الجمع إن شئت، وإن شئت ففي الفرق تتحد بالكل إن كل تبدي قصب السبق فلا تفنى ولا تبقى ولا تفن وتبق ولا يلقى عليك الوحي في غير ولا تلق».

فالمظاهر للألوهية لا للذات فإنها غنية عن العالمين فلا يعبد إلا من كونه إلهًا، وكذا التخلق بأسمائه إنما يكون من كونه إلهًا، ولا يعلم من مظاهره وفي مظاهره إلا كونه إلهًا فلا تظهر الذات ولا يعلمها من حيث ذات إلا الذات، ولكن إذا ظهر الحق بوجهه لقلب العارف لتحقق بشهود سبحات الرب، واحترقت الصفات البشرية، وفارق العدم فالتحق بالوجود فرأى ربه، ومن رأى الرب لا يرى نفسه، وإذا لم ير نفسه لا يرى الكون، وحقًا يرى العبد العارف من الحق بأن يكون الرائي هو الحق لا العبد في الحق بأن يكون المجلي أيضًا الحق بعين لا عين نفسه، فلا يرى الحق إلا الحق، وإن رأى الحق منه فيه لكن بعين نفسه فهو عالم لا عارف، وإن لم يره منه ولا فيه، وانتظر أن يراه في الآخرة بعين نفسه، فهو جاهل بما هو الأمر عليه في نفسه، فإن رؤيته تعالى فيها لا تكون إلا بعين الحق.

قال الشيخ قدس سره في الفصوص: فهو وأتباعه شاهد، والأمر على ما هو عليه، فمن شهد بمثل ما شهدوا لقال: بمثل ما قالوا، وإلا فيسلم أو يعتقدوا، فليس نصيبه إلا الحرمان والإنكار معهم ليس إلا من عدم الفهم والعرفان، ولا تلتفت إلى أقوال المنكرين لهذا من أهل النظر والتقليد؛ لأنهم الصم عن استماع الحق، والبكم عن الإقرار بالحق والعميان قال الله تعالى: ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ** ﴾[البقرة:١٨].

وفي موضع آخر: ﴿**لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة:١٧٠] قال ﷺ: «**لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله**[1]».

---

(١) تقدم.

وقال: «**عبدي مرضت فلم تعدني، وجُعتُ فلم تطعمني**[(١)]».

وقال أيضًا: «**رأيت ربي في أحسن صورة**[(٢)]» الحديث.

قال الصديق ﷺ: «ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله».

وقال عمر ﷺ: «إلا ورأيت الله بعده».

وقال عثمان ﷺ: «... معه».

وقال عليّ ﷺ: «.. فيه».

وقال أبو يعزى[(٣)] شيخ مدين: «إذا نظرت إلى نفسي لم أرَ إلا الله، وإذا نظرت إلى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قال أبو عبدالله محمد بن أحمد بن الفضل التلمساني في النجم الثاقب فيما لأوليـــاء الله من المفاخر والمناقب: في نسب هذا الإمام آل النور بن عبد الله سيدى أبو يعزى كذا قرأت نسبه بخط الإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الملك.

قال أبو بكر بن الخطيب في أنسه: أبو يعزى آل النور بن عبد الله كان آية من آيات الله تعالى وأمره كله عجيب وبلغت كراماته حد التواتر وحدث عن البحر ولا حرج.

قال أبو علي بن حسن بن القاسم بن بادس في شرحه للنفحات القدسية قال : وكّناه أبوالحسن أبا نجم قال : وذكر أبو العباس أحمد بن الحسين الشريف الغرناطى التونسى الحافظ عن أبى العباس أحمد ابن محمد العزفى أن اسمه يلّبخت بن عبدالرحمن بن أبى بكر الأيلانى المغربى إليه انتهت تربية الصادقين والسالكين بالمغرب.

قال الشيخ أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهرى: لقيت الشيخ الزاهد الرفيع آية وقته أبا يعزى آل النور، وكان أعجوبة الزمان وعدة الأمان بلغ من مقامات اليقين مقاماً لايبلغه إلا الأفراد من العارفين.

حدث عنه جماعة ممن تعرض لأوصاف مجاهدته كابن الزيات في تشوفه وصاحب النجم والعزفى أنه قال: أقمت في البرارى سائحاً خمس عشرة سنة لا آوى إلى معمور وكنت أتقوت بالجمار ونبات الأرض، وكانت الأسود والوحوش والطيور تأوى إلىّ في سياحتى وتتآنس بمجاورتى، ولا كان قوته إلا من نبات الأرض ولا يشارك الناس في معاشهم لا في مجاهدته ولا في نمايته حتى لقى الله على أكمل حال وثبت عنه أنه قال : ذكر صاحب التشوف عن أبى عمران موسى بن وركون الخطابى قال: حدثنا عبدالعزيز المسكورى تلميذ الشيخ أبى يعزى قال: سمعت الشيخ أبا يعزى يقول: أقمت عشرين سنة في الجبال المشرفة على تمليل التى بين الغيل المنسوب لآية مدوال ودمنات وليس لى فيها اسم إلا أبو كرتيل ومعناه أبو حصير لأن كان لا يلبس إلا حصيراً ثم انحدرت إلى السواحل فأقمت بها ثمان عشر سنة لا =

الله لم أرَ سواي».

وقال أبو الحسن الخولي: «مَن لا وجود لذاته مِن ذاته فوجوده لولاه مُحال».

=

اسم لى فيها إلا أبو ونلكوط ومعناه النبات المعروف عند العامة بطول أمازيره لأنه إنما ينبت غالباً في الأزبال والمزابل وما فيه رائحة الزبل ولا يأكله الناس ولا الدواب غالباً، فكان قوته مما لا يشاركه فيه الآدميين، وكان في آخر حاله يأكل البلوط يطحنه ويعجنه أقراصاً فيقتات بها.

وذكر صاحب التشوف أنه كان في ابتداء أمره يرعى البقر وكانوا يصنعون له أرباب المواشى التى يرعى لهم رغيفين كل يوم فكان يأكل رغيفاً ويؤثر بالرغيف الأخر رجلاً كان منقطعاً في ذلك المسجد الذى كان يأوى إليه لقراءة القرآن فانقطع في المسجد رجل آخر لقراءة القرآن فدفع له الرغيف الثانى وجعل يأكل من نبات الأرض فلما رأى النبات يكفيه عن الطعام قال : ما أصنع بأكل الطعام ونبات الأرض يكفينى عنه.

وقال محمد بن علي: قال: سمعت أبا عبد الله الباجى، وكان من خيار أصحابه الفقهاء النجباء.

قال: رأيت الشيخ أبا يعزى يجمع له الخباز أو قال الخبيز فيطبخ ويجفف، فإذا أراد أن يأكل جعله في قدح فيأكل منه لقمة أولقمتين كالقاهر لنفسه ويقول ليس لك عندى إلا هذا.

وقال أبو عبد الله الباجى: مررت به يوماً وهو يأكل قلوب الدفلا فناولنيها فوجدتها حلوة . وحدث الثقات عنه من وجوه شتى مختلفة الألفاظ ومتفقة المعنى أن السلطان عبد المؤمن بن على بعث إليه عام إحدى وأربعين وخمسمائة فورد عليه راكباً على حمار فحبسه في صومعة الجامع أعنى جامع الكتبيين في الصومعة السفلى التى كانت للمتونبين إذ هم الذين بنوها، وأما الكبرى إنما بنيت في آخر أيام يعقوب المنصور في حدود أربع وتسعين من القرن السابع ، قالوا : وكانت معه أقراص من البلوط أو قال من دقيق البلوط فكان يجعل معه أوراق النليبا يعنى الخبيز يجففها ويطحنها فإذا صلى المغرب يأخذ قدر نصف رطل فيقتات به فبقى هناك أيام، ثم خلى سبيله لسر اتفق لعبد المؤمن بن على فقال لأصحابه: اتركوه ولا سبيل لكم إليه ويقال: ستة قليل من بلغ مجاهدتهم في بدايتهم سيدى أبى يعزى في المغرب، وسيدى عبد القادر الجيلانى في المشرق، وسيدى سهل بن عبد الله في القرن الثالث، وسيدى أبى الخير المباحى، وسيدى أبى عبد الله الهزميرى، وسيدى أبى يزيد رضى الله عنهم.
قالوا: وليس ببعيد من هؤلاء سيدى أبى مدين مع ما كان يعانيه من طلب العلوم للعمل بكل ما يعلم وكذا سيدى أبى محمد صالح مع عزلة عن الناس وانقطاع إلا ممن كان لا بد منه من إخوانه الصّديقين، قالوا وفى القرن الثامن كان أبو العباس بن عاشر صاحب سلا والله أعلم، وانظر: المعزى (بتحقيقنا).

وقال سيدي عمر بن الفارض[١]:

---

(١) هـو العـارف بالله تعالى سلطان العاشقين سيدي عمر بن أبي علي بن مرشد بن علي، الحموي الأصـل، المصري المولد والدار والوفاة، ولد سنة ستٌ وخمسين أو ستين وخمسمائة، نشأ تحت كنف أبـيه، في عفـاف وصـيانة وعبادة وديانة، بل زهد وقناعة وورع، فلمَّا شبَّ وترعرع اشتغل بفقه الشـافعية، وأخذ الحديث عن الحافظ ابن عساكر وعن الحافظ المنذري وغيره، ثم حُببَ إليه الخلاء، وسلوك طريق القوم، فتزهَّد وتجرَّد، وصار يأوي إلى الجبل الثاني من المقطم، والمساجد المهجورة مرة، ثم يعود إلى والده، فيقيم عنده مرة، فيشتاق للتجرد فيعود إلى الجبل، وهكذا حتى ألف الوحش وألفه الوحـش، فكان لا يفرُّ منه، ومع ذلك لم يُفتح عليه بشيء، حتى أخبره شيخه الشيخ أبو الحسن على البقال أنه إنما يفتح عليه في مكة شرَّفها الله، فخرج فورًا في غير أشهر الحج، و لم تزل الكعبة أمامه حتى دخـلها، وانقطع بواد بينه وبين مكة عشر ليال، ففُتح عليه فصار يذهب من ذلك الوادي إلى مكة، فيصـلِّي بها الخمس ويعود إلى محله من يومه، وأنشأ غالب نظمه حالتئذ، وأقام على ذلك نحو خمسة عشـر عامًا، ثم رجع إلى مصر، فأقام بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر، وعكف عليه الأئمة، وقُصدَ من العام والخاصِّ، حتى أن الملك الكامل كان ينـزل لزيارته، وسأله أن يعمل له ضريحًا عند قبره، بالقبة التي بناها على ضريح الإمام الشافعي، فأبى، وكـان ﷺ جميلا

نبيلا حسن الهيئة والملبس، فصيح العبارة، حسن الصحبة والعشرة، وذكر أنه رأى المصطفى ﷺ في نومه، فقال: «إلى من تُنسب؟». فقال: يا رسول الله إلى بني سعد، قبيلة حليمة. فقال لـه ﷺ:

«بـل نسبك متصلٌ بي». وكان لـه أحوالٌ كريمةٌ وكراماتٌ عظيمةٌ، ومن أجلِّها ديوانه الذي اعترف بحسنه الموافق والمخالف، سيَّما القصيدة التائية المسماة بـ «نظم السلوك».

روى ابـن بنته عنه: أنه لما أتمَّها رأى النبيَّ- عليه الصلاة والسلام - في المنام، فقال: يا عمر، ما سميت قصيدتك؟ قال: سميتها: «لوائح الجنان وروائح الجنان».

فقال له ﷺ: لا، بل سمها: «نظم السلوك » وقد اعتنى بشرحها جمعٌ من الأعيان: كالسراج الحنفي الهندي قاضي الحنفية بمصر، وكان كثير المحبة للشيخ، حتى أنه عزَّر ابن أبي حجلة؛ لتكلُّمه في الشيخ بما لا يرضي الله، والشمس البسطامي، والجلال القزويني الشافعي، غير متعقِّبين ولا مبالين بكلام المنكرين الحسَّاد.

وكذا شرحها الشيخ الفرغاني، وهو الشارح الأول لها، وأقدم المؤيدين له حكى: أن الشيخ صدر الديـن القـوني عرض لشيخه الشيخ محيي الدين بن العربي. فقال له: لهذه العروس بكرًا من أولادك، =

=

فشـــرحها الشـــيخ الفرغاني، وهو من تلامذة الشيخ القونوي، وكذلك شرحها الشيخ القاشاني والشيخ القيصري وغيرهم، وعلى القصيدة الخمرية عدة شروح، أحدها لابن كمال باشا، وكذالك اليائية، وقد شرحها الإمام السيوطي، وقد شرح الديوان كله بعض العارفين: كالشيخ النابلسي ﷺ.

قال الذهبي: كان سيِّد شعراء زمانه. وقال ابن العماد في «شذراته»: **أفضل الشعراء على الإطلاق**.

ولم يزل الشيخ على حاله، راقيا في سماء كماله ﷺ حتى احتضر، فسأل الله أن يحضره في ذلك الهول العظيم جماعةٌ من الأولياء، فحضره جماعةٌ: منهم البرهان الجعبري، فقال كما حكاه سبط الشيخ: رأيت الجنة لما مثلت له، بكى وتغيَّر لونه، ثم قال:

إن كان منـــزلتي في الحب عندكم ... مـــا رأيتُ فقـــد ضيَّـــعتُ أيامـــي

قـــال: فقلت له: يا سيدي هذا مقامٌ كريمٌ. فقال: يا إبراهيم رابعةٌ وهي امرأةٌ تقول: (وعزَّتك ما عبدتك رغبةً في جنتك، بل لمحبَّتك)، وليس هذا ما قطعت عمري في السلوك إليه، فسمعتُ قائلاً يقول له: ما تروم؟ قال: أروم وقد طال المدى منك نظرة ... البيت، فتهلل وجهه، وقضى نحبه، فقلت: إنه أُعطي مرامه اهـــ.

وقـــد افترى على الشيخ ﷺ من يدعى بالبقاعي، الذى ظهر أنه يعمل بعمل أهل الجنة، ولكن غلبـــت علـــيه شقوته، وسبق عليه الكتاب، فصار من أهل العذاب، المنسوب إليه التفسير المشهور، المسمَّى بنظم الدرر، والحق أنه ليس له، كما هو معلوم عند أهل العلم، فألف رسالةً، وإن شئت قلت ضلالةً في تكفير الشيخ، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [الصف:٨]، ولكن هيهات هيهات: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، فقيَّد الله لهذا البقاعي الجاهل الشيخ العالم الكامل أبو عبد الله محمـــد بـــن جمعه الحصكفي ﷺ (توفي سنة ٨٩٥هـــ) من جعله سيفًا لدينه، يذبُّ عنه سفاهة ذوى الأحلام، فألَّف هذا الشيخ الجليل الصالح كتابًا في الرد على ذاك الشقي أسمَّاه «ترياق الأفاعي في الرد على الخارجي البقاعي»، وهو كتابٌ حافلٌ في الرد على ذاك الغافل، و«الانتصار» للشيخ ابن الفارض منسبع الفضائل، وإن شاء الله سينشر هذا الكتاب قريبًا، وكذلك أيضا الشيخ السيوطي فألف مقامةً أسماها «قمع المعارض في نصرة ابن الفارض»، وقد دافع عن الشيخ وغيره من أكابر أئمة الأولياء الكثير من العلماء، وقد وقفنا على الكثير من تلك الكتب، والتي لا يزال أكثرها مخطوطٌ، والتي لو نشرت لما كـــان لهذا الجهل والتجرأ على أولياء الله وجودٌ، ولعلمنا حقيقة أن تلك العلوم والمعارف التي أظهرها القوم هي غاية هذا الدين الخاتم، وأنها مقصود الشرع الشريف، ولَعَلِمَ من أنكرها أو من لم يعرفها أنه ما عرف عن الدين وعن رسول الله ﷺ إلا اسمه، لا غير.

=

وإن شـــاء الله سنقوم بتحقيقها وإخراجها للناس، وذلك لما رأينا أن معظم كتابات اليوم عن علم التصـــوف الإســـلامي خالية تمامًا مما استند إليه القوم من الدليل الشرعي، فصار الكلام في الفلسفات والنظريات والنقل من المستشرقين وكأن الكاتب ليس مسلمًا، ولم يقف على كتاب اسمه القرآن، ولم يؤمن بنبيٍّ خاتمٍ اسمه محمَّدٌ ﷺ، وكأنه يتكلم عن غير مسلمٍ ـ معاذ الله ـ في موضوعٍ لا يمسُّ الدين، أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبينٌ، فبالله عليك يا أخي هل ترى علوم التصوف إلا قسمين:

قســـمٌ: أمرك باتِّباع الشرع المطهَّر من عبادةٍ: كذكرٍ أو صلاةٍ على رسول الله أو قراءة قرآنٍ أو حسن معاملةٍ مع الخالق والخلق؟!

وقال في ذلك الإمام الجنيد سيِّد الطائفة قُدِّس سرُّه: علمنا هذا مشيَّدٌ بالكتاب والسنة.

وفي ذلك القسم ألفوا «الإحياء»، و«قوت القلوب»، و«الرسالة القشيرية».

والقسم الآخر: وهو أسرار الدين والعقيدة العظمى في الله وفي رسوله ﷺ، وهو العلم المسمَّى بعلم الحقائق: «كالفتوحات المكيَّة»، و«الإنسان الكامل»، وتلك الكتب ما تكلَّمت إلا بأنَّها مستمدةٌ من السيد الأعظم ﷺ، وأن الصحابة رضوان الله عليـــهم كان عنـــدهم تلك العـــلوم وأعـــظم،

﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحـــج:٤٦]، وأقاموا الدليل الشرعي على ذلك، وإن شئت فراجع «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر»، وبالله عليك هل سمعت ولو ممن ينكر على السادات الصوفية أن واحدًا منهم كان محبًا للدنيا أو طلب من آخر ترك أمرٍ في الشريعة أو كان يجبر أحدًا على تعظيمه؟! لا، والله.

وانظر كل كتب التراجم ولو المنكرين عليهم كما ذكرت فإنك لن تجد مثل هذا، ولن تسمع إلا أنه كان زاهدا عابدًا ورعًا، لا يقيم لنفسه على أحدٍ وزنًا، فأنصف الحق من نفسك، واستبرئ لدينك.

وصار باحثينا القارئين لتلك الكتابات يتجرؤن على الشريعة وعلمائها بدون أدنى تعبٍ في البحث عـــن الأدلة الشرعية، ولو وقف أحدهم على قوله: (إنَّ الله عنْدَ لسان كلِّ قائلٍ وقلبه) لما تجرأ بالطعن عـــلى ما يجهل، ولأفتاه قلبه: إياك والإنكار على ما تجهل، فإنك لم تُحط بعلم الله، فلا تتحكم على الله. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

ولذكـــره بقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهـــف:٦٥]. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧].

ومَـا هـي إلَّـا إن بَـدَتْ بِمَظَاهِـرِ فَظَنُّوا سِـوَاهَا وهي فِيهم تَجلَّتْ

=

والحاصل: كما ذكره الإمام عبد الرؤوف المناوي في «الكواكب الدُّرية»: إن قد اختلف في شأن صاحب الترجمة ـ ويقصد الشيخ ابن الفارض وابن العربي والعفيف التلمساني والقونوي وابن هود وابن سبعين وتلميذه الششتري والصفار وابن المظفر رضي الله عنهم- من الكفر إلى القطبانية، وقد كثرت التصانيف من الفريقين في هذة القضية، ولا أقول كما قال بعض الأعلام: سلِّم تسلمْ، والسلام، بل أذهب إلى ما ذهب إليه بعضهم من أنه يجب اعتقادهم وتعظيمهم، ويحرم النظر في كتبهم على من لم يتأهَّل لتنزيل ما فيها من الشطحات على قوانين الشريعة، وقول بعض جبهذة الفقه والأثر: (أنه لا يؤول إلا كلام المعصوم) غير معتبرٍ، وإن جلّ قائله؛ كيف وهو قد ملأ كغيره كتبه الفقهية والحديثية بتأويل النصوص والوجوه؟! واعتنى عليه بالجمع بين الكلامين المتناقضين، وتنزيل الخلاف على حالين.

وقد وقع لجماعةٍ من الكبار الرجوع عن الإنكار، وكان العزُّ بن جماعة ينكر، فرأى في منامه جماعةً قد أوقفوا بين يدي الشيخ، وقيل له: هؤلاء منكرون. فقطع ألسنتهم؛ فانتبه مذعورًا، ورجع.

وقال لي شيخنا الرملي: إن بعض المنكرين رأى أن القيامة قد قامت، ونصبت أواني في غاية الكبر، وأغلي فيها الماء حتى تطاير منها الشرار، وجيء بجماعةٍ ضبائر ضبائر، فسلقوا فيه حتى تمرى العظم واللحم، فقال: من هؤلاء؟ فقيل: الذين ينكرون على ابن العربي وابن الفارض اهـ.

انتقل ﷺ سنة اثنين وثلاثين وستمائة، ودفن بالقرافة بمصر، ورُئيَ في النوم، فقيل له: لِمَ لا مدحت المصطفى ﷺ في ديوانك؟ فقال:

أرى كلَّ مدحٍ في النبيِّ مقصِّرًا وإن بالغ المثني عليه وكثَّرا

إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورا

وقد قال أحد العلماء بالله: إن الشيخ ابن الفارض يأتي يوم القيامة يمدح الله على رؤوس الأشهاد، ويقال له: امدحنا كما كنت تمدح في الدنيا.

ولنختم تلك الترجمة بعد ما نوَّهت لك على حقيقة الإنكار على السادة الصوفية بقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

وقال السيد قطب الدين بن سبعين[1]: «الله في كلّ شيءٍ بكلّه، وليس فيه الكل والبعض، فهو لا شك ظاهر وباطن، أول وآخر، وهو بادٍ وملتم لا تقل: كيف لي به؟ فيه عنه تفهم».

فهذه الأقوال شاهدة بأنه لا وجود سواه، بل هو الشاهد من الشاهد، والمشهود من المشهود.

وقال الشيخ الكامل المحقق محمد المدّعو بدمرداش المحمدي الصوفي: «هو الاسم والمسمَّى، والأول بلا أولية، والآخر بلا آخرية، والظاهر بلا ظاهرية، والباطن بلا باطنية، فلا أول، ولا آخر، ولا ظاهر، ولا باطن إلا هو لا هو في شيءٍ، ولا شيء فيه، ولا هو داخل، ولا هو خارج، وينبغي أن تعرفه بهذه المعرفة لا بالعقل، ولا بالفهم، ولا بالوهم، ولا بالحس، ولا بالعين الظاهر، ولا الباطن، ولا يعلم ما هو إلا هو بنفسه يرى نفسه، وبذاته يعلم ذاته لا يراه غيره، ولا يُدركه سواه لا نبي مُرسل، ولا ولي مُقرب» انتهى.

شعر:

جَمَالُكَ في كُلِّ الحقائقِ سائرٍ وَلَيس لَهُ إلا جَلالُكَ سَاترُ

كيف لا؟ وقد قال الله تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال: ١٧]، وقال: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة:١١٥].

وقال: ﴿**مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**﴾ [هود:٥٦].

وقال: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد:٤].

وقال أيضًا على لسان رسوله: «**من عرفني طلبني ومن طلبني وجدني ومن وجدني**

---

(١) هو القطب الرباني المحقق الصمداني، صاحب الفيوضات، من أهل الحقائق العالية أمثال سيدي محيي الدين والشيخ القونوي، وآل وفا.

قال الشيخ الكردي في الانتصار: وأنكروا على الشيخ عبد الحق بن سبعين رحمه الله تعالى، وأخرجوه من بلاد المغرب، وأرسلوا مكتوبًا أمامه يحذّروا أهل مصر منه، وكتبوا فيه أنه يقول: أنا هو وهو أنا.

أحبني ومن أحبني قتلته ومن قتلته كانت عليَّ ديته ومن كانت عليّ ديته فأنا ديته[1] ».

وقال كذلك: « **أنا جليس من ذكرني**[2] ».

ولم يكتف بذلك حتى أخبر عن نفسه بأنه عين حقائقنا، وقوانا الظاهرة في حديث: «**كنت سمعه وبصره**[3] ».

وقال تعالى أيضًا: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨]، فلا يخلوا شيء من وجه الله، وإلا ما كان إلهًا، وكان العالم مستقلاً بنفسه وهو محال، فَخُلُوا العالم من وجه الحق، أو خلوا وجه الحق من العالم مُحال. شعر :

ظَنَنتَ ظُنُونًا بِأَنَّكَ أَنْتَا ... وثَاني اثنين دعْ مَا ظَننتَا
فَإِن ظَننتَ جهلاً بِأَنَّكَ أَنتَا ... فَاعلمْ بِأَنَّكَ مَاقطٌ كُنتَا

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فإذا عرفت هذا فهو الغاية القصوى، والفائدة العظمى لا خير لمن لم يحصله، ولا كمال لمن لم يعرفه، فماذا وجد من فقده؟ وماذا فقد من وجده؟ فمن وجده وجد كلَّ الخير، ومن فقده فقد كل الخير.

وقال بعضهم: «من ترك خيرًا كثيرًا لشيء قليل، فهو شرٌ كثيرٌ له ، فلا يجوز الصبر عنه ويجب على كلِّ أحدٍ طلبه حتى يعرفه في كلِّ شيءٍ، ولا ينكره في شيءٍ».

وقال الشيخ قُدِّس سرّه في «الفصوص»:

«فإياك أن تعتقده بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه فيفوتك خيرٌ كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه». وهذا جهل ونعوذ بالله من الجهل.

---

(١) ذكره الحسيني في البيان (١/٤٩).

(٢) رواه ابن شيبة (١/١٠٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٢١٧)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥/٥٠٧).

(٣) تقدم تخريجه.

٥٤- الصبر عنه صبر، وبلوى صبره عنه يصبره.

وإلى هذا أشار إليه بقوله هنا: (**الصبر عنه صبر، وبلوى صبره عنه يصبره**) أي: حبسه ومنعه و(**صبر**) ككتف، ولا يسكن إلا لضرورة الشعر عصارة شجر مرٌّ ما تحلب منه، وامتحنته واختبرته بلوته بلوًا، والاسم (**البلوى**) كذا في القاموس أي: الصبر عن الله تعالى، وحبس النفس عنه ومنعها بأن يعرض عن الحق بالخلق ولا يطلبه به منه له، بل بنفسه أو من نفسه أو لنفسه أو يطلب غيره (**صبر**) أي: مرٌّ كالصبر لا يتناوله عاقل وتناول الكثير منه مهلك، أو مضر ضرًا عظيمًا، أو متعب تعبًا شديدًا، واختبار من الله تعالى، وكيف لا يكون مرًا وبلوى؟! وهو تعالى جميل على الإطلاق، وجمال كل جميلٍ من جماله، فما أقبح الوقوف مع الفرع والمقيد مع وجود الأصل والمطلق، وإن ما سواه تعالى لا شيء بالأمس ما كان له وجود، واليوم ظهر بلا وجود وظاهر إن في غدٍ لا يبقى إلا الملك الودود، فهو الأزلي الأبدي، ومعك في جميع الأزمنة والأمكنة والأحوال، وناظر إليك على الدوام، وعالم بك وأمورك على وجه الكمال والتمام، وأفاض عليك الوجود وما هو من لوازم وجودك ،وهو البُدِ اللازم لا غيره.

كما ورد أنه تعالى قال: «يا داود أنا بدك اللازم فالزم بدك اللازم، فإن حصَّلته فقد حصَّل كل شيء، وإن فاتك فاتك كل شيء».

فمن حصل الدينار والآخرة بدون الحق تعالى فما له شيء وما حصَّل شيئًا، ومن حصَّل الحق تعالى وإن لم يكن له شيء لا في الدُّنيا ولا الآخرة فقد حصَّل الكل، وكل ومن حصَّل الكل فهو غني عن الكل وإلا فهو محتاج إلى الكل، فمنع النفس وحبسه عنه يكون صبرًا وبلوى لفواته خيرًا كثيرًا، بل يقع في الهلاك أو العقاب أو العتاب.

٥٥- الصبر عنه شهد وحلوى.

فإذا كان الصبر عنه بلوى، فالصبر عليه وجبر النفس على ملازمته حلوى،كما قال الشيخ قُدِّس سرُّه: (**الصبر عنه شهد وحلوى**) (**الشهد**) بضم الأول وفتحه وسكون الثاني، العسل والحلوى ضد المُرِّ كحلو وحلاوة وحلوان.

ومعنى (**الصبر**) هنا الحبس على الشيء لا عنه أو لزومه وحقًا فالصواب تعديته بعلى أو بنفسه، يُقال: (صبر فلان على القتل) أي: حُبس حتى يموت، و (صبر الرجل) أيّ:

لزمه، فلعلّ (عنه) من زيادة النُّسَّاخ وتغيرهم أو **(عن)** بمعنى على أي: حَبسِ النفس عمَّا سوى الله على قصد لله وإرادته بأن يترك الكل للكلّ لذيذ وحلو كالعسل، بل ألذ وأطيب، ويجوز أن يكون **(الصبر)** فيهما بمعنى، واختلاف الحُكم من حيث الاعتبار، فإن قطع الميل إلى الحق والتوجه إلى الخلق بأن يقصد الدنيا، ويُعرِض عن الآخرة، ولا يمتنع من مخالفة، ويكون جميع حركاته وسكناته بموافقة الهوى، وحظ النفس يكون مُرًّا بالنسبة إلى المال، وشهدًا وحلوًا بالنسبة إلى الحال؛ لأن في إشفاء حظوظ النفس لذة تامة بالنسبة إلى العاجل، وإن كان فيه نقمة بالنسبة إلى الأجل، فيكون حقًا **(عن)** أي: على معناه الأصلي، لكن في الحقيقة ما فيه النقمة في الأجل، بل بحسب الباطن كاللذائذ الملائمة للنفس المُبعدة للقلب عن الله تعالى ليس فيه لذة، فلا لذة في الحقيقة إلا لله فإن ما سواه مُبعد عنه، بل في الحقيقة هو عين اللذة والملتذ والمُلتذ به من وجه، وإن كان غيرها من وجه آخر فما موجود إلا وهو سارٍ فيه، ولا كمال إلا بكماله، ولا يتم شيء إلا به، بل في الحقيقة لا موجود إلا هو، ولا كمال إلا كماله ولا تام إلا هو ولا نقص إلا هو، لكن بالمعنى الذي هو مراد القوم منه، لا بالمعنى الذي تدركه بعقلك، فحقًا لا يتم لك أمرٌ أنت طالبه، ويتمُّ لك كل أمر هو منك طالبه.

٥٦- من تاب من نفسه نكث، ومن تاب عليه ثبت ومكث.

وإلى هذا أشار الشيخ قُدِّس سرّه بقوله: **(من تاب من نفسه نكث، ومن تاب عليه ثبت ومكث)** أيِّ: كل من تاب، وندم على ما مضى مع دوامه على ما صفى، ولكن يكون من نفسه بأن يكون لنفسه حظًا في التوبة فقصدها بنفسه لا بالله نقض العهد بالرجوع إلى ما مضى وتاب منه، ولا يثبت على التوبة، ولا يمكث فيها؛ لأن قصد التوبة حقًا يكون بهوى النفس، وهي لا تطلب إلا الشرّ أو ما هو من جهته لكونها مجبولة على ضدّ الخير، فلا يثقل عليها إلا الحق، فلا يطلب إلا الناقص، أو ما لحقته العلل والأغراض، وهو وإن كان حقًا وخيرًا، لكن بسبب العلل والأغراض يصير باطلاً وشرًّا؛ إذ بالعوارض ينتقلُ الخير إلى الشرّ والشر إلى الخير، كما مرَّ في أول الكتاب بعد تمام الديباجة، فكل ما أنت فيه مصحوب بالالتفات والقصد فلا يتم لك، ولو تم ينقطع التفاتك وغرضك، فكلّ من تاب من نفسه وإن كانت التوبة باب الأبواب للدخول في الحضرة الإلهية، فلا يستقيم عليها فينقضها فيجب عليه التوبة إمَّا على السَّعة، أو على الضيقة وهو الأصح؛ إذ التوبة

فورية على المعتمد من نقض التوبة.

ولهذا قال الشيخ كما مرَّ في أول الكتاب: (خف من كل مالك فيه نية، ولو كان طاعة) بخلاف ما إذا كان مقهورًا في التوبة، ولا يكون له قصد من النفس فيها فإنه حقًا تاب الله عليه، فلا يكون فاعلاً لما هو طالبه، بل هو فاعل لما هو مطلوب منه فيتم أمره، ويثبت على توبته ولا ينقضها، ويمكث فيها أبدًا وهو موجب للمكث والخلود في الجنة قال الله: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ [الكهف:٢،٣].

والأجر الحسن الجنة بدليل قوله: ﴿ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ [الكهف:٣].

فانس أيها التائب قصدك وهوى نفسك؛ لأنه تعالى أعرف بمصالحك من توبتك وعدم توبتك وغير ذلك من سائر الأفعال، فلا تعمل إلا به ولا تريد إلا بإرادته، والمقصود أن تفنى عنك وتبقى بالله حتى تتقرب إلى الله.

٥٧- من لم يكن سابقات العناية تدينه.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**من لم يكن سابقات العناية تدينه**) أي: من لم يكن و لم يبق له وجود وصار فانيًا في الله فالعنايات الأزليــّة الحاصلة للعبد في الحضرة العلميَّة السابقة على حال عدم كونه وفنائه تُقربه إلى الله تعالى أي: يرجى له ذلك؛ لأنه ما كل فانٍ متقرب، ولا كل متقرب واصل ولا كل واصل داخل، ولا كل داخل قاعد ولا كل قاعد ملتفتًا إليه، ولا كل ملتفت إليه فائز، ولا كل فائز حائز، فالكون تام، والمراد بعدم الكون الفناء وهو إن لم تكن أنت.

وقال: (**سابقات العناية تدينه**) إشارة إلى أن حصول التقرب من العناية السابقة لا من فناء العبد، بل فناؤه أيضًا منها كغيره، وإلا فهو أصعب من نحت الجبال بالأظافر، لكن بالعناية يصير سهلاً والله الميسر لكل عسير وهو على كل شيء قدير.

فمَن لم يفن لم يتقرب، ومَن لم يتقرب لم يشهد و لم يشهد لم ير الحق، ومَن لم ير الحق لم ير شيئًا؛ لأنه ظاهر كل شيءٍ فيكون أعمى، ومَن كان أعمى في هذه الدار يكون في الآخرة أعمى.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢]، وهذه الآية تدلُّ ظاهرًا على أنه لا يكون التَّرقي بعد الموت على ما هو مذهب بعض، وعند الشيخ المؤلف قُدِّس سرُّه يكون الترقي بعد الموت في المعارف الإلهية، وأفاد هذا في الكشف طائفة عند اجتماعه بهم، منهم الجنيد البغدادي، وذو النون المصري(١).

---

(١) هو الشيخ الزاهد شيخ الديار المصرية ثوبان بن إبراهيم، وقيل: فيض بن أحمد، وقيل: فيض بن إبراهيم النوبي الإخميمي يكنى: أبا الفيض ويقال: أبا الفياض، ولد في أواخر أيام المنصور.

وروى عن مالك والليث وابن لهيعة وفضيل بن عياض وسالم الخواص وسفيان بن عيينة وطائفة. وعنه أحمد بن صبيح الفيومي وربيعة بن محمد الطائي ورضوان ابن حميد وحسن بن مصعب والجنيد بن محمد الزاهد ومقدام بن داود الرعيني وآخرون. وقال ابن يونس: كان عالمًا فصيحًا حكيمًا.

وقال السلمي: حملوه على البريد من مصر إلى المتوكل ليعظه في سنة ٢٤٤ هـ.

وكان إذا ذكر بين يدي المتوكل أهل الورع بكى.

وقال يوسف بن أحمد البغدادي: كان أهل ناحيته يسمونه الزنديق فلما مات أظلت الطير جنازته فاحترموا بعد قبره.

وعن أيوب مؤدب ذي النون قال: جاء أصحاب المطالب ذا النون، فخرج معهم إلى فقط وهو شاب، فحفروا قبرًا فوجدوا لوحًا فيه اسم الله الأعظم، فأخذه ذو النون وسلّم إليهم ما وجدوا.

قال يوسف بن الحسين الرازي: حضرت ذا النون فقيل له: يا أبا الفيض ما كان سبب توبتك؟ قال: نمت في الصحراء ففتحت عيني فإذا قنبرة عمياء سقطت من وكر فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان ذهب وفضة في أحدهما سمسم وفي الأخرى ماء فأكلت وشربت فقلت: حسبي فتبت ولزمت الباب إلى أن قبلني.

قال السلمي في محن الصوفية: ذو النون أول من تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال ومقامات الأولياء فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم وهجره علماء مصر وشاع أنه أحدث علمًا لم يتكلم فيه السلف وهجروه حتى رموه بالزندقة، فقال أخوه: إنهم يقولون: إنك زنديق فقال: ومالي سوى الإطراق والصمت حيلة ووضعي كفي تحت خدي وتذكاري.

=

=

قال محمد ابن الفرحي: كنت مع ذي النون في زورق، فمر بنا زورق آخر، فقيل لذي النون: إن هؤلاء يمرون إلى السلطان يشهدون عليك بالكفر، فقال: اللَّهُمَّ إن كانوا كاذبين فغرقهم فانقلب الزورق وغرقوا فقلت له: فما بال الملاح؟ قال: لم حملهم وهو يعلم قصدهم، ولأن يقفوا بين يدي الله غرقى خير لهم من أن يقفوا شهود زور، ثم انتفض وتغير وقال: وعزتك لا أدعو على أحد بعدها ثم دعاه أمير مصر وسأله عن اعتقاده فتكلم فرضي أمره وطلبه المتوكل، فلما سمع كلامه ولع به وأحبه.

قال علي بن حاتم: سمعت ذا النون يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق.

وقال يوسف بن الحسين: سمعت ذا النون يقول: مهما تصور في وهمك، فالله بخلاف ذلك. وسمعته يقول: الاستغفار جامع لمعانٍ أولها: الندم على ما مضى، الثاني: العزم على الترك، والثالث: أداء ما ضيعت من فرض لله، الرابع: رد المظالم في الأموال والأعراض والمصالحة عليها، الخامس: إذابة كل لحم ودم نبت على الحرام، السادس: إذاقة ألم الطاعة كما وجدت حلاوة المعصية.

وعن عمرو بن السرح قلت لذي النون: كيف خلصت من المتوكل وقد أمر بقتلك قال: لما أوصلني الغلام قلت في نفسي: يا من ليس في البحار قطرات، ولا في ديلج الرياح ديلجات، ولا في الأرض خبيئات، ولا في القلوب خطرات إلا وهي عليك دليلات ولك شاهدات وبربوبيتك معترفات وفي قدرتك متحيرات، فبالقدرة التي تجير بها من في الأرضين والسماوات إلا صليت على محمدٍ وعلى آل محمدٍ وأخذت قلبه عني فقام المتوكل يخطو حتى اعتنقني ثم قال: أتعبناك يا أبا الفيض.

وقال يوسف بن الحسين: حضرت مع ذي النون مجلس المتوكل، وكان مولعًا به يفضله على الزهاد، فقال: صف لي أولياء الله؟ قال: يا أمير المؤمنين هم قوم ألبسهم الله النور الساطع من محبته وجللهم بالبهاء من إرادة كرامته، ووضع على مفارقهم تيجان مسرته، فذكر كلامًا طويلاً.

ومن كلامه أيضًا: قال: إياك أن تكون بالمعرفة مدعيًا، أو تكون بالزهد محترفًا، أو تكون بالعبادة متعلقًا.

وسئل ما أخفى الحجاب وأشده؟ قال: رؤية النفس وتدبيرها.

وسئل عن المحبة؟ فقال: أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وألا تخاف في الله لومة لائم مع العطف للمؤمنين، والغلظة على الكافرين، واتباع رسول الله في الدين.

=

وسهل بن عبد الله التستري[1].

=

وسُئل عن الصوفي؟ فقال: من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق.

وكان يقول: الأنس بالله من صفاء القلب مع الله، والتفرد بالله الانقطاع من كل شيء سوى الله.

وقال: من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله، فإنها تذوب وتصفو، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه، لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته.

وقال: لم أر أجهل من طبيب يداوي سكران في وقت سكره لن يكون لسكره دواء حتى يفيق فيداوى بالتوبة.

وقال: لم أر شيئا أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة، لأنه إذا خلا لم ير غير الله تعالى، فإذا لم ير غيره لم يحركه إلا حكم الله، ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص واستمسك بركنٍ كبير من أركان الصدق.

وقال: من علامات المحبة لله متابعة حبيب الله في أخلاقه وأفعاله وأمره وسننه.

وقال أيضًا: إذا صحَّ اليقين في القلب صحَّ الخوف فيه.

وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (٣٣١/٩)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣٤٧/١٠)، وطبقات الشعراني الكبرى (٨١/١، ٨٤)، والرسالة القشيرية (١٠)، وصفة الصفوة (٢٨٧/٤_٢٩٣).

(١) هو السيد الجليل والعارف بالله تعالى أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن رفيع التستري ﵁، أحد أئمة القوم، ومن أكابر علمائهم المتكلمين في علوم الخواص، ويقول فيه أعيانهم: (سهلٌ للسيادة أهلٌ)، صحب خاله الجنيد ومحمد بن سوار، ولقى ذا النون، وأخذ الأكابر عنه طبقةً بعد طبقةٍ، وطبق الأرض من علم الحقائق، فحسده فقهاء بلده، فقاموا عليه، ونسبوه إلى قبائح بسبب قوله: (التوبة فرضٌ على العبد في كل نَفسٍ)، ولم يزالوا به حتى أخرجوه من بلده إلى البصرة، فمات بها، وحفظ القرآن وهو ابن سبعٍ، وكان يُسأل عن مسائل الزهد والورع ومقامات الإرادة وفقه العبادة وهو ابن عشرٍ، ولم يبرز للناس حتى وقع له الإذن من الله، وكان إذا جاع قوي، وإذا شبع ضعف.
قال عنه الشيخ الأكبر ﵁: (وكان بدء سهل في هذا الطريق سجود القلب، وكم من وليٍّ كبيرِ الشأن طويل العمر مات وما حصل له سجود القلب! ولا علم أن للقلب سجودًا مع تحققه بالولاية، ورسوخ قدمه فيها، فإن سجوده إذا حصل لا يرفع أبدًا من سجدته، فهو ثابتٌ على تلك القدم الواحدة، التي تتفرع منها أقدامٌ كثيرةٌ، وأكثر الأولياء يرون تقلُّب القلب من حالٍ إلى حالٍ، وصاحب هذا المقام وإن
=

=

تقلبت أحواله فمن عينٍ واحدةٍ هو عليها ثابتٌ، يعبِّر عنها بسجود القلب، ولهذا لما رأى سهل في ابتداء دخوله الطريق أن قلبه سجد وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقي حائرًا، فما زال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته فما وجد أحدًا يعرفها، فإنهم أهل صدق لا ينطقون إلا عن ذوقٍ محقَّقٍ، فقيل له: إن في عبدان شيخًا معتبرًا، لو رحلت إليه؟ ففعل؛ فقال له: أيُّها الشيخ، أيسجد القلب؟ فقال: إلى الأبد، فوجد شفاءه عنده؛ فلزم خدمته، فالله تعالى يؤتي ما شاء من علمه من شاء من عباده: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ اهـ.

وكان مذهبه ﷺ التحري في الحلال، فلم يوجد في زمنه من يدقق فيه مثله. وفي ذلك قال ﷺ من باب التحدث بنعمة الله: أنا حجَّة الله على الخلق، وأنا حجَّة الله على أولياء زماني. فبلغ ذلك أبا زكريا الساجي وأبا عبد الله الزبيري؛ فذهبا إليه، فقال له أبو عبد الله الزبيري، وكان جسورًا؛ لأنه كان ضريرًا: بلغنا عنك أنك تقول: أنا حجَّة الله على الخلق، وأنا حجَّة الله على أولياء زماني، فبماذا صرت، هل أنت نبيٌّ أو صدِّيقٌ؟ فقال ﷺ: لم أذهب حيث ظننت، ولست أنا نبيًّا، إنما قلت هذا؛ لأنني صححت أكل الحلال دون غيري. فقال له: وأنت صححت الحلال. فقال ﷺ: نعم، لا آكل دائمًا إلا حلالاً. فقال له الزبيري: وكيف ذلك؟ فقال له ﷺ: قسَّمت عقلي وقوتي ومعرفتي على سبعة أجزاء، فأترك الأكل حتى يذهب منها ستة أجزاء، ويبقى جزءٌ واحدٌ، فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتتلف معه نفسي أكلت بقدر البلغة؛ خوفًا أن أكون أعنت على نفسي؛ ولترد على الستة الأخرى، فبهذا صحَّ لي الحلال. فقال الزبيري: نحن لا نقدر على المداومة على هذا، ولا نعرف أن نقسِّم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاء، واعترف بفضل سيدنا سهل ﷺ.

ومن كلامه ﷺ: من لم يكن مطعمه من الحلال لم يُكشف عن قلبه حجابٌ، وتسارعت إليه العقبات، ولا تنفعه صلاته ولا صومه.

وقال: أصول طريقنا سبعةٌ: التمسك بالكتاب والسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق.

وقال: العيش أربعةٌ: عيش الملائكة بالطاعة، والأنبياء في العلم وانتظار الوحي، والصديقين في الاقتداء، وسائر الناس في الأكل والشرب كالبهائم.

وقال: العلوم ثلاثةٌ: علمٌ ظاهرٌ يبذل لأهل الظاهر، وعلمٌ باطنٌ لا يظهر إلا لأهله؛ خوف الفتنة، وعلمٌ بين العبد والربِّ يستحيل إظهاره لأحدٍ من الخلق.

وسئل عن الاسم الأعظم، فقال: أروني الأصغر أريكم الأعظم، أسماء الله كلها عظيمةٌ، اصدق؛ وخذ أيَّ اسمٍ شئت يفعل معك.

وله ﷺ تصانيف نفيسةٌ، منها ((رقائق المحبين ومواعظ العارفين))، و((جوابات أهل اليقين))، و((المعارضة والرد على أهل الفرق أهل الدعاوى في الأحوال)) (مطبوع)، ومات قُدِّس سرُّه سنة ٢٨٣هـ، نفعنا الله به، آمين. وانظر في ترجمته: الحلية (١٠/١٨٩، ٢١٢)، وطبقات الشعراني (١/٩٠).

ويوسف بن الحسين الرازي[١].

---

(١) هو يوسف بن الحسين الرازي الإمام العارف شيخ الصوفية، إمام الري والجبال في وقته.

كان أوحد في طريقته في إسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الإخلاص، أكثر الترحال، وأخذ عن ذي النون المصري، وأحمد ابن حنبل، وأحمد ابن أبي الحواري، ودحيم وأبي تراب عسكر النخشبي، وعنه أبو أحمد العسال وأبو بكر النقاش ومحمد بن أحمد بن شاذان وآخرون.

قال السلمي: كان إمام وقته لم يكن في المشايخ أحد على طريقته في تذليل النفس وإسقاط الجاه، وترك التصنع واستعمال الإخلاص.

وقال أبو القاسم القشيري: كان نسيج وحده في إسقاط التصنع يقال: كتب إلى الجنيد لا أذاقك الله طعم نفسك، فإن ذقتها لا تفلح، وقال: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص، فاعلم أنه لا يجيء منه شيء. وقيل: كان يسمع الأبيات ويبكي.

من كلامه:

قال أبو جعفر محمد بن أحمد الرازي: سمعت يوسف بن الحسين يقول: علم القوم بأن الله يراهم، فاستحيوا من نظره أن يراعوا شيئاً سواه.

وقال يوسف: من ذكر الله بحقيقة ذكره نسي ذكر غيره، ومن نسي ذكر كل شيء في ذكره حفظ عليه كل شيء إذ كان الله له عوضًا من كل شيء.

وقال يوسف: إذا رأيت الله قد أقامك لطلب شيء وهو يمنعك ذلك، فاعلم أنك معذب.

وسئل يوسف بماذا يقطع الطريق إلى الله؟ قال: به وبخطاب كراماته، ولطائف جذبه إلى ساحات توحيده، ومروج كراماته.

وقال يوسف: يتولد الإعجاب بالعمل من نسيان رؤية المنة، فيما يجري الله لك من الطاعات.

وقال: خفة المعدة من الشهوات، والفضول قوة على العبادة.

وسئل يوسف عن الفقير الصادق، فقال: من آثر وقته، فإن كان فيه تطلع إلى وقت ثانٍ لم يستحق اسم الفقر.

وقال: أرغب الناس في الدنيا أكثرهم ذمًا لها عند أبنائها لأن المذمة لها حرفة عندهم.

=

=

وقال: أصل العقل الصمت، وباطن العقل كتمان السر وظاهر العقل الاقتداء بالسنة.

وقال يوسف: كل ما رأيتموني أفعله فافعلوه إلا صحبة الأحداث فإنهم أفتن الفتن.

وقال يوسف: أذل الناس الفقير الطموع والمحب لمحبوبه.

وقال: الخير كله في بيت ومفتاحه: التواضع، والشر كله في بيت ومفتاحه: التكبر، ومما يدلك على ذلك أن آدم عليه السلام تواضع في ذنبه، فنال العفو والكرامة، وأن إبليس تكبَّر فلم ينفعه معه شيء.

وقال: بالأدب تفهم العلم، وبالعلم يصح لك العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة تفهم الزهد، وتوفق له وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا ترغب في الآخرة وبالرغبة في الآخرة تنال رضا الله.

قال أبو بكر محمد بن عبد الله ابن شاذان: بلغني أن يوسف بن الحسين كان يقول: إذا أردت أن تعرف العاقل من الأحمق، فحدثه بالمحال، فإن قبل فاعلم أنه أحمق.

وقال: إن عين الهوى عوراء.

وقال يوسف بن الحسين: عارضني بعض الناس في كلام، وقال لي: لا تستدرك مرادك من علمك إلا أن تتوب، فقلت مجيبًا: لو أن التوبة طرقت بابي ما أذنت لها على أني أنجو بها من ربي، ولو أن الصدق والإخلاص كانا لي عبدين لبعتهما زهدًا مني فيهما لأني إن كنت عند الله في علم الغيب سعيدًا مقبولاً لم أتخلف باقتراف الذنوب والمآثم، وإن كنت عنده شقيًا مخذولاً لم تسعدني توبتي، وإخلاصي وصدقي، وإن الله خلقني إنسانًا بلا عمل، ولا شفيع كان لي إليه، وهداني لدينه الذي ارتضاه لنفسه، فقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] فاعتمادي على فضله وكرمه أولى بي إن كنت حرًا عاقلاً من اعتمادي على أفعالي المدخولة، وصفاتي المعلولة لأن مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة المعرفة بالكريم المتفضل.

قال: وقال يوسف: لولا أني مستعبد بترك الذنوب، لأحببت أن ألقاه بذنوب العباد أجمع، فإن هو عذبني كان أعذر له في عذابي مع أنه لو عذب الخلق جميعًا، كان عدلاً منه وإن عفا عني كان أظهر لكرمه عندهم في عفوي مع أنه لو لم يعف عن أحد من خلقه لكان ذلك منه فضلاً وكرمًا، وكانت له الحجة البالغة، وذلك أن الملك ملكه والسلطان سلطانه، والخلق مترددون بين عدله وفضله، بل الكل كرم وإفضال، فقد أحسن مع الكل حيث قال: ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦]، فمن عفا عنه فبفضله، ومن عذبه فبعدله، وهو إلى الفضل أقرب:

=

والحلاج[1]، فالآية محمولة على معرفة الحق لمن لا معرفة له أصلاً.

=

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وقال يوسف: في الدنيا طغيانان: طغيان العلم، وطغيان المال، فالذي ينجيك من طغيان العلم العبادة، والذي ينجيك من طغيان المال الزهد فيه.

وسئل يوسف عن قول النبي ﷺ: «أرحنا بها يا بلال»؟ فقال: معناه أرحنا بها من أشغال الدنيا وحديثها لأنه كان قرة عينه في الصلاة. مات رحمه الله تعالى سنة أربع وثلاثمائة.

وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (٢٣٨/١٠)، وطبقات الشعراني الكبرى (١٠٥/١)، وصفوة الصفوة (٨٤/٤)، وتاريخ بغداد (٣١٤/١٤)، والبداية والنهاية (١٢٦/١١).

(١) قال الشيخ يوسف بن الملا عبد الجليل الموصلي: واختلف قوم فيه كالاختلاف في المسيح عليه السلام فقيل: هو ولي الله، وقيل: هو ساحر، والتمس حامد بن العباس الوزير من الخليفة المقتدر تسليمه إليه، فكان يخرجه في مجلسه ويستنطقه، فلا يظهر منه ما يخالف الشريعة، وحامد مجد في أمر ليقتله حسدًا وبغيًا وعدوانًا لأولياء الله تعالى، ثم أنه رأى له كتابًا حكي فيه أن الإنسان إذا أراد الحج و لم يمكنه أفرد من داره بيتًا نظيفًا من النجاسات، ولا يدخله أحد، وإذا حضر الحج طاف حوله، وفعل ما يفعله الحاج بمكة، ثم يجمع ثلاثين يتيمًا، ويعمل أجود طعام يمكنه، ويطعمهم في ذلك البيت ويكسوهم، ويعطي كل واحد سبعة دراهم، فيكون كمن حج، فأمر الوزير بقراءة ذلك قدام القاضي أبي عمرو، فقال القاضي للحلاج: من أين لك هذا؟ قال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري، و لم يعلم الحلاج ما دسّوه عليه، فقال القاضي له: كذبت يا حلال الدم، قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا، فطلب الوزير خط القاضي بقوله حلال الدم، فدافعه القاضي فلم يندفع، وألزمه فكتب بإباحة دمه، وكتب بعده من حضر المجلس من العلماء، فقال الحلاّج: ما يحل لكم دمي، وديني الإسلام، ومذهبي السنة، ولي فيها كتب موجودة، فالله الله في دمي، وأرسل الوزير الفتاوى بذلك إلى المقتدر، فأذن له بقتله، فضرب ألف سوط، ثم قُطعت يده ثم رجله، ثم قُتل، وأُحرق، ونُصب رأسه ببغداد.

قال الفاضل العمري: ولعمري أنها مظلمة مُظلمة، وقضية ظالمة، ارتكبها الوزير لهوى نفسه، وأظهر أنها حماية للشريعة المؤيدة.

وفي شرح الجوهرة للقاني: فمن تكلم في أئمة الدين، وهداة المسلمين من الرؤساء المجتهدين، لا يلتفت إليه ولا يعول في شيء عليه، ومقت الله والسقوط من عينيه منجذب إليه، كما أنه لا التفات لمن رمي الجنيد وأصحابه من جملة الصوفية بالزندقة عند الخليفة جعفر المقتدر، حتى أمر بضرب أعناقهم،

=

وأما حديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلى آخره**[(١)]».

فهو يدلُّ على أن الأشياء الموقوفة في الحصول على الأعمال لا تحصل وما لا بأن يتوقف حصولها على الفضل والرحمة فقد تحصل بعد الموت أيضًا، قاله الشارح للفصوص عبد الرحمن الجامي قدس روحه.

وبالجملة: إن رؤية الحق، ومشاهدته مشروطة بالفناء وعدم الكون بأن لا يكون العبد، ويكون الوجود للحق فقط، ولا يلزم من وجود الشرط وجود المشروط، ويلزم من وجود المشروط وجود الشرط.

=

فامسكوا إلا الجنيد، فإنه تستر بالفقه، وكان يفتي على مذهب شيخه أبي ثور، وبسط لهم النطع، فتقدم من آخرهم أبو الحسن النوري، فقال له الجلاد: لِمَ تقدمت؟ فقال: لأوثر أصحابي بحياة ساعة، فبهت السياف، وأنهى الخبر إلى الخليفة، فردَّهم إلى القاضي، فسأل النوري عن مسائل فقهية فأجابه، ثم قال: وبعد.. فإن لله تعالى عبادًا إذا قاموا قاموا بالله، وإذا نطقوا نطقوا بالله... إلى آخر كلامه، فبكى القاضي وأرسل يقول للخليفة: إن كان هؤلاء زناديق فما على وجه الأرض مسلم، فخلى سبيلهم، ثم قتل من الصوفية الحسين الحلاج في سنة تسع وثلاثمائة بما لم يتأمله مَنْ أمر بقتله انتهى.

وقال أيضًا: ورُوي أنه لما قُدِّم لتقطَّع يداه قُطعت اليد اليمنى أولاً، فضحك، ثم قُطعت اليسرى فضحك ضحكًا بليغًا، فخاف أن يصفرَّ وجهه من نزف الدم، فكبَّ بوجهه على الدم السائل، ولطَّخ وجهه بدمه. ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: يا مولاي، إني غريبٌ في عبادك، وذكرك أغرب منِّي، والغريبُ يألف الغريبَ.

وقال أيضًا: وفي مشكاة الأنوار للإمام الغزالي فصل طويل في حاله يعتذر فيه عمَّا صدر عنه مثل قوله: (أنا الحق.. وما في الجبة إلا الله)، وحملها على محامل حسنة، وقال: هذا من شدة الوجد مثل قول القائل: (أنا من أهوى ومن أهوى أنا).

وقال السيد الجليل الشيخ عبد القادر الجيلاني: عثر الحسين الحلاج فلم يكن في زمنه من يأخذه بيده، ولو كنت في زمنه لأخذت بيده. وانظر: الانتصار للأولياء (ص٣٩، ٥٨٤) بتحقيقنا.

(١) رواه مسلم (١٢٥٥/٣)، والترمذي في السنن (٦٦٠/٣)، والنسائي (٢٥١/٦)، وابن حبان في الصحيح (٢٨٦/٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٧٧/٣).

ويدلُّ على هذا قول النبي ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**[1]».

فعلّق ﷺ الرؤية بعدم الكون الذي هو عبارة عن العدم والفناء، وإن لم يساعد المعنى بحسب القواعد العربية ما بعده.

لأن (لم تكن) فعل شرط، و(تراه) خبر تكن.

وقوله: (فإنه يراك) جزاء الشرط لا إن لم تكن فعل الشرط،

وتراه جزائه، ولا يكون التعليق المذكور صحيحًا إلا بهذا التقدير، لكن أهل الإشارة يشيرون في الأحاديث والآيات إلى معنى لا يساعد عليه تمامها كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر:٤٩] على قراءة الرفع بمعنى نحن كل شيء، وكل شيء صورة تجلياتنا وظهوراتنا والصورة عين ذي الصورة بوجه، وإن كانت غيره بوجه، وقوله: (خلقناه بقدر) لا يساعد على هذا المعنى، فلا يعرف مرادهم إلا من يعرف بالإشارة، ولا يحتاج إلى العبارة، وقال الله في الحديث القدسي: «**تجوع تراني، تجرد تصل**[2]» أي: إلي والجوع موت اختياري وإرادي وهو المشار إليه بحديث: «**موتوا قبل أن تموتوا**[3]» ولهم موتات أخرى غير الجوع من الصبر على الشدائد، ومخالفة النفس والقناعة كل منها يفيد الآخر.

وقد ذكر الشيخ أنواع الموتات بعضها صراحة، وبعضها بالإشارة بقوله قُدِّس سرُّه فيما يأتي بعد هذا القول: (**وإلا فالأعمال الصالحة ترديه**) أي: وإن لم يكن بحيث لم يكن بأن كان له وجود والتفات إلى السوى، فالأعمال الصالحة تجعل العبد الموجود الناظر إلى أعماله الطالب لثوابها رديًا مطرودًا من الحضرة؛ لأنه تعالى طهور لا يحب إلا الطهور،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٦٦/٢).

وطيب لا يقبل إلا الطيب والجيد، ومن هنا «حسنات الأبرار سيئات المقربين[1]» فليس لهم التفات إلى الأعمال الصالحة بأن لا يطلبون عليها الأعواض، ولا يرونها من نفوسهم؛ لأنهم لا يعلمونها ويتركونها بالكلية؛ لأنهم يعاقبون بالغفلة ولو لحظة فكيف بترك الأعمال؟! وقد سبق أنه بالعوارض يصير الخير شرًا وبالعكس، فالثاني الذنب الذي حصل منه الذل والانكسار والتوبة إلى الله تعالى، والتشمير لخدمة الله، والأول الأعمال الصالحة التي اعتمد عليها، ويستصغر تاركها، ويطلب العوض عليها.

قال ابن عطاء الإسكندري قدس روحه: «كيف تطلب العوض عن عمل هو متصدق به عليك؟! أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك» فإن ترى عملك فالله

(١) ذكره القاري في المصنوع (١١١)، وفي الموضوعات الكبرى (ص١٨٦)، والشوكاني في الفوائد المجموعة (٧٣٣)، وفي كتابنا أحاديث مشهورة لكنها لا تصح، وعزوه لأبي سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وأورده السندروسي في الكشف الإلهي (٣٥١)، وعزاه للزهري.
قلت: وحُكي أيضًا عن ذي النون المصري.
وقد عزاه الزركشي للجنيد، وكذلك القرطبي في التفسير (٣٠٩/١).
وانظر: كشف الخفاء للعجلوني (٤٢٨/١).
فائـــدة: قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني: واختلفوا في الصغائر في حقِّ الأنبياء والكُمَّل والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائزٍ عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة.
وقـــال بعـــض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنـــوبٍ من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها، وأشفقوا مـــنها، وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرةٍ لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلـــك ممـــا لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على وجه الندور، وعلى وجه الخطأ والنـــسيان، أو تأويـــلٍ دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسناتٌ، وفي حقهم سيئاتٌ بالنسبة إلى مناصـــبهم وعلـــوِّ أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة.
قال: وهذا هو الحق، ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ فهم صلوات الله وســـلامه عليهم وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوبٍ منهم فلم يُخلَّ ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتـــبهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحهم، وزكّاهم، واختارهم، واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه. وانظر: تفسير القرطبي (٣٠٩/١).

تعالى تصدق به عليك، والمتصدق هو المستحق لأن يُعطى إليه العوض ويطلبه لا المتصدق عليه، فإنه يحق عليه أن يعطي إلى المتصدق عوض تصدقه مما عنده، مع أنه لا ينبغي طلب عوض على عمل لا تكون أنت خالصًا وصادقًا فيه، وإن ترى صدّقك وإخلاصك، فالله تعالى هو الذي أهدى إليك هذا الصدق والإخلاص، فكيف تطلب عوضًا على شيء لا يكون لك؟)، فعُلم بما ذكر أن الأعمال عطيَّة من الله، والصدق والإخلاص هدية من الله، والفرق بين العطية أي: الصدقة والهدية واضح؛ لأن الصدقة للفقراء، والهدية للأغنياء، وإن الأول قضاء حاجة الغير، والثاني احترام الغير فافهم وفرق بين الصادق.

٥٨- حلية الأبدال الصمت، والسهر، والجوع، والاعتزال.

ثم ذكر الشيخ قُدِّس سرّه ما هو وسيلة للفناء الموجب للموتات الأربع، وهو أربعة أشياء في ظاهر العبد ويسهل عليه بها تحصيل الأشياء الخمسة الباطنة والمجموع تسعة على التفصيل الآتي، فقال قُدِّس سرَّه العزيز: (**حلية الأبدال**[1] **الصمت، والسهر، والجوع،**

---

(١) **قال سيدنا الشرقاوي:** (**والأبدال**): جمع بدل، وهو من له قدرةٌ على أن يقيم غيره بدلاً عنه إذا أراد مفارقة محله مثلاً.

قال في «الفتوحات» في الباب الثالث والسبعين ما معناه: اعلم أنه لما انتقل رسول الله ﷺ بعد أن حرر الدين الذي لا يبدل، وكانت الأرض لا تخلو من رسول حي بجسمه يكون قطب العالم الإنساني، أبقي بعده من الرسل ثلاثة متفقًا عليهم، وهم إدريس وإلياس وعيسى، وواحد مختلف فيه عند غيرنا لا عندنا وهو الخضر عليهم السلام، فهؤلاء الأربعة باقون بأجسادهم في الدنيا، واحد منهم القطب واثنان منهم الإمامان وأربعتهم أوتاد، فبالواحد: يحفظ الله الإيمان، وبالثاني: يحفظ الله الولاية، وبالثالث: يحفظ الله النبوة، وبالرابع: يحفظ الله الرسالة، وبالمجموع: يحفظ الله الدين الحنيفي، ولكل واحد منهم في كل زمان شخص على قلبه نائب عنه، فيتطاول كل واحد من الأمة لنيل هذه المقامات، فإذا حصلها عرف أنه نائب، فنائب القطب يعرف أنه نائب القطب، ونائب الإمام يعرف أنه نائب الإمام، وكذا نائب الوتد، فمن كرامة رسول الله ﷺ على ربه أن جعل من أمته وأتباعه رسلاً وارثين مقام الرسالة إلى يوم القيامة .

=

=

واعلم أن رجال الله في هذه الطريق هم المسمون بعالم الأنفاس، فهذا اسم يعم جميعهم، وهم على طبقات كثيرة وأحوال مختلفة: فمنهم من تجمع له الطبقات كلها، ومنهم من يحصل لما شاء الله منها، وما من أهل طبقة إلا ولهم اسم خاص، فمنهم من يحصره عدد في كل زمان، ومنهم من لا عدد له.

فمنهم رضي الله عنهم الأقطاب: وهم الجامعون للأحوال والمقامات بالأصالة أو النيابة كما ذكرنا، وقد يتوسعون في هذا الإطلاق فيسمون كل من دار عليه مقام ما من المقامات، وانفرد به عن أبناء جنسه قطبًا، وقد يُسَمَّى رجل البلد قطب ذلك البلد، وسيما شيخ الجماعة قطب تلك الجماعة، لكن القطب المصطلح عليه الذي ينصرف إليه الاسم عند الإطلاق لا يكون في الزمان إلا واحدًا وهو الغوث أيضًا، وهو سيد الجماعة في زمانه، ثم قد يكون ظاهر الحكم فيحوز الخلافة الظاهرة كما حاز الخلافة الباطنة كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والحسن، ومعاوية، وعمر بن عبد العزيز والمتوكل، وقد يكون لا حكم له في الظاهر، وإنما حكمه في الباطن كأحمد بن هارون السبتي وأبي يزيد البسطامي وأكثر الأقطاب لا حكم لهم في الظاهر.

ومنهم رضي الله عنهم الأئمة: وهم لا يزيدون في كل زمان على اثنين، أحدهما يُسَمَّى عبد الرب، والثاني عبد الملك، والقطب عبد الله قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ [الجن:١٩]: يعني محمدًا ﷺ، وهذا اسمٌ إلهيٌّ يخصُّ كل واحدٍ من الثلاثة، وإن كان له اسمٌ آخر غيره وضع عليه عند ولادته، والإمامان للقطب بمنــزلة الوزيرين له، أحدهما مقصورٌ على مشاهدة عالم الملكوت، والآخر على مشاهدة عالم الملك، وإذا مات القطب خَلَفَهُ واحدٌ منهما.

ومنهم الأوتاد: وهم أربعةٌ في كل زمانٍ لا يزيدون ولا ينقصون، أحدهم يحفظ الله به المشرق، والآخر المغرب، والآخر الجنوب، والآخر الشمال والتقسيم من الكعبة.

وقد يعبر عنهم بالجبال أخذًا من قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ [النبأ:٦، ٧]، فكما أن الجبال يسكن بها مَيْد الأرض كذلك هؤلاء في العالم، يحفظ الله بهم هذه الجهات، وليس للشيطان عليهم سلطان؛ إذ لا دخول له على ابن آدم إلا من هذه الجهات.

ومنهم الأبدال: وهم سبعةٌ لا يزيدون ولا ينقصون، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل إقليمٍ واحدٌ.

أحدهم: على قدم الخليل.

=

=

والثاني: على قدم الكليم.

والثالث: على قدم هارون.

والرابع: على قدم إدريس.

والخامس: على قدم يوسف.

والسادس: على قدم عيسى.

والسابع: على قدم آدم، على الكل السلام، وهم عارفون بما أودع الله تعالى في الكواكب السيّارة من الأمور والأسرار.

ولهم من الأسماء أسماء الصفات، فمنهم عبد الحي، وعبد العليم، وعبد المريد، وعبد القادر، وهذه أسماء أربعة الأوتاد، وباقيهم عبد الشكور، وعبد السميع، وعبد البصير، لكل صفةٍ إلهيةٍ رجلٌ من هؤلاء الأبدال، بها ينظر الحق إليه وهي الغالبة عليه.

فما من رجلٍ إلا وله نسبةٌ إلى اسمٍ إلهيٍّ منه يتلقى ما يرد عليه من الحضرة الإلهية. وسُمِيَ هؤلاء أبدالاً؛ لأن أحدهم إذا فارق موضعًا وأراد أن يخلف به رجلاً آخر بدلاً منه لأمر يريده في مصلحة وقربة كان له القدرة على ذلك، فيترك شخصًا على صورته لا يشكُّ من رآه أنه عين ذلك الرجل، وليس كذلك بل هو شخصٌ روحانيٌّ أقامه مقامه، فكل من له هذه القوة فهو من الأبدال.

أما من يقيم الله بدله شخصًا لأمرٍ ما ولا علم له به فليس منهم، ومعنى قولهم: (فلانٌ على قدم فلانٍ) أنه مثله في علومه ومعارفه التي ترد على قلبه، فإن المعارف الإلهية إنما ترد على القلوب، وكل علمٍ يرد على قلب الشخص الكبير من ملكٍ أو رسولٍ فإنه يرد على قلب من ورثه في مقامه.

وقد يقولون: (فلانٌ على قلبِ فلانٍ)، ومعناه: ما ذُكِر: أي يتقلب في علومه ومعارفه.

وقد تُطلق الأبدال على أربعين رجلاً يُسمُّون أيضًا الرجبيين، وهم رجالٌ لهم القيامة بعظمة الله تعالى، وهم الأفراد وأرباب القول الثقيل المذكور في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ [المزمل:٥]، سُمُّوا رجبيين؛ لأن حالهم لا يكون لهم إلا في شهر رجب من أوله إلى انفصاله، ثم يفقد ذلك الحال من أنفسهم إلى دخول رجب من السنة الآتية، ومنهم من يبق عليه أمر من ذلك في سائر السنة، وقليل من يعرفهم من أهل هذه الطريق، وهم متفرقون في البلاد ويعرف بعضهم بعضًا، فمنهم باليمن وبالشام وبديار بكر.

=

=

ومنهم رضي الله عنهم النقباء: وهم اثنا عشر نقيبًا في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، على عدد بروج الفلك الاثني عشر برجًا كل نقيب يعلم بخاصية برج منها، وقد جعل الله بأيديهم علوم الشرائع المنـــزلة، ولهم استخراج خبايا النفوس وغوائلها، ومعرفة مكرها وخداعها، وإبليس مكشوف لهم يعرفون منه ما لا يعرفه من نفسه إذا رأى أحدهم وطأة شخص في الأرض، ولو حجرًا علم أنها وطأة سعيد أو شقي، كالعلماء بالآثار والقافة إذا رأوا صاحب ذلك الأثر عرفوا أن الأثر له، وبالديار المصرية منهم كثير.

ومنهم رضي الله عنهم النجباء: وهم ثمانية في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، وعليهم علامة القبول من أحوالهم تظهر عليهم، وإن لم يكن لهم فيهم اختيار، ولا يَعرِفُ ذلك منهم إلا من هو فوقهم، لا من هو دونهم، وهم أهل علم الصفات الثمانية السبع المشهورة والإدراك ولهم القدم الراسخة، وعلم تسيير الكواكب من جهة الكشف والاطلاع، لا بالطريق المعلومة عند العلماء بهذا الشأن، فهم حائزو علم الثمانية أفلاك في كل ذلك كوكب، والنقباء حازوا علم الفلك التاسع.

ومنهم رجال الفتح: وهم أربع وعشرون في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون بهم يفتح الله على قلوب أهل الله ما يفتح من المعارف والأسرار، وجعلهم الله تعالى على عدد الساعات لكل ساعة رجل منهم، فكل من فتح الله عليه بشيء من العلوم من ساعة من الساعات كان مدده من رجل تلك الساعة، وهم مفرَّقون في الأرض لا يجتمعون أبدًا، كل شخص منهم لازم مكانه لا يبرح عنه، فمنهم اثنان باليمن، وأربعة ببلاد المشرق، وستة بالمغرب، والباقي في سائر الجهات.

ومنهم رجال الغيب: وهم عشرةٌ لا يزيدون ولا ينقصون، أهل خشوع لا يكلمون الناس إلا همسًا؛ لغلبة تجلي الرحمن عليهم دائمًا في أحوالهم، وهم مستورون لا يعرفون، خبّأهم الحق في أرضه وسمائه فلا يناجون سواه، ولا يريدون غيره، دأبهم الحياء، إذا سمعوا أحدًا يرفع صوته في كلامه ترعَّد فرائصهم، ويتعجبون من ذلك؛ لأنهم يتخيلون أن التجلي الذي أورث عندهم الخشوع والحياء قائم بكل أحد.

وقد يُطلق رجال الغيب على من يحتجب عن الأبصار من الإنس، وقد يطلقون على رجال من الجن من صالحي مؤمنيهم، وقد يطلقون على الذين لا يأخذون شيئًا من العلوم والرزق المحسوس من الحس، بل يأخذون ذلك من الغيب، ومنهم ثمانية عشر ظاهرون بأمر الله عن أمر الله، قائمون بحقوق الله، يحبون إظهار الطاعات وخرق العوائد، وكان الشيخ أبو مدين منهم، فكان يقول لتلامذته: أظهروا

=

والاعتزال) [١] أيٍّ: زينة الأبدال وصفاقم وما به صاروا أبدالاً أربعة أشياء اثنان فاعلان وهما الجوع والعزلة عن الناس، والآخران منفعلان وهما السهر المنفعل عن الجوع؛ لأنه المولد له، فإذا حصل سرى السهر إلى القلب فيسهر عينه أيضًا، والصمت المنفعل عن العزلة، فإن من لوازم العزلة السكوت، فعلى هذا ينبغي تقديم الجوع، ثم العزلة، ثم السهر ثم الصمت؛ لأن الفاعل قبل المنفعل عنه، بل الأولى في الترتيب أن يذكر الجوع، ثم السهر، ثم الصمت فتأمل.

إلا أن المقصود بيان ما هو حليتهم مع قطع النظر عن رعاية المناسبة في الترتيب؛ لأن غرض المحقّق أداء المعاني، ولا يبالي بتصحيح مبانيها وتنظيم عباراقا، وتحصل من هذه الأربعة أربعة: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدُّنيا، ومعرفة الشيطان، وبها تسهل عليه خمسة أشياء باطنة وهي: الصبر والعزيمة والصدق واليقين والتوكل والمجموع تسعة هي أمهات الخير كله.

وقال الشيخ قدس سره في «فتوحاته المكية» في الباب الثالث والخمسين: (أنه يجب على كلِّ من لم يكن له شيخ أن يعمل بهذه الأمور التسعة حتى يجد له شيخًا في الظاهر أو الباطن)، وبيَّن فيه كل واحد منها ولا يسع هذه الصحيفة ذلك البيان لطوله.

ونحن نبين هذه الأربعة المذكورة هنا على ما هو المذكور في الفتوحات، فالعزلة هو أن يعزل كل صفة مذمومة، وأن لا يتعلق قلبه بأحد من خلق الله، بل كان همّه واحدًا

=

للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهرون بالمخالفة، وأظهروا ما أعطاه الله من نعمه الظاهرة: يعني خرق العوائد، والباطنة: يعني المعارف.

فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، وقال رسوله ﷺ: «التحدُّثُ بالنعمِ شكرٌ» انتهى.

هذا ما أردت إيراده من كلامه، وقد ذكر طوائف كثيرةً رضي الله عنهم، وذكر أن جميع هذه الطوائف قد يكون فيهم نساءٌ، لكن يغلب ذكر الرجال عليهن انتهى.

(١) قال السري رضي الله عنه: أربع من أخلاق الأبدال: استقصاء الورع وتصحيح الإرادة وسلامة الصدر للخلق، والنصيحة لهم، وأربع خصال يرفع الله بها: العلم والأدب والدين والأمانة.

وهو الله، وأن ينقطع عن الناس والمألوفات بالبدن، فالأول عزلة في الحال، والثاني عزلة في القلب، والثالث عزلة في الجنس، والصمت هو أن ينقطع عن الكلام مع المخلوق بالكلية إلا إذا كان الجواب فرضًا فيتكلم على قدر الجواب عليه بلا زيادة، فيقول: ما يؤدي به الفرض فقط، ولا يُحدث أيضًا بما يرجو حصوله من الله مع نفسه؛ لأن الحديث مع النفس والذكر معًا لا يجتمعان في القلب لوجوه متعددة، والجوع هو أن يقلل الطعام بقدر ما يقوم بصلبه في الفرض فقط دون النفل؛ لأن النفل قاعدًا لضعفٍ حصل به من قلة الغذاء أنفع له في تحصيل المراد من الله تعالى وأقوّى، وأمّا الشبع فلا يزيده إلا البُعد وعدم حصول المراد، وهو داعٍ إلى الفضول وهو عين الجهول، والسهر هو أن لا ينام بالليل ولا بالنهار ما أمكن له ذلك، ولو ينام فلا ينام على سبيل العادة بأن يفرش الفراش ويضع المخدة ويتغطى باللحاف ويمتد على الأرض، بل ينام شيئًا قليلاً بلا تغطي وبلا فراش وبلا وضع الجنب على الأرض، بل متكأً أو يجعل المخدة عالية،والأبدال ما صاروا أبدالاً إلا بهذه الأربعة وأصلها الجوع فإن الآفات الظاهرة أكثرها من الأكل وكذا الباطنة.

٥٩- كثير الأكل من الحلال يطمس بصائر أكثر الرجال.

قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**كثير الأكل من الحلال يطمس بصائر أكثر الرجال**) (**يطمس**) بضم العين وكسرها يُقال: طمسته طمسًا أي: محوته وطمست الشيء أي: استأصلت أثره، ومنه﴿ **فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ**﴾ [المرسلات:٨] أي: استأصل أثره، ويُقال: اطمس على ما له أي: أهلكه ومنه ﴿**اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ**﴾ [يونس:٨٨] أي: أهلكها، والمراد الأول؛ لأنه المناسب للمقام والموافق للواقع، ونفس الأمر والمعنى أن الأكل الكثير من الطعام الحلال بحسب الشرع وهو الطيب أي: اللذيذ في الدُّنيا الملائم للطبع الخالص عن تبعة العذاب يوم القيامة يطمس ويمحو أو يستأصل أو يهلك بصائر أكثر الرجال، فإن بعض هذه المعاني يجوز باعتبار المجاز فافهم وتأمل.

فلا يرد ما مرَّ ولو قيل: أن المراد المعنى الثاني لم يبعد، أو الثالث كذلك ولكن بالاعتبار المذكور أي: المجاز فكثرة الأكل مزيل للعقل والعقل من نور البصيرة، والأكل الكثير

يذهب بنورها فيزيل العقل أيضًا، وفيها عشرة آفات ذكرها الغزالي[١] في كتابه:

«منهاج العابدين» وقال فيه: «ينبغي لمن أصبح وكان له حاجة أن لا يأكل حتى يقضي حاجته وليست للعباد آفة أعظم من آفة البطن فلا يطمس البصائر شيء، كما تطمس كثرة الأكل إن كان من الحلال».

وقد ذكرنا فضائل الحلال وأشبعنا الكلام فيه في شرح قوله: (**من قنع بخالص الحلال يرجى له الكمال**)، وكذا الحرام فارجع إليه فهذا حال الحلال.

وأمَّا الحرام فكثيره موجب للطرد والبُعد عن الحضرة والدخول في النار، كما روي: «**إنه لا يدخل الجنة جسد غذي بحرام**[٢]».

وفي رواية أُخرى: «**لحم ودم نبت على السحت، فالنار به أولى**[٣]».

وقد مرَّ هذا في شرح القول المذكور.

وأمَّا قليله فحاله وحُكمه ما ذكره الشيخ بقوله: (**وقليل الأكل من الحرام يوجب الآثام، وسبب الانتقام**) أي: الأكل القليل فهو كما قبله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف حكمه إن كان من الحرام الصرف أنه يوجب ويقتضي الآثام والذنوب؛ لأن ظهور الأفعال، وصدور الأقوال، وخطور الخواطر على حسب المأكول، فإن كان حرامًا صِرفًا فلا يصدر منه مما ذكرنا إلا ما هو حرامٌ صِرف، وإن كان مكروهًا فلا يقع منه إلا ما هو المكروه، وإن كان خلاف الأول فيصدر منه ما هو خلاف الأول، فأكل الحرام لا

---

(١) هو حجة الإسلام الولي الكامل العارف بالله تعالى سيدي أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ﷺ، صاحب كتاب الإحياء المعروف بين المسلمين، وُلِد رحمه الله سنة خمسين وأربعمائة، وتفقّه على إمام الحرمين، وبرع في علومٍ كثيرة، وله مصنَّفاتٌ منتشرةٌ في فنونٍ متعددة، فكان من أذكياء العالم في كل ما يتكلّم فيه، قال العارفُ الشاذلي: رأيت المصطفى في المَنام باهى عيسى وموسى عليهما السلام بالغزالي ﷺ، وقال: هل في أمتكما مثله؟ قالا: لا، اهـ.
توفّي ﷺ عن خمسٍ وخمسين سنةً.

(٢) تقدم.

(٣) تقدم.

يُرجي له الكمال وهو في النقص في جميع الأحوال، ولو يطير في الهواء، ويعبر على الماء، ويقلع الجبال، وإذا كان أكل الحرام قليله موجبًا للذنوب والذنوب موجبة للانتقام وسبب له في دار الجزاء، فقليل الأكل أيضًا سبب للانتقام بواسطة أن سبب السبب أيضًا سبب فهو من عطف السبب على المسبب؛ لأن إيجابه الآثام سبب لكونه سببًا للانتقام فتأمل.

وقد مرَّ أن الشيطان يقول لإخوانه: انظروا إلى طعام العابد فإن كان سوءًا دعوه فقد كفاكم نفسه، فإن كنت من العوام فتقع في الأعمال المذمومة التي ما كانت لك عادة يفعلها قبل، وإن كنت مُريدًا فتحصل القسوة في قلبك والثقل في طبيعتك، وإن كنت متوسطًا فتغفل عن مصالح دينك، وإن كنت منتهيًا فتغفل عن ربك وتكثر خواطرك الغير نافعة لك، وإن كنت مكمَّلاً ومسلكًا للناس في الطريق المستقيم فتُمنع من الدخول في الحضرة بقلبك لا في الصلاة ولا في غيرها، فعليك بتقليل الحلال وترك الحرام، والشبهة بالكلّية فترى الحلال الكثير كشيءٍ نجس، والشبهة كالمرء البشع، والحرام كالنار، والحلال إذا كان كثيرًا يصير حرامًا، والمحرَّم إذا كان قليلاً يصير حلالاً، أو يقرب منه ألا ترى أن المضطر يجوز أكله بقدر سد الرمق من الحرام الصرف، وما يأتيك قليلاً فأبشر بأنه حلال، وإن ترى بحسب الظاهر أنه حرام، وما يأتيك كثيرًا فتحقق بأنه حرام، وإن ترى بحسب الظاهر إنه حلال قال رسول الله ﷺ: «**الحلال يأتيك قليلاً، والحرام يأتيك كثيرًا**[1]»، فمن كان طعامه من الحلال تزكو جوارحه، ويلين ويصفى قلبه، وصدقت سريرته.

٦٠- ومَن صدقت سريرته انفتحت بصيرته.

(**مَن صدقت سريرته انفتحت بصيرته**) أي: كل من كانت (**سريرته**) أي: ستره أي: ما يكتمه، والمراد الباطن أي: من كان باطنه صادقًا أو المراد الأصل أو اللبّ؛ لأنه يلزم من صدق الأصل، واللب المراد به للقلب ما ذكره من انفتاح البصيرة، وحاصله مَن كانت سريرته صادقة، وخرجت من النفاق جوارحه؛ لأن الباطن إذا لم يكن على وفق الظاهر فلا يكون الحاصل منه إلا العمى، وإذا صار الباطن كالظاهر انفتحت بصيرته أي: عين قلبه فيشاهد المعاني الغيبية فيعثر على ما هو عليه الأمر في نفسه على حسب

---

(١) لم أقف عليه هكذا.

الاستعداد، فيخرج عن الضيقة إلى السعة، فيصير قابلاً للمعارف الإلهية والفتوحات الربانية والاتّصاف بالأوصاف الملائكية، فحقًا يكون صادقًا في أفعاله وأقواله.

٦١- ومَن صدق مقاله صَلُحَ حاله.

(**ومن صدق مقاله صلح حاله**) أيّ: الذي صدق مقاله بأن لا يقول إلا بالصدق، ولو يرى فيه هلاك نفسه، أو من هو بمنــزلة نفسه مع أنه لا يكون منه إلا النجاة، كما وقع هذا للحبيب العجمي حيث هرب الحسن البصري من خوف الخليفة، فوصل إلى الحبيب النجار فقال له: الحبيب ادخل في زاويتي فالله خير حافظًا، فدخل الحسن البصري في زاوية الحبيب العجمي، وقعد فيها والحبيب واقف بالباب، فوصل إليه أعوان الخليفة في طلب الحسن البصري، فسألوا الحبيب عنه فقال: ها هو قاعد في الزاوية، فدخلوا فيها فما رأوه، فقالوا: ليس هنا.

فقال: بلى قاعد في الجوة ثم دخلوا وتأملوا، وهكذا إلى ثلاث مرات فما رأوه فَرِحوا، وخلص الحسن البصري عنهم، فقال للحبيب: ما خلصنا إلا صدقك، فمن يكون كذا صلح حاله في الأمور الدنيوية والدينية ومن صلح حاله يكثر من ذكر الله ﷻ.

٦٢- ومَن ذكر الله وأكثر: يفتح عليه بما لا يُحصى.

(**ومن ذكر الله وأكثر يفتح عليه بما لا يُحصى**) أي: من ذكر الله تعالى وأكثر من ذكره ليلاً ونهارًا بحيث يكون أغلب أوقاته في الذكر، فالحق تعالى يفتح عليه بما لا يُحصى في الحصر والضبط مما أعد الله له على ما ورد: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر قط**[1]».

٦٣- الخير كله مجموع في غيب خزائن الجوع.

فطيب السريرة، وصلاح الحلال، والفتح بما لا يحصر كلها من الجوع المسمَّى بالموت الأبيض؛ لأنه به يُبيض القلب ويصفوا، ومنشأ الكل الجوع.

---

(١) رواه البخاري (٣/١١٨٥)، ومسلم (٤/٢١٧٤)، والترمذي (٥/٣٤٦) وابن ماجه (٢/١٤٤٧)، وأحمد في المسند (٢/٣١٣).

فلهذا قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**الخير كله مجموع في غيب خزائن الجوع**) أي: إذا كان الجوع أصل ما هو حلية الأبدال، وبه تطيب السريرة وتنفتح البصيرة، ويصفوا القلب ويصلح الحال، وبه حصول ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالخير كله دنيويًا كان أو آخرويًا ظاهريًا أو باطنيًا موجود مجموع في غيبٍ هو خزائن الجوع من خواصها ومنافعها، فإن الجنة أقرب من حبل الوريد لمن لا يشبع من الطعام، لاسيما إذا كان لذيذ أو النار أقرب منه لمن يشبع، لاسيما إذا كان الطعام لذيذًا، وأيضًا هو السبب الأصل لأن يصير الرجل حُرًّا قال الحسن البصري: «من ترك شهوته كمَّل رجولته».

وقال الفضيل بن عياض ﷺ: «خصلتان مفسدتان للقلب كثير الأكل والنوم».

وقال ذو النون المصري رحمه الله: «إذا كانت المعدة ممتلئة من الطعام لا تستقر الحكمة فيها، وطوبى لمن كان شعاره الورع، وقلبه زاهدًا في الطمع، ويحاسب نفسه فيما صنع».

وقال سليمان الداراني قُدِّس روحه: «لكل شيءٍ صدأ، وصدأ القلب كثرة الأكل».
وقال أيضًا: «الاحتلام علامة العقوبة وهو من كثرة الأكل، ومنها عدم حلاوة العبادة، وقلة الحفظ، وعدم الشفقة على الخلق، وثقل العبادة، وزيادة الشهوة وقبول الرذائل».

وقال أيضًا: «الجوع خزانة مدخرة عند الله يعطيها إلى أحبائه».

فالجوع على هذا مفتاح الآخرة، والشبع مفتاح الدنيا، ولا يفتح باب البيت حتى يدخل فيه، وينتفع بما فيه إلا بالمفتاح، فالخير كله في الجوع، والشرّ كله في الشبع فلا يذلل النفس إلا الجوع، ولا يرقق القلب إلا الجوع، ولا ينــزل العلم اللدني على القلب إلا بالجوع.

وقيل: أخذ اليد من الطعام قبل الشبع في ليلة أحسن من عبادة كل الليلة.

وقيل: من عبادة ثلاث سنوات في لياليها، وما وصل أهل الله إلى ما وصلوا إلا بالجوع، فمنهم من اشتهت نفسه العسل أربعين سنة.

وكان منهم مَن جعل بثلاثة أيام أكله واحدة.

ومنهم من وصل إلى خمسة أيام.

ومنهم إلى سبعة، ومنهم إلى عشرين وهكذا إلى أربعين إلى سبعين إلى ثلاثة أشهر إلى سنة.

ومنهم مَن أكل بأربعين يومًا لوزة.

وقال فتح الموصلي(١): صحبت ثلاثة أشياخ كانوا من الأبدال كلهم قالوا لي: بتقليل

(١)كان ﷺ وأرضاه إمامًا في فن التصوُّف عارفًا، وعالمًا، ورعًا، زاهدًا، من كبار أولياء الله تعالى، واصلاً إلى الله تعالى في المحل الأسنى من الولاية، وكان من أقران بشر الحافي، والسري السقطي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وكان كبير الشأن في باب الورع والمعاملات، وأسلاك المريدين، غاب عن عياله أيامًا في السياحة، ثم عاد إليهم صائمًا، فلما غربت الشمس صلَّى المغرب، ثم قال لزوجته: هلمي لنا طعامًا نفطر عليه، فقالت: لنا ثلاثة أيام ما وجدنا شيئًا.

قال: فناوليني ماء، فقالت: الجب جاف منذ يومين، قال: فأوقدي لنا سراجًا يبصر بعضنا بعضًا، قالت: وليس عندنا زيت منذ شهر فسجد لله تعالى وبكى.

فقالت زوجته: مهلاً يا فتح أتبكي حزنًا لضرورة العيش في الدنيا الزائلة، وتنسى الآخرة الباقية فرفع رأسه مبتسمًا، وقال: يا رعنا إنما بكيت فرحًا، هذه معاملة الله تعالى خلص أوليائه، وبلغ من قدر الفتح أن يعامل بمثل هذه المعاملة، ويقال: أن الجن استولت على ناحية من الموصل فآذت سكانها، فسكنها الشيخ ﷺ فانصرفت راغمة ببركته.

وكان يقول: صحبتُ ثلاث وثلاثين شيخًا فما منهم واحد إلا نهاني عن النظر إلى وجه الأمرد.

ومن كلامه ﷺ: مَنْ أدام ذكر الله تعالى بقلبه أورثه ذلك الفرح بالمحبوب، ومن آثره عَلى هواه أورثه ذلك حبَّه إيَّاه، ومَن اشتاق إلى الله تعالى زهده فيما سواه.

وكان يقول: القلبُ إذا مُنع الذِّكر مات، كما أن الإنسان إذا مُنع الطعام والشراب مات.

وسُئل المعافي بن عمران ﷺ: هل كان للفتح الموصلي كثير عمل؟ فقال: كفاك بعمله ترك الدنيا.

وكان ﷺ يبكي الدموع ثم يبكي الدم، فلما مات رُئي في المنام فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ قال: «أوقفني بين يديه وقال: يا فتح لِمَ هذا البكاء؟ قلت: يا ربِ على تخلفي عن واجب حقك، قال: فلم تبكي الدم؟ قال: يا رب خوفًا على دموعي ألا تصح لي، فقال: يا فتح ما أردت بذلك كله؟
=

الطعام والكلام والمنام وتَرك صُحبت الأنام، وقد سأل مؤمنوا الجان عن الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس سره العزيز وقالوا له: كيف يمدح الجوع؟ والنبي ﷺ قال:

=

قلت: يا سيدي أردت بذلك وجهك الكريم فأرنيه واصنع ما شئت، قال: وعزتي وجلالي لقد صعد إليَّ حافظك منذ أربعين سنة بصحيفتك، وليس فيها خطيئة واحدة، فلألبسنك لباس التكريم، ولأمتعنك بالنظر إلى وجهي الكريم».

وكراماته ﷺ عنه الآن موجودة كثيرة باهرة، فمن ذلك ما اشتهر وتواتر وجُرِّب كثيرًا في بلدنا، أن قبره الشريف ترياق للأمراض المزمنة المتعسرة العلاج، وكثيرًا ما نرى المصروعين والمجانين يزورون قبره الشريف، فيبرءون بإذن الله تعالى، وهذا مشهور مجرب في بلدنا، ولا يتوسل أحدٌ إلى الله تعالى به في قضاء حاجته إلا قُضيت سريعًا ﷺ ونفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة آمين.

وفي خارج مشهده الشريف المحترم متصلاً به من الجانب الغربي قبر جدي المرحوم الرجل الصالح ملا عثمان الكردي كان رحمه الله تعالى عالمًا عارفًا عابدًا ورعًا زاهدًا، وولديه المرحومين العالم الفاضل ملا محمد العثماني، والشيخ حيدر رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

وقريبًا منهم قبر الرجل الورع الصالح الحاج بكر المناوي، أما قبر المرحوم العابد الورع الزاهد، الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، المشهور ورعه وصلاحه في بلدنا (مُلا سليم الأردلاني) فهو خارج مشهد سيدنا ومولانا النبي شيث عليه السلام، متصلا به من الجانب الشرقي.

وأما قبر والدي المرحوم الشيخ عبد الجليل الكردي خليفة الشيخ العارف بالله تعالى صاحب الكرامات الظاهرة، والأحوال الفاخرة، مُربي المريدين السيد إسماعيل البرزنجي، فهو خارج مشهد سيدنا ومولانا النبي يونس عليه السلام، قريبًا منه من الجانب الشمالي، وقريبًا منه قبر المرحوم الشيخ نعمان البغدادي خليفة الشيخ العارف بالله تعالى السيد على البندنجي.

وأما قبر المرحوم أستاذي العالم الفاضل (ملاوني الكركوكي) فهو خارج مشهد سيدنا ومولانا النبي جرجيس عليه السلام، وقريبًا منه قبر المرحوم العالم الفاضل العلامة الشيخ جرجيس الأربيلي، وقريبًا منه قبر العالم الفاضل العامل العلامة الشيخ عبد الله الرتبكي، وخارج هذا المشهد المحترم من الجانب الجنوبي قبر الرجل الصالح العالم الفاضل المشهور بالولاية الشيخ حيدر بن قرة بيك، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.
وانظر في ترجمته: الطبقات الكبرى للشعراني (١/٦٨).

«بئس الضجيع الجوع[1]»، فأجابهم: بأنه إنما مدح القوم الجوع المشرع لا غير، والغرض في مدحهم إياه إخراج المُردين في بداية أمرهم عن تحكم الشهوات البهيمية؛ إذ خروجهم لا يكون عنه إلا بالجوع، فالخروج من الشهوات مطلوب، فالجوع أيضًا مطلوب، وكون الخروج منها مطلوبًا إنما هو لتُنار هياكلهم بنور الإيمان والإيقان، فأدركوا بذلك النور ما هو الحق، ويميزه به من الباطل حتى يصير وأمن أئمة العدل بعد أن كانوا أئمة الجور، ولما صاروا أئمة عدل لا يكون لهم جوع اختياري؛ لأن تجويع المطايا التي تحملهم إلى الحضرات نظير الإيثار على نفوسهم، والحق تعالى إنما مدح الإيثار من ورطة الشره المستور في الطبيعة البشرية والحرص، وهذا العبد لم يبق عنده منها شيء فيطلب منه أن يبدأ بنفسه لكونها أقرب جار إليه من الغير، فالجوع الممدوح ما في هذا الأبيات:

والجوع المذموم ما يكون في حق الكمَّل وما هو غير مشروع نحو جوع الطبيعة وأنشدوا في هذا:

الجوع موتٌ أبيض ... وهو من أعلامِ الهدَى
ما لم يؤثر خبلاً فهو دواء داء ... فاحكمْ بِهِ تكن له موفقًا مسددًا
الجوع بئس ضجيع المرء جاءَ بِهِ ... لفظُ النَّبي فَلا رفعْ بِهِ رأسًا
قَد أدركَ القومُ فِي تَعيّنهُ غلط ... ولم يقيمُوا لهُ وزنًا وقسطاسًا
من قالَ بِالجوعِ لم يعرفْ حَقيقتهُ ... وقد أضلَّ بما قَد قَالهُ النَّاسَا
جوعُ العوائدِ محمود فلست أرَى ... فيما آراه من استعمالهُ بأسَا
جوع الطبيعة مذموم وليس يرَى ... فيه المحقق بالرحمنِ إيناسَا

أي: جوع الأكابر اضطراري لا اختياري لوجوب العدل عليهم في رعيتهم إذا انقادت الرعية، والله أعلم انتهى كلامه بمدونه مع التحريف في بعض الكلمات والحذف في بعض، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الجوع.

فإذا عرفت هذا فليس أصعب على المُريد من دفع آفة البطن، وتربية النفس بالجوع فمن شرع في هذا بنفسه فلا يزيد به إلا الداء ويشتد به العماء من حيث لا يشعر فيحتاج إلى شيخ مسلك ذي همّة عالية ومعرفة تامة بتربية النفس وطبيب حاذق في معالجتها، فإن ظفرت بشيخ من غير الأبدال فخذ بيده ولازمه في كل الأحوال فأرجوا من الله لك الوصال.

٦٤- وإن ظفرت بشيخ من الأبدال، فأبشر بمنازل الكمال.

قوله: (**وإن ظفرت بشيخ من الأبدال، فأبشر بمنازل الكمال**) يعني إذا وجد بيدك شيخ في مقام الأبدال وظفرت به، وهم الذين إذا مات منهم واحد يوضع موضعه غيره ممن هو في رتبتهم من خارجهم، وأيضًا كل من كان منهم إذا أراد أن يخلق شخصًا مثله يخلقه ويضعه في موضع المصلحة إلى ما شاء الله، فأبشر أيها السالك الظافر بالشيخ المذكور بالمنازل الحاصل فيها الكمال؛ لأن الشيخ له شروط كثيرة كما مرَّ في قوله:

(من لم يأخذ الطريق عن الرجال... إلخ)، ولا توجد تلك الشروط إلا في الأبدال، وأمَّا غيرهم خصوصًا في هذا الزمان، بل الذين كانوا بعد القرن العاشر، كما قاله الشيخ عليٌّ الخواص: «فليسوا موصفين بأوصاف المشيخة، وقد مالت بهم نفوسهم إلى حب الشهرة التي هي أعظم الآفات، وتصدوا لأمور في الطريق ما خلقهم الله لها، ولا هم من أهلها، وأعمى الله قلبهم عن طريق الهداية فأكثرهم على هذا».

ومن هنا قيل: أن الطريق من النصف الثاني في القرن العاشر صارت اسمًا لا رسمًا، وترى الناس من المريدين بزي الأشياخ، فاشتبه على أكثر الناس تميزهم عن المشايخ، وربما يدَّعي أنه أعرف بالطريق من شيخه فكيف بهذا الزمان الذي نحن فيه؟! فإنه وجد الظلم في خواص الناس فضلاً عن العوام، وكثرت الدَّعاوي فيهم بغير حق، وخرجوا بنفوسهم من غير إذن لدعوة الخلق إلى الحق بزعمهم مع أنهم يدعون الخلق إلى غير الحق، ولا يسمعون قول الحق تعالى على لسان رسول الله ﷺ فصمت آذناهم، وعميت أعينهم، فهم يدَّعون الوصول مع أنهم في العبودية مفصولون ليس لهم فيها وصول، ويدَّعون الاتِّصال وهم عن الحقيقة في الانفصال، فليس فيهم اجتماع شروط الطريقة ولا في مريديهم، ولهذا يلقن الواحد منهم ناسًا كثيرًا، ولا ينتج منهم واحد لتخرق أدعيتهم فلا يبقى شيء من الآداب

في أدعيتهم كيف يجوز أن يتصدر أحد في الطريق؟، وأحد طلبة العلم أعلم منه بالأحكام الشرعية كلها، ومعرفة مجملها، ومفصلها نسخها ومنسوخها، وعوامها وخواصها، فيصير إمامًا في العلوم الظاهرة والباطنة بحيث يقطع العلماء كلهم بالحجج في مجلس المناظرة، قاله الشيخ عليٌّ الخواص.

وقال أيضًا في جواهره: شرط تلقين الذكر للمريد أن يخلع على المريد حال قوله له:

لا إله إلا الله، جميع العلوم الشرعية فلا يجهل شيئًا منها، ويستغني عن سؤال العلماء، وهكذا كان عليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما لقنه رسول الله ﷺ، والحسن البصري رضي الله عنه لما لقّنه وهو ابن عشر سنين عليٌّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه.

وقال أيضًا لتلميذه الشيخ الشعراني: «لا ترخي لك عذبة إلا أن أعطاك الحق تعالى سر النمو والزيادة في كل ما مسته يداك ونظرت إليه عيناك».

كما وقع للسري[1] لما أرخاها له المعروف الكرخي رضي الله عنهما من امتداد

---

(١) هو أبي الحسن سري بن المغلس أبو الحسن السقطي. أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة، كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد. وهو خال الجنيد وأستاذه، صحب معروفًا الكرخي، وكان أوحد زمانه في الورع والأحوال السنية وعلوم التوحيد وهو أول من تكلم فيها ببغداد، إليه ينتمي أكثر المشايخ. وحكي عن عبد الله بن الفضل أنه قال: حضرت السري السقطي وهو يجود بنفسه فلحظني بعينه فرآني أبكي، فقال لي: ما لك تبكي؟ فقلت: لما أرى بك؟ فقال: لا تبك لأني قد حسبت حسابي مع الله ﷻ، كنت أطلبه عشرين سنة حتى وجدته، فلما وجدته استخدمني عشر سنين، ثم أبكاني فبكيت عشر سنين، ثم شوقني فاشتقت إليه عشر سنين، ثم أفناني ففنيت عشر سنين، وأنا الآن أؤمل أن أراه فأبقى له وبه ومعه، فينبغي يا أبا محمد تمنيني.

وحُكي أنه لما توفي رؤي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟، فقال: غفر لي ولمن حضر جنازتي وصلى علي، قال الرائي: فإني ممن حضر جنازتك وصلى عليك، قال فأخرج درجًا درجًا ونظر فيه فلم ير فيه اسمي، فقلت: بلى قد حضرت فنظر، فإذا اسمي في الحاشية.

وسبب زهده: أنه كان يجول في السوق ويتردد إلى معروف الكرخي.

=

=

قال: فجاءه معروف يومًا وهو في حانوته ومعه صبي يتيم، فقال: اكسُ هذا اليتيم، قال السري: فكسوته ففرح معروف بذلك، وقال: بَغَّضَ الله إليكَ الدنيا وأراحك مما أنت فيه، فقمت من الحانوت وليس شيءٌ أبغض إلي من الدنيا، وكل ما أنا فيه من بركات معروف.

قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري: أتت عليه ثمان وسبعون سنة ما رُؤي مضطجعًا إلا في علة الموت. وكان أيضًا يقول لنا السري ونحن حوله: أنا لكم عبرة يا معشر الشباب، اعملوا فإنما العمل في الشبيبة، وكان إذا جن عليه الليل دافع أوله، ثم دافع، فإذا غلبه النوم أخذ في النحيب والبكاء.

وقال الجنيد أيضًا: سألني السري يومًا عن المحبة؟ فقلت له: قال قوم هي الموافقة وقال قوم: هي الإيثار، وقال قوم كذا، فأخذ السري جلدة ذراعه ومده فلم تمتد، ثم قال: وعزته لو قلت إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت ثم غشي عليه فدار وجهه كأنه قمر مشرق، وكان السري به أدمة. وقال الجنيد أيضًا: سمعت السري يقول في بعض دعائه: اللّهُمَّ ما عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب.

وقال السريُّ: أنا في الاستغفار منذ ثلاثين سنة من قولي مرة: الحمد لله، قيل: وكيف ذلك؟ فقال: وقع الحريق ببغداد فاستقبلني وقال: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله فأنا من ذلك الأوان نادم على قولي حيث أردت لنفسي خيرًا دون المسلمين.

وقال الجنيد: دخلت يومًا على السريِّ وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: جاءتني البارحة الصبية، فقالت: يا أبت هذه ليلة حارة فأعلق الكوز لعله يبرد فتفطر عليه، ثم حملتني عيناي، فنمت فرأيت في المنام جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء، فقلت: لمن أنت؟ قالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان، وتناولت الكوز فضربت به الأرض، قال الجنيد: فرأيت الخزف المكسور لم يمسه ولم يرفعه حتى عفى عليه التراب.

وقال عليُّ بن الحسين: بعثني أبي إلى السري بشيء من حَبِّ السعال لسعال كان به، فقال لي: كم ثمنه؟ فقلت: لم يخبرني بشيء!

قال: اقرأ عليه السلام وقل له: نحن نُعلِّمُ الناس منذ خمسين سنة أن لا يأكلوا بأديانهم فترانا نأكل اليوم بديننا؟ ولم يأخذه.

=

=

قال السري: صليت وردي ليلة من الليالي، ثم مددت رجلي في المحراب، فنوديت يا سري كذا تجالس الملوك

قال: فضممت رجلي، ثم قلت: وعزتك لا مددت رجلي أبدًا.

وروي أن السري لما ترك التجارة كانت أخته تنفق عليه من ثمن غزلها فأبطأت يومًا، فقال لها: لم أبطأت؟ قالت: لأن غزلي ما اشترِي، وذكروا أنه مخلط، فامتنع من أكل طعامها، فدخلت عليه أخته يومًا فرأت عجوزًا تكنس بيته، وقد حملت له رغيفين فخرجت شكته إلى أحمد بن حنبل ﷺ، فقال أحمد: ذلك للسري، فقال: لما امتنعت من طعام أختي قيض الله لي الدنيا لتنفق علي وتخدمني.

وقال: اعتللت بطرسوس علة الدرب فدخل علي فقراء القراء يعودوني وجلسوا فأطالوا فأذاني جلوسهم، ثم قالوا: إن رأيت أن تدعو الله! فمددت يدي وقلت:

اللَّهُمَّ علِّمنا كيف نعود المرضى.

وقال الجنيد: سمعت السري يقول: خفيت علي علة ثلاثين سنة، وذلك أنا كنا جماعة نبكر على الجمعة ولنا أماكن معروفة بنا لا نكاد نخلوا عنها، فمات رجل من جيراننا يوم جمعة فأحببت أن أشيع جنازته فشيعتها وأصبحت قد تخلفت عن وقتي ثم جئت أريد الجمعة، فلما قربت من الجامع قالت لي نفسي: الآن يرونك وقد أصبحت وتخلفت عن وقتك فشق ذلك علي، فقلت لنفسي: أراك مرائية منذ ثلاثين سنة وأنا لا أدري، فتركت ذلك المكان الذي كنت أصلي فيه وجعلت أصلي من أماكن مختلفة، لئلا يعرف مكاني، وقضيت صلاة الجمعة ثلاثين سنة.

وقال أيضًا: دخلت يومًا على السري فرأيته متغيرًا فقلت: مالَكَ؟ فقال: دخل علي شاب فسألني عن التوبة؟ فقلت له: أن لا تنسى ذنبك، فعارضني، وقال: لا بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقلت: إن الأمر عندي على ما قاله الشاب، فقال لِمَ؟ فقلت: لأني إذا كنت في حال الجفا ثم نقلني إلى حال الوفا، فذكر الجفا في وقت الوفا خفا.

قال الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله كلامًا معناه أن كلام السري رحمه الله أتم من كلاميهما، لأن كلام السري يدل على مبادئ المقامات، وكذلك القدوة يلزم بالكلام على مقامات العباد بداياتها ونهاياتها، وإنما تأتي النهايات من البدايات، والجنيد لم يكن في ذلك الوقت بمقام أن يكون قدوة، كذلك

=

=

الشاب فتكلما على أحوال أهل الارتقاء في نهاياتهم، فكلامهما يخص حالهما وكلام السري مَهيعٌ موروردٌ للسالكين، والله أعلم.

وقال السري: كنت أطلب رجلاً صدّيقًا مدة من الزمان، فمررت ببعض الجبال فإذا بجماعة زمنى وعميان ومرضى، فسألت عن حالهم؟ فقالوا: هنا رجل صدّيق يخرج في كل سنة مرة واحدة يدعو لهم فيجدون الشفاء، فصبرت حتى خرج ودعا لهم فوجدوا الشفاء، فقفوت أثره وتعلقت به وقلت له: بي علة باطنة فما دواؤها؟ فقال: حِلّ يا سري عني فإنه غيور لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه.

قال علاّن الخياط: كنت يومًا جالسًا مع السري السقطي فوافته امرأة فقالت له: يا أبا الحسن أنا في جوارك، وقد أخذ ابني الطائفُ البارحة، وأنا أخشى أن يؤذيه، فإن رأيت أن تجيء معي أو تبعث إليه.

قال علاّن: فتوقعت أن يبعث إليه! فقام وكبّر وطول في صلاته. فقالت المرأة: يا أبا الحسن الله الله فيّ هو ذا أخشى أن يؤذيه السلطان. فسلم وقال لها: أنا في حاجتك.

قال علان: ورأيت منه أعجب من هذا، وذاك أنه اشترى مرة كُرّ لوز بستين دينارًا، وكتب ثلاثة دنانير ربحة: فصار اللوز بتسعين فأتاه الدلال وقال له: إن ذلك اللوز أريده، فقال: خذه، قال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين دينارًا. فقال له الدلال: إنه قد صار الكُرّ بتسعين دينارًا، فلا الدلاّل اشترى منه ولا سري باعه منه. قال علان: فكيف لا يُستجاب من هذا فعله؟.

قال السري: صحبت رجلاً من سَر يعرف بالواله، مدة سنة، فلم أسأله عن مسألة، ثم قلت له يومًا: إيش المعرفة التي ليس فوقها معرفة؟ فقال: إن تجد الله أقرب إليك من كل شيء وأن تمتحي من سرائرك وظواهرك كل شيء غيره، فقلت له: بأي شيء يوُصَلُ إلى هذا؟ فقال: بزهدك فيك وبرغبتك فيه.

قال سري: فكان كلامه سبب انتفاعي بهذا الأمر. وقال إن إبليس قال: زينت لأمة محمد ﷺ الذنوب فقطعوا ظهري بالاستغفار، فغويتهم بالأهواء فإنها ذنوب يقاتلون عليها ولا يستغفرون منها.

وكان للسري تلميذةٌ: وكان لها ولد عند المعلم في الكتّاب، فبعث به المعلم إلى الرحا فنـــزل الفتى إلى الماء فغرق، فجاء المعلم إلى سري فأخبره بذلك. قال سري: قوموا بنا فذهبوا إلى أمه فجلسوا عندها، وتكلم عليها سري في علم الصبر. ثم في علم الرضا قالت له: يا أستاذ وإيش تريد بهذا؟ فقال

=

=

لها: إن ابنك قد غرق، فقالت: ابني؟. قال لها: نعم، قالت إن ربي ما فعل هذا، ثم عاد سري في كلامه في الصبر والرضا مثل ذلك. فقالت: قوموا بنا فقاموا معها حتى انتهوا إلى النهر، فقالت: أين غرق؟ قالوا: هاهنا فصاحت: ابني محمد! فأجابها: لبيك يا أماه، فنــزلت فأخذت بيده ومضت به إلى منــزلها، فالتفت سري إلى الجنيد، وقال: إيش هذا؟ فقال: جنيد: أقول؟ فقال: قل. قال: إن المرأة مراعية لما لله عليها، وحكم من كان مراعيًا لما لله عليه أن لا تحدث حادثة حتى يعلمه بذلك، فلما لم تكن حادثة لم يعلمها بذلك، فقالت: إن ربي ما فعل هذا أو كلامًا هذا معناه.

وقال ابن أبي الورد: كان سري يأمرنا بالعزلة والوحدة وترك مجالسة الناس، فاعتل فعدته عيادة السنّة يعني بين كل ثلاثة أيام، فنظرت في وجهه، فرأيت على لسانه شيئًا، فَهَمَلَتْ عيناي وسقط من دموعي على وجهه، ففتح عينيه ونظر إلي، فقلت له: رحمك الله أوصِ بشيء أحفظه عنك! فقال: احذر ثم احذر أن تعرف الأشرار ولا تشتغل عن الله بمجالسة الأخيار، وكان ذلك آخر كلامه.

وحكى أبو القاسم الجنيد قال: بت ليلة عند السري ﷺ، فلما كان بعض الليل، قال لي: يا جنيد أنت نائم؟ قلت: لا، فقال: الساعة أوقفني الحق ﷻ بين يديه، وقال لي: يا سري خلقت الخلق كلهم، فادعَوا محبتي، فخلقت الدنيا فاشتغل من كل عشرة آلاف تسعة آلاف عني بالدنيا، وبقي ألف فخلقت الجنة، فاشتغل بالجنة عني من الألف تسعمائة، وبقي مائة فسلطت عليهم شيئًا من البلاء، فاشتغل عني من المائة تسعون بالبلاء وبقي عشرة، فقلت لهم: لا الدنيا أردتم ولا الآخرة رغبتم ولا من البلاء هربتم، فماذا تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد، فقال: إني أنــزل عليكم من البلاء مالا تطيقون ولا تحمله الجبال الرواسي فتثبتون لذلك، فقالوا: أليس أنت الفاعل بنا قد رضينا، بك نحمل وفيك نحمل مالا تطيقه الجبال، فقال لهم: أنتم عبيدي حقًا رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

وقال ابن مسروق: سمعت سريًا يقول: بينما نحن نسير في بلاد الشام إذ ملنا عن الطريق إلى ناحية جبل عليه عابد فجئنا إليه فوجدناه يبكي، قال سري: فقلت له: ما أبكى العابد؟ فقال: ومالي لا أبكي وقد توعرت الطرق، وقل السالكون فيها، وهجرت الأعاليّ، وقل الراغبون فيها ورفض الحق ودرس هذا الأمر فلا أراه إلا في لسان كل بطال ينطق بالحكمة ويفارق الأعمال، وقد افترش الرخص وتمهد التأويل واعتل بذلك العاصون، ثم صاح صيحة، وقال: كيف سكنت قلوبهم إلى روح الدنيا وانقطعت عن روح ملكوت السماوات؟ ثم ولى صارخًا وهو يقول:

=

=

واغمّاه من فتنة العلماء، واكرباه من حيرة الأدلاء، وجال جولة ثم قال: أين الأبرار من العباد، بل أين الأخيار من الزهاد؟ ثم بكى، وقال: شغلهم والله طول الوقوف، وهمّ الجواب عن ذكر الجنة والنار وذكر الثواب، ثم قال: أنا استغفر الله من شهوة الكلام. تَنَحَّوا عني، فخليناه وهو يبكي وقد ملئنا منه همًا وغمًا.

وقال الجنيد: سمعت سريًا يقول: بدوت يومًا من الأيام وأنا حدث فطاب وقتي وجن علي الليل وأنا بفنـــاء جبل لا أنيس به فناداني في جوف الليل مناد: لا تدور القلوب في الغيوب حتى تذوب النفوس من مخافة فوت المحبوب. قال: فتعجبت، وقلت: أجَنِّيٌّ يناديني أو إنسي؟ فقال: بل جني مؤمن بالله ومعي إخواني، قلت: فهل عندهم ما عندك؟ قال: نعم وزيادة. قال: فناداني الثاني منهم: لا تذهب من البدن الفترة إلا بدوام الغربة. قال: فقلت في نفسي: ما أبلغ كلامَهُم، فناداني الثالث منهم: من أنس به في الظلام نشر له غدًا الأعلام. قال: فصعقت، فما أفقت إلا برائحة الطيب، فإذا أترجة على صدري فشممتها، فأفقت فقلت: وصيةً رحمكم الله! فقالوا جميعًا: أبى الله إلا أن تحيا به قلوب المتقين، فمن طمع في غير ذلك فقد طمع في غير مطمع ، ومن اتبع طبيبًا مريضًا دامت علته، ومن اتبع الدليل الحائر رجع وهو كليل، وفقنا الله وإياك. وودّعوني ومضوا وقد أتى علي حين فلا أزال أرى بركة كلامهم موجودة في خاطري.

قال الجنيد: دخلت يومًا على السري، فقال لي: ما أوائل أحوال الصديقين؟ قلت: لا أدري فقال: ثلاثة من أحوال الصديقين: أن يكونوا بما في أيديهم وإخوانهم سواء، ويطالبون نفوسهم بما لله عليهم، وإذا عرض أمران لله فيهما رضا حملوا أنفسهم على أصعبهما وأشدهما، وإن كان فيه تلف نفوسهم.

وقال أبو إسحاق الحُبلي: دخلت على علي بن عبد الحميد الغضايري رحمه الله فوجدته من أفضل خلق الله تعالى، وكان لا يتفرغ من الصلاة آناء الليل والنهار فانتظرت فراغه، وقلت: إنا تركنا الآباء والأمهات والأهل والوطن بالرحلة إليك، فقد تفرغتَ ساعة فتحدثنا بما عندك عما آتاك الله تعالى من العلم، فقال: أدركني دعاء الشيخ الصالح سري السقطي، وذلك أني جئت إليه يومًا فقرعت بابه، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا فسمعته يقول قبل أن يخرج إلي: اللَّهُمَّ من جاءني يشغلني عنك فاشغله بك عني، فما رجعت من عنده حتى جئت على الصلاة والاشتغال بذكر الله تعالى حتى لا أتفرغ إلى شيء سواه ببركة ذلك الشيخ.

=

=

وقال قدس الله روحه: اطلب حياة قلبك بمجالسة أهل الفكر، واستجلب نور القلب بدوام الخوف، والتمس وجود الفكر في مواطن الخوف، وألح في المسالة عند وجل القلوب، وإياك والتسويف، ونافس الأبرار في إقامة الفرض، ونافس المقربين في إخلاص النوافل وترك فضول الحلال، واطلب حلاوة المناجاة بفراغ القلب وجمع الهمم، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، وأكثر الحسنات الحديثات للسيئات القديمات، واستبق الحسنات بقلة التبعات، وسارع في الخيرات، واحذر ما يوجب عليك العقوبات.

قال: التصوف اسم لثلاث معان:

- وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه.

- ولا يتكلم في علمٍ باطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب.

- ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

وقال: أعرف طريقًا مختصرًا قصدًا على الجنة.

فقيل له: ما هو؟ قال: لا تنال من أحد شيئًا ولا تأخذ من أحد شيئًا، ولا يكون معك شيء تعطي أحدًا.

وقال: التوكل: الانخلاع من الحول والقوة، وأربع من أخلاق الأبدال: استقصاء الورع وتصحيح الإرادة وسلامة الصدر للخلق، والنصيحة لهم، وأربع خصال يرفع الله بها: العلم والأدب والدين والأمانة.

وقال: من لم يعرف قدر النعم سُلبَها من حيث لا يعلم، ومن هانت عليه المصائب أحرز ثوابها، وقليل في سَنة خير من كثير في بدعة، وكيف يقل عمل مع تقوى.

وقال: الأمور ثلاثة: أمر بان لك رشده فاتبعه، وأمر بان لك غيه فاجتنبه، وأمر أُشكل عليك فقف عنده وَكِلْهُ إلى الله وليكنِ الله دليلكَ، واجعل فقرَكَ إليه تستغني به عمن سواه.

وقال: لسانك ترجمان قلبك، ووجهك مرآة قلبك، فيبين على الوجه ما يضمر القلب. والقلوب ثلاثة: - قلب مثل الجبل لا يزيله شيء.

- وقلب مثل النخلة أصلها ثابت والريح تميلها.

=

الشجرة معه حتى جاوزت الحائط بعد ما كانت قاصرة منه.

وقال أيضًا: شرط إلباس الخرقة أن يكون الشيخ في قوة وعزم ينـــزع من المريد جميع الأخلاق الرديئة مع الذي يأمره بنـــزعه من القميص والقلنسوة، ويفرغ عليه جميع الأخلاق الحميدة مع إلباسه ما يلبسه من المذكور فلا يسري فيه خُلق رديء، ولا يحتاج إلى صلاح خُلق من الأخلاق.

وهكذا ألبس الشيخ إبراهيم المتبولي[1] قدس سره من الرسول ﷺ يقظة، وألبسها الشيخ عليٌّ الخواص السيد إبراهيم المتبولي كذلك، ولَبَسَهَا الشيخ الأكبر من يد أبي العباس الخضر عليه السلام تجاه الحجر الأسود كذلك، وأيضًا الشيخ الأكبر ألبسها المريدين كذلك فما

=

- وقلب كالريشة تميل مع الريح يمينًا وشمالاً.

وقال: تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها، فيقال يا أمة موسى، ويا أمة عيسى، ويا أمة محمد ﷺ، غير المحبين لله فإنهم ينادَون: يا أولياء الله هلموا إلى الله، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحًا.

وقال: خير الرزق ما سلم من الآثام في الاكتساب والمذلة والخضوع في السؤال والغش في الصناعة، وإتيان ألد المعاصي. ومعاملة الظلمة.

وقال: وأحسن الأشياء خمسة: البكاء على الذنوب، وإصلاح العيوب، وطاعة علام الغيوب، وجلاء الرين من القلوب، وأن لا يكون لما تهوى ركون.

وقال: لو أن رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله من الأشجار عليها كلما خلق الله من الأطيار يخاطبه كل طير منها بلغة، وقال له: السلام عليك يا ولي الله، ثم سكنت نفسه إلى ذلك لكان في يدي نفسه أسيرًا.

توفي ببغداد في سنة إحدى وخمسين، وقيل: سبع وخمسين ومائتين، وقبره بالشونيزية ظاهر يزار.

وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (١٠/١١٦، ١٢٦) الرسالة القشيرية (ص١١٢)، وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٢٥١)، وصفة الصفوة (٢/٢٠٩، ٢١٨)، وتاريخ بغداد (٩/١٨٧، ١٩٢) والبداية والنهاية لابن كثير (١١/١٣)، ومرآة الجنان (٢/١٥٨)، وشذرات الذهب (٢/١٢٧)، وطبقات الشعراني الكبرى (١/٨٦)، والوافي في الوفيات للصفدي (١٨/٢١٢٩).

(١) كان من أصحاب الدوائر الكبرى في الولاية، ولم يكن له شيخ إلا النبي ﷺ ، وانظر: أخباره ومناقبه العظيمة في الطبقات الكبرى (٢/٧٧)، والأخلاق المتبولية لتلميذه الشعراني سيدنا.

بقي في هذا الزمان لأحد إلباس الخرقة ولا إرخاء العذبة ولا التلقين لأحد لفقد شروطها، وإنما يقصد بها التبرك والدخول في سلسلة سند القول، ومع هذا التبرك بهم بالزهد والتوكل وغير ذلك من عدم النوم وخوف الله تعالى أولى مع أن هذا لازم لذاك، والله يتولى هُدانا وهداك.

٦٥- العوالم العلوية صور المعاني الروحية والعوالم السفلية صور القوالب الجسمية.

واعلم أن الذات والمعنى هو الحق تعالى والعوالم بأسرها صور ذلك المعنى سواء كانت علوية أو سفلية حسية أو عقلية مجردة أو غير مجردة، وإليه أشار الشيخ قُدِّس سرُّه بقوله: (**العوالم العلويّة صور المعاني الروحية والعوالم السفلية صور القوالب الجسمية**) أي: العوالم كلها علوية أو سفلية صورة في طور الكشف والتحقيق، لكن العوالم العلوية سواء كانت الحقائق الوجوبية المسمَّاة بالأسماء الربوبية أوالحقائق الروحية العقلية صور المعاني الروحية أي: النورية، والعوالم السفلية سواء كانت حقيقة أو إضافية صور القوالب الجسمية، هذا إذا كانت الصورة بمعنى النوع والصفة، وأمَّا إذا كانت بمعنى الشكل فالأمر بالعكس؛ لأن كل سافلٍ صورة لعالٍ، فالقوالب الجسمانية أي: ما في عالم الشهادة صورة لما في عالم المثال وهو كالروح له، وما في عالم المثال صورة ما في عالم المجردات أي: النفوس والعقول وهو صورة ما في عالم الأرواح، وهو صورة ما في عالم الأسماء والصفات، وهو صورة الشؤونات الذاتية المستخبئة في غيب الذات استخباء اللوازم في الملزوم مثل استخباء النصفية، والرباعية، والخماسية إلى مالا يتناهى لا كاستخباء الدهن في أجزاء السمسم، أو كاستخباء المظروف في ظرفه؛ لأنه مستلزم للفساد ومستلزم الفساد فاسد فتأمله.

لكن بقى أن المراد (**بالعلوية**) حضرات الأسماء، والصفات الظاهرة بتلك المظاهر، والمراد (**بالسفلية**) الأولى عالم الأرواح؛ لأنها بالنسبة إلى الأسماء صارت سفلية، وإن كانت بالنسبة إلي ما تحتها علوية، والمراد بالثانية عالم المثال؛ لأنه سفلية إضافية أيضًا، والقوالب الجسمانية هي السفلية الحقيقية، وقل: من بحث الصور في شرح قوله:

(لما سقطت نقطة سر الحقيقة) إلى آخره، والمقصود من هذا الكلام: إنه ما في الموجود

المحقق إلا الله وما سواه خيال حائل، وظل زائل، فهويته الغيبية هي التي تشكلت، وتصورت بجميع الأشكال والصور، وما أمره إلا كلمح البصر، والناس كلهم في الخطر إلا من صار كالتراب والحجر، وخرج من صفات البشر، فإنه يعرف بما عليه الأمر، ولـمَّا أشار إلى الأبدال سابقًا، فالسامع طلب في نفسه أن يسمع رمزًا في وصفه لاطمئنان قلبه، فساعده الوقت وطاب وناوله من هذا الشراب، وقال له بأحسن الخطاب على وجه الصواب مشيرًا إلى تقلبهم في الأطوار التي هي منازل الكبار من الكمَّل الخيار.

٦٦- مراتب السبعة الأبدال مظاهر صفات الكمال.

(**مراتب السبعة الأبدال مظاهر صفات الكمال**) المراتب جمع مرتبة وهي الأطوار التي لا يمكن البلوغ إلى درج التحقيق والكمال إلا بقطعها كما مرَّ في شرح قوله:

(لا تصحب من الرجال..) بيان كل واحد منها، و (**السبعة الأبدال**) من إضافة الصفة إلى الموصوف، والعدد إلى المعدود كخمس رجال إن كان لفظ السبعة معري عن (**أل**) التعريف، ومن توصيف العدو بالمعدود إن كان مع حرف التعريف، ويمكن على هذا أن يكون الأبدال بدلاً عن السبعة، أو خبر مبتدأ محذوف، أو مفعول أعني المقدر.

وصفات الكمال أعم من أن تكون ذاتيَّة أو صفاتيَّة أو أفعاليَّة؛ لأن الإنسان الكامل جامع لجميع المظاهر الحقيَّة والمعاني الألوهية، كما أنه جامع للمظاهر الخلقية أو السبع المثاني التي هي أمهات الظهور المشار إليها بقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ [الحجر:٨٧].

قال أهل الحق: السبع المثاني الصفات السبع، وهي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، وقال بعضهم: الجود والقسط بدل السمع والبصر.

وقال بعضهم: العقل والتدبير بدل القدرة والإرادة.

وقال بعضهم من أهل الظاهر: السبع المثاني فاتحة الكتاب؛ لأنها سبع آيات وتثني في كل صلاة، وأنها قسمت قسمين: قسم لله تعالى وقسم للعبد على ما ورد به الحديث قال النبي ﷺ: «**يقول الحق ﷻ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها**

لعبدي ولعبدي ما سأل[1]».

وهـــذا قـــول أكثر المفسرين، وبه قال عمر بن الخطاب، وعليٌّ بن أبي طالب، وابن مســـعود، وأبو هريرة، والحسن وأبو العالية، ومجاهد، والضَّحاك، وسعيد بن جبير، وقتادة رضـــي الله عنهم وقيل: إن المراد الكرمات السبع، وهي الهداية والولاية والنبوة والشفقة والـــرحمة والمودة والأُلفة والنعيم المقيم والوصلة بلا فرقة، فالشفقة والرحمة واحد، والمودة والأُلفة كذلك فالمجموع سبعة أنزلها الله إلى الرسول ﷺ و أرسلها إليه و أكرمه بها وهداه عليها والقرآن العظيم.

قال الشيخ الأكبر قدس سره: «المراد به الجمع الوجودي وهو أفرده تعالى عنه وجمعه به تعالى».

وقال الشيخ الجيلي عبد الكريم قُدِّس سرّه: «المراد به ما يرجع إليه السبع المثاني فكانت الألوهية».

وقيل المراد به: صفتي الخاصة والعامة أي: عرفناك معاني الصفات العامة والخاصة، وقيل: المراد به أبناء الربوبية وحقائق الأُلوهية أي: أتيناك صفات الربوبية والألوهية وقيل المراد: خلقه القرآنية كما قال عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن خلقه: «**كان خلقه القرآن**[2]».

وعند أهل الحق في أي مرتبة من مراتب الوجود إذا طلبت السبع المثاني والقرآن العظيم، تجدهما مكشوفة واضحة.

ومن ثم قال الشيخ الأكبر خاتم الولاية الخاصة المحمدية قدس الله روحه:

أَنَـــا القُـــرآن والسَّـــبعُ المـــثَانِي رَوحُ الـــرُّوُحُ لا رَوحُ إلا وإِنـــي
فُـــؤَادِي عِـــندَ مَشْـــهُودِي مُقِيمٌ يُشَـــاهدُه وعِـــندكم لِسَـــانِي

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (٢٩٦/١)، وأبو داود (٢٧٦/١)، والترمذي (٢٠١/٥)، والنسائي في الصغرى (١٣٥/٢).

(٢) رواه أحمد في المسند (٩١/٦).

فحاصل كلام السابق أن المراتب السبعة، وهي الأطوار والمنازل التي لا بد من حصولها لكل كامل حتى يبلغ درجة التحقيق، ويشهد عليه ألف صديق بأنه زنديق التي هي حاصلة للأبدال الذين عددهم سبعة مظاهر لصفات الكمال أي: المعاني الكمالية أي: مظاهر لجميع الكمالات الإلهية، فكل طور مظهر لبعض الكمالات وجميع الأطوار مظهر لكل الكمالات فالأبدال، بل كل كامل مظهر جامع لجميع المظاهر الحقَّية والخلقية، ولهذا وجود الكامل محيط بجميع المعاني الألوهية تفصيلاً وإجمالاً، فمن شهده فكأنما شهد الحق المطلق؛ لأنه حي بحياته تعالى وعالِم بعلمه، ومؤيد بإرادته، وقادر بقدرته، ومتكلم بكلامه، وسامع بسمعه، وبصير ببصره، وجواد بجوده، ومقسط بقسطه ونحو ذلك من سائر الصفات، فهو متخلق بأخلاق الله، وفيه جميع كمالات الله تعالى، وهو الـمُراد حقيقة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**من رآني فقد رأى الحق، ومن عرفني فقد عرف الحق**[1]»، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

٦٧- طرق الحق لا تُحصى بالإكثار، وأقربها إليه الذلّ والانكسار.

ثم ذكر الشيخ قُدِّس سرّه ﷺ أقرب الطرق إلى الله تعالى تنبيهًا للسالك المجد الطالب فقال: [**طرق الحق لا تُحصى بالإكثار، وأقربها إليه الذلّ والانكسار**] أي: الطرق التي يسلك السالكون فيها للوصول إلى الحق تعالى من أنواع العبادات، أو الطرق التي بها الوصول إليه تعالى لا تُحصى بالعد بسبب كثرتها وعدم نهايتها؛ لأن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وهي لا تدخل تحت حيطة الإحصاء، والمراد بعدم نهايتها عدم النهاية للإحصاء والعدّ لا في نفسها، فإنها باعتبارها متناهية كما هو الظاهر، وإليه أشار بقوله: (**بالإكثار**)، والمراد بالطُرق الموصلة إلى الحق بعد كون السالك فيها على الصراط المستقيم، وفي الحقيقة ما في الوجود شيء إلا وهو يعبد الحق ومطيع له، وماشٍ إليه كما قال الله تعالى للسماوات والأرض: ﴿**ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت:١١] أي: أهلها وسُكانها.

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٥٦٨)، ومسلم (٤:١٧٧٦).

وقال النبي ﷺ: «**كل ميسر لما خلق لـه**[1]» والكل مخلوق للعبادة قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦].

فهم ميسرون لما خلقوا له، فالكل عباد الله بالضرورة، فصارت الطرق إلى الله مختلفة متعددة لاختلاف مقتضيات الأسماء والصفات وتعددها، ولهذا ظهرت النِّحَلِ وافترقت المللٌ إلى اثنين وسبعين، والأصول منها عشرة الكفار والطبائعية والفلاسفة، والوثنية، والمجوس، والدهرية، والبراهمة، واليهود، والنصارى، والمسلمون والكل من هذه الطوائف عابدون للحق كما ينبغي، لكن من عبده على التقيد بمحدث ومظهر فهو مشرك؛ لأنه نودي إلى الله من مكان بعيد فصار ضالاً شقيًا، فإن طريقه طريق الشقاوة التي هي من الاسم المضل والمنتقم وغير ذلك مما هو ضد الهداية من عبده على الإطلاق فهو موحد؛ لأنه نودي من مكانٍ قريب فصار سعيدًا؛ لأن طريقه طريق السعادة التي هي من الاسم الهادي، فالدَّاعي لهما هو الله تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿**مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**﴾ [هود:٥٦]، فالكل بهذا المعنى على صراط مستقيم؛ لأن الرب على صراط مستقيم أي: موصل من يمشي عليه إلى غايته المطلوبة سعادة كانت أو شقاوة، ولكن ليس على الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة من غير شقاوة وتعب إلا المسلمون، ومن هنا يعلم فائدة تقييد الصراط المستقيم في الفاتحة:بمن أنعم عليهم من غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وأمَّا العارفون فهم على صراط الله الذي هو أفضل وأخص من الصراط المستقيم، فعلى التحقيق يجوز أن يُراد من الطرق مطلق الطريق سواء كان الماشي عليها مسلمًا أو كافرًا يهوديًا أو نصرانيًا وغير ذلك، فمنها بُعدي، ومنها قريب، ومنها أبعد، ومنها أقرب، فمتى كانت القيود أكثر يكون الطريق أبعد، ومتى كانت أقل يكون بعيدًا، ومتى كان الإطلاق فهو قريب وإن كان أتم فهو أقرب، فافهم الإشارة ولا تقف عند ظاهرة العبارة حتى لا تفوتك الغاية.

وقال بعضهم: الطرق إلى الله محصورة في أنواع ثلاثة مع كثرة عددها.

الأول: طريق أرباب المعاملات بأنواع العابدات من الصوم والصلاة وتلاوة القرآن

---

(١) تقدم تخريجه.

والحج والجهاد وإيتاء الزكاة.

والثاني: طريق أصحاب المجاهدات والرياضات والمكابدات.

والثالث: طريق السائرين إلى الله تعالى والطائرين به.

فالواصل بالأول أقل قليل، وبالثاني نادر، وبالثالث أكثر في البدايات من غيرهم في النهايات؛ لأنه طريق أهل المحبَّة السالكين بالجذبة الإلهية التي توازي عمل الثقلين، وبناء هذا الطريق مبني على الموت الإرادي المشار إليه بقول الرسول ﷺ: «**موتوا قبل أن تموتوا بالإرادة قبل موتكم الطبيعي**[1]».

وهذا الموت لـــه أربعة أركان كل منها موت برأسه.

فالموتات عندهم أربعة سوى الموت الطبيعي، وتلك الأركان: الجوع، والصبر، ومخالفة النفس، والقناعة، وقد مرَّ هذا وأسماء الأركان الأربعة، ويدخل فيها التوبة والزهد والتوكل والعزلة وملازمة الذكر والتوجه إلى الله بالكلية والمراقبة والرضا، فلا حاجة إلى جعلها أصولاً للموت، فالطريق الثالث عند ذلك البعض أقرب من الأول والثاني، وهو الذي أشار إليه الشيخ ﷺ بقوله: (**وأقربها الذلّ والانكسار**) أي: أقرب الطرق إلى الله تعالى الذلّ بأن يخفض جناح الذل أي: الشفقة والرحمة لجميع خلق الله تعالى، ولا تكون عنده صعوبة أصلاً والانكسار والنقص في المطالب والمرادات، ولا يرى غيره شرًا منه، ولا يكون عنده مال ولا حال ولا قال، كما قاله أبو يزيد البسطامي قدس سره العزيز: (فالذل والانكسار وأقرب الطرق إلى الله تعالى من كثرة الصوم الصلاة خصوصًا بالليل، والناس نيام، والحج، والجهاد، وتلاوة مجيد الكلام، وتقليل الطعام، والكلام، والمنام وغير ذلك من أنواع المجاهدات والرياضات والمكابدات).

قال الأستاذ الكبير العالم النحرير شيخ الصغير والكبير القطب الصمداني السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره وأفاض علينا من بركات فتوحه: «نظرت في الطريق فرأيت الازدحام على جميع الأبواب إلا باب الذل والانكسار فما كان عليه أحد فاخترته لنفسي، فدخلت منه فلما التفت إلى خلفي رأيت الناس كلهم بعيدًا عني من ورائي،

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/١٦٦٦).

وسبقت الكل لتركي الكل».

وقال أبو يزيد البسطامي: «وقفت على العابدين فلم أر لي معهم قدمًا، فوقفت مع المجاهدين فلم أر لي معهم قدمًا والمصلين والصائمين والمخلصين والمحسنين والصالحين وغير ذلك من المقامات، فلم أر لي مع هؤلاء فقلت: يا رب فكيف الطريق إليك؟ فقال لي: أترك نفسك وتعالى تجدني».

وترك النفس يحصل الذل والانكسار منه؛ لأن المقصود من ترك النفس ترك حظوظها في الأولى والعقبى، فالحق تعالى اختصر لـــه الطريق بألطف كلمة واختصرها، وقدس هذا في بيان بعض أوصاف الشيخ فيما سبق، ومن أقرب الطرق أيضًا صدق اللسان؛ إذ فيه نجاة الإنسان فمن لزمه لا يكون له مانع في الطريق ويبلغ درجة التحقيق.

٦٨- لا تصحب من الإخوان إلا صادق اللسان.

فاحفظ أيها السالك لسانك عما يوقعك في الهلاك، ولا تتكلم إلا بالصدق وإن كان فيه هلاكك، ولا تصحب إلا مع الصادق من الأخوان، كما قال الشيخ قدس سره:

(**لا تصحب من الإخوان إلا صادق اللسان**) أي: لا تعمل أنت أيها السالك الصحبة، ولا تجلس، ولا ترافق أحدًا من الإخوان إلا من هو صادق اللسان، أو لا تصحب إلا صادق اللسان المعدود الكائن من الإخوان، و (**من**) للصلة أي: من بين الإخوان لا تصحب إلا صادق اللسان وذلك؛ لأن أكثر الآفات في جميع الأحوال من كذب اللسان وصدقه موجب لصدق الجنان وكذبه موجب لكذبه، وصدق الجنان هو السبب الكامل للوصول إلى الملك المنّان، وكذبه موجب لبُعدك عن الرحمن وورد:

«**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**[1]».

والخير لا يكون إلا صدقا، وقال الغزالي رحمه الله تعالى: «الجوارح كلها أجناد اللسان وأتباعه، وهو سلطانها وأميرها، والرعية تابعة لأميرها بحكم الناس على دين ملوكهم،

(١) رواه البخاري في الصحيح (٥/٢٣٧٥)، ومسلم (٣/١٣٥٢)، والترمذي في السنن (٤/٦٥٩)، وأحمد بن حنبل في المسند (٤/٣١).

فصلاح الأمير صلاح الرعية، وفساده فسادهم، وكما أن الجند يروح ويسلم على الأمير كل يوم وينتظر أمره فيه، فكذا الأعضاء تسلم على اللسان كل يوم، وتنتظر أمره فتقول: الأعضاء للسان إن تصلح نصلح، وإن تفسد نفسد».

وهذا واقع وشاهد، فإنه ربما يقتل صاحب اللسان بكلمة واحدة تكون كذبًا، أو ينهب ماله، أو يضرب، أو يخرج من المجلس، وقد يصل في السير إلى العرش وفوقه فينـزل من درجته، وتسقط رتبته بكذب واحد ومن القلب عرق إلى اللسان، وكذا الجوارح الباقية، ويتصل بها ففساده فسادها، وصلاحه صلاحها على ما ورد:

«إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد ألا وهي القلب[1] » و (ألا) في الحديث استثنائية إن كان لفظ إن نافية بمعنى ما أي: ما في جسد ابن آدم إلخ وتنبيهية إن كان مُقالة للتأكيد، وحقًا يكون (ألا) بالتخفيف وفتح الهمزة، وكذلك يلزم من صلاح الأعضاء صلاح القلب، ومن فسادها فساده، فالهوى إذا مال إلى السفل تفسد الجوارح، وإن فسادها يفسد القلب، وإذا مال إلى العلو وتوجهت إلى العبد سابقة العناية الأزلية صلح القلب، ومن صلاحه يلزم صلاح الجوارح، فالأمر هنا دوري كل من القلب والجوارح موقوف في الصلاح، والفساد على الآخر، فهذا طلسم من طلاسم الحق، وموضع من مواضع الحيرة لا يحله أحد، ولا يخرج منها إلا بعناية الحق تعالى، ومنها تربية النفس ومعرفتها، فإن معرفتها مطلوبة؛ لأنها وسيلة لمعرفة الحق وهي مطلوبة، فوسيلة المطلوب مطلوبة، ومعرفتها موقوفة على تربيتها، وتربيتها موقوفة على معرفتها فافهم.

لكن هذا مبني على اعتبار الظاهر مع الباطن، وإلا فالصلاح والفساد من القلب فقط؛ لأنه الأصل، والظاهر تابع للباطن وعليه ظاهر الحديث، فمن حيث الإفاضة فالحكم للباطن، ومن حيث الانصباغ فالحكم للظاهر، وفي الحقيقة الحُكم للظواهر، ومن حيث أعيانها الثابتة واستعداداتها الأزلية سواء كان الحكم على أنفسها أو لا، والحاصل أن الحكم بخصوصية كل حكم وأثر للمظاهر من حيث الأعيان، وعلى المظاهر من حيث الوجود

(١) رواه البخاري (١/٢٨)، وابن حنبل في المسند (٤/٢٧٠)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/٢٤٦).

الخارجي، ولا حُكم للحق إلا من حيث الإفاضة، ولا حكم عليه إلا من حيث ظهوره في المظاهر فإنه مطلق، ولا حكم للمطلق بالخصوصيات، كما مرَّ بحث هذا في قوله:

(ما عرف الحق عارفٌ إلا بما فيه منه) وانظر إلى النخلة والنواة والبيضة والدجاجة، فالنخلة من النواة وهي من النخلة، والبيضة من الدجاجة وهي من البيضة، لكن الاعتبارات مختلفة والقيود والتشخصات مميزة لبعضها عن بعض، فمن صفى قلبه وارتفع حجابه وانفتحت بصيرته يبلغ مطلوبه، فلنرجع إلى منا كنا بصدده.

فالشيخ قُدس سره نهى السالك عن مصاحبة الإخوان غير صادق اللسان، ففيه نهى مصاحبة غير الإخوان، وفيه طلب مصاحبة الأخ الصادق اللسان، والمراد **(بالإخوان)** إخوان الطريقة فلا تصحب غيرهم مطلقًا؛ لأنهم يمنعونك من السلوك والسير إلى الله؛ لأنهم قاعدون وأنت سائر، ومصاحب القاعد قاعد، واصحب الإخوان؛ لأنهم سائرون مثلك فلا يمنعونك من السير؛ لأن مُصاحب السائر سائر، ولكن لا تصحب منهم إلا من هو صادق اللسان؛ لأن غيره يمنعك من الوصول، وإن لم يمنعك من السير، والمصاحبة لها تأثير شديد في النفوس البشرية؛ لأنها للطافتها يتلون بلون مقابله ومصاحبه كتلون الماء بلون إنائه، ولهذا النظر إلى أهل الصلاح يورث الصلاح، وإلى أهل الفساد يورث الفساد، وإلى أهل السرور يورث السرور، وإلى أهل الحزن يورث الحزن، وهكذا سائر الأوصاف من المحامد والمذام، ولكن معرفة هذا والعمل به تحتاج إلى الفتح الإلهي الحاصل لأهل الله المختبئ في خزانة الله، والفتح الإلهي لا يكون بحسب جري العادة إلا بالفناء في بعد وستر عن كل شيء.

٦٩- الفتوح الآلي للفاني في عَزلي.

كما أشار إليه الشيخ قدس سره بقوله: (الفتح) وفي أكثر النسخ (الفتوح الآلي للفاني في عزلي)، **(فالفتوح)** إمَّا جمع فتح أو مفرد بمعنى الفتح للمبالغة، فكان في كل فتح فتوحات، و **(العزليّ)** بمعنى العزلة والياء للنسبة، وفي بعض النسخ للفاني عن لي وإنيّ وهو ظاهر لا حاجة له إلى البيان أي: الفتوحات الإلهية حاصلة للسالك الذي فنى في بعده، وعزله عن الخلق بأن فنى عن الأشياء وبعد عنها بالاعتزال، وفنى في هذا الفناء أيضًا بأن لا يكون له شعور بِبُعده واعتزاله؛ لأن فتح الباب من الظاهر يمنع فتح الباب من الباطن، فلا

يُفتح باب الباطن إلا إذا سدَّ الباب الظاهر، كما إذا كان لرجل مكان يقعد هو فيه، وله باب يدخل منه إلى الحرام وباب إلى الخراج، فإذا فتح الباب الخارج يسد الباب الداخل فيأتي إليه الأجانب، وإذا سدَّ الباب الظاهر يفتح الباطن فيدخل إليه المحارم من أهله وأولاده وأقربائه وما سوى الذات ظاهر أو كالظاهر في كونه حاجبًا، فلا يجوز أن يقف السالك عند غير الذات ويطلبه ويرضى به، وإلا يُمنع من الوصول والحصول؛ لأنه مرَّ سابقًا:

(إن مَن حصَّل الذات فقد حصَّل كل شيءٍ، ومن فاتته فاته كل شيء)، فعلم أنه لا تحصل منازل القربات إلا لمن كان طالبًا للذات.

٧٠- لا يصل منازل القربات إلا مَن كان طالبًا للذات.

على ما قاله الشيخ قدس سره: (**لا يصل منازل القربات إلا من كان طالبًا للذات**) أي: لا يمكن الوصول إلى منازل القربات أي: المنازل التي بها التقرب إلى الحق تعالى، وهي منازل القرب، والتمكين إلا لمن كان طالبًا للذات، وينقطع عن طلب ما سوى الذات حتى عن الدرجات والمقامات والمكاشفات، بل عن طلب الوصول إلى الذات أما الدنيا ومراتبها؛ فلأنها أقبح خلق الله عند الله؛ لأنه منذ خلقها ما نظر إليها وورد:

«**لو كان لها عند الله قدر مقدار جناح بعوضة لما أعطى منها شربه ماء إلى الكفار**[1]»، والحق تعالى أعظم وأجل أن يطلب منه الأقبح، وأمَّا الآخرة؛ فلأن طالبها عامل لنفسه فيرى أعماله وجزاء أعماله، فيعمل للجزاء لا لله من حيث استحقاقه الذاتي، وأمَّا المكاشفات والمقامات؛ فلأنها ما سوى الحق، وفيها أداء حظوظ النفس مع أنها لا تُقصد إلا لأجل الدنيا، فحقًا تكون من الدنيا، وإن قصدت لا لأجلها، فلا يكون القاصد عبدًا صرفًا لله، وإذا لم يكن عبدًا صرفًا له تعالى لا يكون قلبه محلاً للأسرار، فلا نكون له إلا مقام الأبرار، فيكون شربه ممزوجًا لا صافيًا، والشارب للمزوج ممزوج، وأيضًا طلب غير الذات لا يخلو أن يكون مشوبًا بالعلل والأغراض، فلا يصح من العبد إلا طلب الذات بالذات من الذات للذات، فالعارف التام المعرفة لا يكون وقوفه إلا معه تعالى أبدًا، ولا

---

(١) رواه الترمذي (٤/٥٦٠)، و ابن ماجة (٤/٥٦٠)، والحاكم في المستدرك (٤/٣١٤) بنحوه.

يطلب غيره؛ لأنه لا يرى إلا إياه، فلا يجعل ما عنده من الكشف والكرامات سببًا لحصول الجاه والمنصب في الدُّنيا لعلمه بالله ومراتبه، وظهوره في المظاهر كلها الدُّنياوية والأخروية، فليس مقصده إلا الذات ففني في الله، وبقي بالله، وترك الكل للكل، وأمَّا السالك الحقيقي فيصرف همَّته في الأمور الأخروية وأحوالها، ويعد ما عداها مما حصل له من الأمور الدنيوية مكرًا واستدراجًا، وأما الغيْر الحقيقي فتعلقت همَّته بالأمور الدنيوية، فهذا الرجل نصيبه عند الله ما يطلبه منه تعالى، ولا نصيب له في الآخرة وهو فيها من الخاسرين؛ لأنه تعالى أعطاه ما هو قصده في الدُّنيا، فيكون في الآخرة من الخاسرين، فتأمل قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾ [الشورى:٢٠].

وورد: «**نية المرء خير من عمله ولكل امرءٍ ما نوى**[1]»، فمن يكون همته ونيته في الدُّنيا يكون له شيء منها مما قسم الله له، ولا يكون له نصيب من الآخرة فضلاً عن أن يكون نصيبه الله تعالى، وقد يكون خاسرًا للدنيا والآخرة إذا لم يقسم الله له شيئًا مما يطلبه، ونعوذ بالله من هذا ومن ذاك.

وإن تعلقت همته بالآخرة فيزيد الله له بإعطائه لكل واحد عشرة إلى سبعمائة، وما فوقها إلى ألف وأربعمائة، فيكون له نصيب كامل في الآخرة، ولا يكون نصيبه الحق تعالى، فماذا وجد من فقده تعالى؟ والذي انحصرت همَّته في الله، وما علم إلا الله، وما طلب، وما أراد إلا الله، ولا رأى غير الله فيكون واجدًا لله، ويكون هو تعالى نصيبه فماذا فقد من وجده تعالى؟ فهو الفائز في الدارين بما فيهما ولا يحزنه الفزع الأصغر والأكبر فهو من الآمنين الذين ﴿**لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[البقرة:٣٨]، فأهل الله ليس نصيبهم إلا الله، ومن كان نصيبه الله فكل شيء هو نصيبه، ويؤيد ما ذكر من أن الحق يصير نصيبًا للعبد قوله تعالى على لسان رسوله ﷺ:

«**من عرفني طلبني ومن طلبني وجدني ومن وجدني أحبني ومن أحبني قتلته ومن**

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/٣٤٣)، وذكره المناوي في فيض القدير (٦/٢١٩) بنحوه.

قتلته كان عليَّ ديته ومن كان فأنا ديته[١] ».

وفي قوله: (فأنا ديته) إشارة إلى أن الأشياء كلها تجلياته لمن كان من أهل الأذواق فتأمل، فمعرفة الله تعالى هي الغاية القصوى ولب اللب وهو المطلوب لله تعالى من إبراز الثقلين، كما قال في كتابه المبين: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: يعرفون؛ لأن العبادة لا تصح بدون المعرفة، فهي متقدمة على ما سواها ذاتًا وإن تأخرت حصولاً؛ لأن المتقدم من حيث الحصول العلم العملي، ثم العمل، ثم العلم اللدني، ثم المعرفة التي هي سر العلم، ثم الكشف، ثم الفناء، ثم البقاء، ثم فناء الفناء، ثم بقاء البقاء على ما ذكره الولي الكامل المكمل الشيخ رسلان الدمشقي، فيجب على السالك أن يسعى في الاتِّصاف بها حتى يصير عارفًا، بل على كل أحد، وليس كل عالم عارف، وكل عارف عالم لما عرفت، ولا تكون أنت عارفًا إلا إذا كنت وليًا.

٧١- لا يسمَّى في الحقيقة عارفًا إلا من كان بقدم الولاية طائفًا.

كما قال الشيخ قدس سره: «**لا يسمَّى في الحقيقة عارفًا إلا من كان بقدم الولاية طائفًا**» أي: لا يكون موصوفًا بالمعرفة، وتكون هي حاله، ولا يسمِّي عارفًا أحد من الآحاد إلا من كان هو طائفًا المقامات والمراتب بقدم هي الولاية التي ابتدائها انتهاء السفر الأول الذي هو السفر من الخلق إلى الحق بإزالة التعشق عن المظاهر والأغيار، والخلاص من القيود والأستار، أو يطوف بقدم الولاية حضرات القدس، وبالجملة لا يكون عارفًا إلا وليّ وليس كل ولي عارفًا فبينهما عموم وخصوص مطلق، وقال الشيخ في فصوصه:

«العارف الكامل هو الذي يرى الحق من الحق بأن يكون الرائي هو الحق في الحق بأن يكون المجلي هو الحق بعين الحق لا بعين نفسه بأن يكون ألة الرؤية هو الحق فهذا عارف يعرف الحق بجميع اعتباراته، وإن رأى الحق منه فيه لكن بعين نفسه، فهو ليس بعارف به من وجوه اعتباراته، وإن لم ير الحق لا منه ولا فيه وانتظر أن يراه بعين نفسه في الآخرة، فهو جاهل بما الأمر عليه في نفسه من أن رؤية الحق تعالى في الآخرة تكون بعين الحق لا بعين الرائي».

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال في مواضع أُخرى فيه: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧].

وقال أبو يزيد البسطامي قدس سره: «العارف هو الذي لا يرى في نومه غير الله، ولا في يقظته غير الله، ولا يطالع غير الله».

وسيأتي من الكلام الشيخ قدس سره في هذا الكتاب أن العارف لا يرتقب غير الله، ولا يسمى عارفًا بالله إلا من أبصر الحق وناجاه، وهو موافق لما قاله أبو يزيد البسطامي قدس سره وهذا؛ لأن للمعرفة مراتب الأولى أن يرى الآثار كلها من الفاعل المطلق، والثانية أنه إذا رأى أثرًا من الفاعل المطلق يتيقن بأنه نتيجة آية صفة من صفات الحق تعالى، والثالثة أنه يعرف مراد الحق في كل صفة من صفاته، والرابعة أن يرى صفة علم الله في صورة معرفته، ويخرج نفسه من دائرة العلم والمعرفة بل من دائرة الوجود أيضًا، ولهذا ذكر الشيخ العارف في مواضع متعددة بأنواع مختلفة.

وقال أبو إسحاق النهرجوري: «العارف هو الذي لا يتأسف على شيء غير الله إذ لا وقوف له مع غير الله»

وقال إبراهيم الأدهم ﷺ: «العارف هو الذي أكثر خواطره في التفكر والعبرات، وأكثر أقواله في المدح والثناء، وأكثر أعماله في الطاعات والرياضات، وأكثر نظره في لطائف المصنوعات والمقدورات».

وقال الغزالي رحمه الله تعالى: «العارف من عرف الله بأسمائه وصفاته، وصدق مع الله في معاملاته، وطال من القلب في الباب اعتكافه، وصار من كل الخلق أجنبيًا ومن آفات نفسه بريئًا، و من الأخلاق الرديئة نقيًا».

وعلى الكل العارف مشروط بكونه وليًا، ومع هذا لا يكون وليًا إلا بعد العلم التام نقلاً وعقلاً؛ لأنه ما اتخذ الله وليًا جاهلاً ولو اتخذه لعلمه، فالولاية مشروطة بالعلم لكن ينبغي أن يعلم أن المراد بالعلم الذي معه العمل، ويمكن أن يراد العلم اللدني المنتج للمعرفة فتأمل.

ولما كانت للحروف مراتب كالهوية المطلقة، ولها عوالم وأطوار وخواص وأسرار وغير ذلك مما أودع الله فيها من العجائب والغرائب، فهي المظهر لاختلاف الأشكال والمباني إذ منها النظم، ومنها النثر، ومنها الحكم والنهي، ومنها الأمر .

٧٢- الحروف خزائن الله المخفية، فمن شاهدها تصرَّف في العلوية والسفليَّة.

فلهذا أشار إليها وبين ما فيها على وجه الإجمال الشيخ قدس سره فقال:

(**الحروف خزائن الله المخفية، فمن شاهدها تصرَّف في العلوية والسفليَّة**) الحروف من حيث ما أودعه الله تعالى فيها من الخواص والأسرار خزائن الله تعالى وكنوزه المخفية عن العوام؛ لأنها لفظية أو رقمية أو خيالية، وكل منها تبرز الحقائق كما تبرز المعاني في القلوب، بل هي أصل الحقائق المكتوبة في اللوح المحفوظ؛ لأن التي كتبها القلم في اللوح لا بد أن تكون حروفًا، ولو على صورة غير هذه الحروف الرقمية حتى قرئت؛ لأنها تقرأ ولو بالمعنى فلا يخرجها ذلك عن كونها حروفًا، ولا شك أن الحروف أصل المعاني الموضوعة في اللوح، فلهذا صارت من كنوز الحق تعالى، بل هي أكثر كنوز الله تعالى، فمن شاهد الأسرار المودوعة فيها أو شاهد الحروف بأنها خزائن الله تعالى تصرف بالحروف في العوالم العلوية والسفلية؛ إذ ليس شيء منها خارجًا تحت حكمها، وإنما محل ومرأى يظهر فيها الأسرار الإلهية إلا أن السر الإلهي له في كل طور من أطوار الحروف حكم مخصوص، ومشهد منصوص يعرفه العارف بمراتب الحروف، وعوالمها، وأطوارها، وخواصها، وما أودع الله فيها من العجائب والغرائب.

اعلم أن الحروف عند أهل الحقيقة أطوار حروف حقيقية، وهي الأسماء والصفات الإلهية، فإنها التي أظهرت اختلاف صور الأشكال الخلقية والأوضاع الكونية، وحروف عاليات، وهي المعلومات المسمَّاة بالأعيان الثابتة في الأزل في العلم الإلهي، وحروف روحية، وهي الأرواح النورية التي أظهر الله تعالى بها هذا الوجود كما أُظهر للكمالات الحروف المرقومة، وحروف صورية وهي أشخاص العالم الكلي وجوارح الإنسان بالحكم الجزئي، وحروف معنوية وهي الحركات والسكنات لتلك الأشخاص، فإنها تنشأ منها حروف يتركب منها كلمات مناسبة لحال ما قام به الحركة أو السكون مثل الإنسان، فإنه في حال القيام تحصل منه صورة الألف، وفي حال النوم تحصل صورة الباء، وفي حال القعود صورة الدال، وفي حال الركوع صورة اللام إلى غير ذلك، فمن كان صاحب هذا العلم يتصرف بالحركات الجسمية كما يتصرف بالحروف اللفظية وحروف حسية أي: مدركة بحس السمع والبصر، فالأول لفظية، وهي ما تشكل من قرع الريح الخارج من

الحلق على مخارج الحروف، فإنها لا تدرك بالبصر بل بالسمع، والثاني مرائية بالبصر، وهي الرقمية أي: المكتوبة، وحروف خيالية، وهي صور الحروف المتعلقة.

وكل نوع من هذه الأنواع مودع فيه السر الإلهي، ومظهر لظهور الكمال أودعه الله تعالى فيه بتجليه عليه حين خلقه من المحتد المقتضي لذلك بحكم ما لذلك المحتد بين معنى الجمال والجلال، أو الجمع والكمال، فالحروف مطلقًا وطاء، ومظهر لجميع معاني الكمالات وصور معاني الأسماء والصفات، والإنسان الكامل جامع لجميع المعاني والعلوم والخصوصيات، كما أن الحروف المرقومة جامعة لجميع الأسرار، وبيان ذلك أن الأعيان الثابتة حروف كما مرَّ، والنوع الإنساني من جملتها وهو بالنسبة إلى ما سواه من بقية الحروف كالألف الرقمي بالنسبة إلى سائر الحروف، فكما أن الألف يجمع المعاني المودعة في الحروف كلها، وأصلها كذلك الإنسان يجمع المعاني المودعة في أنواع الحروف كلها المذكورة قبيل هذا، ومندرجة فيه معانيها وصورها ليس شيء منها بخارج منه، ولهذا قال الشيخ قدس سره في «الفتوحات المكية» في الإنسان الكامل: «نجوى الله وجوده، ويفنى عن شهود الحق شهوده، أعطى مقاليد البيان فأفصح، فمنه نثر، ومنه نظم، ومنه حِكَم».

وقد أشرنا سابقًا إلى نبذة من معاني هذه الكلمات فارجع إليه تكن ذا بصيرة، فالمراد (**بالحروف**) يجوز أن يكون ما هو أعمُّ من أنواع الحروف كلها، وإن كان المتبادر، والحروف الرقمية لما عرفت، ويجوز أن يراد بها الأسماء والصفات الإلهية فقط، فإن من شاهد أسرار الأسماء، والصفات الإلهية يتصرف في العوالم السفلية والعلوية بطريق أولى؛ لأنها من آثارها وأحكامها، ولما توهم من التصرف جواز إفشاء سر الحروف دفع الوهم.

٧٣- سرّ الحروف لا يفشى.

بقوله: (**سرّ الحروف لا يفشى**) أي: لا يجوز لأحد أن يفشي سر الحروف، ويظهره للغير الأجنبي بخلاف ما إذا لم يكن أجنبيًا عن السر، ويكون هو بمنـــزلة نفسه فإنه يجوز وذلك؛ لأنه من سر الربوبية وإفشاء سرها كفر، فالإفشاء بمنـــزلة ما إذا أخذ رجل حرمة رجل من الأكابر المخدرة التي ما طلعت إلى الخارج أصلاً، وما شافها أحد، وما شافت هي أحدًا إلى السوق وعرَّاها بين الناس فأظهر عورتها للناس، فصاحب المرأة هل يرضى بفعل هذا الرجل مع امرأته، وهتك عرضه أبدًا لا يكون، فكذلك الحق تعالى لا يرضى

بإظهار سره الذي ستره عن خلقه، ولهذا قيل: التكلم بالأسرار من موجبات الكفر عند الكبار إلا إذا كان من باب التحدث بالنعم من الكريم الغفار، فلا تتوجه إلى معاني الأسرار السؤلات، وإنما السؤال في المعاملات ونتائج المقامات لكن الاستدلال على الأسرار ليتبين حقائقها عند السامع جائز بالاتفاق، كما قال الشيخ قدس سره في بعض رسائله، وكذا لا يسأل عن علوم يقول: بها القوم، ولا يجوز لأحد النـــزاع معهم فيما يقولونه إلا إذا تيقن أنه مخالف لصريح القرآن أو السنة أو الإجماع، وأنى لهذا! فإن مذهبهم مشيد بهذه الثلاثة بل بالكتاب والحديث وذلك؛ لأن علومهم مواجيد لا نقل، والمخبر عن المعاين والمشاهد لا ينازع إلا ظلمًا أو حسدًا أو عناد أو سوء الظن به، وهي لا تجوز شرعًا، فيجب التصديق والاعتقاد إن كان السامع مريدًا، والتسليم إن لم يكن كذلك، فمن دقق النظر على أنه ليس شيء من علومهم بخارج من الشريعة المحمدية كيف والشريعة هي التي أوصلتهم إلى تلك العلوم بإيصالهم إلى الله تعالى في كل لحظة، ثم ذكر العارف بغير الوجه الذي ذكره به آنفًا توضيحًا له، وتنشيطًا للسالك الطالب.

فقال قدس سره: **(والعارف لا يرتقب غير الله، ولا يخشى إلا الله)** أي: والعارف المذكور الطائف بقدم الولاية المراتب والمقامات، أو حول بيت الرب تعالى، وهو القلب يطرد جميع ما كان سوى من التقرب إليه لا يرتقب، ولا ينتظر، ولا يلتفت غير الله سبحانه وتعالى؛ لأن الغير عنده ممنوع لما عرفت مرارًا، فهو حكم تقواه، وبه حصلت المراقبة بينه وبين الله تعالى فوصل إلى الله، وأنس بالله، وخاف من الله، فلا يخشى إلا الله لكمال معرفته لله، فأنس به كل شيء، وخافه كل شيء، وتأخر عنه وجهله لعظيم ما أودعه الله فيه من العلوم والأسرار، فالمعرفة التامة تمنع الموصوف بها من مراقبة غير مولاه في منامه ويقظته وفي مطالعته، فلا يرى في المنام غير الله، ولا في اليقظة غير الله، ولا يطالع إلا الله، كما عرفت من كلام أبي يزيد البسطامي قدس سره، ولا يخاف شيئًا إلا الله؛ لأنه كوشف له سر القدر والقضاء، وإن ما يجري في عالم الشهادة على الموجودات الخارجية بحكم الله وقضائه على حسب مقتضى الأعيان الثابتة في حضرة العلم، ومقتضى الأعيان لا يختلف عن الأعيان، فلا راد لحكمه وقضائه، ولا حُكم لغير الله تعالى حتى يصل منه إليه شيء من المكروهات والبليات، فلا يخشى من الغير مع أنه لا غير عنده من حيث غيريته.

وفي الحقيقة: خوف العارف بل غيرته أيضًا من نفسه؛ لأنه قضى على القاضي عليه بما

يجري عليه، وطلب منه أن يقضي عليه بما هو جارٍ عليه من الأحوال، وتوضيح هذا أن القضاء حُكم الله على الأشياء على حدِّ علمه بها وفيها، وعلمه بما هو فيها من الأحوال على حسب ما أعطته تلك الأشياء مما هي عليه في نفسها والقدر تعين الأوقات للأحوال والأحكام التي كانت الأشياء عليها في أنفسها حين ثبوتها في العلم بإظهاره تعالى كل واحد واحد من تلك الأحوال، والأحكام في العين في وقته المخصوص به في العلم، فعلى هذا ما حكم القضاء على الأشياء إلا بما هي عليه في حدِّ أنفسها، وحُكم القضاء عليها بما ذكر هو عين حقيقة القدر، ففي إعطاء الحق إياهم ما يشقيهم من الكفر والعصيان له الحجة البالغة على الخلق لا للخلق عليه؛ إذ لا يعطيها إلا ما طلبوا منه بلسان استعدادهم، فالذي قدر عليهم ما قدر بمجرد إرادته من غير اقتضاء قابليتهم واستعداداتهم ذلك، فالمحكوم عليه بما هو فيه من الأحكام الخاصة به حاكم بلسان الاستعداد على الحاكم أن يحكم عليه بما هو فيه وحكم به، فالحاكم أياً كان حقيقيًا أو مجازيًا تابع في الحقيقة في الحكم لعين الحقيقة السائلة التي يحكم الحاكم عليها بما يقتضيه ذاتها، فالخوف منك كما أن المدح والذم لك، ولكن الخوف من الله تعالى إنما هو باعتبار إفاضة الوجود للأعيان، ولما يجري عليها من الأحوال والأحكام.

فمن ذاق هذا المقام يرى الراحة الكليَّة لنفسه على الدوام، والعذاب الأليم أيضًا من المقام أمَّا الراحة الكلية؛ فلأنه يعلم سر القدر إجمالاً بأن يعلم أن الأحوال الجارية على الموجودات الخارجية إنما هي من مقتضيات الأعيان الثابتة، والله تعالى ما حكم عليهم في القضاء السابق إلا بمقتضى ذواتهم، ومقتضى الذوات لا يتخلف عنها، فيتخلص عن الاعتراض على الخلق في ارتكابهم أسباب الشقاوة، واجتنابهم عن أسباب السعادة، وعلى الحق أيضًا في عدم إسعادهم على ما يسعدهم، وعدم تخليصهم عما يشقيهم ويخلص عن المبالغة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرى العذاب الأليم؛ لأنه يشاهد آلامًا وأسقامًا ومتاعب في الدنيا ظاهرها موجب للعذاب والوبال والعقاب والنكال، ولا يعلم أن الخلاص منها في الآخرة من مقتضيات العين الثابتة أم لا، فيتحير ويتألم على ذلك شفقة على غيره إن رأى في الغير، وعلى نفسه إن رأى فيه، وأمَّا إذا علم بسرِّ القدر تفصيلاً بأن كوشف له بمقتضى عينه أو عين غيره من الأحوال والأحكام على التفصيل، فالراحة الكليّة له سكونه عن طلب مالا يقتضيه العين من نفسه، وعن حث الغير على ما ليس من

مقتضيات عينه أيضًا، وإلامن من زوال ما حصل في الصورتين، وأمَّا العذاب الأليم فمن حيث أنه يدرك قصوره أو قصور غيره في تحصيل بعض الكمالات لعدم كونه من مقتضيات العين فييأس عن تداركه فيتألم، ومن هذا القبيل ما ذكره الشيخ قدس سره في الفصوص في حديث: «**لا نبي بعدي**[1]»، وهذا الحديث قصم ظهور أولياء الله تعالى؛ لأنه متضمن انقطاع العبودية الكاملة التامة وذوقها، فلا ينطلق عليه اسمها، وهذا الاسم خاص بالعبد، وذلك الاسم النبي والرسول، فإن الله تعالى لا يسمًّى بالنبي والرسول، ويسمَّى بالولي، فلم يبق للعبد اسم يختص به دون الحق بانقطاع النبوة والرسالة، فانكسر ظهور الأولياء الظاهرين في الأمة بالحديث المذكور، وأصل ما ذكرنا من حصول الكمال، وهو موقوف على أكل الحلال الصرف الخالي عن الشبهة.

٧٤- إن قصدت الحلال في المطعم، فأنت في الطاعة بعونه مُحكم.

كما قال قدس سره: (**إن قصدت الحلال في المطعم، فأنت في الطاعة بعونه مُحكم**) أي: إن قصدت أيها السالك الحلال الشرعي البين كونه حلالاً الخالي عن الشبهة في مطعمك الأعم من الشراب بأن لا تأكل إلا مما هو ثابت تحليله عندك، فحقًا أنت أيها السالك الطالب محكم وقوي في طاعة الله تعالى لكن بعون الله تعالى لا بالمطعم الحلال؛ لأن الحق تعالى موجد للأشياء عند الأشياء بالأشياء.

وذكر (**القصد**) إشارة إلى أن العبد ليس عليه إلا العزم والقصد على الحلال، وأمَّا أكله وعدم أكله فإنما هو بتوفيق من الله، فربما يقصد العبد أكل الحلال فيقع في الحرام، وربما يقصد الحرام فيقع في الحلال، والأول مُثاب على قصده دون الثاني فتأمله، ومع قصدك الحلال في المطعم فعليك بتقليله؛ لأن كثرة الأكل من الحلال تطمس بصائر أكثر الرجال كما عرفت.

فالأكل الكثير من الحلال كأكل الشهوات من الحلال أيضًا، فإن الحرام موجب للآثام والانتقام فإنه أيضًا يطمس البصائر وإن كان قليلاً.

٧٥- أكل الشهوات يورث في القلوب القسوات.

---

(١) رواه البخاري (٣/١٢٧٣)، ومسلم (٣/١٤٧١)، وأبو داود (٢/٤٩٩)، والترمذي (٥/٦٤١).

كما أشار إليه الشيخ قدس سره بقوله: (**أكل الشهوات يُورث في القلوب القسوات**) أي: أكلك أيها السالك المريد لقطع السفر الشهوات أي: ما تشتهيه النفس لكن من حيث شهوتها يورث في قلبك القساوة، وكذا أكل الشهوات لكلّ أحدٍ يورث القسوات في قلوبهم، والمراد (**بأكل الشهوات**) أكل ما تشتهيه النفس من اشتهائها لا بقصد القوة على الطاعة، وغيره مما ينوي به الأولياء، وليس مطلق الشهوات مورثًا وموجبًا لما ذكر؛ لأن الشهوات إذا خرجت عن كونها شهوات بعارض من النية الصالحة لم يبق لها هذا الحكم لصيرورتها طاعات، فعلم أن الضرر إنما هو في اللذة النفسانية دون الروحانية، فمن صارت لذته روحانية لا تبقى له أمنية، فيجوز له تناول الشهواتية كما وقع للأنبياء والأولياء فافهم، أكلوا اللذائذ، ولبسوا الملابس الفاخرة لكن بروحانيتهم لا بنفسانيتهم، فإنهم خرجوا عن تحكم الشهوات البهيمية، وثارت هياكلهم، وأدركوا بالنور الحق والباطل، وصاروا أئمة عدل، فخلصوا من ورطة الشره الكامن في الطبيعة البشرية فيطالب العبد حقًا بالبدء بنفسه؛ لأنه أقرب جار إليه وحديث:«**ابدأ بنفسك**[1]» يشير إليه مع وجوب العدل عليهم مع رعيتهم حين انقادت، ومن جملتها نفوسهم فيجب عليهم رعاية نفوسهم، ولهذا جوعهم اضطراري لا اختياري كما عرفت قبل هذا، ثم أعاد ذكر الشيخ ثانيًا تعظيمًا لشأنه واهتمامًا بأمره إذ السلوك في الغالب إنما يكون به.

٧٦- الشيخ من أزال عنك كل حجبك.

فقال قدس سره:[**الشيخ من أزال عنك كل حجبك**] أي: شيخك، أيها السالك الطالب للسلوك والمرشد المسلك لك في الطريق إلى الحق تعالى هو الذي أزال عنك ويرفع لك ما يحجبك عن الله والوصول إليه والاشتغال به، وهذه الإزالة لا تكون إلا بالله؛ لأنه لا يوصل إلى الله إلا الله لكن الشيخ لما كان بالله يوصل المريد إلى الله بإذن الله من الله، فعطف (**الشيخ**) ﷺ على الجملة المذكورة قوله: [**واستأذن الحق لقربك**] عطف السبب على المسبب فإن استئذان الحق سبب لإزالة الحجب عن المريد، وفيه أن السبب هو إذن الحق للشيخ بالإيصال للمريد لا استئذان الشيخ من الحق لإيصال المريد، وأجيب بأن الاستئذان سبب الإذن وسبب السبب سبب، فالشيخ المسلك للمريد يزيل الحجب عنه

(١) رواه النسائي في الكبرى (٥/٦٩)، وابن حبان (٨/١٢٨)، البيهقي في شعب الإيمان (٦/٨٨).

ويرفع الغطاء عن بصره وبصيرته بسبب أنه يستأذن من الحق تعالى؛ لأن يقربه إليه تعالى برفع الحجب والأستار، فالحق تعالى يأذن للشيخ في قربه إليه تعالى، وإذن الحق في قرب المريد إذن للشيخ في إزالة الحجب عن المريد، وكذا استئذان الشيخ الحق لقرب المريد استئذان الحق لرفع الحجب عنه فلا إشكال، فحاصل الكلام أن الموصل لا يكون إلا الحق أو من يكون بالحق، فالشيخ يجب أن يكون بالحق، فالشيخ يجب أن يكون بالحق قائمًا به متحققًا بمقام كنت سمعه وبصره حتى يمكن منه الإيصال إذ لو كان بنفسه فلا يمكن منه ذلك، فثبت بهذا أن السالك بالله واجد له تعالى، والسالك بنفسه فاقد له، ولا يجده.

وبه يجمع بين قول الرسول ﷺ: «**من طلب الله وجده**[1]»، وبين قول أبي يزيد البسطامي قدس سره: «السالك مردود، والطريق مسدود».

فإن السلوك والطلب بمعنى واحد، فصار مآل قول الرسول ﷺ: إلى أن الطالب واجد لله.

ومآل قول أبي يزيد: إلى أن الطالب غير واجد له، وهما متناقضان ظاهر لكن المراد في الأول الطلب بالله، وفي الثاني الطلب بالنفس فلا تناقض؛ لأن شرطه اتفاق القضيتين في الوحدات الثمانية وهنا ليس كذلك فتأمل.

٧٧- الشيخ من نقلك من نار البعد والانفصال إلى جنة القرب والاتّصال.

ثم أكده بقوله: (**الشيخ من نقلك من نار البعد والانفصال إلى جنة القرب والاتصال**) أي: شيخك المسلك لك أيها السالك هو الذي نقلك من نار هو البعد عن حضرة القدس والانفصال عنها بوقوفك مع السوى، وشركك الخفي والأخفى إلى جنة هي القرب إلى الله، والاتصال به اتصال الفرع بأصله من حيث الوصول إلى غاية المرام عاريًا عن الوصل، والفصل المشهودين بين العوام؛ لأنهما بالمعنى المشهود مُحال في حقه تعالى حيث لا وصل ولا فصل ولا قرب ولا بعد.

وفي لسان هذه الطائفة أن البعد هو المسمَّى بالنار وبجهنم، والقرب هو المسمَّى بالجنة، وإن البعد هو المتوهم والقرب هو المتحقق؛ لأن المقامات والمواطن كلها مراتب ظهوره

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/١٠٩) بنحوه.

تعالى، فلا بعد الإعلى سبيل التوهم فما ثَمَّ إلا قرب، فالمراد النقل من البعد المتوهم الذي يتوهمه المريد إلى القرب المتحقق الذي هو الأمر عليه في نفسه، وهذا لا يكون إلا برفع الحجاب له وكشف الأمور على ما هي عليه، فيخرج المريد عن الوهم والخيال، ويدخل في القرب والاتِّصال فنكشف له حقيقة الحال.

وبما ذكرناه تبين أنه تأكيد لما قبله ومعنى التأكيد على لسان الحقيقة أن يكون في اللاحق ما في السابق مع زيادة وفائدة جديدة؛ لأن التحلي لا يتكرر، ثم زاد الشيخ قدس سره في البيان اهتمامًا بهذا الشأن.

٧٨- الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت، وجال بروحك في عالم اللاهوت.

فقال قدس سره: (**الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت، وجال بروحك في عالم اللاهوت**) المراد بإماتة نفس المريد إخراجه عن الالتفات إلى الدنيا وتوابعها، وعن النفس وحظوظها كالميت لا شيء له مما ذكر، وهذه الإماتة إرادية كما أن الخروج مما مرَّ إرادي، والمراد بالموت الثاني الموت الطبيعي، وقد مرَّ معنى الموت بأقسامه (**جال**) في الحرب جولة بفتح الجيم، وجال في الطواف جولاً بفتح الجيم وضمها وبسكون الواو وجولاً بتحريك الواو، وجول بالتشديد تجوالاً واجتلال، والجال بمعنى طاف كذا في القاموس.

و (**اللاهوت**) عالم أعلى كما أن الجبروت عالم أو سط، والملك عالم الشهادة والملكوت عالم الغيب الإضافي والحقيقي فهو يعم الجبروت والعظموت واللاهوت.

وقيل: إن الملكوت عالم الأرواح، والمعنى الشيخ المسلك لك أيها السالك الطالب للسلوك الموصل لك إلى القدسية الكاشف لك الحجب المانعة لك من الوصل والمقرب لك إلى جناب حضرة مولاك الناقل لك من نار البعد، والانفصال إلى جنة القرب، والاتصال هو الذي يميت نفسك وهواك عن السوى، ويقطعها عن حظوظها وشهواتها كالميت قبل أن تموت بالموت الطبيعي اللازم للطبيعة الحيوانية، فتكون أنت ميتًا ماشيًا على وجه الأرض كما هو حال أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وشهد له النبي ﷺ بهذا الحال حيث قال:

«**من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر ﷺ**[1]».

وأيضًا الشيخ هو الذي جال وطاف بروحك لا ببدنك؛ لأن الجولان في عالم الغيب بالبدن من خواص خاتم الرسل عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم السلام، والكمَّل من ورثته يطوفون بأرواحهم لا بأبدانهم، فالشيخ يطوف بروحك في عالم اللاهوت ويعرج بك إلى العظموت، ويشهدك منازل الناسوت إلى أن يقول لك: ها أنت ومولاك، فتبلغ غاية الرضا وأقصى المنى، ولا يبقى في قلبك شيء من السوى.

وبالجملة إن لم يأخذ السالك الطريق ممن يكون من الرجال الموصوفين بأوصاف الكمال مما ذكر سابقًا تفصيلاً يكون له الانتقال إلى منازل القربات محلاً كما أوضحته لك في أمثال هذا البحث من كلام المؤلف ﷺ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

٧٩- من قنع من الدنيا باليسير، هان عليه كل عسير.

ثم أشار الشيخ قدس سره إلى أن الحجاب العظيم للسالك الدنيا وجمعها وطلب الكثير منها، ولا يتعسر عليه السلوك إلا بطلب الكثرة منها فقال: (**من قنع من الدنيا باليسير، هان عليه كل عسير**) أي: من قنع ورضا من الدنيا بشيء يسير قليل مما هو بدِّي مما يحتاج إليه للأكل والشرب واللبس على قدر الحاجة وفي وقت الحاجة، فلا يكون اشتغاله بالدنيا إلا بما يعنيه ويترك جميع ما لا يعنيه، فيهون على هذا العبد، ويسر له بفضل من الله تعالى كل ما هو عسير وتعب عليه؛ لأنه يكون أغلب أوقاته في الاشتغال بالله ويكون فيه لله لا لنفسه، ومن كان لله كان الله له، ومن كان الله له هانت عليه الأمور في الدنيا ويوم النشور، ومن لم يكن قانعاً بشيء يسير من الدنيا بل يطلب منها أزيد مما يحتاج إليه وقبل الاحتياج إليه عسر عليه كل ما هو يسير؛ لأن مدار العسر واليسر على الاشتغال بالله وعدم الاشتغال به، والاشتغال بالله مستلزم للقناعة باليسير وعدم الرضا بالكثير، فمن اشتغل به تعالى تصير الدنيا في طوع يده وتسهل عليه الأمور، وإلا فتهرب الدنيا عنه وتعسر عليه الأمور.

وقد قيل: من طلب الغنى بالقناعة فقد أصاب الطريق، ومن طلبه بالمال فقد أخطأ الطريق.

(١) ذكره المقري التلمساني في نفح الطيب (٥/١٦٤).

وقال سفيان الثوري ﷺ: «من لم يقنع بخبز الشعير في هذا الزمان ابتُلي بالذل والهوان».

وقال أيضًا لما استأذنه شخص في جمع المال: «من جمع المال ابتلاه الله بخمس خصال شدة الحرص، وطول الأمل، ونسيان الآخرة والشُّح، وقلة الورع».

فمن الأكابر من قنع بالخبز والملح أو الخل، وقال: «من رضي من الدنيا بمثل هذا لم يذل نفسه للناس».

ومنهم من قنع بالخبز اليابس في الماء ويكتفي به، فقال النبي ﷺ:

«**حَسْبُ ابن آدم لُقَيماتٍ يُقمن صُلبه** [1]» وهو صادق القول.

واللقيمات أقلها ثلاثة وأكثرها تسعة، فالمؤمن بقول الرسول كفته التسع، وإلا فليس بمؤمن إلا إذا كان من أصحاب الأعمال الشاقة من الحرث والحصاد وغير ذلك، فلا يكفيه مثل ذلك إلا إذا صارت قوته ملكية كما شاهدنا في بعض الرجال من طرف بلاد العجم كان يعمل من الحرث والحصاد مثل عمل عشرة رجال في كلّ يومٍ مع قلة الأكل، والمراد بكفاية تسع لقمات في اليوم والليلة لا أنه يأكل في هذه المدة مرتين أو ثلاث مرات، ويأكل في كلّ مرة التسع لقمات، وبه صرح الشيخ علي الخوَّاص ﷺ، وهكذا كان أكله من وقت إلى وقت اكتفى بتسع لقمات، فأصل القناعة الرضا بالموجود، وعدم طلب الزيادة في الدنيا من المطعم والملبس والمركب والنكاح، لكن هذا لا يستوجب أن يهون عليه كل عسير، بل المستوجب له أن يقنع باليسير من الموجود كما قاله الشيخ ﷺ.

وقال الشيخ تاج الدين: «ليست القناعة أن يأكل الشخص كل ما وجد من غير كلفة، وإنما القناعة أن يكون له المال الكثير والطعام، ومع ذلك لا يأكل في كلّ خمسة أيام أو ثلاثة إلا أكلات صغيرات».

وأقول: إنما القناعة عدم الشبع والأكل بلا طلب منه.

فتدبر والله أعلم.

---

(١) رواه ابن ماجه (١١١١/٢)، والنسائي (١٧٧/٤).

٨٠- لا يسمى عارفًا بالله إلا من أبصر الحقّ وناجاه.

ثم زاد في بيان العارف ببيان غير البيان الأول لما ذكر في الشيخ فقال قُدِّس سرّه:

(**لا يسمى عارفًا بالله إلا من أبصر الحق وناجاه**) هذا هو الذي أشرنا إليه قبيل هذا، وهو مبني على ما ذهب إليه الشيخ وحده من أن المشاهدة للحق تكون بالبصيرة وبالبصر أيضًا وهذا هو الأتم الأكمل، فلا يسمى حقيقة عارفًا بالله عبد من عباد الله إلا من أبصر وأدرك وشاهد الحق تعالى ببصره، وناجى الحق الذي أبصره، ويجوز أن يراد بإبصار الحق إدراكه بالبصيرة، ويؤيد الأول ظاهر كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ حيث قال: «**لم أعبد ربًا لم أره**»، فلا تتم العبودية إلا بالرؤية والمشاهدة؛ لأن بين خدمة الغائب والحاضر فرقًا عظيمًا لرعاية الآداب في خدمة الحاضر المشاهد دون الغائب، والكمال وعدمه في رعاية الآداب وعدمها، فمن يكون أدبه أكثر فعبادته أنور وأكمل، ومن لا فلا نور لعبادته كما حُكي: إن عابدًا كان في جزيرة بين الماء وحده، وعنده أنواع الفواكه والخضروات من الأشجار والكلأ، والماء العذب من العين، وكان ليلاً ونهارًا في الطاعة، ولما يصعد بها إلى السماء ما كان لها رونق في نظر الملائكة مع كثرتها فتعجبوا من هذا، فأوحى الله إليهم أن سببه قلة أدبه، وكمال الأدب عدم الغفلة، وأن لا يحكم على الحق بما لا يليق بجنابه، ومن الحكم عليه بما لا يليق حمل الإطلاق المقابل للتقييد عليه وقبوله في صورة دون صورة، فإنه تعالى منـــزه عن التقيُّد بصورة دون صورة ومطلق عن الإطلاق المذكور، فله العموم المطلق والإطلاق الغير المقيد أي: الذاتي دون الصفاتي، ولهذا الإطلاق لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات، فالعارف بالله معرفة تامة يـــبصر الحق تعالى، ويشاهد هذا العموم والإطلاق فيه، فلا يقيده بشيء، ولا يطلقه عن شيء، ولا يخرج منه شيئًا، ولا يدخل فيه شيئًا، فهو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كلّ شيء، والظاهر في كلّ شيء وبكلّ شيء، والباطن في كلّ شيء، وعن كل شيء، فلا يناجي إلا إياه، ولا يثبت ولا يرى غيره، ويكون دائمًا لحضوره معه في الأدب، ولا يسوء الأدب لحظة، ولو وقع منه سوء الأدب ولو لحظة يحكم بردته، ومع هذا في ستر نفسه عن الخلق لا يعرفه إلا الحق كما أنه لا يعرف إلا الحق، ولا يرى إلا الحق، ولا يقول ولا يسمع ولا يفعل إلا الحق وذلك؛ لأن في الستر لسلامة، وفي الشهرة لآفة.

٨١- الخمول يزيل الحجب، والشهرة تورث العجب.

كما أشار إليه الشيخ قدس سره بقوله: (**الخمول يُزيل الحجب، والشهرة تُورث العجب**)، وفي بعض النسخ (يذهب الحجب)، والمعنى واحد.

وفي القاموس أزاله كأذهبه والزوال الذهاب، و(**الخمول**) ضد الشهرة.

وفي القاموس خمل ذكره وصوته خمولاً خفي، وأخمله الله فهو خامل أي: ساقط لا نباهة له، والمعنى إخفاء الحال بأن يستر نفسه عن الخلق، ولا يظهر منه ما يكون موجبًا لاشتهاره بين الناس من أنواع الكرمات وخرق العادات، وإظهار المجاهدات والرياضات، بل يجعل نفسه كميت بين الأموات فهذا يزيل ويذهب حجبه، فيكون من أهل الكشف، ويصير له فهم جديد في الكتاب والسنة الذي لم يعرفه أحد وما كان لأحد قبله، ومن هنا يستغرب كلام القوم كل الاستغراب، وأنكروه عليهم غاية الإنكار، وما هذا إلا من الجهل باصطلاحهم.

وأما بعد معرفة اصطلاحهم، فلا يبقى الإنكار لأحد معهم مثلاً قالوا: حقيقة التوبة هي التوبة عنها ومنطوق هذا وفحواه خطأ ظاهر؛ لأن التوبة من التوبة إصرار موجب لجعل الصغار كبار على ما ورد:

«لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار[1]».

فكيف تكون هذه توبة؟ فهذا منكر عند من لا علم له باصطلاحهم، ولو علم مراد القائل على مصطلحه وهو عدم تزكية النفس، وعدم الاعتماد على التوبة دون فضل الحق تعالى ورحمته ليقبله قبولاً تامًا ويمدحه مدحًا كاملاً.

وكذلك قولهم: حقيقة التقوى ترك التقوى كما أشار إليه سيد سلطان العاشقين، ورئيس المحبين عمر ابن الفارض رحمه الله تعالى رحمة واسعة بقوله:

وقُلْــتُ لِزُهدِي والتَّنسكُ والتُّقَى   تَخَلَّــوا ومَا بَينِي وبَين الهَوى خُلُّوا

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/٤٣٦)، العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٠٧٢)، السيوطي في شرح سنن ابن ماجة (١/٢٥).

وقال أيضًا :

تَمَسَّكْ بِأَذيَالَ الهَوى واخْلَعْ الحيَا وخَلْ سَبِيل النَّاسِكِين وإنْ جَلُوا

مع أن ترك الزهد والعبادات والتُّقى مذموم مُذهب للدين، لكن المراد عدم الوقوف مع الأعمال والالتفات إليها، وإلا فالمنقول منهم كثرة المجاهدات والرياضات والتقوى والزهد والحياء، فتأمل فاعتقد أو سلم ولا تنكر، وإلا فتسقط عن رعاية الحق تعالى، وتستوجب مقته وذلك؛ لأن علوم القوم لا تقبل المنازعة لكونها وراثة نبوية؛ ولأنها مواجيد لا نقل فهم يخبرون عن معاينة ومشاهدة، فلا يجوز للسامع إنكاره مع أن العاقل ينكر الإنكار، فإن كنت مريدًا فالتصديق والاعتقاد، وإن كنت أجنبيًا فالتسليم، فلنرجع إلى ما نحن بصدده.

(**فالحجب**) حجاب تعمُّ النفس وحجاب القلب والروح والسرّ، والمراد بإزالة الفتح الإلهي المراد به كشف الحجب حيث أطلق، وأما الشهرة فتورث ما هو كالنار المحرقة للأعمال وهو العجب، ولهذا قيل: إن في الشهرة آفة بل آفات، وأيضًا من أخلاقهم ترك طلب الرئاسة؛ لأن طلبها رأس حب الدنيا، ومن أحبها لم يرتفع أبدًا، وإن الشهرة تستلزم كثرة مخالطة الناس، ومن أكثرها خرج من طريق السلف، وهان في عيون الناس، وأيضًا لا يمكن له مجلس خال عن الغيبة إلا قليلاً، وقد قيل: الراحة في هذا الزمان لا تكون لأحد من المؤمنين إلا إذا كان خامل الذكر بين الناس، وقال أبو الدرداء ﷺ: «من خالط الناس فلا بد أن يخربوا قلبه».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «**خير جلوس الرجل في قعر بيته لا يرى أحدًا، ولا يراه أحد**» لكن هذا إذا كان طالبًا للشهرة والرئاسة، وأمَّا إذا اشتهر من الله تعالى بين الناس من غير طلب منه، أو أعطى إليه شيء من المناصب مثل الوظائف أو الإمامة أو الخطابة أو غير ذلك، ولا يأكل من معروفها ومعلومها شيئًا، أو يأكل قدر سد الرمق، فلا تضره الشهرة ولا الرئاسة، ومع هذا فالخمول أسلم وأحسن من الاشتهار وإظهار الأحوال؛ لأن الحق تعالى سترهم عن أعين الخلق رحمة بالخلق، كما قاله الشيخ الأكبر رضي الله تعالى عنه؛ لأنهم لو كانوا ظاهرين بين الناس، وأذاهم أحد لكان قد بارز الله تعالى بالمحاربة فأهلكه الله، فلا يكون ظهورهم إلا من حيث ظاهر علمهم وإمَّا سرّ،

ولايتهم فهو باطن لم يزل في الحديث القدسي: «**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**(١)»، فالولي لا يعرف صفاته إلا الله، أو مَن علَّمه الله وهو الولي، فنفي الولاية عن إنسان ليس إلا محض تعصب، فإذا علمت هذا، فالولي لا بد له من ستر أو أستار على حسب الاستعداد نظير السبعين حجابًا الثابتة لله تعالى إنما يعرف من ورائها، فكذلك كل ولي له الستر لا يُعرف إلا من ورائها.

فمنهم من ستر بالأسباب، ومنهم من سُتر بظهور العزة والسطو والقهر على حسب تجلِّي الحلق لقلبه فبصفة القهر يكون قهارًا، وبالانتقام يكون منتقمًا، وبالرحمة يكون رحيمًا ومشفقًا.

ومنهم من ستر بالعلم الظاهر.

ومنهم من ستر بالتردد إلى الملوك والأمراء والأغنياء.

ومنهم من ستر بسؤاله الدنيا وطلبه الوظائف وغيرها لكن ليقوم فيها بالعدل وغير ذلك من أنواع الستر.

فمنهم من له نوع، ومنهم من له نوعين، وهكذا إلى ثلاثة وأربعة وغير ذلك.

ومنهم من له الأنواع كلها، وبالجملة إن الخمول أسلم للشيخ المرشد المسلك، وواجب على السالك، والشهرة آفة عظيمة للسالك ومحرمة عليه إلا بإذن من الله، وهي أنفع للشيخ إن كان في صدد التربية، وليس كل من اشتهر شيخًا قابلاً لتربية المريدين، بل ربما يكون في الخمول، وهو أولى بالتسليك ممن اشتهر، فإن للتسليك أوصاف توجد في الخمول دون الاشتهار، وربما توجد في المشتهر أيضًا.

فلهذا ذكر الشيخ قدس سره أوصاف الشيخ في مواضع متعددة لغاية خفائه حيث لا يعلمه غير الله كما قرر مرارًا، فقال أيضًا بالإعادة تنشيطًا للسالك الطالب للجادة:

٨٢- الشيخ من نقل أسمك ومحى رسمك.

قوله: (**الشيخ من نقل أسمك ومحى رسمك**) أي: الشيخ الذي يسلك بك هو الذي

---

(١) ذكره المناوي في التعاريف (٦٧/١).

نقل اسمك عنك بإفناء وجودك في وجود الحق تعالى، فلا يبقى لك اسم ومحى أيضًا رسمك بإفناء إرادتك في إرادة الله تعالى، فلا يبقى لك رسم، فبالأول يحصل لك الفناء في الله، وبالثاني يحصل لك الاتّحاد مع الله تعالى بالمعنى الذي اصطلح عليه القوم فيهما وهو الخروج عن الوجود لغير الحق بأن يثبت الوجود له تعالى، ويتحقق بحديث:

«**كان الله ولا شيء معه**[1]».

والآن كما كان، وبقوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨].

﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:٢٦]، أو عن صفاته البشرية بأن يدخل في الصفات الحقيَّة، وهو مقام بي يسمع وبي يبصر هذا في الأول، وهو الفناء والخروج عن إرادته لإرادة الله تعالى في الثاني وهو الاتحاد، فمن صار وجوده وجود الله وإرادته إرادة الله فهو متحد مع الله في هاتين الصفتين لا في الذات؛ لأن عينية الأشياء للحق من حيث ظهوره فيها وانصباغه بصبغها.

وأمَّا من حيث الذات فالأشياء أشياء والله الله كما صرح به الشيخ قدس سره في «الفتوحات المكية».

وقال بعضهم: الفناء نفي العبد لاختياره المغاير لاختيار الله تعالى؛ لأن الكمال أن يختار العبد ما اختاره الله له إن يختاره، وإلا فالإنسان لا يجوز أن يكون غير مختار؛ لأنه تعالى وإن نفاه فقد أثبته فقال:﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال:١٧]، فأثبت في هذا القول الرمي وقد نفى.

والبقاء أن يختار باختياره تعالى له الاختيار بعد ما نفى اختياره المغاير لاختيار الله تعالى، فالعبد في هذا المقام مختار من جهة البقاء غير مختار من جهة الفناء، وأمَّا العوام فلهم الاختيار مطلقًا لرؤيتهم الوجود لنفوسهم وأن يعملوا بإرادتهم، ويجوز أن يكون المراد (**بنقل الاسم**) غير ما قلنا: من رفعه بالإفناء، بل معناه الحقيقي، ويكون حقًّا قوله:

(**ومحى رسمك**) من عطف السبب على المسبب، فإن الشيخ ينقل المريد من اسم إلى

---

(١) تقدم تخريجه.

اسم من اسم العام إلى الخاص إلى أخص الخاص، أو من الجاهل إلى العالم إلى العراف بالله، أو من اسم المسلم إلى المؤمن إلى الصالح إلى المحسن إلى الشهيد إلى الصديق إلى المحقق إلى غير ذلك من الأسماء المصطلح عليها لهذه الطائفة بسبب محو العادات ورسوماته عنه فتبصر.

٨٣- الشيخ من أطلعك على حالك لا من أخذ مالك.

ثم قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**الشيخ من أطلعك على حالك، لا من أخذ مالك**) أي: الشيخ المسلك هو الذي جعلك مطلعًا على حالك من النقص والكمال، فيُذهب منك النقص، ويفيض عليك الكمال بالاستئذان لك من ربك بأن يكون الشيخ من خواص الخواص الكاملين المكمَّلين، الذين هم مع غلبة التسليم عليهم يأمرون المريد، ويرغبونه في الأشياء، ويرهبونه من أشياء، وينـــزلون من مقامهم لمقام المريد حتى يُقيِّم عوجه؛ لأن الشيخ هو الذي يأخذ مالك عنك كالمشايخ بعد قرن عاشر قعدوا على السجادة بدون إذن من الله تعالى، فيأخذون أموال الناس من غير استحقاق فيهم.

وهذا الشيخ كما أنه يأخذ مالك أيضًا يأخذ دينك؛ لأن المريد ناظر إلى شيخه، ويتأدب بآدابه وآدابه مذمومة.

ومن هنا قيل: إن العلماء السوء أشدّ من الشيطان؛ لأن الشيطان يضرك في دينك، وذاك يضرك في دنياك ودينك، فعلى هذا يجوز أن تكون (**ما**) في (**مالك**) موصولة أي: لا الشيخ الذي يأخذ منك ما حصل لك من أمور الدين والدنيا، ولا الشيخ الذي هو من خواص الأولياء الذي محقه التسليم لله تعالى في سائر الأحوال وما بقي له اختيار، فإن مثله لا يرى في الوجود محظورًا ينهاك عنه مع أن الصحبة تقتضي الميل إلى الصاحب، وهذا الرجل ما له ميل إلى أحد سوى الله تعالى حتى يُقيِّم عوجه ويُصلح فساده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

٨٤- ليس العارف من ينفق من الجيب، إنما العارف من يأكل من الغيب.

ثم انتقل لوضوح البيان إلى ذكر العارف بوجه آخر غير ما مرَّ وغير ما يأتي؛ لأن المعارف وجوهًا مختلفة، فقال قُدِّس سرّه: (**ليس العارف من ينفق من الجيب**) أي: العارف الحقيقي التام المعرفة ليس الذي ينفق على نفسه أو غيره من جيبه بأن يكون في

الجيب ما ينفقه، ولا يخاف من التقتير والتقليل فينفق ما عنده ولا يمسكه، فإن إنفاق الحاضر الموجود ليس مما يميز به العارف المقصود؛ لأنه يشترك فيه من لم يكن عنده الغيب كالشهود، فإذا رأينا أحدًا ينفق جميع ما عنده، ولا يمسك عنده شيئًا إلا بقدر الاحتياج في وقت الاحتياج، وفيما يحتاجه يُؤثِر الغير على نفسه أيضًا فلا يُحكم عليه بأنه عارف حقيقة، وإنما هو عارف من جهة التحقق بصفة الرازقية، وإن الرّازق والمعطي هو الله تعالى لا غير، وكذلك إذا رأينا شخصًا يمنع مما يطلب منه لا نحكم عليه بأنه غير عارف أصلاً؛ لأن المنع منه لا يكون إلا لمصلحة مقتضية لذلك من التخفيف على المحسنين إليه أو غرض آخر.

(**إنما العارف من يأكل من الغيب**) أي: العارف الحقيقي إنما هو الذي يأكل من الغيب الذي لا يكون بواسطة الخلق، بل يكون حصوله بدعاء العارف أو بأمره من غير واسطة سبب ظاهر من الأسباب العادية الظاهرة، كما وقع لكثير من الأولياء لـمّا كانوا في فضاء خالٍ عن جنس المأكولات والمشروبات، ولما اضطروا غاية الاضطرار طلبوا من الله تعالى فحضر عندهم من الغيب الطعام والشراب ولا يسافرون بلا زاد، بل لا يجوز لهم السفر بلا زاد إلا إذا كانوا مستجابين الدعوة أو صاحب الأمر والتصرفات الكاملة؛ لأن غيرهم حرام عليه السفر بلا زاد؛ لأنه تهلكة وإيقاع النفس فيها منهي عنه قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [البقرة:١٩٥].

وأيضًا يجوز إن كان قادرًا على عدم الأكل السفر بلا زاد، لكن بقدر ما يصبر على عدم الأكل ومثل الأكل الشرب، ولو قدر أن لا يأكل ولا يشرب أو لا يأكل ولا يشرب مدة عشرة أيام، فيجوز له السفر بلا أكل أو بلا شرب، أو بلا أكل ولا شرب مسافة عشرة أيام ولا يزيد عليها، ويجوز أن يكون المراد بالغيب غير ما يكون من جهة معينة كأرباب المناصب والوظائف والأوقاف، بأن يكون ما ينفقه، ويأكله ليس من منصب، ولا وظيفة، ولا وقف، وإن كان بواسطة سبب ظاهر، لكن لا ينبغي حمل الكلام عليه وإن كان دليل العقل يميل إليه؛ لأنه لا يقال له: عارف حقيقة، بل هو متوكل معتمد على الله دون الأسباب، وإنما العارف هو المتصرف في خلق الله وأمره بأمر الله، كما وقع لعيسى عليه السلام أحيا سام بن نوح فنطق وشهد بنبوته، ثم رجع إلى حالته وغير ذلك من إنشاء الطير وإبراء الأكمه والأبرص، وكما وقع أيضًا لأبي يزيد البسطامي قُدّس سرّه حين

قتل نملة تحت قدمه وتألم من قتلها، ثم نفخ فيها فحيت، وكذلك وقع الأحياء والإبراء للشيخ عبد القادر الكيلاني قدس الله سره العزيز مثل عيسى ﷺ، وكما وقع لكثير من الأولياء إحضار الطعام والشراب من غير سبب ظاهر، فتبصر.

٨٥- بذكرك لاسم الجلالة، تبلغ في المراتب غاية الجلالة.

ثم شرع في بيان ما يحصل به المذكور والوصول إلى المطلوب، وما هو أساس كل خيرٍ وكمال، فقال قُدِّس سرّه: (**بذكرك لاسم الجلالة تبلغ في المراتب غاية الجلالة**) أي: بذكرك أيها السالك الطالب لمقامات السنية، والمراتب العالية الرفيعة لاسم هو الجلالة وهو لفظ الله، فإنه يسمَّى بالجلالة عند القوم بأن تكون ذاكرًا له على الدوام أو في أغلب الأحوال تبلغ أنت على حسب استعدادك الأزلي في مراتبك الثابتة لك في حضرة العلم الأزلي غاية الجلالة ونهاية العظمة.

ففي الحديث: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأنقاها عند مليككم، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فيضربوا رقابكم، وتضربوا رقابهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: ذكر الله**[1]».

وروي أيضًا: «**مثل الذي يذكر، والذي لا يذكر مثل الحي والميت**[2]».

فدلَّ هذا على أن حياة الذكر خير حياة الشهيد الغير الذاكر فتأمَّل، فالذاكر لله حي وإن مات، وتارك الذكر ميت وإن كان في الدنيا حيًا بالحياة الحيوانية، والشهيد الذاكر له حياتان حياة الشهادة وحياة الذكر، وفضيلة الذكر كثيرة، والأخبار فيها جليلة ويحرم معاداة أهله؛ لأن لهم من الله تعالى الولاية العامة؛ لأنهم مؤمنون بالله وكل مؤمن ولي، ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته هذا كله في أصل الذكر سواء كان لاسم الجلالة أو لغيره، وأمَّا البلوغ إلى غاية الجلالة في المراتب فإنما يكون بذكر الجلالة مع أن أفضل الذكر لا إله

---

(١) رواه الترمذي (٥/٤٩٥)، وابن ماجه (٢/١٢٤٥)، وأحمد في المسند (٥/١٩٥)، والحاكم في المستدرك (١/٦٧٣).

(٢) رواه البخاري (٥/٢٣٥٣)، ومسلم (١/٥٣٩) بنحوه.

إلا الله الحديث: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله**[1]»؛ ولأن زيادة العلم لجمعها بين النفي والإثبات حاوية عليه؛ لأن الكمال لا يحصل إلا بالفناء وهو إنما يكون بذكر الجلالة؛ لأنه ذكر القلب كما أن هو ذكر السر ولا إله إلا الله ذكر اللسان، فمن اشتغل قلبه بذكر الله في جميع الأحوال ليستنير قلبه بنور الذكر، فيرزقه النور الكشف، ويفيده الكشف شهود الأمور على ما هي عليه، فيخرج عن الشركين، ويرفع السوى عن البين، ويرى الوجود المطلق بلا كم ولا كيف ولا أين، وهذا هو الغاية وليست لها نهاية.

وقد عُلم مما مرَّ أن الذكر لساني وقلبي وسري.

الأول قشر، والثاني لبّ، والثالث لبُّ اللبّ، ففي الأول يكون الذاكر والذكر والمذكور أي: يشهد صاحب الذكر اللساني هذه الثلاثة.

وفي الثاني لا يكون إلا المذكور، وفي الثالث الأولين عين المذكور.

وقد يذكر الشخص باللسان، ويكون غافلاً عما يذكر فلا يكون تارك الذكر؛ لأنه يصدق أنه ذاكر لكن غافل عن ذكره، فإذا عرفت هذا المذكور فالمناسب للمبتدئ لا إله إلا الله؛ إذ به تُنفى الأغيار وتضمحل عنده الإكثار، فينوي به أنه لا أُريد شيئًا أو لا أحب، أو لا أقصد شيئًا إلا الله، وغايته أنه لا موجود إلا الله، فإذا انتفت الأغيار بحصر إرادته أو حبِّه أو قصده في الواحد القهار يشرع في ذكر الجلالة إلى أن يُفنى عن وجوده، فيشرع في ذكر السر أي: هو الدال على هوية الحق تعالى التي لا يعرفها إلا هو، ولهذا صار أعرف أسماء الله من الضمائر المستعملة فيه تعالى التي هي أقوى في الدلالة من الأعلام لكونها مفتقرة إلى النعوت بخلاف الضمائر فإنه لا افتقار لها.

وقال الشيخ قدس سره في الفتوحات المكية: «إن هو أعرف عند أهل الله من الاسم الله في أصل الوضع» لما مرَّ من اتصافه بالدلالة على الهوية المذكورة.

٨٦- إذا كان اسم الله هجيرك نوَّر قلبك، وضاعف نورك.

---

(١) رواه الترمذي (٥/٥٧٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣/٤٧١).

قوله: (**إذا كان اسم الله هجيرك، نوَّر قلبك وضاعف نورك**): إضافة الاسم هنا وكما مرَّ إلى ما بعده بيانية، وأتى بالجلالة فيما مرَّ، وهنا بلفظ الله تفننًا.

و(**الهجير**) ما يهجر إليه، يعني إذا كان اسم لفظ الله هجيرًا لك بأن تذكره على الدَّوام، وتهجر إليه، وتترك ما سواه نوَّر الله تعالى من ملازمتك للاسم، وهجرتك إليه قلبك، فيتنور القلب بنور الإيمان، فتتصف بالولاية، وتكون وليًّا لله، ويكون هذا ابتداء ولايتك، ثم يزاد ويُضاعف ذلك النور شيئًا فشيئًا إلى أن يمتلئ القلب نورًا، والأولى أن يكون المراد بالنور العلم بالله في ذاته وصفاته وأفعاله، فالعالم بما عدا ذلك هو والجهل سواء، وعبَّر الحق تعالى في كلامه العزيز عن ذلك العلم بالنور حيث قال تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً**﴾ [الأنعام:١٢٢] أي: بموت الجهل ﴿**فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ [الأنعام:١٢٢] بحياة علمية ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ**﴾ [الأنعام:١٢٢] أي: علمًا يمشي به في الناس أي: بين أشكاله في الصورة لا في المعنى، فإنه بحسبه ممتاز عنهم بذلك النور، والناس منهمكون في جهالتهم، ومحرومون من هذا النور، أو معنى يمشي به في الناس أي: ينفذ بنوره العلمي في حقائقهم وبواطنهم فيعلم منهم مالا يعلمون من أنفسهم، ويمكن أن يكون قوله:

(إذا كان.. إلخ) بيانًا وعلَّة لما قبله كما لا يخفى على المتأمل الصادق.

قال ابن عطاء الله السكندري: «الأنوار مطايا القلوب والأسرار».

وقال: «النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله أن ينصر عبدًا أمده بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار».

وقال ﷺ أيضًا: «النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإدبار»[1] انتهى.

---

(١) قال سيدنا ابن عجيبة: النور نكتة تقع في قلب العبد من معنى اسم أو صفة يسري معناها في كليته، حتى يبصر الحق والباطل إبصارًا لا يمكنه التخلف معه عن موجبه، قاله الشيخ زروق، والمطايا جمع مطية، وهي الناقة المهيئة للركوب، والقلوب جمع قلب، وهو الحقيقة القابلة للمفهومات، والأسرار جمع سر وهو الحقيقة القابلة للتجليات، والسر أدق وأصفى من القلب، والكل اسم للروح، فإن الروح ما دامت متظلمة بالمعاصي والذنوب والشهوات والعيوب سميت نفسًا، فإذا انزجرت وانعقلت انعقال البعير، سميت عقلاً، فما زالت تتقلب في الغفلة والحضور لذلك سميت قلبًا، فإذا اطمأنت =

=

وسكنت واستراحت من تعب البشرية سميت روحًا، فإذا تصفت من غبش الحس سميت سرًا لكونها صارت سرًّا من أسرار الله حين رجعت إلى أصلها وهو سر الجبروت، فإذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إلى حضرة قدسه ويحمله إلى محل أنسه، أمده بواردات الأنوار كالمطايا فيحمل عليها في محفة العناية مروحًا عليه بنسيم الهداية محفوفًا بنصرة الرعاية، فترحل الروح من عوالم البشرية إلى عوالم الروحانية حتى تصير سرًا من أسرار الله لا يعلمها إلا الله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥]، فالأنوار التي هي الواردات مطايا القلوب تحملها إلى حضرة علام الغيوب، وهي أيضًا مطايا الأسرار تحملها إلى جبروت العزيز الجبار، فالسلوك هداية، والجذب عناية، فوارد الانتباه والإقبال حمله سلوك، ووارد الوصال حمله جذب، فالأنوار التي هي مطايا القلوب تحملهم على وجهة السلوك إلا أنهم محمولون فيه بحلاوة نور الانتباه والإقبال، فصار سلوكهم كأنه جذب، وأما الأنوار التي تحملهم على مطايا الأسرار، فإنما تحملهم على جهة الجذب ممزوجًا بسلوك، فيكونون بين جذب وسلوك، وهذا الحمل أعظم، والله تعالى أعلم.

ثم بين كيفية السير على هذه المطايا وما يعوقها عن السير فقال:

[النُّورُ جُنْدُ القلب كمَا أنَّ الظُّلمةَ جُنْدُ النَّفسِ، فإذا أرادَ الله أنْ ينصرَ عبدَهُ أَمَدَّهُ بجنودِ الأنوارِ، وقطعَ عنهُ مَدَد الظُّلَمِ والأغيارِ].

قلت: الظلمة نكتة تقع من الهوى في النفس عن عوارض الوهم، فتوجب العمى عن الحق لتمكن الباطل من الحقيقة، فيأتي العبد ويذر على غير بصيرة، قاله الشيخ زورق.

قلت: قد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر أسماء لمسمى واحد، وهو اللطيفة الربانية النورانية المودعة في هذا القالب الجسماني الظلماني، وإنما اختلفت أسماؤها باختلاف أحوالها، وتنقل أطوارها، ومثال ذلك كماء المطر النازل في أصل الشجر، ثم يصعد في فروعها فيظهر ورقًا، ثم نورًا وأزهارًا، ثم يعقد ثمرة، ثم ينمو حتى يكمل، فالماء واحد، واختلفت أسماؤه باختلاف أطواره. هكذا قال الساحلي في بغيته.

فعلى هذا يكون تقابل القلب مع النفس بالمحاربة كناية عن صعوبة انتقال الروح من وطن الظلمة التي هي محل النفس إلى وطن النور، الذي هو القلب وما بعده، فالقلب يحاربها لينقلها إلى أصلها وهي تتقاعد وتسقط إلى أرض البشرية وشهواتها، فالقلب له أنوار الواردات تقربه وتنصره حتى يترقى إلى الحضرة التي هي أصله، وفيها كان وطنه وكأنها جنود له من حيث أنه يتقوى بها وينتصر على ظلمة النفس.

وهذه الأنوار هي الواردات المتقدمة، والنفس لما ركنت إلى الشهوات واستحلتها صارت كأنها جنود لها، وهي ظلمة من حيث أنها حجبتها عن الحق ومنعتها من شهود شموس العرفان، فإذا هاجت النفس بجنود ظلماتها وشهواتها إلى معصية أو شهوة رحل إليها القلب بجنود أنواره، فيلتحم بينهما القتال، فإذا أراد الله عناية عبده ونصره، أمد قلبه بجنود الأنوار، وقطع عنه من جهة النفس مدد الأغيار، فيستولى النور على الظلمة وتولي النفس منهزمة، وإذا أراد الله خذلان عبده أمد نفسه

=

=

بالأغيار، وقطع عن قلبه شوارق الأنوار، فيأتي المنصور بالأمر على وجهه، والمخذول بالشيء على عكسه.

قال الشيخ زروق ﷺ: وأمداد الأنوار ثلاثة:

أولها: يقينٌ لا يخالطه شك ولا ريب.

الثاني: علم تصحبه بصيرة وبيان.

الثالث: إلهام يجري بعد العيان.

وأمداد الظلم ثلاثة:

أولها: ضعف اليقين.

الثاني: غلبة الجهل على النفس.

الثالث: الشفقة على النفس، وذلك كله أصله الرضا عن النفس وعدمه، ومظهره الثلاث المرتبة عليه وهي المعاصي والشهوات والغفلات وأضدادها المتقدمة في الباب الثالث فافهم انتهى.

ولما كان النور هو جند القلب، لأنه يكشف عن حقائق الأشياء، فيتميز الحق من الباطل، فيحق الحق ويبطل الباطل، فينتصر القلب بإقباله على الحق على بينة واضحة وتنهزم النفس بانهزام جند ظلماتها، إذ لا بقاء للظلمة مع وضوح النور، كما أشار إلى ذلك بقوله:

[النورُ له الكشفُ والبصيرةُ لها الحُكْمُ، والقلبُ له الإقبالُ والإدبارُ].

قلت: النور من حيث هو من شأنه أن يكشف الأمور ويوضحها حتى حسنها من قبيحها، ومن شأن البصيرة المفتوحة أن تحكم على الحسن بحسنه وعلى القبيح بقبحه، والقلب يقبل على ما يثبت حسنه، ويدبر عن ما يثبت قبحه، أو تقول: يقبل على ما فيه نفعه ويدبر عما فيه ضرره، ومثال ذلك: رجل دخل بيتًا مظلمًا فيه عقارب وحيات، وفيه سبائك ذهب وفضة، فلا يدري ما يأخذ ولا ما يذر، ولا ما فيه نفع ولا ضرر، فإذا أدخل فيه مصباحًا رأى ما ينفعه وما يضره وما يأمنه وما يحذره، كذلك قلب المؤمن العاصي لا يفرِّق بين مرارة المعصية وحلاوة الطاعة، فإذا استضاء بنور التقوى عرف ما يضره وما ينفعه، وفرق بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال:٢٩]، أي نوراً يفرق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، وهذا النور الذي يكشف الأمور هو نور الواردات المتقدمة الذي هو مطايا القلوب إلى علام الغيوب.

أولها نور وارد الانتباه: ومن شأنه أن يكشف ظلمة الغفلة، ويظهر نور اليقظة فتحكم البصيرة بقبح الغفلة وحسن اليقظة، فيقبل القلب حينئذ على ذكر ربه ويدبر عما يغفله عن ربه، وهذا هو نور الطالبين.

=

فالغاية القصوى حصول ذلك النور؛ لأن الكشف موقوف عليه، والتوحيد الحقيقي المعتبر عند أهله مبني على الكشف، وهذا إنما يكون إذا شاهد ذوقًا أنه لا شيء معه، وهو مع كلِّ شيء بلا دخول، ولا اتِّصال، وانفصال معية ذاتية لا صفاتية للتلازم بينهما أي:

=

الثاني نور وارد الإقبال: ومن شأنه أن يكشف ظلمة الأغيار ويظهر بهجة المعارف والأسرار، فتحكم البصيرة بضرر الأغيار وحسن الأسرار، فيقبل القلب على بهجة الأسرار، ويدبر عن ظلمة الأغيار، وهذا هو نور السائرين.

الثالث نور وارد الوصال: ومن شأنه أن يكشف ظلمة الكون ورداء الصون، ويظهر نور تجليات المكون، فيقبل القلب على مشاهدة مولاه، ويدبر عن الالتفات إلى ما سواه، وهذا هو نور الواصلين وهو نور المواجهة ونور ما قبله نور التوجه، وإن شئت.

قلت: هو نور الإسلام والإيمان والإحسان.

فنور الإسلام يكشف: ظلمة الكفر والعصيان ويظهر نور الانقياد، والإذعان، فتحكم البصيرة بقبح الكفر والعصيان، وحسن نور الإسلام والإذعان، فيقبل القلب على طاعة ربه ويعرض عما يبعده من ربه.

ونور الإيمان يكشف: ظلمات الشرك الخفي ويظهر بهجة الإخلاص والصدق الوفي، فتحكم البصيرة بقبح الشرك وضرره وحسن الإخلاص، وخيره، فيقبل القلب على توحيد ربه، ويعرض عن الشرك وشره ونور.

الإحسان يكشف: ظلمة السوى ويظهر نور وجود المولى، فتحكم البصيرة بقبح ظلمة الأثر وحسن نور المؤثر فيقبل القلب على معرفة مولاه، ويغيب بالكلية عما سواه وإن شئت قلت: هذا النور هو نور الشريعة والطريقة والحقيقة.

فنور الشريعة يكشف: ظلمة البطالة والتقصير ويظهر نور المجاهدة والتشمير، فتحكم البصيرة بقبح البطالة وحسن المجاهدة فيقبل القلب على مجاهدة الجوارح في طاعة مولاه ويدبر عن متابعة حظوظه وهواه، ونور الطريقة يكشف: ظلمة المساوئ والعيوب، ويظهر بهجة الصفاء، وما يثمره من علم الغيوب، فتحكم البصيرة بقبح العيوب وحسن الصفا وعلم الغيوب، فيقبل القلب على ما يوجب التصفية، ويدبر عما يمنعه من التخلية والتحلية.

ونور الحقيقة يكشف: ظلمة الحجاب ويظهر له محاسن الأحباب، أو تقول: نور الحقيقة يكشف له ظلمة الأكوان ويظهر نور الشهود والعيان، فيقبل القلب على مشاهدة الأحباب داخل الحجاب، ويدبر عما يقطعه عن الأدب مع الأحباب، جعلنا الله معهم على الدوام في هذه الدار وفي دار السلام آمين.

ولما كان أصل كل نور وسر وخير هو طاعة الله، وأصل كل ظلمة وحجاب وبُعد هو معصية الله، ومن علامة حياة القلب: فرحه بالطاعة وحزنه على صدور المعصية، نبَّهك الشيخ على وجه الفرح بالطاعة التي هي سبب نور القلوب، ومفاتيح الغيوب.

بين الذات والصفات كما مرَّ وما ذكره الشيخ قُدِّس سرّه في حق من سبق ذكره نوره وهو المبتدئ، فإنه بذكر الحق يستنير قلبه، فإذا لازم الذكر يستنير قلبه، وبعضهم سبق نورهم عن ذكرهم، وهم الذين استنارت قلوبهم بجذبة الحق تعالى التي توازي عمل الثقلين فكانوا ذاكرين، فالأول سالك، والثاني مجذوب، والأول ينتقل من الآثار إلى الأسماء والصفات ومنها إلى الذات، والثاني ينتقل من الذات إلى الأسماء والصفات ومنها إلى شهود الآثار في الممكنات، وقد يلتقيان في الطريق، فالأول في الترقي، والثاني في التدلي، والسالك إن كان مجذوبًا وكذا المجذوب إن كان سالكًا صاحب صحو ومحو وحضور، وغيبة وجمع وفرق وفناء وبقاء لا يحجبه أُحد المتقابلين عن الآخر، والمجذوب فقط صاحب الحقيقة غاب وفنى بالشهود محجوب بالسكر عن الصحو والمحو، وبالجمع عن الفرق، وبالفناء عن البقاء، وبالغيبة عن الحضور ومع ذلك فهو عبد مواجه بالحقيقة باهر عليه سناها وسالك للطريقة قد استولى على مداها، بخلاف السالك فقط فإنه منهمك في ذنب وجوده، وقويت دائرة حسِّه، وانطمست حضرة قدسه فهو من الغافلين الذين لم يشهدوا الكل من ربِّ العالمين، ويشهدون الأفعال من المخلوقين، فإن اعتقدوا ذلك فهو شرك جلي، وإن يستندوا لهم فهو شرك خفي أعاذنا الله وإياكم من جنس الشرك: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ**﴾ [النساء:٤٨]، فاترك ما هنا لما هنالك، وإلا فأنت هالك من الهوالك.

٨٧- من أكثر من اسمه اللطيف، ذهب عنه كل كثيف.

قوله: (**من أكثر من اسمه اللطيف، ذهب عنه كل كثيف**) أي: من خواص الله تعالى الخاص، وهو اسمه الجامع: الله، إذا ذُكر استنار القلب كما مرَّ.

ومن خواص اسمه الخاص الذي هو اللطيف إزالة كثافة ذاكره، فكل من أكثر، وبالغ في ذكر هذا الاسم الشريف باعتقاد تام، وهمّة حسنة، وحضور قلب ذهب وزال عنه كل ما هو كثيف من الرذائل، والأحوال الرَّدية الظاهرة والباطنة لتحقق مضادة اللطيف الكثيف، ولاخفاء في زوال الشيء بضده كزوال الحركة بالسكون وبالعكس وغير ذلك من الأضداد، وذكره الموجب لذهاب الكثيف أن يكون مُحلى باللام كما عبر عنه به الشيخ ﷺ؛ لأن تأثير الأسماء المعرفة باللام أشدُّ من تأثيرها بالياء، فإذا أذهب عنه الكثيف

فسيرى فيه النور ظاهرًا وباطنًا، فيكون هو نورًا، وفيه نورًا، ومن جهاته الست نورًا، فيعيش بالنور، ويموت بالنور، ويحشر بالنور، ويدخل الجنة بالنور، فيكون نورًا على نور، وصاحب هذا المقام قد يرتفع حجابه، ومن ارتفع حجابه رأى من ورائه كما يرى من أمامه بحكم الإرث لرسول الله ﷺ كما صرح به الشيخ الأكبر قدس سره في «الفتوحات المكية» في الباب السادس عشر وما يتبين وقال فيه، وقد ذقنا هذا المقام، ولله الحمد.

٨٨- من لازم لذكر الله، قطعه عن كلّ شيءٍ سواه.

ثم أشار الشيخ قُدّس سرّه إلى فائدة أخرى للذكر وهي أعظمها وأنهاها، فقال قدس سره: (**من لازم لذكر الله قطعه عن كلّ شيءٍ سواه**) أي: الذي داوم على ذكر الحقّ ولازمه قطعه الله أو ذكره عن كلّ شيءٍ صفته سواه تعالى بأن تضمحل مكوناته، ولا يبقى إلا المكون لوجود تجلّي الحق تعالى بالمذكور حقًا، فيدخل نور الذكر في باطنه وذلك النور من نور الله القديم، وإذا قورن الحادث بالقديم تلاشى الحادث ويبقى القديم، والمراد أنه ينقطع عن كلّ شيءٍ بأنه سواه أو عن كونه سواه؛ لأنه ينقطع عن الأشياء؛ لأنها موجودات بوجود الحق لا معدومات، فلا يمكن الانقطاع لأحدٍ عن الأشياء، وإنما الانقطاع عن كونها سواه وغيره تعالى، ففي الابتداء يرى الأشياء غيرًا وسوى وإنها ذوات مستقلة بنفوسها عرض عليها وجود زائد عن وجود الحق، فإذا لازم الذكر يحصل له النور الموجب لكشف المستلزم لمعرفة الأمور على ما هي عليه، فحقًا يكشف له أن الأشياء أعراض لا ذوات، وقيامها بالله لا بنفوسها، ووجودها هو وجوده تعالى؛ لأن الوجود عرض عليها، وقولهم: الأشياء معدومات وموهمات وهالكة وفانية وأمثال ذلك مع أنه لا يتطرق إلى الوجود الحق هذه الأحكام المذكورة، فالمراد أنها ليست موجودة بوجود زائد عن وجود الحق؛ لأنها هالكة ومعدومة بالكيلة لا وجود لها مطلقًا، فإنه تعالى متجلّي في كلّ شيءٍ، وسار بهويته الغيبية في كلّ شيءٍ، فلا غير ولا سوى من حيث الوجود ومن حيث الذات فكل شيءٍ مفقود.

٨٩- من لم يفقد ذاته، لا يشهد بركاته.

ولهذا قال الشيخ قدس سره: (**من لم يفقد ذاته لا يشهد بركاته**)، ومعنى فقدان الذات الفناء في الله أي: الذي لا يخرج عن وجوده، ولا يتحقق بأنه الفاعل الموجود لا غير فلا

يشهد بركاته المستعدة له في الأزل أي: تمامها وأن يرى بعضها، ومن فقد ذاته بأن خرج عن الوجود والإرادة لنفسه وأثبتها لله وحده يشهد جميع بركاته الأزليَّة الثابتة له في حضرة العلم الأزلي، والمراد بشهود البركات ذوقها لا العلم بها، فإن العلم بالشيء دون ذوقه لوجود العلم بالولاية من غير أن يكون الشخص وليًا وبالعسل بالرؤية، أو وصف الغير تأمل من غير أن يكون آكلاً له، فإذا لا يذوق البركات إلا مفقود الذات ولا صفات وترك الصفات؛ لأن فقدها لازم لفقد الذات، ويُحتمل أن يكون الضمير في بركاته للحق تعالى، وحقًا يكون للكلامين معنيين الأول ما هو الظاهر المتبادر أي: لا يذوق بركات الحق تعالى إلا مفقود الذات وغيره يعلمها، وشتان بين الذائق والعالم، والثاني لا يذوق بركات الحق تعالى ويشهدها ويعانيها إلا المفقود المذكور، فإنه يشهد الجميع بركاته تعالى وغيره ليس كذلك، فإنه لا يشهد الجميع بركاته بل يعلم أو لا يعلم أصلاً، فإن هذه المشاهدة لا تكون إلا بالذوق ولا ذوق له والعلم لا يكون إلا بالتسليم أو الاعتقاد ولا تسليم له ولا اعتقاد وكون الجميع بركات من حيث الحقيقة، ونفس الأمر فإن الأشياء كلها بالنسبة إلى الحق بركات، وذات قدرٍ وكمالٍ والدُّنيا والنقص أمر عارض، ومن هنا يلزم الرحمة والشفقة لجميع خلقه الله، وأن لا يحتقر شيئًا من الأفعال والأعمال والأقوال؛ لأن الله تعالى ما احتقره لـــمَّا أوجده وليس شيء موجود إلا وله تعالى بذلك الشيء عناية مع أن الوجود المطلق سار في الأشياء والمعية ثابتة بنصه، فالأشياء كلها حق من حيث وجوده، وباطل من حيث أن ليس له وجود من ذاته، فمن شهد تلك المعيَّة لفرش جناح الذل للكلِّ فما استكبر مخلوق على آخر إلا وهو لها منكر، فمشاهدة البركات والخيرات موقوفة على فقد الذات.

٩٠- من لم يكمل عقله لا يمكن نقله.

فكما أن (من لم يفقد ذاته لم يشهد بركاته) كذلك: **(من لم يكمل عقله لا يمكن نقله)** كمال العقل بنور الإيمان كما أن كمال الإيمان بنور الإيقان، فمن لم يكمل يقينه بنور شهود الوجود على ما هو الأمر عليه لا يكمل إيمانه، ومن لم يكمل عقله لا يمكن نقله أي: مُحال نقل الله تعالى إياه من النقص إلى الكمال، ومن البشرية إلى الملكوتيَّة، ومن الصفات الرذيلة إلى الخصال الجميلة، أو لا يمكن نقله إلى المقامات العليّة والمراتب السنية، فمن كمل عقله بنور الإيمان بالله الذي يطير بجناح القدرة السارية في كلِّ شيءٍ يرجح

الآخرة المرضية على الدنيا المردودة الدنيَّة، فلا يترك جانب العقبى لأجل الأولى، بل يترك جانب الأولى للآخرة، فحقًا يمكن أن ينقل إلى المراتب العلية والدرجات الرفيعة أي: يستحق للنقل سواء وقع انتقاله أو لا، فالمستحق من كل الوجوه يعطي الحق ولو بعد الموت، فلا تتهم الربَّ بعدم الفتح فإنه ادَّخر لك ما فتح لمن على قدمك، وقال قدس سره في «الفتوحات المكية» في الباب الثاني والثمانين ومائتين: «اعلم أن الفتح بعد المجاهدات والرياضات أمر لازم لا بد منه تطلبه الأعمال وتناله الأنفس، ولكن متى يكون ظهور ذلك الفتح؟ هل هو في الدنيا؟ أم في الآخرة؟ ذلك إلى الله تعالى».

فقد يكون الفتح والترقي في الحياة قد يكون في الممات أي: الآخرة يكون هذا من باب الترقي بعد الموت، وهو منكر غير ثابت لقوله تعالى: ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء:٧٢].

ولقول الرسول ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله**[1]» الحديث.

وأثبته الشيخ ﷺ في «الفصوص»، و «الفتوحات المكية»، وقد اجتمع بمن سلف من الكبراء مثل ذي النون المصري، والجنيد البغدادي، وسهل بن عبد الله التستري، ويوسف ابن الحسين، والحلاج قدس أسرارهم، وأفادهم من المعارف التوحيدية ما لم يكن عندهم.

ومنها أنه أفادهم صورة الترقي بعد الموت في المعارف الإلهية، ويجاب عن الآية الكريمة بأنها إنما هي بالنسبة إلى معرفة الله تعالى لمن لا معرفة له أصلاً، فإذا انكشف الغطاء ارتفع العمى بالنسبة إلى دار الآخرة ونعيمها وجحيمها والأحوال التي فيها، وعن الحديث بأنه يدل على أن الأشياء التي يتوقف حصولها على الأعمال لا تحصل بعد الموت، ولما لا ؟ بل بفضل الله ورحمته فقد يحصل والمعارف اختصاصية لا كسبية، فلا يبعد أن يحصل لمن يؤمن بأهل الكشف في الدنيا، ويعمل بأعمالهم الترقي في تفاصيل ما آمن به، وألقى السمع إلى مجملات الأصول والفروع من قوانين الحقيقة والتوحيد في الآخرة؛ لأن أهل الكشف ممن لا يشقى جليسهم.

فالإنسان دائمًا أولاً وآخرًا أنا فأنا في الترقي من صورة إلى صورة ظاهرًا وباطنًا، لكن للطافة الحجاب الساتر وجه اتحاد الصورتين، وهو ما به الامتياز وتشابه الصور بحيث لا

(١) تقدم تخريجه.

يتميز أحدهما عن الأخرى ظاهرًا لا يشعر بالترقي، ومن أراد تحقيق هذه المسألة فليرجع إلى الكتابين المذكورين للشيخ قدس سره العلي.

٩١- من لم يسكن شواهق الجبال، لا يقدر على محض الحلال.

واعلم أن للعقل ما ينقصه وما يكمله، فما ينقصه الأكل الكثير ولو من الحلال الصرف، ومما يكمله قلة الأكل من صرف الحلال، وصرف الحلال لا يوجد إلا لمن يسكن شواهق الجبال، كما قال الشيخ قدس سره: (**من لم يسكن شواهق الجبال لا يقدر على محض الحلال**) (**شواهق الجبال**) و (**محض الحلال**) من باب إضافة الصفة إلى موصوفها كجرد قطيفة أي: الجبال الشاهقة أو الشواهق بالأفراد أو الجمع؛ لأن المشتق إذا أسند إلى ضمير الجمع كما وقع هنا يجوز إفراده مع التأنيث باعتبار الجماعة، ويجوز الجمع والإفراد أولى؛ لأنه أخصر الحلال المحض، فمن أراد أن لا يأكل إلا من الحلال المحض فيسكن في الجبال الشاهقة العالية التي لا يطلع عليها إلا أحاد الناس، أو لا يروح إليها أحد، فيأكل مما فيها من حشيشها وفواكهها الموجودة فيها، أو مما يزرعه بنفسه من ماله الخالص الذي لا شبهة فيه، ولو قلنا: لا يكون الحلال الصرف في هذا الزمان إلا ما كان في الجبل قبل لم يبعد عن الصواب؛ لأن الحلال الصرف في زماننا هذا صار كالكبريت الأحمر، ومن لم يسكن الجبال العالية لا يقدر أبدًا على تحصيل الحلال المحض والتصرف فيه بالأكل أو اللبس أو الفراش لما مرَّ آنفًا، وإن لم يمكن لك السكون في شواهق الجبال فعليك بترك الفضول ولو من الحلال.

قال الشيخ الأكبر في «الفتوحات المكية» في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة الذي جمع فيه جميع أسرار الفتوحات من أولها إلى آخرها: «إذا حُققت الأصول فلا زهد إلا في الفضول، وأما ما تدعو الحاجة إليه فذلك المعول عليه».

وقال فيه أيضًا: «ما حال بينك وبين حقك إلا عجلتك بنطقك، فإن الرزق مقسوم لا ينقص، ولا يزيد بسؤال أحد من العبيد مع أن طلب المزيد مُركّز في الجبلة في كل نحلة وملة».

وقال فيه أيضًا: «الموت اليوم للمؤمن تحفة، والنعش له تحفة؛ لأنه ينقله من الدنيا إلى محل لا فتنة فيه ولا بلوى» انتهى.

٩٢- في القرن العاشر، احذر أن تعاشر.

فإذا كان زمانه كذا فكيف بزماننا هذا؟ بل بما مضى من القرن العاشر إلى الآخر كما أشار إليه قُدِّس سرُّه العزيز بقوله: (**في القرن العاشر احذر أن تعاشر**) يعني: إذا بلغت إلى القرن العاشر من قرون الهجرة، فاحذر وأنت أيها السالك حذرًا تامًا من أن تعاشر أحدًا من خلق الله من نوع الإنسان من العوام أو الخواص.

أمَّا العوام فاترك معاشرتهم بالكلية؛ لأنهم يقطعونك عن السلوك وغيره مما أنت فيه فهم من الموانع وقطع الموانع واجب على السالك والطالب.

وأمَّا الخواص فاترك معاشرتهم بالكثرة ولا تروح إليهم إلا بالقلة؛ لأن مجلسهم غالبًا لا يخلو عن المحرمات والمكروهات، بل أكثرهم قعدوا على السجادات من غير إذن من الله تعالى، وادَّعوا المشيخة وليس لهم في الطريقة قدم.

ولهذا منع بعض المشايخ تلامذته عن أخذ الطريقة عن مشايخ هذا القرن وما بعده بعد موت الشيخ.

وعن الرواح إليهم إلا نادرًا بقصد الزيارة والتبرك، وقد مرَّ بسط هذا في شرح قوله: (وإن ظفرت بشيخ من الأبدال... إلخ)، فارجع إليه، ولا تطلب التكرار لوصفه بالقبح عند الصغار والكبار مع أنه لا تكرار أصلاً عند المحققين ذوي العز والاقتدار.

٩٣- في القرن العاشر من الأهوال، ما يكفي عن المقال.

ثم ذكر بعض أوصاف القرن العاشر، وما ينبغي أن يعمل فيه ليكون كالعلّة للحُكم المذكور، ولأن تقيس ما بعده عليه، وتعلم ما ينبغي أن تعول فيه عليه، فقال قُدِّس سرّه: (**في القرن العاشر من الأهوال ما يكفي عن المقال**) (**في القرن**) جار ومجرور خبر مقدم عليه للحصر والاهتمام، و(**ما**) موصولة مبتدأ، والجملة التي بعدها صلتها.

و (**من الأهوال**) بيان لما قدم عليه لرعاية القافية، و (**في القرن العاشر**) جملة ظرفية لا محل لها من الأعراب، والموصول فاعل الظرف مجازًا ولمتعلقه حقيقة، والأولى أن تكون (**ما**) موصفة لا موصولة؛ لأنه المناسب للمقام لاقتضائه التعظيم وهو حاصل بالإبهام أي: الأشياء التي تُغني عن القول بها لبداهتها ومعلوميتها عند كلّ أحد التي هي الأهوال

والمخاوف والمهالك حاصلة وموجودة في القرن العاشر، وما قبله ما وجدت هي فيه أو شيء عظيم يكفي عن القول صفته من الأهوال، والمخاوف موجودة في القرن العاشر لا في غيره، فإذا كثرت المفاسد، ووقعت الفتن يشرع في الضعف الدين، كما وقع في القرن العاشر باليقين، ثم تزيد الفتن شيئًا فشيئًا، ويزيد ضعف الدين أنا فأنا إلى تقدح الفتنة في الدلائل التي قرَّروها أهل الكلام في العلم بالنبوات من الأمور الخارقة للعادة من إحياء الموتى وغير ذلك الدالة على صدق دعوى النبي للنبوة والرسالة، وتلك الفتنة فتنة الدجالة إذ بها يبطل كل ما قرروه في الكلام؛ لأنه يدَّعي الأُلوهية، ويظهر ما يخيل صدق ذلك الدعوى من الأمور الخارقة للعادة فليس أعظم منها، ولهذا أمرنا بالاستعاذة من فتنة مسيح الدجال، وأحسن العلاج للخلاص من الأهوال والفتن الخمول.

٩٤- في العاشر من القرون كن في الخمول مدفون.

فقال قُدِّس سرّه: (**في العاشر من القرون كن في الخمول مدفون**) أي: في القرن الواقع في المرتبة العاشرة من القرون كن أيها السالك في الخمول وعدم الشهرة والستر مدفونًا ومستورًا، و(**المدفون**) خبر كن فهو منصوب بالخيرية لكن حذف ألف النصب للمشاكلة القرون رعاية لتوافق الفقرتين، فاستر أيها السالك كالبذر تحت الأرض نفسك، واجعل الخمول والسكوت شعارك، ولا تظهر صلاحك وفضلك؛ لأنه:

٩٥- في العاشر من القرون تسوء بالصالحين الظنون.

قوله: (**في العاشر من القرون تسوء بالصالحين الظنون**)، فالناس يظنون بهم ظن السوء، وسوء الظن بالمسلمين حرام في الشريعة، ومن دأبهم إساءة الظن بالصالح، فإظهار الصالح صلاحه يكون سببًا لإساءة ظنهم، فيكون هذا من باب الإعانة على المعصية وهي حرام كسوء الظن، فيكون في القرن العاشر، وفيما بعده بالطريق الأولى إظهارًا لصلاح، وطلب الشهرة حرامًا كإساءة الظن بالمسلم، لكن إذا وقع الاشتهار والظهور على العبد من الحق تعالى بلا طلب منه ويكون هو والخمول عنده سواء، بل طرف الخمول عنده أرجح فلا بأس به، ومع ذلك الأولى الخمول لكون السلامة فيه، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

وينبغي أن يعرف أن الخمول للسالك الغير الواصل الكامل، وإلا فالإظهار قد يجب عند الأمر، وقد يستحب عند المصلحة، وقد يجوز، وقد يحرم إذا كان المُظهر لما ذكر

واصلاً كاملاً، فلا يكون الحكم المذكور على الإطلاق، وكل أمر مريده بالخمول؛ لأنه الموجب للوصول، وبه تعرف الأمور على اليقين، ويوصل إلى الحقيقة الدين الخالص لله.

٩٦- ما الدين كثرة صوم وصلاة إنما الدين خوفك من الله الذات.

وهو ما أشار إليه الشيخ قُدِّس سرّه العزيز بقوله: (**ما الدين كثرة صوم وصلاة إنما الدين خوفك من الله الذات**). (**الدين**) لغة يطلق على معان ثلاثة الانقياد والجزاء والعادة، وفي الشرع يطلق على ما شرَّعه الله تعالى لعباده من الأحكام، أو ما شرعه بعض عباده، واعتبره الله سبحانه اعتبار ما شرعه من عنده تعالى، وما كتبه الله تعالى عليهم وسموا هذا الدين بالنواميس الحكمية أي: الشرائع المشتملة على الحكمة الإلهية، والمصلحة الدينية التي لم يجبَ الرسول المعلوم بها في حق العامة من عند الله بالطريقة الخاصة المعلومة في العرف، وهي طريق الوحي الجلي، فهو موافق لما شرعه الله تعالى في الغاية، وهي المعارف الإلهية، والكمالات النفسانية، والمراتب الأخروية، وذِكر (**الذات**) بعد الاسم (**الله**) إشارة إلى أن الاسم هو عين المسمى، وأنه لا يخاف منه، وإن وصف الاسم والحكم عليه وصف المسمَّى وحكم عليه، فإن الحسنى في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ [الأعراف: ١٨٠] صفة لمعاني الأسماء في الحقيقة وبالأصالة؛ لأن الألفاظ لا تتصف بالحسن والقبح إلا بتبعية المعاني الدالة عليها تلك الألفاظ، فلا اعتبار لها من حيث الذات، فإنما هي حروف مركبة ونظم خاص هذا إذا قلنا: في لفظ (**الله**) بالاشتقاق كسائر الأسماء الصفاتية من العالم والقادر والمعز والمذل وغير ذلك.

وأمَّا إذا قلنا: بأنه علم بالوضع على الذات الذي بيده ملكوت كل شيءٍ، ويدل عليه بالمطابقة كالأسماء الأعلام وهو الأصح والمختار.

وعند الشيخ الأكبر قدس سره فلا ينحصر فيما ذكر بل فيه إشارة أيضًا إلى أن أسماء الله تعالى كلها فيها سوى العلمية من معنى زائد على الذات إلا الله، فإنه اسم علي لا يفهم منه إلا الذات ولا يدلُّ على مدح ما حاصله ولا ذم.

قال الشيخ قدس سره في «فتوحاته المكية» في الباب السابع والسبعين ومائة ما حاصله: «ما سمي علم ما فيه سوى العلمية لله تعالى أصلاً إلا إن كان ذلك في علمه، أو ما استأثر الله به في غيبه مما لم يبده لنا».

ثم استدل له بأنه ما أظهر أسماؤه لنا إلا للثناء بها عليه، فمن المُحال أن يكون فيها اسم علم أصلاً؛ لأن أسماء الأعلام لا يقع بها ثناء على المسمَّى لكنها أسماء أعلام للمعاني التي تدل عليها، وتلك المعاني هي المُثنى بها عليه تعالى، والاسم الله فيدل على الذات بحكم المطابقة كباقي الأعلام انتهى باختصار.

فمن كثر صومه وصلاته، فلا يكون له خوف ممن له الصوم والصلاة بأن يرتكب ما لا يجوز ارتكابه شرعًا لبعض أهل الظلم وغيرهم يكثرون الصوم والصلاة، ويقرءون الأوراد، ويذكرون الله تعالى لكنهم يظلمون الناس بأخذ المال منهم وغيره، وأنفسهم بأكل الحرام والغيبة وغيرهما، فهو ليس من أهل الدين، ولا دين له خالصًا له تعالى، ومن يخاف من الحق تعالى ولا يرتكب ما لا يجوز ارتكابه، وإن لم يعمل من الصوم والصلاة، وإلا ما لابد منه كالطائفة الملامية، فهو ممن له دين خالص لله تعالى ومن أهل الدين، ومن ثَمَّة جعلوا حفظ آداب الشريعة كرامات للخواص، وطي الأرض ونحوه كرامات للعوام؛ إذ الأول لا يدخله مكر ولا استدراج بخلاف الثاني.

وقال الشيخ قدس سره في «فتوحاته» في آخر الأبواب الباب الموفي ستين وخمسمائة: «كم من ماش على الأرض والأرض تلعنه، وكم من ساجد عليها وهي لا تقبله، وكم من داعٍ لا يتعدى دعاؤه لسانه، ولا خاطره محله، كم من ولي حبيب في البيع والكنائس، وكم من عدو يغيض في الصلوات والمساجد».

حقت الكلمة، ووقفت الحكمة، ونفذ الأمر، فلا زيادة ولا نقصان لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه.

٩٧- وحي الأنبياء بالملائكة الكرام، ووحي الأولياء بالإلهام.

ثم أشار إلى أن ما يلقى إلى الأنبياء والأولياء من ورثتهم يسمى وحيًا بالمعنى العام، فقال قُدِّس سرَّه: (**وحي الأنبياء بالملائكة الكرام ووحي الأولياء بالإلهام**) أي: الوحي النازل على الأنبياء بواسطة الملائكة الكرام، والوحي النازل على قلوب الأولياء بواسطة الإلهام، ففيه إطلاق اسم الوحي على ما أنزل إلى الأولياء كإطلاقه على ما أنزل إلى الأنبياء، وفيه أيضًا الفرق بين وحي هؤلاء وهؤلاء بأن الواسطة في الأول الملك، وفي الثاني الإلهام، وهو النفث في الروع من وحي القدوس، ويقال للأول: وحي الكلام وللثاني وحي الإشارة والعبارة.

واعلم أن الوحي خاص وعام، فالوحي الخاص الإلهي الذي هو الإنباء والإخبار عن الحق تعالى الذي لا يتحقق إلا مع النبوة، والوحي العام هو الإنباء الذي يتحقق مع النبوة وبدونها، والأول منقطع بموت نبينا ﷺ حيث قال ﷺ: «**لا نبي بعدي**[١]».

وأمَّا وحي الولاية فغير منقطع، فلذا صارت الولاية فلكًا محيطًا عامًا، أمَّا كونها فلكًا؛ فلأنه معنى كلي، وأمَّا كونها محيطًا أي: بكل نبي ورسول وولي، وأمَّا عمومها فعلى النشأتين الدنيوية والأخروية وشمولها لجميع أحيانها، فالأنبياء هم الأولياء العارفون الموصوفون بالنبوة العامة الغير المنقطعة وهي التشريع، والأولياء هم العارفون الموصوفون بالنبوة الخاصة الغير المنقطعة وهي الإنباء العام، فإنهم فانون في الله باقون به، فلهم الإطلاع على الحقائق والمعارف الإلهية فينبئ عنها، فالنبي إذا تكلم بما هو خارج عن التشريع كقوله عليه الصلاة والسلام: «**لو دليتم بحبل لهبط على الله**[٢]».

وكحديث النوافل، وغيرها مما يتعلق بكشف الحقائق والأسرار، فمن حيث أنه ولي وعارف لا من حيث أنه نبي ورسول، فالنبوة والرسالة أخص مرتبة في الولاية، والرسالة أخص مرتبة في النبوة، فولاية النبي والرسول أعلى وأتم من نبوته ورسالته؛ لأن مرجعهما في تشريع الأحكام إلى الولاية؛ إذ ما لم يأخذا الأحكام من الله تعالى بجهة الولاية لم يتمكنا من التشريع والتبليغ بجهة الرسالة والنبوة.

والمراد (**بالولاية**) هنا العلم بالله تعالى كشفًا وشهودًا، وأمَّا تعريفها بالفناء في الله والبقاء به فهو تعريف لما لا يكون ذلك العلم والكشف والشهود إلا به، والنفث إرسال النفس، ثم استعير للإفاضة والرُّوع بضم الراء القلب، ووحي القدس هو الحاصل من روح القدس، وهو مأخوذ من قوله ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها**[٣]».

فالله تعالى أفاض على قلوب الأنبياء والأولياء بالولاية التامة الكاملة الخاصة علومًا ومعارف لا تحملها العبارات والألفاظ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢٦١).

(٣) رواه الشافعي (ص٢٣٣)، وذكره العجلوني (١/١٥٤)، والقرطبي في (١٦/٤٨).

٩٨- قوالب ألفاظ الكلمات لا تحمل عبارات معاني الحالات.

كما قال قُدِّس سرّه: (**قوالب ألفاظ الكلمات لا تحمل عبارات معاني الحالات**) المراد (**بالكلمات**) ما يعمُّ الكلام، والمراد النفسي فحقًا إضافة القوالب بيانية، وإضافة الألفاظ لامية؛ لأنها موضوعة للمعاني المعقولة والنفسية، أو المراد بالكلمات اللفظية دون النفسية، وحقًا تكون الإضافتين بيانية، والمراد (**بعدم تحمل الألفاظ عبارة معاني الحالات**) عدم التعبير بها عنها أي: (**القوالب**) التي هي الألفاظ الموضوعة للمعاني العقلية لا تسع عبارة معاني الحالات، أو القوالب التي هي الألفاظ التي هي الكلمات لا تحمل أداء معاني الحالات والتعبير عنها بها؛ لأن الألفاظ والكلمات موضوعة بإزاء المعاني المعقولة فما لم يعقل لا يوضع له لفظ، ولا يمكن الأداء به ومعاني الحالات فلا يمكن أدائها بالألفاظ إلا على سبيل التشبيه والمجاز، ولهذا لا يمكن معرفة تلك المعاني إلا بالذوق والوجدان بأن تصير تلك المعاني أحوالات كالقيام والقعود والأكل والشرب وغيرها، ولا تفهم تلك المعاني إذا كانت مقولات ومسموعات بأن تؤدى بالقول، وتقع في السماع، لكن من كانت هي حاله يفهمها بالعبارات والإشارات وبدونها كما هو الظاهر.

٩٩- الرؤية لذات الله ممنوعة.

ثم قال قُدِّس سرّه بلسان القال دون الحال، وبالعبارة دون الاعتبار: (**الرؤية لذات الله ممنوعة**) أي: رؤية الغير أو العبد، والأول أنسب بالحقيقة، والمراد (**بالذات**) هو المعنى الذي يقع عليه جميع العبارات من وجه واحد، ولا تؤديه من وجوه متعددة، فلا يحكم عليه بشيءٍ من وجهٍ واحد، ولا تؤديه من وجوه متعددة، فلا يحكم عليه بشيءٍ، ولا يجوز النفي عنه لشيءٍ، وهو المسمَّى بالذات البحت والغيب المطلق عن الإطلاق، وكونها ممنوعة من الرؤية، أو كون الرؤية ممنوعة منها مأخوذ من الآية والحديث والعقل.

فالعبد من حيث أنه عبد لا يرى ذات الله تعالى حيث قال الله تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾ [آل عمران:٢٨] أي: من أن تتفكروا فيه للمعرف فلا يُعرف فلا يُرى فلا يُشاهد.

وقال النبي ﷺ: «**لا تتفكروا في ذات الله، وتفكروا في آلاء الله**[(١)]».

والحديث بالتقديم والتأخير وكون التخلية مقدمًا على التحلية يؤيد الأول، ولأن الرؤية وغيرها من الأحكام مستلزمة للتقييد وهو من الله محال، فرؤيته ممنوعة لمُحاليتها، فالإحاطة كالرؤية ممنوعة أيضًا لعدم التناهي، وما لا يتناهى لا يحاط به هذا ظاهر في حق غير الله تعالى، وأمَّا في حقه تعالى فكذلك عند هذه الطائفة؛ لأنه تعالى عالم بنفسه أنه لا تدرك حقيقته ولا يحاط بها، وعند علماء الرسوم ففيه خلاف فقال بعضهم: إنه لا يعلم نفسه لأنه يلزم منه الإحاطة وهي مُحال، فالعلم بنفسه مُحال، وقال بعض آخر منهم على وجه النصرة للحق تعالى:

إنه يعلم نفسه على وجه الإحاطة، وكلاهما على الحقيقة غير صحيح والأول أولى من الثاني؛ لأن له وجهًا إلى الصحة دون الثاني، وتفصيل هذا المقام بحيث يؤدي تمام المراد يحتاج إلى مجلدات كثيرة، بل لا يؤدى بالعبارة ولا بالإشارة لا قليلة ولا كثيرة.

فالذات من حيث هي لا ترى مع أنها عين ما يرى، فالله تعالى من حيث البطون والكنـــزية لا يرى، وعلى هذا يحمل الآية الكريمة، ومن حيث الظهور يرى؛ لأنه ظاهر كل شيء كما هو باطن كل شيء ومن هنا يقال: الحق تعالى هو الظاهر المحسوس والخلق هو الباطن المعقول؛ لأن وجود الخلق بالعقل والخيال، وفي نفس الأمر الوجود لغيره تعالى مُحال، وإليه أشار الشيخ قُدِّس سرَّه بقوله: (**ومشاهدة الصفات مجموعة**) أي: مشاهدة الغير أو العبد لصفات الحق تعالى إجماعي متفق عليها؛ لأن المشهودات كلها إنما هي آثارها بل عينها؛ لأنها مظاهرها، والمظاهر عين ما ظهر فيها.

وقال: في الأول بالرؤية، والثاني بالمشاهدة إمَّا لأن الاصطلاح على هذا أو تفننًا في العبارة أو شيء آخر في رمز الإشارة، فذات الله لا ترى لـــما مرَّ، وصفاته ترى لمنطوق الآية ونص الحديث المذكورين، وهو المراد من القول: بأنه تعالى ذات لا ترى عين ما يرى؛ لأن بطون الحق كنـــز لا يرى، وظهوره هو عين ما يرى، أو المراد (**بالرؤية،**

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١/١٣٦)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣/٢٦٣)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/٣٧٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢٥٤).

والمشاهدة(١) بالبصيرة لا بالبصر.

---

(١) قال الشيخ الشعراني: اعلم يا أخي رحمك الله أن رؤية الحق سبحانه وتعالى لا يعرف حقيقتها إلا من عرف حقيقة رؤية رسول الله ﷺ، أو غيره من الأموات، وأنه مثالٌ ينتجه الله تعالى من تلك الذات المرئية في عالم الخيال، فيرتسم في النفس بصورة المرئي، فليس مراد الرائي الصادق برؤية رسول الله ﷺ في المنام رؤية حقيقة شخصه ﷺ الموقع في قبره الشريف بالمدينة؛ فإن ذاته الشريفة منـــزَّهةٌ عن كُلفة المجيء والرواح من البرزخ إلى مكان الرائي، وربما رآه ﷺ ألف واحد في ليلة واحدة في ألف موضعٍ، وهو في كل موضعٍ على حالةٍ لا تشبه الأخرى، ومثل ذلك محالٌ في العقل، وإن كانت القدرة الإلهية أوسع من ذلك، وهذا هو معنى حديث:

مَنْ رآني في المنام فَقَدْ رآني حقًّا؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّل بي.

فليس معناه أنه رأى روح النبي ﷺ ومظهر ذاته، وإنما معناه أنه رأى مثال روحه المقدَّسة، التي هي محلُ النبوة، فإن روح رسول الله ﷺ الباقية بعد موته منـــزهةٌ عن الصورة والشكل؛ فافهم، بخلاف المثال؛ فإنه لا يكون إلا مشتملاً على الشكل واللون والصورة، هذا لا بدَّ منه في طريق التعريف، وإلا لم يكن يُعرف.

وكذلـــك القـــول في رؤية ذات الله ﷻ، فإنها منـــزَّهة عن الشكل والصورة، ولكن لا يتعقل عبدٌ معرفتها إلا بواسطة تخيل مثال محسوسٍ في الصورة الجميلة التي تصلح أن يُمثَّل بها ذلك الجمال الحقيقي المعـــنوي، الـــذي لا صورةَ فيه ولا لَون ولا شكل، ثم يطلق على ذلك المثال أنه حقٌّ وصدقٌ؛ لكونه واسطةً في التعريف، ويقول النائم: (رأيت ربِّي في المنام)، وليس مراده أنه رأى ذات ربه حقيقةً، وإنما رأى مثال ذاته المتخيلة في وهمه.

فإن قيل: إن رسول الله ﷺ له مثلٌ، والله تعالى لا مثل له.

قلنا: هذا كلام من هو جاهلٌ بالفرق بين المِثْل والمثال، فإن المثل هو المساوي في جميع الصفات، والمثال لا يشترط فيه المساواة.

وتأمَّل العقل؛ فإنه معنًى لا يماثله غيره، وكثيرًا ما يمثل بالشمس وليس بينهما من المناسبة إلا شيءٌ واحدٌ، وهو أن المحسوسات تنكشف بنور الشمس كما تنكشف المعقولات بالعقل.

وقد ضرب الله ﷻ المثل لنوره بقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ الآية، وأيُّ مماثلةٍ بين نوره ونور الزجاج والمشكاة والشجرة والزيت، وكذلك ضرب الله تعالى المثل للحياة الدنيا بالماء النازل من السماء، وضرب رسول الله ﷺ المثل للإسلام بالقبة، وضرب المثل للعمل باللبن، وضرب المثل للقرآن بالحبل، فأيُّ مناسبةٍ بين هذه الأمور وبين الأشياء المضروب لها الأمثال، ولكن لما كان الحبل مثلا يُتمسَّك به للنجاة والقرآن يُتمسَّك به للنجاة صحَّ التمثيل به، وقسْ عليه، وكل ذلك من باب المثال لا من باب المثل، فكما صحَّ ضرب الأمثلة لما ذكر صحَّ ضرب الأمثلة لكل عارفٍ لذات الله التي لا مِثل لها لمناسبةٍ معقولةٍ من صفات الله تعالى.

=

واعلم أننا لو أردنا أن نعرف مسترشدًا سألنا: كيف يخلق الله الأشياء؟ وكيف يعلمها؟ وكيف يريدها؟ وكيف يتكلم؟ وكيف يقوم الكلام بنفسه؟!

لا نقدر تعرفه معنى ذلك إلا بما عنده من صفات نفسه، ولولا أنه عرف نظير هذه الصفات من نفسه لما فهم مثال ذلك في حق الله ﷻ.

قلت: إن المثال جائزٌ، والمثل باطلٌ؛ وذلك لأن المثال هو ما يوضِّح الشيء، والمثل ما يشابه الشيء من جميع الوجوه، وليس شيءٌ في الوجود[1] يُماثل الحق تعالى، فالمثال هو المرئي في الدنيا والآخرة، كما سيأتي بسطه في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى؛ لأنه لا يصحُّ لعبدٍ أن يرى الذات المقدسة؛ لأنها تنفي بذاتها أن يكون في حضرتها سواها، وهذا المثال هو المراد بقوله ﷺ: «رأيتُ ربِّي في أحسنِ صورةٍ».

وفي روايةٍ: «في صورةِ شابٍّ»، وهو المراد أيضًا بقوله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ آدمَ عَلَى صورتِهِ».

وفي روايةٍ صححها ابن النجار وأيدها الكشف: «على صورةِ الرحمن»؛ فإنه لا يصحُّ أن يكون المراد بذلك صورة الذات؛ لأن الذات المقدَّسة لا صورة لها إلا من حيث التجلي بالمثال، كما يشهد لذلك خبر مسلم في التجلي يوم القيامة، وكما تجلى جبريل لرسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي.

ومعلومٌ أن تَمَثُّل جبريل في دحية ليس معناه أن ذات جبريل انقلبت صورة دحية، وإنما ظهرت تلك الصورة لرسول الله ﷺ مثالاً مؤدِّيًا عن جبريل ما أوحى به إليه، ونظير ذلك قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، فإذا لم يستحيل ذلك في حق الملك وأن جبريل كان باقٍ على حقيقته وصفته في حال ظهوره في صورة دحية فلا يستحيل ذلك في حق الله تعالى في يقظةٍ ولا منامٍ؛ لاتفاق جميع المحققين أن المرئي مثال الذات لا عين الذات، كما تقدَّم وكما سيأتي، ومن فهم الفرق بين المثل والمثال لم يقف في مثل ذلك، وقد أشار رسول الله ﷺ بأن الله تعالى مثالاً يقع التجلي فيه حتى يُعرف بقوله: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ على صورتِهِ».

وذلك أنه تعالى لما كان موصوفًا بالوجود قائمًا بنفسه حيًا عالمًا مريدًا قادرًا سميعًا بصيرًا متكلمًا كذلك ولو لم يكن الإنسان موصوفًا بهذه الصفات ما صحَّ له معرفة هذه الصفات في جانب الحق تبارك وتعالى، ولا تعقُّلها.

ولهذا ورد في بعض الكتب الإلهية: «مَنْ عَرَفَ نفسَهُ فَقَدْ عَرَفَ ربَّهُ»، ذلك لأن كل ما لم يجد الإنسان له مثالاً في نفسه يعسر عليه التصديق والإقرار به، ومن شكَّ فيما قررناه فليتعقَّل لنا شيئًا لم يخلقه الله تعالى؛ فإنه لا يقدر قطُّ على ذلك، وهذا يصلح دليلاً لمن منع رؤية ذات الله تعالى لولا ما ورد.

ثم اعلم أن الفرق بين الحق تعالى والإنسان أن الحق تعالى يتقلَّب في الأحوال، والإنسان تتقلَّب عليه الأحوال؛ إذ يستحيل أن يكون للحال على الحق تعالى حكمٌ، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فوقعت المشاركة في الأحوال كما وقعت في الأسماء، فافهم هذا الفرق؛ فإنه من أوضح

=

الفروق وأجلاها، فَعُلِمَ أنه ليس المراد بالصورة المخلوق عليها آدم أنها ذات سبع[1] فقط؛ لأن الحيوان كذلك له ذاتٌ، وهو حيٌّ عالمٌ مريدٌ قادرٌ متكلمٌ سميعٌ بصيرٌ، ولو كان المراد ذلك لكان يبطل وجه الخصوصية للإنسان، فإن هذه الصفة إنما جاءت له على جهة التشريف له.

فإن قيل: فما هذا التغيير الواقع للإنسان في نفسه وصورة الحق تعالى لا تقبل التغيير؟

قلنا: الله تعالى يقول: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، ورسول الله ﷺ يقول: «فَرِغَ ربُّك مِنْ ثلاث».

وفي حديث التجلي الأخروي يتجلى لهم الرب في أدنى صورة، ثم يتحوَّل عند إنكارهم إلى الصورة التي عرفوه فيها بالعلامة.

فهو تعالى هو الذي أضاف إلى نفسه هذا المقام، وهو عريٌّ عن مقام التغيير بذاته والتبديل، ولكن التجلي في المظاهر الإلهية على قدر العقائد التي تحدث للمخلوقات مع الأنات، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا وكذلك هو ارتفع الاعتراض الوهميُّ، تعالى الله عن ذلك.

وقد قررنا غير ما مرة أنه ينبغي للإنسان أن يعلم ميزانه من الحضرة الإلهية، فإن الجود الإلهي قد أدخله في الميزان، فيوازن العبد بصورته حضرة موجده ذاتًا وصفةً وفعلاً، ثم لا يلزم من الوزن الاشتراك في حقيقة الموزونين، فإن الذي يوزن به الذهب أو المسك هو صبخة حديد، فليس يشبه في ذاته ولا صفته ولا عدده، فلا يوزن بالصورة الإنسانية إلا ما تطلبه الصورة الإنسانية بجميع ما تحتوي عليه بالأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاده، وأظهرت آثارها فيه، وكما لم تكن صبخة الحديد توازن الذهب في حدٍّ ولا في حقيقةٍ ولا صورةٍ ولا عينٍ كذلك العبد وإن خلقه الله تعالى على صورته فلا يجتمع معه في حدٍّ ولا حقيقةٍ؛ إذ لا حدَّ لذاته تعالى، والإنسان محدودٌ بحدٍّ ذاتيٍّ، لا رسميٍّ، ولا لفظيٍّ.

فالإنسان أكمل المخلوقات وأجمعها من حيث نشأته ومرتبته، فإذا وقفت يا أخي على هذا الميزان زال عنك ما تتوهمه في الصورة من المشاركة للحق في الحقيقة؛ فإن الله تعالى هو الخالق، وأنت العبد المخلوق، وكيف للصنعة أن تعلم صانعها! إنما تطلب الصنعة من الصانع صورة علمه بها لا صورة ذاته، وأنت صنعة خالقك، فصورتك مطابقةٌ لصورة علمه بك، هكذا كل مخلوقٍ ولو لم يكن الأمر كذلك وكان يجمعكما حدٌّ واحدٌ وحقيقةٌ واحدةٌ كما يجمع زيدًا وعَمْرًا لكنت أنتَ إلهًا، والأمر كذلك على خلاف ذلك.

فاعلم بأيِّ ميزان تزن نفسك، فإنك صبخة حديد يوزن بها ما لا ثمن له، وإن اجتمعت مع الموزون في المقدار فما اجتمعت معه في القدر ولا في الذات، تعالى الله عن ذلك، وإنما قال فيما تقدَّم: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه»، ولم يقل: (فقد عرف ذات ربه)؛ لأن الذات لها الغنى على الإطلاق، وأنَّى للمقيَّد معرفة المطلق الذي هو الله، بخلاف الاسم الرب؟! فإنه يطلب المربوب بلا شكٍّ، ففيه رائحة التقييد، ولذلك أمر الله تعالى العبد أن يعلم: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ لأن الإله يطلب المألوه، بخلاف اسم الذات الخصيص، فإنه غنيٌّ عن الإضافة.

=

لأن الثاني محذور عنه كل الحذر عند من دخل تحت حُكم البشر.

١٠٠- الحق تعالى بذاته عن خلقه محجوب، وبصفاته يتجلّى في القلوب.

وإلى هذا إشارة بقوله: (**الحق تعالى بذاته عن خلقه محجوب، وبصفاته يتجلّى في القلوب**) أي: الحق سبحانه وتعالى بذاته البحت المنــزه عن الإطلاق المقابل للتقييد لا غير محجوب عن جميع خلقه لا يدخل تحت حيطة الإدراك لأحد من خلقه بالآية السابقة، وأمّا بصفاته فهو يتجلّى في قلوب من سبقت لهم العناية الأزليَّة بذلك، فلا يكون محجوبًا بالأحد كل منهم على حسب استعداده والقابلية الأزلية، فهو تعالى ظاهر غير محجوب من حيث الصفات لظهور آثارها وشهودها، ومن حيث الإطلاق الذاتي بأن تعتبر الذات من غير اعتبار والصفات بأن نبقيه في الكنــزية، ولا نخرجه من العماء إلى عالم الأسماء والصفات هو تعالى محجوب عن كلّ أحد؛ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] في الأرض ولا في السماء ، وإنما يشاهد الخلق الأرض والسماء وما فيهما أو ما يشابهما، فلا يدرك الحق من حيث الذات الخلق، ومن هنا وقع الاعتراف للأنبياء والأولياء حتى لأفضل

=

وهنا أمرٌ ينبغي التفطُّن له، وهو أن معرفتنا بالربِّ لا تكون إلا فرعًا عن معرفتنا بالنفس؛ إذ هي الدليل، وإن كان وجود الربِّ هو الأصل ففي مرتبة يتقدَّم فيكون له الاسم الأول، وفي مرتبة يتأخر، فيكون له الاسم الآخر، فيحكم له بالأصل من نسبةٍ خاصَّة، ويحكم له بالفرع من نسبةٍ أخرى، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]هذا يعطيه النظر العقلي.

وأما الذي تعطيه المعرفة الذوقية فهو تعالى ظاهرٌ من حيث ما هو باطنٌ، وباطنٌ من حيث ما هو ظاهرٌ، وأوَّل من عيَّن ما هو آخرٌ، وآخر من عيَّن ما هو أولٌ، وإزار من نفس ما هو رداء، ورداءٌ من نفس ما هو إزارٌ، ولا يتَّصف بنسبتين مختلفتين أبدًا كما يقرره ويعقله العقل، من حيث ما هو ذو فكر.

فافهم تعلم أنه لا يكلف الإنسان بمعرفة أخصِّ وصف لله تعالى؛ لأنه ليس لذلك الوصف الأخص في المبتدعات والمخلوقات مثالٌ، وكل ما لا مثال له فلا علم للإنسان به ولا اسم له عنده ولا علامة، ومن هنا قال من قال: (لا يعرف الله إلا الله)، أعني أخصَّ وصفه وكُنْهَ معرفته، كما سيأتي بسط ذلك في الميزان إن شاء الله تعالى.

وعلم أيضًا أن مشاركتنا للحق في مطلق الصفات لا تشبيه فيه؛ لأن شرط التشبيه إثبات المشاركة في الوصف الأخصِّ، وهذا لا يصحُّ، كما أن من قال: (إن السواد عرضٌ موجودٌ، وهو لونٌ، والبياض عرضٌ موجودٌ وهو لونٌ) لا يكون مشبِّهًا السواد بالبياض، فتأمَّل ذلك؛ فإنه نفيسٌ.

الخليقة ﷺ وعلى آله وسلم بقولهم: «**سبحانك ما عرفناك حق معرفتك**[1]»، ولا يدرك الحق إلا الحق، فمن يدَّعي التجلّي الذاتي فدعواه غير مسلم له، ولكن إذا اضمحلت الخلقية في الحقية، وتحقق العبد بمقام كان الله ولا شيء معه، وبمقام بي يسمع، وبي يبصر فيقع التجلّي الذاتي، فالعبد حقًا يشاهد الذات لكن لا من حيث أنه عبد وخلق بل من حيث أنه حق، فالحق يدرك الحق لا غير.

وقوله: (**عن خلقه محجوب**) بتقديم ما حقه التأخير، ولفظ الخلق يشير إلى ما ذكرنا، وهذا لا ينافي ما مرَّ من أن الحق لا تدرك ماهيته وحقيقته كما هو عليه لا له ولا لغيره لعلمه بنفسه أنه لا تدرك حقيقته؛ لأن المراد بالإدراك هنا من وصف الإحاطة، والمراد به هناك مع وصف الإحاطة فالاعتبار مختلف فالحكم صحيح، فهو كقولنا: (زيد كاتب) أي: بالقوة زيد ليس بكاتب أي: بالفعل فلا تناقض أصلاً، وهذا كالتأكيد لما قبله وفيه ما ليس في الأول من الرموز والأسرار، فلا يرد عليه أنه تكرار، فلما عرفت أن الصفات مشهودة بالإجماع بين ما هو السبب في شهودها وبكون به ظهورها.

١٠١- بوجود الموجودات ظهرت الأسماء والصفات.

فقال قُدِّس سرّه العزيز: (**بوجود الموجودات ظهرت الأسماء، والصفات**) أي: كل من الموجودات العينية والأسماء والصفات مفتقر إلى الآخر في الوجود والظهور؛ إذ لولا سريان الحق في الموجودات بصورة جمعه الأسمائي والصفاتي ما كان لها وجود وظهور، فأنها في ذاتها معدومة لا تظهر إلا بالسريان المذكورة، كما أنه لو لم تسر الحقائق المعقولة الكلية كالحياة، والعلم في الموجودات العينية كزيد وبكر مثلاً ما ظهر حكم فيها من أنه حي وعالم، ولولا الموجودات العينية أيضًا ما ظهرت الأسماء والصفات الإلهية؛ إذ بالمعلومات ظهر العلم، وبالمقدورات ظهرت القدرة وهكذا إلى آخر الصفات من غير التناهي، فلا غنى لشيءٍ من الحق والخلق، بل كلٌ مفتقرٍ إلى الآخر، كما قال الشيخ محي الدين بن العربي قدس سره في «فصوصه» في أول الكتاب: «فالكل مفتقر ما الكل مستغني هذا هو الحق قد قلنا: فلا تكني فإن ذكرت غنيًا لا افتقار به، فقد علمت الذي بقولنا:

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/١٤٠).

نعني فالكل بالكلّ مربوط، فليس له عنه انفصال خذوا ما قلته: عني)، فالحق تعالى غني عن العالمين بذاته وأسمائه الذاتي، لكن لأسمائه باعتبار ظهورها وترتبُ آثارها افتقار إلى العالم، كما أن للعالم في وجوده افتقارًا إلى الأسماء إلا أن المؤلف رحمه الله ذكر ظهور الأسماء والصفات بوجود الموجودات، وترك أن وجود الموجودات أيضًا بالأسماء والصفات لوضوح هذا ومعلوميته عند كل عاقل دون ذاك، فهو من باب ذكر ما هو الخفي، وترك ما هو الظاهر فاندفع المحذور.

فعلم مما قرر أن الموجودات العينية تفتقر إلى الله تعالى في تعينها العلمي بالفيض الأقدس، وفي تعينها الوجودي بالمفيض المقدس، والحق تعالى مفتقر إلى الموجودات باعتبار ظهور أسمائه وصفاته في المراتب، وترتب آثارها عليها لا باعتبار ذاتها واتّصافها بالصفات الحقيقة مثل الوجوب والعلم، فإنه تعالى بهذا الاعتبار غني عن العالمين، ولما قررَّ هذا أشار إلى وجه المحبَّة من الطرفين الثابتة عند أهل الحق مع تصريح الكتاب والسنة بها، بل كل منهما مشحون بذكر المحبة من الطرفين كما مرَّ تفصيله.

١٠٢- محبَّته لك من أجل ظهوره بك بالصِّفات، محبَّتك له من أجل دوام إمدادك بالبركات.

فقال قُدِّس سرّه: (**محبَّته لك من أجل ظهوره بك بالصفات، محبتك له من أجل دوام إمدادك بالبركات**) قد ذكرنا معاني المحبَّة بحسب اللغة والاصطلاح، وأسباب جلبها ودرجاتها، و (**إمدادك**) من باب إضافة المصدر إلى المفعول والفاعل محذوف أي: محبَّة الحق تعالى لك أيها العبد الطالب لمعرفة الأمور على ما هي عليه من أجل ظهوره تعالى بك وفيك بصفاته بأن تكون أنت محلاً للصفات من حيث تعلقها بك، وترتب آثارها فيك، فلا ظهور له تعالى بعلمه وقدرته مثلاً إلا بالمعلوم والمقدور، وأمَّا بذاته فهو الظاهر قبل كل شيء، ومع كل شيء، وفي كلّ شيء، وبعد كل شيء، وباطن كل شيء، فلا ظاهر إلا هو، ولا باطن إلا هو، ويدلك على هذا قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر:٤٩] على قراءة الرفع، ومحبَّتك له تعالى من أجل دوام إمداده تعالى إياك بالبركات والخيرات، فالعبد يحب الربَّ لأجل دوام إنعامه من الصحة والعافية في البدن والمال والولد، فمحبة العبد عَرَضيَّة، ومحبة الحق تعالى لعبده ذاتيَّة خالية عن العللّ والأغراض،

وقد تكون محبة العبد ذاتية خالية عن الغرض إذا اضمحلت خلقيته في حقيته، وحقًا تكون محبة العبد محبة الحق تعالى، وهي الحاصلة له في مقام بي يسمع، وبي يبصر، ويقال لها: محبة روحية، فالمحبة ثابتة من الطرفين لكن وجهها من الآخر دوام الإمداد بالخيرات، وهنا أبحاث لا تسعها العبارات ولا تؤدى بالرموز والإشارات.

ولــمَّا كانت المحبَّة ثابتة من طرف الرب والعبد ثبتت بها النسبة بينهما، وارتبط كل منهما بالآخر؛ لأنه لما أوجد الصور التي هي العالم روحانية كانت أو جسمانية في النفس الرحمني الذي هو هيولي العلم المذكور، كما أن النفس الإنساني هيولي صور الحروف والكلمات والكلام، فظهر سلطان النسب وهي الأسماء صحَّ النسب الإلهي للعالم فانتسبوا إليه تعالى، ويوم القيامة يأخذ الحق تعالى انتساب ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم إليهم، ويردهم إلى انتسابهم إليه، فلا يرون ذاتًا إلا ذاته، ولا صفاتًا إلا صفاته، ولا أفعالاً إلا أفعاله؛ إذ ليس ثَمَّة إلا الأحدية والهوية الغيبية وهي مقتضية لإسقاط النسب، وبهذا قال الشيخ قُدِّس سره: سورة الإخلاص في بيان نسب الحق تعالى فإن المشركين قالوا للنبي ﷺ: «**أنسب لنا ربك**[1]» أي: بين نسبه فبين ﷺ نسب تنـزيهه عن النسب فأثبت له الأحدية، ونفى عنه الكفاءة والوالدية والمولودية، وقد علمت قبيل هذا غناءه وافتقاره إلى العالم وهما من نسب الحق، فله النسب المتعددة والوجوه المختلف.

١٠٣ - المحبّة تصحيح النسب، وثمرة المكتسب.

فأشار الشيخ قُدِّس سره إلى ما مضى بقوله هذا: (**المحبّة تصحيح النسب، وثمرة المكتسب**) أي: المحبة التي مفتاحها رأس الملك والملكوت هي التي تصحح نسب العبد والرب؛ إذ بها يُنسب العبد إلى الرب بالمخلوقية والمربوبية، وينسب الرب إلى العبد بالخالقية والربوبية، فإن منشأ الإيجاد المحبَّة الذاتية فأفرد ذاته بقوله: ﴿**اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:١]، وأثبت استنادنا إليه في الوجود والكمالات الثابتة للوجود بقوله: ﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ [الإخلاص:٢]، فأحديته تعالى من حيث الأسماء الإلهية التي تطلبنا لنكون مجالي

(١) رواه الترمذي في السنن (٥/٤٥١)، الحاكم في المستدرك (٢/٥٨٩)، الطبراني في المعجم الأوسط (٦/٢٥)، وذكره المناوي في فيض القدير (٢/٥٣١).

لها أحدية الكثرة النسبية الأسمائية المعبر عنها بمقام الجمع، وأحدية الجمع والواحدية أيضًا، وأحديته تعالى من حيث غنائه عنا وعن الأسماء أحدية العين وتسمى جمع الجمع، ويطلق اسم الأحد على كل منهما لكن إطلاقه على الثاني أكثر، فانظر ما أعجب أمر الله وشأنه من حيث هويته الغيبية التي تقتضي إسقاط النسب، ومن حيث نسبته إلى العالم في حقائق أسمائه الحُسنى فأمره من حيث هويته يقتضي حقائق الأسماء التنـــزيهية، ومن حيث النسبة إلى العالم يقتضي سائر الأسماء، والمحبَّة أيضًا ثمرة المكتسب ونتيجته فإنها مطاياهم وبها نالوا ما نالوا، و (**المكتسب**) بكسر السين، وحقًا يكون المضاف إليه لثمرة محذوفًا وذلك المضاف إليه هو المضاف إلى المكتسب أي: ثمرة عمل المكتسب ورياضاته ومجاهداته هذا على تقدير مجيء باب الافتعال للتعدية، وأمَّا إذا كان بفتح السين بناء على التقدير المذكور، أو بكسرها بناء على تقدير كونه لازمًا فمعناه ما يكسبه العبد، وحقًا لا حاجة إلى تقدير المضاف بين المضاف والمضاف إليه، وعلى التقادير فما ذُكر مبني على الظاهر، وأمَّا بحسب الحقيقة فهي ليست ثمرة شيء، بل اختصاص إلهي حاصل من الاستعداد الأزلي، كما هو شأن سائر المواهب والعطايا الإلهية، لكن لما كان حصولها في عقب الأعمال والرياضات والمكابدات في الأكثر يُظن بأنها حاصلة منها وثمرتها، وفي نفس الأمر كان العبد مستعدًا لها في الأزلي، وكانت هي كامنة في العبد مستترة بالظلمات البشرية والشهوات النفسانية فتبصر، ثم بين المعرفة التي هي نتيجة المحبة.

١٠٤- المعرفة محض الإيمان، ومشاهدة الإحسان.

فقال قُدِّس سرّه: (**المعرفة محض الإيمان، ومشاهدة الإحسان**) أي: المعرفة التي هي صفة للعارف باسم الله أحدية جمع الأسماء كلها الذي هو صاحب القلب الحاصل من رحمة الله ورأفته ولطفه في اصطلاح هذه الطائفة؛ لأن تعينات الأشياء في العلم بالفيض الأقدس ووجوداتها بالفيض المقدس وكلاهما من الأسماء اللطفية الجمالية، فهي محض الإيمان الكامل بالله وصفاته وأفعاله، ومشاهدة الإحسان الوارد في الحديث النبوي حيث قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**[(١)]»، ومشاهدة أن يكون هذا عيانًا له لا علمًا واعتقادًا، أو محض الإيمان بمعنى الإيمان المحض أي الخالص المنـــزه عن

(١) تقدم تخريجه.

الشرك الخفي بأن لا يكون داخلاً في الذين تصدق عليهم الآية الكريمة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، وهو إيمان أهل القلوب الذين يعرفون بتقلب الحق في الصور بالتحول إليها، فلا ينكرونه في صورة من الصور، وأهل القلوب هم الذين يؤمنون بالله وحده؛ لأنه الغيب عندهم والبواقي من أركان الإيمان من الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره ليست مما آمنوا به؛ لأن المؤمن به يجب أن يكون غائبًا والمذكورات غير غائبة عنهم؛ لأنهم يشاهدونها عيانًا فافهم، المؤمنون حقًا يؤمنون بكلّ شيءٍ، ولا ينكرون عن شيءٍ، والمعرفة هي العلم بالله الذي لا غاية له في العارفين يقفون عندها، فلا يزيد عليها بل شأن العارف في كلّ زمان يطلب الزيادة؛ لأنه كلما زاد علمه يستعد لعلم آخر فيقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤]، فإذا حصل له ما يستعده يستعد لآخر أيضًا فيقول: رب زدني علمًا، وهكذا إلى ما لا يتناهى.

١٠٥- المعرفة علم ألي، وكشف كلّي.

ولهذا قال قُدّس سرّه:[**المعرفة علم ألي، وكشف كلّي**] أي: المعرفة المذكورة عِلم أليّ أي: إلهي من تجلّي الحق تعالى ولا نهاية للتجلّي فلا نهاية للعلم، وأيضًا المعرفة كشف كلّي لا كشف فوقه؛ لأنه لا كشف فوق كشف العرفان، وقد مرَّ بحث الكشف تفصيلاً وتوضيحا ثم عَرَّف الشيخ بغير ما عرَّفه به سابقًا اعتناء بشأنه، وتنهيضًا للسالك الطالب القاصد للمسلك التام.

١٠٦- ليس الشيخ من يخدمه الملوك الدنيوية، إنما الشيخ من تخدمه الملائكة العلوية.

فقال قدس سره:[**ليس الشيخ من يخدمه الملوك الدنيوية، إنما الشيخ من تخدمه الملائكة العلوية**] أي: ليس الشيخ المعتبر الكامل المكمل القاعد على السجادة بإذن ربه الذي تخدمه الملوك الدنيوية بأن يكون محترمًا عند الناس من العوام والخواص بحيث يخدمه من يخدمه الناس من الملوك والأمراء والوزراء، بل الشيخ إنما هو من تخدمه الملائكة الكرام العلوية، فحقًا يتصرف في العلوية كما يتصرف في السفلية، ولا تخدمه الملائكة ما لم يكن في الرتبة أعلى منهم، فحقًا يكون قابلاً للشيخوخة، ثم عرَّف التوبة التي هي أساس المقامات ومبدأها، ولا ينال أحد إلى المقامات العليَّة، والمراتب السنية إلا بها.

١٠٧- **التوبة ترك الإصرار، وملازمة الاستغفار.**

فقال قُدِّس سرّه: (**التوبة ترك الإصرار، وملازمة الاستغفار**) أي: التوبة التي هي مبدأ حصول المراتب العلية والمقامات السنية أن تترك إصرارك على الذنوب، وكلما يقع عليك ذنب من الذنوب تندم عليه؛ لأن التوبة أن تندم على الذنب على ما ورد أن الندم هو التوبة، وأن تلازم الاستغفار من الذنوب فهو بيان لترك الإصرار، وقد ورد عن النبي ﷺ:

«**إنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار**[1]»، فمن أصر على الصغائر ولم يندم عليها تصير بالاجتماع والكثرة كبيرة، وإذا ندم واستغفر على الكبيرة تصير صغيرة وتمحو هي بالاستغفار ولذا ورد: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**[2]»؛ لأنه إذا تاب عن الكبيرة واستغفر منها تصير صغيرة، ثم إذا استغفر ثانيًا فلا تبقى الصغيرة، فلذا قيل: بملازمة الاستغفار، ثم بعد التوبة وظيفة السالك؛ لأن يتقرب إلى الحق تعالى، ويدخل في حضرة القدس أن يشتغل بعمل موجب لذلك، وذلك العمل إمَّا الفرض وإمَّا النفل والأول أفضل.

١٠٨ - **أداء المفترضات أفضل القربات.**

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**أداء المفترضات أفضل القربات**) (**القربات**) جمع القربة، وهي ما يتقرب به إلى الحق تعالى سمّي بها؛ لأنه الموجب في بادئ الرأي، وفي الظاهر لكون العبد قريبًا إليه تعالى بالقرب المعنوي الغير المسافي أي: أداء ما هو فرض عليك من كلمة الشهادة، والصلاة الخمس، وصوم شهر رمضان، وإيتاء الزكاة، والحج للمستطيع، أو المراد جميع ما هو فرض عليك إمَّا بإيجاب الحق تعالى كالمذكورات أو بإيجاب العبد كنذر شيء من القربات المندوبة أفضل من سائر القربات، فالقرب بالفرائض أكمل من القرب بالنوافل المشار إليه في الحديث القدسي المشهور بحديث النوافل وهو:

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٤٣٦/٦)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢٠٧٢/٢)، والسيوطي في شرح سنن ابن ماجة (٢٥/١).

(٢) رواه ابن ماجة (٥٩٤/١)، والطبراني في الكبير (١٥٠/١٠)، والبيهقي في الكبرى (١٥٤/١٠).

«**لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل...** [١]»؛ لأن في أداء الفرض ليس دعوى الوجود بخلاف النفل؛ لأنه يرى نفسه في أنه ما فرض الله عليه، ويعمله له تعالى من نفسه، فالفناء فيه أكثر والقرب تابع للفناء فهو حقًا أكمل، والله أعلم.

وورد في الحديث أن الله تعالى قال: «**ما يتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم** [٢]»، ثم قال: «ولا يزال إلخ»، وقول الولي الفاضل ابن عطاء الله الاسكندري: (خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك) يقرب مما ذكرنا فافهم.

فإذا أوعيت هذا فاعلم أنه لا يسمى النفل نفلاً إلا ما له أصل في الفرائض، وما لا أصل له فيها، فهو إنشاء عبادة مستقلة ليست بنفل بل بدعة كما قال بعض، وسُنَّة حسنة كما سمَّاها الشارع بها، فلمن سنها أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجرهم شيئًا قاله الشيخ قدس سره في: «الفتوحات»، فعلم أن في نفس النفل فروضًا أدائها أفضل من النوافل، بل لا يصح نفل إلا بعد كمال الفرض، فمن بطل فرضه بطل نفله، فلا يصح تسبيح الركوع مثلاً إلا بعد كمال الركوع، ولا تصح رواتب الظهر مثلاً إلا بعد كمالها، ولكن تكمل الفرائض بالنوافل لكن بما فيها من الفرائض؛ لأنه ليس في النفل ومن قوته أن يسد مسد الفرض قال الشيخ في الباب السابع والأربعين وثلاثمائة ما حاصله: «إن الله تعالى لا يقبل الصلاة الناقصة، لكن يضم بعض الصلوات إلى بعض فيكمل بعضها من بعض، ثم أُدخلتْ حضرة الحق تعالى كاملة، فإن كانت له مائة صلاة ناقصة مثلاً فتصير ثمانين أو خمسين أو عشرين صلاة كاملة فيقبلها».

فالقربة تحصل بالفرائض والنوافل، لكن بالفرائض أتم وأكلم، ولا تحصل القربة إلا بطيب المطعم؛ لأن خبث المطعم مانع للقربة وطيب المطعم سبب لكثرة المغنم.

١٠٩- من طاب مطعمه، كثر مغنمه.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه العزيز: (**من طاب مطعمه كثر مغنمه**)، والطعام الطيب اللذيذ في الدنيا بأن يكون ملائمًا للطبع الخالص عن تبعة العذاب يوم القيامة بأن يكون

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

حلالاً بحسب الشرع، فمن كان طعامه لذيذًا ملائمًا للطبع وخالصًا عمًّا ذكر يوم القيامة كثر مغنمه، ويزيد ارتقاؤه وعلوه وإلا فلا، بل لا يكون له ارتقاء أصلاً فعُلم مما ذكر أن أكل الطعام اللذيذ أحسن من الرديء كما هو مذهب بعض من الصوفية، فكل من طاب مطعمه يتوقى من الشبهات الصغيرة، ومن يتوقى منها يكون سليمًا من الآفات الكبيرة.

١١٠- من توقّي صغار الشبهات سلم من كبائر الآفات.

كما قال الشيخ قدس سره: **(من توقّي صغار الشبهات سلم من كبائر الآفات)** أي: من يحذر، ويحفظ نفسه من ارتكاب الشبهات الصغيرة، وتناولها سلم من جميع الآفات الكبيرة إذا توقّي من الشبهات الكبيرة، فإنه به ينال المطالب العليَّة، والمراتب السنية، فوقوع الآفات من ارتكاب الشبهات، وتتفاوت بتفاوت الشبهات، فإن كانت الشبهة كبيرة تكون الآفة أيضًا كبيرة، وإن كانت صغيرة تكون الآفة أيضًا صغيرة، وأمَّا في طرف الدفع فبتبرك الحرام تدفع عنه صغار الآفات، وبترك صغار الشبهات تدفع عنه كبائر الآفات، وبترك كبائرها يبلغ المراتب العليَّات، فإذا كانت الشبهة بهذه المثابة، فكيف بالحرام؟! لكن لا يكون صغيرًا إلا باعتبار القلة والكثرة وفيه ما فيه، بل صغر الشبهات وكبرها لا يعلم إلا بصغر الحرام وكبره، فتناول صغيره أو كبيره أشدّ من تناول صغيرة الشبهة وكبيرها، وبترك صغيره وكبيره أحسن وأفضل من ترك صغير الشبهة وكبيرها؛ لأن ذاك من باب أداء المفترضات دون هذا؛ لأن الاجتناب عن الحرام واجب فرض شرعًا وعن الشبهة مكروه، والترك أولى في الشرع، وما هو أولى فيه فهو واجب في الطريقة، فتركها واحجب فيها أيضًا، ومن اللآفات الكبيرة أن لا يكون صادقًا في عمله لوجه الله تعالى، فإذا توقّى من صغار الشبهات يحصل له ذلك، ومن حصل له ذلك لا يكون له جميع ما تمناه مما هنالك.

١١١- من صدق لوجه الله، أعطاه الله كل ما تمناه.

كما قال الشيخ قُدس سره العزيز: **(من صدق لوجه الله أعطاه الله كل ما تمناه)** أي: السالك الذي يصدق في أعماله لوجه الله تعالى لا لحصول الجنات وما فيها ودرجاتها، ولا للمقامات والمكاشفات والمشاهدات وتوابعها أعطاه الله تعالى من محض جوده وفضله كل ما تمناه، ويطلبه مما هو من مستعداته الأزليَّة المستخبئة له أزلاً الذي يظهر فيه عند وجود

أوانه مطلقًا، فالإطلاق المفهوم الواقع في كلام الشيخ قدس سره العزيز غير باقٍ على إطلاقه لتقيده بما ذكر، فلو صدق في أعماله لغرض من الأغراض المذكورة، فلا يكون ممن يعطى إليه كل ما تمناه؛ لأن العبد ما دام في غرض فهو ناقص محجوب بغرضه عن الحق تعالى، فلا يعطي إليه ما ذكر؛ لأنه مخصوص بالمتخلق بأخلاق الله وأفعاله تعالى لا غرض فيها، والمراد من كونه صادقًا التبرأ من حوله وقوته، ورؤية الأفعال من ربه لا من نفسه فهو أعلى من كونه مخلصًا لوجه الله، فإن المخلص هو الذي أعماله خالصة لله تعالى ليس فيها شائبة الريب، والرياء مع رؤية الأعمال والأفعال من نفسه وطلب الأعواض عليها، فالصادقون فوق المخلصين وهم فوق الأبرار الموعود لهم النعيم كما قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣، ١٤]، فالإخلاص مطلوب من الأبرار؛ لأنهم يرون الأغيار، والصدق مطلوب من الذي يعمل بالإخلاص؛ لأنه في الوجود الذي لا ذنب عليه يقاس كما قيل: وجودك ذنب لا يقاس عليه ذنب، فلا يوجد للعبد كل ما يتمناه من مولاه من دنياه وعقباه إلا بالصدق، وإما بالبر والإخلاص، فلا يوجد له إلا بعض ما تمناه، فالصدق مع الله تعالى ذريعة لإعطاء كل ما تمناه، وكذلك الخوف من الله ذريعة؛ لأن يخاف منه كل ما سواه.

١١٢- من خاف الله مولاه، خاف منه كل ما سواه.

كما قال الشيخ قدس سره: (**من خاف الله مولاه خاف منه كل ما سواه**): (**مولاه**) صفة (**لله**) أو بدل أو بيان فافهم أي: الذي خاف من الله الذي هو مولاه يواليه في جميع أموره خاف كل ما سوا الله تعالى منه، والمراد من الخوف الذاتي الذي لا يكون لغرض، فإن الله تعالى بذاته لكبريائه وعظمته يستحق لأن يُخاف منه مع قطع النظر عن بلائه في الدنيا، وعذابه في الآخرة وغير ذلك من عدم إفاضة الوجود، وعدم الإنعام عليه، فإن من صفاته الأزليَّة القهر والانتقام، وأمَّا الخوف منه تعالى لغرض من الأغراض مما يتعلق بالأولى والعقبى، فليس مما يخاف به منه كل ما سواه؛ لأنه حقًا لا يكون الخوف بالله من الله لله بخلاف الأول، وهذا الذي ذكرناه ليس معه رجاء، فصاحب هذا الخوف ليس له رجاء مطلوب ولا خوف مرهوب؛ لأن ذاك يقتضي الإثنينية وهي منافية للوحدانية، فخوفه به تعالى لا بنفسه ومنه تعالى لا من غيره، وله تعالى لا لغيره، فصدق قوله قدس سره: [**من**

خاف مولاه خاف منه كل ما سواه)، ويلزم منه اللين له تعالى؛ لأن من خاف من شيءٍ لان له، فمن خاف من الله لان له، ومن لان له تعالى لان له كلّ شيءٍ، ولان هو أيضًا لكلّ شيء، وحقًا يعرف حال الأخوات ويواسي معهم في حال حياهم وبعد مماهم، فيصدق عليه اسم الأخ.

١١٣- الأخ من يعرف حال أخيه في حياته وبعد ما يواريه.

كما قال قدس سره: **(الأخ من يعرف حال أخيه في حياته، وبعد ما يواريه)**

أي: الأخ في الله الصادق في أخوته هو الذي يعرق بأحوال أخيه مما يكون له وعليه من الأمور الدنيوية والأخروية، ويعينه في تحصيل ما يحتاج إليه، ويسعى في دفع ما يقع عليه في حال حياته التي يكون الانتفاع به فيها وبعد ما يستره أي: يموت ويدفن في قبره، وهي الحالة التي لا يرجى منه نفع فيها، فيراعيه ويلاحظه بما أمكن عنده في الحالتين فهو أخ له في الدارين، وليس أخوك من يراعيك في حياتك وعند رؤية الانتفاع منك لا في مماتك، وعند عدم رؤيتك والنفع منك، وهو علي قسمين إما يريد منك الأكل والشرب أو التواضع فأعطه إلى الأكل والشرب وأرضه بما يريد منك، وإلى الثاني التواضع فاعمل معه التواضع، وتكلم معه باللطف واللين، وكن معه على خُلق حسن، وأمّا الأخ الصادق الروحي فأعطه مالك وروحك، وكن ملازمًا له، ولا تفارقه أبدًا، وهذا نادر في هذا الزمان فلا ترى أحدًا من الأخوان؛ لأن الأوصاف المذكورة من كمال الإيمان وشدة الإيقان وهما لا يوجدان في رجل في هذه الأيام؛ لأنها آخر الزمان وأحوال الشريعة قد انفسدت.

١١٤- وإذا انفسدت أحوال الشريعة، فأشراط الساعة سريعة.

قوله: **(وإذا انفسد أحوال الشريعة، فأشراط الساعة سريعة)**، وانفساد أحوال الشريعة بعدم القيام بها، وأن لا يعمل بأحكامها، ولو عمل فلا يعمل إلا بالجهل دون العلم مع أنه لا يصح عمل بلا علم بكيفية ذلك العمل، ومن نصائح أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب ﷺأنه قال:

«اعمل بالعلم لا بالجهل فإن الناس كلهم يعملون بالجهل لا بالعلم»، فحقًا تكون أشراط الساعة، وعلاماها سريعة الوجود والظهور فتنفسد معاملة الناس.

١١٥- وإذا انفسدت معاملة الناس، تمكن منهم الوسواس.

قوله: (**وإذا انفسدت معاملة الناس تمكن منهم الوسواس**)، فلا يوجد أحد تكون معاملته مع الحق أو الخلق صحيحة؛ لأنها تكون بالهوى المضل عن سبيل الله، فيتطرق إلى قلوبهم الخنَّاس الذي يوسوس في صدور الناس، (**فتتمكن منهم الوسواس**) أي: قوية واشتدت وسواسهم، وذلك موجب لفساد الناس لا سيما الأمراء والوزراء والحكام، ويلزم من فسادهم فساد أحكام الشريعة.

١١٦- بفساد الحكام، تبطل الأحكام.

كما قال قدس سره: (**بفساد الحكام تبطل الأحكام**) أي: بسبب فساد الحكام، وميلهم إلى الظلم، وعدولهم عن العدالة المطلوبة منهم اللازمة عليهم تبطل أحكام ما شرعه الله ورسوله، وإذا بطلت الأحكام فسد الدين، وإذا فسد الدين هلك الخلق، وبالجملة إذا انفسدت معاملة العبد مع الحق بأن تكون معاملته معه تعالى بنفسه لنفسه تقوى منه وسواسه، فينخطر بقلبه خواطر متفرقة مما سوى الله تعالى، وذلك عند هذه الطائفة موجب للارتداد والجنابة، فحجيب عليه الإسلام والغسل، وإذا تمكن واستدمنه الوسواس فسد قلبه بالقساوة المفسدة له، ويلزم من فساد القلب فساد سائر البدن وجوارحه وقواه الظاهرة والباطنة، كما ورد في الحديث:

«**إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد ألا وهي القلب**[1]».

وإن في الحديث إما مثقلة و (ألا) تنبيهية مخففة، وإما مخففة نافية، و (إلا) مشددة استثنائية، ويلزم أيضًا من فساد البدن فساد الأحكام، فعلى هذا المراد من (**الحُكام**) القلوب فاعرف وتأمل، فإن القلب سلطان قوي الباطنة كما أن اللسان سلطان قوي الظاهرة، والظاهر لا يخفى والاعتبار معتبر ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾ [الحشر:٢].

ولو حسبت حروف هذه الكلمات لعلمت وقت المذكورات، وتكون من المعتبرين المتنبهين.

(١) رواه البخاري (١/٢٨)، ومسلم (٣/١٢١٩).

واعلم أن انفساد معاملة الناس وتمكن الوسواس، وفساد الحكام والأحكام من كثرة الجهل والعمل به ومتابعة الهوى، فينبغي للسالك من تعلم العلوم حتى لا يعمل بالجهل الذي ما عدَّ شيئًا كما مرَّ الإشارة إليه لكن لا مطلق العلوم، بل العلوم النافعة لإمامه وما يحتاج إليه فيما بعد.

١١٧- تعلم يا بني من العلوم ما ينفعك في القدوم.

ولذا أمر الشيخ قُدِّس سرّه بتعلم العلوم، فقال: (**تعلم يا بني من العلوم ما ينفعك في القدوم**) (**بني**) تصغير ابن للشفقة، و (**ما**) فيما (**ينفعك**) موصولة مفعول به (**لتعلم**) تعدى هنا إلى مفعول واحد مع أن العلم يقتضي مفعولين؛ لأنه صار لازمًا بانتقاله إلى باب التفعل الموضوع للزوم، ومن العلوم بيان لما قدم عليه اهتمامًا أي: تعلم أيها السالك الطالب للخلاص عند الشدائد في الطريق الذي هو بمنـــزلة الابن بل أعز وأشدّ منه؛ لأن الطريقة أقوى من بنوة النسب، كما أن أبوتها أقوى وأعلى من أبوته؛ لأن الأب النسبي يحفظ ابنه من نار الدنيا، وأب الطريقة يحفظه من نار الآخرة وشتان ما بينهما، وأنه يربيه لتكميل حياته العارية الزائلة، وهذا يربيه لتكميل حياته الأصلية الأبدية ما ينفعك في القدوم من العلوم أي: العلوم التي تنفعك فيما يأتي المراد به مطلقًا أو الآخرة وحدها، وهي زبدة العلوم التي أعتنى الناس بتأليفها من الفقه، والتفسير، والحديث، والقراءة، والنحو، والصرف، وأصول الفقه، وأصول الدين، والمعاني والبيان، لكن يبقى من هذه الزبدة أن يتعلم ما يحتاج إليه لآخرته لا غير، فلا يكلف في تحصيل ما فهمه الأكابر من العلماء، وإن كان منهم فلا يكلف أن يفهم ما فهمه الأولياء، والولي لا يكلف في فهم ما هو خاص بدائرة الولاية الخاصة؛ إذ ليس على أحد إلا الفهم بقدر ما وقره الله تعالى في قلبه.

ومن هنا قال الشيخ الكامل عبد الوهاب الشعراني قدس سره ما حاصله: إنه لا فائدة في النظر على تفسير الغير؛ لأنه إن كان أعلى، فلا يجوز له النـــزول، وإلا فما لا يتعقله قلبه إن كان الغير أعلى، وإما لا فائدة فيه إن كان مساويًا، ولا حاجة إلى تعلم علم القراءة؛ لأن المقصود الأعظم من إنزال الكتب الاتعاظ، والعمل بها دون القراءة بالمد والإمالة والغنة؛ إذ لا فائدة فيها مع غفلة القلب عن الحق تعالى، والتكالب على الدنيا، وتمزيق عرض كل من يزاحمه على القراءة، ولا يحتاج من الفقه إلا إلى ما يؤدي به فرضه

فقط إن كان يريد اللحاق بأهل الله؛ لأنهم لا يحتاجون إلى ما يدفع به المنازعات والخصومات؛ إذ لا نزاع عندهم لا ظاهرًا ولا باطنًا، وإن كان من أصحاب الأحكام، أو يريد اللحوق بهم، فيحتاج إلى ما يدفع به النـــزاع؛ إذ كل ميسر لما خلق له، ولا حاجة للسالك إلى معرف علم الكلام؛ لأن المقصود الأعظم منه معرفة الله وأسمائه وصفاته، وهي حاصلة ومقررة عند كل مسلم مخالط لأهل الإسلام، ولو لم يقدر على التعبير عنها كما قرره المتكلمون مع أن معرفة الله، وكذا معرفة أسمائه، وصفاته لا تدخل في حيطة درك العقل؛ إذ لا يعرف الله إلا الله، كما قال الولي الكامل والمحقق الشامل رسلان الدمشقي قدس سره في رسالته: من طلب الله تعالى بعقله فقد تاه، ومن طلب الآخرة بهواه فقد ضلّ، وذلك؛ لأن العقل إما ينـــزهه أو يشبهه وكل منهما خطأ كما هو المقرر عند الكشف، ولا يحتاج السالك أيضًا إلى علم التصوف؛ لأنه نتيجة العمل بالكتاب والسنة، فمن عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم، ويكون عنده جميع ما عندهم بل أزيد، ومن هنا قيل: إن الكشف في الآخر يكون أتم، وقد قيل: إن في الفرع ما في الأصل مع زيادة هي المطلوبة من التفريع من الأصل، وأفضل العلوم النافعة للسالك في القدوم علم التوحيد.

١١٨- ما علمت العبيد أفضل من علم التوحيد.

كما قال الشيخ قدس سره: **(ما علمت العبيد أفضل من علم التوحيد)** **(ما)** نافية لا موصولة لفساد المعنى على تقدير كونه موصولة كما لا يخفى، والموصوف مقدر على **(أفضل)** أي: ما تعلمت العبيد من العلوم علمًا أفضل من علم يعرف به توحيد الحق سبحانه وتعالى، فليعلم السالك بأن توحيده الحق تعالى لا توحيد السالك؛ إذ وحدانية الحق ليست بتوحيد موحد بالعقل أو بالحق إما بالحق فلما عرفت، وإما بالعقل؛ فلأنه لا يصح الحكم على الحق تعالى بأمر مخلوق له تعالى، فكل من خاض في التوحيد بالعقل فقد أخطأ؛ لأنه تابع للمزاج والأمزجة مختلفة، ولذا وقع الاختلاف في حقيقته تعالى وأيضًا لو قيل: للموحد بالعقل بماذا وحدته؟ وفي ماذا وحدته؟ وما الذي اقتضى توحيده؟ فإن قال: وحدته في المظاهر.

قلنا: أنت القائل بالحلول، فلست بموحد لإثباتك الإثنينية أي: الحال والمحل، وإن قال: وحدته في الذات والصفات والأفعال قلنا: العقل لا يبلغ إلى ذلك، والأخبار ما جاءت به

من عند الله، وإن قال في الألوهية: بأنها عين واحدة مختلفة النسب قلنا: وحدانيته تعالى ما هي بتوحيد موحد.

وقال الشيخ الكامل المكمل سيد عبد الوهاب الشعراني قدس سره العزيز: «إن الحق تعالى معروف لجميع الخلق لا يجهله أحد منهم لكنه تعالى لوسعته، وعجز الخلق عن الإحاطة به تعرف إلى كل موجود منهم بوجه خاص لا يشار له فيه غير، وبه عرف كل شيء، وبه وخالقه ورازقه ومحييه إلا أنه إذا سؤل عنه كيف عرفت ربك؟ عجز عن التعبير عن صورة ذلك الوجه الخاص» انتهى.

فالمراد العلم بالتوحيد وكيفيته لا نفس التوحيد بأن يصير موحدًا كما يصير بعلم النحو نحويًا بعلم الصرف صرفيًا وغير ذلك، فإنه غير مراد لما عرفت قبيل هذا، أو قال أبو العطاء الاسكندري بعدما عرَّف العلم النافع: (بأنه الذي ينبسط في الصدر شعاعه، ويكشف به عن القلب قناعه).

إن خير العلم ما كانت الخشية معه إن فارقته الخشية فعليك وإلا فلك.

ومن هنا قيل: إن العالم الذي لا تكون مع علمه الخشية لا يكون وارثًا للعلم النبوي؛ لأنه الموجب لها؛ لأن الموروث يجب أن يكون باقيًا على ما هو عليه عند الموروث منه، واعلم أن أساس جميع الخيرات الجوع فلا يكون للإنسان علم نافع أو فتح آلي أو غير ذلك إلا بالجوع، ولا يقع به فساد من جهة الدين والدُّنيا إلا بكثرة الأُكل والشراب، وعلى قدرها يكون طول الحساب.

١١٩- بقدر فضول الأكل، والشراب يكون المكث في طول الحساب.

كما قال الشيخ قُدِّس سره: (**بقدر فضول الأكل والشراب، يكون المكث في طول الحساب**)، فإن كان فضولهما قليلاً يكون المكث في طول الحساب قليلاً، وإن كان كثيرًا، فالمكث كثير، (**وطول الحساب**) بمعنى الحساب الطويل، فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، ويمكن أن يكون الحساب على فضول الأكل والشراب وما لا بد منه منهما لا حساب عليه، ويمكن أن يكون الحساب على الأكل والشرب مطلقًا لكن طوله بفضولهما وهو الظاهر من كلام الشيخ حيث قال: (**في طول الحساب**)، وما قال: في الحساب فافهم، والأكل إذا كان بالشهوة الصرفة وإن لم يكن زائدًا وفضولاً فهو في حكم الفضول

والله أعلم، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «**حفت الجنة بالمكاره، والنار بالشهوات**[١]».

وفضول الأكل، والأكل بالشهوة، وكذلك المشرب، والملبس والمسكن وغيرها حرام في الطريقة، وجائز في الشريعة، والأولى عدمها.

في الطريقة: كل ما يكون بحظ النفس من المأكل والمشرب والملبس والمسكن وغير ذلك، فهو حرام موجب للبعد عن الحضرة، كما أن حرام الشرع موجب للبعد عن الرحمة هذا إذا كان من الحلال، وأمَّا الحرام فمن تناوله مطلقًا قليلاً كان أو كثيرًا فيستحق العذاب الأليم في الآخرة، وتطرقت إليه النكبات في الدنيا الدنية، ومن تركه وحفظ نفسه من الدخول إليه أمن من جميع ما يكرهه في العوالم كلها، ولا تتطرق النكبات إليه.

١٢٠- من توقَّى دخول الحرام عليه سلم من تتطرق النكبات إليه.

كما قال الشيخ قُدِّس سره: (**من توقَّى دخول الحرام عليه سلم من تتطرق النكبات إليه**) أي: من احترز واجتنب وصار محفوظًا عن دخول الحرام عليه، وحصوله له فضلاً عن تناوله واستعماله سلم وأمن من تطرق النكبات، وجريان الآفات والبليَّات إليه، فلا تسري إليه آفة من الآفات، ولا بلية من البليَّات لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا في البرزخ؛ لأنه حقًا يكون حبيب الله ووليه، والولي لا يتطرق إليه ما يحزنه من النكبات كما قال الله ﷻ: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [يونس:٦٢].

ولأن تتطرق النكبات تابع لدخول الحرام على العبد، وتناوله إياه؛ لأنه من المخالفة يكون المخالف، والحرام يكون في الأغلب من تدبير العبد لنفسه، وعدم الرضا بتدبير المدبر الحقيقي؛ لأنه حقًا يكون المدبر نفسه، وهي مجبولة على الشرِّ لا تطلب إلا الشر أو الخير الذي فيه شر عظيم بخلاف ما إذا كان مدبره الحق تعالى، فإنه لا يدبر له إلا ماله فيه صلاح، ولا يكون مدبرًا لعبد الحق تعالى إلا إذا ترك التدبير لنفسه، وفوض أموره إليه تعالى، فمن ترك التدبير، وفوض الأمور فالحق تعالى يدبر له، ويقيم بأموره.

١٢٠ - من ترك التدبير دبَّر له القدير.

---

(١) رواه مسلم (٤/٢١٧٤)، والترمذي (٤/٦٩٣)، وأحمد في المسند (٢/٣٨١).

كما قال الشيخ قدس سره: (**من ترك التدبير دبر له القدير**) أي: ينسب إليه تعالى التدبير لا إلى العبد، وإلا فتدبير العبد هو تدبير الحق تعالى، لكن العبد إذا رأى التدبير من نفسه ينسب تدبيره إليه، ويكون الوبال عليه بناء على زعمه، وإذا رآه من مولاه فهو منسوب إليه كما هو الأمر عليه، فينبغي للعبد ترك تدبيره بنفسه لنفسه، ويريح نفسه منه لإقامة الحق تعالى به.

وقال الفاضل الكامل ابن العطاء السكندري ﷺ: (أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقوم به أنت لنفسك).

وقد سبق في أول الكتاب أنه، وإن كان في الحديث أن التدبير نصف العيش لكن ترك التدبير تمام العيش لوجود الراحة فيه دونه، والسبب القوي لتدبير العبد بنفسه تكثر المال والمنال، وهو مفسد للحال.

١٢٢- من كثر ماله، انفسد حاله.

كما قال الشيخ قُدس سره: (**من كثر ماله انفسد حاله**)؛ لأن كثرة المال موجبة لتفرق البال المستلزم لانفساد الأحوال مع أن كثرته إنما تكون من الحرام كما ورد في الحديث: «**الحلال يأتيك قليلاً، والحرام يأتيك كثيرًا**»، ولهذا كان خوف الأولياء من الكثرة وانبساطهم من القلة، فإذا رأوا في بيوتهم شيئًا من الدنيا وسعة فيها قالوا: نعوذ بالله بيتنا اليوم يشبه بيت الفراعنة، وإذا رأوا القلة في بيوتهم، وما رأوا فيها من المأكولات والملبوسات شيئًا أصلاً، أو الأشياء قليلاً قالوا: الحمد لله اليوم بيتنا يشبه بيوت الأنبياء هذا بالنسبة للعوام والمبتدئ.

و أمَّا الكامل المنتهي فلا تفاوت عنده بين القلة والكثرة فيرى كلا منهما من تجليات الحق تعالى، ولا يهرب الكامل من التجلي أبدًا، وقد كانت كثرة المال لبعض الرجال من الأنبياء والأولياء مع عدم انفساد أحوالهم، بل كانت أحوالهم أصح الأحوال، ودعاء الرسول لبعض بالقلة، ولبعض بالكثرة باقتضاء حال المدعو له، فإن صحة بعض الناس في القلة، وفسادها في الكثرة، وبعضهم بالعكس، وهو ﷺ كان طبيبًا حاذقًا ماهرًا عارفًا لجميع الأمزجة، وما تقتضيه، وبالدواء وكميته وكيفيته ووقته، فالحكم المذكور ليس إلا باعتبار الغالب، فيكون معناه الذي كثر ماله انفسد حاله غالبًا لوجود الالتفات إلى المال

لغالب الناس المانع لاستعداد لحقائق الأسرار إذا ما دام عنده الأغيار لا يستعد للوصول إلى حقائق الأسرار، وعلى تقدير الاستعداد للوصول لا يصلح القول به إلا إذا دخلت في عوالمه، وكلمته بالجهار.

١٢٣- لا يصلح أن يقول وصلت إلى حقائق الأسرار إلا من كلمته عوالمه بالجهار.

كما قال الشيخ قدس سره: (**لا يصلح أن يقول وصلت إلى حقائق الأسرار إلا من كلمته عوالمه بالجهار**) (**من**) موصولة فاعل يصلح مستثنى مفرغ، و (**أن يقول**) في تأويل القول مفعول له بنـزع الخافض وهو اللام المقدر على أن أي: لا يصلح للقول بالوصول إلى الحقائق أحد من الآحاد إلا الذي كلمته عوالمه بالجهار وبالعكس أي: لا يصلح القول لأحد إلا للذي كلمته عوالمه بالجهار أي: كلمته عوالمه التي كان في استعداده أن يدخل فيها بالجهر والصراحة لا بالرمز والإشارة، فإن كل عالم من العوالم التي يدخل فيها يتكلم مع داخله، ويبين له منافعه ومضاره، فإذا كلمت عوالمه معه جهارًا، وعرف لجميع منافعها ومضارها يصلح له القول المذكور، ويسلم له، وإلا فلا.

١٢٤- لا تأكل القوت المقوسم إلا من الحل المعلوم.

ولا تتكلم معه عوالمه جهارًا إلا إذا كان قوته حلالا فأنت (**لا تأكل القوت المقوسم إلا من الحل المعلوم**).

الكلام نهي أي: لا تأكل أيها السالك الطالب لتكلم عوالمك معك القوت الذي قسمه الله لك إلا مما هو حلال، ويكون حلاليته معلومًا عندك بالنص، وإلا يكون شبهة ملحقة بالحرام، ففي كونه مانعًا للوصول إلى المقامات العليَّة، والمراتب السنية.

ويحتمل أن يكون خبرًا بحمل القوت على ما يعم الرزق، فإنه يعمُّ الحلال والحرام على الأصح بخلاف القوت، فإنه لا يكون إلا حلالاً.

وإن جعلنا القوت أعم منهما كالرزق، فلا يصح الحمل على الأخبار بل يتعين النهي كما لا يخفى.

وقد أشبعنا الكلام على الحلال والحرام، وما يكون هما فيما تقدم فارجع إليه.

١٢٥- من ترك أكل الحيوان شاهد لطائف الإنسان.

فلا يكون العبد مُشاهدًا للأسرار إلا بأكل قُوته من الحلال، وكذلك لا يُشاهد اللطائف إلا إذا ترك أكل الحيوان من الحلال، كما أشار إليه الشيخ قُدِّس سرّه بقوله:

(**من ترك أكل الحيوان شاهد لطائف الإنسان**) أي: الذي ترك أكل الحيوان وما يحصل منه، لكن الحيوان أعظم حجبًا، ولذا ذكره دون ما يحصل منه، ويمكن أن يكون المراد الحيوان وحده؛ إذ ليس حُكم الفرع بداخل تحت حُكم الأصل لجواز أن يكون في الأصل ما ليس في الفرع من الأحكام وبالعكس، فالمراد حقًّا الذي ترك أكل الحيوان مما له روح سواء ترك أكل ما يحصل منه كاللبن، والسَّمن، والبيض وغير ذلك، ولا يشاهد التارك لما مرَّ على أن يكون قائمًا بالشريعة المصطفوية، (**لطائف الإنسان**) أي: الكائنة الثابتة له الكامنة فيه بالاستعداد الأزلي، ومن شاهد لطائف الإنسان يدخل في حضرة الرَّحمن بعد أن دخل في حضرة الإحسان؛ فينكشف له حقًّا رذائله وعيوبه أيضًا؛ إذ الأشياء تُعرف بأضدادها، فيكشف للغير عن حقيقته ولطائفه ورذائله، فيقربه من معرفة نفسه، ويُذهب عنه الغطاء، ويشهد من أنانيته وكونه إناء وظرفًا للحق تعالى، فيصلح للتربية، ويكون شيخًا كاملاً ومكملاً.

١٢٦- الشيخ من كشف عنك، وأدناك منك.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**الشيخ من كشف عنك، وأدناك منك**) أي: الشيخ القائم بأمور التربية المسلك للناس الطالبين المريدين للسلوك في طريق أهل الله هو الذي كشف بالله الغطاء عن حقيقتك فتظهر لك لطائفك ورذائلك، ويقربك من معرفة نفسك المستلزمة لمعرفة ربك، كما ورد في الحديث: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**[1]»، ثم قال وزاد توضيحًا: (**الشيخ من كشف عنك غطاؤك، وأشهدك مِن أناك**) أي: الشيخ المذكور الموصوف بالصفات المذكورة من كشف عنك غطاؤك وما سترك من دعوى الوجود، ورؤية الأعمال من نفسك، وأظهرلك ما فيك مما لك وعليك، و (**أشهدك**) أي: جعلك شاهدًا من أناك أي: أنانيتك، وحقًّا يكون (أنا) بفتح الهمزة أي: أشهدك من

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٢٠٨)، ذكره المناوي في فيض القدير (١/ ٢٢٤).

خُبث قولك: أنا، ويجوز كسرها من الإناء لأنا إناء أي: مثله لهويته المطلقة الظاهرة فينا من غير الانحصار؛ لأن المطلق يَظهر في المُقيَّد مُقيدًا من غير تقيده، فهي متعينة بنا كتعين ما في الإناء بالإناء.

قال الشيخ مؤيد الدين الجندي قُدِّس سرَّه:

يَقولُــون لــوْن الْمَــاءُ لــونِ إنَائه　　أنَــا الآن مِــن مــاءِ إنَاءٍ بلاَ لَون

وقال الشيخ الأكبر قُدِّس سرَّه في كوننا إناء للهوية المطلقة:

فَلي وَجْهَان هو وأنا ولَيس لَه أنا بإنا　　وَلَكِن في مَظهَرِه فَنحن لــه كَمثلِ إنا

أي: كمثل الإناء حُذفت الهمزة للشعر والتخفيف، وكما أنا كالإناء لهوية الحق، كذلك نحن كالبناء لها تسكن فينا، وهكذا حال جميع المظاهر بالنسبة إلى الظاهر فيها، أو بفتحها من (أناءَ) وحقًا يكون بمعنى البُعد، و (مَن) بفتح الميم يعمُّ ذوي العقول وغيرهم أي: أشهد من أبعدك عن الحق تعالى حتى تُعرض عنه، وتُشتغل بالحق لا بغيره؛ لأنه المقصود الأعظم.

١٢٧- المحبوب مَن جذبه الحق إليه، وأقبل من كلِّ وجهٍ عليه.

ثم اعلم أنه قد عُلم مما مرَّ سابقًا أن العبد مُحبّ والحق تعالى محبوب، وقد يؤوّل الأمر إلى العكس، فيصير العبد محبوبًا للحق تعالى، وهو الذي عرَّفه الشيخ قُدِّس سرَّه بقوله: (**المحبوب مَن جذبه الحق إليه، وأقبل من كلِّ وجهٍ عليه**) أي: الذي حُبب إلى الله تعالى المكمِّل له مقام الخلة الذي هو حضرةٌ أولى من حضرات القربة، كما أن العبودية حضرة ثالثة، والمحبة حضرة ثانية لها هو السالك الذي جذبه الحق سبحانه وتعالى.

يجذبه من جذباته التي توازي واحدة منها عمل الثقلين إياه إلى نفسه، فأدناه إليه وأدخله في مجلسه، فتجلَّى على قلبه الذي بَـيْتُ ربه الذي يسعه دون غيره باسمه الخاص بذلك العبد؛ إذ لكل عبد اسم خاص به يكون جذبه إلى الحق تعالى بسبب التجلّي، أقبل ذلك العبد المُتجلي على قلبه الرب من كلِّ وجهٍ من الوجوه التي بها الإقبال عليه تعالى، فلا يبقى له وجه إلى غيره تعالى؛ لأنه ممنوع كما عرفت سابقًا فلا يقف عند شيءٍ، ولا يهرب عن شيءٍ؛ لأنهما لا يكونان إلا عند رؤيه ما سوى الله تعالى وعدم مشاهدة الحق

تعالى فيما سواه تعالى، فمن تحققه بأن ما خلا الله باطل لا وقوف له عند شيءٍ؛ لأن العاقل لا التِّفات له إلى الباطل، ومن مشاهدته الحق تعالى في الأشياء لا يهرب عن شيءٍ؛ لأن الاستيحاش لا يكون إلا من الاستبعاد هذا من حيث التعينات، وأمّا من حيث الذات فوحشية لا أُنس فيها لعدم المجانسة والمشاهدة للحق تعالى في الأشياء، لا يرى في شيءٍ غير الكمال، ولا يبقى له مع شيءٍ من الأشياء إلا الصلاح فهو سامي المقامات، وعالي الدرجات، ولا يكون شهود النقص في شيءٍ إلا من الناقص بخلاف الكامل، فإنه لا يأتي منه إلا الكمال، ولا يرى في شيء سوى الكمال.

١٢٨- شهود الكمال في مخالفات عوالم الأكوان، دليل على ارتفاع درجات النقصان.

وإليه أشار الشيخ قُدِّس سرّه: (**شهود الكمال في مخالفات عوالم الأكوان، دليل على ارتفاع درجات النقصان**)، فحقًّا المراد من (**المخالفات**) الناقصات؛ لأنها تخلفت عن غيرها بنقصها، والإضافة بمعنى في أي: شهود السالك المطالب لارتفاع الدرجات الكمال في جميع منقصات الواقعة في عالم الأكوان بأن يرى ما هو ناقص بالنسبة إلى الغير كمالاً بالنسبة إلى الحق؛ إذا الإضافة إليه تعالى كالأسير الذي يجعل الناقص كاملاً دليل حق، وشاهد صدق على ارتفاع درجات الناقص، وجعله كاملاً (**فالنقصان**) مصدر بمعنى الفاعل أو بحذف المضاف أي: ذي النقصان، فمن رأى الناقص كاملاً من حيث التجلّي الإلهي فيحكم بارتفاع درجاته، وإنه من الواصلين الذين غابوا عن وجودهم وحصروا شهودهم.

١٢٩- الواصل من غاب وجوده، واتَّصل شهوده.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**الواصل من غاب وجوده، واتَّصل شهوده**) أي: الذي وصل إلى جناب الحق لا كوصول العَرَض بالجوهر والجوهر بالجوهر، بل وصولاً معنويًا بأن كمل علمه بالله تعالى، هو العبد الذي غاب وجوده الثابت له بزعمه في وجود الحق تعالى، فلا يرى إلا وجود الحق تعالى، ولا يرى وجود نفسه فضلاً عن الوجود لغيره، وهو الفاني عمّا سواه تعالى الباقي بالله؛ لأنه بعد ما غاب وجوده في وجود الحق تعالى رأى الموجودات كلّها من تجليات الوجود المطلق، فلا يرى الوجود المطلق المتعين بتعيينات

الموجودات، وحقًا يكون شهوده متصلاً بالله بأن لا يشهد غيره تعالى حتى يبقى به، وكما أنه لا يشهد الغير كذلك لا يراقب الغير ولا يطالعه، فيكون من العارفين بالله الذين يشاهدون الحق تعالى في الأشياء.

١٣٠- العارف مَن أشهده الحقّ إيَّاه في كلّ شيءٍ يراه.

كما عبر عنه الشيخ قُدِّس سرّه بقوله: (**العارف مَن أشهده الحقّ إيَّاه في كلّ شيءٍ يراه**) أي: الذي عرف الحق من معرفة نفسه معرفة تامة تليق به هو الذي جعله الحق تعالى مشاهدًا له تعالى، فضمير (**إياه**) للحق في كلّ شيءٍ يراه؛ لأنه عرف أنه الوجود المطلق الساري في جميع الموجودات، فيراه فيها مُقيدًا بتشخصاتها فالعبد ليس شهوده الحق في الأشياء بنفسه، بل بإشهاد الحق تعالى إياه، فلا تكون المعرفة للعبد إلا بعد تعرف الحق تعالى له، فإذا تعرف الحق للعبد فالعبد يعرفه بقدر ذلك التعرف لا أزيد ولا أنقص، وهو تعالى متعرف إلى كلّ موجود كما مرَّ فهو تعالى معروف لكلّ أحد، لكن لا على وجه الإحاطة فإنها مُحال عليه مطلقًا، فلا يحيط به أحد من كل وجه، ولا يجهله أحد من كل وجه.

وبهذا يجمع بين قول من قال: إن الحق تعالى لا يعرف، وقول من قال: إنه يعرف يعني على وجه الإحاطة، ويعرف الوجه الخاص بكل مخلوق، ولا يتصف العبد بالأوصاف المذكورة من ارتفاع الدرجات، والوصول إلى الله، والمعرفة بالله إلا إذا خرج عن وجوده ومراداته ومطلوباته، فلا يبقى له مراد وطلب حتى طلب الوصول والدخول في الحضرة القدسية، وإلا يكون أسيرًا لنفسه.

١٣١- كل من الخلق أسير نفسه، ولو كان طلبه حضرة قدسه.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**كل من الخلق أسير نفسه، ولو كان طلبه حضرة قدسه**) أي: جميع الخلق أسير أي: مأسور لنفسه وهواه، وداخل تحت حُكمه ما دام في طلب، ولو كان ذلك الطلب الدخول في حضرة القدس التي هي الفناء عن الوجودات كلها، وإن الموجود الحقيقي هو الوجود المطلق الساري في الموجودات، وهي من تجليات ذلك الوجود المطلق، وقائمة به فهي كأعراض شتى مجتمعة في شيءٍ واحدٍ؛ لأن الموجودات ذوات مستقلة قائمة بنفوسها، والوجود عارض عليها وذلك؛ لأن خلق العبد

على الضعف والنقصان قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء:٢٨].

وقال أيضًا: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤].

ثم: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [النحل: ٧٠] أي: لكي يحصل له علم مجرد بعد حصول العلوم السابقة لفقدان قابلية الألة لتحصيله؛ لأن الناطقة يطرأ عليها الجهل بعد العلم قاله الشيخ عبد الرحمن الجامي، فالضعف والنقص أصل خَلْقِه، والقدرة والكمال عَرَض عليه فما دام له طلب بنفسه فهو في النقص والناقص بعيد عن حضرة القدس.

وأمَّا الكامل فإنما طلبه بالله من الله في الله لله، فلا يتصف بالنقص، فالقوة الذاتية والكمال الذاتي كل منهما لله تعالى، فالطالب بنفسه مطلقًا أسير تحت قهر نفسه ذليل وفقير سواء كان المطلوب العبادات، أو المقامات، أو الكرامات، أو المكاشفات، أو المشاهدات، أو التجليات أو الوصول إلى الذات.

قال الولي الكامل مِن الرحمن الشيخ المسلك رسلان المنسوب إلى دمشق[1] في اللسان:

---

(١) هو من أكابر مشايخ الشام، وأعيان العارفين، وصدور البارعين، وصاحب الإشارات العالية، والهمم السَّامية، والأنفاس الصادقة، والكرامات الخارقة، والتصريف النافذ، انتهت إليه تربية المريدين بالشَّام، واحترمه العلماء والمشايخ وبجَّلوه، وقصده الزائرون من كلِّ فجٍّ.

وكان يقول: الحدة مفتاح كل شيءٍ، والغضب يقيمك مقام ذلّ الاعتذار.

وكان يقول: مكارم الأخلاق: العفو عن القدرة، والتواضع في الذِّلة بغير منَّة.

وكان يقول: إذا قدرت على عدوِّك، فاجعل العفو عنه شكرًا لقدرتك عليه.

وكان يقول: الكريم من احتمل الأذى ولم يشك البلوى.

قال الشيخ تقي الدين السبكي: حضرت سماعًا فيه الشيخ أرسلان، فأنشد القوّال شيئًا، وكان الشَّيخ أرسلان يشبّ في الهواء ويدور فيه دورات، ثم ينــزل إلى الأرض يسيرًا يسيرًا، يفعل ذلك مرارًا والحاضرون يشاهدونه، فلمَّا استقرَّ على الأرض أسند ظهره إلى شجرة تين في تلك الدَّار، وقد يبست وقطعت الحمل منذ سنين، فأورقت واخضرَّت وأزهرت وأينعت، وحملت في تلك السنة.

سكن دمشق واستوطنها إلى أن مات بها مسنًّا، ودُفن بظاهرها، وقبره ظاهرٌ يُزار، ولمَّا حُمل على

يا أسير الشهوات والعبادات، ويا أسير المقامات والمكاشفات أنت مغرور أين اشتغالك بالله ؟! وأنت مشغول بالغير عنه، فكل ما يشغلك عن مولاك فهو حجاب لك يمنعك عن الوصول إليه، ويقيمك في البُعد عنه تعالى، وليس كلّ إنسان بطالب، ولا كل طالب بواصل، ولا كل واصل بداخل، ولا كل داخل بقاعد فلبعض الطلب، ولبعض الوصول، ولبعض الدخول، ولبعض القعود.

١٣٢- لبست كل حاشية من حواشي الإنسان، ما يناسبها من تجليات الرحمن.

وإليه أشار قُدّس سرّه بقوله: (**لبست كل حاشية من حواشي الإنسان ما يناسبها من تجليات الرحمن**) هذه القضية سالبة كلية، وعكسها موجبة جزئية، وهما صادقتان لاستلزام صدق أحديهما صدق الأُخرى، و(**ما**) يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون موصولة، ولعل المراد (**بالحواشي**) القُوى الظاهرة والباطنة أي: ليست كل فرد من أفراد حواشي الإنسان وقواه الذي يناسبها تجلٍّ من تجليات الرحمن، بل بعضها يناسبها ذلك، وبعضها لا يناسبها وذلك؛ لأنه ليس كل أحدٍ مستعدًا للهداية ولا للضلالة، بل البعض مستعد للهداية، والبعض الآخر مستعد للضلالة كما مرَّ تفصيله، لكن يُفهم من ظاهر هذا المعنى أن من الإنسان من لا يناسبه شيئًا من تجليات الرحمن، والحقيقة تأبى ذلك لما مرَّ مِن أنه:

(لا يجهله أحد من كل وجه) فلعل الصواب أن يُقال كل حاشية من حواشي الإنسان لبست بحيث لا يناسبها شيء من تجليات الرحمن، أو لبست الذي يناسبها كل تجلٍّ من تجليات الرحمن، بل يناسبها بعضها على قدر استعدادها الأزلي فما وقع في بعض النُسخ من قوله: (لبست كل حاسة من حواس الإنسان ما يناسبها..) فهو ظاهر المعنى ومؤيد لما قلنا.

١٣٣- لكن إن وقفت مع الأشياء حُجبت بها عنه، وإن بقيت بلا شيء نلت حظك منه.

(**لكن إن وقفت مع الأشياء حُجبت بها عنه، وإن بقيت بلا شيء نلت حظك منه**)

=

أعناق الرِّجال، جاءت طيورٌ خضرٌ وعكفت على نعشه ﷺ.

وانظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١٣٣/١)، والكواكب الدرية للمناوي (٨٥/٢).

أي: إن التفت إلى الأشياء، ووقفت عندها نلت حظك منها، وقد لا تنال حظك منها أصلاً، وعلى تقدير النيل قد يبقى لكل وقد لا يبقى، وعلى التقدير تُحجب بها عن الحق تعالى، فإن الأشياء تمنعك من الوصول إليه تعالى، ومن رؤيته ومشاهدته، وإن بقيت بلا شيء بأن لا يبقى لك التفات إلى ما سواه تعالى نلت ووصلت حظك اللائق بك من الله تعالى، ويبقى لك دائمًا، وهذا النيل والوصول قد يكون قبل الممات، وقد يكون بعده؛ لأن الترقي يكون بعد الموت في المعارف الإلهية، كما قرره الشيخ الأكبر في كتاب (التجليات)، وقد اجتمع بمن سلف من الكبراء كذي النون المصري، والجنيد، وسهل بن عبد الله التستري، والحلاج قَدَّس الله تعالى أسرارهم وأفادهم ذلك وغيره مما لم يكن عندهم.

وقول الله تعالى:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[الإسراء:٧٢] إنما هو بالنسبة إلى معرفة الحق تعالى لمن لا معرفة له أصلاً.

وقوله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله**[١]» إنما هو فيما يتوقف حصوله على الأعمال، فهو لا يحصل بعد الموت لانقطاع العمل بعده دون ما يحصل بفضل الله ورحمته، فالفتح لازم للمجاهدة الكاملة إمَّا في الدنيا أو في الآخرة، لكنه لازم مفارق بل غير مفارق؛ لأن الإنسان في الترقي من صورة إلى صورة ظاهرًا وباطنًا دائمًا وأنا فأنا، لكن لا يشعر بالترقي لرقة الحجاب وتشابه الصور، وكذلك الإيمان بأهل الكشف، فإنه بالإيمان بهم يحصل الترقي في تفاصيل ما آمنوا به وألقوا السمع إلى مجملات الأصول والفصول من قوانين الحقيقة والتوحيد في الآخرة، ومن هنا قالوا: إن القوم لا يشقى بهم جليسهم جعلنا الله من المؤمنين والمعتقدين بأهل الكشف واليقين بفضله وحرمة الرسول الأمين.

١٣٤- من حفظت حواسه، تعطَّرت أنفاسه.

ولا يمكن للعبد أن لا يقف عند شيءٍ ولا يلتفت إلى شيءٍ حتى يبقى بلا شيءٍ ما لم تحفظ حواسه مما سوى الحق تعالى، فإذا حفظت حواسه تكون أنفاسه مباركة معطرة، كما

---

(١) تقدم تخريجه.

قال الشيخ قُدِّس سرَّه: (**من حفظت حواسه تعطَّرت أنفاسه**).

(**الحواس**) جمع حاسة وهي أعم من الظاهرة والباطنة، والمراد (**بالأنفاس**) الكلمات، والمراد بتعطرها قبولها ووقوعها في قلوب الناس وسرايتها وتنفيذها في الأشياء كسراية القدرة وتنفيذها فيها أي: الذي جعل الله تعالى حواسه محفوظة من درك ما سواه، ورؤية الأشياء والالتفات إليها، وتعطرت كلمات فتقع في قلوب الناس، وتكون مقبولة عندهم، وتكون كلماته حاكمة في العالم، فيقف عند كلماته وهي قدرة سائرة ففي الحقيقة يكون وقوفه مع القدرة.

١٣٥- ومن وقف في جميع أموره مع القدرة صرفته في جميع أموره كما يريد، وأورثته العبرة.

(**ومن وقف في جميع أموره مع القدرة صرفته في جميع أموره كما يريد، وأورثته العبرة**) أي: الذي وقف في جميع أموره الدنيويَّة والأخروية مع القدرة الإلهية السارية في الكلِّ صرفت القدرة إياه في جميع أموره كما يريد، وأورثته تلك القدرة العبرة فيصير ذلك العبد من أهل العبرة لا من أهل الاعتبار، فلا ينظر الأشياء إلا بعين العبرة لا بعين الاعتبار، وفي بعض النسخ (بلطائفها) بدل (في جميع أموره).

وفي بعض آخر هما معًا، فالعين الأولى للخواص، والثانية للعوام، وعند هذه الطائفة النظر كله حرام سوى نظر العبرة، فيجب على السالك إغماض العين عن كلِّ شيء حتى تحصل له عين العبرة، فحقًا يحل له النظر إلى الأشياء؛ لأنه يرى فيها بدائع صنع خالق الأرض والسماء فيكون محرمًا للأشياء، وقد ورد في الشرع نظر المحرم إلى المحرم، ولا يلزم من هذا جواز النظر إلى الأجانب؛ لأن المراد النظر إلى ما يجوز في الشرع نظره، وما لا يجوز فيه نظره كالمحرمات لا يحل نظره لأحد من الآحاد في مقام من المقامات نَعم من غاب حسه عن كلِّ شيء ،وخرج عن هواه وحظوظ نفسه ولا يرى ولا يشاهد إلا الحق، فلو وقع نظره فلا يقع إلا على الحق فلا يبعد أن يقال: بجواز النظر له ولو إلى المحرمات؛ لأنه في مقام الجمع الصرف فلا وجود عنده لما به الامتياز، ويقول من الغيرة المأخوذة من الغير حرَّم الله الفواحش، وهذا مُسَلَّم لمن كان ممن لا شعور له بجرحه، ولا بقتله واحتراقه وغير ذلك وإلا فلا نسلم له ذلك، والأصل في ذلك قطع العلائق والعوائق عن الخلق وهو موقوف على الصدق مع الحق تعالى.

١٣٦- من صدق مع الحق قطع علائقه عن الخلق.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**من صدق مع الحقِّ قطع علائقه عن الخلق**) أي الذي صدق مع الحق تعالى بأن يرى الأشياء كلها منه، ولا يرى إلا حوله وقُوَّته، فتبرأ من حوله وقوَّته ومن حول الغير وقوَّته أيضًا بطريق الأولى يقدر حقًا على قطع علائقه عن الخلق فلا يبقى له طلب إلا من الحق تعالى حيث لا يرى حولاً ولا قوةً لغيره تعالى، ويرى حصول الأشياء كلهم من حول الله وقوته، فلا يكون له تعلق بشيءٍ مما سوى الله تعالى، والصدق لا يوجد إلا عند الأبدال والموصوف بأوصافهم.

١٣٧- إن ظفرت بشيخ من الأبدال عارف سلّم أمرك إليه، وإياك ثم إياك أن تعترض في أمر ما عليه.

ولذا قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**إن ظفرت بشيخ من الأبدال عارف سلّم أمرك إليه، وإياك ثُم إياك أن تعترض في أمر ما عليه**) أي: إن وجدت شيخًا من جملة الأبدال الذين يبدلون الأمور على حسب مراداتهم صفته أن يكون عارفًا بالله وأحكامه، وظفرت به سلّم على وجه الإخلاص أمرك من كلّ وجهٍ، وفي كل باب إلى ذلك الشيخ، واتق لنفسك ثم اتق نفسك من أن تعترض عليه في أمر من أموره حتى يوجد الصدق لك مع الحق تعالى بيمن أنفاس همَّته، وقد أشار الشيخ سابقًا إلى هذا أيضًا: (ولو قال إن ظفرت بشيخ عارف من الأبدال ..إلخ) بتقديم (**عارف**) على قوله: (**من الأبدال**) لكان أولى وأصوب، ولعله من قلم الناسخ أو نقول: أن مرادهم أداء المعاني لا تصحيح الألفاظ فما لهم التفات إلى هذا والله أعلم.

وإن لم تظفر بشيخ موصوف بالأوصاف المذكورة، فاذكر الله على الدوام حتى يجلي قلبك، وإذا جُلي قلبك بذكر الله فتطلع على علم الغيوب؛ إذ هو علاَّم الغيوب وفتَّاحها لمن يريده يُعلمه ويفتح له، وقيل: من لم يكن له شيخ ظاهر يجب عليه أن يداوم على الجوع والسهر والسكوت، وأن يواظب الذكر أو الفكر، ومع هذا يترك جميع ما عنده فلا يبقى عنده شيئًا وإن كان له شيخ فيضعه عنده، ويجعل نفسه كأحد ممن ينفق الشيخ عليه، ولا يتصرف في ماله بنفسه أبدًا، وإذا وجد لك الصدق فتسبق الطوائف كلها من العباد والزهاد وغيرهما؛ إذ لا يسبق الصادق لما فيه من الصدق الذي به نفي الوجودات كلها،

ومعرفة النفس المستلزمة لمعرفة الحق تعالى التي هي الفائدة العظمى، والغاية القصوى أحد من المذكورين.

١٣٨- ما سبق الصادق إلى الحق سابق، ولو كان مجد وامق.

كما أشار إليه الشيخ قُدِّس سرّه بقوله: (**ما سبق الصادق إلى الحق سابق، ولو كان مجد وامق**)، وفي بعض النسخ موافق بدل وامق، (**فالصادق**) مفعول سبق، وسابق فاعله، و(**كان**) تامة لا ناقصة، وإلا لكان مجدًا وامقًا بالنصب ليكون خبره، والمعنى على التقديرين صحيح، وعلى تقدير النصب المعنى أظهر، لكن اختار الرفع لموافقة الفقرة السابقة، والمراد أن الصادق لا يسبقه سابق عن الغير سوى الصادق فضلاً عن غير السابق أي: المتأخر عن الغير حال كون السابق موصلاً إلى الحق تعالى، ويجوز أن يراد بالحق ما يقابل الباطل فإنه لا يسبقه أحد فيه؛ لأنه قبل الكل من السابق واللاحق يصل إلى الحق ويراه حقًا، فيأخذه ويعمل بمقتضاه وغير الصادق لا يرى الحق ولا يعرف أنه حق أو لا يصل إليه لمانع من الوصول، وكلمة (لو) هنا للوصل، والمراد به التوكيد، و(**الوامق**) المحبّ من ومق يمق من باب حسب يحسب بمعنى أحبَّ يحب، والموافقة لازمة للمحبَّة فيستلزم من كونه محبًا كونه موافقًا، فيأتي في كل من النسختين معنى الأخرى بعلاقة اللازمة والملزومية مع جواز الأصل والإبقاء عليه بالأولى، فالصادق لا يسبقه أحد غيره سواء كان ذلك الغير يسبق الصادق أو لا إن لم يوجد مُجد أي: ساع مُحب ومواق، بل وإن وجد الساعي المحب الموافق لا يسبق الصادق، ولهذا إمّا كان مقام الصدق إلا مقام التمكين، فالله تعالى هو المعين ذلك هو الفضل المبين فعليه التكلان وهو المستعان.

١٣٩- جلاء القلوب بذكر المحبوب، يطلعك على علم الغيوب.

فإن دخلت في الصدق يغلب عليك ذكر الحق تعالى، وبالذكر يكون جلاء قلبك، وبالجلاء يكون الإطلاع على الغيب، كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**جلاء القلوب بذكر المحبوب يطلعك على علم الغيوب**) ذكر القلوب لمشاكلة المحبوب وإلا فحق العبارة جلاء القلب أو قلبك؛ إذ ليس للإنسان إلا قلب واحد، أو الخطاب عام معنى وإن كان خاص لفظًا، وإسناد الإطلاع إلى الجلاء من باب إسناد الفعل إلى سببه؛ لأن الجلاء سبب إطلاع المخاطب لا مطلع له وهو ظاهر، والمقصود جلاء قلبك أيها السالك المواظب على ذكر

محبوبك وهو الحق تعالى يجعلك مُطلعًا على العلوم الغيبيَّة المختصة بأهل الله الذين هم أصحاب المنازل، والخضر عليه السلام رأسهم، وهي علم الكتابة الإلهية، وعلم الجمع والتفرقة، وعلم النور، والعلم اللدني، قاله الشيخ في «فتوحاته المكية» في الباب الثالث والسبعين الذي ذكر فيه شرح أسئلة الحكيم الترمذي رضي الله عنه: «وهذه العلوم الأربعة مخبأة في القلب، وهو كنـــزها، ومفتاح هذا الكنـــز هو الذكر».

١٤٠- القلب كنـــز ومفتاحه الذكر، وأسنانه كفُّ الحواس والفكر.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**القلب كنـــز ومفتاحه الذكر، وأسنانه كفُّ الحواس والفكر**) يعني: قلب السالك الطالب للعلوم الغيبية كنـــزٌ لها ومفتاح ذلك الكنـــز أي: ما يفتح به الكنـــز ذكر الله تعالى؛ لأنه تقدَّم في كلامِ الشيخ قُدس سره أن سبب الإطلاع على علم الغيوب جلاء القلوب، وسبب الجلاء الذكر؛ لأن لكلِّ شيءٍ صيقال، وصيقال القلب لا إله إلا الله، وأسنان ذلك المفتاح التي لا يمكن الفتح بزيادة واحد منها، ولا بنقص واحد، (**كف الحواس**) أي: منعها من درك الظواهر على ظاهرها، وأيضًا أسنانه الفكر في آلاء الله وأسمائه وصفاته لا في ذاته؛ لأن التفكر فيها ممنوع بالنص، فهو عطف على (**كف**) المضاف إلى (**الحواس**) لا على الحواس لفساد المعنى وهو ظاهر، فلا يفتح ذلك الكنـــز بالذكر مع استعمال الحواس وإن كان معها الفكر، ومن هنا سُدَّ الطريق على السالكين مع وجود المجاهدات والرياضات والمكابدات منهم، نسأل الله التوفيق والسلوك في سواء الطريق.

فما لم يفتح باب الكنـــز لم يظهر ما فيه فلا يعلم ولا ينتفع به، والفتح إنما يكون بالمفتاح الموضوع لذلك الفتح وهو الذكر الدائم هنا لا الذكر مطلقًا دائمًا كان أو غير دائم، والذكر الدائم إنما يكون بالعزلة والجوع، فالفتح المسبب عما هو مسبب عن الذكر مسبب أيضًا عن العزلة والجوع، فينتج أن الفتح مختص بأهل العزلة والجوع.

١٤١- الفتح كله ممنوع إلا على أهل العزلة و الجوع.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**الفتح كله ممنوع إلا على أهل العزلة و الجوع**) أي: الفتح بكليته وبمجموعه لا ببعضه أو الفتح مطلقًا أي: كل الفتح ممنوع على أهل كلِّ خِصال حميدة من أنواع الطاعات، والعبادات، والمجاهدات، والرياضيات، والمكابدات

وغير ذلك إلا على أهل هاتين الخصلتين من العزلة عن الناس أو عن الخلق أو عن كل ما يمنعك من مولاك أو عمَّا سوى الوجود المطلق، والجوع الممدوح لا المذموم، والأول جوع العوائد كما مرَّ، وهو أن يتركها ويكون دائمًا محتاجًا إليها كاحتياجه إلى الأكل عند الجوع، والثاني جوع الطبيعة البشرية بحيث يُؤْثر حلال، فالمراد بالجوع ألا يأكل على العادة بأن يقرر لنفسه وقتًا للأكل ويعين قدرًا فيه ونوعًا منه لا أن يترك الأكل بالكلية أو بحيث يخل بالمزاج، فإنه مذموم موجب لقساوة القلب وفساد المزاج المستلزم لفساد الدرك، فالأكل مذموم تركه، فليأخذ السالك طريقًا وسطًا لترك الزيادة وعدم نقصه.

١٤٢- ما اكتسبت القلوب الريون إلا من كثرة فضلات البطون.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**ما اكتسبت القلوب الرِّيون إلا من كثرة فضلات البطون**)، و(**القلوب**) فاعل (**اكتسبت**)، و(**الريون**) مفعوله وهو جمع الرَّان على وزن فعول كالديون، و(**فضلات البطون**) ما يزيد من البطن من الأكل الزائد والشرب الزائد أي: ما لا يحتاج إليه كفضلات الكلام مما لا يحتاج إليه، ويمكن أن يكون المراد بها ما يعمُّ الخواطر الواردة على القلب؛ لأنها رانت على القلوب كالفضلات تأمل، والمراد أن اكتساب القلوب الريون المانعة لها عن فهم الأسرار لعميها بها، كما قال الله تعالى:

﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

من الغفلة والشهوة والهفوة وانطباع الصور على وجه لا يقبل غيرها، فبالانطباع يمنع وجود التجليات سواء كان الانطباع موجبًا للعبودية للأكوان، وهو الانطباع من حيث الجمال والاستحسان الموجب أيضًا أو موجبًا للغفلة بالأكوان، وهو الانطباع من حيث الشهوة، أو يكون الانطباع من حيث رؤية النفع والضرر منها، وبالشهوة يمتنع الارتحال فصاحبها كلما أراد النهوض تمنعه منه، وإن نهض تقطعه عن السير، وإن سار أعجزته على الإسراع، وإن أسرع ثبطته في الطريق.

والحاصل لا يصح له الرحيل التام، كما قاله الشيخ المعروف بزروق في شرحه للحكم لابن العطاء الإسكندري.

وبالغفلة يمتنع السالك عن الدخول في حضرة القدس؛ لأنها مقام مطهر كالمسجد لا يدخل فيه إلا المطهر من الجنابة والغفلة جنابة بالنسبة للخواص وبالهفوة والوقوع في الزلل

يمتنع عن فهم الأسرار من طرف الملك القهار.

فما دامت الصور في القلب لا يشرق، وما دامت الشهوة في السالك لا يرحل، وما دام في الغفلة لا يدخل، وما دام في الهفوة لا يفهم، وكثرة الفضلات من متابعة الهوى فمن خالف هواه ثقلت فضلات بطونه ويقهر أعدائه أيضًا.

١٤٣- من خالف هواه قهر أعداؤه.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**من خالف هواه قهر أعداؤه**)؛ لأن بالمخالفة للهوى يحصل اللين لله تعالى، فإذا خالف السالك الهوى المنازع مع الله في ملكه لان لله، ومن لان لله ألان الله له كل شيءٍ من مخلوقاته فلا يخرج شيء من أمره، ويكون كلّ شيءٍ تحت قهره، فيقهر على أعدائه أو يجعلهم مقهورون؛ لأنهم مما صدق عليه الشيء، (**فقهر**) إمّا بتخفيف الهاء من القهر، أو بتشديدها من التقهير، والمراد بالأعداء الشياطين والنفس على ما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر:٦].

وقال الرسول ﷺ: «**أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك**[1]»، ومَن سواهما مما يظهر فيه أثر العداوة والمخالفة يسمى عدوًا مجازًا باعتبار أنه صار مظهرًا لأفعالهم.

١٤٤- حُسن معاملة الإنسان دليل على ثبوت الإيمان.

والمخالفة للهوى وسيلة لحسن المعاملة مع الناس كما لا يُخفى، وحسن معاملته دليل على ثبوت الإيمان الحاصل في مقام الاطمئنان، كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**حسن معاملة الإنسان دليل على ثبوت الإيمان**) أي: حُسن معاملة الإنسان مع الخلق، ويستلزم هذا حسن المعاملة مع الخالق، بل هو هو في الحقيقة؛ لأن الخلق مظاهر ولا فرق بين الظاهر والمظاهر الإلهية إلا بالإطلاق والتقيّد، والمراد مع الخالق، ويلزم منه حسن المعاملة مع الخلق، بل لا يكون حُسن معاملة الحق إلا بحسن معاملة الخلق، أو المراد معهما بدليل تركهما، وعلى كل التقدير فأي إنسان أحسن معاملته، فحسن معاملة ذلك الإنسان دليل على ثبوت الإيمان أي: إيمان ذلك الإنسان، والمراد (**بثبوت الإيمان**) كماله، بأن يؤمن بالحق في المواطن كلها لا أنه يؤمن به في البعض ويكفر به في البعض، فيرى الأشياء مجالي

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/٣٥٨).

الحق، ويرى معاملتها معاملة الحق فيحسنها وهذا العبد الثابت الإيمان مخفي بين الناس غالبًا، وربما تكون الشهرة للموصوف بضده وخلافه وهو سوء المعاملة مع الخلق والخالق.

١٤٥- كم من قائم بنفسه مشهور في القبائل، وكم مِن قائم بربه مطروح على المزابل.

وإلى ذلك أشار الشيخ قُدِّس سرّه: (**كم من قائم بنفسه مشهور في القبائل، وكم مِن قائم بربه مطروح على المزابل**) المقصود أنه لا راد لأمره ولا معقب لحكمه قد نفذ الأمر ووقفت الحكمة، وثبتت الكلمة، فلا تغيير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان، فما كلّ داعٍ بمجيب الدعوة، وما كل ملك بصاحب الثروة، وما كل من خفي حاله غفل باله، فكثير ممن قام بنفسه اشتهر في قبائله مع أنه بعيد عن ربه، وكثير ممن قام بربه ولا يرى لنفسه وجود أو إرادة ولا عملاً ولا طلبًا، وهو مطروح في المزابل، وقاعد عليها لا يلتفت إليه أحد ولا ينظر إليه ناظر، وكم من ماشٍ على الأرض وهي تلعنه، وكم من ساجد عليها وهي لا تقبله، وكم من عدو بغيض في الصلوات والأذكار والمساجد، وكم من ولي حبيب في البيع والكنائس، وكم من داعٍ لا يَعبر دعائه لسانه ولا خاطره محله، وكم من غني ذي مال كثير وهو يموت من الجوع وما عنده شيء من الخشوع، وكم من فقيرٍ ليس عنده شيء وماله احتياج في المأكل والملبس وغير ذلك إلى شيء، وهذا كلّه دليل صادق وبرهان واضح على انقطاع الرقاب وتلاشي الأعمال، فما ثَمَّة إلا الوجود كما أجمع عليه أهل الشهود، فالعاقل لا يدخل دارًا لا يعرفها ولا يعرف الدار إلا بانيها، فافهم المراد ولا تكن من أهل العناد فيلحقك الفساد، ولا يعرف المذكور إلا المفقود، ولا يخرج عن الأغيار إلا من ارتفعت عنه كثائف الأستار بذكر الله الواحد القهار.

١٤٦- كثرة تلاوة الأذكار تنــزع كثائف الأستار.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**كثرة تلاوة الأذكار تنــزع كثائف الأستار**)، والمراد بكثرة الأذكار إمَّا مطلقًا كما هو الظاهر أو ذكر لا إله إلا الله؛ لأنها كلمة الإسلام وإنها أفضل الذكر لحديث:

«**أفضل ما قلت أنا، والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله**[(١)]» لاحتوائها على زيادة العلم لجمعها بين النفي والإثبات، فمن أكثر ذكر الله تزول عنه الأستار الكثيفة المانعة لرؤية الأنوار.

وأمّا الأستار النورانية فلا ترتفع إلا بالفناء فبالذكر يدخل النور في القلوب، وبالنور يزول النور.

وهذا الأمر عن أكثر الناس مستور وهو عند أهل الكشف مشهور.

١٤٧- لا تصحب من الناس إلا كل متشرِّع ذو بأس.

ومداومة الذكر تكون بمصاحبة أهل الذكر، وهم الذين ذكرهم الشيخ قُدِّس سرّه في قوله: (**لا تصحب من الناس إلا كل متشرِّع ذو بأس**) أي: لا تصحب أنت أيها السالك الطالب للكمال (**من الناس**) أعم من أن يكون حقيقيًا أو غير حقيقي أحدًا إلا إذا كان متشرعًا قائمًا بالشريعة المنورة لا يخرج منها في شيء، وإن لم يعمل بأعمالها من فرضها ونفلها وحرامها وحلالها ومباحها ومكروهها، بل يكون قائمًا بفروضها مجتنبًا عن محارمها، ومع هذا يكون ذا بأسٍ شديد وهيبة عظيمة حتى يكون في قلب الطالب هيبته، ويجتنب المحرمات والمكرهات، وإن لم يكن ذا بأسٍ شديدٍ وإن كان متشرعًا فصحبته لا تنفعه نفعًا معتدًا به.

وأمّا غير المتشرع فلا تجوز صحبته لكونه متجاوزًا من الحدود وكل من كان كذلك فهو في الحضرة مطرود ومردود.

١٤٨- من تعدَّى من الحدود، فهو في الحضرة مطرود.

كما قال الشيخ ﷺ: (**من تعدَّى من الحدود فهو في الحضرة مطرود**)، ويقرب منه قوله ﷺ: «**رحم الله امرئ عرف قدره، ولم يتعد طوره**[(٢)]».

والتعدِّي من الحدود مانع للدخول في حضرة المعبود فهو مردود في جميع أطواره من الشهود.

---

(١) رواه الترمذي (٥/٥٧٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣/٤٧١).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/٢٩) بنحوه، والقرطبي في التفسير (١٠/٧٩).

والمراد بها جميع ما عين الله وأوجبه في شأنه، فكل شيءٍ إمَّا خُلق بيده تعالى، أو بأمره فلا يجوز لأحد أن يتولاه بنفسه، وإن كان هو من نفسه فما هو من العبد ففيه التعدِّي من الحدِّ، فالواجب على العبد أن يعطي التولية إلى الرب، فإنه الخالق لكلِّ شيءٍ حتى للتولية فما للعبد أمنية، فكيف يتولى؟! وهو تعالى ما خلق شيئًا عبثًا، ولا يتولى ولو تولى على ما هو الدعوى فهو ظالم فمال حاكم فيفعل ما يشاء، ويُفعل به ما لم يشاء، ولو يخرج عن مشيئته لا يكون له شيئًا إلا بمشيئته؛ لأنه يكون في رضاء ربه حيث مشى مع مشيئته، ومخالفة هواه ونفسه التي بها النيل إلى غاية رضاه.

١٤٩- لا ينال غاية رضاه، إلا من خالف نفسه وهواه.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**لا ينال غاية رضاه إلا من خالف نفسه وهواه**) أي: يمتنع ولا يجوز أن يصل أحد من الطالبين غاية رضاء الحق تعالى ونهايته إلا الطالب الذي خالف نفسه وهواه المنازعين له في ملكه فيما هو مقتضيهما باعتبار النشأة المجبولين عليها لا في كل ما يطلبان ويقتضيان من غير النشأة الأصلية، فلا يلزم جواز مخالفتهما في الواجبات والمندوبات حتى المباحات، كما وقع لبعض السالكين ترك شيء من المذكورات بظن أنه من المخالفات لحصر نظره في ظاهر العبارات، وأمَّا المخالف لهما فلا يمتنع عليه الوصول إلى غاية الرضا وصل أو لم يصل فلا يتعين له الوصول؛ لأنه موقوف على الاستعداد أو القبول فاعرف هذا، والمراد بالرضا رضاء الذات دون رضاء الأسماء والصفات، وإلا فكل مربوب مرضي عند الاسم الرب الذي هو يربيه؛ لأنه مجبور داخل تحت قهره وأمره وعامل موافق لمقتضاه ألا ترى قوله تعالى: ﴿ **مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[هود:٥٦].

فهو على الصراط الرب المستقيم لكن لا يخفى حُكم السعادة الشرعية، وحاصل ما قلنا: إن السعادة على قسمين قسم منهما كون العبد بحيث يتأتى منه ما خلق له ويظهر فيه حكم ربه الذي يربيه على وجه يرضى له، وكل موجود مرضي وسعيد بهذا المعنى ولا يتصور فيه الشقاوة إلا بالنسبة إلى ربٍّ مربوب آخر الذي لم يكن لهذا الموجود صلاحية مظهريته لأحكامه كالشيطان فإنه مرضي عند الاسم المضل لا عند الاسم الهادي، وكذلك عبد الهادي مرضي وسعيد عنده لا عند الاسم المضل فكل من عبد الهادي، وعبد المضل

سعيد بالنسبة إلى ربه شقي بالنسبة إلى الآخر فهذا القسم سعادة بالنسبة إلى ربه، والقسم الثاني سعادة بالنسبة والنظر إلى نفس العبد وهو كونه على حالة يتنعم ويتلذذ بها وفي مقابلها شقاوة وبهما حكمت الشرعية الحقة لا بالأولى، وبهذا الاعتبار ينقسم المربوب إلى سعيد وشقي، وبالاعتبار الأول فحُكِمَ على كلّ مربوب بالسعادة، ومن هنا يعلم صحة إضافة المذموم إلى الله تعالى؛ لأن الإضافة إليه تعالى أكسير ينقلب به النقصان كمالاً والمذمة محمدة؛ لأن كل موجود صورة حقيقة مخصوصة ومظهر اسم خاص كما مرَّ فأثار الاسم الظاهر فيه محمدة وكمال له وإن كان بالنسبة إلى مالا يلائمه مذمة ونقصان وعدم ظهور تلك الآثار مذموم وخللها نقصان، فالهداية للأنبياء والكُمَّل، والإضلال للشياطين كل منهما كمال نسبي أي: بالنسبة لما خلق له لا بالنسبة لما يقابله أو يضاده، فمنشأ المذمة خصوصية المحل المقتضية لعدم الملائمة فالله تعالى لعدم خصوصية الاقتضاء واستغنائه الذاتي عن الكل، واقتضائه الكل بحسب شروطه الذاتية يكون كل بالنسبة إليه في محله مقتضى حكمته وآية كماله ودليل قدرته وفضيلة حيطته مع فرط نزاهة جلاله وغاية كماله، فلا يتصور فيه عدم الملائمة المقتضية لخصوصية المحل فلا يتطرق إليه مذمة، فهو صاحب كمال الحيطة واستيعاب الوجوه المتعددة الغير المتناهية فلاشيء إلا وله وجه إلى الله تعالى وله وجه إلى غيره أيضًا.

١٥٠- لكلِّ شيءٍ من الأشياء وجهان: وجه إلى ربّه بالبقاء، ووجه إلى نفسه بالحدثان.

كما أشار الشيخ قُدِّس سرّه إليه بقوله: (**لكلِّ شيءٍ من الأشياء وجهان: وجه إلى ربّه بالبقاء، ووجه إلى نفسه بالحدثان**) أي: لكلِّ ممكن من الممكنات معقولاً أو محسوسًا وجهان أحدهما إلى نفسه والآخر إلى ربه، وأمَّا الوجه الذي إلى ربه فهو بالبقاء؛ لأن البقاء حقيَّة ومن صفة الحقِّ، وللممكنات حظ فيها، وأمَّا الوجه الذي إلى نفسه فهو بالحدثان: أي حادثة فمن حيث البدن حادث، ومن حيث الروح باقٍ، فكل شيء من حيث البدن حادث وهالك، ومن حيث الروح باقٍ وثابت، قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ**﴾ [القصص:٨٨]، وقوله: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:٢٦] باعتبار الصورة دون الروح، بل في الحقيقة الموت عبارة عن افتراق الصورة التي هي الجوهر الكثيف عن الروح التي هي الجوهر اللطيف، فإن في كلِّ شيءٍ اقتضاء ما يناسب غيره وما ينافيه، لكن قد

يغلب ما به المشاركة والمناسبة على ما به المنافاة والمباينة وقد يكون بالعكس، وكل واحد مما به الاتّحاد وما به الاشتراك إذا وصل إلى غاياته يغلب ما يقابله عليه، فالله تعالى جمع بين الروح والبدن بالمناسبة الصحيحة بحيث غلب ما به الاشتراك على ما به الافتراق إلى أن بلغت أحكام ما به الاشتراك غاياتها ونهاياتها، فيغلب حينئذ ما به الافتراق على ما به الاشتراك فيفترق البدن عن الروح، والروح وإن كان بسيطًا لكنه هيئة اجتماعية نورانية من حقائق اللاهوت، فلا يقبل الانفكاك فبقيت تلك الهيئة على بقائها الذاتي الإلهي وسوّى الحق له مركبًا غير هذا المركب؛ لأن المركب الأول مركب من المباينات والمنافيات والمتضادات بخلاف هذا، فإنه مركب روحاني مناسب للروح من أكثر الوجوه من جنس الدار التي ينتقل إليها، فإمّا بدن مثالي أو أخروي فيجمع الله بينهما جمعًا لا يقبل الانفكاك والاختلال بوجود الاعتدال الموجب لحفظ الأجزاء عنهما فلا يموت، فالموت الذي في دار الدُّنيا عند هذه الطائفة عبارة عن افتراق البدن عن الروح، وأخذ الحقُّ الروح إلى نفسه بتخليصه من عالم الكون والفساد فيلاقي ربه لما مرَّ، فإن كان في الهيئة الاجتماعية مع البدن الذي فارقه مخالفًا للربِّ يعمل معه بالمخالفة توفير الأداء حقوق الاسم المنتقم، وإن كان موافقًا له فيها يعمل معه بالموافقة، وقد تظهر أحكام الاسم العفو والغفور في حقه فيعفي عنه ويغفر له، فينبغي للعبد أن يكون بين الخوف والرجاء حتى يحترز بالخوف عن المخالفة ويرغب بالرجاء في الموافقة، ولا يجوز الخوف الدائم ولا الرجاء الدائم؛ لأنه بالأول يَفْتُر عن العمل وبالثاني يقع في المخالفة، بل ينبغي التنويع.

١٥١- من أراد طريق النجاة يلاحظ في المخالفة الخوف، وفي الطاعة الرجاء.

وهو ما قاله الشيخ قُدِّس سرّه(**من أراد طريق النجاة يلاحظ في المخالفة الخوف، وفي الطاعة الرجاء**) أي: إذا تجلّى الحقُّ في قلب العبد بصفة الإرادة، فإرادة أن يسلك في طريق النجاة أي: في طريق موصل له إلى الخلاص والنجاة أو سبب لوصوله إلى ما ذكر، فليلاحظ في المخالفة جانب الحقوق وينسى جانب الرجاء، ويلاحظ في الطاعة والعبادة جانب الرجاء، وينسى جانب الخوف، فمن أتت إليه معصية من السرقة والزنا وغير ذلك، ويكون في حال الخوف من الله وعذاب النار وهول يوم القيامة، فيجتنب عنها ويتركها ولا يقدر أن يقدم عليها، وإن كان في حال الرجاء وملاحظة كرم الله ولا يلاحظ حال الخوف فيقدم عليها ويعملها، وكذا إذا أتته طاعة فإن كان راجيًا في رحمة الله وطامعًا في

إحسانه فيرغب في عملها وفي الغالب لا يمكنه تركها لعدم رجائه وطمعه في أعواض الطاعات، فلا يصح الوقوف في طرف واحد بأن يكون خائفًا لا راجيًا أو بالعكس، ولا أن يلاحظ الخوف في الطاعات والرجاء في المخالفات، بل يجعل الأمر بالعكس، فيلاحظ الثاني في الأول والأول في الثاني، والمراد بملاحظة الرجاء في الطاعة وملاحظة الخوف في المعصية أن يرجح جانب الرجاء في الصورة الأول وجانب الخوف في الثانية وإلا فالعبد ملاحظ لهما فيهما؛ لأن في ترك المعاصي يلاحظ العقاب والثواب، أمّا الأول فبالنسبة إلى عملها، وأما الثاني فبالنسبة إلى تركها وهما ملحوظان في الطاعة أيضًا إلا أن الأول بالنسبة إلى تركها والثاني بالنسبة إلى فعلها عكس ما في المعصية.

اعلم أن الحق تعالى وصف نفسه بالرضا والغضب حيث قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقال: «**وسبقت رحمتي غضبي**[١]»، فعلى القول: بالتجلّي والسراية العالم كله ذا خوفٍ ورجاءٍ، فيخاف من غضب الله ويرجو رضاء الله بناء على أن ظهور الصفات في العالم بظهور آثارها لا أعيانها، فإن الخوف من آثار الغضب والرجاء من آثار الرضا، أو العالم ذو رضا وذو غضب على القول: بأن ظهورها بأعيانها وكلاهما صحيح عند أهل الحق؛ لأن الظاهر إمّا عين الصفات أو آثارها، فالعالم إمّا الصفات الإلهية أو آثارها ولا فرق بينهما إلا بالإطلاق والتقيّد، وكذا وصف نفسه بما يتعلق باللطف والرحمة من صفات جمالية وبما يتعلق بالقهر والغلبة من صفات جلاليَّة، فالعالم على هيبة وأنس فيدهش ويتحير من مشاهدة الأسماء الجلالية ويأنس بالأسماء الجمالية فتُرفع عنه الدهشة والحيرة، فعلى هذا فالهيبة والأنس من آثار الأسماء الظاهرة في العالم، وتارة يكون المظهر على هيئة مدهشة لمن شاهدها فيه، وتارة يكون على أنس يرفع الدهشة عن الغير، فحقًا يكونان من ظهور أعيان الأسماء لا الآثار، فالعبد ينبغي أن لا يقف عند شيءٍ من هذه الحالات فينتقل من حالة إلى حالة من الخوف إلى الرجاء إلى الهيبة إلى الأُنس وغير ذلك من الحالات، فتارة في ضيق الخوف، وتارة في فضاء الرجاء، وتارة في الدهشة والحيرة، وتارة في الأنس بمشاهدة اللطف والرحمة، فلا يثبت على حال من الأحوال، وحقًا يظهر فيه علامات الكمال من الكمال.

---

(١) رواه مسلم (٤/٢١٠٧)، وأحمد (٢/٢٤٢).

١٥٢- من علامات أهل الكمال عدم الثبوت على الحال.

كما أشار إليه الشيخ قُدِّس سرّه بقوله: (**من علامات أهل الكمال عدم الثبوت على الحال**) ولكلِّ شيءٍ علامة يُعرف بها إلا الحق تعالى فإن له علامات غير متناهيات لا تُعدُّ ولا تُحصى؛ لأن في كلِّ شيءٍ آية تدلُّ على أنه واحد والأشياء لا تعد ولا تُحصى، و(**أهل الكمال**) لتخلقهم بأخلاق الله تعالى واتِّصافهم بأوصافه في الجملة بُناء على دخولهم في مقام « **بي يبصر، وبي يسمع، وبي ينطق، وبي يبطش، وبي يمشي**[1]».

لهم علامات يعرفون بها منها أن لا يثبتوا على حالة واحدة، بل دائمًا هم في الانتقال من حال أدنى إلى حال أعلى بحسب الاستعداد، وعلى قدر تلبسهم بالعبادات فترد عليهم الأحوال فتطوى لهم المقامات ويلزمون الطاعات فتظهر فيهم الكرامات.

١٥٣- بورود الحالات تنقطع المقامات، وبلزوم الطاعات تظهر الكرامات.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: (**بورود الحالات تنقطع المقامات، وبلزوم الطاعات تظهر الكرامات**) أي: لا تنقطع المقامات إلا بورود الحالات مما لا يكون للسالك عليه ثبات، و(**المقامات**) دائمة وثابتة فما لم ترد عليه الحالات لا يصل إلى مقام من المقامات، وأمَّا الكرامات وخرق العادات فهي من لوازم الطاعات، فمن لزم طاعات الحق تعالى انقادت له الأشياء فيعمل خرق العادات وتظهر منه الكرامات، ولا يسمَّى خرق العادة كرامة ما لم يكن الموصوف بها قائمًا بالشريعة الغراء لا يترك منها دقيقة، وإلا فهو مكر واستدرج يشترك فيه الطالح والصالح، بل يستوي فيه المسلم والكافر.

ومن هذا ظهر صحة قوله قُدِّس سرّه: (**بلزوم الطاعات تظهر الكرامات**) مع أنه يرى بعض الأوقات ظهورها، فمن لا يلازم الطاعات بل لا يقع منه إلا المخالفات كالكاهن والساحر، لكن ما يصدر منها ليس بكرامة بل سحر وكهانة.

١٥٤- البرزخ هو الذي جمع فيه ما حوى طرفيه.

واعلم أن كل مفترقين لا بد لهما عند هذه الطائفة من أصل هما فيه واحد مجمل وهو

(١) تقدم تخريجه.

فيهما متعدد مفصل، ويقال لذلك الأصل: البرزخ، فالواحد أصل العدد وهو تفصيل الواحد والمفرقات كثيرة وبين كل مفترقين برزخ جامع لهما، فيحتاج السالك إلى معرفته، فبينه الشيخ قُدِّس سرُّه بقول: (**البرزخ هو الذي جمع فيه ما حوى طرفيه**) أي المسمَّى بالبرزخ ما جمع فيه مجملاً كل ما انطوى وشمل طرفيه مفصلاً، يعني هو الواقع بين الشيئين بحيث يكون فيه جميع ما فيهما ولا فرق إلا بالإجمال والتفصيل، فأجمل فيه ما فصل في الطرفين، والبرزخ يتأثر من الطرف الذي فوقه ويؤثر فيما تحته، كالأحدية الجامعة بين الإطلاق والتقيّد، والفعل والانفعال، والتأثير والتأثر، وهي الحقيقة التي مظهرها الطبيعة الكلية الفعالة من وجهٍ والمنفعلة من وجهٍ آخر، فإنها تتأثر من الأسماء الإلهية وتؤثر في موادها.

ومن ثَمَّة قالوا: إنها حضرة القوابل كلها بخلاف الطبيعة الكليَّة لأهل الرسوم، فإنها إنما تشمل الأجرام والأجسام فقط، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١٥٥- رُبَّ ذائق في ذوقه يا أخوان أعلم بالله من عالم بالسنة والأركان.

والمقصود من هذه المعاني المذكورة والحقائق المسطورة ليس أن يعلمها العبد، بل المراد أن يذوقها وتصير هي حالاً فيه، فإن طريق العلم والسماع وطريق الذوق المشاهدة والعيان والثاني أكمل من الأول بداهة، وإليه أشار الشيخ قُدِّس سرُّه بقوله: (**رُبَّ ذائق في ذوقه يا أخوان أعلم بالله من عالم بالسنة والأركان**) (**الذوق**) ابتداء الشرب والشرب سقي القلب والعروق من الشراب حتى يَسْكروا، والشراب مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والصفات بالصفات، والأفعال بالأفعال والسنة معلومة، و(**الأركان**) المراد بها أركانها فيكون من عطف الخاص على العام لمزيد فضل الخاص على العام (**رُبَّ**) وإن كانت في الأصل للتقليل لكنها استعملت في التكثير بحيث صار التكثير حقيقيًا فيها والتقليل مجازيًا، فيطلق على الأول بلا قرينة والثاني بالقرينة، فالمراد هنا التكثير والمعنى كثير من الذائقين في ذوقهم أيها الأخوان مع عدم علمه بالسنة والأركان أعلم بالله تعالى من حيث ذوقه من رجل عالم بالسنة والأركان، ولا يعلم الله تعالى بالوجودان فالذائق العالم أفضل من العالم الغير الذائق ومن الذائق الغير العالم لعلمه، والذائق الغير العالم أفضل من العالم الغير الذائق لذوقه ولا يسمَّى العالم عالمًا عندهم

إلا إذا كان ذائقًا؛ لأنه العلم حقيقة وما سواه وسوسة وتلبيس، و (**الذائق**) هو الذي يعلم الأشياء على ما هي عليه من إنها قائمة بالوجود المطلق ما لها وجود من نفسها، وغاية العلم الذوقي أن يعلم العبد بأن العالم صورة الحق فإنه به يعقل، بل العبد نفسه صورة من صور الحق ومعارفه كذلك.

١٥٦- أنهى معارف الخلق من رأى أنه صورة من صور الحق.

كما أشار إليه الشيخ قُدِّس سرّه بقوله: (**أنهى معارف الخلق من رأى أنه صورة من صور الحق**)، وفي بعض النسخ: [إنما معارف الخلق من ذاته صورة مظهر من صور تجلياته] أي: أكمل معارف الحق وأتمها معرفة من رأى أنه صورة من صور الحق؛ لأنه جزء العالم الذي هو صورة الحق، والإنسان الكامل أيضًا كالعالم صورة، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته وهو كونه جامع للعوالم كلها، وعلى النسخة الثانية إن معارف الخلق من ذات الحق وبالنسبة إليه صورة مظهر من صور تجلياته أي: المعارف الظاهرة من الخلق هي مظاهر معارف الحق كما أن الخلق نفسه مظهر للحق فافهم.

وحقيقة ذلك أن الحق تعالى هوية العالم وهيولاه وهو صورتها، فالحق تعالى ظهر بالعالم كما ظهرنا بالصورة الطبيعية العنصرية، فالعالم كله أعيانه صورته الظاهرة، وتلك الهوية المتعينة بالتعينات والمقيَّدة بالصورة والتشخيصات روح هذه الصورة الظاهرة بها ومدبرة لها، فالأحكام ما ظهرت إلا في العالم ومن العالم، ولا عليك إن أسندتها إلى الحق تعالى أيضًا بل هو ما عليه نفس الأمر؛ لأن التصرف لا يقع إلا فيه من حيث ظهوره بصورة العالم كما لا يقع إلا منه باعتبار أنه مبدأه، فالعبد بتعيناته حجاب على الحق المتعين بها وفيها، وإن شئت قلت: به وفيه، فهو هوية العبد وهو صورته فآنيته صورة آنية الحق وأنانيته صورة أنانية الحق فأنا وأنت المتعينان نعبدان الهو العيني فالهو المطلق روح هذا الأنا والإنت المتعينين كما أنهما روح الصورة فافهم.

فأنا وأني وأنّا وأنت ونحن ضمائر الحق المتعين في الصور وهو ضمير له أيضًا الغيب الذاتي أي: هو عبارة عن غيب الذات وهو ما لا يعلم ولا يضاف فنحن بالصورة تفصيل آنية العظمة الإلهية، وبالباطن تفصيل هويته الكبرى فنحن له وهو لنا فهو فينا نحن ونحن فيه هو، فما ثَمَّة إلا هو ولا مانع ولا معطي ولا ضار ولا نافع ولا ظاهر ولا باطن ولا

أول ولا آخر إلا هو، فما هو إلا هو، وهو هو، وكل شيءٍ هو، وإن كان غيره من وجه فعينه من وجه، فافهم الإشارة واسلم والكتم أتم، فإنك به تسلم.

١٥٧- ما تخلّقت العرب والعجم بخُلُقٍ أعظم عند الله من الكرم.

ولا تُحصل المعارف إلا للسالك التارك والترك أنواع وأفضله ترك المال عند نفسه بالعطاء فلا يبقى عنده شيئًا سوى ما لا يكون منه بد، وهذا هو الذي أشار إليه الشيخ قُدِّس سرَّه بقوله: (**ما تخلّقت العرب والعجم بخُلُقٍ أعظم عند الله من الكرم**) التخلق الاتصاف، و(**الخُلق**) الوصف أي: الحُسن والكرم هو العطاء من غير سؤال، وقيل: فيه غير هذا، وما ذكر غير العرب والعجم؛ لأن ما سوى العرب هو العجم فيشمل الهنود والأتراك وغيرهما من جميع ما لايكون عربًا، وقدم (**العرب**)؛ لأنه أشرف فإن منهم من هو أفضل الخلق وأشرف فما فيه ما هو أشرف أشرف مما لا يكون كذلك، فالمعنى ما اتّصفت طائفة من العرب والعجم بوصف من الأوصاف الحسنة يكون أعظم قدر عند الله تعالى من الاتّصاف بوصف الكرم؛ لأنه أسبق في الدخول في مقام الفقر، فنقص العبد من الدرجات على قدر ما أمسكه، فمن كان تصدقه أكثر كان دخوله في مقام الفقر أكثر.

وقال الشيخ الأكبر في «فتوحاته» ما حاصله: أن الغني لا لتصدقه كما قالوا: بل لسبقه إلى مقام الفقر بالصدقة فله زيادة أجرنا، فإذا كان رجلان عند كل منهما عشرة دنانير فتصدق أحدهما بتسعة والآخر بواحد فعلى ما قالوا: صاحب التسعة أفضل وفاتهم روح المسألة؛ لأن الذي تصدق بالأكثر دخوله في مقام الفقر أكثر من صاحبه ففُضِّل بسبقه إلى الفقر لا غير، ولو أنه تصدَّق بالكلّ وبقى على أصله لا شيء له كان أعلى انتهى.

فلا أفضل من الكرم؛ لأنه ممدوح في جميع الأمم وبه نالوا، فافهم تفضلوا فاتصلوا فالترك في السلوك رأس مال السالك والترك ظاهري وباطني، فالكرم من الأول وقمع القلب من الدُّنيا من الثاني، والظاهري وسيلة الباطني، والأصل هو الباطني فهو المتعبر عندهم، فالمتصدق المحبّ للكمال وإن كان له فضل وأجر عظيم عند الله، كما قال الله تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران:٩٢] لكن قامع القلب عن حب المال أفضل وأقرب إلى الله فهو محب مخلص لله وذاك محب لما منَّ الله وهو من

المقربين وذاك الأبرار والصالحين، فمن قمع قلبه عن السوى يدخل في طريق الاستواء وينور قلبه بنور المعرفة الإلهية فيكشف له حقيقة وجوده فيفوز بشهود ربه.

١٥٨- من عرف حقيقة وجوده فاز من ربّه بشهوده.

كما قال الشيخ قُدِّس سرّه: **(من عرف حقيقة وجوده، فاز من ربّه بشهوده)** أي: الذي خرج عن السوى وتوجه بالإخلاص إلى المولى فتعرّف له فبقدر التعرف عرف حقيقة وجوده فاز من الله تعالى لا من نفسه بشهود الرب فيكون من المشاهدين، وفيه إشارة على أنه ليس كل عارف بالوجود فائزًا من الرب بالشهود، وإن كل فائز بالشهود عارف بحقيقة الوجود، فليس للتعلم والكسب فيه دخل، والمراد **(بمعرفة حقيقة وجوده)** أن يعرف أنه لا وجود له وهو قائم بالوجود وظاهر به كما أن الوجود تعين بتعيناته وظهر به، وذلك أن النفس الرحماني المسمّى بالهوية السارية والظل الممدود والرحمة التي وسعت كل شيءٍ لما مرَّ بالأشياء انصبغ بصبغ كل شيءٍ وحصل من ذلك الانصباغ بصبغ الأشياء صور لا تتناهى فظهر هو بها وظهرت هي به؛ لأن النور لا يدرك إلا بالظلمة كما أنها لا تدرك إلا بالنور، وهذا مشاهد لمن له ذوق في المقامات والكشوفات، لكن الظهور صفة الظاهر فيما ظهر به؛ لأن القاعدة أن المرايات إذا امتلأت من الصورة فلا تُظهر إلا الصورة لا المرآة وهو مجرب محسوس.

فكل من الخلق والحق على ما مر مرآة للآخر، فتارة يرى الحق في الخلق فلا يظهر إلا الحق، وتارة يرى الخلق في الحق فلا يظهر إلا الخلق، وعلى الأول الحق ظاهر والخلق باطن، وعلى الثاني الخلق ظاهر والحق باطن ولا ظاهر ولا باطن إلا هو هو الظاهر والباطن فلا حق ولا خلق إلا هو، وليس إلا حق، وليس إلا خلق، وليس حقًا وخلقًا وليس إلا حقًا وخلقًا فظاهره خلق وباطنه حق، فهذا هو حقيقة وجود كل شيءٍ والعارف بها فائز بشهود الربِّ في كلِّ شيءٍ، وتصير الموجودات كلها مرايا ترى فيها صور الأسماء والصفات، أو مرآة واحدة يشاهد الحق بأسمائه وصفاته فيها، والأول حال أهل المكاشفة، والثاني حال أهل المشاهدة وهو أعلى من الأول وأعلى من هذا الأعلى على أن يرى العارف نفسه محيطًا بالعالم الذي هو مرآة الحق وهو مترسم فيه فيكون مشاهدًا للحق في نفسه، كما أن في الأول كان مشاهدًا له تعالى في غيره.

١٥٩- من شاهد مظاهر الحق، وصورها من ذاته، فقد كشف له ما انطبع في مرآته.

وإلى هذا القسم أشار الشيخ قُدِّس سره بقوله: (**من شاهد مظاهر الحق، وصورها من ذاته، فقد كشف له ما انطبع في مرآته**)، والمراد بالصور ما يحس من المظاهر، وهي ذو الصور من الحقائق، ومشاهدتها من ذاته أن يرى العارف صور مظاهر الحق مترسمة فيه من العرش والكرسي والأفلاك والأنجم والأراضي وما فيها من المولدات الثلاث وغير ذلك من الفضول، وأنواع المياه والطبائع، وجميع ما يدخل تحت حيطة الإمكان فما هو في العالم الكبير بالكلي فهو فيك بالجزئي معنى وصورة، وتفصيله يؤدي إلى التطويل الموجب للملال.

فمن شاهد ما ذكر من ذاته فقد كشف الله له ما انطبع وخلق في مرآته أي: في مرآة هي نفسه أو قلبه، وحقًا فإمَّا أن تكون ذات العارف مرآة للعالم كله المرآة للحق تعالى فيرى في ذاته ما يرى فيه، وبواسطته يرى الحق ذاته، وإمَّا أن تكون الذات المترسم فيها العالم مرآة له تعالى فيرى العارف حقًا الحق في ذاته بجميع ما يراه به في العالم وهو أعلى من الأول وأعلى منه أن يخرج العارف العالم ونفسه من البين ويرى واحدًا أحد في المعنى وفي العين، فيكون حقًا الحق تعالى شاهدًا كما هو مشهود حامدًا كما هو محمود، وعابدًا كما هو معبود، وذلك لعموم الوجود وانبساطه على كل شيء، فإن نفس الرحمن وهو الوجود المطلق من حيث عمومه وانبساطه سارية في الممكنات سريان الأرواح في الأشباح، وجارية في كل ذات وعين جريان الماء في مجاريه، فالماء يتلون بلون مجاريه، والنفس الرحماني ينصبغ بصبغ مظاهره، والماء متحد لشدة الاتِّصال وكثرة بحكم المجاري والشريعة حكمت باختلاف أحكام جريانه، والمبدأ غيب والمدد غير منقطع، وكذلك النفس الرحماني لا ينقطع مدده ولا يدرك مبدأه ويتعين بتعينات كل شيء فيتعدد ويتبدد، ويكون لكل تعين حُكم غير حكم التعين الآخر، فالعارف يرى هذه الكثرة في عين تلك الوحدة وبالعكس، فيرى الكمال في كل شيء ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً؛ لأن الكامل الحقيقي سارٍ في كلِّ شيءٍ ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً للتلازم الثابت بينها فكل شيء في الحقيقة ليس كمثله شيء كما أن الحق ليس كمثله شيء.

١٦٠- لما كان الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله خلق كل فرد من أفراد الموجودات ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله فافهم.

وهذا ما قرره الشيخ قُدِّس سرّه بقوله: (**لما كان الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله خلق كل فرد من أفراد الموجودات ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله فافهم**) وبيان ذلك أن المحسوسات المشهودة كلها تخيّل وتمثيل كالمنام، فإن الخيال فيه تُشخِّص المعاني وتُمثِّل الحقائق من قِبل الحق للرائي وتجسّد النفوس في الصور الكبيرة والصغيرة والمتحركة والساكنة والطويلة والعريضة وغير ذلك، فكذلك عالم الحس صور تمثيلات لما فوقها من الروحانيات والنفسانيات وهي صور تشخيصات للأسماء والصفات التي هي صور تمثيلات لشآؤونات الذات فالحق تعالى مثّلها وأظهرها صورًا وأشكالاً وهياتا آية للصور والهيات المعنوية الأزليَّة التي هي شؤونات وأحوالات ذاتية، وتلك الشؤونات لما قبلت الوجود الحق من الرحمة الرحمانية التي وسعت كلّ شيء حتى نفسها المسماة بالنفس الرحماني والهوية السارية صارت أسماءًا وأعيانًا، ثم من الرحمة الرحيمية المسمَّاة بالفيض المقدس صارت أشخاصًا وصورًا وهياتًا وجودية، كما هو مشهود في رأي العين فانسحب عليها الفيض الوجودي والتجلي النفس الرحماني ممتدًا من أول موجود إلى آخر مولود، فاتَّصل أحكام بعضها بالبعض لسراية نور الوجود فوصل خصائص الكل إلى الكلّ وانصبغ الكل بصبغة الكل كالماء الجاري في نهر إذا حاذى موضعًا يتشكل بحسب ذلك الموضع ويجرى عليه بحسبه ويظهر فيه بموجبه لا يثبت ولا يبقى فيه، بل يمر بالجريان والماء يعقبه بالفيضان إمَّا بقطرات أو أجزاء مادية غير الأولى، والاتِّصال في أحدية سطح الماء محسوس، فكذلك النفس الرحماني دائم الجريان متوالي الفيضان من الغيب إلى الشهادة ومنها إلى الغيب؛ لأن دائرة الوجود ينعطف أولها إلى آخرها كحرف الواو والنون متواصل السرايان دائم التعين متنوع التجلّي، والظهور بحسب القوابل ثابت الاتِّصال غالبة الوحدة على الكثرة وجودًا أو عينًا.

كما أن الكثرة غالبة على الوحدة تعقلاً فما ثَمَّ إلا وجود واحد وتجلّي واحد لا ينتهي أبد الآباد وليس كمثله شيء في إطلاقه، وهو كذلك في تعيناته، فصدق أن كل موجود ليس كمثله شيء، قال الشيخ في «فتوحاته المكية» في الباب التاسع والخمسون بعد الخمسمائة من الأبواب: «هو عين ما بطن وظهر وبدى واستتر، فهو الشمس والقمر،

والعالم له كالجسد للنفس فما ثَمَّ إلا جمع فما في الكون صدع فما ثم شيء هنالك والأمر موجود، بل وجود والحكم مشهود بل شهود وبالنسب صح النسب ولولا المسبب لما ظهر السبب، فإن قلت: ليس كمثله شيء زال الظل وألفي والظل ممدود بالنص، فعليك بالفحص انتهى».

وقد جمع فيه جميع ما في الباب الثالث من الفتوحات فاحتاج المقام إلى توضيح هذه العبارات، فنقول وبالله التوفيق قوله: (عين ما بطن) أي: بوصف البطون والظهور فبالكمال له وبالتعين والتجلي له الظهور فهو عين ما بدى بالكمال والجلال والجمال وعين ما خفي باللباسات الخلقية، قوله: فهو الشمس والقمر أي: الرب والعبد، قوله والعالم آه أي: الخلق صورة للحق وهو معنى للخلق فلا تخلوا الصورة عن المعنى ولا المعنى عن الصورة مع أنها عين ذيها من وجه، وإن كانت غيرها من وجه قوله: (فما ثَمَّ إلا جمع) أي: إذا عرفت أن العالم صورة الحق فلا ظهور للحق إلا بالخلق وبالعكس فليست إلا الصورة الجمعية بينهما؛ لأن الحق أظهر الأشياء وظهر بها فما في الوجود خلق خالٍ عن الحق وبالعكس قوله: (فما في الكون صدع) أي: بينونة متوهمة، وفاصل بين الحق والعالم استعيد من الشق الفاصل بين جزئي الحائط فتوهم الفاصل من حيث الوهم لا غير فهو عين العالم قوله: (فما ثم شيء هنالك) أي: زائد على العالم وخارج عنه فأنت عينه وهو عينك قوله: (والأمر موجود) أي: ذات إحدى العين موجود في جميع المتصورات مما هو من صفات الحق أو المخلوقات قوله: (بل وجود) أي: لا بل وجود مطلق فنفي الكثرة؛ لأن الكثرة عين الوحدانية من غير المفارقة والمباينة؛ لأنه عين المباينة والمطابقة قوله: (والحكم) أي آثار الصفات الإلهية في الخلق مشهود لا بل شهود فهو الشاهد والمشهود والشهود قوله: (وبالنسب) أي: بالربوبية وجدت العبودية، وبالعكس لا تعقل أحدهما بدون الأخرى وكل منهما عدم؛ لأنهما من النسب وهي عدمية، فيصح أن يقال: من العدم يكون العدم قوله: (ولولا المسبب) هو بفتح الباء وكسرها، فعلى الأول لولا المسبب الذي أوجده الله لما ظهر حكم السبب أي: السببية كالقلم سبب الكتابة على المكتوب، وهو سبب لنسبة السببية إلى الكتابة، كما أن القلم سبب وعلّة لوجود المكتوب وكل منهما أي: من القلم والكتابة علّة النسبة المسببة إلى المكتوب، وعلى الثاني لولا الله الذي أوجد الأسباب لما ظهر حكمها، وبالجملة الفاعل بالمفعول كان فاعلاً والمفعول بالفاعل

كان مفعولاً فارتبط أمر الوجود بعضه ببعض ولذا قال: فإن قلت (كمثله) أي: ليس مثل الحق شيء؛ لأنه تعالى عين الوجود كله ولا مثل للوجود وهذا معنى (ليس كمثله شيء) بُناء على أن الكاف زائدة، كما ذكره الشيخ مؤلف الكتاب في كثير من مؤلفاته، أو يكون كناية عن نفي المثل له كقولك: (ليس لأخ زيد أخ) أي: ليس لزيد أخ فكذلك ليس مثل مثله شيء معناه ليس مثله شيء، فمن غلب عليه شهود الوحدة المنـــزهة عن الكثرة وتحقق بها وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]؛ لأنه ما ثَمَّة سواه شيء زال الظل الذي هو الخلق عنده؛ لأن الظل يحتاج إلى أمور ثلاثة النور المفيض والظلمة القابلة لصورة وتوسطها أي: الصورة بين النور والمحل، وبوحدة الوجود تنعدم الأمور فلا ظل في شهود العارف ولا فيما هو ما سوى الله، والسوى موجود بالحسّ والعقل والنقل، فالظل ممدود قال الله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ [الفرقان:٤٥]، فعليك بالفحص أي: البحث والتفتيش حتى تعرف لماذا يزول الظل بظهور النور؟ مع أنه به ظهر فتحقق بمقام التنـــزيه الحاصل من قوله: (ليس كمثله شيء)، وبمقام التشبيه الحاصل من قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧] فتجتمع بين التنـــزيه والتشبيه؛ لأن هذه الآية جامعة بينهما، فالجزء الأول تنـــزيه صِرف والثاني تشبيه، بل كل منهما جامع لهما أمَّا الأول:

فلأن الكاف إن كانت زائلة كما عرفت فهو للتنـــزيه، وإن كانت للتشبيه بمعنى ليست كالإنسان الذي هو مثل الحق شيء، فإن الله خلق الإنسان على صورته فهو نسخة الحق، والخلق ويوصف بما يوصف به الحق، وينعت بما ينعت به الخلق فهو المثل الذي لا مثل له فهو للتشبيه.

وأمَّا الثاني؛ فلأن فيه تشبيه بإثبات ما هو ثابت للخلق من السمع والبصر، وفيه تنـــزيه بحصر السمع والبصر في الحق فهو منفرد بهما فلا يشابه الخلق فيهما، قال المؤلف قدس سره في فصوصه:

فَإن قُلت بِالتَّنْـــزِيهِ كُنْتُ مُـــقيدًا ... وإِن قُلْـــت بِالتَّشبِيه كُنت مُحددًا
وإِن قُلـــت بالأمرين كُنت مسددًا ... وكُنـــت إمامًـــا فِي المعارفِ سيدًا

وقد تمّ ما وقع على عبارات هذه الرسالة بحمد الله العظيم، ووقع الختم على المعارف

والسداد والسيادة بلطف الله الكريم، ونردفه إن شاء الله تعالى بشرح بعض الكلمات الملحقة بهذه الرسالة المنسوبة إلى الكامل المكمِّل الخاتم للولاية الخاصة الشهير بابن العربي، ولا تنظر إلى مَن نسب الرسالة والكلمات الملحقة بها إلى داود القيصري الشارح للفصوص، فإن الفوائد في العقائد وعلى حسبها، والغلط المشهور أولى من صحيح غير مشهور.

فنقول وبالله التوفيق: قال مؤلف الرسالة الحِكَمية بعدما بلغ النطق في هذا الباب غايته:

(وهذه) أي: المعاني الآتية الدالة عليها الألفاظ الدالة عليها النقوش، أوهذه الألفاظ الدّالة على المعاني الدالة عليها النقوش.

استعمل (هذه) على التقديرين مجازًا لكون المعاني، أو الألفاظ كالمحسوس بالنظر إلى المشير قُدِّس سرّه كلمات خير هذه أي: كلمات نفسية على التقدير الأول، ولفظية على التقدير الثاني، وعليهما فالكلمات جمع كلمة، والمراد بها ما يعمُّ الكلام فيصح الحمل، ثم وصف الكلمات بجملة دالة على غايتها، فقال: **(تعرف)** أي: صفة تلك الكلمات تعرف وتعلم بها أي: بسبب الكلمات لمن تأملها، **(حدود)** جمع حد بمعنى المنع لغةً واصطلاحًا ما هو من الجنس والفصل، والمراد هنا التعريف أعم من أن يكون حدًّا أو رسمًا أي: تعاريف هذه الأصول الآتية من الـمُشاهد والعارف والكامل وغيرها، والمراد **(الأصول)** التي هي كلمات متداولة بين القوم، أوهو بحذف الموصوف أي: هذه الكلمات الأصول، وهذا هو الواقع في بعض النسخ، **(وإن حدودها من المهمات بالنظر إلى السالك إذا سأل سائل إيَّاه عنها)** أي: عن تلك الأصول، فيظفر السالك وغيره أيضًا بالجواب إذا علم الكلمات التي يعرف بها حدود تلك الأصول؛ لأن تلك الكلمات هي حدود الأصول فمعرفتها هي معرفة الحدود، ففي الكلام تسامح أو التغاير الاعتباري معتبر، وهذه الكلمات مذكورة فيما سبق، لكن بالتفريق وهنا بالجمع وهناك في الشرح، وهنا في المتن.

فالأصل الأول: الواصل: وهو في اللغة من الوصل أو الوصول بمعنى الاتِّصال أو الملاقاة أو الارتباط.

وفي اصطلاح هذه الطائفة: **(هو الذي اتَّصل غيبه)** أي: ما هو غائب ومستور عنه **(وشهادته)** أي: ما هو مشهود له كل منهما بالآخر **(حتى صار)** أي: كل منهما **(شيئًا**

واحدًا) بعد ما كان كل منهما واحد ضد الآخر، والمراد بالاتِّصال: الخلاص عن الاعتلال والفناء من الاستدلال، أواتِّصال الصفات بالصفات والأفعال، أو يكون الغيب كله كالشهود في حصول اليقين به.

ومذهب الشيخ على أن الغيب يصير شهودًا نفسه لا كالشهود، ويأتي المراد من الغيبة والشهادة فاعرف المراد ولا تقنع بظاهر العبارة.

والأصل الثاني: من الأصول المذكورة المحدود بكلمة من تلك الكلمات **(المشاهد)** وهو لغة اسم فاعل من شاهد أي: علم يقينًا، أو من الشهود بمعنى الحضور.

وفي اصطلاح هذه الطائفة: **(هو الذي شهد)** أي علم بعينه البصيرة، أو رأى بعينه الباصرة على ما هو مذهب الشيخ ابن العربي قُدِّس سرّه: **(غيبه وشهادته معًا)** بحيث لا يُحجب بالغيب عن الشهادة، ولا بالشهادة عن الغيب فيدرك كل واحد منهما في عين الآخر، و**(الشهيد)** هو الذي لا يَغيب عن علمه شيء، والذي قتل في سبيل الله حقيقة كالقتيل في صف القتال، أوحكمًا كالقتيل من الحظوظ البشرية، واللذائذ النفسانية بالمجاهدة المعنوية، وهي المسمَّاة « **بالجهاد الأكبر**[1]» في لسان خير البشر ﷺ الأكبر عدد أوراق الشجر وأقطار المطر وعلى آله وأتباعه ما دام في العلو كوكب الشمس والقمر.

والأصل الثالث: منها **(العارف)** وهو اسم فاعل بمعنى العالِـم؛ لأنه من عَرف بالفتح يعرِف بالكسر معرفة وعِرفانًا: أي علم، واصطلاحًا **(هو الذي عرف وعلم شهادته وغيبه)** من غير أن يشهدهما بعينه بخلاف المشاهد، فإنه كما يعلمهما يشهدهما فهو أرقى من العارف ولذا قدَّمه، ولكن لا يكفي في العرفان العلم بالشهادة والغيب، بل علمهما، ومع العلم بهما **(أعطى العارف)** الموصوف بالمعرفة **(كل ذي)**: أي صاحب حق من الغيب والشهادة حقه، فيعطي إلى الشهادة حقها وهو القيام بالعبودية، ويعطي إلى غيبه حقه وهو القيام بالربوبية ونفي الإثنينية، فليس واقفًا عند شهادته فقط كأهل الفرق المحجوبين عن كشف الأمور على ما هي عليه، ولا عند غيبه كأهل الجمع الصرف، فله

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٢/١)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥٢٣/١) بنحوه، والعجلوني في كشف الخفاء (٣٤٥/٢).

عينان يرى بهذه هذا وبتيك ذاك، فهو ذو عينين ومتكلم بلسانين، بل هو أبو العيون وصاحب الفنون ولسان الظاهر يشهد له بالجنون.

واعلم أن العلم والمعرفة والفهم في الاصطلاح على ما قاله المؤلف في (فتوحاته المكية) في الباب الأحد والأربعين وأربعمائة بمعنى واحد مع تميز ألفاظها، فلا بد من تمايز مفهومها عند العارف بالحقائق؛ لأن التجلّي لا يتكرر فبينها تميز في الدلالة كما في ألفاظها، فالعالم يطلق على ما يطلق عليه العارف والفهيم وهما لا يطلقان على ما يطلق عليه العالم، فإن الحق تعالى يُطلق عليه العالـِم دون العارف والفهيم، وقيل: إنها ألقاب الإنسان، وقيل غير ذلك، والله أعلم بما هنالك، وقد علم من المذكور أن العالم أفضل من العارف سواء كان بالمسألة أو بالله، ولا يصح أن يُقال العارف أفضل من العالم إلا إذا أريد العارف بالله والعالم بالمسائل، وإلا فالعالم بالله أفضل من العارف بالله، كما أن العالم بالمسألة أفضل من العارف بها فافهم.

ويؤيد هذا قول بعضهم:

إن العلم في درجة الثمانين وأن الكرامة في الرابع عشر، وإن الحق تعالى أمر إلى الرسول ﷺ بطلب زيادة العلم فقال لـه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤] وما قال: معرفة، وإنه تعالى أثنى على العالـِم أكثر من ثنائه على العارف، ومن هنا قال الشيخ الأكبر في فتوحاته: (أن من شاركه تعالى في الصفات أعظم عنده) وأطال فيه، فإن أردت التحقيق فارجع إليها في الباب المذكور منها.

والأصل الرابع: (**المحب**) وهو اسم فاعل من أحبَّه وهو قليل، واسم المفعول منه وهو محبوب على خلاف القياس، والحب بالفتح والكسر والضم، والحُبّاب بالثاني، والثالث والمحبَّة الوداد، وجاء المحب بالكسر، والحبة بالضم، والحباب كذلك بمعنى المحبوب، والحبيب باللام المحب وبدونها خمسة وثلاثون صحابيًا وجماعة محدثون.

وفي اصطلاح هذه الطائفة هو أي: المحب الذي أحب حبًا صفاتيًا أو أفعاليًا أو ذاتيًا، والأول أعلى من الثاني، والثالث أعلى منهما (ما) مفعول أحب: أي أحب الذي هو محتجب بشهوده عنه، والحال إن الذي احتجب عنه (**وهو غيبه**) فلا يلتفت إلى الشواهد والظواهر، وحصر نظره في الغرائب، واستعمال (ما) في هذا المقام مجازًا واختيارًا لمذهب

سيبويه، والثاني أولى للحمل على الحقيقة التي هي أصل، وإن كان المجاز أبلغ فتأمل.

والأصل الخامس: (**الكامل**) وهو لغة ضد الناقص.

واصطلاحًا (**هو الذي شهد**): أي علم ذوقًا على ما يفيده التعبير بشهد في الغيب: أي غيبه، أو ما هو غيب عنه الشهادة: أي شهادته، أو ما هو مشهودٌ لــه من المحسوسات، (**وشهد أيضًا في الشهادة الغيب**) فلا يفرق بينهما ولو بالاعتبار فيشهد الغيب من الوجه الذي به شهد الشهادة، والشهادة أيضًا من الوجه الذي به شهد الغيب بخلاف المشاهد فإنه يشهدهما لا من وجهٍ واحد، فلا يشهد هذا في ذاك ولا ذاك في هذا فحصل الفرق بينهما، والأولى أن يكونَ ما ذُكر في الأصول السابقة من الحدود أقلها، وما ذكر في هذا الأصل كمالها، وحقًا يعمها فلا يكون غير، وعلى هذا المشاهد الكامل ما شهد بعينه الغيب في الشهادة وبالعكس، والعارف الكامل هو الذي عرف الغيب في الشهادة وبالعكس، والمحب الكامل ما يحب ما هو محتجب عنه في شهادته وبالعكس تأمل.

والأصل السادس: (**السالك**) وهو اسم فاعل من سلك المكان: أي دخل فيه، وهذه الطائفة يطلقونه على الداخل في طريق القوم.

والشيخ عرَّفه بالمسافر المعنوي فقال: (**هو الذي سافر من شهادته إلى غيبه**) بأن توجه إلى الغيب وانقطع من الشهادة، لكن بشرط أن لا يتم سفره فإن تم فهو واصل، ففي الكلام نوع تسامح بحسب التبادر؛ لأن المتبادر منه أنه انتقل من شهادته واصلاً إلى غيبه وليس هذا مراد، فإن المراد أنه سافر من الشهادة قاصدًا من هذا السفر إلى الغيب لا أنه واصل إليه، فهو مثل قولك: سافر زيد من الشام إلى الحجاز قبل بلوغه إلى الحجاز وبعد وقوع السفر، أو المراد المعنى المتبادر، والفرق بينه وبين الواصل باتِّحاد الغيب والشهادة للثاني دون الأول.

والأصل السابع: (**المكاشف**) من كشفت المرأة النقاب عن وجهها: أي رفعته، وفي الاصطلاح (**هو الذي استوى غيبه وشهادته**) أي: مع شهادته من باب استوى الماء والخشبة أي: معها في (**اللطائف**) بعد ما كان أولاً شهادته كثيفة وغيبه لطيفًا، والكثيف الغليظ كالأشباح، واللطيف ما رقَّ ودقَّ كالأرواح، فمن غلبت حقيقته على خليقته بل اضمحلت الخلقية في الحقيَّة ولا يبقى لها أثر، وذلك بأن تبدلت صفاته البشرية بالصفات

الحقيّة، وتحقق بمقام «**بي يبصر**[١]»، فقد استوى غيبه وشهادته.

والأصل الثامن: (**المتصرِّف**) وهو من الصرف بمعنى الرد أو التقلب أو التغير، والمراد هنا ما يعمُّ المعاني المذكورة؛ لأن المتصرف في الشيء هو الحاكم عليه بأي حُكم يريده، ويكون هو قابلاً لذلك الحُكم، وعند هذه الطائفة هو الذي غلب على المكاشفات المستوي الجهتين؛ لأنه (**غلب غيبه**) من استعداده الأزلي (**على شهادته**)، فيرجح ذاك على هذه فيقهر شهادته بغيبه فينصب ويعزل مثلاً، بخلاف المكاشف فإنه ممنوع من هذا الاستواء الغيب والشهادة فيه، فمنهم من غلبت الشهادة فيه على الغيب فيضعف غيبه تحت قهر شهادته، ومنهم من غلب الغيب فيه على الشهادة فتضعف شهادته من حُكم غيبه، ومنهم من استوى فيه الغيب والشهادة بدون تغلب أحدهما على الآخر، وهذا الاستواء غير الاستواء المذكور في المتن؛ لأن ما في المتن هو الاستواء في حُكمٍ من الأحكام لا في المرتبة وهذا في المرتبة فافهم.

فلا يرجح أن ظاهر سياق المتن ترجيح المتصرف، وهذه العبارة المذكورة آنفًا تفيد أرجحية المكاشف فبينهما تنافٍ، كما وقع في الشرح أن المكاشف أرقى وأكمل من المتصرف لعدم التفريط والإفراط في المكاشف دون المتصرف، فما وقع في الذكر مقدمًا أعلى رتبة مما وقع مؤخرًا فأعلاهم الواصل، وأدناهم المحجوب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

والأصل التاسع: وهو (**الفاني**) ضد الباقي واصطلاحًا هو اسم السالك الكامل الذي غاب بتغييب الحق إياه (**في الغيب عن الشهادة**) إلى فيهما للعهد: أي غاب عن شهادته داخلاً في غيبه فلا شعور له بظاهره لاستغراقه بباطنه وحضوره معه، أو للجنس أي: هو الذي غاب وانفصل عن جميع الظواهر، واتَّصل بالباطن باستغراقه في حضوره وشهوده.

والأصل العاشر: (**الموحد**) وهو اسم فاعل من وحده توحيدًا أي: جعله واحدًا، واصطلاحًا (**هو الذي لا غيب له معتبر ولا شهادة**) له كذلك؛ لأن الغيب بالنظر إلى الشهادة، كما أن الشهادة بالنظر إلى الغيب، وهو موحد لهما ويجعلهما واحدًا كما هو

---

(١) تقدم تخريجه.

في نفس الأمر؛ لأنه لا غيب في حق الذات للذات، فلا شهادة ولا غيب وشهادة لا غيب، وغيب لا شهادة وغيب وشهادة، فالعدّ بالكلية نقص، والوجود بالبعضية أيضًا نقص، والكمال الكلي الوجود.

واعلم أن الموجود الخارجي إمَّا عدم محض لا وجود له في نفسه ولا ثبوت له لغيره، أو وجود محض له وجود في نفسه وثبوت لغيره، أو ليس عدمًا محضًا لثبوته للغير، ولا وجودًا محضًا لعدم وجوده في نفسه، فالأول هو الشريك، والثاني هو الحق، والثالث ما سواهما، فالممكنات لا موجودة ولا معدومة، كما أن الأحوال عند المتكلمين لا موجودة ولا معدومة و الأحوال مثل العالمية والقادرية وأمثالها بمعنى كون الشيء عالمًا وكونه قادرًا، فالشيء وعلمه مثلاً موجودان، وكونه عالمًا ليس شيئًا ولا علمًا وهو ظاهر، فهو نسبة عدمية لا وجود لها في الخارج، ويُحكم على الشيء، ففيه معنى الثبوت له وثبوت شيء لشيء، وإن لم يستلزم وجود الثابت، لكنه فيه شائبة الوجود للفرق الظاهرة بين ما يكون موجودًا ثابتًا للغير، وإن لم يكن موجودًا في نفسه وبين ما لا يكون موجودًا ثابتًا أصلاً لا في نفسه ولا لغيره.

والأصل الحادي عشر: (المحجوب) وهو اسم مفعول من حجبه إذا ستره فالمحجوب المستور، واصطلاحًا هو الذي وقف لتمرنه وانهماكه في الشهوات البشرية، والحظوظات النفسانية مع ما هو منطبع في مرآة قلبه من المدركات الظاهرة فلا يرى إلا الشهادة والظاهر من نفسه أو غيره حال كون ذلك الواقف مع الشهادة مُعرضًا عن الغيب وما هو باطن عنه، فلا يلتفت ولا ينظر إلا إلى الشهادة، وما له إلى الغيب التفات إمَّا لجهله به أو لاشتغاله بالشهادة، فإن القلب لا يسع الاشتغال بشيئين في آنٍ واحد.

فقوله: (**عن الغيب**) متعلق (**بوقف**) على تقدير تضمين معنى الإعراض فيه، فهو من باب تضمين الفعل ما يناسب المتعلق الظاهر كما هو المذكور هنا، ثم أشار المؤلف إلى ما هو المراد من الغيب والشهادة المذكورين في هذه الصور كلها، فقال بإذن الملك المتعال: واعلم أيها السالك أو الناظر الطالب لمعرفة هذه الأصول أن الغيب المذكور في حدود هذه الأصول هو الحق تعالى من حيث باطنه وإطلاقه، من غير أن يعتبر معه تعين تعيناته، والشهادة المذكورة فيها هي الخلق الذي هو ظاهر الحق تعالى، فإنه الظاهر بالصور المتعينة

المتشابهة بعضها ببعض، فباعتبار إطلاقه منـــزه عن كل نقص وشين، ومن حيث تعيناته فما ثَمَّة غيره في البين فهو جل عن الأمثال والنظير وهو ظهر بصورة كل قبيح ومليح وصغير وكبير، كما أن الواحد من الأعداد منـــزه في نفسه عن الكثرة العددية مع أنه عين الكثرة أي: بتكرار ظهوراته، ولما كان للحق تعالى وجوه متعددة لا تُحصى وما في الوجود ظاهرًا وباطنًا إلا هو من حيث هويته الغيبية السارية في الممكنات فيجوز فيهما التخالف من حيث الوجوه، والتعدد من حيث الحدود مع كمال اتِّحادهما؛ لأنهما من منبع واحد.

فالتعدد الحاصل لنا كرأي العين من وهمنا وخيالنا فما ثَمَّة إلا واحد لكن كون التعدد وهمًا إنما هو من جهة كونه أمرًا زائدًا على الواحد ومغايرًا له، وإلا فما ثَمَّة الكثرة أيضًا، أشار الشيخ قُدِّس سرّه إلى التعدد وحكم عليه بالوحدة كما ترى فقال: الغيب يطلق على كل ما هو غيب عن الحس والعقل والشهادة بضده، وقد يُقال: للخارج عن درك الحواس الظاهرة غيب، ولِـــما سواه شهادة ولِـــما لم يكن مشاهدًا وحاضرًا وإن كان محسوسًا أيضًا غيب.

والمشاهد هو الحاضر هذا بحسب اللغة والاستعمال، وأمَّا باعتبار أهل الاعتبار (**فالغيب هو الحق والشهادة هي الخلق**) كما ذُكر لكن قد يعبر عنهما بأسماء أخرى غير الحق والخلق، وغير الغيب والشهادة وهي ما سيذكر ويتلى عليك وهو الضمير في مثل هذا المقام يفيد الحصر فلو لم تكن هذه الأمور شيئًا واحدًا لما صح الحصر أي: الغيب إنما (**هو الحق**) إنما هويتك فهويتك عين الحق بمعنى ليست أمرًا زائدًا عن الوجود الحق فصح الحصر وانحصر الأمر.

وكذلك (**الشهادة**) إنما (**هي الخلق**) وإنما (**هي أنانيتك**)، وهو قول: أنا والمُكنى عنه بأنا، وهي الصورة الظاهرة وقيل أيضًا: (**الغيب هو باطنك**) أي حقيقتك؛ لأن باطن الشيء حقيقته ويقال: سره أيضًا، وقيل أيضًا: (**الشهادة ظاهرك**).

وقيل أيضًا: (**الغيب هو عالم الأمر الواقع**) في قوله تعالى: ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

وبعضهم عبر عنه بالتجلّي الأمري الروحاني (**والشهادة هي عالم الخلق**) المشار إليه في

القول المذكور، والحكمة في ترك ضمير الحصر في قوله: (والشهادة أنانيتك).

وقوله: (والشهادة ظاهرك) هي أن الحصر فيهما أخفى أو نقول: بأنه من الناسخ، والمعنى المقصود من هذه الأمور المذكورة المتعددة المتباينة شيء واحد، وهو الوجود المطلق الساري في الكل المتجلّي بصور الكل، فافهم المراد حتى لا تقع في الفساد فتكون من أهل الزندقة والإلحاد، وفي هذا المقام ظهر دعوى الحلول والاتّحاد والله بصير بالعباد ولا إنكار إلا لأهل الحسد والجهل والعناد.

واعلم أن الشيخ الأكبر قُدِّس روحه ونور ضريحه جعل للغيب في مفاتيح الغيب قسمين: أحديهما بالنظر إلى نفسه، والأخرى بالنظر إلينا، فالغيب بالنظر إلى نفسه، إمَّا يعلم من غير وجود له فيغيبه كالمحال، أو له وجود كما يعلم، والأول له أقسام: كالجمع بين الضدين، وكون الجسم في مكانين، وقبل الواحد وجود الاثنين، وإن المسبب يسبق السبب ومثلها السبب والوجود؛ إذ ليس لأعيانها الوجود وهو بالنظر إلى ما سوى الحق أيضًا إما أن يدرك أو لا يدرك، وإن كان ممكن الإدراك وهو أيضًا مطلق ومقيد فالأول قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ﴾ [الأنعام:٥٩] أي: جنس الغيب الشامل لأقسامه يكون نظير قولهم: أهلك الناس الدينار والدرهم، والثاني قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [الأنعام:٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾[الجن:٢٦] ﴿ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٧] فهو يعلم بالبعض، وقال قدس سره:[وغيب الهو لا يُدرك أبدًا والمفاتيح التي عنده لا يعلمها إلا هو] والقسم الأول للغيب بالنظر إلى نفسه ما له مفتاح وجود عيني؛ لأن القسم الأول ما له وجود في عينه، وقال في الكتاب المذكور أيضًا:

إن الغيب ليس نفس المغيب، والمفاتيح وضعت لفتح الغيب لا المغيب، لكن يبدو ويظهر هو خلف حجاب الغيب فالغيب كالساتر والباب، والمفتاح يفتح به الباب لا الدار ويمكن أن يكون وراء الباب المفتوح أبواب كثار فلا يستلزم فتح الباب كشف الدار، وقد يكشف له الدار دون الموضع المخصوص المطلوب، فمن المغيبات ما يكون له مفتاح واحد إذا فتح غيبه يكون المغيب مشهودًا، ومنها ما يكون له مفتاحين أو ثلاثةً فصاعدًا، وحقًا يكون كل مفتاح غيبًا لمفتاح آخر إلى أن ينتهي إلى المفتاح الأول، ويكون ذلك عند الهو

فلا يعلمه إلا هو وليس عند الله غيب في حق ذاته لذاته فهو لنفسه مشهود؛ لأن العالم له مشهود.

هذا خلاصة ما ذكره الشيخ المذكور في الكتاب المسطور لكن مع بعض الزيادات والتقديم والتأخير في بعض العبارات ففرغ من حدود الأصول، ثم شرع في الاقتباسات الإلهامية وهي الأحكام التي ألقيت في قلب الشيخ قدس سره من الحق تعالى بلا واسطة أو بواسطة ملك الإلهام.

الاقتباسات الإلهامية

فقال: (**الاقتباسات الإلهامية**) أي: هذه اقتباسات مأخوذة منسوبة إلى الإلهام لحصولها منه، والاقتباسات جمع الاقتباس وهو مصدر باب الافتعال من اقتبس العلم أي:استفاد.

وفي كتاب (كنـــز اللغة) الاقتباس أخذ العلم والفائدة والنار.

وفي (القاموس) اقتبس النار: أخذها، والعلم استفاده، والمراد هنا اسم المفعول أي: العلوم والفوائد المأخوذة الإلهامية، وكما إنها اقتباسات إلهامية، كذلك إنها الأحكام المعنوية، فلذا جاء بعطف التغاير، فقال: (**والأحكام المعنوية**) أي: وهذه أحكام منسوبة إلى المعنى ووصفها بالمعنوية؛ لأن اللفظية لا اعتبار لها وهي جمع حاكم بمعنى القضاء، والكلام الذي فيه حكم يسمونه قضية لما ذكر في العلوم الرسمية، وتلك المعاني الآتية من حيث إنها مأخوذة من الإلهام اقتباسات ومن حيث إنها ثبوت وأخبار وأحكام، وهذه هي الأحكام التي مأخوذة من الإلهام الرباني من أوعاها نال مرادها.

١ - من كتم فقد تمَّ.

فقال قدس سره: (**من كتم**) أموره في السلوك (**تم له**) السلوك، ومن كتم أمر الوجود على ما هو عليه في نفس الأمر بأن يعلم أنه واحد سار في الموجودات كلها وهي قائمة به، وهو عين الحق تعالى وستر هذا بأن لم يعمل بمقتضاه ولا يراعي الحكم فقط فيعطل الشريعة الغرابل يلاحظ الحكمة وهي الشريعة معها ويعمل بمقتضاها تمَّ أمره ولا يحتاج في الكمال إلى أمرٍ آخر، ومن كتم أعماله تم له جزاء أعماله، ومن كتم سر الربوبية تم له أمر العبودية، ومن كتم أحواله تم كماله، ومن كتم وجوده في وجود الحق، ومراده في مراده

تعالى، وأفعاله في أفعاله تم له وصاله، وكل مطلوب يناله.

٢- من انفصل اتَّصل.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من انفصل)** عن الخلق بالإعراض عنهم **(اتصل)** بالحق تعالى بالاستغراق في شهوده، ومن انفصل عن السوى اتصل بالمولى ويوصفه بما هو مقتضى ذاته من شؤوناته، ومن انفصل عن نفسه بالخروج عنها اتَّصل بربه بالقيام به، ومن انفصل عن الأكوان اتَّصل بالرحمن، ومن انفصل عن عقله وتدبيره اتَّصل بمدبره الحقيقي وهو يدبر له في أموره، ومن انفصل عن علمه الرسمي اتَّصل بالعلم اللدني الحقيقي، ومن انفصل عن الانفصال اتَّصل كمال الاتصال، ومن انفصل عن روث الصلصال بماء الحياة الزلال.

٣- من امتلأ ابتلى.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من امتلأ)** باطنه من المعارف الربانية **(ابتلى)** ظاهره بالبلاء السماوية، فإن البلاء موكل بالأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، وقد ورد أن الله لما خلق الخلق في عالم الأرواح كانوا كلهم واقفين بين يديه ما لهم التفات إلى الغير؛ لأنه كان معدومًا حقًا، ثم لما خلق الدُّنيا هرب منه إليها تسعة أعشاره وبقي عُشر عنده، ثم لما خلق الآخرة هرب من هذا العشر أيضًا تسعة أعشاره إليها وبقي عنده تعالى عشر العشر، فقال: لهم خلقت الدنيا وما رُحتم إليها، وخلقت الآخرة وما رضيتم بها فما طلبكم؟ قالوا: رضائك، قال: فأزاح ابتلائكم بأنواع البلايا، وجعلكم هدفًا لها، قالوا: لست أنت مبلي، قال: بلا، قالوا: فإذن لا نبالي فابتلاء العباد ليس نقصًا في كمالهم بل به حصول كمالاقم، أو موجب لنيل درجاقم العالية، وسبب الوصول إلى المقامات السامية.

ومن امتلأ باطنه من الحلال ابتلى ظاهره بالآلام والأسقام، ومن الحرام ابتلى ظاهرًا وباطنًا بأنواع العذاب في الأولى والعقبى، ومن امتلأ من العلوم الرسمية ابتلى بالحرمان من العلوم الوهبية واللدنية، ومن امتلأ من الوجود ابتلى بعدم الشهود، ومن امتلأ لسانه بالكلام ابتُلى بالحرام، ومن امتلأ من الدنيا ابتلىبالعقبى، ومن امتلأ بالعقبى ابتلى بمشاهدة المولى، فلا يكون العبد في حال من أحواله ألا وهو مبتلى بشيء، ومن امتلأ باطنه من الله تعالى وشبع منه وأعرض عن السوى حتى عن إعراضه ابتلى بفقد الماء سوى ويكون وليًا بلا اشتباه.

٤- من عرف وصف.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من عرف)** الحق تعالى بصفاته معرفة كائنة على حسب استعداده **(وصف)** الحق تعالى على قدر معرفته فالمنـــزه يوصفه بالتنـــزيه فقط، والمشبه يوصفه بالتشبيه فقط، والكامل معرفة يوصفه بهما وينـــزهه عنهما كما هو كمال التنـــزيه؛ لأنه التنـــزيه عن الانحصار في التنـــزيه.

قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات:١٨٠] أي: نزّه ربك تنـــزيهًا نفسه عما وصفوه بعقولهم؛ لأن براهينها لا تنتج إلا التنـــزيه الصِّرف المقابل للتشبيه، فإذا قال العارف: سبحان الله يقصد به تنـــزيهه تعالى عن الإطلاق المقابل للتقييد عن التنـــزيه المقابل للتشبيه، فإن الحق عنده معنى جامع لجميع المعاني حميدة أو ذميمة فتقع عليه جميع العبارات من وجه ولا تفي به من وجوه متعددة، كذا قاله الشيخ الكامل الجبيلي في: الإنسان الكامل قدس الله تعالى أسراره، فالعارف يصف الحق بجميع الأوصاف التنـــزيهية والتشبيهية؛ لأن الحق تعالى وصف نفسه بالكلّ إمّا صراحة وإمّا قياسًا، فوصف نفسه بالاستواء والفوقية والجوع والمرض، وأثبت لنفسه السمع والبصر واليد وغير ذلك مما وردت به الشرائع والبواقي يقاس عليها فما فيه وجه الاستواء يقاس على الاستواء، وما فيه وجه الفوقية يقاس على الفوقية وعلى هذا القياس، ويجوز أن يكون عرف ووصف على البناء للمفعول أي: من عرف بأن يكون معروفًا عند الناس بشيءٍ وصف بما عرف، فالصالح المعروف يوصف عند الناس بالصلاح، والفاسق يوصف بالفسق، والسخي بالسخاء، والبخيل بالبخل وهكذا، والمعروف عند الناس هو المعروف عند الله وملائكته؛ لأنه أولاً يكون معروفًا عند الله بشيءٍ، ثم عند الملائكة بإعلام من الله، ثم عند الناس بإعلام الملائكة وتحت هذا الكلام بهذا المعنى فوائد كثيرة لمن يفهم المعاني والوجوه.

٥- من باح ناح.

والمناسب للمعنى الثاني ما قاله الشيخ قُدِّس سرّه عقبه وهو هذا: **(من باح)** وظهر في صفة حميدة أو ذميمة **(ناح)** ويبلى بصوت عالٍ، ويحزن حزنًا شديدًا، فإن كانت سيئة يحد أو يعذر عليها، وإن كانت حسنة فيمنع من الحضرة ويُسد عليه الطريق، ولهذا قيل: الشهرة آفة بل آفات فالعوام مأموره بكتمان المعاصي، والخواص مأموره بكتمان الحسنات، كما ورد في باب الصدقة، والأخص مأمور بكتمان الأسرار والكل مروي عن المصطفى المختار أو من باح بسره وأظهره ناح أي: بلى واستبكى.

٦- من قنع شبع.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من قنع**) وغنى بقلبه (**شبع**) من الطلب من غيره، قال المؤلف قدس سره في (الفتوحات المكية) ما حاصله: القناعة عندنا هو السؤال من الله تعالى لا من غيره، كما أن الصبر حبس النفس الشكوى إلى غير الله لا إلى الله من قنع قنوعًا إذا سأل، فالقناعة السؤال من الله ولا يركن إلى غيره تعالى.

قال الله تعالى: ﴿**وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ**﴾ [الحج:٣٦] أي: السائل الذي رفع سؤاله إلى الله تعالى، فالسائل من غيره تعالى ليس بقانع، ويخاف عليه من الحرمان والخسران؛ لأن السائل موصوف بالركون إلى من سأله.

وقال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾ [هود:١١٣].

ومن ركن إلى جنسه فقد ركن إلى ظالم قال تعالى: ﴿ **وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ [الأحزاب:٧٢]، فمن قنع واكتفى بالسؤال من الله يسعد إن شاء الله، وليست القناعة الاكتفاء بالموجود من غير طلب المزيد، ألا ترى أوما سمعت أن أيوب عليه السلام لما أرسل إليه رجل جرادًا من ذهب أخذ يجمعه في ثوبه فقال له ربه: ألم أكن أغنيتك عن هذا، فقال عليه السلام: لا غَناء بي في خيرك والله أمرنا بالاقتداء بنبينا ﷺ، وأمر نبينا بالاقتداء بهم انتهى خلاصة ما في الفتوحات المكية.

وأنشد في هذا الباب أبياتًا، فقال قُدِّس سرّه:

إنْ القناعة بابٌ أنت داخلهُ ... إن كُنت ذَاكَ الذي يُرجَى لِخدمته
فَاقنع بما أعطَت الأيام من نعمٍ ... مِن الطبيعةِ لا تَقنَعُ بِنعمَته
لو كَان عِندك مَال الخلق كلهم ... لم يأكلْ الشخصُ غيرَ لقمته

وقال بعضهم: قناعة العوام بالقلوب، وقناعة الخواص بذكر الحي الذي لا يموت، وقناعة أخص الخواص بمشاهدة ذي المُلك والملكوت.

٧- من اتّضع ارتفع.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من اتّضع**) الاتضاع أن تخفض رقبة البعير لوضع القدم عليها حتى

يركب أي: من خفض عنقه لأن يضع الناس أقدامهم عليه، وهو كناية عن التذلل أو هو بمعنى التواضع أي: من تذلل وتخاشع مع الخلق **(ارتفع)** قدره عند الناس وعلى كلامه.

وفي الحديث: «**رحم الله امرئ عرف قدره ولم يتعد طوره**[1]»، وأصل الإنسان على التذلل؛ لأنه مخلوق من التراب وصفته الذل والانكسار أو من وضع الحق الأشياء رضي بالتّلجي بأي وجه كان ملائمًا أوغير ملائم ارتفع عند الناس أو إلى الله أو إلى الجنة أو غير ذلك مما يحصل به الارتفاع من المراتب والمقامات والمكاشفات، ومفهومه أن من ارتفع اتضع، لكن لا مطلقًا بل بالتفصيل الآتي قبيل هذا أو من قبل وضع نفسه وانكسارها ارتفع شأنه عند الخلق والخالق، والمراد من كل التقادير المذكورة إن العبد مطلوب بالتواضع والتذلل والانكسار على ما هو حده ووضعه ولا يجاوز حده حتى لا يبقى به دعوى الربوبية المختصة بالحق تعالى.

٨- من فار غار.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من فار)** أي: علا وتكبر من فار الماء أي: زاد وارتفع وعلا، **(غار)** أي: انخفض وذل وصغر من غار الماء إذا انخفض تحت الأرض بحيث لا يصل إليه شيء حتى يسقى منه، فمن طلب العلو بنفسه فالله تعالى يضعه.

وفي الحديث: «**إن حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه**[2]».

وقال الشيخ في فتوحاته المكية: «وما أخاف على مَن هذه صفته إلا أن الله تعالى إذا وضعه يضعه في النار».

وقال أيضًا فيها: «واحذر يا أخي أن تريد علوًا في الأرض والزم الخمول فإنك إنما أنشأك الله من الأرض فلا تعلو عليها فإنها أمك، ومن تكبر على أمه فقد عاقها، وعقوق الوالدين حرام».

وقال أيضًا: «والذي أوصيناك به أن لا تريد علوًا، وإن أعلاك الله لا تطلب أنت من

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٠/٧٩)، المناوي في فيض القدير (٤/٢٩) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢٥).

الله إلا أن تكون في نفسك صاحب الذلة والمسكنة».

وقال: (فمن أراد العلو في الدُّنيا فقد أراد الولاية فيها)، وقد قال ﷺ:

«**إنها يوم القيامة حسرة وندامة**[(١)]»، فلا تكن من الجاهلين انتهى.

والمقصود أن إرادة العلو بنفسه هي المذمومة، وأمَّا إذا رفعه الله فذلك إليه تعالى لا إلى العبد إلا إنه لا يزال ناظرًا إلى أصله وما هو عليه من التواضع والذل والانكسار، ولا يكون هذا إلا لمن يكون الحق مشهودًا له، ولهذا مدار الأكابر على تحصيل مقام الشهود فإنه فيه يليق العبد بأن يوصف بأي وصفٍ كان، ويصير الكل كمالاً له لعدم أنانيته والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

٩- من صدق سبق.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من صدق**) مع الله في جميع حركاته وسكناته (**سبق**) كل من لم يكن له صدق مع الله من المريدين والطالبين والسالكين، والصدق فوق الإخلاص، وقال بعض: هو التبرؤ من حوله وقوته، فالإخلاص للخواص، والصدق للأخص منهم، وقال بعض: الإخلاص نسيان كل مذكور سوى المعبود، والصدق موافقة الحق في السر والعلن، وقال: صدق العوام في الأقوال، والخواص في الأفعال، والأخص في الأحوال، فبالأول تحصل النجاة من النيران، وبالثاني يكون الوصول إلى الجنان، وبالثالث يكون الاتِّصال بالملك الرحمن.

وقال الشيخ الجيلي صاحب كتاب «الإنسان الكامل» قُدِّس سرَّه: «إن مقام الصادق فوق المقامات كلها سوى مقام التمكن والقربة وهو مقام حق اليقين، ومقام الصدق مقام عين اليقين، وما تحته من المقامات مقام علم اليقين[(٢)]».

وقد بينت المقامات السبعة في شرح رسالة الولي الكامل الشيخ رسلان الدمشقي قُدِّس

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/١٢٩).

(٢) اليقين: هو تمييز العلم الذي لا يحتمل النقيض، وحقيقته: تصورٌ يُنــزل المسموع منــزلة المشهود، وغايته: استغناء النفس عن كل مسموعٍ بما حصل به في داخل الذهن؛ لأن عين الجمع لا يعتبر الخارج؛ لاستغنائه عنه، فلا يفتقر إلى المطابقة، الأول علمه، والثاني عينه، والثالث حقه اهـ.

سرَّه، ومن دخل في مقام الصدق لا يبقى لـــه صديق، ولا يميل إليه رفيق، ويفوت عنه المنفعة الدنياوية كلها، وتأتي إليه المنفعة الأخروية كلها.

١٠- من جاز فاز.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من جاز)** وعبر عن المال والمنال **(فاز)** بالوصال، ويخرج عن روث الصلصال، ومن جاز عن الأكوان فاز بالرحمن، ومن جاز عن الدارين وخلع عن رجليه النعلين فاز بمقام قاب قوسين، ومن جاز في العمر أربعين من السنين فاز بالأمن من الجنون والجذام والبرص باليقين، ومن جاز عن ستين فهو في إدبار كما كان في إقبال إلى ستين، ويرزقه الله إنابة المخبتين، ومن جاز السبعين فاز بمحبة أهل السماوات وأهل الأرض من الصالحين، ومن جاز الثمانين فاز بالحسنات ومُحيت عنه السيئات، ومن جاز التسعين فاز بالغفران لـــما تقدم وما تأخر من رب العالمين، ومن جاز مائة سنة من عمره كتب الله اسمه في السماء أسير الله في أرضه.

١١- من جدَّ وجد.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من جدَّ)** وسعى في طلبه **(وجد)** الله وأثبت لـــه التوحيد في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه، وهذا مأخوذ من حديث: «**مَن طلب وجد**[١]»، ولاينافي هذا ما قاله السلطان أبو يزيد البسطامي قُدِّس سرَّه: السالك مردود والطريق عليه مسدود؛ لأن مراد المؤلف قدس سره، وكذا الحديث هو أن يكون الطلب بالله، أو بمن هو بالله لا بنفسه، ومراد أبي يزيد قدس روحه هو أن يكون الطلب بنفسه لا بالله ولا بمن هو بالله من كمل ورثة رسول الله، فالنقص في رؤية الوجود وإثبات الكل لما هو المعبود هو الكمال عند أهل الشهود فمن طلب شيئًا واجتهد في طلبه فلا بد من حصوله له، ولهذا قال الشيخ في فتوحاته المكية: أن الفتح بعد المجاهدات والرياضات لا بد منه في الحياة أو بعد الممات، ولا ينافي ما في الحديث: «**إنه إذا مات ابن آدم انقطع عمله**[٢]»؛ لأنه فيما هو موقوف على الأعمال، وهذا بمحض الفضل والوهب.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وقال أيضًا فيها: «إذا رأيت يا أخي عامل صدق أو عرفته من نفسك من غير فتح لك في باطنك فلا تتهم ربك فإنه مدخر لك».

ثم قال: «وفر من أن تكون من أهل التهمة انتهى بخلاصته».

١٢- من سلم تعلم.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من سلم**) من طالب علم ظاهر أو باطن إلى المعلم الظاهري أو الباطني أموره (**تعلم**) ما يريده من العلم الظاهر أو الباطن من المعلم المسلم إليه؛ لأن المخالفة تنتج الحرمان، فمن سلّم الأمور إلى معمله الحقيقي تعلم منه العلم الوهبي واللدني، فلا يعمل عملاً ولا يفعل فعلاً ولا يقول: قولاً إلا عن علم، فعليك بالتسليم حتى تتعلم، وإذا تعلمت فعليك باستعمال ما تعلمته في حركاتك وسكناتك حتى يجعل الله لك فُرقانًا ونورًا وورثك ذلك العلم علمًا آخر، وإلا تكون كالسراج تضيء للغير وتحرق نفسك وفي الحديث: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فكذلك من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به فعلم وعمل وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا مثل القيعان التي لم تمسك ماء ولا أنبتت كلأً».

ذكره الشيخ في فتوحاته المكية.

وقال فيها: إن النبي ﷺ أثنى على من قبل العلم وعمل به وعلّمه، وذم نقيض ذلك والتسليم المعتبر أن يفوض الأمر إلى ربه ليفعل الرب برضائه له لا برضاء العبد المسلم، وأما التسليم إليه ليفعل برضاء العبد لا برضاء نفسه فغير معتبر ولا يلزم منه التعلم.

وفي (**التسليم**) التاء للتوبة، والسين لسلامة القلب،واللام للطف مع خلق الله، والياء لليقظة، والميم للمحبة، فمن تاب وأسلم لله وصفا قلبه من الشرك والنفاق، ولطف مع خلق الله وتيقظ من نوم الغفلة، وصار محب لله ولما أحبه الله يحصل له التسليم فيتعلم العلم بالأمور على ما هي عليه، ويخرج عن المنازعات ويرضى بالبلاءات، وتنقاد له الأرض والسماوات.

١٣- من اتقى ارتقى.

ثم قـــال قُدِّس سرّه: (**من اتَّقى**) أعمـــال الشرك وغير ذلك مما لا يرضي به الله (**ارتقى**) إلى درجات الكمال، قال الله تعالى: ﴿**تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال ﷺ: « **التقوى زاد الموقنين**[1]»، وأصل التقوى الاتّقاء من الحلال خوف أن يشغله عن الله، فالعوام تقواهم بلسانهم فيأثرون ذكر الحق على ذكر الخلق، وتقوى الخواص بالأركان فيختارون خدمة الحق على خدمة الخلق، وتقوى الأخص بالجنان فيختارون محبته على محبتهم، ومن اتقى خلاف الأولى يصل إلى درجات علا، ومن اتقى السوى ارتقى إلى المولى.

مطلب اتقوا الله حق تقاته[2]

قال بعضهم: كمال التقوى أن يشهد قلبه أن الله تعالى هو الذي وقاه عن جميع ما

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) التقوى عند أهل الحقيقة التنـــزه عما يشغل سره عن الحق، والتبتل إليه بشراشره، وهو التقوى الحقيقي المراد بقوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقَاتِه**﴾ [آل عمران:١٠٢].

وقيل: هي اجتناب كل ما يبعد عن الله، وقيل: هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وقيل: هو أن يجتنب العبد ما سوى الله.

وقال الواسطي: المتقي: من اتقى تقواه: أي من اتقى رؤية تقواه.

وقـيل: حقـيقة الـتقوى مـن غـير الأنـبياء: الاحتراز عن الشرك الجلي والخفي، والشرك الجلي والخفـي أمـران مخـتلفان باخـتلاف الأشخاص، فالشرك الجلي من العوام الكفر، والشرك الخفي مـنهم التوحـيد باللـسان مـع اشـتغال القلـب بغـير الله، وهذا هو الشرك الجلي من الخواص، والـشرك الخفـي مـنهم الـتفاتهم إلى الدنيا وأسبابها، وهذا هو الشرك الجلي من خواص الخواص، وهـم الـسابقون والمقـرّبون، والـشرك الخفـي مـنهم الـتفاتهم إلى الآخرة ونعيمها، وترسلهم بالطاعات لجلب ثواب أو دفع عقاب.

اتّقاه، وقال: وهو المراد بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢]، فمن شهد عجز نفسه عن عدم الوقوع في ما لا يرضي ربه، وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فقد اتقى الله حق تقاته، وهو أسهل من قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] خلاف ما يبادر أذهان الخلق فإن تقوى الله حد الاستطاعة شاق على النفس؛ إذ النفس لا بد أن تبقى عندها بقية راحة لم تبذلها في مرضاته تعالى لميلها إلى الكسل والراحة وهذا أمر يعسر على العبد التخلق منه انتهى.

وقال المؤلف في الفتوحات المكية ما حاصله: «كنا نفهم أن تقوى الله حق تقاته أصعب من تقوى الله حد الاستطاعة حتى رأيت تفسير الحق تعالى الشكر في قصة داود عليه السلام أنه قال: يارب كيف أشكرك والشكر مَن إلا إياك؟، فقال له الحق تعالى: الآن شكرتني».

١٤- من عشق قلق.

ثم قال قُدّس سرّه: (**من عشق**) وعجب لمحبوبه أو أفرط الحب فيه ويكون في عفاف (**قلق**) وانزعج فلا يكون لـــه سكون؛ إذ السكون من العقل والعقل والعشق ضدان كالحركة والسكون فالعقل يعمر والعشق يخرب، وهو يستوطن وذاك يسافر، وهو نائم وذاك يقظان، وهو متأمل في عاقبة الأمور وذاك لا يلتفت إلى ما في الصدور، وميزانه خفيف لا يوزن به إلا الحقيق وذاك ما له ميزان معين، ويقبل كل ما للوهم دخل فيه، فيجوز تقيد المطلق وبالعكس، ويلبس ما ليس له صورة عند العقل نوعًا من الصورة فينـــزه ويشبه على ما جاءت به الشرائع كلها، فالسفر لا يكون بلا قلق وهو من العشق لا العقل، فعليك بالعشق إن أردت وصال الحق.

١٥- من ضل ذل.

ثم قال قُدّس سرّه: (**من ضل**) من الضلالة ضد الهدى أي: ترك الطريق الحق وسلك في غيره (**ذل**) من ذل يذل ذلة أي: هان بين الناس لا يحترمه أحد ويهينونه، كما هو المشاهد من الضالين في الطريق، فإن الله تعالى أذلهم بالقتل والنهب والسبي في دار الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة، أو لمن ضل ربه وفقده وغاب هو عنه ذل في الدارين فلم يكن له ولي يعاونه لذل به، والمراد أن الضال مطرود عند الخلق والخالق وليس ما يصيبك أو

يصيب من يعز عليك من أهلك أو يصيب مالك من الرزايا والبلايا قرينة دالة على ضلالتك بل لا تكترث له ولا تبالي به؛ لأن لله عليك فيه ثلاث نعم، كما قاله عمر بن الخطاب ﷺ: الأولى حيث لم تكن المصيبة في الدين، والثانية حيث لم تكن ما هو أكبر منها ويدفع بها ما أعظم منها، والثالثة ما جعل الله فيها من الأجر بالكفارة من سيئات الأعمال.

واعلم أن المؤمن لا يخلو في الدنيا من الرزايا والبلايا؛ لأن الله يحب أن يطهره لينقلب إليه طاهرًا من دنس المخالفات، وفي الحديث: «**الدنيا سجن المؤمن**[1]»، وفيه أن المؤمن إذا دخل في حجر ضب لقيض الله له فيه من يؤذيه، وفيه مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تصرعها الريح مرة وتعدلها أخرى حتى تهيج ذكره الشيخ قدس سره في فتوحاته المكية.

١٦- مَن جاد ساد.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من جاد)** بماله **(ساد)** من بين أقرانه؛ إذ بالجود ينال المقصود، فمن طلب الجود والسخاء يصير سيدًا على من يجود عليهم.

روي: «**إن في الجنة دارا يسموها دار السخاء لا يدخلها إلا الأسخياء**[2]».

ومن جاد بالنفس يطهر من الدنس، ومن جاد بالقلب فاز بالأدب، ومن جاد بالروح فاز بالفتوح، ومن جاد بالسر فهو من أهل البر، ومن جاد بالخفاء فاز بالأولى والعقبى، ومن جاد بالإخفاء بملك المولى، وحقًا يكون مُلكه أكبر من ملك الله، كما روي أن الله تعالى قال لأبي يزيد البسطامي قدس سره: ملكي أكبر أم ملكك قال: ملكي قال: لماذا؟ قال: لأن ملكي أنت وملكك أنا، وأنت أكبر مني، ومن هنا قيل: سبحان ملك الملك؛ لأنه تعالى مالك كل شيء، وليس للعبد إلا الله، فاعرف ولا تجهل واسلم تسلم.

---

(١) رواه مسلم (٤/١٨٦٠)، والترمذي (٤/٥٦١)، وابن ماجه (٢/١٣٧٨)، وأحمد في المسند (٢/ ١٩٧).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/٣٦٢)، والقرطبي في التذكرة (١/٤١٨)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/٦٦) بنحوه.

١٧- مَن تفكر تذكّر.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من تفكر)** في آلاء الله ونعمه **(تذكر)** الحق تعالى في قلبه، ومن تفكر أحواله تذكر ما هو له، ومن تفكر عاقبة أمره تذكر معايبه فبالفكر يتم له الأمر، وينتبه لما هو فيه من الحسن والردي، ويتذكر ما فاته وما حاصله فيزداد سعيًا ويطلب من المضار بُعدًا ومن المنافع قربًا، وقد ورد: «**تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة**[1]» أي: بلا تفكر.

١٨- مَن جاز:حاز.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من جاز)** عما ذكر **(حاز)** بكل خير فمن عبر عما ذكر سابقًا حاز وجمع ما في مقابله من المذكورات فارجع وقابل كلاً بحذا كل على ما وقع هناك.

١٩- مَن اشتهر انتظر.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من اشتهر)** وقبل الشهرة من نفسه بأن طلبها من غير أن يكون من الله **(انتظر)** لما يحتاج إليه، ولا ينال مطلوبه؛ لأن العبد مأمور بالخمول فلا يصح للعبد أن يطلب الشهرة بين الخلق، لكن إذا وقعت له من الحق بدون أن يكون هو طالبًا لها فلا تضره ولا تمنعه مما هو مطلوبه.

٢٠- مَن صبر قدر.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من صبر)** وحبس نفسه عن الشكوى إلى غير الله **(قدر)** بأقدار الله إياه على كل ما تمناه، فالصبر عند المؤلف قُدِّس سرُّه أن لا يشكوا إلى غير الله لا حبس النفس مطلقًا، ومن صبر على البلاء **(قدر)** عليها، والله تعالى يبدلها بالنعم، ومن صبر على الطاعات قدر على تحصيل الدرجات، ومن صبر على الصبر قدر على كلّ الخير، فالصبر ممدوح بكل لسان، لكن في مقام الإحسان؛ لأن الصبر على الأقدار عند الكُمَّل إساءة أدب مع الملك القهار.

وفي الحديث: «**من صبر ظفر**».

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٧١٢) بنحوه.

وقال ﷺ: «**بالصبر يقوى اليقين**»، وضده مذموم إلا لمن هو مفقود.

٢١- مَن اختلى اجتلى.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**مَن اختلى**) ببدنه ولازم الخلوة (**اجتلى**) وصفا قلبه من الكدورات، ومن اختلى بقلبه اجتلى روحه وكثرت فتوحه، ومن اختلى ظاهره من الأغيار اجتلى باطنه من الأنوار، وقال المؤلف قُدِّس سرّه في فتوحاته: أن الخلوة أرفع أحوال العزلة فإنها عزلة في عزلة، فنتيجة الخلوة أقوى من نتيجة العزلة العامة، والاختلاء يجوز أن يكون بمعنى العزلة مطلقًا سواء كان بالأجسام عن مخالطة الأعيان، أو بالقلوب عن الأكوان، والأولة للمريدين، والثانية للمحقّقين، وسواء كانت بنية اتقاء شر الناس، أو اتقاء شره من الناس، أو بنية إيثار صحبة مولاه على ما سواه، والأول سوء الظن بالناس، والثاني سوء الظن بنفسه، والثالث أعلى منهما، والثاني أعلى من الأول، ويجوز أن يكون بمعنى الدخول في الخلوة، وعلى التقديرين يلزم من الاختلاء صمت اللسان دون صمت الجنان، وإن الواحد المنفرد المعتزل عن الناس يجد في نفسه لغير الله ومع غير الله، فلا تقع العزلة في القلب إلا من وحشه تطرأ عليه من المعتزل عنه، ولهذا يجب على المعتزل أن يكون صاحب يقين مع الله تعالى لا يكون له خاطر متعلق بخارج عن بيت عزلته، كما قاله المؤلف قدس سره في فتوحاته.

٢٢- مَن حبّ دبّ.

ثم قال قدس سره: (**من حب**) المحبوب الحقيقي وهو الحق تعالى بسويداء بصيرته (**دبّ**) ومشى على هنئته؛ لأن زاد السفر هو التقوى ومركبه هو المحبة، فمن ركبها يقطع المسافة البعيدة في لحظة لطيفة، فيكون مشيه خفيفًا كمشي النمل لا يحرك شيئًا ولا يكسره، وأينما كان يطلع عليه.

اعلم أن الحق تعال أثبت على نفسه المحبة بقوله: «**كنت كنـــزًا مخفيًا فاحببت أن أعرف**(1)».

وبقوله في الكلام المجيد: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤]،

(١) ذكره العجلوني في كشف الخلفاء (٢/١٠١١)، وتقدم.

وهؤلاء هم المخلصون عن القيودات وفرشوا الأسماء والصفات، وخرجوا عن جميع الحظوظات، وأصل المحبة الذاتية هي سبب الظهور، كما في الحديث المذكور وهي في رتبة الإطلاق عين الذات، والمحبة المتعلقة بإظهار الكمالات مترتبة على التي هي أصل الأسماء والصفات واختلفوا في حقيقتها.

قال بعض من الحكماء: هي ابتهاج بتصور حضور ذات ماهية كمال المدرك، وقال آخر: إنها عماء الحب عن عيوب المحبوب، وقال آخر من الأطباء: إنها عرض وسواس يجلبه الإنسان باستحسان صورة جميلة، وقال آخر من أهل الذوق: إنه صفة سرمدية وعناية أزلية ولولاها ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، وقال آخر منهم: إنها سر أودع في قلوب المخلصين الموقنين، وقال آخر منهم: إنها بحسب متعلقاتها ومن هي قائمة به تختلف فترسم برسوم مختلفة، فالمحبة الإلهية حقيقة من الحقائق الإلهية توجب اصطفاء ما تعلقت به على غيره وإيصاله إلى كمالاته، والمحبَّة الكونية المتعلقة بحال من الحالات وكمال من الكمالات ما هو مبدأ طلب لما هو كمال بالنسبة إليه، وهذه هي السارية في الموجودات كلها والمتعلقة بغير ما ذكرناه، هي معنى روحاني يفني المحب في المحبوب ابتهاجًا بمشاهدة الجمال، وانجذابًا إلى مطالعة الكمال، وقسموها بنوع من الاعتبارات إلى: ذاتية وصفاتية وأسمائية وأفعالية وأثارية، فالأول إدراك الذات نفسها بنفسها، والثاني والثالث طلب الأسماء والصفات ظهورها في مجاليها وظهور مجاليها، أو الثاني طلب الذات الظهور بالصفات، والثالث ما مرَّ أو الثاني ناشئ عن الثالث فافهم، والرابع ما به ظهور الشؤون، والخامس هو الذي يظهر في الأكوان هذا بالنسبة إلى الحق تعالى، وأمَّا بالنسبة إلى الخلق فذاتية وصفاتية وأفعالية، فمن أحب الذات فهو الكامل الأعلى؛ لأنها منبع الكمالات ومن أحب الصفات فهو أدنى من محب الذات، ومحب الأفعال له نوع من الكمال والأسماء دخل في الصفات، والأثار داخل في الأفعال فتأمل على جلاء القلب حتى تُطلع على حقيقة الحال، ومدار قوتها، وضعفها على الوحدة والكثرة فلكما ارتفعت الحجب وقلّت أحكام الكثرة تقوى المحبة، وكلما تكثر الحجب تضعف المحبة؛ لأن التنافر يزيد ويقوى بكثرة أحكام الكثرة، ويقل بقلتها ونتيجة المحبة من طرف الحق تعالى اصطفاؤه المحبوب من بين خلقه، وأن يكون «سمعه وبصره» إلى آخر ما في الحديث، وأن يحب العبد إياه ويختاره على ما سواه ويحب قهره كلطفه، ويقول: كل ما يفعله الحبيب حبيب، ومن طرف العبد

الوجد والسكر والهيمان وترك ما يشغله عن المحبوب حتى نفسه ووجوده فيخلص من المضايقات، ويدخل في فضاء الحضرات والله ولي المخلوقات نرجو النجاة من طوارق الحوادثات من خالق الأرض والسموات وبشرب بشراب محبته يخرجنا من الظلمات أمين يا مجيب الدعوات.

٢٣- مَن رمق علق.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(مَن رمق)** ولحظ لحظًا خفيفًا إلى جانب المحبوب الحقيقي **(علق)** به وتصير محبته لازمة لقلبه، أو من صار في الرمق وهو بقية الروح علق حقًا بالله تعالى وأيئس مما سواه لكمال يقينه حقًا بالله، فهو تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين خصوصًا لمن علق به وأعرض عن غيره وكل من رمق بطرفه لشيءٍ علقه بلسانه ويأخذ نصيبه منه فالنفع وكذا الضر من الميل، فمن مال نال على حسب استعداده، ومن هنا قيل: الباقي خيرٌ من الفاني؛ لأنه لا ميل له لخلاف الباقي بالله، والعبد مخلوق على العجز والافتقار، فالغناء لله الواحد القهار.

٢٤- من ثبت نبت.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من ثبت)** في أمره ولا يشتت في أحواله **(نبت)** واستقر بخلاف من يعمل تارة ويترك أخرى ويزيد تارة وينقص أخرى فإنه لا ينبت، ومن لا ينبت لا يكمل ويبقى في النقص فربما يصير إلى الهلاك وأصل الثبات إلزام النفس الطاعة على الدوام، ومن كان هذا شأنه يسمونه مرابطًا؛ لأنه ربط نفسه بهذا الأمر والرباط ليس مخصوصًا بملازمة الثغور والجهاد، بل في الخير كله، فإن انتظار الصلاة بعد الصلاة أيضًا رباط ما ورد في الحديث، فالمراد أن من ثبت على الطاعة دائمًا من غير حد ينتهي إليه وألزمه على نفسه نبت، وإذا أنبت ينمو شيئًا فشيئًا إلى يوم القيامة، ويؤمن فتان القبر، قال المؤلف قُدِّس سرّه في الفتوحات: أن كل إنسان إذا مات يختم له على عمله إلا المرابط فإنه يُنمى له إلى يوم القيامة، ويؤمن فتان القبر كذا أثبت عن رسول الله ﷺ انتهى، فهو من أفضل أحوال المؤمن بل أفضلها.

٢٥- مَن طاب غاب.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من طاب)** سره من المعاني الغيبية **(غاب)** عن حسّه بالكلية، ومن

طاب عن المخالفات غاب عن المحسوسات، ومن طاب عقله وزكى بنور الإيمان غاب قلبه عن الأكوان، ومن طاب بالنفس والروح والقلب وجميع قواه غاب عما سواه تعالى، ومن طاب روحه غاب وجوده وزاد فتوحه.

٢٦- مَن اختفى اكتفى.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من اختفى**) بين الخلق (**اكتفى**) بالحق؛ لأن الاشتهار يطلب الإكثار فعليك بالاختفاء إن أردت المولى وهو أسلم لك وأولى، والاختفاء من صفات الحق تعالى حيث كان ظاهرًا فأظهر الأشياء واختفى فيها، فيجب على كل ولي نوع اختفاء مصداقًا لتخلقه بأخلاق الله، وفي هذا الاختفاء عين الظهور كما هو المقرر في العلم المستور، ولا يفهم هذا إلا أهل ذا.

٢٧- مَن صفى وفَّى.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من صفى**) ظاهره من المخالفات وباطنه من الكدورات (**وفَّى**) بالميثاق والعهد الأزلي لما قالوا: بلى في جواب ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ [الأعراف:١٧٢] إذ لا يصدق قول: بلى إلا بما ذكرنا، وفي بعض النسخ عفا أي: مَن صفى ظاهرًا وباطنًا عفا، ولا يرى مخالفًا إنما يرى ملائمًا؛ لأن الأرض الطيبة تنبت النبات الطيب فمن الصفي يحصل الوفي، ومن الكدر يحصل الغدر فالزم تفز بجزيل الأجر.

٢٨- مَن تزوَّق تعوَّق.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من تزوق**) وتزين من غير أن يكون فيه الزينة (**تعوق**) وتأخر في الطريق ويحبس فيه ويصرف عنه، وأصل التزويق تزيين ما ليس له زينة وتحسين ما له عن، فالمزوق اسم مفعول هو المزخرف، ويطلق على كل ما يكون ظاهره جيدًا وباطنه رديًا من الأعيان والمعاني، فمن طلب الزينة الظاهرة وقبلها والتفت إليها يتعوق، بل لا يصل وهو عوق لا خير عنده، وكذلك من جعل ظاهره مزينًا مع خبث باطنه فهو مصروف عن المطلوب ومردود ومطرود، فالزينة زينة الباطن ولا اعتبار بزينة الظاهر إلا إذا كان موافقًا للباطن هذا لمن رأى نفس المظاهر بخلاف من رأى الظاهر في المظاهر، فلا حرج عليه لاتِّحاد الظاهر والمظهر لديه، ففي الكل كمال؛ لأنه له الكمال وما سواه قيل وقال والإنكار وبال؛ لأنه نزاع وجدال.

٢٩- مَن ابتدع انقطع.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من ابتدع**) واستحدث على ما جاء به الرسول ﷺ من الأهواء والأعمال (**انقطع**) عن الرفقاء والطريق أو الكمال أو الوصال، أو من ابتدع وسلك طريق نفسه انقطع لاشتراط الواسطة في السلوك؛ لأن المبدأ إنما كان بها فكذلك الميعاد فانظر إلى نفسك كيف بدأها؟ وكيف ميعادها إلى أصلها؟ لا يكون الولد بدون الوالدين، ولا يصير كوالده إلا بتربيته أو تربية غيره، فإن قلت: بعيسى فما بالك بمريم ونفخ جبريل، وإن قلت: بآدم فما بالك بالتراب أتى به عزرائيل، وإن قلت: بأول الخلق فما بالك بنفس الحق، وليس صدور الأشياء من الحق تعالى إلا مجازًا باعتبار الواسطة فلا يصح أن يكون مصدر الأشياء لعدم المناسبة؛ لأنه واجب وهي ممكنة وهو يقبل الأولية، وهي لا تقبلها وهي مفتقرة وهو لا يوصف ولا يتصف به، وإن الممكن ظهر في الوجود بعد عدمه، ولو كان صادرًا عنه تعالى لكان صادرًا من الوجود إلى وجود، وكان يوصف بأن له عينًا قائمة في الأزل، نعوذ بالله من هذا المقال فإنه طريق أهل الضلال.

فلا بد من الواسطة فلا تبتدع أيها السالك حتى لا تنقطع عن المطلوب، وتخلص من المهالك، ولهذا يجب على الطالب أن يسلك على يد مسلك جسماني أو روحاني أقله أن يكون على سنة الرسول ﷺ، فإنه وإن كان لا يكفيه إلا أن الله تعالى مسلكًا يعطيه فالمبتدئ يفتقر إلى وسيلة غير الرسول ﷺ حتى يصل إليه؛ لأنه الوسيلة العظمى للأدنى والأعلى فمنه يكون الوصول إلى المولى، وحقًا يكون مستقلاً من حيث أخذه وهو تابع من حيث عمله وموافقته.

٣٠- من رقد فقد.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من رقد**) ونام عن الطاعة (**فقد**) وعَدِم نعيم الجنة، ويُحرم منها إن كان مُنكرًا للطاعة، ومن رقد عن الكمال ولم يحصله فَقَدَ الوصال، ومن رقد عن الصفات ولم يتخلق بها فَقَدَ الذات، ومن رقد في الطريق فقد الرفيق، فالراقد فاقد، والمستيقظ واجد والناس كلهم رقود إلا أهل الحق فإنهم يقظان؛ إذ ليس لهم نوم الغفلة فالكل:

«**نيام فإذا ماتوا انتبهوا** [١]» كما ورد في الحديث، فالكل فاقد للحق إلا أهل الحق فإنهم واجدون له، فهم واجدون لكلّ شيءٍ وما سواهم فاقدون لكلّ شيءٍ، فماذا وجد من فقده؟ وماذا فقدمن وجده؟ وقال الله: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦]، فما يبعده من يفقده ولا يفقده من يبعده، فمنهم من فقده في الابتداء ووجده في الانتهاء، ومنهم من وجده في الابتداء والانتهاء وهو المعتبر صاحب الدائرة ونسبة حركاتها إليه قربًا وبُعدًا سواء.

٣١- مَن أخلص تخلص.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من أخلص**) أعماله وأصفاها من شائبة الرياء (**تخلص**) من الأهواء والبلاء، ويفوز في الآخرة بالنعماء، ومن أخلص معاملاته مع الحق من الخلق حتى من نفسه تخلص من ظلمة الأغيار، ويدخل في ضياء نوره، ومن أخلص قلبه عن السوى بدوام النظر إلى المولى تخلص عن الشرك الخفي والأخفى، فالأول للعوام، والثاني للخواص، والثالث لأخص الخوص، والكل ممدوح ومطلوب قال النبي ﷺ: «**الإخلاص إيمان كله** [٢]»

قال المؤلف قُدِّس سرّه:

مَن عَامَلَ الحقَّ بِالإخلاصِ قَد رَبَحَا وإن يَكُــون فيه شرك فهو قد سَمَحَا

٣٢- مَن خرس حرس.

(**مَن خرس**) لسانه و لم يتكلم إلا بقدر أداء الفرض مع مخلوق (**حرس**) وحُفظ من كل آفة وبلية؛ لأن آفة الإنسان من اللسان فإذا سلم اللسان سلم الإنسان، واللسان سلطان الجوارح وهي رَعيته، والرعايا على دين ملوكهم، ومَن خرس لسانه عن الكذب والبهتان يكون من الله هو في الأمان، ويُنقذ من عذاب النيران ويدخل في الجنان بأمر الرحمن، ومن خرس قلبه بأن لم يُحدث نفسه في شيءٍ مما يرجو تحصيله من الله أو من غيره تم عمله، وتتجلى مرآة قلبه فيرجى له تجلي ربه.

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/٥٦) بنحوه.

(٢) روي بلفظ (اليقين) عند الحاكم (٢/٤٨٤).

٣٣- مَن تجوَّع تنوّع.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من تجوّع**) وطلب الجوع الممدوح لا المذموم الوارد في حديث« **بئس الضجيع الجوع**» (تنوّع) في العلوم اللدنية والمعارف الإلهية، وقد مرَّ من كلام الشيخ أن الخير كله مجموع في خزائن الجوع، وأن حلية الأبدال الصمت والسهر والجوع والاعتزال، وقد بسطنا الكلام هناك فلا حاجة إلى الإعادة هنا، وإن أردت التحقيق ومعرفة الجوع الممدوح والمذموم فارجع إلى هناك، وكما أن التجوع مستلزم لتنوع الباطن بأنواع الخير، كذلك مستلزم لتنوع الظاهر بأنواع الألوان فتارة أسود، وتارة أبيض، وتارة أحمر، وتارة أصفر، وبعضهم جعلوا تلون الظاهر أمارة على تلون الباطن وهو كذلك، ويندر خلاف ذلك والله أعلم بالصواب.

٣٤- مَن وافق رافق.

ثم قال قُدِّس سره: (**مَن وافق**) مع الخلق أو الحق (**رافق**) من وافقه من الحق والخلق؛ لأن المرافقة من الموافقة، فمن وافق الشيطان فهو رفيقه، ومن وافق الرحمن فهو رفيق الرحمن، وبالجملة موافق السعيد سعيد، وموافق الشقي شقي، وفي الحقيقة الموافق مع الله رفيق لله، ورفيق الله الأحدية الجامعة لجميع الأسماء الإلهية رفيق لكلِّ شيء، ولا يهرب عن شيءٍ، وموافق الذات البحت من حيث هو ليس رفيقًا لشيءٍ إذا ليس عنده شيء فهو هاربٌ عن كلِّ شيءٍ.

٣٥- من طمع منع.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من طمع**) في شيءٍ أيًا كان (**مُنع**) الطامع من ذلك الشيء، ومن الذي يطمع منه، فالطمع هو المانع المذموم في الدنيا والآخرة، وبه يقع الرجل فيما يقع من المهالك والمفاسد وعدم الوصول إلى المقاصد، فمن طمع الدنيا مُنع من الآخرة، ومن طمع الآخرة مُنع من الدخول في الحضرة، ومن طمع الوصول مُنع من القبول فعليك بقطع رأس الطمع حتى لا يتوجه إليك عتب ولا منع، وحقيقة الطمع الحرص وجمع المال، وفي الحديث: «**لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال**[1]» والعبد الصالح الصادق الكامل أن يؤثر الحق على الخلق.

---

(١) رواه الترمذي (٥٦٩/٤)، وأحمد في المسند (١٦٠/٤)، وابن حبان في الصحيح (١٧/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٨٠/٨).

قال المؤلف قُدِّس سرّه في (الفتوحات المكية):

نُــــرقع دُنــــيَانَا بِـــتَمزِيقِ دِينَـــنَا فَــلا دِينَــنَا يــبقى ولا مَــا نُــرقعُ
نَطــــوي لِعــــبدٍ آثـــر الله ربَّـــه وجَـــادَ بِدنـــياه لمـــا يَـــتوقعُ

وقال فيها: من لزم الطمع عدم الورع، والحسد شر عرض والطمع أضر غرض.

٣٦- مَن ساح ارتاح.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من ساح)** في أرض الله **(ارتاح)** من خلق الله؛ لأن في السياحة الراحة، وقالوا: إن الماء إذا طال مكثه ينتن، وحقًا يفسد ويزول نفعه وخيره ولا يرتاح بها إلا لصائد، أمَّا المقصود فالنفع له مفقود، وأصل السياحة والمعتبر فيها السياحة في الأنفس، والسياحة في الآفاق وسيلة لها فلا تعتبر إلا لها فكم من مقيم في العمارات والبيوت وهو سائح في عالم الملك والملكوت، وكم من سائح في السواحل والجبال والأودية وهو قاعد في البيت والزاوية ومن افترش الأسماء والصفات فهو سائح في العوالم السفليات والعلويات.

٣٧ – من شرب طرب.

ثم قال قُدِّس سره: **(من شرب)** ماء الحياة الأبدية وتعلم العلوم اللدنية **(طرب)** وفرح بما لديه، وحزن على ما فات عليه؛ لأن الطرب من باب الأضداد، والتخصيص بالفرح وهم كذا في القاموس، والمراد هنا الحركة والشوق فإن الولي بمشاهدة الكأس يَسْكر وبالشراب يطرب، والحاصل أن من شرب بقلبه وعروقه الشراب الحقيقي يصير به طرب وشوق.

مطلب في الشراب و الكأس

والشراب على ما قاله الكامل المكمل الشيخ حسن الشاذلي: مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت، والأفعال بالأفعال، وقال قدس سره أيضًا: الكأس مغرفة الحق تعالى التي يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافي لما شاء من عباده المخصوصين، فالشارب تارة يرى الكأس صورة، وتارة يشهدها معنوية، وتارة يشهدها علمية، فالأول حظ الأبدان والأنفس، والثاني حظ القلوب والعقول الأكيس، والثالث حظ الأرواح والأسرار الأملس انتهى كلامه.

٣٨- مَن افتقر افتخر.

ثم قال قُدِّس سره: (**من افتقر**) وطلب الفقر والاحتياج من نفسه فلا يطلب المعدوم حتى يفقد الموجود عنده أو لا يطلب أصلاً (**افتخر**) وتمدح بالخصال الحميدة قال النبي ﷺ: «**الفقر فخري وأنا افتخر به**[١]»، وقال ﷺ: « **الفقر راحة الفقراء**[٢] ».

* * *

مطلب في المراد بالفقر

وحقيقة الفقر أن لا يرى العبد في الدارين سوى الله، وهو المراد بقولهم: الفقر سواد الوجه في الدارين.

وقال المؤلف قُدِّس سره في «الفتوحات المكية»: العارف المسود الوجه في الدارين، لكن اسوداد السيادة لما كان عليه من العبادة، فإن وجه الشيء كونه وذاته وعينه فافهم ما قاله الشيخ قُدس سره.

فالعارف حصل له بالفقر الوصول؛ لأنه وارث الرسول ولا ينكر الفقر إلا الفضول فهو دائمًا مغموم وملول فالمطلوب من العبد دوام الافتقار في الليل والنهار، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٨،٩]

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٨٢٨).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/٣٨٨)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٨٢٦).

٣٩- مَن تعفف تخفّف.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من تعفف**) أي: تكلف العفافة وهو الكف عما لا يحل ولا يجمل كذا في القاموس (**تخفّف**)، وقبل الخفة؛ لأن الوزر ثقيل كما هو مشاهدة لأكثر المؤمنين ودفع الثقل مطلوب وجميل، وفي الحديث: «**فاز المخفون**»، والمسافر إذا ثقل حمله بعدت مسافته وإن قربت وإذا خفف الحمل تقرب المسافة، وإن بعدت بل ربما صاحب الحمل الثقيل لا يصل إلى المنـــزل فيبقى في المفازة فريدًا وحيدًا فيقرب نفسه وماله من الهلاك، بل لا يبقى هو وماله، ولو بقي هو لا يبقى ما له، والمراد هنا التعفف عما لا يليق بالسفر المعنوي وهو الورع الذي به يستقيم الدين فيمتنع من التلذذ النفساني بالمشمومات ويمسك نفسه من الحظوظات، وقلبه عن الغفلات وروحه الفترات وسره عن الالتفات.

٤٠- مَن تصرف تخوف.

ثم قال قُدِّس سره: (**من تصرف**) بنفسه في أموره أو أمور غيره (**تخوف**) من عدم وقوعه والخوف يوجب نيل المخوف منه؛ لأن من خاف على شيء فقد ناله، وأما إذا كان التصرف بالله فهو شيء آخر مع أن الكامل لا يقصده ويتركه أيضًا؛ لأن في التصرف دعوى الاستقلال وهو مناف للاضمحلال فالكمال ترك التصرف، وتفويض الأمور إليه؛ لأن الأمور كلها لديه ومن التصرف الكامل ترك التصرف.

٤١- من سمح ربح.

ثم قال قُدِّس سره: (**من سمح**) وجاد وكرم بما له في الأولى (**ربح**) بآخرته في العقبى، ومن سمح لآخرته ربح بربه، ومن السماح الرواح فمن سمح بالأغيار وتركها ربح بالأنوار، ومن سمح بالأنوار ربح بالكمال، ومن سمح بالكمال ربح بالوصال، ومن لم يسمح بدنياه وعقباه لمولاه حتى بنفسه وروحه لا يبلغ ما يتمناه، فعليك بالمسامحة في كل باب إن أردت المرابحة ونيل الصواب.

٤٢- من صلى تملّى.

ثم قال قُدِّس سره: (**من صلى**) فرضه من الخمس (**تملّى**) عمره، واستمتع منه ويزيد عيشه، أو من صلى أي صلاة كانت من الفروض والنوافل تملّى بحبيبه وتمتع به؛ لأن في

الصلاة ما يسره من الحضور والمناجاة وأنواع العبادات، ومن صلى للمولى فكأنه عبده بجميع ما يعبده به الخلق من الأدنى والأعلى، فالذي ما صلى ما تملى عمره وما تمتع بحبيبه أصلاً.

٤٣- من رضي حظي.

ثم قال قُدِّس سره: (**من رضي**) بما يجرى عليه من الأقدار (**حظي**) بالمكانة عند الملك الغفار وفي الرضا زيادة النعماء وتخفيف البلاء وحقيقة الرضا سرور القلب عن القضاء، ولذا اعتبر أن يكون بعد القضاء؛ إذ قبله عزم على الرضا لا فعله.

وقال الولي الكامل الشيخ رسلان الدمشقي رضي الله عنه: أن مقام الرضا أوسط المقامات، وأولها الصبر وآخرها أن يكون العبد بمراد المولى، وقد أشبعنا الكلام عليها في كتاب (هداية المنان) شرح رسالة الشيخ المذكور وشرحها للقاضي زكريا رحمه الله فتح الرحمن فإن أردت التوضيح فارجع إليه.

٤٤- من قرأ دري.

ثم قال قُدِّس سره: (**من قرأ**) وتلا (**دري**) وعلم ما قرأ، فمن القراءة تحصل المعرفة، والقراءة مختصة بالألفاظ والصور والمراد هنا العموم، فمن قراءة الألفاظ تكون دراية الألفاظ، ومن المعاني المعاني، واعلم أن الموجودات كلها كلمات الله، وهي راجعة إلى الحروف الراجعة إلى النفس الرحماني الساذج كالكلمات الإنسانية الراجعة إلى الحروف الراجعة إلى نفس الإنسان الذي هو الهواء الساذج، والقراءة لا تكون إلا بعد معرفة الحروف ومخارجها، والمركب من تلك الحروف.

فمن قرأ الصور التي هي كالكلمات وعرف الحروف الحقيقية وهي الأسماء والصفات، والعاليات التي هي ذوات المعلومات والكلمات التي هي صور الممكنات دري بحقائقها ومعانيها، والمراد منها أو دري بما أودع في الأسماء والصفات من المعاني الكمالية الذاتية، والحروف كلها تُقرأ بواسطة الكلمات المركبة منها بخلاف حرف الذات فإنها لا تقرأ فلا تدرى أصلاً ومسلوب عنها تركب الكلمات منها رأسًا، فافهم المراد واترك العناد حتى لا تقع في الفساد.

٤٥- من التجأ نجا.

ثم قال قُدِّس سره: **(من التجأ)** في جميع أموره ظاهرًا وباطنًا إلى الله تعالى ولم يدع غيره ويترك ما سواه **(نجا)** مما يخافه ويكرهه، ونال ما رجا ولا يصح الالتجاء إلا إليه؛ لأن الخير والشر لديه، ومَن التجأ إلى غير فأمره موكول إلى ذلك الغير، ومن التجأ إلى مولاه فكيف عنه شر ما سواه؟!.

٤٦- مَن عقل وجل.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من عقل)** الأمور بنفسه ويتصرف في الأشياء بعقله **(وجل)** وخاف من وجوده أو عدمه، ومن عقل بربِّه فلا يخاف فوات مقصده، فلينـــزل الطالب السالك من سماء عقله إلى أرض شهوته حتى يتحقق بحيوانيته، ثم ينتقل إلى عقله النوراني المجرد عن مادة طبيعته فيعرف أصل كل شيءٍ وأصل نفسه، ثم ينتقل من الأصول إلى أصل الأصول فيخرج حقًا عن الفضول، ويدخل في حيز القبول فيرجى له الوصول.

٤٧- من ذكر حضر.

ثم قال قدس سره: **(من ذكر)** الله بلسانه **(حضره)** بلسانه، ويكون لسانه جليسًا له؛ لأن الذاكر جليس الله، ولذا قال المؤلف قدس سره في (الفتوحات المكية): (عدد جلسات كل عبدٍ مع ربه على قدر ذكره له)، وقال فيها أيضا: (عدد زيارة العبد لربه في الجنة على عدد صلواته في دار الدنيا، ورؤيته له فيها على قدر حضوره فيها مع ربه)، وقال فيها أيضًا: (للذاكر باللسان أجر ذكر اللسان وهو أفضل من ترك الذكر جملة، ومن ذكر الحق بقلبه حضر الحق في قلبه؛ لأنه بيت ربه أو حضر القلب مع ربِّه على قدر ذكره له بقلبه)، وعلى قدر حضور القلب مع الرب تكون الرؤية في آخرته، كما مرَّ من كلام الشيخ قدس سره، ومن ذكره بسره يخرج عن جميع أمره، ومن ذكره بالخفاء ينقاد له الأدنى والأعلى، ومن ذكره بالإخفاء يكون صاحب أسرار المولى ويُزال عنه الخوف والحزن في الدنيا وفي العقبى، وأفضل الذكر ولبّه أن يذكر الله بالحضور معه، وأعلى من هذا أن يذكر بالله لا بالحضور مع الله.

قال المؤلف قدس سره في (الفتوحات المكية): علامته أن يجد أي الذاكر بالله الاحتراق في لسانه حسًا حتى يحترق لسانه ولا له أثر قط في النطق، وقال: قد ذقت هذا المقام إلى

ثلاثة أيام، ثم رجعت إلى الذكر بالحضور مع الله لا بالله، فمن يدَّعي أنه يذكر بالله فليعرف حاله من هذا.

٤٨- مَن اسغاب استعاب.

ثم قال قُدِّس سرّه: **(من استغاب)** الناس ويذكرهم في غيبتهم **(استعاب)** ويطلب العيب لنفسه ويظهره؛ لأن الغيبة عيب وحرام، ولا يظهر عيب الإنسان إلا بالكلام، فما دام ساكتًا يكون فضله، وعدم فضله غير معلوم لأحد، فعلى هذا يكون استغاب من غابه عابه، وذكره بما فيه من السوء أو من الغيبة، وهي فعلة منه تكون حسنة أو قبيحة ويجوز أن يكون المعنى من طلب الغيبة، وذكر المناقب للغير، وإن كانت حسنة طلب عيبه ووصمته، أومن الغيب بمعنى الشك أو كل ما غاب عنك أي: مَن طلب الغيب المطلق يظهر عيبه، وكذلك طلب الشك؛ لأن الغيب لا يُطلب والشك لا يجوز لوجوب الإيمان واليقين.

٤٩- مَن فني بقي.

ثم قال قُدس سرّه: **(من فني)** عن وجوده وإرادته بإفناء الله تعالى إياه **(بقي)** بربه، ومن بقي بربه يفوز بجميع مطالبه دنيا وآخرة، فلا يكون مقام البقاء إلا بعد حصول مقام الفناء وهو اضمحلال الصفات في الصفات، والبقاء هو الوجود الحق فافهم.

٥٠- مَن تدقق تحقق .

ثم قال قدس سره: **(من تدقق)** النظر في الآفاق، وفي الأنفس كما قال الله تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾** [فصلت:٥٣] **﴿أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾** [السجدة: ٢٧] بأن لا ينظر إلى صورها فقط، بل يتأمل معناها وما هو المراد منها **(تحقق)** بما في نفس الأمر، ويعرف الأشياء على ما هي عليه من كونها قائمة بالوجود الحق ما لها وجود زائد عن الوجود الحق لا أنها قائمة بذواتها، وعرض عليها وجود زائد عن الوجود الحق، فمن يتأمل عن ظهر القلب لا يدخل في الحقيقة، ومعرفة نفس الأمر، وإنما يدخل فيها من يتأمل عن باطن القلب، والكمال هو التأمل ظاهرًا أو باطنًا، وعلى هذا لا يكون التحيقق إلا بعد التدقيق، وفي العلم الرسمي الأمر بعكس هذا، يعني إنما يكون التحقق إلا قبل التدقق بأن يحقق الشيء أولاً ثم يدققه، فيكون التحقق أولاً والتدقق ثانيًا.

٥١- من تمكن تركن.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**مَن تمكن**) وثبت في أمره عند عروض عارض يصده عن الله (**تركن**) وتقوّى، ويصير إلى الجانب الأقوى أو سكن وهوَّن عليه الأمر والثبات قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[الأنفال:٤٥]، أو من تمكن في التصرف بتمكين الله إياه بأن ظهر في تنوعات الأسماء والصفات بقريب من ظهور الحق فيها بحيث لا يستقصي عليه شيء مما يطلبه، فيعلم ما يريد علمه، ويحدث ما أراد حدوثه من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك تركّن وسكن وقوى وثبت، فلا يبقى له خاطر يخطره، ولا حركه تحركه، ولا إرادة تزعزعه، فأعماله بالله وأقواله بالله وجهاته كلها بالله، ويكون هو في جوار الله، فتنفعل الأشياء له بلفظ كن ويبرأ العلل والأمراض، وتظهر على يديه المخترعات، ويمشي برجله في الهواء، ويقدر على التصور بكل صورة يريدها فهذا هو معنى جوار ربّ العالمين.

٥٢- من كذب كرب.

ثم قال قُدس سرّه: (**من كذب**) في الأقوال وكذا الأحوال إلا لغرضٍ (**كَرَبَ**)، ويصير به حزن يأخذ بالنفس دنيا وآخرة، في الحديث: « **وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم.** [1] »، ومن الكذب الزيادات في الحديث، والرياء والمراء والجدال في نصرة الباطل؛ لأن الحديث يشملها؛ لأنها من الحصائد، والكل يصعد به الملك صباحًا ومساءًا كالكلمة الصالحة إلا أن الصالحة في عليين والطالحة ﴿**لَفِي سِجِّينٍ**﴾ [المطففين:٧]، قال تعالى: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق:١٨]، وفي الحقيقة ليس في الوجود باطل قطعًا؛ لأنه حق كله، وإنما الباطل هو العدم، فالعارف لـمَّا سمع الكذب يأخذ منه حكمته ويقول: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً**﴾ [آل عمران: ١٩٢]، ويكون على الكاذب كذبه فاعلم أيها السالك إن اللسان أملك شيء لك سريع الحركة كثير العثرات، حركته أقرب إلى الهلاك منها إلى النجاة، فعليك بصونه في جميع الأوقات عن نطق ما يُذم في الشرع حتى تصير مالكًا له، وشهابًا ثاقبًا لشيطانه.

---

(١) رواه الترمذي في السنن (١١/٥)، وابن ماجة في السنن (١٣١٤/٢) بنحوه، والنسائي في السنن الكبرى (٤٢٨/٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٧/٤).

٥٣- من سجد عبد.

ثم قال المؤلف قُدس سرّه: **(من سجد)** وخضع لله تعالى **(عبده)** تعالى، فالعبادة بالخضوع والانقياد لا بالتكبر والعناد؛ لأن ذلك منتج للفساد، وفي الحقيقة وإن كان عين مسمًّى العبد مجردًا عن نسبة العبودية عين الحق المطلق إلا أنه باعتبار أنه متقيد بالعبودية ليس عين الحق المأخوذ معه نسبة السيادية، فإن النِّسب متمايزة تقتضي التَّميز لذاتها، فليس بعضها كالعبودية نفس البعض الآخر كالسيادة، وأمَّا المنسوب إليه فلا تمايز فيه؛ لأنه ما ثمَّة غير عينه في جميع النِّسب فهو عين واحدة ذات نِسب وإضافات وصفات قاله المؤلف قدس سره: في (فصوصه)، فمن تكبر تجبر وخرج عن العبودية التي هي أصله ونسبته فاستحق اللعنة الأبدية والنقمة السرمدية كالشيطان وسائر مظاهر الاسم المضل، ومن سجد وخضع وتواضع كآدم عليه السلام نال الرحمة الإلهية والمواهب الربانية.

٥٤- من خاف شاف.

ثم قال قُدس سرّه: **(من يخاف)** على شيءٍ من أمور الدنيا أو الآخرة بسبب غلبة الظن **(شاف)** ذلك الشيء، فإن من خاف على شيءٍ فقد ناله، وفي الحديث القدس« **أنا عند ظن العبد بي**[(١)]»، فترد الأمور غالبًا على حسب الظن، وهنا بيان لا يسعه المقام، فالأولى إرخاء العنان إلى صوب آخر.

٥٥- من حصر تحسر.

فقال قُدس سرّه: **(من حصر)** أمر الوجود في وجهه في هذه الدار **(تحسر)** في تلك الدار وفي هذه الدار، فتكون له حسرة في الدارين لفقدان ما طلبه، وانكشاف خلاف ما اعتقده، فلا تقل: بالتتريه الصرف فإنه عين التشبيه، ولا بالتشبيه من غير تتريه فإنه تمويه، والخالص الجمع بين المقامين وإخراج العقل من هذا اللين، أو مَن حصر الأمر في الدنيا تحسر وانكشف له خلاف الحصر في الأخرة، أو من حصر وضيق أمره بحيث يقرب إلى اليأس أو ييأس من غاية حصره وعدم الإيمان واليقين وحسن الظن بالله تعالى تحسر، وتقع به الحسرة لعدم حصول مقاصده.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٦/٢٦٩٤)، ومسلم (٤/٢٠٦١)، والترمذي (٤/٥٦٩).

٥٦- من استلف انكشف.

ثم قال قُدِّس سره: (**من استلف**) وطلب أن يكون سلفًا بأن يمشي على أثر السلف المتقدمين (**انكشف**) بأمر الله تعالى وإرادته له الأمر على ما هي عليه، ولا يكون الاستلاف إلا بكمال المتابعة للسلف، فيمشي في طريقهم قدمًا بقدم، ويلاحظ آدابهم وأفعالهم وأقوالهم، فيحصل له ما حصل لهم من المعرفة بالله، والاتِّكال على الله، وحسن الظن بالله، ونفي الوجود لغير الله، والأعمال من الله بالله لله في الله، فما ثَمَّة غير الله، فاعلم أنه لا إله إلا الله.

٥٧- مَن افتكر اعتبر.

ثم قال قُدِّس سره: (**من افتكر**) فيما يجوز فيه التفكر من آلاء الله تعالى وصفاته تفكر أهل الفكر لا تفكر أهل الذكر (**اعتبر**) وأخذ العبرة من كلّ شيء، فيكون على بصيرة ويدخل في زمرة المفلحين قال الله تعالى: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [الحشر:٢] ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [البقرة:١٨٩] فأمر الحق بالاعتبار إلى أولى الأبصار الذين خرجوا عن الأغيار وفنوا في الله الستار وبقوا بالله العزيز الغفار، وفي الحديث« **تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة**[1] » أي: بلا تفكر، وقال عيسى عليه السلام: طوبى لمن كان قلبه ذكرًا، وصمته فكرًا، ونظره عبرة، إن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، وقال كعب رضي الله عنه: (من أراد شرف الآخرة فليكثر التفكر)، وقال الحسن رضي الله عنه: (الفكرة مرآة تريك الحسن من السيئ، وتطَّلع بها على عظمة الله، وآلائه ونعمائه) ومقدمة الفكرة العزلة، فإنها مُعينة عليها لكن بعد تقديم ما يحتاج إليه من علوم الشرع الظاهر مع مراعاة آداب باطنه.

٥٨- من توقّى تنقى.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من توقى**) من الشرك الجلي (**تنقى**) وتطهر من الكفر الرديء، ومن توقى من الشرك الخفي أيضًا تنقى من كلّ دني، ومن توقى وجعل نفسه آله ووقاية لربه وجعل ربه آله ووقاية لنفسه في الأمور المنسوبة إلى العبد بوجه، وإلى الرب بوجه بأن

---

(١) تقدم تخريجه.

ينسب المحامد إلى الربِّ والمذام إلى نفسه لا إليه، وإن كان كل واحد منهما كما هو مقتضى توحيد الصفات والأفعال مسند إلى الله تعالى تنقى وتطهر من الشركين جليه وخفيه، فيكون من الأدباء العالمين بحقائق الأمور على ما هي عليه، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم﴾[النساء:١] أي: أوجدكم باختفائه بصوركم، فعلى هذا الوجه الخلق ظاهر الحق وهو باطن الخلق، وهناك وجه به الأمر ينعكس وعليه نفس الأمر.

٥٩- من تكاسل تسافل.

ثم قال قُدس سره: (**من تكاسل**) في العمل والسلوك والعروج إلى المقامات (**تسافل**) وتنـــزل إلى أسفل الدركات، فالواجب على العبد أن يبادر إلى الأعمال في جميع الأحوال وإحالة الأعمال على الفراغ من الاشغال من حماقة النفس يا أبطال، كما قال سيدي ابن عطاء الإسكندري ﷺ: أحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفوس انتهى، وفي هذا المعنى قال عمر بن الفارض ﷺ[1]:

وعد مِن قَرِيب واستجب واجتنب غدًا وشمــرْ عـــن ســـاقِ اجتهادِ بنهضة

وكـــن صارمًا كالوقتِ فالمقت فِي عسى وإيـــاك عـــلاّ فهـــي أخطـــر علـــة

٦٠- من سهى لهى.

ثم قال قدس سره: (**من سهى**) في أمر الله ونسيه وغفل عنه وذهب قلبه إلى غيره مما

يذكر باسم السوى (**لهى**) ولعب في خوضه فيما ذهب إليه، فالموجودات كلها لهو ولعب وإنما هي مظاهر يظهر بها الحق تعالى لا ظهور لها في ذاتها أبدًا، وإنما ظهورها بظهور الحق، فالناس كلهم في لهو ولعب باشتغالهم بغير الحق تعالى قال الله تعالى في كلامه العظيم أمرًا إلى رسوله العربي النبي الكريم: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١] فاترك الناس في لعبهم وحقق بأن ما يعملونه من المعاملات مع الحق أوالخلق بمنزلة لعب الصبيان ما لم يحصر نظره في الله، فالمطالب كلها معيبة خصوصًا من العبادة الضعيفة، فالكامل عنده الأشياء كلها كالجيفة ولا يطلبها إلا المضطر، فإن الضرورات تبيح المحظورات.

---

(١) البيت في ديوانه (ص٤٥).

٦١- من تأدب هذب.

ثم قال قُدِّس سره: (**من تأدب**) ظاهرًا وباطنًا مع الحق والخلق (**هذب**) ظاهرًا وباطنًا، فإن أساء الأدب في الظاهر عوقب ظاهرًا، وإن أساء الأدب باطنًا عوقب في الباطن، فكل من الأوقات والأحوال والمقامات لها آداب، فمن ضيعها فهو بعيد ومردود، ومن لازمها بلغ غاية المقصود قال الرسول ﷺ: «**إن الله أدبني، وأحسن أدبي**[1]».

فهو ﷺ مؤدب ظاهرًا وباطنًا أصالة؛ لأن أدبه بتأديب الحق وغيره، وإن تأدب بتأديب الله تعالى فلا يكون أدبه إلا تبعًا، والأدب الظاهري إن لا يرى ميزان الشريعة عن يده والباطني التجلي بمحاسن الأخلاق، بل هو عدم الغفلة طرفة عين من الملك الخلاق، وقال أبو العباس: (كل سوء أدب يثمر لك الأدب فهو أدب)، فالنفس مجبول على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب فلا يخرج عن عهدة الأمر إلا بمخالفة النفس، ولا يمكن مخالفتها إلا بعد معرفتها بأنها مجبولة على الإساءة هذا لمن سلك الطريق البعيد المسلسل المعوج الذي يوجد الحق في نهايته، وأما صاحب الدائرة فليس له نفس حتى يخالفها فلا كلام معه في كل ما يفعل إلا من أهل الإنكار والعناد والجدال.

٦٢- من تأبى هنّى.

ثم قال قدس سره: (**من تأبى**) على وزن تفعَّل مثل تكسر أي: امتنع من السيئات (**هنى**) وتبشر وتفرح بالطاعات، ومن تأبى عن حظوظه هنى بفتوحه، ومن تأبى عن الوجود هنى بالشهود، ومن تأبى عن السوى هنى بالمولى في الأولى وفي العقبى.

٦٣- من أنف تلف.

ثم قال قدس سره: (**من أنف**) وشم الرائحة وتبعها (**تلف**) أو من سدَّ باب الطاعات على نفسه تلف أو من مال إلى الانتقاص تلف؛ لأنه من تبع الروائح يحرم من اللوائح، ومن سد باب الطاعات تتراكم عليه الآفات، ومن انتقص ورضا بالنقص لا يستعد للرمص فلا ينبغي للعبد أن يقعد على كلِّ سفرة ويتناول من كل صحن، وليعتبر هذا من

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (١/٢٢٤) والعجلوني (١/٦٧).

الذبابة فإن أكثر هلاكها من ذاك، فإن كان ما في الصحن مائعًا تقع فيه فتهلك، وإن كان حلوًا فيمسكها وربما يكون فيه هلاكها.

٦٤- من تعمق تعلق.

ثم قال قدس سره: **(من تعمق)** نظره وفكره في الدنيا **(تعلق)** بها وفاتته الآخرة، ومن تعمق في الآخرة تعلق بها ونالها وفاتته الأولى، ومن تعمق في الآلاء والصفات تعلق بالذات، والمراد بتعميق النظر تدبر المعاني، وما هو المراد من الصور من غير إكتفاء بنظر الصور قال الله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ**﴾ [فصلت:٥٣].

وقوله: ﴿ **أَفَلاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [السجدة:٢٧].

٦٥- من تكثر تكسر.

ثم قال قدس سره: **(من تكثر)** في شيء **(تكسر)** فيما يضاده، فإن تكثر في الدنيا بأن جمعها كثيرا تكسر في آخرته ومن عكس تكسر في دنياه، ومن تكثر في السيئات تكسر في الحسنات وبالعكس كذلك، ومن تكثر في الطعام والمنام والكلام تكسر في جميع المرام، ومن تكثير في العلوم الظاهرة تكسر في العلوم الباطنة وبالعكس، ومن تكثر في المطالب والمآرب تكسر في المراتب.

٦٦- من تدَّبر تحير.

ثم قال قدس سره: **(من تدبر)** في مصنوعات الحق تعالى **(تحير)** الحيرة المطلوبة المحمودة، وهي حيرة أولي الأبصار من توالى التجليات والأنوار، وهي المشار إليها في هذا البيت:

قد تحيرت فيكَ خذْ بيدِي ... يا دليلاً لِمَن تحير فيكَا

والتي طلبها الرسول ﷺ زيادتها بقوله: «**رب زدني**» تحيرًا لا الحيرة المذمومة، وهي حيرة أهل الأنظار، وهي التي أشار إليها الحسين بن منصور الحلاج قدس سره: شعر

مَن رَامَهُ بِالعقلِ مُسْترشِدًا ... أسرحه في حيرة يلهو

وشَابَ بِالتَّلبِيسِ أسرَارَه ... يَقولُ في حيرتِهِ بل هو هو

فالتدبر المستلزم المحمود هو التدبر في الصفات والتجليات والتدبر في وجه المعاش وفي غيره من المصنوعات، لكن بالنظر العقلي والطور العادي مستلزم للحيرة المذمومة.

فعلم أن التدبر الأول غير ما هو بالنظر والفكر، بل إنما يكون هو بالإيمان من غير النظر إلى الدليل والبرهان.

٦٧- من سار استنار.

ثم قال قدس سره: **(من سار)** في وجه أرض الله وعمل السياحة **(استنار)** قلبه بتحصيل الرباحة، ومن سار بقلبه في أسمائه وصفاته استنار روحه بتجلياته، ومن سار بروحه في عالم الملكوت استنار سره بدقائق اللاهوت، ومن سار إلى الله بالله في الله استنار له جميع ما سواه أي: كوشف له الأمر على ما هو عليه في نفسه.

٦٨- من تخشع تدمع.

ثم قال قدس سره: **(من تخشع)** وطلب الخشوع أي: التواضع أو السكون أو التذلل وهذا أنسب والأول أنسب من الثاني **(تدمع)** وتجري الدموع من عينيه، ومن تدمع ترفع وذلك؛ لأن الخشوع هو الخضوع أو قريب من الخضوع أو هو في البدن وللخشوع في الصوت والبصر والسكون والتذلل على ما في القاموس، فهذه المعاني كلها ممدوحة مطلوبة ذاتية للعبد، ومقابلها كالتكبر والترفع والقلق مذمومة لا يكون منها التدمع أصلاً، ومن لا يتدمع لا يتخلع فيهلك والعاقل من الهلاك يهرب.

٦٩- مَن تفندل تجندل.

ثم قال قدس سره: **(من تفندل)** أي: طلب أن يكون كبيرًا أو صاحب جاه **(تجندل)** وتتوارد عليه البليات الكثيرة والآفات والمشقّات، والأصل إن كان جندل بسكون النون ما يعلمه الرجل من الحجارة، وإن كان بالنفحات الأربع فمكان يجتمع فيه الحجارة والحجارة أصلب المركبات فجعل كناية عن أصعب البليات فمن تفندل وطلب الوزارة تجندل ويكون موضعًا لأصعب البلايا وهو مشاهد قليلاً ما يموت بموته بل يقتل غالبا.

٧٠- من تولع توجع.

ثم قال قدس سره: **(من تولع)** واستخف أو كذب وهو الأولى **(توجع)** أي: طلب

الوجع والمرض فالكذب داء عظيم وسقم اليم وسبب تام للوقوع في البلاء ودافع للنعماء وقاطع للسالك من السلوك، فالاجتناب عنه واجب والتوبة منه إلى الله متحتم.

٧١- من غفل أفل.

ثم قال قدس سره: (**من غفل**) عن الحق تعالى باشتغاله بالخلق مما سواه (**أفل**) وغاب كأفول الكواكب، والمراد أنه يكون قاصيًا وبعيدًا من حضرة فلا يدخل فيها كما قال الولي الكامل ابن عطا الله الإسكندري ﷺ: كيف يطمع أن يدخل الله؟! وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته وذلك؛ لأن الجمع بين الضدين مُحال والدخول في الحضرة ضد الغفلة؛ لأن مقتضى الأول طهارة الباطن ونزاهته والتقرب إلى الله تعالى، ومقتضى الثاني نجاسة الباطن وخبثه البعد عنه تعالى، فمن استيقظ طلع فإن دام اليقظان دام الطلوع ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٥٦].

٧٢- من تورع تفرع.

ثم قال قدس سره: (**من تورع**) وعمل الورع الذي في مقابلة الطمع الذي هو أصل جميع الآفات ومتولد من الشك في المقدور وحرفته اكتساب الذل وغايته الحرمان (**ترفع**) عند الحق والخلق، والمراد أن يتورع ظاهرًا بترك المشتهيات والتحرز من اقتحام المشكلات وباطنًا بصحة اليقين والتعلق التام برب العالمين، وقال بعضهم: الورع في الظاهر أن لا يتحرك إلا بالله، والورع في الباطن تفريغ القلب عما سوى الله، والمراد بالرفعة العزة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون:٨]، فالمؤمن متصف بالعزة فهي من صفات المؤمنين كما أن الذلة من أخلاق الكافرين فمن طمع وتعلق بالناس بالالتجاء إليهم والاعتماد عليهم فقد عبدهم وذلّ لهم ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه؛ لأنه من أخلاق الكافرين ومن تورع وتعلق بالله واعتمد على الله فهو مع الله ورسوله في العزة بنص الآية وبه يصلح العمل المقرب والعمل المسعد.

٧٣- من ذاق راق.

ثم قال قدس سره: (**من ذاق**) واختبر طعم المعاني الغيبية، والمراد طعم لذة وصل المحبوب (**راق**) همّه وعزم، وصفى قلبه من الكدرات أوشق فجره وهو أول الكشف

وابتدائه وقبل الذوق لا يكون به عزم جزم ولا يشق فجره ولا يصفى قلبه.

٧٤- من خاض غاض.

ثم قال قدس سره: **(من خاض)** ودخل في الباطل مع الخائضين بأن رأى ما سوى الله تعالى **(غاض)** ونقص مع الناقصين؛ لأنه قد مرَّ أن ما سوى الله وكذا ملاحظته ورؤيته خوض ولعب بالنص كما عرفت قبل هذا، أو الخوض من عمل أعمال الكافرين والمنافقين كما أخبر الحق تعالى عنهم فقال: ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر:٤٥]، وكذلك اللعب من صفاهم كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:٩]، والخوض الدخول والمراد هنا في الباطل، واللعب ضد الجد كما في القاموس، فمن طلب غير الله فهو في الباطل خائض وداخل وفي الشك لاعب وعابث.

٧٥- من تموَّل تميَّل.

ثم قال قدس سره: **(من تمول)** وجمع المال الكثير وقبله بالالتفات إليه والوقوف عنده **(تميل)** بقلبه على المال وينقطع عن الله؛ لأن المال سُمي مالاً؛ لأنه بالذات تميل القلوب إليه بالمحبَّة، ومَن أحبَّ شيئًا فهو عبد له كما دلَّ عليه حديث: « **تعس عبد الدينار**[1]» أو إله عبد الدرهم والخميص، وما قال محبهما للإشارة إلى ما مرَّ، فالمال معظم في القلوب ويجعل صاحبه عبدًا لما فيه من الافتقار إليه في الوصول إلى المقاصد وتحصيل الحوائج، وقال عيسى عليه السلام لبني إسرائيل: يا بني إسرائيل قلب كلِّ إنسان حيث ماله فاجعلوا أموالكم في السماء أي: بأن تتصدقوا بها وقدموها إلى الآخرة التي هي أبقى وأعلى تكن قلوبكم في السماء، وقال الشيخ الأكبر قدس سره ما حاصله: أن السامري صنع العجل من حُلي القوم حتى يأخذ بقلوبهم من أجل أموالهم انتهى.

٧٦- مَن كدَّ سدَّ.

ثم قال قدس سره: **(من كدَّ)** وشدَّ وألح في الطلب **(سد)** أي: صار سديدًا ومحكمًا أو أصلح ما نقص منه بحيث وثقها فلا يتطرق إليه الزوال؛ لأنه على قدر التعب تكون الراحة وهي لا تكون إلا بالوثوق إذ خوف الزوال يذهب لذة الوصال، ومن هنا قيل: البعد أولى

(١) تقدم تخريجه.

من القرب؛ لأن في البعد رجاء الوصال، وفي القرب خوف الزوال والرجاء أولى من الخوف، وقيل بالعكس: ولكل وجهه هو موليها لكن من ألح في طلبه وجدَّ جدًّا بليغًا وجد الحق بأسمائه وصفاته وجودًا لا زوال له، وطلع عليه نور التجلي وشمس الحقيقة طلوعًا لا غروب له قال الله تعالى: ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٥٦] فتأمل هذا القول الصادق فإنه لما قلناه مطابق.

٧٧- **مَن تيأس تخاسر.**

ثم قال قدس سره: (**من تيأس**) وقنط وقطع الأمل من رحمة الله (**تخاسر**) وضل وهلك قال الله تعالى: ﴿ **لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف:٨٧]، فحسن الظن بالله مما ينبغي للعبد؛ لأنه تعالى مع ظنه في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي**[١] »، فإن ظن به اللطف والمرحمة يلطف به ويرحمه، وإن ظن به العقوبة فيعاقبه، وكذلك الفقر والغنى، والصحة والعافية، والحصول وعدمه ونحو ذلك وكذلك ينبغي للعبد أن يحسن ظنه بخلق الله فلا يتهمهم بسوءٍ أصلاً قال الله: ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ [الحجرات:١٢]

٧٨- **من هوى غوى.**

ثم قال قدس سره: (**من هوى**) ومال إلى المظاهر الكونية ومجاليه تعالى الخالقية بالاتباع لهواه والانقياد لأحكامه (**غوى**) وضل قال الله تعالى : ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ** ﴾ [الجاثية:٢٣] وقال: ﴿**وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى**﴾ [ص:٢٦]، فإنه يضلك عن سبيل الله اعلم أن الهوى أعظم معبود عبد من المعبودات الباطلة فلا يعبد عابد حقًا أو باطلاً إلا به ولا يعبد الهوى إلا بذات الهوى، قال المؤلف في (فتوحاته المكية) دام الله تعالى أنفاسه الشريفة علينا وعلى البرية من الأمة المحمدية: (شاهدت الهوى في بعض المكاشفات ظاهرًا بالألوهية قاعدًا على عرشه وجميع عبدته حافين عليه واقفين عنده، وما شاهدت معبودًا في الصور الكونية أعظم منه)، وقال في الفصوص وفيه أي: في الهوى

(١) تقدم تخريجه.

أقول أي: هذا البيت وهو هذا:

وحق الهوى أن الهوى سبب الهوى ... ولـــولا الهوى في القلب ما عبد الهوى

ومعناه على ما قال الولي الرباني عبد الرحمن الجامي: بحق الحب الذاتي الأصلي المعبر عنه في الحديث القدسي بقوله: «**فأحببت أن أعرف**[1]» إن ذلك الهوى بعينه هو سبب الهوى الحبي الفرعي الذي انجذبت به القلوب إلى الجمال المطلق، وكمال الحق ولولا الهوى الحبي الفرعي في القلوب ما عبد الهوى الذي هو الميل إلى المجالي بالانقياد له فما عبد عابد إلا الهوى في الحقيقة؛ لأن العابد ينقاد له فيما يأمره به من عبادة من عبده من الحق والخلق، فالناس كلهم عبدة الهوى فلا يزال العبد تحت سلطان الهوى إلا الأكابر لسبق العناية الأزلية لهم؛ ولأن الهوى صفة ذاتية للنفس ولا نفس لهم فهم يرون الحق هو المعبود المطلق جمعًا وفرقًا، والمعبودات كلها مجالي للمعبود الحق وهو الظاهر فيها عرف العابد بهذا أم لا.

٧٩- من ضمن وزن.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من ضمن**) الأعمال وكفلها بالعمل (**وزن**) جزاء الأعمال دنيا وأخرة، أو من جعل حسناته في الوعاء وزن الأعمال أي: ثقلها من كمال العوض لها أو وزن عوضها أو عقل أي: صار عاقلاً، أو من ضمن لغيره وزن للمضمون له من ماله، فهذا كلام جمع المؤلف فيه قدس سره بين الضدين من حيث الاحتمال مما يسر الطالب أو يحزنه يعرف بالتأمل الصادق.

٨٠- من ابتلى اجتلى.

ثم قال قُدِّس سره: (**من ابتلى**) بالمحبة الإلهية التي هي سبب انجذاب القلوب إلى المحبوب (**اجتلى**) وصفي قلبه من التكدرات البشرية وينقطع بها عن البرية، فإن السفر لا بدل له من المركب والزاد سواء كان سفر الظاهر بأن ينتقل من موضع إلى موضع أو بلدة إلى بلدة، أو سفر الباطن بأن ينتقل من مقام إلى مقام فمركبه المحبَّة وزاده التقوى.

---

(١) تقدم تخريجه.

٨١- من حسد فسد.

ثم قال قُدِّس سره: (**من حسد**) حسدًا مذمومًا وهو أن يتمنى سلب نعمة الغير وفضيلته لنفسه أو مطلقًا لا حسدًا محمودًا وهو أن يتمنى تحول النعمة أو الفضيلة إليه مع بقائهما عند الغير، فإن هذا ليس بمذموم شرعًا (**فسد**) حاله؛ إذ الحسود مطرود ومبعود ودائمًا متعوب ومكدور، والله تعالى أمر إلى الرسول الأكرم ﷺ بالاستعاذة من شر الحاسد قال تعالى: ﴿ **وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾ [الفلق:٥]، فالحسد شر الداء النازل من السماء وإنما علاجه بما يفاده من الإيثار والسخاء بعد سبق العناية الأزلية من الكريم ذي النعماء.

٨٢- من زنى جنى.

ثم قال قُدِّس سره: (**من زنى**) وعمل ما هو من الفواحش المحرمة وهو المسمَّى بالزنا (**جنى**) الذنب العظيم عليه وجرة إليه وهو معلوم من الدين ضرورة قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء:٣٢] تأمل.

٨٣- من توكل تكمل.

ثم قال قُدِّس سره: (**من توكل**) في جميع أموره ظاهرًا وباطنًا على الله تعالى (**تكمل**) ويصير كاملاً ظاهرًا وباطنًا وقبله ناقص ولو حاز بالفضائل والفواضل فعباد الله تعالى الخاصة لا يَكِلُون أمرهم إلى غير الله فإنه كافيهم بتدبير أمورهم، فيشاهدون الأفعال والصفات كلها لله، بل يشاهدون الكل هو الله فلا يتكلون إلا على الله قال الله تعالى : ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾[الطلاق:٣] وقال أيضًا: ﴿**وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً**﴾[الإسراء:٦٥] وغير ذلك مما ورد في التوكل.

٨٤ - من تزيد تسيَّد.

ثم قال قدس سره: (**من تزيد**) وطلب بالله من الله لله الزيادة مطلقًا (**تسيد**) فيما يطلب الزيادة فيه على قومه وأقرانه وأمثاله؛ لأن الطلب بالله مستلزم لوجود المطلوب وحصوله بخلاف الطلب بالنفس فإنه قد يتخلف، ومع ذلك فالسيادة تقتضي الزيادة وطلبها وإن لا يقنع صاحبها بالقليل فالقاعدة على المزبلة لا يصح له طلب الإمارة، فافهم هذه العبارة ففيه الإشارة إلى الطلب للزيادة مع قولهم: بالقناعة.

٨٥- من هام قام.

ثم قال قُدِّس سره: (**من هام**) شيئًا وأحبه (**قام**) وانتصب لتحصيله ووصوله، أو من عشق شيئًا وتحير فيه قام بشأن ذلك الشيء كالملائكة المهيمنين فإنهم قاموا بشأن الله وانتصبوا لخدمة الله فقط؛ لأنهم هاموا في جلاله وجماله ليس لهم شعور بغيره تعالى، والنبي ﷺ كان منهم أخرجه الله تعالى للكمال من الهيمان قبل خلق الخلق بكثير من الأزمان.

٨٦- من صام عام.

ثم قال قُدِّس سره: (**من صام**) وأمسك جميع جوارحه وقواه عما نهيت عنه مما لم يكن خلقها له وصرفها فيما خلقت له (**عام**) وساح وسار سير الإبل والسفينة، فيكون من الساحين السائرين قال الله تعالى: «**الصوم لي وأنا أجزي به**[1] »، فالصوم هو الإمساك فمن أمسك نفسه عن الحظوظ فهو بالعناية ملحوظ ومحفوظ.

٨٧- من تنقل توصل.

ثم قال قُدِّس سرّه: (**من تنقل**) من الأحوالات التي لا ثبوت لها (**توصل**) إلى المقامات التي لها ثبوت من غير النهايات، ومن تنقل من الدُّنيا والآخرة بالانقطاع عنها والتوجه الكلية إلى الحضرة العلّية توصل إلى المرتبة الاصطفائية بحسن متابعة الشريعة النبوية، ومن تنقل من المآسي ولو كان كشفًا وشهودًا حتى شوق الوصول إلى المولى توصل إلى الغاية القصوى والفائدة العظمى هذا باعتبار الأغلب والأكثر، وإلا فقد يكون التوصل بدون التنقل كما يقع لأرباب الجذبة يكشف أولاً عن كمال ذاته، ثم يردون إلى شهود صفاته، ثم إلى النطق بأسمائه، ثم إلى شهود آثار أسمائه وصفاته فهم عكس السالكين.

ويحتمل أن يكون قول المؤلف قدس سره: تنفل بالفاء وقام بالنوافل توصل إلى مقام القرب والتمكين كما يشهد به حديث النوافل المشهور، لكن مفهومه إن من لم يتنفل لم يتوصل وليس كذلك؛ لأن التوصل يكون بالفرائض كما بالنوافل، بل قرب الفرائض أولى؛ لأنه ذاتي وقرب النوافل صفاتي، ولإخفاء في أولوية الأول من الثاني ومعنى القرب الذاتي أن يصير الحق ظاهرًا والعبد يكون باطنًا، ومعنى القرب الصفاتي صيرورة العبد ظاهرًا والحق باطنًا، وإنما يفهمه ذائقه وغيره ينكره أو يسلمه أو يعتقده.

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٧٢٣)، ومسلم (٢/٨٠٦)، والترمذي (٣/١٣٦)، والنسائي (٤/١٥٩).

٨٨- **من آثر آجر.**

ثم قال قدس سره: (**من آثر**) واختار الغير على نفسه بأن أعطى ما هو محتاج إليه (**أجر**) نفسه وإكراهًا إلى الله تعالى، فعلى المستجير أجرة الأجير لاستحقاقه لها، وأيضًا من أجر فقد ظفر أو أجر فيما يؤثر؛ لأنه صار عنه وما بقي عنده فيكون أجره ويده، وقوله تعالى: ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾ [النحل:٩٦] يشير إليه فإن ما يعطيه هو ويؤثر به هو الباقي يحفظه الله ويخزنه له إلى يوم القيامة، والذي مسكه عنده لنفسه هو الفاني لا يصل إليه يوم القيامة؛ لأنه ليس محفوظًا له في خزانة الرب أو لانتقاله إلى ملك الغير بعد موته أو المعنى من آثر وأعطى عند الاحتياج أجر وجزى نفسه جزاء أوفى؛ لأن حقيقة جزاء النفس مخالفتها ومنعها من حظوظها واعلم أن الإيثار وإن كان من أمهات العطاء الذي به تصح الخلة ويكشف الغطاء، وهي الجود والكرم والسخاء، والإيثار إلا أنه في الحقيقة لا إيثار حيث لا أثر ولا اختيار لغير الواحد القهار.

٨٩- **من خان هان.**

ثم قال قدس سره: (**من خان**) الله ورسوله بأن أئتمن منهما ولا يفصح بكلامهما أو خان عهد الله ورسوله بأن نقضه أو نظر إلى مالا يحل له النظر إليه في الحقيقة مما سوى الله من حيث ذاته (**هان**) عندهما من الهون بالضم بمعنى الذل أو الخزي.

٩٠- **من جاهد شاهد.**

ثم قال قدس سره: (**من جاهد**) في سبيل الله بمخالفة النفس وقطعها عما تشتهيه (**شاهد**) وعاين الأمر على ما هو عليه أو عاين ربه كمعاينة الرسول ﷺ بحكم كمال المتابعة.

٩١- **من دعا سعى**

ثم قال قدس سره: (**من دعا**) أحدًا إلى الله وإلى ما جابه الرسول ﷺ (**سعى**) في سبيل الله ورسوله، ومن سعى في سبيلهما فأجره عليهما، أو من دعا الله تعالى وسعى إليه والساعي إليه لا يخيب قال الله تعالى: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر:٦٠]، وقال أيضًا : ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف:٥٥] ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ**﴾ [الأعراف:٢٠٥]

٩٢- من تنبه توجه.

ثم قال قدس سره: **(من تنبه)** من نوم الغفلة ومات بالموتات الإرادية كما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «**الناس كلهم نيام**» أي: في حال يقظتهم؛ لأن عالم الحس عالم المنام «**فإذا ماتوا انتبهوا**[١]» والموت هنا أعم من الطبيعي والإرادي بحديث: «**موتوا قبل أن تموتوا**[٢]»، فالموت القبلي هو الإرادي والآخر الطبيعي أو من تنبه عن حقيقة الأمر على ما هو عليه حقًا ظاهرًا وباطنًا إلى الوجود الحق المطلق لموته وانقطاعه عن الحظوظات البشرية واللذائذ النفسانية وخروجه عن الصفات السبعية والبهيمية المانعة للعبد من التوجه بالكلية، أو لأن عدم التوجه لعدم الكشاف الحقيقة، فإذا انكشفت زالت الغفلة؛ لأنها من الصورة، وقد ذهبت بطلوع شمسها، فيكون التوجه التام من غير انصرام، بل لا يكون إلا التوجه؛ إذ لا يرى شيئًا إلا وهو عينه.

٩٣- من ضاق حاق.

ثم قال قدس سره: **(من ضاق)** على نفسه بمنعها من مأمولاتها ومرغوباتها ومراماتها **(حاق)** وأحاط بها ويسخرها ويذللها، فتكون هي حقًا داخلة تحت قهره كما كان قبل هو داخلاً تحت قهرها، أو من ضاق صدره عن صور الأكوان بتفريغه عنها وعدم الالتفات إليها والوقوف معها حاق بالصور من حيث التسخير، فتكون له الصور كلها منقادة ومطيعة، أو من ضاق صدره عنها بأن لا يسع غير صور الأكوان حاق ورسخ فيها ولا يمكن خروجها أو إخراجها عن الصدر حتى يأتي إليه الرحمن، وقد اشتهر أنه لا يجتمع الضدان، فمن ركن قلبه إلى الأكون لا يكون مشرقًا قلبه بنور الإيمان، ومن اعتقل في حبس الهوى والشهوة لا يقطع من عقبات النفس عقبة، ومن كان في حنابة الغفلة لا يدخل أبدًا في الحضرة، ومن كان في الذنوب على الإصرار من غير الاستغفار لا يفهم شيئًا من دقائق الأسرار أعاذنا الله وإياكم والمسلمين من الاغترار مما يبعدنا من المولى الكريم الغفار.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

حبس الهوى والشهوة لا يقطع من عقبات النفس عقبة، ومن كان في جنابة الغفلة لا يدخل أبدًا في الحضرة، ومن كان في الذنوب على الإصرار من غير الاستغفار لا يفهم شيئًا من دقائق الأسرار أعاذنا الله وإياكم والمسلمين من الاغترار مما يبعدنا من المولى الكريم الغفار.

٩٤—من ذاق ضاق.

ثم قال قدس سره: (**من ذاق**) طعم لذة الوصل، وقال المؤلف: الذوق أول مبادئ التجليات الإلهية أي: من حصل له مبدأ من مبادئ التجليات، وهي ما يتوقف عليه التجلّي (**ضاق**) صدره عن الأغيار فلا يسعها؛ إذ بظهور الصفات تضمحل المكنونات أو بخل بما ذاقه، فلا يظهره لأحد بكلِّ حال خوف من الزوال أو اتسع صدره للإسلام والإيمان فيكون من باب الأضداد.

٩٥—من اعترف اغترف.

ثم قال قدس سره: (**من اعترف**) وأقرَّ بالوجود مِن حيث الوحدة (**اغترف**) من بحر الحقيقة غرفة، فمن هرب من التجليات لا يلج ملكوت السماوات، وكل مَن رأى شيئًا واعترف بالحق في ذلك وما أنكره، فكأنه عطشان وصل إلى بحر الماء فما أخذ منه إلا غرفته، وتحقيق هذا يحتاج إلى مجلدات بل لا تستوفيها العبارات و لا الإشارات فأخذ العنان عنه أليق وترك البيان فيه أحق.

٩٦— من وصل حصل

ثم قال قدس سره: (**من وصل**) إلى حضرة القدس بالخروج عن الشركين (**حصل**) له مأموله في الدارين، فليس الحصول إلا بالوصول والبلوغ، ويجوز تشديد العين فيهما أي: من وصل دهره بعامه، وعامه بشهره، وشهره بأسبوعه، وأسبوعه بيومه، ويومه بساعته، وساعته بلحظته، ولحظته بنفسه حصل غاية منيته، فيكون هو صاحب وقته أو من وصل الأولى بالآخرة حصل المولى وهو صاحب خلع النعلين؛ لأنه خرج من الدارين والكل واحد والاعتبار متعدد.

٩٧— من صلح سمح.

ثم قال قدس سره: (**من صلح**) وخرج عن الفساد شرعًا (**سمح**) بماله وجاد وكرم؛ لأن البخل والإمساك ينافي الصلاح، أو من صلح لإيداع الأسرار سمح بكل الأغيار؛ ولأن العبد ما دام فيه ولو بقية لا يليق بالأسرار الإلهية، أو من صلح لخدمة ربه سمح بكله في سببه.

٩٨–من قنع ورع.

ثم قال: (**من قنع**) واكتفى بالموجود من غير طلب المزيد (**ورع**) بالمعنى المذكور في قوله: (من تورع ترفع)، فارجع إليه، وذكره هنا للإشارة إلى ما يحصل هو منه من القناعة، وهناك لبيان غاية وهو الترفع في المقدار عند الله تعالى.

٩٩– من تعجب تقرب.

ثم قال قدس سره: (**مَن تعجب**) من تجليات الحق تعالى وسرَّ بها، ولا يهرب عن واحد منها، أو تعجب من الحق بمعنى رضي منه والمال واحد (**تقرب**) إلى الله تعالى تقربًا معنويًا، وهو المسمَّى بقرب الجوار، كقولك: فلان قريب من زيد في العلم أو القوة أو الكرم وغير ذلك بمعنى علمه قريب من علمه وقوَّته قريبة من قوته، وكرمه قريب من كرمه لا أنه هو وأوصافه أوصافه.

١٠٠–من تعلم تكلم.

ثم قال قدس سره: (**من تعلم**) أي: علم كان وأي: حرفة كانت (**تكلم**) يعني يقدر أن يتكلم فيما تعلم بسبب التعلم، والتعلم أعمّ من أن يكون بالواسطة أو بدونها، فالمجهول والمعدوم مسكوت عنهما، فالتكلم من التعلم، وتأمل قول الرسول ﷺ: « **ما اتخذ الله وليًا جاهلاً ولو اتخذه لعلمه**[1] »، فإنه شاهد صدق لما ذكر كما لا يخفى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/١١٨٢)، الشوكاني في الفوائد الجامعة (١/٢٩٠) ضعيف.

حديث الرسول ﷺ:
الشريعة مقالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة حالي

قال الشيخ الكردي:

ولما فرغ من بيان الاقتباسات الإلهامية والأحكام المعنوية التي تحت كلٍّ واحدٍ منها فنون من العلوم، وفي الحقيقة كلٌّ منها كل العلوم والآداب والرسوم، شرع في بيان **حديث الرسول** ﷺ الجامع للشريعة، والطريقة، والحقيقة، وتحقيق هذه الثلاثة.

فقال ﷺ حاكيًا عن أفضل البشر ومعدن الكرم.

قال: (**النبي**) بالهمزة من النبأ بمعنى الأخبار؛ لأنه أخبر عن الله والأحكام الشرعيَّة والعقليَّة والعاديَّة، وبدون الهمزة من نبا ينبو بمعنى ارتفع لارتفاعه وعلو شأنه على الخلق كلهم؛ لأنه معدن الكائنات ومنبع جميع الخيرات صلّى وأفاض الله رحمته بالتجليات الذاتية والأسمائية والصفاتية عليه من الحضرات الأسمائية الإلهية المعبر عنها بخزائن الجود والكرم، وسلم عليه بالاسم السلام فيسلم إليه حقائق الكمال، ويعطيه السلامة عن سطوات تجليات الجلال وعن الانحرافات والزيغ والضلال، ويهبه التحقق بحقائق مرتبة الاعتدال الشريعة أي: مسماها (**مقالي**)، وفي رواية (**أقوالي**) أي: مقولاتي يعني مدلولاتها، ومسمَّى (**الطريقة**) هو أفعالي بمعنى مفعولاتي، و(**الحقيقة**) ومسميها (**حالي وهيئتي التي أنا عليها**)، وفي رواية (**أحوالي**)، وهي أنسب لرواية أقوالي لفظًا ومعنى، وهذا ما قاله الرسول ﷺ: في الأصول الثلاثة، وقلت في توضيح ما قاله الرسول ﷺ بلسان بالإلهام الرباني مبلول:

١- الشريعة بمنــزلة جسم، والطريقة بمثابة نفس، والحقيقة روح للشريعة والطريقة.

قوله: (**الشريعة بمنــزلة جسم، والطريقة بمثابة نفس، والحقيقة روح للشريعة والطريقة**)[1] فالجسم ظاهر النفس والروح وهما باطنه، والظاهر قشر والباطن لبّ، والنفس مدبرة للجسم، ولكن في الحقيقة بالجسم من القوّى النظرية والحسيَّة والخياليَّة

(١) لــتمام الفائدة نورد أقوال سيد الطائفة في بيان: الشريعة والحقيقة والطريقة: سُئِلَ الجنيد عن التصوف؟ فقال: تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، =

=

ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى عن الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة.

يقول الجنيد: علمنا مضبوطٌ بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقّه لا يُقتدى به.

وقال: علمنا محفوظٌ أن يأخذه غير أهله.

وقال: لو رأيتم الرجل قد تربَّع في الهواء ومشي على الماء فلا تلتفتوا إليه حتى تنظروه عند الأمر والنهي، فإن كان عاملاً بالأمر مجتنبًا لما نُهي عنه فاعتقدوه.

قال: لو كنت ذا سلطانٍ لضربت عنق كل من يقول: ما ثَمَّ إلا الله؛ لأنه يلزم من ظاهر مقالته هذه نفي الخلق ونفي جميع الشرائع المتعلقة بهم.

وسئل الجنيد قدَّس الله سرَّه عن الحقيقة؟ فقال: أذكره ثم أَدَعُ هذا وهذا.

قال الجنيد: ما بلغ أحدٌ درجة الحقيقة إلا وجب عليه التقيُّد بحقوق العبودية وحقيقتها، وصار مطالبًا بآداب كثيرةٍ، لم يطالب الله بها غيره.

قال الجنيد قدَّس الله سرَّه: أبت الحقائق أن تَدَعَ في القلوب مقالةً للتأويلات.

قال: سمعت سريًا يقول وقد وصف أهل الحقائق: أكلهم أكل المرضى، ونومهم نوم الغرقى.

قال: قال لي السريُّ السقطيُّ: قال لي أخي أبو يزيد بن عيسى قدَّس الله أرواحهم: من نظر إلى الخلق بعين العلم مقتهم، وهرب إلى الله تعالى منهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم وكان طريقًا لهم إليه.

قال قُدِّس سرُّه: الخوف يقبضني، والرجاء يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرقني، فإذا قبضني بالخوف أفناني عنِّي بوجودي، فصانني عني، وإذا بسطني بالرجاء ردَّني علي بفقدي، فأمرني بحفظي، وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني فدعاني، وإذا فرقني بالحق أشهدني غيري فغطَّاني عنه، فهو في ذلك كله محركي غير ممسكي، وموحشي غير مؤنسي، بحضوري أذوق طعم وجودي، فليته أفناني عني فمتَّعني، أو غيبني عني فروَّحني وللفناء أشهدني، فنائي بقائي، ومن حقيقة فنائي أفناني عن بقائي وفنائي، فكنت عند حقيقة الفناء بغير بقاءٍ ولا فناءٍ، بفنائي وبقائي لوجود الفناء والبقاء، لوجود غيري بفنائي.

=

=

قال: الطرق كلها مسدودةٌ على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتَّبع سنته، ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحةٌ عليه.

وقال: الطريق إلى الله مسدودٌ على خلق الله ﷻ إلا المقتفين آثار الرسول ﷺ والتابعين لسنته، كما قال الله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١].

سُئِلَ الجنيد: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: توبةٌ تحلُّ الإصرار، وخوفٌ يُزيل الغرة، ورجاءٌ مزعجٌ إلى طريق الخيرات، ومراقبة الله في خواطر القلوب[1].

قال ؓ: طريق الحبيب إما بالعلم أو بالسلوك، وبالسلوك بلا علمٍ وإن يكن حسنًا فهو جهلٌ ونقصٌ، وإذا كان العلم مع السلوك فهو عزٌّ وشرفٌ.

وقال: بُني الطريق على أربعٍ: لا تتكلم إلا عن وجودٍ، ولا تأكل إلا عن فاقةٍ، ولا تنم إلا عن غلبةٍ، ولا تسكت إلا عن خشيةٍ، إذا طلب أحدهم منه الجنيد الطريق، يقول: اذهب فاخدم الملوك، ثم تعالى؛ فإن بداية طريقنا نهاية مقام بعض الملوك[1].

قال: من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:١٠٨].

وسُئِلَ ؓ: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ قال: اترك الدنيا وقد نلت، وخالف هواك وقد وصلت.

وقال الجنيد لابن سريج: طريقنا أقرب إلى الحق من طريقكم. فطالبه بالبرهان، فقال الجنيد لرجلٍ: ارْمِ حجرًا في حلقة الفقراء. فرماه، فصاحوا كلهم: الله، ثم قال: ألقه في حلقة الفقهاء. فألقاه، فقالوا: حرامٌ عليك، أزعجتنا، فقبَّل ابن سريج رأسه (رأس الجنيد) واعتذر.

زار الجريري الجنيد، فوجده، فأطال، فلامه، فقال الجنيد، طريقٌ عرفنا بها ربَّنا لا نقتصر على بعضها، فالنفس ما حملتها تتحمل، والصلاة صلةٌ، والسجود قربةٌ، ومن ترك طريق القرب أوشك أن يسلك طريق البعد.

وقال الجنيد للشبلي: إنْ خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فلا تعد ثانيًا؛ فإنه لا يجيء منك شيءٌ في الطريق.

في قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التكوير:٢٦] قال الجنيد: معنى الآية مقرونٌ بآية أُخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر:٢١] المعنى: أيُّ طريقٍ تسلكون أبين من الطريق الذي بيَّنه الله لكم. وانظر: كتابنا: الإمام الجنيد قدس سره.

مدبرة للجسم، ولكن في الحقيقة بالجسم من القوًى النظرية والحسيَّة والخياليَّة وغيرهما مما لا يحصل للنفس إلا بالجسم والروح أحدية جامعة بينهما هذا في الحقيقة، وإلا فالنفس هو البرزخ بين الجسم والروح، فلا يكون الجسم من حيث الكمال بدونهما ولا هما بدونه، ويعبر عن الجسم بلسان الإشارة بالتابوت الذي فيه سكينة الرب؛ لأنه فيه حصول العلم واليقين، وبهما ازدياد الإيمان وحصول اطمئنان النفس إلى الملك الرحمن، فكمال الشيء من روحه، كما أن كمال الروح من سلامة بدَّمه، فعند هذه الطائفة تمام النشأة الإنسانية الجسم والنفس والروح، فالجسم يُحكم بقواه بالتشبيه، والروح يدرك التنـــزيه، والنفس وهي اللطيفة القلبية الجامعة بين أحكام الروح والجسم المتوسطة بينهما وهي عين الروح، أو المراد بالنفس القلب كما هو في عُرفهم، والأول أولى إذا لاحظنا وجوه الاعتبار، وإن لوحظ وجه الاستقرار على حالة متوسطة اعتدالية من غير غالبية ومغلوبية فاحشتين في أحد الطرفين من الصفات التجردية والأحوال التعلقية العرضية، كما يقول الحكماء في المزاج: فالنفس والقلب والروح شيء واحد لا تعدد فيها، فالشريعة والحقيقة طرفان متقابلان، والطريقة أحدية جمعهما.

٢- الشريعة اسم، والطريقة عدد، والحقيقة خاصة.

ثم تفنن قدس سره في العبارة وإن كان الكل شيئًا واحدًا عند الإشارة فانتقل؛ لأن الحق تعالى تحول، فقال على سبيل التعداد: حيث لا ينقطع التجلِّي أبد الآباد **(الشريعة)** المذكورة في الحديث المذكور التي هي أقوال الرسول ﷺ **(اسم)** مثل هذا واجب، وهذا مندوب، وهذا حلال، وهذا حرام، وكالصلاة، والصوم، والزكاة وغير ذلك مما يعلم اسمه وكيفية عمله من الشرع، ففائدتها معرفة الأسماء وتميز بعضها عن بعض، و **(الطريقة)** التي هي أفعال الرسول ﷺ عمل المسمَّيات تلك الأسماء بأن يخرجها من القوة إلى الفعل ومن العلم فيؤدي بالفعل الواجب، ويندب إلى المندب، ويجذب الحلال إلى نفسه ويستعلمه، ويتجنب عن الحرام ويبعده ويتركه، والحقيقة التي هي أحواله ﷺ خاصة مجهولة للناس لا يعلمها إلا الحكيم الخبير وهي وجوه ذلك العمل وحكمته وتسميتها خاصة لخفاء سبب ذلك العمل لا يعلمه إلا الله أو من علمه الله، والحاصل إذا علمت اسم الصلاة والصوم والزكاة والحج وما تتوقف هي عليه فهي **(شريعة)**، وإذا عملتها بأن صليت وصمت وزكيت وحجيت كما في الشريعة أي: بأركانها وشروطها وآدابها؛ لأن الاسم لا يقع إلا

على تمام المسمَّى حقيقة، فمن خلق صورة الإنسان من غير عضو أو بجميع أعضائه، لكن بلا روح فلا تسمي تلك الصورة إنسانًا لا مجازًا لكونها مشابهًا بصورة الإنسان حتى أن صورته الحقيقة إذا زال عنها الروح يبقى عنها اسم الإنسانية لا ينبطق عليها إلا بالمجاز كالصورة المعمولة من خشب أو حجارة، فكذلك الصلاة وغيرها إذا نقص منها شيء من الأركان والشروط واللوازم ينتفي عنها الاسم حقيقة، فإذا أدَّاها بكمالها فهي (**طريقة**)، وإذا علم وجه الأداء وسبب فعلها فهي (**حقيقة**).

٣- الشريعة أسماء، والطريقة صفات، والحقيقة ذات.

(**الشريعة**) بوجه آخر من وجوه الحقيقة (**أسماء**) إلهية و(**الطريقة**) (**صفات**) ربانية و(**الحقيقة**) (**ذات**) صمدانية، فالجموع نسخة جامعة لنعوت الحضرة الإلهية التي هي الذات والأسماء والصفات، أو الذات والصفات والأفعال، ولهذا من اجتمعت فيه الثلاثة يكون كاملاً وعنوانًا جامعًا لما في صحيفة الكتاب من السلام والأوصاف والأحكام، وهذه الثلاثة والموصوف بها صورة الحق تعالى؛ لأن صورته ليست إلا الذّات والأسماء والصفات يدلك على هذا حديث: « **إن الله خلق آدم على صورته**[1]» لجمعه الأسماء الإلهية والحقائق الكونية.

٤- الشريعة عرف، والطريقة ظرف، والحقيقة غرف.

وبوجه آخر أيضًا (**الشريعة عُرف**) وريح طيبة، والعُرف في الأصل الريح مطلقًا طيبة أو منتنة، وأكثر استعمالها في الطيبة كذا في (القاموس)، و(**الطريقة ظرف**) وحسن وجمال وبهاء، و(**الحقيقة غرف**)، وهو شجر عطر الرائحة و رقة يسود الشعر، ويستاك بقضيبه أو شجر نوره كالياسمين، ويقال له: شدن مفتوح الدال، فعلى هذا الأصل هو الحقيقة والشريعة، والطريقة فرعها، وإن كانت في الظهور ومتأخرة عنهما؛ لأنها باعتبار وجودها الحقيقي متقدمة عليهما كالقلم الأعلى المسمَّى بالحق المخلوق به الخلق وهي الحقيقة المحمَّدية متقدمة في الوجود الأصلي، ومتأخرة في الظهور الحسِّي، ولعلَّ الأنسب أن يُحمل الغرف على العطر، فالعطر إنما يقبل بالرائحة، وهي لا تعتبر إلا بطيبها؛ لأن تنتها

(١) تقدم تخريجه.

مستكرهة جدًا، ولذا قيل: الحقيقة بلا شريعة باطلة، والشريعة من غير الحقيقة عاطلة؛ لأنه لا تكون هي على أصلها حقًا، وهما من غير الطريقة ناقصة لعدم حسنهما بدونها.

٥- الشريعة بداية، والطريقة توسُّط،والحقيقة غاية.

ومن وجه آخر أيضًا (**الشريعة**) بالنسبة إلى غير صاحب الدائرة، وهو السالك والمبتدئ بداية أمره؛ لأنها عمل مع علم، و(**الطريقة توسط**)؛ لأنها تحسين الأعمال وتزيينها، و(**الحقيقة غاية**) لهما؛ لأن فائدة الشريعة والطريقة هي الحقيقة التي هي المقام الأعلى لا يصل إليها إلا صاحب الاستعداد الكامل، ولا يوصل إليها إلا الحق تعالى أو صاحب نور التوفيق والهداية، ومالك الألطاف الأزلية والعناية، فالقائم بالشريعة مبتدئ، والقائم بالطريقة متوسط، والقائم بالحقيقة غاية ونهاية، وعلامة الأول الصبر وحبس النفس على الطاعات، وعلامة الثاني الشكر والرضا، وعلامة الثالث أن يكون بمراد الله تعالى ولعل هذا الوجه أشمل الوجوه.

٦- الشريعة اجتهاد، و الطريقة انقياد، والحقيقة اعتماد.

ومن الوجهات المعتبرة في هذا الباب ما ذكره قُدس سرّه بقوله: (**الشريعة اجتهاد**)؛ لأنها من الاجتهاد بمعنى الجهد والسعي، فهي علم وعمل.

(**والطريقة انقياد**) النفس لأحكام الشريعة، وفي الشريعة لا تكون هي مُنقادة، (**والحقيقة اعتماد**) على من له الاعتماد وله العباد، فإذا اجتهد في تحصل المطلوب فهو شريعة، وإذا انقاد لأوامره فهو طريقة.

وإذا اعتمد على المطلوب فهو حقيقة، فصاحب الشريعة مجتهد؛ لأنه يرى أن الجزاء مترتب على الأعمال، وصاحب الطريقة مُنقاد لأوامر الحقّ، ومستلم لوجهه فتعبه وكُلفته أقل؛ لأن العادة تستلزم الأُلفة ومن الأُلفة ترتفع الكُلفة، وصاحب الحقيقة معتمد على ربه ليس له عمل ولا تعب ولا انقياد؛ لأنه من أهل الاعتماد؛ لأن من اعتمد على شيءٍ يكون قيامه، وجميع حركاته، وسكناته بذلك الشيء لا بنفسه، فهو صاحب منة يرى الأعمال منة من الله عليه بإظهارها فيه وجعله محلاً لها، ولهذا طلب العوض والجزاء منه تعالى منتفٍ عنه، فما لم يكن في العبد اجتهاد لا يوصف بالانقياد، فلا يوجد فيه الاعتماد.

٧- الشريعة عبادة، والطريقة انقياد، والحقيقة سيادة.

ومنها ما ذكر في قوله: (**الشريعة عبادة**) حاصلة من الكُلفة؛ لأن القائم بها تحت قبضة الغير، و(**الطريقة زيادة**) في تلك العبادة بجعلها خالصة لله تعالى، أو بتصفيتها بأن يأخذ الأولى من تلك العبادة ويعملها، ويترك الجواز منها، ويجعله كالمنع، و(**الحقيقة سيادة**) غير مقتضية للعبادة ولا للزيادة، فالرجل يخدم السلطان أولاً فيراعيه بالنعم والإحسان حتى لا ينقطع عن الخدمة بالدوام، فإذا زادها برعاية تحسنها والإخلاص فيها، فيخلعه من باب الاحترام والإكرام، فإذا أكمل فيها بالصدق وقطع طمع الأجر بها يجعله سيدًا ورائيسًا على قوم لأن يخدموه ولا يطلب منه الخدمة، والقوم مطلوب بخدمته وخدمة السلطان، ومع هذا الرئيس دائمًا في خدمة السلطان، والاعتراف بإحساناته وفي شكر نعمائه وداعٍ الخلق إلى خدمة السلطان، ويزجر حسب ما أمكن له من يمتنع عن خدمة السلطان، فتأمل هذا يا إنسان، ولا تكن منهمكًا في الهوى والغضب كالحيوان:

﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

٨- الشريعة ظاهرة، والطريقة باطنة، والحقيقة مشاهدة.

ومنه أيضًا قوله قُدس سرّه: (**الشريعة ظاهرة**)؛ لأنها أعمال بدنية أو؛ لأنها صورة الأعمال، والثاني أولى هنا وفيما يأتي، و(**الطريقة باطنة**)؛ لأنها أعمال قلبية أو؛ لأنها باطن الأعمال وروحها، أو المراد العموم في الظاهرة الباطنة فحقًا ظاهر كل شيءٍ شريعة، وروح كل شيءٍ ومعناه طريقة، و(**الحقيقة مشاهدة**) لما هو باطنة، فالصلاة مثلاً صورتها وظاهرها من قيامها وركوعها وسجودها وقعودها وغير ذلك من أقوالها شريعة، ومعنى هذه الأعمال والأقوال طريقة ومشاهدة ذلك المعنى أيضًا كالصورة حقيقة، فالعسل وصورته المائعة المأكولة ظاهرة، والحلاوة التي فيه باطنة، ومشاهدتها ذوقها باقتناء تلك الصورة وإزالتها بالأكل، والغاية العظمى هي الحقيقة، فلا اعتبار لصورة بلا معنى، ولا لذة للمعنى بلا ذوقه وذوقه لا يكون مع بقاء صورته، وأمّا مشاهدة المعنى مع بقاء صورته، فلا تكون إلا لعين صفاء خلاصة خاصة الخاصة صاحب حقيقة حق اليقين البالغ غاية مقام القرب والتمكين، ولا تظن في هذا المقام ظنًا فاسدًا بسبب أن فهم المعنى ودركه لا يكون إلا من الصورة؛ إذ كلامنا في الذوق وهو غير الدرك والفهم، ولا المعنى إلا المعنى على ما

شاهدنا، وإن كان للصورة دخل فيما ذكرنا من حيث أن الذوق حاصل بالظهور في الصورة إلا أن الذائق وكذا المذوق لا يكون إلا المعنى، وأمَّا الصورة فلا تكون ذائقة ولا مذوقة، فالمعنى من حيث ظهوره في صورة يذوق المعنى كذلك أي: من حيث الظهور في الصورة، وأمَّا ذات المعنى من حيث هي فلا يكون ذائقًا ولا مذوقًا لاقتضاء الذوق التغاير، ولا تغاير إلا بالصورة، فالظهور والبطون والشهود متحد في الوجود، والتعدد من النِّسب والإضافات.

٩- الشريعة علم، والطريقة عين، والحقيقة حق.

ومنها ما أشار إليه بقوله قدس سره: (**الشريعة علم**)، والعلم سمع مثل إن سمعنا بالجنة ونعيمها، و (**الطريقة عين**) بأن نعاين الجنة، و (**الحقيقة حق**) ثابت لا يتبدل ولا يتغير وهو أن ندخل فيها ونتنعم بنعيمها، فأولاً يكون العلم بالشيء، ثم نعاينه ويميزه عن الأغيار، ولكن يبقى للوهم أثر، ثم نحقِّقه بحيث لا يبقى للوهم فيه أثر ودخل، وهذه الثلاثة معتبرة مع اليقين وبدونه في أي رُتبة كان من هذه المراتب الثلاث، فلا؛ لأنه رسم وأثر، ومع الإيمان واليقين يخرج عن كونه رسمًا فابتداؤه علم اليقين، وتوسطه عين اليقين، وغايته حق اليقين، ولما قال الرسول ﷺ: «**لكل حق حقيقة**[1]» زادوا رابعًا، وهو حقيقة حق اليقين، فيكون هذا الرابع غاية الغاية ونهاية النهاية، ولهذا اختصت هذه الرتبة بخاتم النبوة والرسالة، ووقع رشح منها على كمل ورثته بكمال متابعته وقيل: بخاتم الأنبياء والرسل لا دخل فيها للكُمَّل وقيل: بهما معًا، لكن للرسول أصالة وللكُمَّل تبعًا.

١٠- الشريعة تبين، والطريقة تعين، والحقيقة تمكين.

ومن الوجوه ما قاله قدس سره: (**الشريعة تبين**) للأمور والأحكام بأن يقال: الواجب كذا، والجائز كذا، والحلال كذا، والحرام كذا، و(**الطريقة تعين**) لتلك الأمور والأحكام مثل أن يقال: هذه الصلاة أي: الظُّهر مثلاً واجبة، وهذا الشيء المخصوص حلال أو حرام، أو المراد بالتعيين الإخراج من العلم إلى العين والوجود الخارجي كما سبق في قوله،

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/٢٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٣٦٢)، وعبد الرازق في المصنف (١١/١٢٩).

و(**الطريقة عمل**)، فعلى هذا فالفارق بينهما أمر خفي، أو نقول: لا فرق بينهما بل بين الوجوه كلها إلا بالاعتبار، وفي الحقيقة الكل شيء واحد كما أن الأصول الثلاثة شيء واحد؛ لأن أمر الدين ليس الشريعة فقط أو الطريقة فقط أو الحقيقة فقط، بل بمجموع الثلاثة، فالدين من حيث أن يعلم أن الصلاة واجبة وأنها أفعال مخصوصة وأقوال معهودة، والوضوء واستقبال القبلة وطهارة البدن والمكان وغيرها شرط لصحتها، وأن التسبيحات والتكبيرات وغير ذلك مما تقرر في موضعه وحصَّل الشروط وصلَّى كما بين له في الشرع فهي طريقة، وإذا عملها بحيث لا يتطرق إليهاشائبة الفساد والنقص فهي حقيقة كما أشار إليه بقوله: و(**الحقيقة تمكين**) لتلك الأمور المبينة في الشريعة المعمولة في الطريقة، فبالشريعة تبينت الأحكام، وبالطريقة تعينت، وبالحقيقة تمكنت.

١١- الشريعة أساس، و الطريقة حيطان، والحقيقة سقف.

ومنها ما ذكره بقوله: (**الشريعة أساس**) للآخرين، و(**الطريقة حيطان**) على ذلك الأساس، و(**الحقيقة سقف**) على ذلك الحيطان، فإذا فسد الأساس يفسد الحيطان والسقف لقيامهما به، وإنه الحامل لهما من حيث إنه حامل للحيطان، وهو حامل للسقف، وحامل حامل الشيء حامل لذلك الشيء، وإذا فسد السقف فسد الحيطان ومن فساد الحيطان يلزم فساد الأساس بمرور الزمان عليه وكذا الحيطان؛ لأنه الرابطة بينهما، ومن عدم [illegible] يلزم الانفكاك، ومن الانفكاك يلزم التعطيل أو التشبيه والتشريك وكلاهما باطل مع أن بين الحقيقة والشريعة في نفس الأمر تلازم؛ لأن الأول من حكم الله، والثاني من حكمة الله؛ فلا يجوز نفيهما عنه؛ لأنه مخالف لما هو الأمر عليه ولا نفي أحدهما عنه وإثبات الآخر له لـــمَّا مرَّ ولزوم الترجيح من غير مرجح، والجمع بينهما إنما يكون بالرابطة وهي الطريقة، فلابد منها كما أنه لا بد منهما.

١٢- الشريعة أصل، والطريقة فرع، والحقيقة ثمرة.

ومنها ما ذكره في قوله قدس سره: (**الشريعة أصل**) للطريقة، والحقيقة يعرف وجهه من الوجهات السابقة وكذا اللاحقة، و(**الطريقة فرع**) لها حاصلة منها وظاهرة عنها، و(**الحقيقة ثمر**)، ونتيجة للأصل، أو ثمر الفرع المتولد من الأصل، وهذا أولى؛ لأن الثمر يكون للفرع لا للأصل، فإن الفرع هو ثمره، فالشجر أصل للأغصان والقضيب لتفرعها

منها، والثمر يظهر من الأغصان لا من الشجرة، لكن ولد الولد ولد أيضًا، بل قيل: أنه أحب من الولد، وقد شوهد هذا مع أنه قد يكون الثمر على الشجر لا على غصن الشجر، وهو مشاهد فيصح القول: بأن الشريعة أصل للطريقة وهي فرعها والحقيقة ثمر الطريقة.

١٣- الشريعة إسلام، والطريقة إيمان، والحقيقة إحسان.

ومنها ما في قوله: (**الشريعة إسلام**) وانقياد، و(**الطريقة إيمان**) بالله بأنه الموجود الفعَّال لما يريد، و(**الحقيقة إحسان**)، فالإسلام في الشريعة: «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره والإحسان أن تبعد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1]».

فالإيمان على هذا مقدم على الإسلام والإحسان، وهو الواقع في سؤال جبريل عليه السلام على الرسول ﷺ حيث أن الإيمان مقدم في الذكر هناك إلا أن عند هذه الطائفة أن الإيمان مركب من الإسلام وغيره، فالإسلام جزاء الإيمان، والجزاء مقدم.

وعند أهل الشرع الإيمان هو التصديق فقط[2] وهو جزء الإسلام، ولهذا قدم السؤال،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال السمرقندي في الصحائف: الإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع مختلف فيه.

فقال المحققون: هو تصديق الرسول بكل ما علم بالضرورة مجيئه به، وإنما قيد بالضرورة لأن منكر الإجتهاديات لا يكفر إجماعاً، ويقرب منه ما نقل عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمة الله: أن الإيمان هو: المعرفة والإقرار.

وقالت المعتزلة: الإيمان هو: الطاعات.

ونقل عن السلف: أنه التصديق بالجنان، والإقرار باللسان والعمل والأركان، فمن أخل بالتصديق وإن شهد وعمل فهو منافق ومن أخل بالشهادة فهو كافر، ومن أخل بالعمل فهو فاسق وهذا قريب مما نقل عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ، وبه قال الشافعي رحمه الله أنه معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان.

=

=

وأما الإسلام فهو بمعنى الاستسلام لغة، وفي الشرع: الخضوع وقبول قول الرسول، فإن وجد معه اعتقاد، وتصديق بالقلب فهو الإيمان فالإيمان أخص من الاسلام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: من الآية١٤] بين أنه ليس في قلوبهم تصديق الرسول، ولكنهم قبلوا قوله، وأظهروا الخضوع مخافة.

وأما الكفر: فهو في اللغة، الستر، وإنما سمي الكافر كافرا لأنه يستر الحق وفي الشرع: إنكار ما علم بالضرورة مجيئ الرسول به.

ولا يكون بين الإيمان، والكفر واسطة إذا فسر الإيمان بالتصديق إما إذا فسر بمجموع الطاعات فتحقق الواسطة، لأن من صدق الرسول في كل ما علم بالضرورة مجيئه به، ويترك شيئا من العبادات لا يكون مؤمنا حينئذ ولا كافراً.

وسمى المعتزلة القسم منـــزلة بين المنـــزلتين.

وقالت الخوارج: من ترك شيئًا من العبادات فهو كافر فعلى هذا لا يكون بين الإيمان والكفر واسطة أيضاً.

والدليل على أن الطاعات جزء من حقيقة الإيمان لأنه لو كان كذلك لكان تقييد الإيمان بالطاعة تكريرًا، وبالمعصية نقضاً لكنه باطل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: من الآية٣٠] وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: من الآية٨٢].

ولما صح جعل القلب محلاً للإيمان إذ الطاعات ليست جميعها من أفعال القلوب لكنه باطل، لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة: من الآية٢٢]، ولأن من صدق بالله وبرسوله ومات قبل أن يشتغل بطاعة مات مؤمنًا إجماعاً، واحتج الخصم بوجوه:

فالأول فعل الواجبات هو الدين لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

وذلك يرجع إلى كل ما تقدم، فكان كل ما تقدم هو الدين والدين هو الإسلام لقوله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: من الآية١٩]، والإسلام هو الإيمان إذ لو كان غيره لما كان الإيمان مقبولاً: لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: من الآية٨٥] فلزم أن يكون فعل الواجبات هو الإيمان.

=

=

والجواب: أن بيان اتحاد الإسلام والإيمان معارض بقوله تعالى:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ [الحجرات: من الآية١٤] ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: من الآية١٤] الآية، ولئن سلمنا ولكن دليلكم إنما دل على أن الطاعات يصدق عليها الإيمان.

ولا يلزم من ذلك كونها حقيقة الإيمان لجواز أن يكون صدق الإيمان عليها لكونها متضمنة للتصديق، والاعتقاد.

الثاني: لو كان الإيمان عبارة عن التصديق لكان قاطع الطريق مؤمناً لكونه مصدقاً لكنه ليس بمؤمن لأنه مخزي؛ لأن الله تعالى يدخله النار لقوله تعالى في حقهم: ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: من الآية٣] وكل من يدخله النار فقد أخزاه لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: من الآية١٩٢] والمؤمن لا يخزى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا معه﴾ [التحريم: من الآية٨]، وفيه نظر؛ لأن هذا إنما يصح أن لو كان الواو عاطفة، أما إذا كانت ابتدائية، فلا، ولئن سلمنا لكن المراد: الصحابة، بدليل قوله تعالى: ﴿مَعَهُ﴾ [التحريم: من الآية٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: من الآية١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس.

والجواب: لا نسلم إن كان الإيمان هاهنا: الصلاة لم لا يجوز أن يكون المراد التصديق بوجوب تلك الصلاة.

الرابع – لو كان الإيمان عبارة عن التصديق لما كان قابلاً للزيادة والنقصان، إذا التصديق معنى واحد لا يقبل ذلك لكنه باطل.

واستدلوا على نفي التالي بآيات سنذكرها مع الأجوبة إن شاء الله تعالى

اختلفوا في أن الإيمان هل يزيد وينقص أم لا.

فقال بعض من ذهب إلى أن الإيمان هو التصديق: لا، لأن مسمى التصديق شيء واحد لا يتطرق إليه الزيادة، والنقصان.

وقال آخرون: لا يقبل النقصان، ولكن يقبل الزيادة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [الأنفال: من الآية٢] ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: من الآية٤] ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ [المدثر: من الآية٣١] ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: من الآية٢٢].

=

=

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [التوبة: من الآية١٢٤].

وقال من زعم أن الطاعات داخلة في حقيقة الإيمان: أنه يقبلهما.

واستدل بالآيات المذكورة، وقال الإمام: هذا البحث لفظي، لأن المراد بالإيمان إن كان هو التصديق فلا يقبلهما، وإن كان الطاعات فيقبلهما ثم ذهب إلى التوفيق فقال: الطاعات مكملة للتصديق، وكل ما دل على أن الإيمان لا يقبل الزيادة، والنقصان كان مصروفاً إلى أصل الإيمان، وما دل على كونه قابلاً لهما فهو مصروف إلى الإيمان الكامل هذا ما ذكروه.

والحق: أن الإيمان قابل لهما سواء كان بمعنى الطاعات، وهو ظاهر و بمعنى التصديق، لأن التصديق بالقلب هو: الإعتقاد الجازم وهو قابل للشدة والضعف، إذ يبتدئ من أجلي البديهيات نازلاً إلى أخفى النظريات.

وصاحب الكبيرة مؤمن مطيع بإيمانه عاص بفسقه وعند المعتزلة: ليس بمؤمن ولا كافر وعند جمهور الخوارج كافر لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: من الآية٤٤].

وفيه نظر؛ لأن ذلك يدل على أن من لم يحكم بما أنزل الله و لم يصدقه فهو كافر ولا نزاع فيه وإنما الكلام فيمن يرتكب معصيه.

وعند الأزارقة مشترك، لأنه يعمل عملاً لله،وعملاً لغيره فصار مشركاً لمخالفته لقوله تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: من الآية١١٠] وعند الزيدية كافر بالنعمة، وعند الحسن البصري منافق لقوله عليه السلام « آية المنافق ثلاث: إذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب ».

واختلفوا في الكبائر فروى ابن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ أنها تسعة: الشرك بالله وقتل النفس عمداً، وعقوق الوالدين المسلمين والسحر، وأكل مال اليتيم، والقتال في الحرم والزنا والفرار من الغزاة عند قتالهم وقذف المحصنة.

وزاد علي كرم الله وجهه السرقة وشرب الخمر وزاد أبو هريرة أكل الربا وقيل الكبيرة ما توعد الشارع عليه بخصوصه، وعيد أصحاب الكبائر من أهل الإيمان منقطع أي يخرجهم الله تعالى من النار إلى الجنة خلافاً للمعتزلة.

لنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: من الآية٤٨] واحتج الخصم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٤].

=

والجواب: أن هذا لا يوجب دوام العذاب، وبقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ [النساء: من الآية٩٣].

والجواب: أن قوله تعالى« فجزاؤه » يوجب كونه مستحقاً لدوام العقاب والإستحقاق لا يوجب الوقوع. وذهب أبو هاشم، وأتباعه: إلى أن الطارئ يزيل المتقدم بطريق الموازنة أي تقابل أجزاء الثواب بأجزاء العقاب فيسقط المتساويان منهما ويبقى الزائد.

وقال أبو علي، وأتباعه: إنه بطريق الإحباط أي يبقى الطارئ بحالة ويسقط من السابق بقدرة.

وأجمعوا على أن وعيد الكافر المعاند دائم، وأما الكافر الذي بالغ في الاجتهاد، و لم يصل إلى الحق فزعم الجاحظ، والعنبري أنه ينقطع لأنه معذور لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: من الآية٧٨] وأنكر الباقون، وادعوا فيه الإجماع.

والذين زعموا أن الطاعات داخلة في الإيمان فمنهم من جوز الاستثناء مطلقاً وهو قول عبد الله بن مسعود، وقوم من الصحابة، والتابعين، والشافعي رضي الله عنهم، ومنهم من جوز في الاستقبال دون الحال وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج والكرامية.

والذين ذهبوا إلى أن الإيمان هو التصديق، فمنهم من جوز الاستثناء وهو قول أبي سهل الصعلوكي وابن فورك، ومنهم من أنكره وهو قول أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله وقوم من المتكلمين.

حجة المجوز من وجوه:

فالأول : هذا للتبرك لا للشك كقولة تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: من الآية٢٧] وهذا للتبرك لامتناع الشك على الله تعالى.

الثاني : إنه للشك لكن لا في الحال بل في العاقبة؛ لأن الإيمان المفيد هو الباقي عند الموت وكل شاك في ذلك.

الثالث : لما كان الإيمان عندهم بمجموع الإعتقاد والقول والعمل والشك في العمل الذي هو أحد أجزائه يوجب الشك فيه فصح الشك في حصول الإيمان.

وقال المانع: أنا مؤمن حقًا لأن الشك في الحال والاستقبال يوجب على ضعف الاعتقاد في الحال ولا نزاع إن كان للتبرك.

قال أهل السنة: كل من اعتقد أركان الدين تقليداً فإن اعتقد مع ذلك جواز ورود شبهة عليها

فعلى قول أهل الشريعة: الشريعة إسلام وإيمان، والطريقة إحسان، والحقيقة شهود وعيان، وعلى ما قرره الشيخ رضي الله تعالى عنه: الشريعة إسلام وهو مبني على الأصول الخمسة المذكورة، وهو أول مرتبة من المراتب السبع التي جعل الله تعالى مطلق أمه محمد ﷺ عليها، والطريقة إيمان وهو على ركنين الأول التصديق اليقيني بما ذكر في تعريف الإيمان الشرعي، والثاني الإتيان بجميع بني الإسلام عليه، والمراد بالتصديق اليقيني سكون القلب إلى تحقيق ما أُخبر به من الغيب كسكونه إلى ما شاهده ببصره، فلا يشوبه ريب في وحدانية الله تعالى ولا في ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، كما لا يشوبه ريب في المحسوسات والمبصرات، ومن هنا اشترطوا في الإيمان قبول القلب من غير دليل، وقالوا: كلما هو معلوم بالعقل ليس مما هو مؤمن به لعدم تواطئ القلب عليه بلا دليل، والإيمان تواطؤ القلب على ما بعد عن العقل دركه، فالعقل لا يدرك إلا بالدليل فما علم بالعقل ليس بإيمان عندهم، بل عِلم نظري مستفاد بدلائل الشهود، فهؤلاء ليس إيمانهم إلا بالله؛ إذ لا غيب عندهم إلا كنه الذات الإلهية وعلمهم بما دونه علم شهودي وشرط الإيمان أن يكون المعلوم غيبًا والاستقامة على المقامات السبعة من التوبة والإنابة والزهد والتوكل والرضى والتفويض والإخلاص في جميع الأحوال مرتبة ثالثة من المراتب السبع، إلا أنه من الإيمان وتمامه الصلاح، وعدُّوه مرتبة أخرى تحت الاستقامة المذكورة، والصلاح

=

وقال: لا آمن ورود شبهة تفسدها فهو كافر ومن لم يعتقد جواز ذلك فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال: إنه مؤمن، وإن كان عاصيا بترك النظر، والاستدلال المؤدي إلى معرفة أدلة قواعد الدين، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد والأوزاعي والثوري وكثير من المتكلمين، ومنهم من قال: إنه لا يستحق اسم المؤمن إلا بعد عرفان أدلة قواعد الدين سواء أحسن العبادة عن الأدلة أولا، وهو مذهب الأشعري وقوم من المتكلمين.

ومن لم تبلغة دعوة الإسلام فإن اعتقد وحدانية الله تعالى، وعدله فحكمه حكم المسلمين وهو معذور في جهله بأحكام الشرع وإن اعتقد الشرك والتعطيل فهو كافر، فإن لم تبلغه دعوة نبي آخر لم يكن مكلفاً ولا يكون له ثواب ولا عقاب وإن بلغته ولم يؤمن بها كان مستحقًا للوعيد على التأبيد وإن لم يعتقد شيئاً لا توحيداً ولا كفراً فليس بمؤمن ولا كافر. وانظر: الصحائف (ص١٨٦) بتحقيقنا، دار الكتب العلمية، بيروت.

دوام العبادة بشرط الخوف والرجاء في الله تعالى، فالاستقامة على هذا رتبة رابعة وهو الإحسان المعبر به عن الحقيقة وفوق المرتبة الرابعة باعتبار، والثالثة باعتبار مرتبة الشهادة والصديقة والقربة، والكل داخل تحت الحقيقة، فالحاصل أن الإسلام منفرد أول ليس معه سوى أصوله، والإيمان إسلام مع شيء آخر وهو دوام العبادة، والإحسان إسلام وإيمان وصلاح مع شيء آخر وهو الاستقامة فيكون في الأخير، كما أن مرتبة الشهادة فوق الإحسان، والصديقة فوق الشهادة، والقربة فوق الصداقة، فامتازت الشهادة عن مجموع الإسلام والإيمان والصلاح، والإحسان بالإرادة، والصديقة عنهما بالمعرفة، والقربة بالولاية الكبرى، وتفصيل هذه المراتب مذكور في الإنسان الكامل للشيخ الجيلي قدس سره فارجع إليه.

١٤- الشريعة عبادة، والطريقة إفادة، والحقيقة مرادة.

ومنها ما في قوله قدس سره: (**الشريعة عبادة**)، وأعمال ظاهرة متعلقة بكمال ذات العبد من حيث ترتبه منها، والمراد بالأعمال هنا حركات النفس، فيشمل الفعل والترك، والقول مثال الفعل كالصلاة وأداء الزكاة، ومثال الترك نحو ترك الآثام فعلاً وقولاً، ومثال القول كالشهادتين والقرآن والدعاء والأذكار لا أن المراد بها حركات البدن فإنها لا تشمل الترك، و(**الطريقة إفادة**) من قولك: أفدت المال استفدته وأعطيته من باب الأضداد، والمراد هنا المعنى الأول، فالإفادة بمعنى الاستفادة أي: أخذ الفائدة أو طلبها وتحصيلها، والفائدة ما حصلته من علم أو مال، والمراد الأول؛ لأن فائدة العبادة العلم دون المال؛ لأنها هي العلم، والعلم ورد في الحديث «**من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم**[1] »، و(**الحقيقة مرادة**) من العبادة والإفادة إذا المقصود منهما معرفة الأمور على ما هي عليه لا غير، فصاحب الشريعة صاحب عبادة ومجاهدة لنفسه قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ** ﴾ [العنكبوت:٦]، فهو في الشرك الخفي، وصاحب الطريقة صاحب عبودية ومكابدة باطنة نحو الاعتقادات، وصاحب الحقيقة صاحب عبودة ومشاهدة، فالكل عابد لله إلا أن الأول عابد له في بعض الأحوال، والثاني عابد له تعالى في كل حال كما أنه ربه في كلّ حال، والثالث عابد مشاهد لربه في الغدوة والأصال، والأول أجير ربه في كل حال، والثاني مريد، والثالث مراد.

---

(١) ذكره السيوطي في الدرر المنثور (١٢٣/٢).

١٥- الشريعة تدليل، والطريقة توعليل، والحقيقة توصيل.

ومنها ما في قوله قدس سره: (**الشريعة تدليل**) من دله عليه أي: رفقه إليه، فالشريعة توفيق من الله للتوجه إليه، وفي بعض النسخ تقليل بالمعجمة أي: تذليل العبد نفسه لربه بحملها على الأعمال الشاقة عليها، أو تذليل الحقُّ عبده بالتكليف عليه بالأوامر والنواهي، و(**الطريقة تعليل**) بالأمر وتشاغل، فهو من علله بطعام وغيره شغله به، أو من طعام قد علَّ منه أي: أكل منه، وهذا هو الأنسب، أو التعليل الشربة الثانية كالعلل محركة أو الشرب بعد الشرب تباعًا، و(**الحقيقة توصيل**) للعبد بالرب والفرع بالأصل والجزء بالكل، فأهل الحقيقة موصلون والحق تعالى هو الموصل، فالإيصال مشترك بين الحق والخلق القائم بذلك الحق إلا أنه للحق ذاتي وللخلق تبعي، وفي الحق مطلق وفي العبد مقيد.

١٦- الشريعة امتثال، والطريقة أفعال، والحقيقة اتّكال.

ومنها ما في قوله قدس سره العزيز: (**الشريعة امتثال**) للخطاب الإلهي أمرًا ونهيًا وغير ذلك، ولو لم يكن الخطاب متوجهًا إليه لكان هو على ما خلق النفس عليه من إدعاء الربوبية، و(**الطريقة أفعال**) هكذا وقعت النسخة فأمَّا أن تفرق بين العمل والفعل بأن الأول نفس الفعل أي: الأمر المعنوي القائم بالفاعل، والثاني صورة الفعل وهو المفعول حتى لا يلزم التكرار مع ما سبق في أول هذا الباب، أو نقول: النسخة هناك لفظ معنى هكذا الشريعة اسم، والطريقة معنى، والحقيقة خاصة، أو النسخة هنا (**أحوال**) بدل أفعال، ولعل النسخة في الأول المعنى دون العمل، وفي الثاني الأحوال دون الأفعال؛ لأنه الأنسب بسوق العبارة، والله هو العالم بحقيقة الحال، و(**الحقيقة اتكال**) على ربِّه وخروج عن نيته وقصده، فأمره مفوض إليه في العمل وتركه فهو لا يطلب شيئًا بنفسه من نفسه لنفسه ولا من ربه لنفسه ولا لغيره، بل هو طالب بربِّه في ربه لربه.

١٧- الشريعة تقوى، والطريقة ورع، والحقيقة زهد.

ومنها في قوله قدس سره: (**الشريعة تقوى**) واحتراز من الله بامتثال أوامره واجتناب مناهيه، والمتقي يجتهد في عبادته ليلاً ونهارًا، والمجتهد مهتد إلى طريق الحق تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت:٦٩]، و(**الطريقة ورع**)، وإمساك عن الزائد على قدر الحاجة في وقت الحاجة، أو إمساك عن الشهوات الجسمانية،

والوارع قانع ومرتفع على أقرانه بارع، و(**الحقيقة زهد**) فيما سوى الله، فلا يرغب ولا ينظر في غير الله ولا يشهد إلا الله.

١٨- الشريعة تعلق، والطريقة تخلق، والحقيقة تحقّق.

ومنها ما في قوله قدس سره: (**الشريعة تعلق**) بالرب من حيث بذل النفس في خدمته خوفًا من ناره، وطمعًا في جنته، و(**الطريقة تخلق**) بأخلاق الربّ بالتحصيل من كلّ صفة حظًا يليق به، وإليه إشارة حديث: « **تخلقوا بأخلاق الله**[1]»، و(**الحقيقة تحقّق**) بذلك التخلق بالرسوخ، والتمكن والاستقرار فيه.

١٩- الشريعة أوعاظ، والطريقة استيقاظ، والحقيقة أعواض.

ومنها ما ذكره بقوله قدس سره: (**الشريعة أوعاظ**) ونصائح لما فيها من بيان الأعمال وثوابها، وإنها متعلقة بها ومأخوذة منها، و(**الطريقة استيعاظ**) وطلب لتلك الأوعاظ وقبولها، و(**الحقيقة أعواض**) من الله تعالى، فتكون الشريعة والطريقة معوض عنهما، والحقيقة عوض عنهما فتكون هي خلفًا عنهما، ولكن عوض الشيء يكون بدلاً عن المعوض له إلا أن نقول: هذا باعتبار صاحب الجمع حيث ما بقي عنده شريعة ولا طريقة، لكن الحقيقة اختصاص إلهي ليست في مقابلة شيء، فلا يطلق عليه اسم العوض إلا مجازًا باعتبار أن الغالب حولها بعد تمام الشريعة والطريقة والفوت عنهما، فكأنها عوض عنهما.

وقال: أعواض بالجمع إمّا للمشاكلة والمناسبة أو؛ لأنها غير محدودة ووجهها غير متناهية والأولى، بل الصواب أن يكون الأعواض جمع عوض بمعنى الأبد والدهر سمي به؛ لأنه كلما مضى جزء عوضه جزء لذا في القاموس، فالحقيقة أبدية وأباد تأمل، وفي بعض النسخ الشريعة أعواض أيضًا، فيكون هناك بمعنى العوض؛ لأن الشريعة للمعاوضات قال الله تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ [الأنعام: ١٦٠].

كما أنها للإوعاظ وذكر ما يلين به القلب من الثواب والعقاب، وأمّا هنا فبالمعنى الأخير، فيكون حقًا قول الشيخ قدس سره: من باب التجنيس.

---

(١) تقدم تخريجه.

٢٠- الشريعة مقام، والطريقة مدام، والحقيقة تمام.

ومنها ما في قوله قدس سره: (**الشريعة مقام**)، ومجلس يجمع الناس فيه.

و (**الطريقة مدام**) وخمر لا يستطاع دوام شربها إلاهي.

و (**الحقيقة التمام**) ومباشرة بِلمهما وجمعهما، فإن المجلس بلا خمر لا ينفع، والخمر بلا مجلس لا تؤثر، فالنقص في أفراد كل من الآخر موجود والكمال في جمعهما.

فصاحب الأول معترف بالأحكام، وصاحب الثاني معترف بالحكم، وصاحب الثالث معترف بهما، فبالظاهر يعمل الأحكام ويأتي بها كالعوام، وبالباطن يعتقد بالحُكم ولا يقف عنده حتى لا يقع في المخالفة والآثام.

رزقنا الله والمسلمين هذه الثلاثة بالكمال والتمام بحرمة محمد خير الأنام.

فهذه تسعة عشر وجهًا من وجوه الأصول الثلاثة.

وقال بعضهم: (**الشريعة**) قشر.

و (**الطريقة**) لب.

و (**الحقيقة**) دهن، وهو أنسب بالعقل والنظر، وما ذكره الشيخ أوفر بالمعرفة.

قواعد التربي خمسة

قال الشيخ الكردي: ولما فرغ من بيان وجوه الأصول الثلاثة شرع في بيان ما يُستنبط من (**القواعد الخمس المذكورة**) في قوله ﷺ: قواعد الدين، وما قال هنا: قال رسول الله أو النبي كما قال هناك اكتفاء بالسابق مع أنه امتاز عن أقوال نفسه بقوله: بعد قلت كما يأتي إن شاء الله تعالى.

(**القواعد**) جمع القاعدة وهي أمرٌ كلّي مُنطبق على جزئيات متعددة تُعرف أحكامها منه أي: الأمور الكلية الكائنة للدين المأخوذة من كلٍّ من تلك الأمور أحكام جزئيات كثيرة لا تعدُّ ولا تُحصى (**خمس**).

وفي بعض النسخ بالتاء مع كون المعدود مؤنثًا، والقاعدة حقًا أن يكون العدد بلا تاء كما في هذه النسخة، فإمَّا مبني على اعتبار الأمر الكلي في القاعدة، أو القاعدة المذكورة فيما إذا لم يكن المعدود مذكورًا، وإلا فيجوز الأمران، والحاصل أن الأمور التي بنيت عليها جزئيات الدين، واستنبطت منها أحكامه خمسة أمور.

الأول منها: (**معرفة المعبود**) الواجب المستحق بذاته لكمال عزّه وسلطانه لجميع العبادات، فهو المعبود بالذات، ومعرفة من هو معبود بالذات واجبة على جميع المخلوقات لخلقهم لذلك لا غير، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦] أي: ليعرفوني، ولو كان هذا التزامًا، ويؤيده حديث الكنز المشهور حيث صرح بالمعرفة، فقال: «**فخلقت الخلق لأن أعرف**[1]».

وإن المجهول لا يعبد، وهذا العرفان يتفاوت بتفاوت الاستعداد، فمنه ما هو ناقص، ومنه انقص من ما هو كامل، ومنه أكمل، والتفصيل لها يخل بالغرض أو يمل.

والأمر الثاني: من الأمور الخمسة (**القناعة**) المعتبرة التامة الكاملة تحصل بالجود، وهو العطاء ابتداء قبل السؤال، فعلامة القناعة هو الجود، فيحتمل أن يكون المراد أن القناعة تجود بمالك أو إنما تحصل بسببه.

---

(١) تقدم تخريجه.

والأمر الثالث منها (**الوقوف على الحدود**)، وأن لا يتجاوز عنها، فلا يخرج عمَّا حدده الله له على لسان رسوله من الأحكام الشرعيَّة والعقليَّة والعاديَّة قال النبي ﷺ: «**رحم الله امرئ عرف قدره ولم يتعد طوره**[١]»

والأمر الرابع منها (**الوفاء بالعهود**) أي: عهود الرسول ﷺ العامة والخاصة لتبادر الإطلاق من لفظ العهود، وكذا عهده أي: عهد كل أحدٍ مع غيره، والمراد عدم نقض المواثيق قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ**﴾ [البقرة:٢٧].

وقال أيضًا: ﴿**وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ**﴾ [النساء:١٤٦]، وألقى الشيخ الكامل عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرّه تأليفًا في العهود العامة، وتأليفًا في العهود الخاصة، فعليك بمراجعتها إن أردت تفصيل العهودين.

والأمر الخامس منها: (**الصبر وحبس النفس على المفقود**)، فيصبر على ما فقده، ولا يتشكى فيه إلى غير الله، وأمَّا الشكوى إلى الله، والطلب منه فليس شكوى ولا طلبًا أي: مذمومًا شرعًا وورعًا، لكن عنده صاحب المقام دون صاحب الحال؛ إذ عنده ما سوى الله تعالى مذموم.

(**قلت**): قولاً عن حال لا عن عِلم وسماع.

١- ورأيت العزَّ في الزهد.

بدليل قوله: (**ورأيت وشاهدت**) أي: ذقت (**العز**) مع أن العزة لله جميعًا (**في الزهد**)؛ لأنه خير كله على ما في الحديث فأي عزٍّ في ذلِّ المأسوي، وأي ذلٍّ في التحرز عنه والبقاء مع المولى، وهذا العز الذي هو في الزهد هو المشترك بين الله ورسوله والمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون:٨]، فالآية الأولى مقام جمعي صرف، وهذه الآية مقام فرق بعد جمع.

٢- والغنى في الفقر.

ورأيت (**الغنى**) وعدم الاحتياج (**في الفقر**)، وعدم الرؤية في الدارين أحدًا غير الله،

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (٧٩/١٠)، والمناوي في فيض القدير (٢٩/٤) بنحوه.

ومتى التفت ورأى شيئًا غيره تعالى فهو محتاج إليه وليس بغني عنه.

٣- والقناعة في الورع.

ورأيت (**القناعة**) وذقتها في (**الورع**) فمن لم يكن وارعًا لم يكن قانعًا، فإذا رضي أن لا يبقى عنده إلا ما يحتاج وقت ما يحتاج فهو من القانعين.

٤- والفرج في الصبر.

ورأيت (**الفرج**) وكشف الغم من فرَّج الله غمه كشفه، ويجوز هنا في المعنى بالحاء المهملة بمعنى السرور والبطر وكلاهما بفتح الراء (**في الصبر**)، وترك الجزع والشكوى إلى غير الله؛ لأنه نصف الدين وبه يقوى اليقين، كما في الحديث وفيه: «**من صبر ظفر**[1]»، والظافر بالمطلوب مفرج الغموم والكروب.

٥- والرزق في التوكل.

ورأيت (**الرزق**) الذي قسم الله له وهو الذي تقوم به نشأته، وتدوم به قوَّته لا الذي جمعه وادَّخره، فإنه قد يكون لغيره وحسابه عليه (**في التوكل**) على خالقه؛ لأن الله تعالى يرزق البار والفاجر والمكلف وغيره، فلا بد أن يوصل لكلِّ مخلوق رزقه.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ [هود:٦] إلا أن لله تعالى اعتناء بعبده بتقسيم الحلال الذي لا شبهة فيه له.

٦- والحق في الصدق.

ورأيت (**الحق**) المقابل للباطل (**في الصدق**) مع الله تعالى في جميع الحركات بأن يتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، فالعبد ما لم يتبرأ لا يكون صادقًا بل مدَّعيًا كذَّابًا إذ يدَّعي ما لغيره لنفسه، فلا يوجد عنده إلا الباطل.

٧- والدين في التقوى.

ورأيت (**الدين**) الذي هو الإسلام قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾

---

(١) لم أقف عليه.

[آل عمران:١٩]، والمقصود الدين الكامل، وهو بالإيمان الكامل والتقوى كذلك، وصاحب هذا الدين هو ولي الله حقًا، وتخصيص التقوى بالذكر حيث قال: في التقوى، وما قال: في الإيمان والتقوى؛ لأن الثاني مستلزم للأول دون العكس، فلا حاجة إلى ذكر الإيمان، فمن شهد أن الله تعالى هو الذي وقاه جميع ما اتقاه من أعمال الشرك، وأن نفسه عاجزة عن عدم الوقوع فيما لا يرضي ربه فهو(**متقي**) حق تقاته وصاحب الدين، ويشير إلى هذا حديث: «**المسلم من سلم المسلمون من يده**[١]» ولسانه وسلامتهم منه بالتقوى لا غير.

٨- والراحة في العزلة.

ورأيت (**الراحة**) الكاملة التي لا تكون مشوبة بتعب ولا مشقة لا عاجلاً ولا آجلاً (**في العزلة**) التامة التي هي إحدى أمهات الخير المتضمنة للخير كله، وهي السهر والجوع والصمت والعزلة اثنان فاعلان، وهما الثاني والأخير، واثنان منفعلان وهما الأول والثالث، والعزلة التامة هي أن تكون في حسه بأن يلازم بيته أو السواحل والجبال أو الصحاري المفازات بالسياحة فيها، وفي حاله أيضًا بأن يبعد ويخرج عن كلّ صفة ذميمة، وأخلاق دنيَّة وبقلبه أيضًا فيقمعه عن التعلق بما سوى الله، فلا يتعلق قلبه إلا بالله، فعلى قدرها تكون الراحة كمالاً ونقصًا.

٩- والهدى في المجاهدة.

ورأيت (**الهدى**) الذي هو النور المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾ [الأنعام:١٢٢]، وهو العلم اللدني الذي به الحياة والبقاء الأبدي.

(**في المجاهدة**) أي: العلم والعمل قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت:٦٩].

وقال النبي ﷺ: « **من عمل بما عَلِمَ ورثه الله علم ما لم يعلم**[٢]» وهو الهداية.

---

(١) رواه البخاري (١/١٢)، ومسلم في الصحيح (١/٦٥)، والترمذي (٥/١٦).

(٢) تقدَّم تخريجه.

وقال بعض الأكابر: من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمه والهدى عند أهل الحق أن يهتدي الإنسان إلى الحيرة المحمودة الحاصلة من شهود التجليات وتتابع بوارق أنوار الذات.

وقال النبي ﷺ: « **رب زدني تحيرا**(١)» أي: هداية وعلمًا(٢).

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) قال الشيخ الشعراني: الحيرة في الله من كمال المعرفة به، وهي سارية في العالم النُّوريِّ والنَّاريِّ والترابيِّ، لأن العالَم ما ظهر إلا على ما هو عليه من العلم الإلهيِّ، وما هو في العلم الإلهيِّ لا يتبدَّل، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] الآية.

فما فُطر العالَم إلا على الحيرة، وذلك لأن المرتبة الإلهية تنفي بذاتها التقييد عنها، والقوابل تنفي الإطلاق عنها، ولا تشهد إلا صورتها من التقييد.

فهذا هو سبب شدة الحيرة في الوجود، ولا أحد أشدَّ حيرة في الله من العلماء به، ولهذا ورد أنه ﷺ كان يقول: «**زِدْنِي اللَّهُمَّ فِيكَ تَحَيُّرًا**»، ومع ذلك فأعلى ما يصل إليه العلماء بالله تعالى من طريق نظرهم مبتدأ البهائم؛ لأنها كغيرها مفطورةٌ على الحيرة في الله ﷻ، والإنسان يريد أن يخرج بما أعطاه الله تعالى من العقل والرؤية وإمعان النظر عن الحيرة التي فُطر عليها، فلا يصحُّ له ذلك.

وعلى هذا الذي قررناه الإشارة بقوله تعالى في حقِّ قوم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

فإن التشبيه بالأنعام إنما هو في الحيرة لا في المحار فيه، فليس ذلك نقصًا في الأنعام، وقوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾: أي طريقًا لأنهم زادوا على ضلال البهائم وحيرتهم في الله، والحيرة عَمًى بلا شكٍّ.

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢]، أعني جاهلاً بالذات، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، كما هو في الدنيا.

ولذلك كان العارف المحقق عمرو بن عثمان المكي يقول في صفة العارفين: وكما هم اليوم يكونون غدًا، فَعُلِمَ أن من طلب معرفة الذات من طريق الفكر والنظر كان مآله إلى الحيرة، كما أن من طلب الواحد في عينه لم يحصل إلا على الحيرة، فإنه لا يقدر على الانفكاك من الجمع والكثرة في الطالب والمطلوب، وكيف يقدر على ذلك، وهو يحكم على نفسه بأنه طالبٌ، وعلى نفسه بأنه مطلوبٌ، ومقام الواحد يتعالى أن يحلَّ في شيء، أو يحلَّ فيه شيءٌ؛ لأن الحقائق لا تتغير عن ذاتها؛ إذ لو تغيرت لتغير الواحد في نفسه، وتغيير الحق في نفسه وتغيير الحقائق محالٌ.

واعلم أن حيرة أهل الكشف والشهود أعظم من حيرة أصحاب النظر في الأدلة؛ لاختلاف الصورة عليهم عند الشهود.

فإن أصحاب النظر والفكر ما برحوا بأفكارهم في الأكوان، فلهم أن يحاروا ويعجزوا، وهؤلاء ارتفعوا
=

عن الأكوان، وما بقي لهم شهودٌ إلا فيه، فهو مشهودهم، فكانت حيرتهم باختلاف التجليات أشد من حيرة النُظّار في معارضات الدلالات، وفي الحقيقة ما في الوجود إلا الله.

ولا يعرف الله إلا الله، فمن وصل إلى الحيرة من المقربين فقد وصل، والسلام.

وسمعت شيخنا ﷺ **يقول**: العلماء بالله على أربعة أصناف:

صنف: ما لهم علمٌ بالله إلا من طريق النظر الفكري، وهم القائلون بالسلوب.

وصنف: ما لهم علمٌ بالله إلا من طريق التجلي، وهم القائلون بالثبوت والحدود التابعة للصورة.

وصنف: يحدث لهم علمٌ بالله بين الشهود والنظر، فلا يبقون مع الصورة في التجلي، ولا يصلون إلى معرفة هذه الذات الظاهرة بهذه الصورة في أعين الناظرين.

وصنف: ليس واحدٌ من هؤلاء الثلاثة، ولا يخرج عن جميعهم، وهو الذي يعلم أن الله تعالى قابلٌ لكل معتقد في العالم، من حيث أنه عين الوجود، وهذا القسم ينقسم إلى صنفين:

صنفٌ يقول: عين الحق هو المتجلي في صور الممكنات.

وصنفٌ يقول: أحكام الممكنات، وهم الصور الظاهرة في عين الوجود الحق، وكلٌّ قال ما هو الأمر عليه، ومن هنا فشت الحيرة في المتحيِّرين، وهي عين الهدي في كل حائر، فمن وقف مع الحيرة حار، ومن وقف مع كون الحيرة هدًى وصل، ومن وصل لا يرجع، لأن من المحال الرجوع بعد كشف الحجاب إلى الحجاب؛ إذ المعلوم لا يجهله العالم بعد تعلق العلم به.

ومرادنا بالوصول الوصول إلى السعادة الدائمة.

وهو معنى قوله: «**فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه وبصرَه**» الحديث.

وأنشدوا في ذلك:

وكـل حب عُلِمَ لـه بدءٌ ويحققه علمي ... سـوى حـبِّ ربٍّ مـا لـه ثـاني
وغايـةُ الحـبِّ فـي الإنسـانِ وصـلتُهُ ... روحٌ بـروحٍ وجـثمانٌ بجـثمَانِ
وغايـةُ الوصـلِ بالـرحمنِ زندقـةٌ ... فـإنْ إحسـانَه جـزاءُ إحسـانِ
إنْ لـمْ أصـوِّرْه لم تعـلمْ بمـا كُلِّفتَ ... نفسـي وتصـويره ردٌّ لـبرهاني

وأنشدوا أيضًا في نحو ذلك:

الله الله لا عقـل يُصَـوِّرُهُ ... والوهـم يُعـيدُهُ في صـورة البشـرِ
والشـرع يُطلقُـهُ وقـتًا ويحصـرُهُ ... والكـون يُثبِـتُهُ فـي سـائرِ الصـورِ
إنْ قـالَ كُـنْ فـلمن والعـينُ واحدةٌ ... بـل عـينُ كنْ لم تكن إن كنتَ ذَا بصرِ

وأنشدوا أيضًا في حيرة العقول:

فلـو رأيـتَ الـذي رأيـنَا ... مـا قلـتَ إلا أنـا هـو أنـتَا
قـد أثبـتَ الشـيءَ قـولَ ربِّـي ... لـو لم يَكُـن ذاك مـا وجَدتَـا

فالعدمُ المحضُ ليس فيه ... ثبوتُ عينٍ فقُلْ صدقتَا
لو لم تكنْ ثَمَّ يا حبيبي ... إذ قال كُن لم تَكُن سَمِعتَا
فأيُّ شيءٍ قبلتَ منه ... الكونَ أو كون أنتَ أنتَا

وأنشدوا أيضًا:

عجبي من قائلٍ كُن لعدمٍ ... والذي قِيلَ له لم يَكُ ثَمّ
ثم إن كان فَلِمَ قِيلَ له ... لِيَكُن والكون ما لا ينقسَمْ
فلقد أبطلَ كُن قدرةَ من ... دلَّ بالعقلِ عليها وحكَمْ
كيفَ للعقلِ دليلٌ والذي ... قد بَنَاهُ العقلُ بالكشفِ انهدَمْ
فنجاةُ النفس في الشرعِ فلا ... تَكُ إنسانَ رأى ثم حزَمْ

فَعُلِمَ أن من أعظم غلطات أهل النظر طلبهم الخروج عن الحيرة بالخلوة والرياضة، وذلك لا يكون لهم أبدًا، لأن التجرد عن المواد يُعقل ولا يُشهد، ولا يُسلم لهم عقلٌ من حكمٍ ولا خيالٍ؛ لأن كل ما سوى الله حقيقته الإمكان، والشيء لا يزول عن حكم نفسه، ولا يتعقل إلا ما كان على صورته، تعالى الله عن ذلك.

وأنشدوا في الحيرة أيضًا:

لستُ أنا ولستُ هو فمَن أنا ... ومَن هُوَ هُوَ فيا هو هل أنتَ أنَا
ويا أنا هل أنتَ هو لا وأنا ... ما هو أنا ولا هو هو ما هو هو
لو كانَ هو ما نَظَرَت أبصارنا به له ... ما في الوجود غيرنا أصلا أنا وهُوَ هُوَ

وكان شيخنا ﷺ يقول:

من الرجال من زالت عنه الحَيرة في الله ﷻ. فقلت له: كيف ذاك؟ فقال: إذا تجلى الله تعالى للقلب في غير عالم المواد زالت الحيرة، وعلم من الله على قدر ذلك التجلي من غير تعيين؛ إذ لا يقدر أحدٌ على تعيين ما قد تجلّى له إلا كونه تجلى في غير مادةٍ لا غير، ثم إذا رجع من هذا التحلي إلى عالم المواد صحبه تخيل تجلي الحق تعالى.

فما من حضرة يدخلها إلا ويعرف الله تعالى في تجليها؛ لأنه قد ضبط من معرفته أولاً ما ضبط، فيَعلَم أن التجلي قد تحوَّل في أمرٍ آخر، فلا يجهله بعد ذلك أبدًا، ولا ينحجب عنه، فإن الحق تعالى ما تجلى لأحد هذا التجلي، فانحجب عنه بعد ذلك أبدًا.

فإذا نزل العبد إلى عالم خياله وقد عرف الأمور على ما هي عليه مشاهدةً بعد أن عرفها قبل ذلك علمًا وإيمانًا رأى الحق تعالى في صورة الخيال مقيَّدًا فلم ينكره، لكن لا يسعه إلا السكوت، لأنه حينئذٍ يرى أن لا معلوم إلا الله، وإذا كان لا معلوم إلا الله فلا يدري أحدٌ ما يقول! ولا كيف ينسب

وقال الله تعالى أمرًا إليه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤] أي: تحيرًا.

١٠- الفناء في المشاهدة.

ورأيت (**الفناء**) باضمحلال الخلقيَّة في الحقيَّة، وتبدل الصفات البشرية بالصفات الحقيَّة (**في المشاهدة**)، وهي ما يطلق بإزاء حقيقة اليقين من غير شك، أو المراد رفع الحجاب وظهور الحق والمال واحدًا، والأول أتمّ من الثاني.

١١- والمحبَّة في المتابعة.

ورأيت (**المحبَّة**) اللام عوض عن المضاف إليه أي: محبة الله، وهذه الإضافة يحتمل أن تكون من إضافة المصدر إلى المفعول، وأن تكون إلى الفاعل، وعند الحقيقة المعاني المحتملة كلها مراده، فالمعنى ورأيت محبة العبد لله ورسوله، ومحبة الله والرسول للعبد (**في المتابعة**) للرسول ﷺ قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فمن أراد المحبَّة وطمع فيها فليلزم المتابعة.

١٢- والبركة في الحلال.

ورأيت (**البركة**) والزيادة والخير (**في الحلال**)، وهو ما يأتيك قليلاً قال الله تعالى:﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [هود:٨٦] أي: ما أحلّ لكم تناوله من الشيء الذي تقومون به على طاعة ربكم هكذا فسَّره المؤلف قدس سره في فتوحات.

١٣- والنور في العبادة.

ورأيت (**النور**) وإشراقه (**في العبادة**) المراد ما يعمُّ العبودية أيضًا، فمن لا عبادة له لانور له ظاهرًا، وهذا مشاهد في الخلق.

١٤- والسر في الكتمان.

=

الأمور!وأنشدوا في تجلي عالم المواد:

مَــــنْ قــــالَ يعــــلمُ أنَّ الله خالقُــــهُ ... ولم يَحُــر كــان بــرهانًا بــأن جهــلا

العجـــزُ عـــنْ دركِ الإدراكِ معـــرفةٌ ... كــذا هــو الحكــم فــيه عند مَن عَقِلاَ

وانظر: الميزان الذرية (ص٧٣) بتحقيقنا.

ورأيت (**السّر**) أي: ما ينبغي أن يكون مستورًا في الخلق ويلزم من ظهوره فساد كيف ما كان (**في الكتمان**) والسر والخفي فيحتمل أن يكون المراد السر لا يوجد إلا في الكتمان، فمن لم يقدر على الكتم لا يكون صاحب السر، ويحتمل أن يكون المراد أن السر سر ما دام في الكتمان، فإذا خرج عن الكتمان يخرج عن السرية.

١٥- والسعادة في العناية.

ورأيت (**السعادة**) الأبدية (**في العناية**) الأزليّة، فمن كانت معه سابقة العناية فهو في سعد إلى يوم القيامة، فالسعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه، فلا يأتيه إلا ما هو منه لا من خارج.

قال المؤلف قُدّس سرّه في (فصوص الحِكَم): «فما في أحدٍ من الله شيء، ولا في أحد من سوى نفسه شيء» يعني: أن الله تعالى يظهر ما كان مستورًا موجودًا فيه بالقوة، ولا يظهر إلا هذا، وذلك إنما هو باعتبار الفيض المقدس الحاصل به الموجودات العينية، وأمّا باعتبار الفيض الأقدس الحاصل به الموجودات العلمية، فالأمر كله منها ابتداؤه ومنه انتهاؤه هذا، ولا تغفل حتى لا تقع في الفساد فتهلك، نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين.

١٦- والرفق في المعيشة.

ورأيت (**الرِّفق**) بكسر الراء اللطف، وما استعين به وإرادة كل منهما صحيحة؛ لأن الرفق بالمعنيين يتحقق (**في المعيشة**) بمعنى الحياة، أو ما يعيش به من المطعم والمشرب، وما يكون به الحياة، ويقال: لما يعيش فيه والكل صحيح، والأول أنسب بالمقام؛ لأنه الأساس، وليس البرهان كالقياس.

١٧- والحلم في القدرة.

ورأيت (**الحلم**) والرفق بالغير أو بالنفس سواء كان حلم العوام وهو العفو عن الجاني مع إضمار الحقد في الباطن، أو حلم الخاص وهو العفو من غير الإضمار، أو حلم أخص الخاص وهو العفو بضم البر والإحسان إليه، وهو غاية الكرم (**في القدرة**) على أمر الغضب، فمن كانت له قدرة على الانتقام فعفوه أكثر ممن به العجز، ولا يقدر على الانتقام، فعلى قدر القدرة يكون الحلم، ولهذا حِلم الله أكثر وأعمُّ لعموم قدرته وحِلم

الوزراء والسلاطين أكثر ممن تحتهم؛ لأنهم أقدر منهم، فالعاجز لا حلم له؛ لأنه لا قدرة له، وأيضًا الحلم يوجد في القدرة بمعنى إذا قدر العبد على الانتقام، وما انتقم بل عفى فهو حليم؛ لأنه عفى عن مقدوره، وأمَّا العفو من غير الاقتدار على الانتقام فهو ليس بحلم.

١٨- والوفاء في الموثق.

ورأيت (**الوفاء**) من وفا بالعهد وفاء ضد غدر، وليس مِن وفي الشيء وفيا كصلّى بمعنى تمّ وكبّر؛ لأنه غير مقصود لي العبد أي: في رعاية الحرمة والأمان، فلا وفاء لمن لا يرعيهما، أو المراد بالعهد الموثق باليمين، وحقًّا يكون المعنى ورأيت الوفاء حصوله وظهوره (**في الموثق**) والإيمان فمن عاهد أحدًا يظهر وفاءه معه في هذا العهد، وفي غير العهد لا يعلم إنه من أهل الوفاء أو من أهل الغدر والمكر.

١٩- والود في المحبة.

ورأيت (**الود**) والحب (**في المحبَّة**) والمعاشرة، فعلى قدر الصحبة تكون المحبَّة، ومن لا صحبة له مع أحد لا ودّ له معه، فالعبد إذا علم أن الحق هو صاحبه يوده، وإذا علم أن المصاحب غيره قيود بالغير دونه، فعليك بمصاحبة العلماء والصالحين حتى يحصل لك ودهم، ومن ودهم يكون ودَّ الرسول ﷺ ومَن ودَّ الرسول يلزم ودّ ما هو المطلب الأعلى والمأمول.

٢٠- و الرزق في التواضع.

ورأيت (**الرزق**) وعلو القدر عند الخلق (**في التواضع**) مع الخلق، وقد مرَّ في الاقتباسات الإلهامية (من اتضع ارتفع، ومن فار غار)، ويلزم منه أن الانكسار في التكبر فكل من يتكبر يتكسر، وكل من يتواضع يترفع.

٢١- والشرف في العلم.

ورأيت (**الشرف**) والعز (**في العلم**) لحيازته الكمال، وإن به الحياة والبقاء الأبدي بخلاف الجهل، فإنه منه الموت والعدم، والعلم نور، والجهل ظلمة، والعالم حي، والجاهل ميت قال الله تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام:١٢٢].

٢٢- والحكمة في الصمت.

ورأيت (**الحِكَمة**) الإلهية (**في الصمت**) بأن لا يتكلم مع مخلوق إلا بما كان فرضًا عليه ولا مع نفسه بأن لا يُحدث نفسه بشيء مما يرجو تحصيله ولو من الله، فالحكمة الكاملة لا توجد إلا في الصمت، ولهذا من أعطاه العلم بالمراتب والتميز بينها السكوت أعلى عالم بالله ومراتب تجلياته ممن يقول: بالعجز ويعترف به لعدم تميزه بين المراتب في عين علمه بها فيقول: العجز عن درك الإدراك إدراك.

وفي الحديث: «**من صمت نجا**[1]»، ولا نجاة لغير الحكيم، فلا حكيم إلا الصامت، وإنما الحكمة له لا لغيره إلا تبعًا، فالذي أعطاه العلم السكوت والصمت أصالة هو خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ويمكن أن يكون المعنى أن الحِكَمة لا توجد إلا في الصمت ولا يوصف بها إلا الصامت.

٢٣- والصحة في الحمية.

ورأيت (**الصحة**)، وسلامة البدن (**في الحمية**) والاجتناب عما يضره.

قال النبي ﷺ: «**الحمية رأس كل دواء فلا يؤثر دواء من غير حمية**[2]» كما لا يمكن تحريك شيء من الجسم من غير رأس.

٢٤- والكشف في الجوع.

ورأيت (**الكشف**)، ومعرفة الأمور على ما هي عليه (**في الجوع**) الممدوح، وهو جوع العوائد لا المذموم المذكور في الحديث: «**بئس الضجيع الجوع**[3]»، وهو جوع الطبيعة، بل الخير كله في الجوع كما أن الشرّ كله (في الشبع)، وقد مرَّ تفصيله في الحِكَم في شرح قوله: (الخير كله مجموع في غيب خزائن الجوع).

---

(١) رواه ابن حنبل في المسند (٢/١٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٥٤)، وذكره المناوي في فيض القدير (٦/١٧١).

(٢) ذكره القرطبي في التفسير (٧/١٦٧)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/١٣١٧).

(٣) تقدم.

٢٥- والمراقبة في السهر.

ورأيت (**المراقبة**) الكاملة (**في السهر**) الدائم، والناقصة في الغير الدائم، فلا مراقبة للنائم لانتقاله إلى عالم البرزخ، فلا يزيد مما نام عليه، فيفوته خير كثير مما لا يكون له إلا في حال السهر، وأمّا السهر ففيه التيقظ للاشتغال مع الله، وإذا دام السهر سرى إلى عين القلب فتنجلي عين البصيرة بذكر الله، فيرى من الخير ما شاء الله، والموجب له الجوع؛ إذ به تقل الرطوبات والأبخرة الجالبة للنوم لا سيما شرب الماء فإنه نوم كله.

٢٦- والغفلة في الكسل.

ورأيت(**الغفلة**) عن الله تعالى (**في الكسل**)، والتشاغل عن طاعته تعالى والفتور في خدمته تعالى، فمن خدم أحدًا لا يغفل عنه حين يخدمه.

قال الله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ [الماعون:٤،٥].

قال: بعض المفسرين أي: متكاسلون فمَن كان في الحضور فما به كسل ولا فتور، فمن تثاقل عن طاعة الله وخدمته يقع في جنابه الغفلة، فيحرم عليه الدخول في الحضرة.

٢٧- والربح في المسامحة.

ورأيت (**الربح**) والفائدة العظيمة (**في المسامحة**) والمساهلة مع خلق الله، والجود والعطاء إليهم قال الله تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾، فأي تجارة تكون أحسن من أن يربح فيها بكلّ درهم عشرة دراهم.

٢٨- والخوف في القلب.

ورأيت (**الخوف**) من الله وعذابه (**في القلب**)، فإنه معدن الإيمان ومقره، والخوف من الإيمان.

وإلى هذا تشير الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق:٣٧]، فأهل القلوب هم الخائفون حقيقة، والخوف يكون على قدر العلم، فمن كان علمه بالله كثيرًا يكون خوفه كثيرًا، ومن كان قليلاً يكون قليلاً.

٢٩- واللطف في المعاشرة.

ورأيت (**اللطف**) والرفق بعباد الله (**في المعاشرة**) معهم والمخالطة لهم؛ إذ لا يتأتى اللطف إلا من القريب المجاور لك لا البعيد عنك، فكيف بالأجنبي؟ فمن يعتزل من الناس لا يلاطف أحدًا، ولا يلطف به أحد، والمراد بالمعاشرة الاجتماع الدائم كمعاشرة الزوجة زوجها أو ولدها، فالعبد إذا عاشر ربه ولازمه يرى البتة لطفه وإحسانه، ويوصل إليه المنافع برفق ولطف.

٣٠- والموافقة في الصحبة.

ورأيت (**الموافقة**) المطلوبة من الخلق التي هي ضد المخالفة المطلوبة عنهم (**في الصحبة**) والملازمة والمعاشرة والمخالفة في عدمها، فمن صاحب أحدًا لا يخالفه، بل يوافقه بخلاف من هاجره، فإنه لا يوافقه وإن لم يخالفه.

٣١- والاعتبار في الافتكار.

ورأيت (**الاعتبار**) الذي أمر به أولي الأبصار في قوله تعالى: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [الحشر:٢] (**في الافتكار**) في نعم الجليل الواحد القهار، وقد مرَّ سابقًا أنه (من افتكر اعتبر).

٣٢- والتوبة في اليقظة.

ورأيت (**التوبة**) الصادقة النصوحة (**في اليقظة**)، والحضور مع الله تعالى في كل حال بأن يخرج من الوهم والخيال، فحقًا يكون يقظانًا، فلا يقظان إلا أهل الحق، فهم التائبون بالصدق والإخلاص والناس مما سواهم بالناس كلهم نيام، فلا يكون لهم بالتوبة النيام لما عملوه وأحدثوه في نفوسهم من جرائح الذنوب والآثام.

٣٣- والعلم في التواضع.

ورأيت (**العلم**) النافع الوهبي واللدني (**في التواضع**) والانكسار.

٣٤- والكرم في الجود.

ورأيت (**الكرم**) وهو العطاء بعد السؤال وعن طيب نفس لا عن حياء بخلاف

السخاء، فإنه العطاء بقدر ما يحتاج إليه المعطى إليه، فالكرم بالمعنى المذكور يتحقق: (**في الجود**) الذي هو العطاء قبل السؤال؛ لأنه الذي يكون عن تخلق إلهي وطلب مقام رباني، والكرم من الأخلاق الإلهية، فافهم.

٣٥- والرحمة في التودد.

ورأيت (**الرحمة**) الإلهية (**في التودّد**) مع الحق تعالى بالاجتناب عن المخالفة والسلوك في طريق الموافقة، وأيضًا الرحمة من العبد بغيره إنما تكون من التودُّد في حالة الغضب يطلب الانتقام وينتقم عبدًا كان أو ربًا، كما قال قدس سره.

٣٦- والانتقام في الغضب.

ورأيت (**الانتقام**) وأخذ الحق منه والمعاقبة والمكافآت والكراهة (**في الغضب**)، فمن الغضب تكون المعاقبة والمكافأت، فعليك بالاحتراز عما فيه السخط إمّا من الحق أو الخلق.

٣٧- الابتلاء في المحبة.

ورأيت (**الابتلاء**) واختبار الحق لعبده (**في المحبة**) أي: محبة العبد للرب أو بالعكس؛ لأن المحبَّة أمر نسبي يقتضي المنتسبين، فمن دخل في وادي المحبة يكون مبتلي على قدر المحبة، فابتلاء الأنبياء أشد من ابتلاء الأولياء؛ لأن محبتهم أكثر، وهكذا الأمثال فالأمثال كما ورد: « **إن البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثال فالأمثال**[1] »

٣٨- والخشوع في البكاء.

ورأيت (**الخشوع**) يعني الخضوع وهو قريب من الخضوع وهو في الصوت والبصر والخضوع في البدن، أو المراد هنا السكون والتذلل وهو أنسب.

(**في البكاء**) خوفًا من الحق تعالى واعترافًا بالعجز والتقصير، فالباكي خاشع وساكن وذليل، وبه يرفع قدره عند الرب الجليل.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/١٤٣).

٣٩- والقريب في النوافل.

ورأيت (**القريب**) إلى الحق تعالى (**في النوافل**) كما ورد في الحديث القدسي: « **لا يزال العبد يقترب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعه وبصرًا ويدًا ولسانًا ورجلاً بي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي ينطق، وبي يمشي**[(١)]»، والمراد القرب الصفاتي؛ لأن القرب الذاتي في الفرائض، والقرب الصفاتي هو أن يكون الحق باطنًا والعبد ظاهرًا، والعبد فاعلاً ومدركًا، والحق ألة له كما في الحديث المذكور، فإن العبد هو الذي يسمع لكن بسمع الله، وهو الذي يبصر لكن ببصر الله، وهكذا في البواقي مما ذكر في الحديث، والقرب الذاتي الذي في الفرائض، هو أن يكون الحق تعالى ظاهرًا أو العبد باطنًا، ويكون هو تعالى فاعلاً ومدركًا والعبد ألة كما في الحديث ﷺ: «**إن الحق لينطق على لسان عمر**[(٢)]».

وقال أيضًا: إن الله تعالى قال على لسان نبيه أو عبده: «**سمع الله لمن حمد**[(٣)]».

وإلى هذين المقامين أشار الشيخ قُدِّس سرَّه في أول فص حِكمة إحسانية في كلمة لقمانية وأنشد:

وَإن شَــاءَ الإلــه يُــرِيدُ رِزقَــا   لَــنَا فهــو الغِــذَاءُ كَمَــا يَشَــاءُ
إذا شَــاءَ الإلَــه يُــرِيدُ رِزقَــا   لَــه فَــالكون أَجْمَعــه غِــذَاء

فالبيت إشارة إلى قرب الفرائض، والثاني إشارة إلى قرب النوافل، ففي قُرب الفرائض يكون الكون كله غذاء للحق؛ لأنه لا يظهر من حيث الأسماء والصفات في الأعيان إلا بالأعيان كما أن ذات المتغذي لا ينمو إلا بالغذاء، فالظهور بمنزلة النماء وفي قرب النوافل، فالحق غذاء؛ لأنه تعالى أوجد الموجودات، وليس إيجاده إياها إلا الاختفاء بصورها، فهو تعالى مختفي بصورة الموجودات كاختفاء الغذاء بصورة المتغذي، وفوق هذين القربين هو أن يجمع بينهما، ويسمونه مقام الكمال، وجمع الجمع، ومرتبة قاب قوسين.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره الكلاباذي في التعرف لمذهب التصوف (١/٢٤).

(٣) رواه البخاري (١/٢٤٤)، ومسلم (١/٢٩٣)، وأبو داود (١/٢٥٣)، ولترمذي (٢/٥٥).

وفي هذا المقام قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

وفيه أيضًا حديث الرسولﷺ: « **هذه يد الله، وهذه يد عثمان**[١]»، وفوق هذا مقام يسمَّى أحادية الجمع ومقام أو أدنى، ولا يقف صاحب هذا المقام عند وجه من الوجوه فيظهر بكل من القربيين وبالجمع بينهما من غير تقيد بشيءٍ من المذكورات، وهذا المقام لخاتم الرسل وخاص به أصالة، ويكون للكُمَّل حظ ونصيب منه بالوراثة وكمال المتابعة، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]، فنفى ما أثبت وأثبت ما نفى بما فعلت فعلاً ولا عملت عملاً حقيقة حيث فعلت وعملت صورة، ولذا يتخيل بالوهم الكاذب إنك فعلت وعملت والأمر في نفسه ليس على هذا.

واعلم أن ما ذكره الشيخ من المعاني الظرف والمظروف كلاهما متلازمان متساويان يوجد كل من الصاحبين في الآخر؛ لأنه كما يكون العزُّ في الزهد، والغناء في الفقر إلى آخره ما ذكره قُدِّس سرُّه كذلك يكون بالعكس أي: الزهد في العز، والفقر في الغنى، والورع في القناعة إلى آخر ما ذكره، فبين كلٍّ واحدٍ من المعنيين التلازم بالمساواة كما في طلوع الشمس وإضاءة العالم، فيجوز أن نجعل كلا منهم علة والآخر معلولاً، فكلما تطلع الشمس يضيء العالم، وكلما يضيء العالم تطلع الشمس.

و(**الحمد**) أي: الحقيقة المطلقة الشاملة كل حامدية ومحمودية، وهي إظهار كمال المحمود خالص (**لله**) أي: الذات المطلقة عن قيد الإطلاق والتجريد؛ لأنه لا كمال جمعًا وفرقًا إلا له، ولا مظهر للكمال جمعًا وفرقًا إلا هو، فلا حامدًا سواه، ولا يُحمد أحد إلا إياه، فله الحامدية في كلّ رتبة، والمحمودية لكلّ فضيلة ومنقبة على التوفيق لإتمام هذا الكتاب حال كونه (**وحده**) أي: منفردًا بالكمال والفضائل والأفضال، وصلى الله تعالى، وأفاض رحمته بالتجليات على سيدنا أشرف المخلوقات، وأفضل الكائنات هو أو صفته محمد اسمه في الأرض، ومحمود تحت الثرى، وأحمد في السماء الذي هو كريم من الكريم، وقال في حقه رب العرش العظيم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

---

(١) رواه النسائي (٦/٢٣٦)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (٥/٤٠٨).

(وصلى الله)، وأفاض الرحمة **(على آله)** الذين يؤل إليهم أمره ﷺ ومواريثه العلمية والحالية والمقامية، وأفاض تعالى الرحمة التجلية على أصحابه الذين هم كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم، **(وسلّم)** هو والآل والأصحاب عن سطوات التجليات الجلالية، وحققهم يا مولانا باسمك السلام لتكميل التحقيق بحقائق المرتبة الاعتدالية باسمك سبحانك، وبمحمد نبيك، وبعبد القادر الكيلاني وليك.

كَمُلَ الشرح على يد الحقير عبدُك: يوم الإثنين السادس عشر رمضان المبارك بين الصلاوتين سنة ١١٤٥ من الهجرة النبوية عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.

والحمد لله رب العالمين تــمَّت على يد العبد الفقير إلى سيده المنان:

عبد الرحمن بن محمد العطار غفر الله لهما والمسلمين نهار الثلاثاء ضحوة النهار خامس عشر جمادى الثاني سنة ألف ومائة وسبعة وأربعين.

والحمد لله رب العالمين

فهرس